إيزابيل إبرهارت

كتابات على الرمال

(نصوص وملاحظات ويوميّات)

مكتبة

الأعمال الكاملة

I

ترجمة: عبدالسلام الموذني

مراجعة: صالح الأشمر

منشورات الجمل

لا يُسمح بتداول وقراءة هذه النسخة من الكتاب
لعملاء الاحتلال وأذنابه من سلطة التنسيق الأمني

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

telegram @soramnqraa

مكتبة 31 3 2025
t.me/soramnqraa

ولدت إيزابيل إبرهارت سنة ١٨٧٧ في جنيف من أم متحدرة من الطبقة الأرستقراطية الروسية، ومن أب بهوية أثير حولها جدال كبير. وكان اكتشافها لإفريقيا وهي في سن العشرين قاسياً ونهائياً. توفيت سنة ١٩٠٤ غرقاً في فيضان واد صفرا. وعلى امتداد سبع سنوات سجلت كل يوم اكتشافاتها ووهجها وسرد تيهها، وغالباً باسم رجل ولباسه.

إيزابيل إبرهارت: الأعمال الكاملة I: كتابات على الرمال، الطبعة الأولى
أعدّه وعلّق عليه وقدّم له: ماري أوديل دولاكور و جون روني إيلو
تمهيد: إيدموند شارل رو
ترجمة: عبدالسلام الموذني ومراجعة: صالح الاشمر
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Isabelle Eberhardt: *Œuvres Complètes I: Écrits sur le sable*

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إيزابيل إبرهارت

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأعمال الكاملة

I

كتابات على الرّمال

(نصوص وملاحظات ويوميّات)

أعدّه وعلّق عليه وقدّم له
ماري أوديل دولاكور و جون روني إيلو

تمهيد: إيدموند شارل رو

ترجمة: عبدالسلام المودني
مراجعة: صالح الأشمر

منشورات الجمل

تمهيد

بعد ثمانين سنة...

مكتبة
t.me/soramnqraa

عاشت إيزابيل إبرهارت فقيرة جداً من دون أن تتوقف عن الكتابة ـ كما تشهد على ذلك رسائلها ـ ومن دون أن تتوقف أيضاً عن الحلم بأن يحتفي بها المجتمع الأدبي في يوم من الأيام. غير أنها حرمت من الشهرة الأدبية، ذلك أنها لم تنجح في نشر أعمالها إلا في بعض الجرائد الفرنسية التي كانت تُسحب بأعداد قليلة جداً وبجودة ضعيفة. وأثارت أعمالها عند ظهورها، قبل سنتين فقط من وفاتها، كثيراً من العنف النقدي، ومبالغة في المديح، حتى لا نقول إنها أحدثت جدلاً كبيراً... فقد استمر ذلك لربع قرن. والغريب أن شهرة إيزابيل إبرهارت تبدأ حيث تنتهي لدى بعض الكتّاب الذين ذاقوا النجاح على امتداد حيواتهم، ثم يبدأ النسيان، ذلك المطهر الذي لا يستطيع أحد أن يتوقع مدته.

وما إن رحلت إيزابيل حتى فتحت أمامها سريعاً حياة جديدة. حياة كتابات ولدت بعد وفاة صاحبتها، وكانت على صورة كاتبتها، إذ لم تعدم أبداً التأثير والسخط. ومن غير المجدي هنا أن أشير إلى أن ميزة الاستفزاز العالية جداً لديها حتى درجات قصوى هي أفضل ما لديها. فهذا الاستفزاز هنا هو جملة تبدو للوهلة الأولى غير ذات قيمة، وتتدفق من كلمة إلى كلمة بالعنف الذي يشق التحكم فيه، تماماً مثل مياه خطرة ولا يمكن التحكم فيها. هل كان بإمكان إيزابيل أن تموت بطريقة أخرى غير غريقة، وتؤخذ مع بيتها في غضبة واد أصابه الفيضان؟ فـ«كل شيء عنها كان غير عادي[١]»، كما كتب ليسلي بلانش في أفضل وصف حظيت به إيزابيل،

---

(١) *The wilder shores of love* في فصل *portrait of a legend jhon murray, Londres 1954.*

ليضيف: «كان موتها غريباً في مجمله، لأنها غرقت في الصحراء[1]».

ظهرت كتابات إيزابيل إذن سنة ١٩٠٦، وجاءت مصحّحة ومنقّحة ومقتضبة، وجميعها تحت عناوين أكثر حزناً، فرضها دوماً معجبوها.

فقد أعيد طبع أعمالها الأصلية، ونقِّحت مخطوطاتها، وحذفت النسخ التي أثارت الشكوك حولها والإضافات، ووضعت الجملة الأصلية تحت الخطوط المشطبة السوداء، والتي حكم المراجع باريكون معجباً بأنها قد تعرّض حياة محميته للخطر. وكانت تلك هي المهمة التي تصدت لها بنجاح ماري أوديل دو لاكور، وجون روني إيلو. وظهر الشغف الذي أضافاه في عملهما، قبل أي شيء آخر. وكان لا بد من ذلك حتى ينجحا. وكان يتعين أن تتوفر الأمانة فيهما. فأي تناقض بين نصوص إيزابيل القصيرة، والتي نشأت عن «شيء مرئي»، وملاحظات رحلتها، ومفكرات طريقها والشكل الجديد الذي يقدم لنا اليوم! وأية رجة كان البعض ليزعزع نتيجة لها! فقد ظنوا أنهم عرفوا الكتابة الأصلية لمشرّدة، ولمغامرة زاهدة ومراسلة للإسلام، حتى أعيد ما قاله مورون عن سوندرار حين وصفه بـ«مراسل الرب»، غير أن ما قرأه هؤلاء المفتونون بشغف إيزابيل إبرهارت لم يكن إلا تغييراً شاحباً... في النهاية تمّت القراءة بشكل سليم... وحدثت المفاجأة المنتظرة منذ ثمانين سنة... فقد آن الأوان لقياس تأخرنا.

أما أولئك الذين سيقرأون إيزابيل إبرهارت للمرة الأولى، أولئك الذين سيكتشفونها من خلال هاته الكتابات على الرمال، فأنّى لهم أن يتجاهلوا أنه لولا هذه الطبعة الجديدة لظلت إيزابيل بالنسبة لهم مجهولة أبداً؟ ذلك أن كل ما نشر لها بين سنتي ١٩٠٦ و١٩٤٤ لم يعد موجوداً، وحيث القليل من المكتبات فقط تحتفظ بمجموع أعمالها. فكم من جهد بذلته من دون جدوى، وكم من حملات مضت عبثاً في مكتبات بعيدة! ولم يعد الأمر كذلك اليوم.

علينا أن نأخذ بعين الاعتبار نقطة تبدو مكملة غير أنها ليست كذلك، ونحن مدينون بها أيضاً إلى ماري أوديل دولاكور وجون روني إيلو، ذلك أنهما أخذا على عاتقيهما نشر أعمال إيزابيل إبرهارت في تسلسلها الزمني. وكان ذلك ضرورياً من

(١) الجملة بالإنجليزية مثل الجملة السابقة. المترجم

أجل ربط كتابات إيزابيل مع فترات حياتها المهمة، وقياس الفرق في أعمالها بين ما يتعلق بالتجربة، وما كان وليد عالم متخيل.

ومع ظهور كتابات على الرمال، ستتجدد المعرفة الإبرهارتية بشكل عميق. كونوا على يقين من أن هذه الطبعة الجديدة ستلقى استحسان الباحثين. وأنا أقصد هنا بصفة خاصة الطلبة المغاربيين، الذين أمضيت جوارهم ساعات صداقة مجدة، وبهجة أخوية في القاعة الفسيحة للأرشيفات بإيكس أون بروفانس. ولما كان فضولهم يستيقظ عند ذكر اسم إيزابيل، فإنهم سيلفون أخيراً في كتابات على الرمال الأصالة التي كانوا يطالبون بها. فكم سيكسبون من الوقت، وكم سيتجنبون من التردد! ومن هذا المنظور أيضاً، ينبغي تكرار القول بأن ماري أوديل دولاكور وجون روني إيلو أنجزا عملاً مفيداً.

إدموند شارل رو

عن أكاديمية الغونكور

تقديم

«يبدو لي أني سأشد الرحال في سفر طويل جداً
إلى أماكن مجهولة، وأني لن أعود منه أبداً...»

غوستاف فلوبير، **رسالة إلى تورغينييف.**

كانت إيزابيل إبرهارت امرأة، وابنة غير شرعية، وابنة منفية. وكانت تسعى إلى الانتقام من اللعنات التي كانت تطاردها. ففي أحد أيام شهر أيار/ مايو من سنة ١٨٩٧ ركبت سفينة من مرسيليا مدفوعة بقوة لا تقاوم باتجاه السواحل الجزائرية. كانت في سن العشرين، وكانت قد فارقت منذ مدة طويلة آداب اللياقة، ففي سبيل بحثها عن ذاتها كان عليها أن تتجرأ على حدود أخرى.

رحلة أولى، وحياة تشرّد لم يوقفها إلا الموت بعد سبع سنوات. ولما واجهت العديد من التحديات والعديد من الرغبات، فقد تغيرت تماماً. فبزي واسم مسافر عربي، هو محمود السعدي، استهلكت قدرها. عاشت كل شيء، وخبرت الأماكن السيئة والمعابد، وهكذا فقد مرت عبر المواخير والمساجد، ومن أعماق المدن المستعمرة إلى معسكرات البدو بالصحراء. وانتقلت من مغامرة إلى مشردة إلى تابعة لطائفة إسلامية إلى ولية إلى مراسلة حرب إلى زاهدة ملهَمة...

وكتبت إيزابيل إبرهارت في طريقها مئات الصفحات من الملاحظات والنصوص والقصص ورواية غير منتهية، تلك التي رفعتها إلى مصاف أولئك الكتاب الذين يسوقون حياتهم بالمستوى نفسه لمتطلبات العمل. أن تصف، وأن تعبّر عما يعتبر غريباً بشكل جذري في الشرق، وفي هذه الحالة الإسلام، وأن تعيش ذلك لتلفي في النهاية حقيقتها الأولى فيه. فالأمر يتعلق هاهنا بسعي مطلق يقدم مثالاً على الغرابة

دوماً، وهو أوسع من غرابة كاتب رحّالة؛ الهجرة. فالرحيل هدف بحد ذاته، تماماً مثل إغواء الأماكن البعيدة، ومثل البحث عن وطن.

رحلت على أمل ألا تعود أبداً. ولما كانت روسية ولدت في جنيف وثائرة، فقد أرادت القطع مع قرن بأكمله، ومع حضارة، وبكل تأكيد مع أسرة لا تروي ظمأها المطلق. وكان للحكاية الأسرية، التي تميزت بالهزات والمآسي، دور كبير في اختياراتها المتزامنة وغير المجزأة لذلك المكان البعيد وللأدب.

وتعد قصة ولادتها رواية بحد ذاتها. ويبدو أن إيزابيل إبرهارت لم تبرح قط ذلك الوهم الذي شوّشها بلذة، حيث لم يذكر سجلّ الحالة المدنية لدائرة جنيف اسم والد «إيزابيل ويليلمين ماري، المولودة في السابع عشر من شهر شباط/فبراير لسنة ألف وثمانمئة وسبعة وسبعين، ابنة إبرهارت ناتالي شارلوت دوروتي، المتحدرة من موسكو». . . هل علمت من كان والدها؟ هل اخترعت والداً ناكرة بذلك والدها البيولوجي؟ في إحدى رسائلها الحميمية المكتشفة قبل وقت قريب ذهبت حد التأكيد أنها ولدت نتيجة اغتصاب. غموض لن ينجلي أبداً.

غير أن النظر إلى توجّهها الأدبي بوصفها كاتبة متسكعة تبحث عن والد ينطوي على تسطيح كبير. وسيشكل ذلك إنكاراً لقوة التخييل الذي تغذى لديها من غواية المجهول، والذي حملها على سلوك الطريق التي تتقاطع مع حبل الكتابة.

وكان بإمكان إيزابيل إبرهارت أن تصير ثائرة تماماً مثل صديقتها الثائرة فيرا. وكانت تستطيع أن تتزوج وهي في سن العشرين من خوجة بن عبدالله عشيقها الأول، أو في السنة التي أعقبت ذلك من رشيد أحمد الدبلوماسي التركي الشاب والفاتن الذي التقته في جنيف. غير أنها اختارت الكتابة التي حملتها بشكل طبيعي على الرحيل. التزمت الأدب الذي فرض نفسه عليها، وأضحى يقتضي الحرية منها. أن تعيش حرة، من دون روابط تماماً مثل المتشرد، ولكن أيضاً مثل الكاتب الحر في أن يخترع عالماً.

أخذت تلك الحرية كاملة وباندفاع من دون أن تتأخر في حساب العواقب. قادتها حاجة التسكع باتجاه هدف غير محدد. «انطلقتُ كما هي العادة من دون مخطط محدد، فقد قررت الذهاب إلى الصحراء الجزائرية لأتيه فيها أطول فترة ممكنة. . .» مسار متقلب حيث إقامة في بون والعودة إلى جنيف ثم تونس قبل شد الرحال إلى الجنوب، وعبور الصحراء على ظهر جواد حتى الواد، جوهرة عِرق الشرق الكبير.

وقد عرّضها انحرافها الذي كان طريقة احتجاج خاملة، لكنها مستفزة عند نهاية القرن الاستعماري ذاك، لمخاطر حقيقية. فتلك التي كانت تجعل «شعر الأعيان وكبار الموظفين ينتفض» ستغدو على التوالي مشتبهاً بها ومنفية وفريسة للنميمة ثم معفى عنها ومستفاداً منها ومكرمة بعد موتها.

عندما انقطعت الرابطة العاطفية القوية جداً بعد وفاة أمها في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٨٩٧، كان بإمكان إيزابيل إبرهارت أن تستسلم بشكل كلي لانحرافها، مخدرة بالجنوب الخرافي ـ الشرق ـ الذي غذّى توجهها الأدبي.

رفض ذلك الانحرافُ الغربَ، وتملص منه من دون عنف. وتماماً مثلما حاول أن يفعل قبلها الكاتب بيير لوتي ولكن بلبس أكبر، وتماماً مثلما فعل حديثاً بعض منظري حركة الهيبيز، فقد ألقت بنفسها في محيط رغبتها حيث الشرق بتقاليده القديمة التي تزيد في البعد، وحيث الصحراء الثابتة أكثر شساعة من سهوب أصولها الروسية. وهكذا ألفت لأول مرة بلداً يعكس صورة غير مجزأة عنها، وبدا لها بالمقابل أنها تدرك حقيقته. كتبت في إحدى قصصها في بلد الرمال «أعتقد أنه توجد أوقات مقدّرة، ولحظات غنية بطريقة غريبة جداً حيث بعض المناطق وبعض الأماكن تبوح لنا بروحها بحدس مباغت، ونحفظ فيها فجأة الرؤية السليمة والفريدة والتي يستعصي محوها. كذاك كانت رؤيتي الأولى للواد. . .»

الصحراء، ذلك المنظر الذي ترى نفسها من خلاله، وحيث تندمج لتصير جزءاً من اللوحة التي تصفها. وهكذا، فانحرافها من أجل التنكر بزيّ رجل، «التنكر بلباس الرجال»، الذي جعلها توقع باسم رجل وهو نيقولا بودولانسكي كتاباتها الأولى، سوف يُستثمر كلياً في رغبتها في الاندماج. ففي الواد ستصير فعلاً محمود السعدي «ذلك الأديب المسلم الشاب الذي يسافر في طلب العلم». وللمفارقة، فهناك، ولأول مرة، ستلتقي بنفسها: إيزابيل إبرهارت الحقيقية. لم يتعلق الأمر بتغيير الهوية ولكن بازدواجية الهوية المقبولة، والمعبّر عنها.

وبالنسبة لها، لم تكن جزءاً من اللوحة فقط من أجل إلقاء أحلامها فيها، ولكن أيضاً من أجل التواجد هناك بشدة «. . . لسوف ينطق البارود، وتركض الجياد في سهل تقصبات. وسيكون الفارس الذي يضع غندورة وبُرنُساً أبيض، وعمامة بيضاء مرتفعة بحجاب، ويحمل حول عنقه السبحة السوداء التي تعود للطريقة القادرية، وقد

لُفّت يده اليمنى بمنديل أحمر لإحكام الإمساك بالعنان، محمود السعدي ابن الشيخ الأكبر الحسين بالتبني. . .» لحظات معاشة، وإثارة قصوى حيث السعادة النادرة في تحقيق الرغبة، وحيث ركوب الخيل الصاخب، ولكن أيضاً النصوص المثيرة، ورسالة إلى أخيها أوغستان شريك مراهقتها المعذبة وقصة فانطازيا. وهكذا أخذت إيزابيل إبرهارت تقيس حجم الأرض التي وعدت نفسها بها، الوطن وأرض الأجداد. وللحصول على الحق بالعيش فيها فرت من سيف أحد المتعصبين، وتجاوزت قراراً رسمياً بالطرد، وتغلبت على وشايات المستعمرين، وقاومت إصاباتها بحمى المستنقعات. إن قوة التيه مكنت ذلك الكائن «المزدوج» من أن يعبر سليماً تقريباً ألف خطر في حياته كما في أعماله.

تعود لنا تلك الأعمال بعد ثمانين سنة. وكانت لتختفي تماماً مثل صاحبتها في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر لسنة ١٩٠٤ في فيضان واد صفرا، لولا أن تمّ العثور على مخطوطاتها بمعجزة، سليمة في الأوحال تحت أنقاض بيتها.

ولم تسلم كتاباتها من طمع الطامعين الذين يقتاتون من أعمال الكتاب المتوفين، كما قيل حينها بمبالغة. وكانت بعض النصوص والقصص قد نشرت في حياتها، خاصة في جرائد الجزائر. وهكذا، فقد تم تجميعها ونشرت رفقة النصوص التي لم يسبق طبعها، والتي وجدت في عين صفرا. لقد أُنقذت من التشتت ولكن بعد أن أفسدتها أعمال التصحيح والإضافات أو الحذف للناشرين الأوائل، ولم تسلم حتى من الانتحالات من قبل أديب يعوزه الإلهام[١]. وعلى الرغم من كل ذلك، وعبر هذه السلسلة المتلاحقة، تمت المحافظة على الأعمال من أكبر الأخطار، وهو النسيان. وذلك على الأرجح تم بفضل بقاء الموضوع الذي أوحى بها، أي المواجهة بين الشرق والغرب، وكذلك لأنها تعتبر شهادة فريدة على الاستعمار، وأيضاً لأنها تبقى دعوة فاتنة للسفر.

فكثافة وجودة تيه إيزابيل إبرهارت المنسجم مع المكان ومع الزمان يمنحان أعمالها بعدها الحقيقي، هادئة ومتأملة في تونس قبل الرحيل إلى الجنوب، مفتونة بالواد لحظة اكتشافه، وذات أشجان بمرسيليا خلال المنفى، وغنائية بقلب الصحراء،

---

(١) Vigné d'Octon (Paul). *Mektoub* ; Figuiére ; 1913.

مقاتلة في مدن الشمال الاستعمارية، متحمسة خلف أسوار معبد إسلامي. . . ولهذا السبب يمكن الاعتقاد أن لا سيرة لإيزابيل إبرهارت أفضل من أعمالها ذاتها.

منذ سنة ١٨٩٩ وبعد محاولة أحلام لازوردية، التي أرادت كتابتها رفقة أخيها أوغستان، والتي لم يتركا أثراً لها، وبعد المؤلفات التمهيدية، وعلى الخصوص الثانوية، كانت شكلت كل مجموعة متجانسة من النصوص مرحلة مهمة من حياتها.

ساعات تونس. موت الأم. التدرّب على الوحدة والانعتاق من الموت الذي عصف بسلالة النساء التي انحدرت من نسلهن. لن تكون لإيزابيل إبرهارت ابنة طبيعية مثل أمها وجدتها. أنّى لها ذلك، وقد اختارت أن تكون محموداً؟

في بلد الرمال، والساحل التونسي. «اكتشاف الواد»، وتأكيد توجهها: «الكتابة عن بلد لم يكتب عنه شيء أبداً». و«لربما إدراك الشهرة في الأدب».

بداية اليوميات، وياسمينة، والنقيب، والقصص الجزائرية الأولى، والعودة التي أملت فيها بشدة سنة بعد ذلك، في سنة ١٩٠٠. الرغبة في الاندماج، ولقاء الحب، بملامح فارس جزائري شاب، هو سليمان إهني، ولكن الشبهة أيضاً. من يستطيع إذن فهم أصالة مسعى إيزابيل إبرهارت، والرفض المزدوج؛ واعتداء بهيمة، وقرار الطرد الصادر عن الإدارة الاستعمارية؟

تتمة اليوميات، وكرّاسات الواد، وربيع في الصحراء، والرواية الأولى المتشرد، والمنفى لابنة المنفية تلك، في مرسيليا سنة ١٩٠١. وعودتها إلى نفسها، وطبيعتها القدرية، التي يبدو أن الصعوبات تحفزها. اخترعت قدراً نسكياً، واعتقدت نفسها مختارة من قبل الله[١]، حيث تصير شهيدة القضية الإسلامية. غير أنها تستمدّ على الخصوص من ذكرياتها قوة جديدة للإلهام وللكتابة، وتفكر في أول رواية لها.

عودة إلى الجنوب، تتمة القصص الجزائرية. عند عودة إيزابيل إبرهارت إلى الجزائر ربيع سنة ١٩٠٢، وقد أضحت فرنسية بعد زواجها من سليمان إهني فارس الواد الجزائري، وجدت فيها صديقاً وهو فيكتور باريكون المدافع عن المساواة في الحقوق بين «الأهالي» والمستعمرين، من خلال منبر حرّ في جريدة الأخبار، وقضية

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

عن ثورة فلاحي[1] متيجة. وكان الأدب وسيلتها للرد على غلاة الرجعيين. وغدت بعض قصصها أشبه بقرارات اتهامية.

الجنوب الوهراني، الجزء الأول. بلاد البارود[2]. وكونها مراسلة حرب عند الحدود الجزائرية المغربية سنة ١٩٠٣، وسيجعلها إعجابها بشخصية الجنرال ليوطي تدافع عن أطروحة «الحماية»، غير أنها لما كانت عاشقة للأدب، وتتأثر بسهولة بالمطرودين من أراضيهم، وبحياة الجنود وخيالة القوم والقبائل الثائرة، فإن ذلك سيزيد من تأثرها في النهاية.

الجنوب الوهراني، الجزء الثاني. بعد الفعل يأتي التأمل. العودة إلى الجنوب الوهراني سنة ١٩٠٤، حيث تستسلم عند نهاية السفر لفتنة مدينة ذات طابع ديني في الصحراء، هي قنادسة. و في بعض الأحيان تغتني الكتابات ببُعد رؤيوي محمول على التزهد.

احترمنا بطبيعة الحال تسلسل هذا الإلهام لإعداد الجزء الأول من الكتاب المكوّن من الملاحظات والحكايات. وسنلفي التسلسل عينه في الجزء الثاني، وهو الانعكاس المتخيل لسيرة إيزابيل إبرهارت عبر قصصها وروايتها المتشرد.

من بين النصوص المستخرجة من أوحال عين صفرا النصوص الأخيرة التي كتبت بقنادسة والتي كانت منذرة بشكل غريب. ذلك أنها كانت تتحدث عن أحلام الفناء في «جنة المياه». هل سئمت إيزابيل إبرهارت من نهلها الكبير من منابع الحياة، ومن تحديها للخطر على ذلك النحو المستمر؟ عندما قضت في فيضان الواد لم تكن تبلغ من العمر إلا سبعاً وعشرين سنة، غير أنها كانت قد راكمت قدراً كبيراً من البلايا. . .

ولما كانت مريضة وواهنة بسبب الحمّى فقد تحتّم عليها وقف تيهها الطويل باتجاه الجنوب. ومع ذلك فقد عقدت عزمها في خريف سنة ١٩٠٤ على الذهاب إلى واحات توات وقضاء فصل الشتاء في تيميمون والكتابة هناك، والتحدث عن حياة

---

(١) في الأصل باللغة العربية فلاح بصيغة المفرد. المترجم.

(٢) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

النساء، أولئك المومسات ذوات القلوب الكبيرة، ونساء ملاهي الجنود اللواتي يلعبن دور المحسنات، واللواتي يصحبن المواكب العسكرية الغازية للصحراء. وهو الموضوع الذي أثير منذ ذلك الحين عن طريق الأدب والسينما، ولعله كان بالنسبة لإيزابيل إبرهارت موضوع رواية تعلن نضجها.

بقيت مجموعة من النصوص، هي أعمال شبابها حيث قوة استعادة الذكريات، تقطع بصفة فريدة مع تفاهة أغلب الكتاب المستشرقين لتلك الفترة، وتعلن عن موهبة كاتبة حقيقية. ما الذي كان قد كتبه سادة القرن التاسع عشر في سن السابعة والعشرين؟ كان فلوبير لا يكاد ينهي التربية العاطفية الأولى والتي قدّر أنها لا تستحق النشر...

لم تعرف إيزابيل إبرهارت الشهرة الأدبية في حياتها. وكان قد شُرع في الحديث في العديد من الصالونات الباريسية عن غموض أناقة جسدها كفارس عربي. ولم يبدأ التأثر فعلاً بقوة وفرادة قدرها إلا غداة موتها، وهو التأثر الذي مكُن من نشر أعمالها ونجاحها. أعمال نشرت بعد وفاتها بدءاً من سنة ١٩٠٦ من دون أن تترك الكاتبة تعليمات محددة من أجل ذلك.

وقد ساهم ناشروها ومادحوها بدرجات سعادة متفاوتة في هذا النجاح الذي سيطاله التشويش بفعل المغالاة في المدح، والتحليق الغنائي لشعراء رديئين حلوا بقبرها منشدين، عند قدم الكثبان الصحراوية.

وكان فيكتور باريكون أول من جمع نصوصها، إذ قام بتجميع كل قصصها التي سبق أن نشرت في الصحافة الجزائرية، وأخذ من ليوطي المخطوطات التي وجدت في عين صفرا، والتي كان قد أمر بالبحث عنها تحت الأنقاض. وظن المدافع عنها، والصديق الحميم، ورئيس التحرير، أن له الحق في تقويم النشر وفق استراتيجية شخصية جداً. وهكذا فقد جزّأ الجنوب الوهراني إلى جزءين، وكانت إيزابيل إبرهارت قد نسختها في كرّاسة واحدة، وجعل منهما كتابين وهما في ظل الإسلام القائظ وملاحظات على الطريق. حيث أضاف إليهما من دون منطق نصوصاً أخرى.

ولما كان مدفوعاً بشرعيته كوصي فقد شارك في توقيع أول أعمالها. ومن دون شك فقد احتفظ في قلبه بذكرى تعاونهما وعلاقته الحميمية بإيزابيل إبرهارت، ولربما كان عشيقها في فترة من الفترات. هل كان ذلك يمنحه الحق في إقحام كتابته في كتابتها؟ فتحت ذريعة بعض التلف الذي لحق بمخطوطة الجزء الثاني من الجنوب

الوهراني أدخل كما يؤكد «بعض الرواية». والحقيقة أنه مارس الرقابة على الكلمات والجمل والمواقف التي تتحدث عن حرية سلوك كبيرة. وكان يثقل في بعض الأحيان أسلوب معاونته المختفية البسيط بمحسنات في كتابته بـ«التعقيف». وتحت ذريعة إظهار الأجزاء الزائدة فقد أضاف تأملات جمالية وفكرية من فجاجته عن طريق الحشو في النص، معوضاً الكاتبة التي كانت ما تزال حاضرة بحدة بصيرتها، ناثراً صوراً للنصوص التي لم تكن تستدعي أي شيء دخيل عليها، ولعل ذلك كان أكبر خيانة.

نشير هنا فقط إلى أنه نتيجة للغضب الذي أثارته تلك المشاركة في أعمال الكاتبة بعد الوفاة انتهى الأمر بباريكون بأن يجعل تدخلاته مقتصرة على تصحيح بعض التفاصيل. وبدءاً من سنة ١٩٠٨، نشرت نصوص ملاحظات على الطريق، وصفحات الإسلام، والمتشرّد، بعد بعض التدقيقات، التي كانت وفية للمخطوطات مع بعض الاستثناءات القليلة جداً.

ومع ذلك، وفي فترة الاستعمار تلك، لا ينبغي إنكار فضل فيكتور باريكون حين دافع عن أعمال إيزابيل إبرهارت، وعمّمها حين نشرها في باريس لدى أوجين فاسكيل. ولما كان باريكون صحفياً مدافعاً عن الأطروحات «التقدمية» للحكومة الراديكالية فقد انخرط في صراعه ذاك حتى وفاته في الجزائر سنة ١٩٣٤. وكان العديد من المشتغلين بالأدب قد نازعوه بشدة حصرية موضوعه مهددين حيناً، ومغالين حيناً آخر في رفع أصواتهم وفي جرأة أساليبهم. وكان الجدل حول شخصية إيزابيل إبرهارت يتسم بالعنف أحياناً. حيث كل شخص يطرّز رؤيته والكثير منهم يقحمون أنفسهم مثل أولئك الذين عرفوها ومنهم المدير الإداري الاستعماري، والكاتب روبير روندو، وزميله القاضي ماريفال، والرسام ماكسيم نواري، وصاحب عمود بجريدة لوماتان جون رود، وعلي عبد الوهاب صديق الشباب التونسي... وأولئك الذين حلموا بذلك مثل الشاعرة لوسي دولاري ماردريس، والمناضلة النسائية سيفرين، والمنتحل فيني دوكتون... حتى لا نذكر إلا بعضهم فقط.

ثم يأتي القاضي روني لويس دويون صاحب الشخصية القوية، ناشر ومدير مجلة المعرفة[1] والمستشار الأول لأندريه مالرو، الذي نشر بدءاً من سنوات العشرينيات

(١) *La Connaissance*

مخطوطات لم يسبق نشرها، واستردت بطريقة غير منتظرة سنة ١٩١٣ عبر كلوي بيليو، التي كانت إحدى المعجبات بإيزابيل إبرهارت. وقدِّمت يومياتي سنة ١٩٢٣، وفي بلاد الرمال سنة ١٩٤٤، خطأً من قبل دويون كأول نصين أصليين. ولما كان ينسب إلى نفسه أنه كاتب سيرة فقد أبدى تعصبه تماماً مثل سابقيه، ذلك أنه كان يتمنى أن يجد المرأة عبر تفكيك الرمز، وأخذ ينحت أسطورة جديدة.

ومن أجل تصحيح الأعمال وإعادة انسجامها، كان لا بد من محاولة ضبط الانسجام ـ عدم الانسجام ـ لدى الكاتبة، وتتبع آثارها وكتاباتها منذ رحيلها عن جنيف وهو ما كان يفرض بعض الالتفاف. وهكذا فقد شرعنا في رحلة طويلة من أجل إعادة اكتشاف تلك الباحثة عن المطلق. وكان يلزم في البداية فحص رفوف الكتبيين لجمع كتب الطبعات الأولى التي لم تعد موجودة منذ وقت طويل في المكتبات، والتدقيق في أرشيفات المكتبات العامة، والصحف ومجلات تلك الفترة، وعلى الخصوص تلك التي ساهمت فيها حيث الثانوية، وأخبار الجزائر، والبرقية الجزائرية، والأخبار، والجريدة الصغيرة، والنشرة البيضاء. ثم اتخاذ تلك الكتابات كدليل، وعبور بلد بعد ثمانين سنة، ولقاء أناس يشبهون كثيراً أولئك الذين عرفت كيف تسبر أرواحهم، وضبطهم في حالات تحولهم، وثباتهم.

عندما ألفينا في ذلك الجنوب الذي كانت تعشقه كثيراً المناظر والوجوه والمشاهد التي وصفتها إيزابيل إبرهارت، استطعنا أن نستوعب حقيقة الشخصية أكثر من قراءة كل تلك النصوص التي لا تعد ولا تحصى منذ موتها. وبقي اكتشاف ودراسة الرسائل والملاحظات المجهولة من قبل غالبية كتاب السيرة في محاولة لتجنب فخاخ أسطورة إيزابيل. وهكذا، يغدو من الممكن إعادة إرساء حقيقة أعمالها ومضاهاتها لأول مرة بالمخطوطات التي تم إنقاذها، والنصوص التي ظهرت في حياة الكاتبة.

عندما تحدثت إيزابيل إبرهارت عن نفسها بلامبالاة، بالمذكر وبالمؤنث على حد سواء، فقد كانت تكتب تماماً مثلما عاشت ببساطة، غير أنها موجهة بدفق الأحاسيس من دون تمويه ومن دون خديعة وبغير اكتراث، وكان شغفها يحركها. وقبل وفاتها بوقت قصير، دخلت مرحلة النضج الأدبي حيث البدء في معرفة إعادة تشكيل الواقع في الخيال. وتشهد على ذلك بعض مقاطع روايتها المتشرد.

أتاها الإلهام وهي في الطريق. وسواء تعلق الأمر بالمناظر أو بلقاءاتها فقد كانت

تدوّن بشكل خاطف، وليس بحدة أبداً، بعض الملامح والشواخص في كرّاسة الطلاب الخاصة بها، ذات الأغلفة المبقّعة، أو عند الاقتضاء في أوراق الرسائل الخاصة بالفنادق، وعلى ظهر فاتورة، بل وحتى خلف ورقة اقتراع. وكانت فيما بعد، وفي بعض الأحيان، بعد مرور وقت طويل، تستمد إلهامها من ملاحظاتها تلك وذكرياتها من أجل كتابة نصوص وقصص كانت تعاود كتابتها في الغالب بروايات متتالية وتعيد نسخها فيما بعد من دون تشطيب بمداد أسود أو بنفسجي بخط يدها.

مكنتنا مخطوطات صندوق إيزابيل إبرهارت المحفوظة بأرشيف أوتر مير بإيكس أون بروفانس من العودة إلى النص الأصلي، وتصحيح المطبوعات الأولى. ألفينا جزأي الجنوب الوهراني، التي كانت ماتزال ملطخة بطين الفيضان الأحمر، والعديد من الروايات غير المكتملة لرواية المتشرد، وغالبية كرّاسات الواد، حيث تلك الخاصة بالساحل التونسي، ومذكرة الملاحظات، وبعض القصص والعديد العديد من الأجزاء والروايات المختلفة، وكتابات لم يسبق نشرها مثل رحيل، والمقدرة، ومخططات مشروع رواية أهملت. وحفظت هذه المخطوطات والمجموعة التي علّق عليها باريكون بغرض النشر من قبل عائلتها حتى سنة ١٩٥٦، ثم سلّمت إلى أرشيفات الحكومة العامة بالجزائر، قبل أن يتم نقلها فيما بعد إلى إيكس أون بروفانس.

وكان بإمكاننا إذن إعادة وضع الكلمات والجمل والعناوين والفقرات وأن نرى نصوصاً بأكملها حذفت من قبل باريكون. حذفنا أيضاً إضافاته وأعدنا إدخال بعض الروايات، وبدايات القصص، والنصوص التي خلقت جدلاً والتي كانت مبعدة حتى ذلك الحين، من أجل تأسيس هذه المجموعة من الملاحظات والنصوص والكتاب الأول من بين كتابين للأعمال الكاملة لإيزابيل إبرهارت.

أردنا أن نقوم بنشر وفسح المجال لقراءة النصوص الأصلية لأول مرة من دون إضافات ومن دون تصحيح وبعلاّتها وباكتشافاتها. وكان ذلك بالنسبة لنا أفضل تكريم للشخص وللكاتبة التي «فتنتنا» منذ مدة طويلة.

وسيمنح الكتاب الأول للأعمال الكاملة إمكانية ظهور أعمال أخرى، تنجز مستقبلاً حول إيزابيل إبرهارت من مذكرات وأطروحات ودراسات نقدية.

سيجد القارئ في مستهل هذا الكتاب أيضاً نصاً كتب نهاية سنة ١٩٠٢، وفرض

نفسه علينا كتقديم حيث تمتدح إيزابيل إبرهارت «التشرد»، وهو العنوان الذي اختارته من أجل جمع نصوصها الأولى.

تلك التي تحدثت في سن العشرين من دون إبداء الرغبة في العودة حققت أخيراً أمنيتها: «. . . تحت أي سماء، وعلى أي أرض سأستريح في اليوم المحدد من قبل قدري؟ غموض. . . ومع ذلك، أريد أن يوارى جسدي في الأرض الحمراء لهذه المقبرة بعنابة البيضاء، حيث يرقد. . . أو فليكن في أي مكان من رمال الصحراء الحارقة بعيداً عن التفاهات المدنسة للغرب المحتل. . .»

وضع دفق الفيضان حداً لنهاية التيه في عمق الصحراء. ويعود إلينا الآن مع أعمال إيزابيل إبرهارت بعضاً من القوة التي لا تقاوم، والتي دفعتها.

ماري أوديل ديلاكور وجون روني إيلو.

تحذير

صُحّحت نصوص هذا الكتاب في مجملها بحسب مخطوطات صندوق إيزابيل إبرهارت. وعند عدم توفر إحدى المخطوطات رجعنا إلى ما نشر من كتابات أثناء حياة الكاتبة.

بعض الكلمات المشطوبة من قبل فيكتور باريكون أصبحت غير قابلة للقراءة، في حين كانت أخرى ناقصة وبالتحديد في الجنوب الوهراني، التي لم يسبق نشرها. وعندما يسمح أحد النصوص بذلك، كنا نضعه بين قوسين وإلا فإننا نشير إليه بنقاط الحذف بين مزدوجتين. وعندما يشوّه وحل الفيضان كثيراً إحدى المخطوطات ننشر الأجزاء التي أعاد كتابتها باريكون مشيرين إليها بخط مائل.

حافظنا على إملاء إيزابيل إبرهارت بالنسبة للكلمات العربية، التي تعيد كتابتها في بعض الأحيان بطرق مختلفة. أما الكلمات المكتوبة بخط مائل والتي لم تُعطَ معانيها في النص نفسه فيتم تجميعها في معجم في نهاية الكتاب.

سيجد القارئ أسفل بعض الصفحات ملاحظات الكاتبة، وفي بعض الأحيان، ملاحظات الناشرين السابقين.

ومن أجل تيسير القراءة بدا لنا من المجدي أن نحدّد ببعض الملاحظات وسط كل مجموعة نصوص بعض المعالم السيرية أو الفهرسية ومن ثمّ إضافة الروايات المهمة أو النصوص التكميلية.

وسيجد القارئ ملحقاً تحت عنوان أشياء عن الجنوب الوهراني، وهي تحقيقات ومقالات صحف سبق نشرها في البرقية الجزائرية[1] سنة ١٩٠٤.

---

(١) La Dépeche algererienne

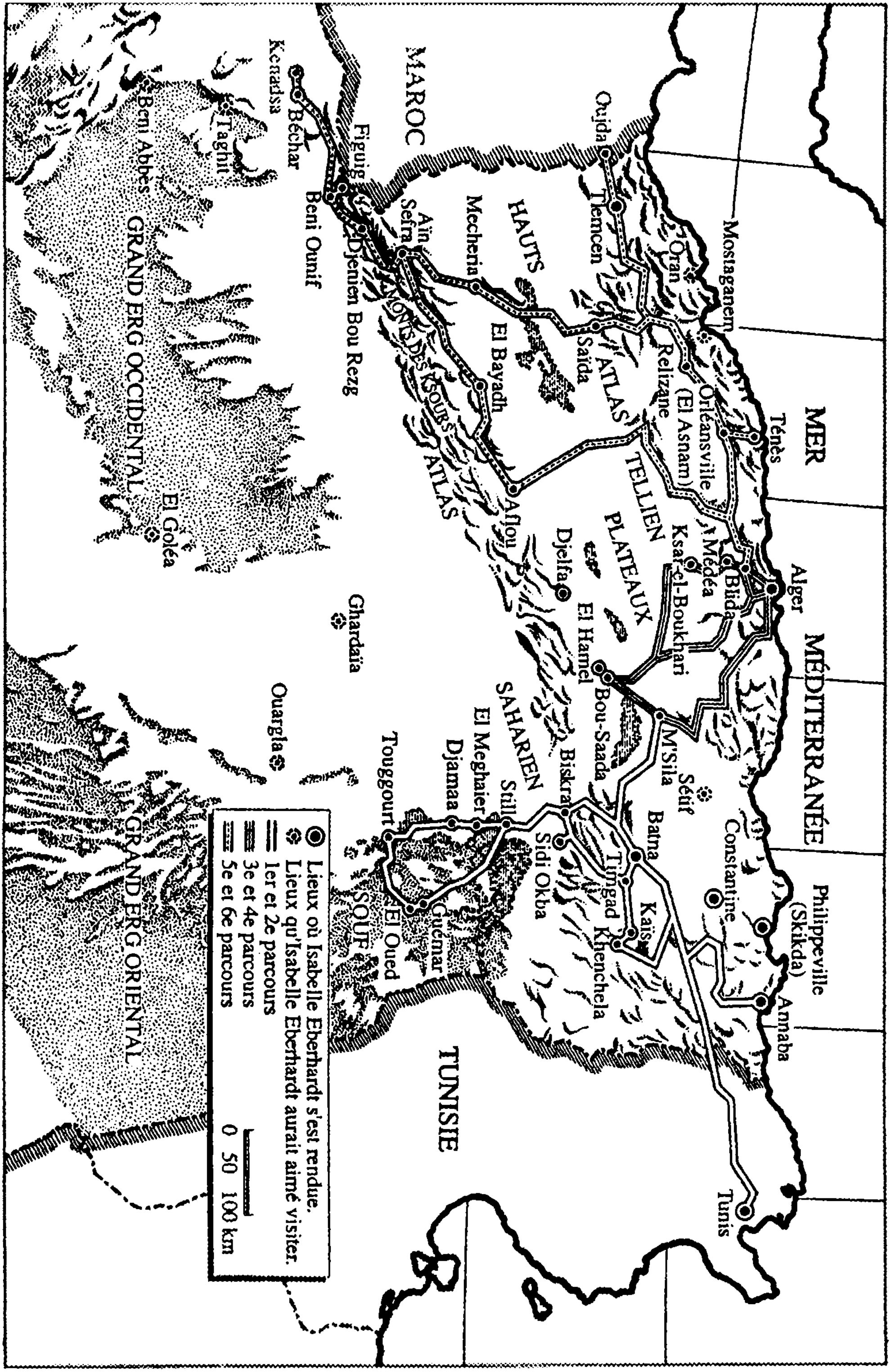
MER MÉDITERRANÉE
MAROC
TUNISIE
HAUTS PLATEAUX
ATLAS TELLIEN
MONTS DES KSOURS
ATLAS SAHARIEN
GRAND ERG OCCIDENTAL
GRAND ERG ORIENTAL
SOUF
Oujda
Tlemcen
Oran
Mostaganem
Relizane
Saïda
Orléansville
(El Asnam)
Ténès
Mecheria
Aïn Sefra
Figuig
Béchar
Kenadsa
Taghit
Beni Abbès
Beni Ounif
Djenien Bou Rezg
El Bayadh
Aflou
Djelfa
Alger
Blida
Médéa
Ksar-el-Boukhari
El Hamel
Bou-Saada
M'Sila
Sétif
Constantine
Philippeville
(Skikda)
Annaba
Batna
Timgad
Kaïs
Khenchela
Biskra
Sidi Okba
Still
El Meghaier
Djamaa
Touggourt
Guémar
El Oued
Tunis
El Goléa
Ghardaïa
Ouargla
Lieux où Isabelle Eberhardt s'est rendue.
Lieux qu'Isabelle Eberhardt aurait aimé visiter.
1er et 2e parcours
3e et 4e parcours
5e et 6e parcours
0 50 100 km

نبذة تاريخية

١٨٧٢ : بعد رحيل ناتالي دومورردير إبرهارت، زوجة الجنرال دومورردير، عن سان بيتسربورغ، تعيش بسويسرا رفقة معلم أبنائها الأربعة، ألكسندر تروفيموفسكي، وهو كاهن أرثوذكسي خلع ثوب الكهنوت، ويتحدر من أصل أرميني. وتضع طفلاً خامساً هو أوغستان دو مورردير وهو ابن محتمل للجنرال دومورردير.

١٨٧٧ : ولادة إيزابيل إبرهارت في السابع عشر من شهر شباط/فبراير في دار دي غروط بجنيف. لم تشر شهادة الميلاد إلى اسم الأب.

١٨٩٤ : يرحل أوغستان دو مورردير الأخ غير الشقيق لإيزابيل عن جنيف فجأة، منخرطاً في صفوف اللواء الأجنبي في سيدي بلعباس.

١٨٩٧ : بداية من شهر أيار/مايو تقيم إيزابيل إبرهارت ووالدتها في بون (عنابة) على الساحل الجزائري. وفي ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر: تموت ناتالي دومورردير وتدفن بحسب التقاليد الإسلامية في مقبرة بون الأهلية.

وفي كانون الأول/ديسمبر تضطر إيزابيل إبرهارت إلى العودة لجنيف رفقة الوصي عليها ألكسندر تروفيموفسكي، وتبقى هناك مدة سنة ونصف. في تموز/يوليو ١٨٩٨: مشروع زواج من رشيد أحمد الدبلوماسي التركي. توقف إيزابيل إبرهارت هذا المشروع عندما يُنقل رشيد أحمد إلى لاهاي.

١٨٩٩ : ١٥ أيار/مايو: وفاة ألكسندر تروفيموفسكي بعد إصابة بسرطان الحنجرة. تقيم إيزابيل إبرهارت بتونس.

٨ تموز/يوليو: الرحيل عن تونس إلى الجنوب القسطنطيني. أول اكتشاف للصحراء، ولمدينة **الواد في صوف**.

٢ أيلول/سبتمبر: العودة إلى تونس. أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر: رحلة إلى الساحل التونسي. تشرين الثاني/ نوفمبر: الإقامة بمرسيليا.

١٩٠٠: كانون الثاني/يناير: رحلة إلى ساردينيا. من شهر شباط/فبراير إلى شهر تموز/يوليو: تعدد رحلات الذهاب والإياب بين باريس وجنيف. ٣ آب/أغسطس: الوصول إلى الواد حيث ستقيم إيزابيل إبرهارت حتى نهاية السنة. اللقاء بسليمان إهني وهو ضابط صف بسلاح الفرسان الجزائري، مسلم من جنسية فرنسية، ستقرر اقتسام حياتها رفقته. تلقُّن الطريقة القادرية. تصير إيزابيل صديقة الزعيم الديني سيدي الهاشمي بن إبراهيم وكاتمة أسراره.

١٩٠١: كانون الثاني/يناير: يتم نقل سليمان إهني إلى باتنة بسبب علاقته بإيزابيل إبرهارت.

٢٩ كانون الثاني/يناير: تتعرّض لاعتداء في بهيمة، قرب الواد. تصاب في ذراعها اليسرى، وفي رأسها بضربات سيف من قبل أحد أفراد الطائفة التيجانية، ويدعى عبد الله بن محمد الذي قال بأنه أُلهم في عمله ذاك من قبل الله. تدخل المستشفى بالواد حتى الخامس والعشرين من شهر شباط/فبراير. ثم ترحل إلى باتنة حيث ستكون هنالك موضوع مراقبة بوليسية. ٩ أيار/مايو: تظن إيزابيل إبرهارت أنها تحت قرار رسمي بالطرد فتغادر بحراً إلى بون ومنها إلى مرسيليا. ١٨ حزيران/يونيو: محاكمة عبد الله بن محمد في قسطنطينية، وإيزابيل إبرهارت تطلب الرأفة له من المحكمة. يصدر في حقه حكم بالأشغال الشاقة. مباشرة بعد المحاكمة، تطرد من الجزائر بأمر من الحاكم العام. تعود إلى مرسيليا، حيث تقيم في بيت شقيقها أوغستان. ٢٤ آب/أغسطس: يسمح لسليمان إهني بتغيير الفيلق الذي كان يعمل تحت لوائه. ١٨ آب/أغسطس: يلتحق بإيزابيل إبرهارت بمرسيليا. ١٧ تشرين الأول/أكتوبر: زواج مدني في مقرّ البلدية بمرسيليا.

١٩٠٢ : ١٥ كانون الثاني/ يناير: لما أضحت إيزابيل إبرهارت فرنسية نتيجة لزواجها، صار بإمكانها دخول الأراضي الجزائرية. تقيم ببون في بيت عائلة سليمان. استقرار الزوجين بالجزائر العاصمة في شارع لامارين، ثم شارع السودان في القصبة. في فصل الربيع: اللقاء الأول بفيكتور باريكون. في شهري حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو: السفر إلى بوسعادة وإلى زاوية الهامل. لقاء مع لالة[1] زينب وهي متصوفة تنتمي إلى الطائفة الرحمانية. ٧ تموز/ يوليو: الاستقرار في تنس حيث عُيّن سليمان إهني في وظيفة خوجة. العديد من رحلات الذهاب والإياب بين تنس والجزائر. استئناف صدور المجلة الأسبوعية الأخبار التي ستصير معاونة رسمية بها.

١٩٠٣ : كانون الثاني/ يناير: رحلة ثانية إلى بوسعادة والهامل. واللقاء الثاني بلالة زينب. نيسان/ أبريل، وأيار/ مايو وحزيران/ يونيو: حملة قذف ضد إيزابيل إبرهارت وأقربائها، وهي حملة مرتبطة بالسياسة الانتخابية لأعيان تنس. يستقيل سليمان إهني بعد تعيينه في سطيف. تستقر إيزابيل إبرهارت بالجزائر. شهر أيلول/ سبتمبر: ترحل كمراسلة حرب في الجنوب الوهراني بعد معارك المنقار وحصار تاغيت. شهر تشرين الأول/ أكتوبر: اللقاء مع ليوطي في عين صفرا. تحقيقات في بني ونيف حول الوضع على الحدود الجزائرية المغربية. العودة إلى الجزائر عند نهاية فصل الشتاء.

١٩٠٤ : السفر إلى وجدة (المغرب). شهر أيار/ مايو: إقامة ثانية بالجنوب الوهراني. احتلال بشار من قبل قوات ليوطي. تمضي إيزابيل إبرهارت فصل الصيف بالزاوية المغربية بقنادسة. شهر أيلول/ سبتمبر: لما كانت مريضة تعود إلى عين صفرا. ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر: تلقى إيزابيل إبرهارت حتفها في فيضان عين صفرا.

١٩٠٧ : ١٤ نيسان/ أبريل: وفاة سليمان إهني.

١٩٢٠ : انتحار أوغستان دوموردير بمرسيليا.

---

(١) لالة لدى أهل المغرب والجزائر: السيدة. المترجم.

تشرُّد

من الحقوق التي لا يكاد يهتم بالمطالبة بها بعض المثقفين الحق في التسكع، والحق في التشرد.

ومع ذلك فالتشرد هو الانعتاق، والحياة على امتداد الطرقات هي الحرية.

والقطع في يوم من الأيام بشجاعة مع كل المعوّقات التي تثقل حركاتنا حيث الحياة العصرية وضعف قلوبنا، تحت ذريعة الحرية، والتسلح بالعصا والخُرْج الرمزيين والرحيل!

لمن يعرف القيمة ومعها النكهة اللذيذة أيضاً لحرية التوحّد (لأن المرء لا يكون حراً إلا إذا كان وحيداً). ففعل الرحيل هو الفعل الأكثر شجاعة والأكثر جمالاً.

لعلّها سعادة أنانية، غير أنها السعادة لمن يعرف كيف يتذوق طعمها.

أن يكون المرء وحيداً، وأن يكون معدم حاجات، وأن يكون مجهولاً، وغريباً وفي بيته حيثما حل وارتحل، وأن يمشي وحيداً وكبيراً من أجل اكتشاف العالم.

أليسَ المتسكع الصلب، الجالس على قارعة الطريق والذي يتأمل الأفق الحر يشرع أمامه، هو السيد المطلق للأراضي والمياه، بل وللسماوات نفسها؟

وأي سيد قصر يمكن أن يضاهيه قوة وثروة؟

فمنطقة نفوذه بلاحدود، و انعدام القانون إمبراطوريته.

وما من عبودية تحطّ من قَدْره، وما من جهد يقوس صلبه إلى الأرض التي يملكها، والتي تسلم له نفسها كلها بطيبة وجمال.

فالمنبوذ، في مجتمعنا المعاصر، هو المتشرّد الجوّال «بلا مأوى ولا عنوان معروف».

وبإضافة هذه الكلمات إلى اسم شخص غير شرعي الإقامة يظن رجال النظام والقانون بأنهم يَصِمونه إلى الأبد.

فأن يكون للمرء بيت وأسرة وملكية أو وظيفة عمومية، ووسائل عيش معروفة، وأن يكون في النهاية جزءاً يقدّره الآخرون من الآلة الاجتماعية، كلها أشياء تبدو ضرورية ولازمة تقريباً بالنسبة لغالبية الناس وحتى بالنسبة للمثقفين، وحتى لأولئك الذين يعتقدون أنفسهم أكثر تحرراً.

ومع ذلك، فكل هذا ليس إلا شكلاً مختلفاً للعبودية التي يجبرنا عليها تواصلنا مع أشباهنا، وخاصة التواصل المنتظم والدائم.

لقد أنصتُّ دوماً بإعجاب، لكن من دون رغبة، لقصص أناس شجعان عاشوا لمدة عشرين سنة أو ثلاثين سنة في الحي نفسه، وحتى في البيت نفسه، ولم يغادروا أبداً المدينة التي ولدوا بها.

ألا يشعر المرء بالحاجة المعذبة لمعرفة ولرؤية ما يوجد هناك، خلف جدار الأفق الأزرق الغامض... ألا يحس بالاختناق المكدر لرتابة المناظر المحيطة... وأن يرى الطريق التي تمضي بيضاء جداً نحو الأماكن البعيدة المجهولة، من دون أن يشعر بالحاجة القاهرة إلى أن يُسْلِم قدميه لها، وأن يتبعها بانقياد، عبر الجبال والوديان، فكلّ تلك الحاجة المذعورة للثبات إنما تشبه الخضوع غير الواعي للدابّة التي جعلتها العبودية بلهاء، والتي تمد عنقها إلى العنان.

لكل ملكية حدود. ولكل قوة قوانينها. غير أن المتسكّع يملك كل الأرض الرحبة التي يحدها الأفق الوهمي، ويتعذر المساس بإمبراطوريته، لأنه يحكمها ويلتذ بذلك في قرارة نفسه.

ساعات تونس

مكتبة
t.me/soramnqraa

خلال شهرين من صيف سنة ١٨٩٩، تبعت حلمي للشرق القديم المتألق والكئيب، في أحياء تونس البيضاء العتيقة المفعمة بالظل والصمت.

كنت أقطن، وحيدة، رفقة الخادمة المسنة البربرية خديجة، وكلبي الأسود، في منزل تركي. فسيح وقديم جداً، بإحدى الزوايا الأكثر انعزالاً بباب المنارة، الواقع تقريباً على قمة تلة...

كان ذلك البيت أشبه بمتاهة، منظماً بشكل غامض، ومعقداً تتخلله ممرات وتقوم فيه غرف على مستويات مختلفة، مزخرفةً بنقوش قديمة جداً متعددة الألوان ومنحوتات مشغولة بجبص الأرض، رقيقة ومخرّمة تنساب تحت أسقف مخروطية من الخشب المدهون والذهبي اللون.

وكانت الأيام تمضي هناك في الظليل الرطب، وسط الصمت المطبق الذي لا يقطعه إلا الإنشاد الحزين للمؤذن، بطيئة بطئاً لذيذاً وذات رتابة ناعمة من دون كدر.

وخلال ساعات القيلولة الحارة، في غرفتي المزينة بالخزف الأخضر والوردي، كانت خديجة تجلس القرفصاء بإحدى الزوايا وهي تنقر حبات سبحتها السوداء حبة حبة، محركة شفتيها الشاحبتين بسرعة. وكان ديدال يقعي على الأرض في هيئة لبؤة وخَطمُه الدقيق يرتاح على قائمتيه القويتين، يتتبع بانتباه التحليق البطيء لحفنة من الذباب... أما أنا فقد كنت أستلقي على سريري المنخفض مستسلمة للذة حلم بلانهاية...

كانت فترة راحة، كتوقف مُجْدٍ بين فترتين مليئتين بالمغامرة، ومكدّرتين تقريباً. كذلك كانت الانطباعات التي تتركها حياتي هناك لطيفة وكئيبة ومشوّشة بعض الشيء...

وكان يقع خلف بيتي، الذي تفصله عن الطريق بيوت عربية مقفلة بشكل فظ، حيٌّ قديم من دون مخرج، وقد صار أنقاضاً. . . حيث بقايا جدران، وقباب، وباحات صغيرة، وغرف مظلمة وشرفات ما تزال قائمة. وقد اجتاحت كل ذلك شجيرات كرمة ولبلاب بريّة وكثير من الحشائش التي تنبت في الحيطان والأزهار الملتهمة. كانت مدينة غريبة لم يسكنها بشر منذ سنوات. وبدا أن لا أحد يهتم بتلك البيوت التي لا بدّ أن يكون سكانها قد ماتوا أو رحلوا من دون عودة. . .

غير أنه في الصمت النسكي لليالي المقمرة تدبّ في البيت المجاور، والأقرب من كل تلك البيوت، الحياة بطريقة غريبة.

وكان بإمكاني، من خلال إحدى نوافذي ذات القضبان المتقنة الصنع، أن أغوص بنظراتي في باحته الصغيرة. وكانت جدران ذلك البيت المؤلف من غرفتين ومن طابق واحد ماتزال قائمة. وفي وسط الباحة نافورة بفسقية ذات حجارة مشققة، غير أنها كانت ما تزال مملوءة بماء صاف يأتي من مكان مجهول، ويختفي تحت النباتات الغزيرة التي نمت هناك.

كان المكان أشبه بدغل كبير من الياسمين، مزيّن بورود بيضاء، خلطت بأغصان الكرمة المرنة، وشجيرات الورد تنمو في البلاط الأبيض ببتلات أرجوانية. . . وفي الليالي الفاترة كانت تنبعث رائحة حارة من مكان الظل ذاك، والنسيان.

وفي كل شهر، عندما ينير القمر قمة تلك الخرابات، كان بإمكاني، وأنا شبه مختبئة خلف ستارة رقيقة، أن أشهد عرضاً سرعان ما أصبح مألوفاً لديّ ورحت أنتظره على امتداد أيامي، وظل مع ذلك لغزاً محيراً. . . لربما ظل كل ذلك السحر رهيناً بذلك الجانب الغامض. . . فقد كان يظهر شاب بربري، بلباس من نسيج حريري بألوان ناعمة وباهتة، ومغطى ببرنس أبيض خفيف، يمنحه صورة الحضور العابر، من دون أن أدرك من أين يأتي، ومن أي مكان يدخل تلك الباحة الصغيرة. وكان يجلس على حجر هناك.

كان وسيماً ذا سحنة كامدة بيضاء مثل العرب من سكان المدن، وله فطنتهم اللامبالية أيضاً.

غير أن وجهه كان مطبوعاً بمسحة حزن عميقة.

كان يجلس دوماً في المكان نفسه، ونظرته تائهة في فراغ الليل الأزرق

اللامتناهي. وكان يغني أغاني شعبية عذبة، تلك الأغاني التي كانت تتردد قديماً تحت سماء الأندلس. وكان صوته يكسر الصمت ببطء ولطف تماماً مثل شكوى أو تعويذة.

. . . وبدا أنه يفضل على الخصوص تلك الأغنية، الأكثر رقة والأكثر حزناً من بين كل الألحان الأخرى: «يعانق الحزن المتأصل روحي، كما يعانق الليل الأشياء ويمحوها. ويعانق الألم قلبي ويملؤه غماً، كما تعانق القبور الأجساد وتفنيها. ياحزني ما من دواء إلا الموت من دون عودة. . . لكن إذا ما استيقظت روحي من بعد في حياة أخرى فلتكن في عدن، وسيولد حزني فيها»

أي حزن لا يريم ذاك الذي كان يتغنى ذاك المجهول بقوته؟ لم يذكره أبداً ذلك المغني الوحيد.

غير أن صوته كان صافياً ومنغّماً، ولم ينجح قط أي شخص آخر في أن يمنحني بمثل هذا الامتلاء ذلك السحر الخفي والمُبْهم لتلك لموسيقى العربية ، التي فتنت أرواحاً حزينة أخرى قبل روحي الحزينة.

وكان الشاب البربري يحضر في بعض الأحيان إلى ذلك المكان الناي الهامس الذي يعزف عليه الرعاة والبدو ركاب الجمال، تلك القصبة الخفيفة التي يبدو أنها احتفظت في أنغامها بشيء هامس وشفاف مثل صوت الجداول.

ولمدة طويلة، وفي صمت الساعات المتأخرة حيث الجميع ينام في تونس المسلمة، وفي ثمل العطور، ينثر المجهول ألحانه وزفراته، ثم يرحل مثلما قدم من دون صوت، ودوماً على هيئة الأشباح تلك، حيث يلج ظلمة الغرفتين الصغيرتين اللتين كانتا توصلان إلى باقي الخرابات.

وكانت خديجة، وهي العبدة السابقة، قد عاشت على امتداد أربعين سنة في أكبر العائلات التونسية، وهدهدت على فخذيها أجيالاً من الشباب. ناديتها في إحدى الليالي وأسمعتها الموسيقى الليلية. هزت المسنة المتطيّرة رأسها ثم قالت:

ـ لا أعرفه. . . مع أني أعرف كل شباب العائلات الكبرى في المدينة. أعرفهم جميعاً.

وبصوت منخفض، أضافت مرتعشة:

ـ الله يعلم إن كان من الأحياء. لربما هو طيف أحد السكان القدامى، وموسيقاه حلم أو سحر.

ولما كنت أعرف طباع هذا الجنس من البشر، حيث كل سؤال عن حياته الخاصة، وعن غدوّه ورواحه، يُعدّه إهانة له، لم أجرؤ على استجواب الغريب مخافة أن أدفعه إلى الفرار من ملجئه إلى الأبد. . .

ومع ذلك، فقد انتظرته طويلاً في إحدى الليالي عبثاً. ذلك أنه لم يعد أبداً. غير أن صوته وهمس نايه اللطيف ما زالا يراودانني في الساعات القمرية. وكنت أشعر أحياناً ببعض الكدر الذي يصعب تفسيره عندما كنت أفكر فيمن يكون، وسبب مجيئه إلى ذلك المكان.

في الأعلى، قرب القصبة المبتذلة والثكنات، كان هناك مكان خلّاب اصطبغ بحزن خاص، وشرقي جداً. كان ذلك باب الغورجاني.

بداية كانت توجد فوق بقعة مرتفعة قليلاً، عن الطريق الذي يفصلها عنه سور رمادي قديم، مقبرة ماعاد يدفن فيها أحد، وقد اختفت قبورها تحت ركام النباتات الجافة وأشجار الورود، وتحت ظلال أشجار التين التي تجاوزت المئة سنة وأشجار السرو السوداء.

وليس مسموحاً في تونس دخول المساجد والمقابر ذات الشواهد القرآنية إلا للمسلمين.

وهكذا، ولما كانت القبور فيها قديمة جداً، ولا يمر بها أي فضولي، فما من أحد يأتي لإقلاق موتي باب الغورجاني المنسيين. وحدها نداءات المؤذنين وأبواق الزواويين تصل من كل ضجيج تونس، التي تمتدّ في انحدار لطيف حتى مرآة بحيرتها الساكنة.

أحببت التجوال في مقابر المسلمين حيث كل شيء هادئ تماماً وخاضع، وحيث لا شيء مما يجعل مثيلاتها الأوروبية مُغمّة وكئيبة، يأتي كيما يشوّه مهابة تلك الأماكن، وكنت أرتدي الملابس التي يرتديها البدو عادة. وأقصد في كل ليلة باب الغورجاني راجلة ووحيدة.

وعند ساعة المغرب المختارة، حين تهمّ الشمس بالغياب في الأفق، تتزيا القبور الرمادية بألوان رائعة، وتنزلق الأشعة المائلة لليوم الذي يمضي في سحب وردية حول مكان اللامبالاة المهيب ذاك والنسيان الأبدي. . .

وفي مكان بعيد، يمر المرء تحت الباب الذي يمنح ذلك الحي اسمَه ليلفي نفسه على طريق تَرِبة، تنحدر من جهة الغرب إلى وادي باردو الضيِّق. وتنتهي من جهة الشرق إلى مقبرة سيدي بلحسن المرابطية التي تشرف على البحيرة.

تمر تلك الطريق على قمة التلة المنخفضة لتونس الوعرة والمقفرة على ذلك السفح. . .

الشمس منخفضة جداً، ويتلوّن جبل زغوان بألوان قُزحية شاحبة، ويبدو كما لو أنه يغوص في حريق السماء اللامتناهي.

وينحدر القرص الكبير ببطء بنفسجياً وأرجوانياً، من دون أشعة، ومحاطاً ببخار خفيف.

وفي الأسفل، في السهل الفسيح، تمتد سبخة السيجومي التي جفّفها قيظ الصيف، وقد توحدت صفحتها بلون داكن مائل إلى البنفسجي حيث بعض الملّاحات المزهرة وحدها تلقي ببعض البقع البيضاء آخذة في ذلك النور الرائع هيئات خادعة لبحر متموّج عميق الهوّة.

وعند سفح الرابية، على ضفاف السبخة، زرعت أشجار الأوكاليبتوس المعطرة لمكافحة نتانة المياه الآسِنة والمالحة. ويشكل صف الأشجار المتعددة ذات الأوراق الشاحبة جداً والمزرقة تاجاً فضياً يرصّع السهل الملعون حيث لا شيء ينمو وحيث لا شيء يحيا.

ألفيت هناك بعض الانطباعات القديمة التي تولدت في منطقة السبخات الصحراوية الكبرى: بلاد الرؤى.

تلقي أضواء اليوم الأخيرة مسارات حمراء طويلة على سبخة الصحراء، وعلى أشجار الأوكاليبتوس التي أضحت زرقاء في تلك اللحظة، وعلى الحجارة التي احمرّ لونها، وعلى السور الرمادي، ثم ينطفئ فجأة كل شيء كما لو أن أبواب الأفق أغلقت، ويغرق كل شيء في ضبابة زرقاء تزحف صاعدة نحو السور ونحو المدينة.

قيل مراراً وتكراراً بأن الجمال المتقلّب لأرض إفريقيا تلك يكمن كله في التقلبات العجيبة للضوء على مواقع مملة وآفاق فارغة.

وكذاك كانت تلك التقلبات بلاشك، حيث شروق الشمس المتقزح واللذيذ،

وتلك الأماسي من أرجوان ومن ذهب التي تلهم الحكائين والشعراء العرب القدامى في حكاياتهم وأغانيهم.

وكان يأتي كل يوم مسنّ كفيف يرتدي أسمالاً رمادية ليجلس تحت بوابة باب الغورجاني. وكان يردد من دون انقطاع في ليل عماه الأبدي طلبات بؤسه، مستعطفاً المؤمنين النادرين الذين يمرون هناك باسم سيدي بلحسن الشاذلي المتصوف التونسي الكبير.

وغالباً ما كنت أتوقف أمام أولئك المتسولين القدماء في الإسلام، المكفوفين المهملين، متسائلة إن كانت ما تزال هناك أرواح وأفكار خلف تلك الأقنعة الضامرة وخلف المرآة الكامدة لتلك العيون المنطفئة... كان وجوداً غريباً حيث اللامبالاة والصمت الكئيب، وكانوا بعيدين جداً عن الناس مع أنهم يعيشون ويتحركون حولهم!

ويهيم هناك أيضاً عند حلول الليل عدد لا يُحصى من المخلوقات التي ترتدي أسمالاً قذرة، يهوديات من «الحارة» أو سيسيليات من «سيسيليا الصغيرة» وهما حيّان خطيران سيّئا السُّمعة قرب المرفأ.

وكانت الثكنات هي ما تدفعهن للقدوم إلى هناك. كن متسولات ومومسات عند توفر الإمكانية لذلك. وكن يقصدن ذلك المكان ساعة العشاء، حيث ينتظرن في الزوايا المظلمة على امتداد الأسوار خروج الجنود...

ومع ذلك يبقى باب الغورجاني أحد أكثر الأماكن خلواً من المارة والسكان، وأكثرها اتساماً بالهدوء اللذيذ...

وفي ليلة حارة من ليالي آب/ أغسطس، حين كانت العاصفة تثقل الجو بوطأتها، ولما لم أستطع النوم، خرجت لأهيم حالمة وسط متاهات الشوارع العربية حيث تنتهي الحياة بانقضاء النهار.

وقبل حلول النهار بقليل، بلغت حي مورقاد، حيث ما تزال قائمة، مع لامبالاة العِرق العربي، بعض الأزقة المهجورة والخرابات بالقرب من سوق الحجامين والتي تعجّ بالحركة والناس نهاراً.

ولما أعياني التجوال من دون هدف، جلست على كومة من الأنقاض منتظرة طلوع النهار.

كانت ظلمة ما قبل الفجر الحالكة تغلّف المكان، ولكن من ناحية الشرق بدأت شرفات المنازل المنبسطة ترتسم باللون الأسود على الأفق الرمادي المخضر الذي لا يكاد يميَّز.

وبدا مسجد المورقاد ومنارته المربعة القريبان جداً مقفرين أيضاً تماماً مثل الخرابات المجاورة. . .

وفجأة، فتح مصراع خشبي فوق رأسي، وصفق الجدار بعنف. . . وانزلق دفق نور محمرّ على طول السور، وصبغ البلاط باللون الأحمر. . . كان المؤذن قد استيقظ.

وسرعان ما شرع في ندائه البطيء، كما في قلب حلم مستمر، بنغم حزين وعذب جداً.

وبدا صوته الفتي والمنغّم تماماً كأنه يهبط من مكان شاهق، ويحوّم في صمت المدينة النائمة.

«الله أكبر! الله أكبر![1]» كذاك صاح المؤذن فاتحاً نوافذ المنارة الأربع الصغيرة على التوالي.

وكانت أصوات أخرى ترد على صوته في البعيد، بينما استفاقت في بستان مجاور بعض الطيور، وشرعت هي أيضاً في تراتيلها شاكرة مصدر كل الحيوات وكل الأنوار.

«الصلاة خير من النوم!»

أطلق صوت الحلم، الذي ازداد وثوقاً شيئاً فشيئاً هذه الجملة الأخيرة، بنبرة عالية وحاسمة. . . ثم أقفلت المصاريع الأربعة على التوالي، بالاصطفاق الحاد نفسه.

وهوى كل شيء في الظلام والصمت، وهبت نسمة باردة، قادمة من أعلى البحر على المدينة.

. . . بهدوء، ومن دون استعجال، انزلق القارب الضامر في مياه القناة الصافية جداً والشديدة الملوحة، بين الجرفين المنخفضين والمحمرين اللذين يفصلاننا عن البحيرة. قصدنا عُرض البحر الذي يقفل الأفق هناك بخط معتم.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي. المترجم.

كنا نذهب دوماً في شعاع المساء الوردي، وفي المياه الهادئة، وفي المياه الفاترة للبحيرة النائمة، ولم يكن القارب يهتز.

وعلى التلة ذات التراب الصلصالي الأحمر، حيث نثرت قبور ناصعة البياض، وبساتين كثيفة الاخضرار، كان ينتصب إلى اليمين بيت الولي سيدي بلحسن ذو اللون الفاتح، وأبعد منه الحصن العتيق المسنّن الراسخ، والغارق في بخار بنفسجي.

وكان جبل بوقرنين يعرض قمتيه كتوأم بزرقة غامقة وقد غمره ضباب المساء الآخذ بالحلول.

وفي البعيد، تنعكس منازل رادس البيضاء الصغيرة على صفحة المياه المتحركة للبحر الحقيقي الحر.

وإلى اليسار، يتراءى في وهج السماء التل العظيم حيث كانت مدينة قرطاج...

كنت أنظر مفكرة إلى لغة الأرض، إلى أنف الجبل الذي يتقدم نحو عُرض البحر، حيث كتبت في القديم إحدى صفحات التاريخ الأكثر كآبة حد الدهشة... تلك البقعة من الأرض التي أريق فيها دم كثير.

وكانت الأديرة البيضاء التي تحاول استحضار ذكريات قرطاج البيزنطية وقرطاج الهجينة في عصور الانحطاط، تختفي في اللمعان الغربي، ويبدو التل القرطاجي مقفراً ومجرداً.

وهكذا تنبثق كل صور الماضي الرائعة من هذا التلألؤ الأحمر، وتعيد إعمار التل الحزين... حيث قصور القضاة، ومعابد الآلهة الكئيبة، وبذخ البرابرة وأبّهتهم، وكل تلك الحضارة الفينيقية الأنانية والمتوحشة والقادمة من آسيا لتتطور وتزداد مجداً على أرض إفريقيا الشرسة والملتهبة.

ولكن ما إن توارت الشمس في الأفق حتى تناهت إليّ أصوات المؤذنين الجهورية من المساجد البعيدة. وأخذت كل قرطاج حلمي، المحاكة من المثالي والظلال، تهوي وتنطفئ مع الأضواء الممجدة للمساء المحتضر.

ملاحظة

نشرت ساعات تونس لأول مرة في شهر تموز/يوليو من سنة ١٩٠٢ في العدد الثامن والعشرين من المجلة البيضاء (يوجد في موجزها توقيع أبولينير)، وأعيد نشرها

من قبل فيكتور باريكون مع بعض التصحيحات في الأخبار في شهر نيسان/ أبريل من سنة ١٩٠٥، وفي طبعة كتاب في ظل الإسلام القائظ (فاسكيل ١٩٠٦).

وظهرت رواية نعيد نشرها أسفله سنة ١٩٢٦ في الأخبار تحت عنوان لمحة عن مخطوطات روسية، مع هذا التقديم لفيكتور باريكون: «من بين أوراق التحرير التي تركت لنا إيزابيل إبرهارت عناية إعادة النظر فيها ونشرها توجد كرّاستان كتبتا باللغة الروسية، عُنونت الأولى «صحراء» أما الثانية فـ«تشرد».

في ذكريات عن الواد وتونس قدمت بلامبالاة، أرادت السيدة بن التامي وهي زوجة دكتور روسية الأصل، أن تمنحنا إياها حرفياً، وتبدأ الصفحات الأولى هكذا...»

مخطوطات روسية

تونس، حزيران/يونيو ١٨٩٩

مضى شهر وأنا أحيا حياة رغبت في أن تكون منعزلة ووحيدة في منزل جميل بأحد أهدأ أحياء تونس.

تمر أيامي من دون كدر، هادئة وصامتة.

توجد برفقتي بربرية تبلغ من العمر خمساً وسبعين سنة، وهي الخادمة خدوجة الصماء والمقوسة، وديدال كلبي الوفي من نوع بربيت، والذي تبعني عند تركي للعش العائلي المدمَّر الآن. ولا تزعج خدوجة أو ديدال ترتيباتي الحالمة.

وهكذا، فقد كان بإمكاني أن أبقى لساعات طويلة مستلقية على سريري العربي، أتابع تحليق أحلامي. وكانت غرفتي مربعة الشكل، بأرضيتها وجدرانها المغطاة بالفسيفساء ذات الزخرفة العربية البديعة. ووسط السقف يغوص ما يشبه قبة مذهبة مع طلاء للجبص منقوش بمقعرات، ومنحوت ومحفور بتخريمات شرقية. وكان الهواء يدخل هذه الغرفة الواسعة عبر ثلاث نوافذ على الطريقة الباريسية، وهي مغلقة على الدوام، سامحة لنور خفيف غريب بأن يتسلل. وكانت تطل على زقاق ضيق، ونظيف جداً لا يصدر عنه أي صوت فلا محلات فيه ولا مقاهي.

وكانات دعامات أقواس قديمة مطحلبة على شكل جسور صغيرة تقوم وسط الزقاق كأنما لتدعم بيتي بالبيت المقابل. هنا المباني خفيفة غير أنها تستطيع أن تصمد لقرون.

ونادراً ما يمر حامل الماء الصحراوي «ببردته» على كتفه. وكان بالإمكان سماع

انبجاس الماء بالنافورة، وبعض الكلمات بلكنة الجنوب، ثم تبتعد الخطوات ولا يسمع شيء بعد ذلك. وبجانب بيتي يوجد ممر سيدي مياشيد الصغير، والغارق دوماً في صمت أشبه بصمت الموتى.

جلست خدّوجة على السجادة، وكانت تصلي بعينيها ناقرة حبات سبحتها الخشبية.

تتألف السبحة الإسلامية من مئة حبة، وكل حبة تؤكد صفة إلهية حيث الوحيد والحكيم والكريم والخالق والحكم والمالك حتى تسع وتسعين صفة، ومع الحبة المئة، وهي الأكبر، يردد اسم الله!

تمتد في بعض الأحيان يد خدوجة الجافة إلى علبة فيها حبوب معطرة، فتلتقط إحداها، وتلقيها تحت قِدر صغير فيصعد من النار دخان أزرق خفيف يختفي سريعاً تاركاً خلفه رائحة نفّاذة.

كان ديدال مقعياً جوار سريري، ويبدو نائماً، غير أنه كان يراقب تحليق الذباب بنظرة ضجرة. وعند منتصف النهار، وعند الساعة الرابعة، يُخرق الصمت بصوت يصيح بإنشاد فريد، ويبدأ ناعماً وينشر حزناً كبيراً ثم يرتفع الصوت كما لو انه يحلّق في الفراغ.

كان المغربي المسنّ المؤذن – المفتي في مسجد سيدي البغدادي يدعو المؤمنين إلى الصلاة، وتتجاوب معه أصوات في البعيد، لتشهد أحدية الله، أحد مبادئ الإسلام.

استحوذت هذه الفكرة في البداية على روح الرسول السمحة والحليمة، بل إنها جوهر وحيه، ولأجل هذا غالباً ما يتردّد في القرآن، أن الله واحد وأن لا إله إلا هو.

ولا يلبث النداء الكبير أن يتباعد ويتمدد ليختفي في النهاية.

تدفعني هذه الحياة وهذا الهدوء الذي يقطع أحياناً بذلك الإنشاد الغريب لأغوص في حزن عذب، فأستسلم تماماً لراحة الروح التي ألفيتها أخيراً.

ملاحظة

تكشف الملاحظات التالية، التي لم يسبق نشر أغلبها، والتي تحكي بأسلوب البرقيات، عن أول رحلة كبيرة لإيزابيل إبرهارت إلى الجنوب، وعن جانب من جو إعداد ساعات في تونس.

وسنرى أن إيزابيل إبرهارت كانت في صيف سنة ١٨٩٩ تجهد نفسها في رحلات لا تنتهي، كما لو أنها كانت تردّد في قطع علاقتها بأوروبا نهائياً.

مرسيليا، صيف سنة ١٨٩٩

تركت جنيف يوم الرابع من شهر حزيران/يونيو لسنة ١٨٩٩، عند الساعة السادسة والنصف مساءً. وصلت إلى مرسيليا يوم الخامس منه على الساعة الخامسة والنصف صباحاً. فندق بوغو. يوم السادس منه، للتجول، وللقنصلية الروسية. يوم السابع منه في تولون. فترة بعد الظهر في سان ماندرييه مع ملاحي مركز تفتيش السفن وسفينة الأميرال دبيبري. ليلاً. فندق غابيي، ٧ شارع الجزائر. يوم الثامن منه العودة إلى مرسيليا. يومَي التاسع والعاشر منه بمرسيليا. وصول صامويل يوم العاشر منه، وصول أوغستان صباحاً رفقة تيريز.

يوم الثاني عشر منه الرحيل على متن سان أوغستان باتجاه تونس. يوم الثالث عشر منه في البحر. يوم الرابع عشر منه الوصول إلى تونس صباحاً عند الساعة الثامنة والربع. قضاء اليوم مع علي. الليلة في بنسيون ساليس ١٠ شارع إيطاليا. في العشرين منه، احتفال البحرية الليلي رفقة علي وأوغستان وعبد العزيز ورشيد وبورقيبة. الليلة في بنسيون ساليس رفقة رشيد. في الثالث والعشرين منه، ليلة أخرى رفقة رشيد في بيت زاوش ١٤ شارع بوخريص. في الخامس والعشرين منه رحيل أوغستان باتجاه مرسيليا. التجول ليلاً في رادس رفقة سي مُح.

يوم السابع من شهر تموز/يوليو الرحيل ليلاً رفقة سي مُحمد باتجاه لاغوليت. العودة عند الساعة الثانية والنصف صباحاً. في الثامن منه الرحيل إلى الجزائر عند الساعة الثامنة صباحاً. الإفطار في باجة. جسر تراجان. العشاء في قالمة. الوصول إلى خروب عند الساعة الحادية عشرة والربع ليلاً. قضاء الليلة قرب المحطة. فندق فيكتوريا. صبيحة التاسع منه جولة في القرية. الرحيل عند الساعة العاشرة. الوصول إلى باتنة عند الساعة الثانية والنصف. فندق الكونتننتال. بعد يومين (الحادي عشر منه) الرحيل عند الساعة الثالثة صباحاً على ظهر بغلين رفقة صلاح باتجاه تيمغاد. ضللنا الطريق. الوصول إلى تيمغاد عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً. الغداء ثم القيلولة قرب باب تراجان. جدال وشجار مع مفتش أطلال فاتان. الرحيل مرة أخرى

عند الساعة الرابعة ليلاً سالكين طريق كينشالا. العودة سريعاً على ضوء القمر الرائع حتى قرية نيغر.

مساء الثاني عشر منه رفقة صلاح والفارس الجزائري محمود بن محسن قضينا الليلة بقرية نيغر. العشاء عند علي فرانك بمقهى المحاربين. القهوة عند عائشة بنت أحمد. العودة بعد منتصف الليل بنصف ساعة. رؤية الأعمال الليلية البهيجة في الآبار الارتوازية الرائعة. سوق المواشي، ثم باب القسطنطينية.

يوم الثالث عشر منه، الرحيل إلى بسكرة عند الساعة الثانية والنصف. الوصول عند الساعة السادسة والنصف. الرحيل عند الساعة الثامنة والنصف على متن جواد رفقة صلاح بن محمد كمرشد إلى سيدي عقبة. الوصول عند منتصف الليل. قضاء بقية الليلة في باحة الشيخ على حصائر من قصب. الغداء ببستان الشيخ. جولة في مسجد سيدي عقبة العتيق. حوار في مقهى مع كاز[...] ومعلم عربي. الرحيل عند الساعة السابعة، والوصول عند الساعة العاشرة. سقوط الحصان في شرفة الفندق. الليلة نفسها رفقة صلاح وعريف سلاح الفرسان الجزائري في توقورت إسماعيل بن الحطاب بمقهى الحاج علي قبالة فندق روايال. عازفو الناي ومغنيات أولاد نايل. تدخين الكيف حتى منتصف الليل تقريباً.

يوم الخامس عشر منه، زيارة المقدم فريدل في المكتب العربي صباحاً ثم في بيته. الغداء في بيته. يقترح عليّ القائد دو سيسبيل أثناء العشاء في فندق الواحة الالتحاق بموكبه للذهاب إلى توقورت . قبلت ذلك. الأمسية بمقهى محمد شيوي في بسكارة القديمة رفقة العريف إسماعيل. يكشف لي نوايا دو سيسبيل السيئة، ووحشيته إزاء المسلمين.

يوم السادس عشر منه، تلقيت مبلغاً من المال من أوغستان (٤٠٠ فرنك). يحضر سيسبيل عند العشاء لمرافقتي من أجل الرحيل. رفضت تحت ذريعة انتظاري للمال. يرجوني الإسراع ويخبرني بأنه سينتظرني في شغة، المرحلة الثانية في الطريق إلى توقورت .

يوم الثامن عشر منه، الساعة التاسعة والنصف ليلاً، الرحيل رفقة صلاح والبوسعيدي شليلي بن عمار باتجاه توقورت. قضاء الليلة حتى الساعة الثانية بمقهى شيوي في بسكرة القديمة رفقة ابن أحد الصوفيين (المرابطين)، وفرسان جزائريين.

الرحيل عند الساعة الثانية. يوم التاسع عشر منه، الوصول عند الساعة التاسعة إلى برج سعادة. القيلولة. بعد الساعة الثالثة، لعب الورق رفقة أعضاء قافلة شيوية. معسكر قرب البرج. درس في الفرنسية لشيخهم عند المغرب. الرحيل مجدداً عند الساعة الثانية والنصف صباحاً. الوصول إلى شغة عند الساعة الثالثة والربع. رجال مرحون قادمون من غيمار من دون رتب من أجل تقديم شكوى للجنرال في باتنة. تناوُل القهوة معهم.

يوم العشرين منه، الرحيل عند الساعة السادسة إلا ربعاً. الوصول إلى بئر ستيل عند الساعة الحادية عشرة. ماء جيد. شجار مع الحارس. حُمّى. شدة الظمأ. عدم إيجاد ما يؤكل (العيش على الخبز منذ ليلة الثامن عشر منه). الرحيل عند الساعة التاسعة ليلاً.

اللقاء عند المركز التلغرافي في الساعة التاسعة، جنوب ستيل قوافل شعانبة قاصدة بريكة في ورقلة. الشيخ عبد القادر بن علي، رمز للعطف يقترح عليّ اصطحابي إلى ورقلة في قافلته من دون تعويض.

عند الساعة الواحدة، كنت على وشك الموت رفقة حصاني في إحدى السبخات (بحيرة جافة مالحة) غرب الطريق.

عند الساعة الثالثة، الترجل ومنح حصاني مؤقتاً إلى عامل شيوي كان يمشي راجلاً معنا حتى لا يبقى وحيداً. تتبعت راجلة مزروعات المجتمع الفرنسي لواد رير. الوصول إلى مراير عند الساعة الخامسة. ثمِلت في النُّزل رفقة صلاح. فضيحة في القرية مع فتاة من أولاد نايل. ثمِلت في الليل مع صيادي إفريقيا من مكتب التخطيط، فيموا وشاسار.

الرحيل عند الساعة التاسعة. ضللنا الطريق. الانضمام إلى الشعانبة عند منتصف الليل. الالتقاء باثنين من البدو، رجل وامرأة، قاصدين تحت إمرة أبو فاي الزنجي المسلح بلدة جماعة بعد أورلانا، من أجل الطلاق. مضيا في الطريق معاً.

الوصول في الثاني والعشرين منه عند الساعة الثانية إلى النبع المسمى عين صفرا. الراحة رفقة المطلقين. الرحيل مجدداً مروراً بالبرد عند الساعة الخامسة صباحاً. الانضمام إلى الشعانبة عند الساعة السابعة. عند الساعة التاسعة الراحة عند أول ساقية بواحة أورلانا.

صعود البرج. إيجاد أمر من سيسبيل بعدم السماح لي بالإقامة في البرج لأكثر من أربع وعشرين ساعة. حكاية مكاييل الشعير المنقوصة، وضربات الكرباج التي نالها الشيخ (أو القايد؟). يوم من الظمأ والحمى في ملجأ الجنود.

الرحيل عند المغرب. إمضاء حوالي ساعة في البحث على ضوء أعواد الثقاب فقط عن منبع الماء الوحيد الصالح لأورلانا في الطريق إلى مغار. عند إيجاده إرواء الأحصنة والبغال المريضة بواسطة قربتي. تبديل ماء القربة. شجار في الطريق مع شيخ أورلانا.

حوالي منتصف الليل، الالتقاء بقائد دائرة توقورت المسافر بعربته في إجازة. حوالي الثانية صباحاً، الاستراحة بسبب التوعك، حيث أخذنا، ثلاثتنا، في القيء والدوار. النوم في قلب الصحراء على الرمال.

البحث عن المطايا عند الاستيقاظ. حاول الرجل من بو سعادة إشعال سيجارة برصاصة من مسدس. بقي لخضر وبغله في الخلف حاملاً الماء والخبز.

يوم الثالث والعشرين منه، من الساعة الثانية إلى الساعة الرابعة عبور القمة الغريبة لسبخة مروان. الوصول (أنا وصلاح) إلى المغار عند الساعة الرابعة. شرب القهوة في موقف الإبدال للبريد. الذهاب للبحث عن شليلي. إيجاده.

مغادرة المغار حوالي الساعة السادسة. الوصول إلى توقورت حوالي الساعة الحادية عشرة. النوم طيلة النهار. الأمسية في الماخور رفقة المغنيات والعريف إسماعيل. قيلولة عند محمد بن زهار.

حوالي الساعة الرابعة، الخليفة عبد العزيز والديرة سليمان يحضران للبحث عني من أجل الذهاب إلى دو سيسبيل. محادثة لحوالي ساعتين. في البداية كانت عنيفة ثم صارت أكثر لطفاً من قبل القائد. رفض بارد ومهذب للسماح لي بالذهاب إلى ورقلة، أي عدم إعطاء مرشديّ الإذن بمرافقتي.

حتى الساعة العاشرة، كنت ما أزال أبحث عن شعانبة من أجل الرحيل معهم تاركة مرشدي بتوقورت.

العثور على الطيب الشيوي الذي يخبرني بأن الشيخ يحييني وبأنه رحل عصراً عند الساعة الرابعة.

يوم الخامس والعشرين منه. صباحاً العودة إلى المكتب العربي، وطلب الإذن من أجل مرشدين في صوف. قبول الطلب.

قضاء أيام السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن والعشرين منه بتوقورت.

يوم الثامن والعشرين منه على متن حصان بتماسين. يوم التاسع والعشرين منه، عند الساعة الرابعة بعد الظهر، الرحيل إلى الواد. حُمّى شديدة. السقوط في الكثيب قرب قميرة متيل. مرافقة رجل البريد الزنجي عمرو. يوم الحادي والثلاثين منه، الساعة الثانية صباحاً، الرحيل رفقة رجل البريد بلخير. الوصول حوالي التاسعة والنصف صباحاً إلى فرجان. العثور على العريف عثمان والفارس الجزائري محمد بن الطاهر. الحمى طيلة النهار.

الفاتح من شهر آب/ أغسطس، الساعة الثانية والنصف صباحاً الرحيل مع الدليل الصوفي حبيب. الوصول حوالي الساعة التاسعة صباحاً إلى موَيّت القايد. قيلولة. الرحيل بعد المغرب.

الوصول حوالي الساعة السابعة صباحاً إلى بئر أورميس. قضاء النهار ببستان الشيخ. شجار وعِراك المرشدين مع أبناء الشيخ. قضاء الليل أمام البرج.

يوم الثالث منه. الساعة الخامسة صباحاً الرحيل. عند الساعة الرابعة توقف قصير بقصر كوينين من أجل الشرب. المغرب بالكثيب الكبير.

الوصول إلى الواد عند الساعة السابعة. حضور جنازة إسلامية.

في بلاد الرمال

هناك ساعات فريدة وأوقات متميزة بشكل غامض حيث تكشف لنا بعض المناطق بحدس مباغت أرواحها، ونوعاً ما جوهرها الخاص، وحيث نحمل منها رؤية سليمة وفريدة، لن تستطيع أشهر من الدراسة الجادة إتمامها أو حتى تعديلها. ومع ذلك، تفر منا بالضرورة في تلك اللحظات الخاطفة التفاصيل، ولن نتمكن من رؤية الأشياء إلا في مجملها... هل يعود ذلك للحالة الخاصة التي تكون عليها أنفسنا أو المظهر الخاص لتلك الأماكن التي تدرك بصفة عابرة، ودوماً من دون وعي؟

لست أدري...

ثم إنّ وصولي الأول إلى الواد قبل سنتين كان بالنسبة إليّ اكتشافاً كاملاً ونهائياً لصوف، ذلك البلد الفظّ والرائع، بجماله الخاص وبحزنه الكبير أيضاً.

بعد القيلولة في بساتين واحة أورميس الظليلة، جنحت الروح على نحو غير منطقي، وهي التي كانت في حالة انتظار قلق إلى رؤية شعرت بأني تجاوزت بروعتها كل ما رأيته حتى ذلك الوقت، فقد كنت أسلك طريق الشرق رفقة الموكب البدوي الصغير، في ممر وعر يتعرج تارة في شعاب الكثبان المنحدرة، ويصعد تارة أخرى القمم الحادة في ارتفاعات لا مثيل لها.

وبعد أن عبرنا، ببطء وكما في حلم، المواقع القديمة المحصورة حول الواد حيث كوينين وتقصبيت وغارة، وصلنا إلى القمة المائلة والشديدة الانحدار للكثيب المسمّى كثيب سي عمار بن لحسن على اسم ميت دفن في المكان عينه حيث كان مقتله.

كانت تلك هي الساعة المختارة، الساعة المدهشة في بلاد إفريقيا حيث تغيب أخيراً الشمس التي قُدّت من نار، تاركة الأرض تستريح في ظل الليل الأزرق.

من قمة ذلك الكثيب يمكن اكتشاف الواد كله، حيث تتزاحم الأمواج المترامية لمحيط الرمال الرمادية الكبير.

ولما كانت الواد، تلك المدينة الغريبة ذات القباب الدائرية الصغيرة والعديدة، متدرجة على السفح الأوسط لأحد الكثبان، فقد كانت تغيِّر لونها ببطء.

كانت تقوم أعلى التلة منارة سيدي سالم البيضاء، وقد تقزحت وأضحت وردية اللون في الانعكاس الغربي.

وكانت ظلال الأشياء تتمدد بإفراط، وتتغير أشكالها وتشحب على الأرض، ويصير الجوار حياً من دون صوت.

ولكل مدن بلاد الرمال المبنية من خثارة الجص هيئة فظة وخربة ومهدمة.

وعلى مسافة قريبة، تقع القبور، قبور مدينة أخرى، مدينة أموات متصلة بمدينة الأحياء.

وتبدو الآن الكثبان المستطيلة المنخفضة لسيدي مستور التي تشرف على المدينة من الجهة الجنوبية الشرقية مثل دفقات المعدن المتأجج والمنازل التي تسطع بالأضواء، بلون أحمر مائل إلى البنفسجي بكثافة لونية يتعذر تصورها.

وعلى القباب الصغيرة المدوّرة، وعلى بقايا الجدران الخربة، وعلى القبور البيضاء، وعلى تيجان أشجار النخيل الكبيرة المبعثرة، كانت تزحف أنوار حريق مجلّلة المدينة الرمادية بألقٍ متوهّج.

وكان يرتسم السراب البحري للكثبان الكبيرة على الطريق الأخرى المقفرة، التي تقود إلى توقورت والتي أتينا منها عبر طيبة القبلية، متقزحاً وغارقاً في انعكاسات صبغت باصفرار فاتح فضي على لون المغيب الأرجواني.

لم يسبق لي أبداً أن رأيت المساء في أي بقعة على الأرض، يتزين بمثل تلك الروعة الساحرة!

وليس في بالواد غابة نخيل تجعل المدينة مزدحمة مثل الواحات في المناطق الصخرية أو المالحة.

فالمدينة الرمادية الضائعة في الصحراء الرمادية المساهمة كلها في توهجاتها وشحوبها، هي مثلها وردية ومذهبة في الصباحات البهيجة، وتغدو بيضاء تعمي الأبصار عند انتصاف النهارات الحارقة، وأرجوانية وبنفسجية في الأماسي المشعة...

ورمادية تماماً مثل الرمال التي ولدت من رحمها، وتحت السماوات الباهتة لفصل الشتاء!

رحلت الآن بعض الأبخرة البيضاء الخفيفة التي كانت تحلّق في وهج الشمس العميق، أرجوانية ومزركشة بالذهب، مثل مزق معطف إمبراطوري بعثرتها هبة نسيم طائشة. . .

ودوماً وخلال كل هذه التحولات، وخلال كل سحر الأشياء الكبير هذا، ليس هناك من شخص أو صوت.

وكانت الأزقة الضيقة بين المنازل القديمة تنفتح فارغة على الشساعة النارية للمقابر الغامضة غير المسيجة بسور أو بحد.

ومع ذلك، فصبغة السماء الأرجوانية التي تبدو منعكسة على سديم الكثبان تصبح أكثر ظلمة وأشد غرابة.

وينهي قرص الشمس المفرط الأحمر من دون أشعة غرقه خلف الكثبان المنخفضة للأفق الشرقي قرب عليندة وعراير.

وفجأة تنبعث من كل الأزقة الميتة مواكب نساء كثيرة في صمت محتجبات بأسمال معتمة قديمة زرقاء، وحمراء، حاملات على رؤوسهن وعلى أكتافهن جراراً كبيرة ذات عروتين من الطين المشوي. . . وبالحركة المنحوتة عينها قبل آلاف السنوات، كانت النساء المتحدرات من نسل سام، يغترفن الماء من الينابيع الكنعانية.

نساء يضعن أثواب قاتمة يشبهن أشباحاً في المحيط اللامحدود للضوء الأحمر الذي يغرق المدينة والمقابر، وينزلن بانحناءات إغريقية قاصدات في صمت البساتين العميقة المختفية تحت كثبان من نار.

وفي البعيد، كان ناي من قصب يتوجع حزناً رقيقاً منغماً، ممدوداً ومكسراً في آن مثل نحيب. وكان الصوت الوحيد الذي يتردد ضعيفاً في مدينة الحلم تلك.

لكن هي ذي الشمس قد اختفت وسرعان ما سيغرق وهج الكثبان والقباب ببطء في لون بنفسجي بحري، وتصعد ظلالها العميقة التي تبدو كأنها تخرج من الأرض المعتمة، زاحفة ومطفئة بالتدريج الأضواء التي ما تزال تنير القمم.

يتوقف صوت الناي المبتهج. . .

وفجأة، يتردد صوت جهوري بطيء من كل المساجد الكثيرة.

ـ الله أكبر! الله أكبر!

آه! كم ترنّ غريبة هذه النداءات الألفية للإسلام، كما لو أنها شُوِّهت وأُعتمت بفعل أصوات المؤذنين الفظة والخشنة ولُكنتهم الصحراوية!

وينزل شعب بأكمله من كل الكثبان والأودية الصغيرة التي تبدو خالية وقد لبسوا جميعاً لباساً أبيض موحداً في صمت وخشوع قاصدين الزوايا والمساجد.

وهنا، بعيداً عن مدن التل الكبيرة، لا وجود أبداً لتلك الكائنات الصاخبة نتاج الزنا والانحلال ولعرق هجين من هؤلاء الجوالين والباعة المتنقلين والحمالين والشعب القذر والدنيء من أولاد البلاسة[1].

هنا حيث الصحراء الحارقة الصامتة، بحزنها الأبدي، وبرعبها وابتهاجها، والتي حافظت بشكل يثير الغيرة على عِرقها الحالم والمتعصب الذي جاء منذ القدم من الصحارى البعيدة لوطنها الآسيوي.

والبدو ذوو الملابس والسلوكات الكتابية ضخام جداً ووسيمون جداً، يذهبون للصلاة لله الواحد والذي من دون شك لن يمس أبداً الأرواح السليمة والجافية.

وهم في مكانهم المناسب هنا، في الفراغ العظيم لأفقهم غير المحدود حيث يهيمن النور المهيب ويعيش بروعة...

انطفأت آخر الأنوار البنفسجية فوق المنارة البيضاء لسيدي سالم على قمة كثبان طرفاية وعليندة وديبيلا. وتزيّا كل شيء الآن باللون الأزرق الموحد الشفاف تقريباً، واختلطت القباب المدوّرة والمنخفضة مع القمم الدائرية للكثبان شيئاً فشيئاً كما لو أن المدينة امتدت فجأة حتى تخوم الأفق القصوى.

اكتمل حلول ليل الصيف على الأرض الناعسة... وعادت النساء ذوات الأثواب القديمة جداً لتدخل في الحواري الخربة، وعاد الصمت الخفيض الذي شوّشه للحظة قصيرة جداً بعض الصخب البشري، ليعمّ الواد من جديد...

وبدا أن الصحراء الشاسعة تعاود حلمها المزين، حلمها الأبدي.

بعد سنتين من ذلك، حظيت بفرصة أن أُعاين كل يوم، ولعدة أشهر، بهجة انبلاج الفجر الناعم، وعظمة الليالي التي لا تضاهى... وأضحى مألوفاً كل انعكاس

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، ولعل الكاتبة تقصد بهم أولاد الأبالسة. المترجم.

يعود كل ليلة على طرف جدار، وكل ظل يمتد في المكان نفسه في الساعة عينها، وكل قبة في المدينة وكل حجر في المقابر، وكل جُزيئة مهما كانت صغيرة في وطن الاختيار ذاك الذي أحببته بعمق، وظلت حاضرة إلى الآن في ذكراي الحميمية للمنفية التي كنتها.

غير أن روح بلاد الرمال لم تنكشف أبداً أمامي بمثل ذلك العمق، وبمثل تلك الغرابة، كما انكشفت في مساء ذلك الماضي البعيد.

فمثل تلك اللحظات لا يمكن إيجادها أبداً، ومثل تلك النشوة، يشعر بها المرء مرة واحدة فقط وبمحض الصدفة...

ملاحظة

ظهرت في بلاد الرمال لأول مرة في كتيّب سُحبت منه ١٣٨ نسخة، ونشرته كلوي بيليو (مطبعة توماس. بون (عنابة) نهاية سنة ١٩١٤).

وأعيد نشرها بتاريخ ٨ نيسان/ أبريل من سنة ١٩١٥ في الأخبار، وسنة ١٩٤٤ بواسطة روني لويس دويون، منشورات سورلو، وسنة ١٩٨٦ في ياسمينة وقصص جزائرية أخرى. (منشورات ليانا ليفي).

في رحلتها الأولى، لم تبق إيزابيل إبرهارت بالواد إلا ثلاثة أيام، غير أنها عقدت عزمها على العودة للعيش هناك، وهو ما ستقوم به بعد سنة، وفي انتظار ذلك، تابعت رحلاتها المتلاحقة ذهاباً وإياباً ، وتحرير ملاحظاتها.

.... ملاحظات من ٦ آب/ أغسطس إلى ٩ أيلول/ سبتمبر ١٨٩٩

مرسيليا، ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٩٩

يوم السادس منه، الساعة السابعة مساءً الرحيل رفقة الملازم أول تولا والميجر موريي إلى غيمار. موكب العريف بلقاسم بن الحاج عمار، الصوفي والفارس الجزائري. بلقاسم بن أحمد شعانبي (إلخ) تسعة جمال ومهري واحد.

قضاء الليلة في بليد. يوم السابع منه، ديفا. والقيلولة بغيمار. الليلة بالبرج. ليلة احتفالية، أولاد نايل عند الشيخ. يوم الثامن منه صباحاً، زيارة للقاضي.

يوم التاسع منه، الساعة الخامسة والنصف مساءً، الرحيل. الميجر إلى الواد ونحن إلى الشمال. يوم العاشر منه، قضاء الليلة في بليد. الرحيل عند الساعة الثالثة والنصف والوصول حوالي العاشرة صباحاً إلى بئر بوشامة. فقد العريف بلقاسم حصانه بضربة شمس. القيلولة ببئر بوشامة. الرحيل مجدداً عند المغرب. الوصول حوالي منتصف الليل إلى سيف القنيدري. قضاء الليلة ببليد.

يوم الحادي عشر منه، الرحيل عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً. الوصول حوالي منتصف النهار إلى سطح ـ مراية. قيلولة. الرحيل عند المغرب. تهنا بعيداً ورحل الموكب أولاً. أنا والملازم أول والدليل الصوفي. العثور على الموكب في بليد حوالي الساعة الثانية صباحاً. معاودة الرحيل حوالي الساعة الرابعة. قيلولة من الساعة العاشرة وحتى المغرب في مغيبرا.

بئر بو شامة. الدخول إلى سبخة ملغير. لا وجود لماء صالح للشرب حتى سطح ـ مراية. ماء عكِر ومتسخ. ذهب عرب البرج إلى غيمار (٧٥ كيلومتراً) بحثاً عن مائهم. في مغيبرا الخروج من سبخة ملغير. البرج وحديقة معتنى بها جيداً.

في البعيد وقبل الانطلاق من مغيبرا، وفي غياب الملازم أول والعريف بلقاسم، قتال في البرج. صعوبة كبيرة في تهدئة الفرسان الجزائريين الذين أرادوا قتل سكان البرج.

منذ سيف الميندي انتابتني حُمّى شديدة. بين مغيبرا، التي غادرناها حوالي الساعة الثامنة، وشغة هذيان ببليد والهروب. الوصول إلى شغة (. . .) صباحاً. يوم الثالث عشر من شهر آب/ أغسطس.

قضيت النهار والليلة مريضة. الرحيل عند منتصف النهار، وأنا في عربة طاقم القطار. تركنا جنود القطار حوالي الساعة الثالثة. النوم ببليد قرب جيفاير. الرحيل صباحاً (شروق الشمس). الوصول عند الساعة السابعة إلى برج سعادة. قيلولة. إرسال حما سرير إلى بسكارة لجلب الثلج. قضاء الليلة. يوم السادس عشر منه أمضينا النهار في برج سعادة. عودة حما سرور حوالي الظهر. منتصف الليل مغادرة برج سعادة. الوصول إلى بسكرة في السابع عشر من شهر آب/ أغسطس عند الساعة الخامسة صباحاً. يوم الثامن عشر منه، انطلاق الموكب قاصداً الواد. ضيافة الوداع عند القاضي.

يوم التاسع عشر منه، عند الساعة الخامسة، الرحيل رفقة الملازم أول إلى باتنة. الوصول عند الساعة العاشرة صباحاً. العشاء رفقة لوتور بفندق الكونتينونتال. يوم الواحد والعشرين منه، انطلاق الملازم أول إلى القسطنطينية. يوم الثاني والعشرين منه، الرحيل إلى جبل أوريس عند الساعة الثالثة صباحاً رفقة الطيب بن محمد والديرة حسين.

قضاء ليلة في واد حملة يوم الثالث والعشرين منه. قيلولة بالواد الأزرق رفقة حارس الغابة حمود. الليلة عند حمود. يوم الرابع والعشرين منه قيلولة في أولاد آهدي عند سفح الجبل. يوم الخامس والعشرين منه، الدخول إلى حِمى أولاد سلطان. اليوم الثاني صعود جبل زوغون.

قضاء الليلة بغابة الأرز. يوم السابع والعشرين منه، النزول إلى البريكة. لا قيلولة. الدخول إلى قنشالا مساءً. قضاء الليلة بالفندق. العودة إلى باتنة. يوم الثامن والعشرين منه عند الساعة العاشرة، برقية من أوغستان. يوم التاسع والعشرين منه، الرحيل بالقطار عند الساعة العاشرة. الوصول إلى بون عند الساعة العاشرة والنصف. قضاء الليلة بفندق الشرق. التجول منتصف الليل في المقبرة الإسلامية رفقة السائس علي. يوم الثلاثين منه، العثور على أحمد. التجوال في سيدي إبراهيم وراس الحمرا. مساءً، وصول أوغستان وهيلين عند الساعة السابعة والنصف. قضاء يوم الفاتح من شهر أيلول/ سبتمبر في بون. نزهة رفقة سيدي لخضر في واد دهيد. التجول رفقة أحمد وديدال قبة ميرموندو (؟).

يوم الثاني منه السفر بالقطار الساعة التاسعة والنصف صباحاً. الوصول إلى تونس عند الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً. قضاء الليلة بفندق باريس. صباح الثالث منه، الساعة الثامنة، عند علي لإجراء الصلح. الليلة، التجول في لاغوليت.

يوم السابع منه، الانطلاق عند منتصف النهار إلى مرسيليا على متن أوجين بيرير رفقة أحمد. يوم الثامن منه، الوصول عند الساعة الثامنة مساءً. التاسع منه، الرحيل إلى سوس عند منتصف النهار. الجنرال ـ شانزي.

خريف في الساحل التونسي

مررت قبل فترة قصيرة بإحدى تلك الأزمات النفسية التي تترك الأرواح منهكة، كما لو أنها منطوية على نفسها وعاجزة لمدة طويلة عن إدراك الأحاسيس الجميلة، وتبقى حساسة أمام الألم فقط.

ومع ذلك، فمن ضمن كل الرحلات التي قمت بها لعلّ الرحلة إلى الساحل التونسي كانت الأكثر هدوءاً.

فما إن صعدت قطار سوس حتى انتابني شعور فريد بالهدوء المفاجئ.

انطلق القطار ببطء وبخمول، متوقفاً بمحطات كثيرة جميلة وشديدة الاخضرار. في البداية ماكسيلا ـ رادس، القريبة جداً بمنازلها البيضاء على الرمال التي تضربها الأمواج الآتية من البحر، بينما تلمع في الشمال الشرقي مرآة البحيرة الساكنة. ثم مكان الاصطياف الأرستقراطي الخاص بأثرياء المسلمين. حمّام الليف.

وكلما ابتعدت خطوط السكة الحديد غاصت في الريف وابتعدت عن الساحل.

وهناك، ألفيت المظاهر المألوفة لبلاد البدو حيث التلال الحمراء، والحقول التي يتركها الحصادون العرب مذهبة بالمراعي الجرداء، والمراعي الرمادية حيث القطعان والرعاة الرحّل... وفي أماكن متفرقة جمل بجسده الساكن والغريب... وكان القطار يعبر أحياناً جسراً حديدياً صغيراً مجتازاً وادياً غير معروف جف بعد فصل الصيف واجتاحه غار الورد المكلل بالأزهار.

ولكن قرب بئر بو رقبة تعود خطوط السكة الحديد للاقتراب مجدداً من البحر الذي نراه هادئاً وبنفسجي اللون، من مكان مرتفع جداً في السماء القائظة لمنتصف النهار. وكانت هناك من الجانبين مروج خضراء جداً وغابات زيتون صغيرة، جردت

من أكفانها الصيفية المغبرة مع أولى التساقطات الخريفية.

وكان الشاطئ المنخفض ينشطر إلى جونات واسعة وصغيرة ولطيفة وإلى رؤوس مخرّمة خضراء ناعمة في السماء اللازوردية والليلكية الساكنة لخليج الحمامات. وفي أماكن متفرقة، قرى الصيادين الصغيرة الواقعة على رأس أو في عمق جون صغير، ناصعة البياض كالحليب بفعل الكلس النظيف، تعلوها منارات صغيرة تنعكس على الماء العميق.

كانت مظاهر هادئة ولطيفة لبلد عريق جداً يستلذ بسكينة ورخاء أبديين... وحيث يشق التعرف في أي منطقة من العالم نوجد لولا أنه يمكن في كل ممر رؤية البدو ساكنين على متون جيادهم الهزيلة والشموس ملتفين في طيّات السفساري الثقيلة التي تحلّ لدى الشعب في تونس محلّ برنس الجزائريين. وجوه جافة سمراء وغالباً مرداء على الهيئة الجلية للعرق البربري... ونظرات لامبالية وحزينة بالنسبة لغالبيتهم.

وما إن نصل بو- فيشا حتى نلج بساتين الزيتون الكبيرة التي تغطي الساحل التونسي.

وفي الليل الحار الهادئ، وبعد منزل دار ـ بل ـ أوار بالريف الناعس تنتشر في الأجواء رائحة عطرة غير أنها ثقيلة ومنفرة. كنا ندنو من معاصر الزيتون الكثيرة بسوس.

ذهبت إلى هناك من دون سابق معرفة، ومن دون هدف، ومن دون استعجال، وخاصة من دون مسار محدد... كانت روحي هادئة ومنفتحة على كل الأحاسيس المحبة للوصول إلى بلد جديد.

... سوس مدينة عربية متعرجة وساحرة ومتدرجة على تلة مرتفعة وما تزال مسوّرة بسور مغربي مسنن وأبيض كالثلج. وعلى الجانب الآخر من التلة، خارج التحصينات، كانت هناك مقابر كبيرة محاطة بسياجات تشكلها أشجار تين برية أحرقتها الشمس وجعلت لونها أصفر. وفي الأعلى، كانت الأسطح الحمراء، والبنايات العالية والمنخفضة لمعسكر الجنود.

جميلة هي سوس. وكانت تلقّب في القديم بـ«الجوهرة»، أما الآن فتدعى سوسة أي «دودة القز».

تنحدر الطريق من سوس إلى المنستير باتجاه البحر الذي تحده الحدائق والأكواخ الإيطالية، ثم تلج ريفاً مصفراً وكئيباً، مشكلاً من حقول قاحلة شطرت إلى سبخات صغيرة مالحة وناصعة البياض.

. . .بدت لي هذه المنطقة المهجورة لأول مرة تحت سماء خفيضة ومحملة بالسحاب. . . ثم أخذت تمتد كامدة وكئيبة عند حلول الليل الخريفي. . .

ولكنْ ما إن بدأت البساتين في الظهور حتى أخذت تعبر غابات الزيتون التي تضم السواقي حيث تقود البدويات الصغيرات قطعانهن وأحصنتهن العنيدة.

غير أن المنستير تبقى مدينة فريدة بسحر وحزن خاصين.

وككل المدن العربية للسواحل المنخفضة، شُيّدت بجوار البحر على أرض مالحة ومغطاة بالملح الصخري، منازلها رمادية من طبقة واحدة غير مبلطة. كانت المنستير تشبه الواحات الصحراوية الحزينة، ولكانت في مكانها الملائم لو كانت على ضفة بعض سبخات واد رير الغريب. . .

غير أن الساحل محفوف بصخور ناتئة. حيث يُسمع هدير البحر دائماً، حول رأس كحلية الصخري المرتفع الذي يفصل المدينة العتيقة عن المرفأ الصغير الحديث. ويبدو كأني ما أزال أسمع تلك الهمسات الأبدية، وذلك الأنين العميق واللطيف بعد سنوات لِفرط ما قد أطربتني موسيقاها خلال جولاتي الفردية والليلية وأحلامي الطويلة على الشاطئ.

ولم يكن سكان المنستير يشبهون سكان حاضرتي تونس وسوس المخنثين، ذلك أنهم لطفاء ومهذبون وودودون غير أنهم لا يتصفون أبداً بتلك العظمة الخشنة للعرق العربي الأصيل، الذي ولد من أجل الحلم والحرب.

وتماماً مثل سوس، تحتل المنستير عمق شرم كبير بجوانب دائرية ولطيفة تنفتح على الشرق.

تمضي الطريق مجدداً عبر الساحل من المنستير إلى قصر ـ هلال، وعبر حقول حُصدت وبساتين زيتون.

هناك، عندما تطلع الشمسُ من البحر الأرجواني العالي صباحاً، في الوقت الذي

يتقزح فيه كل شيء ويغدو مذهباً، يشاهد شعب بأكمله من الصيادين يخلعون ملابسهم وينزلون جميعاً إلى الماء قليل العمق، ويبتعدون قليلاً داخل الشرم حاملين القفاف والسلال وخيوطاً وعُدّة صيد بدائية جداً.

وفي المساء يمتلأ الأفق المشوّش الهادئ غالباً بأعداد كبيرة من المراكب اللاتينية التي تبدو وردية وأرجوانية في انعكاس الغروب. هي قوارب ومراكب الصيد التي تأتي من البعيد، وأحياناً من صفاقس ومن زارزيس.

قصر ـ هلال... هي ضيعة تبدو وكأنها مكفنة بالجير الأبيض. وتقع بين البحر الأزرق وغابات الزيتون المعتمة. وفوق الشرفات المستوية والقباب الصغيرة تقوم مغارة إلى جوارها نخلة وحيدة فريدة تنحني بحزن... وكل مساء تميل منازل قصر ـ هلال البيضاء إلى الاحمرار، وتبدو كما لو أنها من نار، بينما تتوج النخلة والمنارة بهالة من الذهب الأحمر في عنان السماء المحترقة.

خلف قمة دائرية تتجمع بيوت صيّادة، قرية الصيادين الصغيرة، قبالة جزر قرياطين التي تلمع منارتها في الأفق ليلاً، مع نار المنستير الحمراء الساكنة ونار سوس الدوّارة البعيدة التي لا تكاد ترى، إلا في ساعات الهدوء البحري الكبير.

تبدو صيادة ضائعة وسط أشجار الزيتون، ومفصولة بسياجات من الصبّار والنباتات الشائكة ما يجعلها صعبة الدخول إلا من قبل أبناء آوى أو المتسكعين البدو.

وبنات صيادة مشهورات بجمالهن في كل الساحل، ويحلو لشباب موقنين أن يقولوا عن جاراتهم المحبوبات «من يستنشق في يوم من الأيام هواء صيادة المالح، وعطر بناتها المسكر، ينسى موطن ولادته».

وتقع موقنين في واد خصب بعيد عن البحر. وهي مدينة عربية تجارية صغيرة ومتأنقة. وهناك أيضاً ألفيت بُقعاً من الجير الأبيض وأنقاض أسوار وصخوراً رملية وسكوناً مُصْمِتاً، ذكرتني بالواحات المحبوبة في الموطن الصحراوي.

وفي مدن الداخل التونسية تلك لا يرتدي سكان الريف وأبناء الشعب البرنس العظيم الذي يتدثر به الجزائري الأكثر فقراً، وهو ليس ثوباً رثاً بل ثوب نبيل.

فالفقراء والبدو يلتفون على حد سواء بالسفساري الأبيض أو الأسود وهو قطعة

قماش صوفية طويلة، تلقى عادة قطعة منها على عماماتهم الصغيرة. ويمنحهم ذلك اللباس على ضوء القمر في الشوارع الخالية وفي الساحات العامة مظهراً عجيباً كالعائدين من الموت الذين مايزالون ملفوفين في أكفان القبور... أما النساء، وسواء كن بدويات أو حضريات، وكما في أماكن أخرى، فيرتدين الأثواب عينها، الزرقاء القاتمة أو الحمراء، ويتخذن الشكل عينه المعقد والغليظ للشعور السوداء، وضفائر الصوف والحلي ومناديل الحرير، والحزام المرتخي والمعقود في الأسفل تقريباً على مستوى الوركين.

أمضيت بموقنين بعض اللحظات الغامضة والعذبة والشرقية، لحظات من الحلم في إطار قديم وبأصوات آلات وأغان قديمة...

بلدات الساحل جميلة كلها ولطيفة وبيضاء مثل جواهر في صندوق مخملي قاتم للزيتون... فكل شيء يثير الإعجاب فيها حتى أسماؤها الإيقاعية أمثال وردنين (الوردتين) وسويسة ومنزل بير الطيب وواد ـ ساية وجمّال وسيدي الهاني والجم وبني حسن...

وجمال ذلك البلد فريد على أرض إفريقيا الخشنة والرائعة حيث كل شيء هادئ ولامع. وحتى حزن آفاقها ليس منذراً أو مقفراً كما في كل مكان آخر، وهواء الساحل منعش ونقي، وسماؤه ذات صفاء لا مثيل له...

تظهر بعد موقنين بعض الأراضي، ويبدأ بلد موحش وغريب حيث غابات الزيتون تفصل بينها هضاب مقفرة واسعة. إنها بلاد عميرة.

ويُخشى جانب سكانها في كل البلاد، سواء كانوا فلاحين أو رعاة، ذلك أنهم يعرفون بأنهم لصوص ومحاربون.

* * *

كان ذلك هناك في الساحل الشرقي لتونس، وفي بساتين الزيتون العميقة لمنطقة الساحل في فصل الخريف.

بثياب ذكورية وبشخصية مستعارة، كنت أعسكر في دواوير قيادة المنستير رفقة السي العربي الخليفة. لم يشك الشاب أبداً في أنني امرأة. وكان يناديني بأخيه

محمود. وكنت أقتسم معه حياة التجوال وأعماله لشهرين.

كنا مشغولين، ولو أني لم أرد ذلك، باقتطاع المستحقات المتأخرة للمَجْبَى، ضريبة الرؤوس التي يؤديها الرجال المسلمون بتونس.

وفي كل مكان وسط القبائل المتجهّمة العنيدة والفقيرة، كنا نستقبل بفظاظة. وحدها البرانس الحمراء للفرسان الجزائريين والبرانس الزرقاء لرجال الديرة هي التي كانت تفرض هيبتها على تلك الحشود الجائعة... وكان يضيق قلب السي العربي الطيب، وكنا نخجل مما نقوم به وكأننا نقوم بعمل شائن. كان يفعل ذلك بداعي الواجب، وأنا بدافع الفضول.

ومع ذلك، فقد عرفت هناك أوقاتا فاتنة... فبعض أسماء ذلك البلد تثير لدي ما لا يعد ولا يحصى من الذكريات.

وكانت الطريق تمتد عند الخروج من موقنين المفصولة عن بساتين الزيتون بحواجز التين البري المغبرة والمستقيمة. وتبدو أشجار الزيتون وكأنها ترافقها إلى ما لانهاية متموجة كالأمواج وفضية في قممها مثلها تماماً.

... يذكّر مسجد خشن صغير ذو صُفرة ترابية بمباني الطوب في الجنوب، وبعض المنازل باللون الصلصالي عينه وبعض الخرابات وبعض القبور المبعثرة كما اتفق. كانت تلك بداية قرية عميرة سيد النجا.

وأمام المسجد باحة صغيرة اجتاحتها أعشاب برية، وفي العمق كوخ مقبب، إلى جواره شجرة تين ترخي أوراقها الناعمة، وبئر عميقة وباردة.

جلسنا على حصير من قصب، ورجاني السي العربي إنهاء الأمر بسرعة، فتقمصت دور كاتب المحكمة.

أدخل الفرسان الجزائريون ورجال الديرة الشيخ، وهو شخص مسنّ، فبدا كنسر بعينيه العسليتين. وأدخل كل مسنّي القبيلة مرافقين بأبنائهم الطوال القامة والهزيلين تحت أثواب السفساري البالية. يا لها من لُمامة غريبة لوجوه أحرقتها الشمس والريح، ولرؤوس حامية حد التوحش، بنظرات كئيبة ومنغلقة!

قدم الشيخ تفسيرات مسهبة ومشوّشة، بنبرة متباكية. وفي كل لحظة كانت تصدر صرخات عجيبة بحدة مباغتة لهذا العِرق العنيف، الذي ينتقل من الصمت إلى الحلم بصخب. كانوا يؤكدون جميعاً بؤسهم.

ناديتهم فرداً فرداً بحسب قائمة:

ـ محمد بن محمد بن الضو!

ـ آنعام! (حاضر).

ـ كم عليك؟

ـ أربعون فرنكاً.

ـ لماذا لا تدفع؟

ـ أنا أحمر - عار يا سيدي (تعبير اصطلاحي في تونس لقول فقير.)

ـ ليس لك بيت ولا بستان ولا أي شيء؟

وبحركة خضوع نبيلة يرفع البدوي يده قائلاً:

ـ الحال. حال الله[1]!

ـ إذهب يساراً.

ثم إن الرجل المستسلم عادة يبتعد ليجلس حاني الرأس ليتم تقييده على سبيل الاحتياط من قبل الفرسان. ففي الغد سيقتادهم أحد الفرسان الحمر إلى موقنين، ومنها إلى سجن المنستير حيث سيعمل هناك كمحكوم بالأشغال الشاقة حتى يدفع...

أما أولئك الذين يقرون بامتلاك شيء مثل كوخ من قش أو زريبة أو بعض الخراف، فيبقون طلقاء غير أن الخليفة يأخذ عن طريق رجال الديرة ذلك الملك الفقير ليبيعه... وكانت قلوبنا تهتز ألماً عندما تحضر أمرأة والدموع في عينيها آخر عنزة لديها وآخر نعجة وتمنحها آخر لمسة وداع.

ثم نبتعد جارين معنا مجموعة كئيبة ومستسلمة من الرجال المكبلين الذين يمشون راجلين وسط جيادنا...

شراحيل التي يناديها المتعلّمون إشراحيل.

حيث بعض المنازل المتناثرة وسط أشجار الزيتون الأكثر غزارة من أي مكان آخر... نصبنا هناك خيمة البدو الخاصة بنا، والمصنوعة من جلد الماعز والتي كانت منخفضة وطويلة.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

ويشرع الفرسان الجزائريون ورجال الديرة في التحرك بملابسهم البراقة، فيشعلون النار، ويذهبون لمصادرة الضيافة، حساء الضيافة المقدم رغماً عن الناس ويا للأسف!

قصدت رفقة السي العربي والفارس الجزائري أحمد القرية للتجوال فيها على ضوء الغسق.

ألفينا شابة وحيدة تقطف ثمار الصبّار.

تقدم منها أحمد وخاطبها قائلاً:

ـ أعطنا الصبّار أيتها الهرة! إنزعي الشوك حتى لا يشكنا. يا للجمال! هذه البدوية جميلة جداً ورزينة.

وبعينيها السوداوين الكبيرتين، صوبت نحونا نظرة عدائية ومتحفظة.

ـ فلتحل عليكم لعنة الله! أتيتم لأخذ ما نملك!

وأفرغت بعنف ما حوت قفتها من ثمار الصبّار أمام أقدامنا ورحلت.

مد الفارس الأحمر يده للإمساك بها مطلقاً ضحكة سريعة، غير أننا منعناه إذ قال الخليفة:

ـ يكفينا إيقاف المسنين المساكين دون أن تُلمس النساء!

ـ آه! يا سيدي. لم أرد إلحاق الأذى بها.

ومع ذلك، فهؤلاء الرجال الذين يرتدون أثواباً بألوان براقة، خرجوا من الشعب نفسه، ويعلمون جيداً بؤسه، لأنهم اقتسموه معه. غير أن الفارس الجزائري لم يعد بدوياً، ويظن نفسه فعلاً أنه في منزلة أعلى من إخوته في القبائل، لأنه جندي.

أمضينا ربع ساعة آخر، نتحدث إلى زنجي صغير ألفيناه في الطريق، أحاديث غريبة جداً، حد أننا أخذنا نقهقه لارتجاله في ردوده السريعة ولفطنته التي جعلته شبيهاً بقرد.

وبعد الحساء، تمددنا على السجاجيد مرتخين ننصت لغناء شباب شراحيل الجماعي.

وشعب الساحل شعب محبّ للموسيقي إلى أقصى حد، ويؤلف رعاة تلك المناطق إلى أيامنا هذه أغاني راقصة جداً، يضاهي جمال كلماتها ألحانها.

«أماه، أماه يا صديقتي! منذ حُملتِ إلى المقبرة لا شيء يبتسم في وجهي في هذا

العالم. . . يسكن الحزن قلبي، وتتدفق الدموع من عيني المتحولتين إلى نهرين مُرّين».

وأنصت أيضاً:

«غطيت رأسي ببرنسي، وبكيت جناتة. قلت لها: لا تأتي معي لأنني قد أموت بقربك. وإذا بكيت ذلك اليوم، سيقول الناس: فلان كان يعشق فلانة، أو أيضاً: رحل من أحبّتْ. وعدها بحبٍّ أبدي غير أنه نسيها في العام نفسه. وسيلحقك العار. . .»

كان الليل على وشك أن ينتصف عندما دخلنا إلى خيامنا.

*
* *

وصلنا عشية اليوم التالي إلى زواغة، وهي أراضي قبيلة تحمل الاسم نفسه، ونصبنا خيمتنا الكبيرة المصنوعة من جلد الماعز جوار قربي الشيخ السي عمور.

وتقع زواغة وسط هضبة خضراء محاطة ببساتين الزيتون التي تمنح الساحل التونسي مظهره الثري.

وكانت أشجار الزيتون تبدأ على بعد حوالي ستين متراً إلى يسارنا، وأمامنا وإلى اليمين منا، يمتد السهل الإفريقي الذي ما إن يكون بلا زرع حتى يستعيد مظهره الحزين الأبدي.

كانت الليلة سيئة. فقد هبت الرياح في عاصفة هزّت خيمتنا بشدة. وتساقطت الأمطار، وصهلت الخيول المرعوبة وتخبطت محاولة تحرير حوافرها من الحبل الطويل الممدود أرضاً.

وتاهت الكلاب القلقة في الدوار مصدرة أنين شكوى. وأكد الحراس الذين وضعناهم حول معسكرنا أنهم رأوا أطيافاً مشبوهة تحوم عند تخوم البساتين.

عانينا من البرد ومن الرطوبة ملتفين بأحرمتنا السميكة. وعند الفجر، استيقظنا مرتعدين، في غاية الانزعاج.

وكان أحمد خادم السي العربي قد أمر أهل القبيلة بأن يشعلوا ناراً كبيرة قرب خيامنا. ولما كان الخشب فاتراً فإنه لم يكن يشتعل جيداً. وأخذت الريح تحمل لنا هبات أدخنة شديدة.

ابتعدت قليلاً عن الخيمة، ورحت أتجول قرب السهل.

كانت الغيوم قد اختفت، وبدأ النهار يحل هادئاً وصافياً. وفي الأفق الغربي، كانت أغصان أشجار الزيتون القوية ترتسم بالأسود في الخلفية الوردية للسماء الصافية. وكانت النجوم تشحب عند الغرب في الظل الذي كان مايزال كثيفاً. أثار الهدوء الخريفي الكبير لهذا البلد في نفسي ذكريات حزينة وناعمة ومشاعر مماثلة أحسستها في الماضي في الموسم عينه ببون، في مكان آخر من هذا الساحل البربري الذي صار وطني الاختياري الذي أحبه بكل حزنه وبكل مظاهره.

عدت إلى الخيمة.

وسطعت الشمس منتصرة ومتألقة.

وفي وسط الدوار كانت النساء يتحركن حول نار كبيرة لإعداد أول إفطار لنا.

وكان الخليفة المريض مستلقياً أمام خيمتنا يُدخن مستسلماً بكسل للشمس الدافئة.

وكان فرسان المخزن الثلاثة، الخادم والمكلفان بالأحصنة، يلعبون الورق.

أحسست بذلك الشعور اللذيذ بالتحرر وبالسلام وبالسعادة الذي رافق دوماً استيقاظي وسط المناظر الاحتفالية المألوفة لحياة البدو الرحل.

وبينما كنا ننتظر الإفطار بنفاد صبر، رأينا فجأة فارساً بدوياً يصل على صهوة حصان أبيض من دون سرج أو عنان. كان الرجل الذي أخذ حرامه يتطاير في الهواء، يتشبث بغرة الحصان الجامح، ويضرب جانبيه بأسفل قدميه العاريتين، مصدراً صراخاً حزيناً. كان صراخه أشبه بنحيب رتيب ومتتال، وعندما صار قريباً منا أدركنا أنه كان يصرخ:

ـ مات أخي! مات أخي!

وعوض أن يشرح لنا ما يريد، ترك نفسه يسقط من فوق حصانه ويتلوى أرضاً مستمراً في الصراخ بأن أخاه قد مات.

عميرة

خلال الليل، طردت الريح زوابع أمطار بللت الهضبة الطينية الواسعة حيث كنا نعسكر، وجُردت حقول بساتين الزيتون العميقة المشطورة في كل مكان بسياجات من الصبّار.

بدت خيامنا البدوية المبللة والثقيلة كدواب كبيرة مذعورة تمددت على الأرض الحمراء.

وطلع فجر الخريف الكامد والحزين على هذا الريف الإفريقي الذي تغير بالكامل كما لو أنه شوّه بالبخار البارد الذي يسبح في الأفق.

تحلّقنا حول نار شاحبة كبرى تصدر دخاناً كثيفاً، مرتعدين وعابسين، ننتظر صامتين القهوة التي ستعيد لنا بعض القوة وقليلاً من الدفء.

كانت إحدى تلك اللحظات السوداء البطيئة التي تبدو فيها الروح منغلقة على نفسها وتشعر، بقوة أليمة وكئيبة، بعدم الجدوى النهائية للجهد البشري.

... منذ شهرين، بصدفة من حياتي المتسكعة، وأنا أُخيّم في القبائل الحزينة والعنيدة لأراضي عميرة العليا تلك، والتي تحتل جزءاً كبيراً من المروج الخصبة والغابات الظليلة للساحل المبتسم.

ولما كنت قد وعدت إحدى الجرائد بأن أكتب انطباعات عن الرحلة في هذا البلد، فقد التحقت بقافلة صغيرة كلفت من قبل السلطات التونسية بالقيام بتحقيقات موجزة وتحصيل الضرائب العربية التي كانت ماتزال متأخرة.

كان هناك خليفة قايد من المنستير، وهو مغربي من تونس رقيق العظم ورشيق، يتصف بنكران الذات، وهو رجل عادل جداً وغير ظالم، وغير طماع بوجه خاص. وهناك أيضاً اثنان من أعيان العرب يرمزان إلى الأفكار والسلوكات القديمة، لطيفان وعطوفان جداً ومبتسمان دائماً، ثم عريف في سلاح الفرسان الجزائري يدعى أحمد متحدر من وهران، وشخصيته مزيج فريد من الدعة الفتية والعنف الذي غالباً ما يكون متوحشاً، ومن عدم الاكتراث والتفكير الأخرق جداً أكثر مما تتحمله وضعيته الاجتماعية... ثم البدو ذوو البرانس الحمراء أو الزرقاء وهم الفرسان الجزائريون ومن ديرة المخزن.

... منذ يومين وأنا أجلس بوضع المتفرج على ما يقوم به هؤلاء الرجال الذين أعرفهم فقط منذ بدء الارتحال معهم، وأحيا حياتهم ويجهلون كل شيء عني... فبالنسبة لهم، أنا السي محمد السعدي التركي الشاب الفار من إحدى المدارس الفرنسية.

وبقيت كرّاسة ملاحظاتي غير مملوءة على الرغم من بعض الأسى وبعض

التذبذب في الكتابة. . . فمرة أخرى، أخذتني الحياة البدوية البسيطة والحرة والمهدهدة لتثملني ولتضعفني. الكتابة. . . لمَ؟

وبينما كنت أفكر بملل تقريباً في كل هذه الأشياء حول حياتي الحالية، حضر أحدهم فجأة للبحث عنا من أجل الذهاب إلى داخل التل لتهدئة أفراد قبيلة أرادت الانتقام لمقتل أحد أبنائها، فعزم أفرادها على الذهاب لإبادة أفراد قبيلة أخرى. . .

وكان يلزم التخلي عن كل شيء، وترك المعسكر في حراسة أحد رجال الديرة الذي سيتكفل بالنقل لتلك الليلة، والذهاب مع مبعوث الشيخ.

ركض صاخب عبر السياجات على أرض رخوة وزلقة. قفزنا فوق حفيرات، وسياجات من الصبّار على متون أحصنة أغضبتها الرياح والأمطار فما عادت تريد أن تطيع.

غير أن أحصنتنا أوصلتنا إلى دوار الحجاج حيث حوالي مئة من القربي وخِيَم منخفضة على تل دائري في موقع عار حد إثارة الرعب حيث لا شجر ولا نبات. . .

وكانت بالدوار حركة غريبة، وسمعنا في البعيد أصواتاً غاضبة.

وبين الخيم، كان رجال يضعون حايكات سوداء و ترابية جعلت الريح تهزها. كانوا هائجين، ويتحدثون في مجموعات بحركات عنيفة، بينما كان البعض الآخر مقرفصين يستعدون للقتال ويلقمون بنادق قديمة ذات قدّاحات ويشحذون سيوفاً بقبضات خشبية وخناجر ومناجل. ووسط الدوار، كانت النساء الملفوفات بأثواب زرقاء وحمراء ينتحبن حول حايك أسود ملطخ بالدم وكان يغطي جثة. . .

أطلق الرجال صيحات تهديد وموت قوية، وكما كان الشأن في أيام نزوح السلف، كانوا يتأهبون للذهاب لإبادة ونهب قبيلة زيرات زرزور المعسكرة عند الغرب بعد واد واسع بحوالي كيلومتر، وعميق مثل هوة.

تقدم منا الشيخ الشاب علي مستقبلاً، وكان مذهلاً بطاقته ومشاعره، وحاملاً بندقية بيد، وأخذ يشرح لنا ما حدث:

ـ حضر هذا الصباح فتى من قبيلة زيرات زرزور ويدعى علي بن حفيظ إلى هنا صحبة أخيه محمد ليبيعا شاتين لخوجاي هذا الرجل. والتقيا أحد أبناء قبيلتنا، حمزة

بن مبارك الذي لا تجمع بين عائلتيهما أية مودة منذ وقت طويل. كانوا ثلاثتهم هناك في الأعلى، على تلك الرابية خارج الدوار. تشاجروا فضرب علي بن حفيظ حمزة ضربات بدبوس محطماً رأسه. هذه هي الجثة. كل القبيلة وأربعة من قبيلة معلول رأوا الجريمة. غير أن علياً وأخاه فرا في الوادي. والآن يريد أبناء قبيلتنا قتل أبناء قبيلة زيرات زرزور من أجل الانتقام.

وبينما كان الشيخ يتحدث إلينا تقدم الرجال، وخيّم صمت كبير على الدوار الذي ما عاد يشوشه إلا نحيب النساء. كان البدو الرحل ينصتون واقفين بنظرات تهديد حاسمة، وبالأسلحة في أياديهم... وما إن أتم الشيخ جملته حتى عادت الصرخة المتوحشة لتنفجر من جديد.

كانت الحركات عنيفة والصراخ قوياً على نحو لا مثيل له، وأضحت وجوه الحجاج الهزيلين البارزة مخيفة. ومجدداً انقض الشيخ علي عليهم من أجل حثهم، مطلقاً تهديداته... وسمعت شيخاً كبيراً كأنه أحد الكواسر يرد عليه بسخرية تقريباً:

ـ ما تزال شاباً، ولا تعرف شيئاً! إنه ثمن الدم...

وفجأة، تفرق البدو الرحل راكضين محاولين الوصول إلى الواد.

غير أن الفرسان الجزائريين (السباهيين) ورجال الديرة انطلقوا أيضاً في كل الاتجاهات معهم، مطلقين صرخات عظيمة. كان أولئك البدو الذين يرتدون ملابس الجنود سُعداء بأن يطلقوا العنان لأحصنتهم، وأن يصرخوا، وأن يطاردوا، متوهّمين أنهم في حرب، أولئك الرجال المسلحين الذين قد ينقلبون عليهم في أية لحظة، ويصيرون مهددين نتيجة لعددهم... جعلتهم مطاردة أولئك الرجال تلك منتشين، وتألقت وجوههم بسعادة أطفال صاخبين أحراراً.

كان المشهد الصاخب تحت السماء المنخفضة والرمادية، وفي الرياح الغاضبة، وحشياً وبديعاً في الآن نفسه.

... وأخيراً تم احتواء أفراد القبيلة، وأعيدوا إلى الداور. وتمّت مراقبتهم. وكبّل اثنان أو ثلاثة من المهتاجين جداً. وكان يتعين في تلك اللحظة بدء التحقيق، وانطلق فارسان للبحث عن الجاني.

كان فتياً جداً علي بن حفيظ ذاك الذي أُتي به إلينا لاهثاً بثياب ممزقة ووجه مغطى

بالعرق والطين، وقد كُبّلت يداه خلف ظهره. كان شاحباً غير أن النظرات التي يوجهها من أسفل عينيه الواسعتين الصهباوين كانت شرسة وحازمة. وكان شقيقه البدوي الهزيل والطويل يقف بوجه داكن كقاطع طريق، وبهيئة سنّور وقع في فخ، مستعداً للوثب... ومع ذلك، لم يكن هو من قتل، فقد كان القاتل علياً، ذلك البدوي الصغير ذو العينين المذهبتين والوجه الأمرد.

أخذ يرد علي بن حفيظ ردوداً قصيراً على الأسئلة المعتادة حول هويته.

سأل الخليفة:

ـ لماذا قتلت حمزة بن امبارك؟

وهكذا بدا أن المتهم استجمع قواه من أجل دفاع يائس. أحنى رأسه ونظر أرضاً ثم قال:

ـ رسول الله يشهد بيني وبينه!

ومنذ تلك اللحظة، وكما لو أن الأمر يحدث في قلب حلم، وضد أي منطق سليم، وضد كل بداهة، أخذ يكرر جملته الفقيرة للإنكار الطفولي، مرتعباً ومعانداً في الآن نفسه.

اقترف جرمه على قمة التل العاري، ورآه حوالي خمسين شخصاً، وفر رفقة شقيقه ليختبئ في الواد. وكانت تصريحاته تناقض تصريحات شقيقه الذي سئل في غيابه... لا يهم! فقد كان يرد على كل توبيخ وكل تهديد، وكل رجاء بصوت واهن، وعينين مثبتتين أرضاً:

ـ رسول الله يشهد بيني وبينه!

بقينا بالحجاج ثلاثة أيام. ثلاثة أيام من المحادثات، ومن الصراخ، ومن التهديد، ومن الاستنفار الدائم... وأخيراً، وعندما بدا أن الهدوء والنظام قد عادا، أخذنا الطريق إلى موقنين عاصمة عميرة.

وعاد الجو الجميل. كان الجو حاراً تقريباً، وخرجت بغزارة من كل مكان تقريباً من الطين الأحمر الذي روته الأمطار، نباتات رقيقة.

ما زال الصباح كما هو، تلك الساعة الصافية حيث يتمطى الريف اللازوردي تحت السماء الوردية الصافية والشاحبة بشكل غير محدود كما لو أنها كبرت.

كانت قافلتنا الصغيرة تتقدم ببطء على الرغم من حماسة أحصنتنا السعيدة، ذلك أننا كنا نجر معنا مجموعة صامتة وكئيبة تتألف من خمسة وعشرين إلى ثلاثين أسيراً، أوقفوا في أماكن متفرقة في القبائل. كانوا خاضعين من دون حركة أو كلمة تمرّد. وكانوا يمشون مقيّدي الأيدي والأرجل مثنى مثنى. وكانوا يبدون وكأنهم غير مبالين.

وكان علياً، القاتل الوحيد، هو من أوثقت يداه خلف ظهره، وقدماه أيضاً، يمشي وحيداً بعيداً بين أحصنة الفرسان . وكان محتفظاً بتصرفاته التي يتعذر اختراقها. وعندما تمكن بدو قبيلته من أن يلقوا إليه ببعض كلمات الوداع من البعيد، رد بصوت حازم، كما لو أن ذلك كان حقيقياً:

ـ رسول الله يشهد بيني وبينه!

كان الحجاج الذين هدأوا في تلك اللحظة ينظرون إليه عند مروره صامتين، وتقريباً من دون ضغينة، ذلك أنه كان بين يدي عدالة الرجال الذين يخشاهم البدو الرحّل، وكذلك الناس البسطاء الذين لا يحبونها لأنها غريبة عن تقاليدهم وعن أفكارهم. وليس علياً بالنسبة إليهم العدو الذي يتوجب قتله أخذاً بالثأر، ولكنه كان سجيناً، بمعنى أنه كان موضع رأفة، وتقريباً ضحية لذلك الشبح الذي يُخشى جانبه ويكره، السلطة. انتقلت كراهية الحجاج وانتقامهم في تلك اللحظة من علي إلى قبيلة زيرات زرزور، إذا ما كانت لديهم السلطة لأذيتهم.

وفجأة انبثقت مجموعة من النساء من واد أخفته شجيرات الصبّار، وانطلقت نحونا بالأنين والشكوى. وكانت الأكبر سناً عمياء، تقتادها فتاة جميلة جداً بعينين سوداوين محتدمتين. وكان شعر رأس العمياء أبيض يتدلى على جبهتها الأشبه بجبهة مومياء. وكانت تبكي.

تعلقت العجوز التي تقودها دوماً تلك الشابة بركاب الخليفة ورجته قائلة:

ـ سيدي، سيدي. ارحم ابني الوحيد علياً من أجل راحة روح أمك! الرحمة سيدي!

توقف موكبنا، وبدا الحزن على كل رجالنا، وانقبضت قلوبنا بشدة أمام ألم الأم العجوز العمياء ذات الأسمال البالية، والتي عجزنا عن مواساتها.

غمغم الخليفة الذي كان على وشك البكاء ببعض الوعود التي لن يستطيع البر

بها، وتدفقت أدعية البركة من فم أم علي، ثم هوت على صدر ابنها وأخذت تنتحب كما لو أنها تبكي على جثة ميت.

وأخذت أطراف البدوي الصغير الشاحب تضطرب جميعها.

قالت العجوز:

ـ يرقد أبوك في الخباء، وهو مريض جداً. لا ريب أن ساعته أزفت، وهو يوصيك بأن تعترف إن كنت قتلت، حتى يرحمنا الله وإياك، وحتى لا يكون الوزراء[1] قساة القلب...

وهكذا، فجأة، أخذ علي يبكي مختلجاً، وأضحى وجهه الفتي طفولياً تماماً، وهمس بصوت خفيض جداً:

ـ سامحوني أيها المسلمون! لقد قتلت نفساً!

وصدرت من بين الفرسان والبدو الذين اقتربوا هذه الكلمات القصيرة بسعادة:

ـ اعترف! اعترف!

وكما لو أن أحدهم ضغط على الزناد فجأة، أضحى علياً من فوره موضع رحمة أكثر عمقاً بالنسبة لكل أولئك الناس، وتقريباً موضع عناية. انحنى العريف أحمد الصلب مع ذلك على علي بنفسه، وفك قيدي يديه ثم قال:

ـ قبل العجوز.

وهكذا تم الوداع المقطوع بنحيب وصراخ وأنين النساء... ثم ابتعد الموكب المحزون، غير أننا ولمدة طويلة، بقينا نسمع المرأة العجوز تشق وجهها بعويل محزن.

وسمح العريف لأبناء قبيلة زيرات زرزور بأن يقتربوا من علي وأن يودعوه، وبأن يمنحوه بعض القطع النحاسية من أجل أكله بالسجن... ومن بين أولئك الذين قدموا الصدقة للسجين، تعرفت إلى اثنين أو ثلاثة رجال مسنين من قبيلة الحجاج، ومنهم أيضاً من كان بالأمس فقط يريد قتل علي، وأفراد قبيلته.

قالوا قبل أن يبتعدوا بحزن وتقريباً بمهابة:

---

(١) محكمة الوزراء: محمكة جنائية إسلامية بتونس. وتقتضي جريمة القتل المتعمد الحكم بالإعدام شنقاً. (ملاحظة الكاتبة). الأصل.

ـ خذ، نمنحك هذا في سبيل الله!

وسرعان ما كان على العريف أن يفرّق حشد أولاد زيرات زرزور الذي أضحى كبيراً، وكان بإمكان ذلك أن يصير خطيراً. . . وهكذا أخذنا الطريق إلى موقنين عبر غابات الزيتون، التي جعلت قطراتها الوردية أجسادنا تقشعر.

ملاحظة

حرّرت مجموعة النصوص هذه في شهري أيلول/ سبتمبر - تشرين الأول/ أكتوبر من سنة ١٨٩٩ بالمنستير وصدرت عن كرّاسة عنوانها «خريف بالساحل التونسي»، وأعادها فيكتور باريكون وعدّلها قليلاً في ملاحظات على الطريق (فاسكيل سنة ١٩٠٨)، ثم في الأخبار في ٢٥ من شهر نيسان/ أبريل سنة ١٩١٥.

كتبت إيزابيل إبرهارت ملاحظاتِ أخرى حول هذه الرحلة في «ذكريات الساحل التونسي» وهي مقالة لم يسبق نشرها حتى ١٥ من شهر نيسان/ أبريل سنة ١٩١٥ في الأخبار وفي نص من دون عنوان، كان نادراً بحكم أنه كُتِب بقلمها، وكان أكثر إثارة للجدل، وقد وجدنا صفحتيه الأوليين.

ذكريات في الساحل التونسي

الساحل التونسي هضبة كبيرة، مرتفعة وخصبة مليئة بالعيون والآبار، وتتمتع خاصة على ساحل البحر بجو أقل حرارة منه في تونس، وأكثر نقاءً. ومع ذلك، فليس في الساحل كله إلا نهر وحيد، ومجرى إفريقي وحيد يدعى واد زرود الذي يأخذ مصدره من مناطق تيبيسا المرتفعة بالجزائر، ويعبر كل العرض التونسي ويلقي ماءه في بحيرة الكلبة قرب سوس.

والمدن الرئيسية هي الحمّامات التي منحت اسمها الخليج الذي يغوص في الشاطئ الساحلي، والقيروان المدينة المقدسة في تاريخ الفتح الإسلامي، والتي تُصنع بها زرابي جميلة، وسوس والمنستير وموقنين والجم وصفاقس.

وكل هذه المدن الأخيرة يقطنها مزارعون وصناع زيوت. فزيوت سوس، وعلى وجه التحديد زيوت المنستير، مطلوبة كثيراً.

وفي سوس والمنستير هناك أيضاً أماكن صيد كبيرة أهلية خاصة بأسماك التون.

وفي أماكن متفرقة في الساحل ووسط السهل تلال تعلوها هضبات. وعند رؤية البلد من الأعلى يبدو كغابة لا حدود لها من أشجار الزيتون الجملية والقوية، مقسمة إلى حدائق مُسيّجة بالصبّار.

وهواء الساحل نقيّ صاف حتى في فصل الصيف. وتأتي رياح الشمال ورياح الشرق القوية لترطب الحرارة قليلاً.

وبالقلعة الصغيرة، وهي آخر محطة قبل سوس، تبدأ الطريق التي كانت تصعد حتى تلك النقطة في ارتفاعات الساحل بالانحدار فجأة في منحدر سريع جداً باتجاه سوس المشيدة ككل مدن الشرق على منحدر تلة وسط بساتين الزيتون الكثيفة.

وابتداءً من ضواحي المحطة الواقعة خارج المدينة تقريباً تأتيني رائحة الزيتون المنقوع قوية. وهي رائحة عطرة وباردة، وتصيب بالإعياء والتقزز كلما طالت.

أنا هنا كما في أي مكان آخر في البلاد الإسلامية أرتدي الزيَّ العربي، الزيَّ الثري لسكان المدن التونسيين.

ولم يتعرف أحد في سوس على شخصيتي الحقيقية، حتى الصديق الوحيد الذي كان لي هناك، الملازم أول في فوج القنّاصة عبد الحليم الراربي.

ومع أن الملازم أول الراربي ابن البلد إلا أنه رجل متعلم ومتميز، ومعروف في بلد الوصاية كله بقوة الشكيمة والعنف حتى.

قبل سنوات، وكان الراربي رقيباً حينها ـ كل الضباط من أبناء البلد انطلقوا من الرتب الدنيا ـ قتل بضربات مدية في القلب مباشرة شخصاً كان يهاجمه مسلحاً بمسدس تساعده حوالي نصف دستة من اللصوص... تصدّى الراربي لذلك الهجوم الذي وقع في أحد مقاهي تونس البهيجة. وبعد أربعة أشهر من الحبس الاحتياطي استفاد الرقيب الذي كان في وضع الدفاع عن النفس المشروع من أمر بعدم وجوب إقامة الدعوى... ومنحته تلك المغامرة الاحترام والخشية ليس فقط من جانب المسلمين بل من جانب الفرنسيين أيضاً.

ومع أنه كان غير محبوب من قبل رؤسائه الأوروبيين، الذين كانوا يعلمون بأنه يحمل رأساً صلبة كما يقال في الفوج، إلا أنهم كانوا مجبرين على الاعتماد عليه.

كان عبد الحليم ينتظرني هناك على رصيف المحطة.

خاطبني قائلاً:

ـ مرحباً بك يا سيدي محمود.

وبحسب العرف الإسلامي، تبادلنا العناق الأخوي... وما كان ليخطر على باله أني امرأة!

نزلت بفندق الساحل الواقع في القسم الأوروبي من المدينة، والمشيد بين الأسوار المغربية القديمة والشاطئ الرملي...

وبعد تناول عشاء جماعي سريع في قاعة الطعام المملوءة بالضباط الفرنسيين الذين لم يتبادل معهم عبد الحليم إلا التحية المعتادة الباردة، صعدنا إلى الطابق الثالث.

وكانت غرفتي بشرفة واسعة مبلطة تطل على البحر من جهة، ومن جهة أخرى على الأسوار النظيفة والكتلة البيضاء للمدينة الأهلية التي ترتفع كمدرج...

وضعنا غطاء ووسائد أرضاً على الطريقة العربية، وتمددنا. وكان عبد الحليم صامتاً بطبعه. دخّنا وغصنا بدعة في الحلم العربي، وكنا على وشك أن نغفو إغفاءة كئيبة بعض الشيء.

غصنا في البداية في العتمة... ولم نكن نرى إلا أضواء المدينة... وفي البعيد، بين النجوم الظاهرة إلى الجنوب الشرقي، كانت تبدو منارة المنستير ذات الضوء الثابت الواقعة على قمة مقابلة لسوس، وأبعد نحو الشرق بدت منارة جزر كودياتي.

ولكن هناك في عُرض البحر، أخذ لمعان ضئيل في الظهور. كان أشبه بفجر خفي وشاحب...

وبدا أن البدر سيغرق قريباً في الماء.

وهكذا، أخذ سطح الماء الذي كان متغضناً قليلاً يترك انعكاسات فضية في البداية، ثم بلون وردي ذهبي لا مثيل له، وفي اللُّجّة السوداء، صار ذلك يهتز ويرتعش ويحيا مثل نسيج معدني يحركه ببطء تنفُّس قوي.

وأخذ القمر يصعد ويغمر السماء والبحر بالأضواء اللبنية اللون.

وشحبت النجوم وبدا وكأنها تنطفي.

وهكذا ظهر من الظلام شبح سوس الأبيض، وكان أزرق اللون، وشفافاً تقريباً.

وبدت مناراتها، وأبراجها وأسوارها المسننة بلون أبيض فسيفسائي مرسومة باللون

الأبيض اللازوردي على خلفية السماء الغربية التي ما زالت مظلمة.

وفي البعيد، أطلقت الأبواق العسكرية لحنها الواضح والمرتعش الداعي للتجمع...

ثم غرق كل شيء في الصمت...

خاطبني عبد الحليم قائلاً:

ـ لست أدري أين تحلق روحي في أوقات مشابهة. لست أدري ما الذي أستنشقه بشكل لا يقاوم، لكن قلبي يزفره بعد ذلك... أريد أن أكون في مكان بعيد، في بلاد مجهولة...

أنا أيضاً أرغب في أن أحلّق بعيداً، إلى مناطق المجهول الساحر والغامض، تلك التي تستشعرها الروح الحالمة لسليل البدو الرحّل هذا، سليل عِرق الرعاة والرواة الملحميين المرتجلين.

أنا أيضاً أرغب في هذه اللحظات المباركة، والتي تكشف لنا فيها الطبيعة عن روعتها المثملة، أن أترك حياة الأرض الرتيبة والحزينة...

تلقى عبد الحليم تعليماً فرنسياً. كان في إحدى المدارس وقرأ كتباً أوروبية... غير أن حياة المعسكرات القاسية وضعته بعيداً عن الأوساط الفاسدة لمدن الساحل الكبيرة، وحفظته من التداعي السابق لأوانه، والذي يساق إليه كما يبدو كل المسلمين المتأثرين بالحياة الأوروبية.

فقد حافظ على مظهر الروح الشاعرية والحالمة، ذلك الذوق الرائع والغامض الذي يميز الروح العربية الحقيقية.

ستكون رفقته ثمينة هنا إذا ما بقيت لفترة طويلة... وهو الشيء المحتمل.

عاد ليقول:

ـ تعال غداً لتناول الطعام معي في معسكر القنّاصة، هناك في الأعلى، خلف المقابر الإسلامية الكبيرة، وسترى كيف أعيش!

وكرم الضيافة لدى العربي مهما بلغت درجة فقره ليس واجباً دينياً مفروضاً بالإكراه بل هو إيمان وشرف، وقدوم الضيف يُعتبر حدثاً سعيداً على الدوام.

افترقنا حوالي منتصف الليل.

وكالعادة، وعندما أكون في مدينة جديدة، يجتاحني دفق من الأفكار والذكريات

والرؤى، ولا يعودني النوم إلا في وقت متأخر عند الفجر، عندما يكون أقرب المؤذنين مني قد فرغ من ندائه للصلاة منذ مدة طويلة.

أتيح لي في أثناء رحلاتي الكثيرة في تونس أن أدرك في كل مرّة كم هي جوفاء في الحقيقة تلك الجمل الرنانة التي تصطنعها السياسة لتجد عذراً لكل مكائدها النفعية والأنانية في آن معاً.

ألا نقرأ في الحقيقة كل يوم عبارات ممجوجة أمثال «الصنيع الحضاري، الموطد للسلام الذي تقوم به فرنسا في إفريقيا» و«محاسن الحضارة الموزعة على أهالي مستعمراتنا» إلخ إلخ

مما لا جدال فيه أن كل فرنسا الشريفة تقدم على هذا النحو مهمتها في البلاد التي غزتها أو تلك التي تحميها، والواقع أن الأمر سيّان.

ولكن، للأسف، لا تدرك غالبية أولئك الذين يرسلهم الوطن الأم إلى البعيد، ليكونوا أدوات في مشروعها المخصب الذي تحلم به، الأمرَ على هذا النحو.

ففي تونس على الخصوص، ليس نظام الحماية إلا تعبيراً ملطفاً يغطي إلحاقاً تاماً ولد من حاجة ماسة.

وللأسف، فقوة الكلمة في بعض الأحيان لها هذا التأثير، ذلك أن التونسيين عانوا كثيراً من شبح السلطة الباكوية التي ما تزال مستمرة: فكل الموظفين الذين خانوا مهمتها يردون على لوم الرأي العام قائلين: «لسنا نحن، إنه الباي. لا نستطيع فعل أي شيء من دونه».

وهكذا، فالباي علي، ذلك الرجل المسن جداً حتى غدا كالطفل يُستخدم كحاجز واقٍ لرجال بلا ضمير.

استطعت أن أرى هناك بمساعدة ظروف طارئة ومناسبة بشكل غريب، كيف تستعاد متأخرات الضرائب، وكيف تتم عمليات التحقيق القضائي. وأعلن أنهما ينجمان عن ممارسة تثير الغضب الشديد، وفي منتهى الوحشية، وليس ذلك بصفة عرضية، ولكن بصفة دائمة بعلم ومعرفة غالبية الموظفين الفرنسيين المدنيين والعسكريين المكلفين بمراقبة الموظفين من السكان المحليين.

إضافة إلى ذلك، ففي كل القيادات التونسية يتم حالياً اختيار نواب الحكام أو

الخلفاء من الشبان المتخرجين من المدارس الفرنسية، حيث يستخدمون كوسيط معنوي بين المراقبين المدنيين وضباط المكاتب العربية والقايد.

هي إذن ليست علامات «البربرية» الإسلامية المشهورة، والتي لم تردع بعد، والتي أنوي روايتها فيما بعد، ولكنها نتائج الأوامر والنصائح والأمثلة المقدمة من الأعلى من قبل رجال يفهمون بشكل غريب مهمتهم التي تصنع السلام.

في تونس، وبعيداً جداً عن المراكز الكبرى، تماماً مثل العديد من مقاطعات الجنوب الجزائري، تسود العصا بشكل كلي.

فشيوخ القبائل التابعون للقايد ولخلفائه يُختارون دوماً من بين أغنى الناس، وبالتالي أقدرهم على منح هدايا قيّمة، يعوّضونها باستغلالهم القاسي لمن يديرون شؤونهم.

وهم أيضاً من يعدّون قوائم المكلفين، ويُعلمون السلطات بالجرائم والمخالفات التي تحدث في قبائلهم. وهنا أيضاً تحكم المحسوبية والرغبات الأكثر وقاحة.

رأيت قبائل بأكملها لإحدى قيادات الساحل (الساحل الشرقي) تُجمع على الشكوى من شيخها الذي أرغم أفرادها على أداء الضريبة الفردية، المجبى ـ حوالي ٢٢ فرنكاً للفرد الذي يصوم شهر رمضان والتي لا يعفى منها إلا سكان الحواضر بتونس وسوس.

. . . . ملاحظات فصل شتاء سنة ١٨٩٩ وربيع سنة ١٩٠٠

الرحيل إلى مرسيليا يوم ١٩ من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر لسنة ١٨٩٩ عند الساعة العاشرة إلا ربعاً. القطار السريع. الوصول إلى باريس يوم الأحد العشرين منه عند الساعة التاسعة والنصف. قضيت عند لونة أيام العشرين والواحد والعشرين والثاني والعشرين والثالث والعشرين والرابع والعشرين، الخميس. وصول علي يوم الجمعة الخامس والعشرين منه.

يوم الرابع من شهر كانون الأول/ ديسمبر، تغيير مكان الإقامة. كاردينال لوموان ٧١. يوم الرابع عشر منه وصول بورقيبة. قضاء الليلة بفندق داسيا. يوم الخامس عشر منه، الليلة رفقة ع. وع. في محل إقامتي. يوم السادس عشر منه شجار نهائي مع

علي. قضاء الليلة بفندق داركور في شارع سان-ميشيل. يوم السابع عشر منه الذهاب ليلاً على متن القطار السريع.

يوم الثامن عشر منه، الوصول إلى مرسيليا على الساعة الثالثة بعد الظهر. قضاء الأحد عشر يوماً التالية بفندق بوفو. في التاسع والعشرين منه الانطلاق عند الساعة السادسة إلى جنوة. الوصول يوم الثلاثين منه الساعة الحادية عشرة صباحاً. قضاء النهار بفندق فرانكا. الرحيل ليلاً على متن بيرسيا إلى ليفورنو. الوصول يوم الواحد والثلاثين منه صباحاً.

الرحيل عند منتصف الليل. الوصول إلى كالياري يوم الفاتح من شهر كانون الثاني/يناير لسنة ١٩٠٠. ألبيرغو أ. موني حتى يوم السابع منه. تغيير محل الإقامة ١٤ عبر برشلونة (كذا) عند السيدة فيتشينزا.

يوم التاسع والعشرين منه، مضايقات بسبب جواز السفر. في الثلاثين منه زيارة لقنصليتي فرنسا وروسيا (بيازيتا مارتيني دي إيطاليا).

شهر أيار/مايو ١٩٠٠. يوم الاثنين الواحد والعشرين منه، القطار السريع (١١,٨) (حسب التوقيت الفرنسي) مغادرة مرسيليا، الوصول إلى جنيف ظهر يوم الثلاثاء الثاني والعشرين منه. كنت في مقبرة فيرنيي. يوم الأربعاء كنت في أفوشي. يوم الجمعة الخامس والعشرين منه ليلاً (أنا وفيرا ومارتيميان) في كولينيي. العودة عند الساعة الواحدة.

يوم الإثنين الثامن والعشرين منه، القطار. الإنطلاق عند الساعة السابعة والدقيقة العشرين. الوصول يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه الساعة الخامسة صباحاً. يوم الأحد الثالث من شهر حزيران/يونيو مغادرة مرسيليا بالقطار. (سريع ١١,٨). الوصول إلى جنيف يوم الاثنين ظهراً.

يوم الأحد العاشر من شهر حزيران/يونيو ١٩٠٠ كنت في شاتو دي بوا. العودة على متن قطار ١١,١٥.

نحو الآفاق الزرقاء

باريس، ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٠٠.

أمامي على الجدار مخطط لبون أرسله لي خوجة إلى كالياري، وعلى هذا المخطط نقطة حددتها، نقطة توقظ لدي ذكرى مؤثرة.

المقبرة الأهلية. هاتان الكلمتان البسيطتان المحفورتان على دليل الطرق هذا بثتا في داخلي القشعريرة أكثر من مرة، فشعريرة هي بالنسبة لي أحد الشروط الأساسية للصحة الأخلاقية. رأيت في تلك اللحظات المباركة الشبح المحبوب لعنابة (بون) ينتصب أمامي، وهي التي جعلتني أحلم لسنتين هناك في أرض المنفى...

وهكذا فالروح العظيمة التي شعرت بها تُبعث بداخلي أكثر من مرة كانت اختماراً غامضاً. وإذا ما أردت يمكنني جعلها تظهر في يوم من الأيام مزهرة بروعة.

كل الشكر لمعاناة القلب. كل الشكر للموت، مخصب الأرواح التي تلبس الحداد! كل الشكر للقبر الصامت والذي هو ليس فقط بوابة الأبدية لأولئك الذين رحلوا، ولكنه أيضاً بوابة التعظيم للأرواح المختارة والتي تعرف كيف تنحني على أعماقها الغامضة! كل الشكر للحزن والغم، ذينك الملهمين المقدسين!

فلتبتعد عني أيها اليأس الجبان، واللامبالاة المشبوهة! فلتبتعد عني أيها النسيان!

بأي ضلال تمكنت في بعض الأحيان كلتا التلتين الجنائزيتين المعزيتين لعنابة ولفيريي أن تمحيا من ذكرياتي، وأن تصيرا غير موجودتين تقريباً؟ لماذا؟

كلا، فلتبتعد عني أبحاث مراهقتي المرضية المترددة! فلتبتعتد عني الروح المستلذة والسوقية التي لا تصدر عني، والتي تتسبب لي بالفوضى وفيها خسارتي.

كذاك أُدرك الأفق، فإذا ما اختفت السحب من جنيف، سيغدو متألقاً كما آفاق الماضي هناك، عند أولى استفاقات ذكائي، عندما كنت أنظر مفتونة بمناظر الغروب الحزينة خلف الظل المرتفع لجورا الكئيب، وعندما كنت أبحث حادسة غموض مستقبلي الكبير.

تعالي إليّ أيتها الذكريات فلن أطردك. تعالي أوقظي الشعلة المقدسة بداخلي، والتي ستمحق كل نجاسات روحي لتُبعث قوية وجميلة ومستعدة للخلود. أيتها الأحلام غير المتناسقة والغريبة، أيتها الأحلام التي لا يمكن تفسيرها، أنت سبب وجودي في هذا العالم. . .

٢٩ آذار/ مارس، الساعة السادسة والنصف مساءً.

حقاً، إن روحي تمر بمرحلة انتظار. لن تستمر الأحاسيس المؤلمة لهذه اللحظة. وستكون للواقع المظلم لحياتي الباريسية الحالية لحظة استيقاظ!

فلربما خلال شهرين سأذهب إلى هناك، إلى الصحراء الجرداء الكبرى بحثاً عن أحاسيس جديدة، وبحثاً عن المواد الكبرى للعمل الذي أود إنجازه.

لكن ينبغي إعادة كل تربيتي الروحية. عليَ أن أستلهم من الأفكار الملهمة للماضي ومن الإيمان الإسلامي الذي فيه سلام الروح.

حقاً، إنه عند نهاية كل شيء هناك الصمت، وهناك القبر، غير أن كل ما أطمح إليه سيستخدم في تخفيف مغامرات هذه المأساة التي لا يمكن شرحها، والتي تسمى الحياة، والتي ينبغي عيشها جيداً.

٢ أيار/ مايو، الساعة العاشرة صباحاً.

منذ أيام وأسابيع، والشمس تشرق والسماء زرقاء. تزينت باريس بألوان زاهية. وكل شيء يلمع، وكل شيء يبدو محتفلاً. أنا أيضاً تخلصت من كل الغموض حيث كنت أتوه منذ عودتي من كالياري. روحي في تقدم. وشيئاً فشيئاً، وببطء أيضاً، بدأت تتخلص من تلك الضبابة الأرضية التي بدت أنها تود إغراقها. أخذت تسمو ببطء، لكن بثبات نحو الطبقات المثالية الذي ستصلها في يوم من الأيام.

اليوم نفسه، منتصف الليل.

دخلت لتوي إلى هذه الغرفة حيث سأنام لآخر مرة. هذه آخر ليلة لي في باريس. آه! باريس التي بدأت أحبها بعمق، حيث عانيت كثيراً، وأملت كثيراً، ويعلم الله وحده إن كنت سأعود لأراها مجدداً، وإذا ما عدت إليها، متى سيصير هذا، وما الذي سأحمله إليها، وما الذي سأجده بها! ما زلت أحس ببصمة المجهول الكبير تثقل كاهلي...

مرسيليا، ٧ أيار/ مايو ١٩٠٠.

وصلت ولم أجد هنا الجو السيّئ والمنذر الذي أثقل روحي بألم، خلال مقامي الأخير بمرسيليا عند عودتي من كالياري.

في ماكون راودني، على ما أعتقد، شعور قديم وقوي، لسنوات فيلا نوف الأخيرة في فصل الربيع. توقف القطار عند مدخل المحطة حيث يعم صمت كبير. وأمامي، على يمين خط السكة الحديد، كانت بساتين الزنابق قد أزهرت لتوها، وكان العندليب ينثر تغريده الأخير لتلك الليلة. كان هذا كل شيء. وكان هناك بريق حلم فار، ولا شيء آخر. ومع ذلك، فأحاسيس مماثلة يمكنها أن تهز الإنسان حتى أعمق غموض كامن يحمله في نفسه.

... سأكون في بون في غضون بضعة أيام، وسألفي هناك قبر تلك التي نزلت معي قبل ثلاث سنوات طويلة على هذا الشاطئ البربري. إذ ذاك بدت لي كل الأشياء الإفريقية خيالية.

فليمنحني الظل الذي أبكيه القوة والصبر والطاقة اللازمة لإنهاء المهمة الثقيلة التي أورثتني إياها الحياة الماضية.

في أيام الذكرى تلك من نيسان/ أبريل ١٨٩٨، وأيار/ مايو ١٨٩٩ عادت أيضاً الذكرى التي آلمتني إلى قبري ذينك اللذين بقيا هنالك في أرض المنفى، الأثرين الوحيدين الباقيين للآلام والبؤس والآمال القديمة، مادام البيت العزيز المسكين سيباع في الأيام القليلة القادمة لأجانب، لمدنسين غير مبالين... انتقلت ذكراي إلى ذينك القبرين، اللذين لن أراهما مجدداً، واللذين اجتاحتهما الأعشاب البرية هذه السنة مع

عودة فصل الربيع الثمل بالحياة الأبدية والخصوبة التي لا يمسها التلف...

... تحت أي سماء، وعلى أي أرض سأستريح في اليوم المحدد من قبل قدري؟ غموض... ومع ذلك، أريد أن يوارى جسدي في الأرض الحمراء لهذه المقبرة بعنابة البيضاء، حيث ترقد... أو فليكن في أي مكان في الرمال الحارقة للصحراء بعيداً عن التفاهات المدنسة للغرب المحتل...

انشغالات حزينة بسخف، وصبيانية جداً، وساذجة جداً إزاء فتنة الموت الكبرى!

الواد، أيلول/ سبتمبر ١٩٠٠.

أتذكر رحيلي عن مرسيليا في شهر تموز/ يوليو. كان ذلك في المساء وقد أخذت أنوار النهار تختفي خلف الأغصان السميكة لأشجار الدلب الكبيرة في الجادة الصامتة...

وكنت أقف أمام النافذة أسفل قفص الكناري الصاخب، والذي أخذ تغريده يخفت ببطء مع اقتراب الليل. كنت أنظر من دون أن أرى.

كان كل شيء قد انتهى، ولُفّ وحُزم. ولم يتبق إلا سرير يُطوى وضِع في البهو من أجل آخر ليلة.

وإجمالاً لم أكن أصدق كثيراً ذلك الرحيل إلى الجنوب الجزائري... فقد أخّرني العديد من الظروف غير المتوقعة!... وتساءلت مراراً بقلق ما إذا لم يكن ذلك المشروع الذي أضحى يعني لي الشيء الكثير سيقدر له أن يبقى دائماً حلماً بسيطاً، ولن يتحقق أبداً!

تساءلت بازدراء وقلق... والآن، عندما صار كل شيء جاهزاً، ولم يعد هناك من شيء يستطيع أن يبقيني، اجتاح قلبي حزن كبير، وأخذ ينحدر شيئاً فشيئاً ببطء، مثلما ينحدر غسق الصيف الفاتر.

ومع ذلك، فلم أكن إلا عابرة سبيل غريبة بهذه المدينة، في بيت أخي هذا الذي لم أزره لشهور إلا زيارات خاطفة فارة، مدفوعة بمصادفات حياتي التائهة...

كان نومي متقلباً تلك الليلة برؤى غريبة ومشوشة ومنذرة...

وعند استيقاظي، لم يحدث شيء. استيقظت بنوع من البهجة العصبية، التي تقترن بالنسبة لي بلحظات الأسفار الكبرى...

والشيء الغريب... هو أن شهور حياتي الأوروبية الأخيرة كانت أكثر تقلباً، وأكثر حزناً، وبدت وكأنها تتراجع في داخلي إلى موجة بعيدة جداً... وأخذت أجساد الهناك المحبوبة تقترب...

... صعدت إلى متن أوجين بيرير مفكرة في رحلة قمت بها السنة الماضية على متن السفينة نفسها... ولكن في ظروف مختلفة تماماً... فعوض الذعر الذي أحسسته حينها، حيث كنت أتخبط في الظلمة، حلّ سلام حزين عارم، وتهدئة لكل الأحاسيس الأليمة...

على الرصيف، وسط الجلبة والحشود، لفت نظري شبح شخص واحد، كان أخي بلباسه الأسود القويم، والذي أوقف حياته بصفة نهائية على الهدوء المقيم، وكان قد حضر مرة أخرى لمرافقتي. كنت أرحل باتجاه المجهول. وكان سيبقى هناك.

ولما فصل بيننا درابزين السفينة، تبادلنا النظر مفكرين في غرابة قدرينا، وأيضاً، ويا للأسف، في بطلان كل إرادة بشرية، وكل الأحلام اللازوردية الجميلة التي حلمنا بها في الماضي معاً في أرض المنفى، حيث فتحنا أعيننا على حقيقة الإنسان المرة!

عند آخر قرعة جرس، تردد صوت الصافرة الأصم، قوياً وممزقاً في آن...

وبدا أن الرصيف يبتعد ببطء، ثم تشكل خلف السفينة شق كبير في الماء الأخضر المزرق، ثم أخذنا نمضي بسرعة أكبر.

وسرعان ما بدا شبح الشخص العزيز كنقطة سوداء وسط زحام الرصيف قبل أن تختفي سريعاً، عندما استدارت السفينة إلى المضيق البحري الجنوبي لتأخذ الطريق إلى إفريقيا. ومرة أخرى، كنت وحيدة، وكنت أمضي في الطريق...

استندت إلى درابزين الطبقة العليا في مؤخرة السفينة ورحت أتأمل منظر مرسيليا الساحر.

وكان أول ما يظهر منها مرفأ لاجولييت، حيث تبدو الهياكل الضخمة لعابرات المحيط الحمراء والسوداء غافية، وأعداد لا حصر لها من الجسور العائمة، والمراكب بين سفن شركات أخرى.

وحيث منازل الرصيف المرتفعة الكئيبة والسوداء، والمتماثلة كالثكنات، وعلى هيئات كئيبة.

ثم المدينة المدرّجة التي يشطرها إلى نصفين مرفأ كانبيير العتيق.

وبدت لي مرسيليا في البداية كتدرج ناعم للون الرمادي المتداخل بتنوع، حيث رمادية السماء التي ضببها الدخان، واللون الرمادي المزرق للجبال البعيدة، واللون الرمادي الوردي للسطوح، والأصفر للبيوت، والرمادي لصخور أندوم، والرمادي الطبشوري اللامع لتلّة نوتردام دولاغارد الوعرة، ثم في الأسفل، الرمادي الأرجواني والفضي للقلاع. وعلى كل تلك الطبقات الرمادية تلقي النباتات اليابسة والجافة التي نمت على الصخور بقعاً مخضرة داكنة، ووحدها نباتات الشوارع وقبة الكاتدرائية المذهبة تتميز بلمسات حية وصافية في ذلك المشهد الرمادي... وفي الأعلى، وكما لو أنها تحلق فوق الدخان والسحب، كانت العذراء الذهبية تلمع...

وشيئاً فشيئاً، أخذنا نستدير يساراً، فاكتست مرسيليا لوناً موحداً ذهبياً غريباً... مرسيليا مدينة الرحيل والوداع والحنين والتي لا مثيل لها اليوم، غارقة في محيط من النور، ومتوجة بالذهب المنصهر...

وبعد ساعة، تجاوزنا الصخور الطبشورية ذات اللون الأبيض الداكن والتي تضربها دوماً الأمواج القادمة من أعالي البحر... ثم انتهى كل شيء، وغرق كل شيء في الأفق. واختفى كل شيء.

غير أني بقيت مستندة إلى الدرابزين، أحلم مستسلمة بحزن إلى أسرار الغد المخفية والغامضة، وعواقب الأشياء المجهولة غير المحددة بتوقيت واقعي، والتي تحيط وتتحكم بأقدارنا التي ماتزال عابرة وخفية...

ومن ثمّ فكما أن بعض الأرواح لا ترتبط بالأرض إلا بالمنفى، وأن الحنين بالنسبة لها فجر الحب الحي للأماكن المتروكة بشغف عميق، حتى من دون أمل في العودة، فقد أحسست بأني بدأت أحب هذه المدينة، وخاصة مرافئها، وأن مظهرها كما بدا اليوم سينبثق دوماً بين الرؤى الغالية، التي تلازم أحلام المتسكعة والوحيدة التي كنتُها...

... هبّ هواء بحري وعمّ البحر سكون كبير، بينما في الأفق الغربي، وعلى مستوى منخفض، هناك وفي اضطراب البحر، أتمت الشمس غرقها الخيالي لأماسي الصيف في أبخرة رمادية ضاربة إلى اللون البنفسجي...

أضحى البحر بنفسجي اللون، بصبغة داكنة وقاسية... وبعد بضع لحظات

انتشر ضوء كما لو أنه غير دقيق ومتردد، وحل الليل بسرعة كبيرة. كان ليلاً عميقاً وساكناً.

نزلت من أجل خدمة مائدة الضيوف الحتمية. مجموعة من الأكلة ذوي السلوك القويم في البهو على الكراسي والكنبات الدائرية التي كانت لا تكاد تتوازن. ليس هناك من وجه ودود، وليس هناك من نظرة يقظة، نظرة ذكية حقيقية أوشغوفة... هناك التفاهة الكئيبة لوسط الموظفين وسيدات المجتمع المشغولين بثرثرة فارغة المحتوى... أحسستني وحيدة وغريبة وسط أولئك الناس الذين يجهلون كل شيء عني والذين أجهل بدوري كل شيء عنهم، والذين يشعرون ويفكرون بشكل مختلف عني بكل تأكيد. إضافة إلى ذلك، كان طربوشي الإسلامي يزيد من عزلتي عن مجتمعهم... كانوا ينظرون إلي جميعاً، وكأني حيوان فضولي...

صعدت إلى السطح ما إن تمكنت من ذلك، وقصدت مقدمة السفينة. كان النسيم البحري البارد الذي اشتد قد طرد كل الركاب، وكان بإمكاني أن أتمدد على إحدى الحواف...

في مثل تلك اللحظات الباردة والهادئة لليالي الصيف في البحر أحسست دوماً بشعور غريب من البهجة والهدوء. بقيت ممددة على السطح الذي كان يغمره ضوء مضبب، أتأمل فانوسي السفينة. وفي الأعلى، كان الغياب النهائي للنجوم. أحسستني وحيدة وحرة ومعزولة عن كل شيء في العالم، وأني سعيدة...

ونمت بهدوء.

وحوالي الساعة الثانية والنصف صباحاً أضحى التمايل كبيراً حد إيقاظي. وقفت فرأيت على يميني خطوط ضوء تخترق العتمة. كانت منارات باليار، وتلك النار الدائرية لماجورك... كنا نمرعبر الجزر وأخذ البحر يهتز.

أخذت أتأمل الأنوار المشيرة إلى أراض ستبقى مجهولة بالنسبة لي دوماً، وراودني شعور غريب بِلُغز غامض... وبهدوء، عدت للنوم...

ذكريات

ما زلت، مع نجوم الواد، ترتعشين في قلبي أيتها النظرات الفاتنة والرطبة لفوانيس السفينة الكبيرة التي حملتني إلى الأرض الإفريقية...

خلال بضعة أسابيع استعدت طعم الحياة بمرسيليا. جئت كثيراً إلى مدينة الرحيل الكبيرة تلك. . . وكان هناك دوماً قدر يبدو أنه يلاحقني بها، ويمنعني من رؤيتها كما أحب أن أرى المدن التي أمر بها حالمة وبطيئة ووحيدة على امتداد أسوار الأرصفة والساحات، أضع أردية مستعارة مختارة بحسب الأماكن والظروف.

وما كنت لأرى شيئاً بلباس شابة أوروبية قويم، فقد كان العالم ينغلق من دوني، ذلك أن الحياة الخارجية يبدو أنها صنعت من أجل الرجل وليس من أجل المرأة. ومع ذلك، أحب أن أغوص في دفق الحياة الشعبية وأن أشعر بتموجات الجموع تغمرني وأن أتشرّب سلاسة الشعب. كذلك فقط، كنت أمتلك مدينة، وأدرك ما لن يفهمه السائح على الرغم من كل شروحات المرشدين.

كان علي أن أركض دوماً، محمومة عبر الشوارع المزدحمة، وروحي في البعيد، مشغولة بأشياء مملة. وعلى الفور أخلف ورائي مرسيليا المجهولة، الخيالية تقريباً، وأركب قاصدة مرافئ أخرى، ومدناً أخرى. كنت أذهب للبحث عن الهدوء والنسيان في مدن نائمة في أرض البرابرة، أو الحلم الباسم لوجه أصادفه في مدن إيطاليا المثالية، أو الوقت الميت في ساردينيا الغريبة. . .

عدت هذه المرة بصدفة ملائمة، وبروح في حالة سلام تقريباً، وبعقل كسول تقريباً، وتمكنت أخيراً من دخول مرسيليا، والتقاط الإثارة المتميزة جداً للغرابة المعقدة، وروائح القار، والماء البحري والليمون.

عدت في شهر تموز/يوليو ١٩٠٠ للجزائر، رأيتني في البحر، وانضاف الشعور بالمساحة إلى الشعور بالصحراء، الذي أخذ يحتل دواخلي بلذة غامرة، في أماسي الصحراء الأولى المضنية التي أجدها مرة أخرى. وهكذا فقد كنت أتواجد عن بعد حيث كنت بالأمس.

. . . ستختفي ببطء شمس الصيف هناك، في عُرض البحر، في المياه الهادئة. صارت الصخور البيضاء تبدو وردية، ولمعت لافييرج (عذراء) دو لاغارد فجأة على تلّتها المجدبة ببريق غير طبيعي تقريباً.

لامثيل لمرسيليا، مدينة الوداع، في أماسي الصيف الغارقة في سائل ذهبي. ففي المياه المرتعشة تزحف أفاع من نار فارة ومنزلقة، ويداعب هواء فاتر بهدوء المنازل

والسفن والماء، بينما يكتمل في الأفق، في عُرض البحر الغامض والمتوهج، غرق الشمس كما لو أنها مأساة.

أثار الصوت الصدئ للرحويات على المراسي ذكرياتي المرهقة، واهتزت جوانب السفينة... إنه دوري الآن لأستند إلى الدرابزين، وأحلم بحزن مستسلم بما ينطوي عليه الغد من أسرار خفية ونهايات يتعذر سبرها، والأشياء الفارة التي تكتنف المصائر وتتحكم فيها. وكما تتعلق بعض الأروح بموطن الولادة بفضل المنفى، وبحب أعمق حتى من دون أمل العودة، فقد أحسست بأني بدأت أحب تلك المدينة الأخيرة في أوروبا، وخاصة مرافئها - وهكذا ترتسم صورتها العزيزة بملمح متأثر بين رؤاي كمتسكعة ووحيدة.

... غير أن البحر بدأ يعتم في الأفق. غابت الشمس، وانهى حريق الغروب انطفاءه في ظلال بنفسجية. وبدت خرفان باهتة على القمة المعتمة للأمواج العميقة، وبدأت التماعات طويلة تنتشر على صفحة المياه التي كانت ما تزال هادئة: سيكون الجو سيئاً...

أقلعت السفينة، واختفت مرسيليا من الأفق بصخورها وجزرها البيضاء. تحركي أيتها السفينة العتيقة واحمليني!

تذكرت أقوال ملاح قال بنبرة خاضعة وحكيمة: «لا يوجد فوق البحر إلا المجانين والفقراء...»

بالتأكيد، فأولئك الذين دعاهم الفقراء هم البحارة المعرضون دوماً للخطر، ولأقسى أنواع الحياة. أما «المجانين» فهم الحالمون والقلقون وكل عشاق الوهم، وكل أولئك الذين «يركبون البحر للرحيل» مثلنا، من المهاجرين والآملين.

خلف كل البحار هناك يابسة، وعند نهاية كل رحلة، هناك مرفأ أو غرق.

يقود الأمل بطريقة واعية وببطء إلى القبر، لكن لا يهمّ! إذ ستشرق الشمس الكبيرة غداً أيضاً، وسيكتسي البحر بألوانه الزاهية جداً، وستلمع المرافئ دوماً.

ملاحظة

تشير بداية هذه الملاحظات التي كتبت على كراسة التلاميذ خلال إقامة في باريس إلى المقبرة العربية ببون حيث دفنت والدة إيزابيل إبرهارت، ومقبرة فرنيي حيث يرقد جسد ألكسندر تروفيموفسكي، الوصي الرسمي على إيزابيل إبرهارت ورفيق والدتها، وحيث يوجد أيضاً قبر أخ إيزابيل، فلاديمير الذي توفي سنة ١٨٩٩.

هذه المجموعة التي عنونتها الكاتبة بـ«نحو الآفاق الزرقاء»، ونشرت سنة ١٩٠٨ من قبل فيكتور باريكون في ملاحظات على الطريق (مصدر سابق)، تتحدث عن مرحلة من حياة إيزابيل إبرهارت، ذكرت بتفاصيل أكثر في اليوميات.

تستند النصوص التي تلي إلى الرحلة الثانية إلى الواد. كانت مفرقة في ملاحظات على الطريق، وفي ظل الإسلام القائظ (مصدر سابق).

ومن أجل فهم أفضل، نذكر أنه خلال هذه الإقامة بصوف في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير لسنة ١٩٠١، كانت إيزابيل إبرهارت ضحية لاعتداء حدث في بهيمة، واقترفه شخص يدعى عبد الله بن محمد، الذي أعلن أنه قام بذلك استجابة لأمر إلهي.

***

. . . حدائق صوف هي حفر واسعة حفرها الناس بين الكثبان، وفي الأعماق المختلفة بحسب درجة عمق طبقة المياه الباطنية، وهي في طريق دبيلا، وفي طريق زغوم، وفي طريق غيمار، وتوقورت بضواحي تقصبات وكوينين وتقع على وجه الأرض. وثمة بساتين أخرى، وخاصة في الجنوب، هي عبارة عن حفر عميقة لا يُدخل إليها إلا عن طريق ممرات متعرجة صغيرة. وهناك أيضاً البساتين العميقة جداً في الشمال الغربي من المدينة قرب سيدي عبد الله والكارة.

وتثير هندسة تلك البساتين العميقة الفضول. فمن جهة تمنح منحدراً يمكن عبوره حيث توجد الآبار المدعمة بجذوع النخيل، بقلاّب وثقالات، وعند أحد طرفيها حجر كبير مربوط بحبل. وعند الطرف الآخر عمارة جلدية، وهي سلة مسطحة معلقة عند طرف حبل. وحول الآبار يمكن رؤية زراعة البقليات وأشجار النخيل الصغيرة

والنباتات المنخفضة، أما المرتفعة منها فتوجد جوار الأسوار على نحو عمودي تقريباً في الجهة المقابلة للآبار، وحيث القمة ملأى بالجريد لمنع زحف الرمال.

. . . بلد لا مثيل له أبداً. ففي ليالي فصل الصيف، تُصدم أذنا المسافر إليها بصوت عظيم، يئن بنعومة ويرتفع من الحفر العديدة. إنهم العمال الصوافة الذين يفرغون البساتين من الرمال، فيملأون بصبر الرمل الثقيل في السلال ويصعدون بها على أكتافهم. . . ويتم هذا العمل الدؤوب كل ليلة. وفي اليوم الموالي، تأتي رياح صوف الأبدية لتدمير العناء الليلي. وفي هدوء الليالي الفاترة الكبير ترافق هذا الغناء الشاكي والمقاطع القصيرة قشعريرة حزن غريبة، وتقريباً قلقة.

. . . وهناك في البعيد، خلف البحر الأزرق، وخلف التل الخصب، وخلف الأوراس الكئيب، والسبخات الكبرى، التي ستجف، توجد الأرض المحروقة، أرض صوف، الأرض الصلبة واللامعة، حيث تتوقّد شعلة الإيمان الملتهبة، وينتصب مع كل خطوة مسجد أو قبة أو مقام ولي، أو قبر خارق، وحيث الصوت الديني الوحيد هو الأذان الإسلامي الذي يُردَّد خمس مرات، وحيث الصلاة، وحيث الإيمان. . . وهناك بيت صلاح بن فليبا الذي لا تعدم فيه الحركة أبداً، والمنظر المألوف والثابت في هذا البلد المتعصب. وهناك رجال ببرانس حمراء، يلجون مع الضباب المنازل الكئيبة ذات القباب، أو يجتمعون على حصائر القصب في مقهى بلقاسم بيباشي. وهناك الزوايا المقدسة ورؤساؤها المبجلون. . .

*
* *

الواد: مدينة عربية خالصة شيدت على سفح كثيب رملي مرتفع، بمنازل جبصية بنيت من قبل الصوافة (سكان صوف). والمدينة على هيئة شرقية وذات بياض مثالي.

وتتميز فيها المباني الفرنسية بطريقة واضحة جداً، حيث المكتب العربي، والثكنة والبريد والمدرسة والجمرك.

وفي الواد قائدان، قائد أعشيش وقائد المصاعبة.

وأهم المباني الإسلامية فيها محكمة القاضي، ومسجد عزيزلة وأولاد خليفة والمصاعبة الغربية، وسيدي سالم، وأولاد أحمد، ومسجد زاوية سيدي عبد القادر.

وشوارع الواد متعرجة وغير مبلطة كلها، والسوق فيها عبارة عن ساحة كبيرة

وبنايتين بسقوف معقودة وقباب، إحداهما للحبوب والأخرى للحم.

وفي سوق الواد صوافة من كل قبائل الشعانبة، وحتى من قبائل الطوارق والقبائل السودانية.

ويقام سوق الواد يوم الجمعة، ومنذ مساء يوم الخميس تزدحم الطرقات القريبة بالجمال والحمير والراجلين.

والطرقات الرئيسية في الشمال هي طريق الجريد التونسي مروراً ببهيمة وديبيلا، وفي الشمال الغربي طريق بسكرة عبر غيمار، وفي الغرب طريق توقورت مروراً بكوينين، وطريق توقورت عبر طيبة القبلية التي تنطلق منها أيضاً طريق ورقلة عبر الصحراء، وفي الجنوب طريق بير صوف، وغدامش عبر عميش وفي الشرق طريق تونس عبر قرية طرفاية.

ويحيط بالواد العديد من القرى التي تشكل البلد الذي يعرف بواد صوف.

عشت شهوراً في هذا البلد، وعدت مجدداً مرتين في فصل الصيف، وأمضيت فيه فصل الشتاء، وكنت على وشك الموت فيه، مصابة بضربة سيف في قرية بهيمة، ومكثت هناك بعض الوقت أعالج بالمستشفى العسكري... تمكنت أخيراً من الحديث عن هذا الأمر.

وكان الواد بالنسبة لي في البداية اكتشافاً للجمال المرئي وللغموض العميق، وامتلاك روحي الضالة والقلقة بمظهر أرض لم تخطر على بالي قط. لم أبق فيها إلا مدة قصيرة، غير أني عدت إليها في السنة الموالية في الفترة نفسهاتجذبني إليها ذكرى لا تقاوم.

أعتقد أنه توجد أوقات مقدَّرة، ولحظات فُضْلى بطريقة غريبة جداً حيث بعض المناطق وبعض الأماكن تبوح لنا بروحها بحدس مباغت، حيث نحفظ منها فجأة الرؤية السليمة والفريدة والتي يتعذّر محوها.

كذاك كانت رؤيتي الأولى للواد، اكتشافاً كاملاً ونهائياً لهذا البلد اللاذع والرائع الذي هو صوف، لجماله الغريب ولحزنه الكبير أيضاً. كان ذلك في شهر آب/ أغسطس من سنة ١٨٩٩، وفي ليلة حارة وهادئة...

فانطازيا

من بين كل الذكريات الغريبة، ومن بين كل الانطباعات الملهمة التي خلفتها في نفسي إقامتي بالواد، تلك المدينة الرمادية ذات القباب المنخفضة الألف، وذلك البلد ذي المظهر القديم، كان أعمق الأشياء وأكثرها غرابة ذاك المنظر الفريد الذي منحت إمكانية تأمله ذات صبيحة شتائية صافية، لذلك الشتاء السحري هناك، المشمس والشفاف مثل فصل الربيع.

فمنذ عدة أيام، كان البلد في احتفال بالولي الكبير المبجل سيدي محمد الهاشمي، والذي سيعود بعد رحلته إلى بلاد بعيدة، خيالية تقريباً ، من فرنسا. وهي مناسبة قيّمة لوضع ثياب برّاقة، وجعل بعض الجياد تركض في الريح والدخان، وخاصة إسماع صوت البارود.

حل النهار بشفافية وردية غير منتهية ودبقة. الفجر، اللحظة المختارة، واللحظة الفاتنة خاصة في الصحراء. فالهواء خفيف وصاف. أخذت نسمة منعشة تهمس بلطف في الأوارق الغليظة والصلبة لأشجار النخيل في البساتين الغريبة. لا توجد كلمات لوصف البهجة الفريدة لتلك اللحظات في سلام الصحراء العارم.

كنا قد وصلنا في الليلة السابقة إلى برج أورميس البعيد عن الواد بأربعة عشر كيلومتراً، على طريق توقورت لمقابلة الشخصية الورعة.

فبعد ليلة أمضيتها رفقة مجموعة حميمة صغيرة، مصغين فيها إلى كلام الولي المتّقد والمزخرف، خرجت إلى الباحة حيث كانت جيادنا تنتظر في عصبية بفعل الأصوات النادرة لليلة أمس والحشد الذي أخذ يزداد بوصول قادمين جدد.

وكان هناك مئات الرجال الجالسين أو الممددين على الرمال، وقد لبسوا برانيسهم البيضاء الخاصة بالأعياد العظيمة. . . وكانوا برؤوس عازمة وذكورية، وبوجوه مشربة بالسمرة المؤطرة بشكل بديع باللون الأبيض الناصع للحجاب المتدلي من العمامات. وكانت النساء يلبسن على الطريقة القديمة، أقمشة زرقاء وحمراء معتمة مزينة بحلي

ذهبية غريبة أحضرت من السودان البعيد كانت تلقي عليها أضواء النهار الأولى مثل شرارات من نار.

وحول النيران، بأوضاع رزينة، وبحركات البدو الرحل الاعتيادية، كان كل المؤمنين يحضّرون شاي الصباح المتواضع.

كانوا يحملون جميعاً في أعناقهم السبحة الطويلة لإخوان سيدي عبد القادر من بغداد.

ولما كانت الجياد مهتاجة بوجود فرس سوداء ذات عينين ملتهبتين ولدت تحت السماء الحارقة لعين صلاح البعيدة، فقد أخذت ترتجف وتصهل، وتقوّس أعناقها تحت ثقل أعرافها المحررة بنعومة.

وفي الخارج، كانت ترتسم تحت السماء الأرجوانية الظلال الغريبة لثلاث مهاري عملاقة، هادئة وغير مبالية مثل تماثيل ضخمة قادمة من زمن آخر، مزدرية كل تلك الإنسانية الرقيقة التي تتحرك حولها.

وأخيراً، بحركة حاسمة من أحد المقدمين، أفرغت الساحة وأقفلت الأبواب، فقد أزفت ساعة الرحيل.

وظهر أمام الناس الولي وهو يرتدي لباسه الصارم من الحرير الأخضر وعمامة خضراء، وأثواب بيضاء طويلة، تعود إلى نسل النبي. كان بقامة هائلة، رزيناً وبطيئاً. توقف للحظة، ثم غاصت نظراته العصية على الوصف والعميقة من بين عينيه السوداوين الواسعتين باتجاه الأفق الشرقي. بقي هادئاً وغير مفهوم على الرغم من حماس المؤمنين، من دون ظهور عاطفة مرئية على ملامح وجهه البهي ذي الوسامة الذكورية والحزم.

ركبنا جيادنا وسط الجلبة التي يحدثها صراخ الخدّام وصهيل الجياد فاقدة الصبر. وفتحت البوابة على مصراعيها، وبقفزة ساخطة، كنا في الخارج.

وكان أمامنا أربعة موسيقيين زنوج أتوا من البلد التونسي نفزة، يرتدون ثياباً من حرير بألوان فاقعة، وقد شرعوا في لحن غريب وهمجي على ناياتهم الحادة، مصحوباً بقرع أبح على طبل كبير.

وارتفع صوت من الحشد. وكان صوتاً عظيماً وبحرياً:

ـ السلام عليك يا ابن النبي!

وبعصبية تردد الصياح، وقرع الدفوف المحمولة فوق الرؤوس بأذرع ممدودة وبإيقاع مجنون. وتراجعت الجياد المذعورة إلى الخلف في البداية، ثم حرنت، وأرغت، وانطلقت.

أما الولي الذي حافظ على هدوء أعصابه فقد امتطى جواده الأبيض الذي يتحدر من الجريد، فقد بدا بعينيه المنخفضتين في صمت مشغولاً بكبح جماح مطيته من دون أن ينبس بكلمة، ومن دون حركة مباغتة على الحيوان الثائر.

وأخيراً تشكل موكب نوعاً ما، متألق وأبيض تسوده فقط القامة العالية للولي ذي اللباس الأخضر.

كنا نتقدم ببطء في اتجاه الشرق، كما لو أننا ذاهبون للقاء شمس الشروق التي كانت ماتزال متوارية خلف الكثبان الكبيرة التي تحاصر الواد.

وعند خروجنا من ممرات متعرجة، كانت ما تزال غارقة في الظل الأزرق، ألفينا أنفسنا على المرتفعات، وعظّمت أنوار النهار الحمراء الموكب الأبيض.

بدا كأن الكثبان الهادئة والعقيمة ولّدت حشوداً، فقد كانت قبائل بأكملها تنحدر من السهول، وتنبثق من البساتين. . .

وفجأة تشكلت أمامنا دائرة كبيرة فارغة، وعلت أصوات تردد نشيداً متقطعاً ووحشياً، هو نشيد عربي قديم آت من الماضي، وانطلق اثنا عشر شاباً يرتدون حرير تونس بألوان فاقعة إلى الحلبة، وقد تسلحوا ببنادق طويلة مرصعة وطبنجات، ممثلين هجوماً، ومطلقين صرخات خشنة، وهم يندفعون نحونا. وقرب الجياد التي أخذت تتراجع مذعورة أفرغوا أسلحتهم دفعة واحدة في الرمال.

وهكذا اهتزت الجياد، وقد عصف بها الجنون، رافعة قوائمها الأمامية فوق الحشد. . . بعيون جاحظة وأفواه تسيل زبداً وحاولت التراجع مجدداً. . . غير أنها مدفوعة بالمهاميز الحادة تحمست وشقت طريقها وسط الحشد الذي فسح لها المجال مانحاً إياها معبراً متعرجاً ومرناً.

وهكذا كان المشهد يعاد ويكرر في كل مساحة منبسطة بعض الشيء وواسعة قليلاً.

تخيّلت أننا نعود إلى زمن بعيد من أزمنة الماضي البائد، تلك الأزمنة حيث كانت الحروب تشعل الأرواح وتمتلكها، وحيث كانت السعادة والروعة. واستيقظ كل ما

كان حربياً وقديماً في تلك الأرواح الهادئة للبدو الرحل، وتمكن ذلك التملك من أن يتوالى كذلك عبر منظر الكثبان الثابتة منذ آلاف السنين، ذلك أنها كانت لا تحتوي على أي مظهر عصري.

وكانت الرائحة اللاذعة والمثملة للبارود المحروق تتبعنا مسكرة الرجال والدواب أكثر من الموسيقى الهائجة والصراخ.

غير أنه سرعان ما ظهر في الأفق، على قمة كثيب مرتفع، موكب شديد البياض متوج بالذهب في ضوء الشعاع الشرقي. وكانت تتقدمه ثلاثة ألوية بالية جداً، لواء أخضر، وثان أصفر وثالث أحمر، خيطت عليها جميعاً كتابات كامدة وتعلوها كريات نحاسية متلألئة، بالدفوف عينها المرتفعة فوق الرؤوس المعممة. وأخذ ذلك الحشد يتقدم كبيراً ومتلاحماً. ولم يكن هناك صراخ أو موسيقى سوى الصوت المصم للدفوف يرافق نشيداً موحداً وقوياً ويصدر عن ألف صدر:

ـ تحية وسلاماً عليك يا نبي الله! تحية وسلاماً عليك يا أقدس خلق الله! تحية إليك يا الجيلاني، أمير الأولياء وسيد بغداد، والذي يشرق اسمه في الغرب وفي الشرق!

وقرب الألوية وعلى فرس كبيرة بيضاء كان يتقدم أخ الولي، الولي المقدس نفسه سيدي محمد الإمام. وكان أشقر وعملاقاً، بشقرة سيلتية أو جرمانية، وبوجه أبيض مشرق بنظرة لطيفة ومتفكرة، وبعينيه الزرقاوين الكبيرتين. عينان غريبتان تحت البرنس والعمامة البيضاء لنسل إسماعيل، المحروقة عبر آلاف السنين بشموس قاسية.

التقت الفرقتان وتلاحمتا، فيما كانت تنبثق من كل الكثبان أشكال بيضاء للرجال، وبقع زرقاء لنساء بأعداد لا تُحصى.

استدرت فألفيت خلفنا بحراً هائجاً من العمامات والحجب. رأيتها تتماوج على مد البصر في تلك الطريق حيث جئت أكثر من مرة أبحث فيها عن الهدوء والوحدة. وكانت هناك دوماً مجموعات من المتعصبين تنبعث لإسماع صوت البارود ولإثارة الجياد.

بدونا في تلك اللحظة وكأننا نحمل فوق رؤوسنا حجاباً رمادياً ممزقاً. كانت سحابة دخان.

واشتد النشيد العميق والناعم والحزين أيضاً مثل كل أناشيد الصحراء، وارتفع إلى زرقة السماء الشاحبة.

ثم انحدرنا وسط تل كبير فارغ نثرت فيه قبور.

وأمامنا كانت المهاري الثلاث التي انضافت إليها أخرى قد انطلقت بهدوء أعصاب، من دون اهتزاز ومن دون خوف عبر الحشد. وبدا فرسانها بوجوههم نصف المغطاة مفكرين هم أيضاً، معتلين صهواتها الطوارقية ذات الأشكال الغريبة. وكانت الأجراس الحديدية للداوب الكبيرة القديمة تدق مع كل خطوة، والرؤوس الهدلاء الطويلة والعجيبة ذوات العيون اللطيفة تتمايل ببطء عند أطراف الأعناق المرنة والممدودة.

ولكن، لما أحسسنا فرساناً وأحصنة بالمساحة الفارغة أمامنا، رحلنا مطلقين أخيراً الأعنة المشدودة التي كادت أن تقطع، تاركين خلفنا الأولياء الثلاثة والمسنين يمشون ببطء في ظل الألوية التي تخفق في الريح. كان ركضاً عصبياً وسط الحشد المفتون، ومن ثم راحت ترسم في السهل الشاسع دوائر وانعطافات تبعث الدوار.

وحُرّر أخيراً كل الجنون المكبوح، وكل رعب الجياد أيضاً، ففرّت، كما لو أن عليها ألا تتوقف أبداً. وتملكتني نشوة كل تلك الأرواح العنيفة والصادقة، ومثل الفرسان الآخرين انتهى بي الأمر حدّ الثمل في السباق المجنون.

تجاوزنا المدينة الكئيبة المملوءة بالمؤمنين، وتابعنا فرارنا عبر السهل والمقابر الكبيرة، كما لو أن قوة غير طبيعية كانت تحرك جيادنا من دون أن يصيبها التعب، فاندفعت متصبّبة عرقاً، وبيضاء زبداً، متجهة دوماً بشكل لا يقاوم نحو الأفق المضبب.

لم يعد السهل إلا محيطاً متعدد الألوان إذ اجتاحته الحشود التي كانت ما تزال تتعاظم، وغدت الألوية الثلاثة تخفق فوق آلاف وآلاف من المؤمنين.

واستمر الرجل الذي يُوجّه إليه حب وتبجيل كل تلك الحشود في المشي ببطء وبصمت، وبهدوء أعصاب وبتفكير.

وحول مسجد الزاوية الكبير الذي تعلوه قبة مرتفعة كان سهل البياضة مقفراً وغير محدود وقد غمره ضوء أزرق نافذ.

وفي البعيد، خلف المنازل، أقيم مخيّم فسيح للبدو الرحل، وولدت مدينة بين عشية وضحاها، وعظمت فجأة، وامتلأت قفار البياضة المهجورة بخيم سوداء،

أضحت طريق كل المناطق الداخلية الغربية لبير صوف وغدامس والسودان الأسود.

وهناك استمر صوت الدفوف الأبح. ومن هناك ارتفعت الأناشيد والأصوات المبتهجة المعتدلة واللطيفة، وأنغام نايات بدوية صغيرة صنعت من قصب خفيف...

وهنا خيم صمت مطبق على المسجد الخرب، وعلى القبور، وعلى الرمال الحمراء.

وأسفل واد قاحل صغير، انتثرت فيه حجارة رمادية ذات أشكال غريبة، وقبور مهجورة، ومجهولة من دون كتابات عليها، كان يقوم سور مسنن بغرابة يبدو أسود في زرقة الليل اللامحدودة... وفي تلك الملكية المسوّرة، والتي لم تكن فيها شجيرة واحدة أو وردة واحدة، مساهمة بذلك في عُقم الرمال الأبدي، كانت هناك حجارة صغيرة تشهد على قبور، ومن بينها قبر لبنيٍّ اللون تنزلق عليه أنوار القمر الليلي.

... وظهر جسد من باب المسجد المقوّس، بقامة عالية وقاتمة. وانسلّ ببطء عبر الفسحة المنارة، ثم انحدر إلى الوادي المأتمي. وها هو ذا يلج الملكية المسورة ويبقى هناك ساكناً، برأس منحنية في تأمل أخرس، أمام القبر الأبيض.

وهناك في المدينة الفانية الكبيرة، وتحت الخيم السوداء، كان شعب بأكمله ينشد مجده، مجد أجداده الذين زرعوا بذور الإيمان المتجدد في بلاد الإسلام غير المحدودة.

غير أن الولي الكبير المتأمل بقي هناك. جاء وحيداً في الليل ليحلم. ومن يدري فلعلّه يبدي أسفاً دائماً، إذ يتأمّل قبر جده الأول الذي رحل في هوة الغموض، ولا يكاد يفتح عينيه على الأفق المتألق لبلده المدهش.

كراسات

الواد، ١٨ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٠١.

كنت مريضة منذ بعض الوقت، وأعاني آلاماً مبرحة في كل أطرافي، وفقدان شهية كلياً. وكنت أتساءل في بعض الأحيان إن كان علي البقاء هنا. لا ترعبني هذه

الفكرة. . . فأنا لا أرغب بأي حال من الأحوال أن أُحدث أي تغيير في نمط العيش.

تعلقت بهذا البلد ـ مع أنه أحد أشد البلدان خراباً وأكثرها عنفاً ـ وإذا ما توجب عليّ في يوم من الأيام ترك هذه المدينة الكئيبة ذات الأعداد غير المحصورة من السقوف المعقودة والقباب، والتائهة في العظمة الرمادية للكثبان العقيمة، فسأحمل حيث حللت الحنين القوي لبقعة الأرض هذه حيث فكرت كثيراً، وعانيت كثيراً، والتي تضيء وحدها في هذه اللحظة حياتي الحزينة بضوء الشمس.

أنا هنا منذ وقت طويل جداً، ويشدني هذا البلد إليه بقوة، وهو بسيط جداً بحدوده ذات الرتابة المهدّدة. فليكن شعور القلق هذا وهماً عابراً وجمالياً. كلا، لم تسحرني أبداً بكل تأكيد بقعة أخرى على الأرض، ولم تفتني مثل تلك الأماكن الموحشة المتحركة للمحيط الجاف الكبير والتي تقود من السهول الصخرية لغيمار ومن الأعماق الملعونة لسبخة ميل رير، إلى صحارى سيناون وغدامس الخالية من الماء.

أحس حزناً كبيراً يجتاحني عادة عندما أستند عند مغرب الشمس إلى بقية حاجز شرفتي الخشنة، منتظرة اللحظة التي سيعلن فيها المؤذن أن الشمس قد اختفت في الأفق، وأن ساعة إفطار الصائمين قد أزفت، ومتأملة الكثبان الصهباء التي تكتسب حمرة قانية ولوناً بنفسجياً، أو تحت السماء الخفيضة والسوداء لفصل الشتاء الأكثر برودة، وقلقاً قاتماً، كما لو أنني في تلك اللحظة أكثر من غيرها، وبصفاء روحي مباغت، أشعر بالعزلة العميقة لهذه المدينة المتعذر عبورها، كما يبدو لي، خلف الكثبان على بعد ستة أيام من خط سكة الحديد ومن الحياة الأوروبية. . . وهكذا يبدو لي أنه في الليل البنفسجي الطويل تقترب الكثبان الكبيرة وتنتصب، كأنها حيوانات متوحشة، وأنها تحاصر عن قُرب المدينة وبيتي، الأخير في حي أولاد أحمد، لتحفظنا بغيرة وإلى الأبد.

أجتر في بعض الأحيان أقوال لوتي:

«المسكين، أحب سينغاله!»

أجل، أحب صحرائي، أحبها حباً معتماً وغامضاً وعميقاً يتعذر وصفه، ولكنه حب حقيقي لا يصيبه التلف.

حتى أنه يبدو لي الآن بأني لن أستطيع أن أعيش بعيداً عن بلاد الجنوب هذه.

وتلزمني مع ذلك القوة للرحيل عنها، وانتزاع نفسي من هذه اللفافة... لكن أين سأجد هذه القوة لأتصرف ضد طبيعتي؟

***

مرسيليا، ١٦ أيار/ مايو ١٩٠١.

أحاسيس المساء في رمضان بالواد. أتأمل الأفق المتألق للمحيط الشاسع الجاف والثابت، والذي يمتد من سهول المغيبرة الصخرية حتى الأماكن الموحشة من دون ماء في سيناون، وغداميس، وأنا مستندة إلى أنقاض حاجز شرفة بيتي الخشنة، وتحت السماء الغسقية المحمرة تارة والبنفسجية أو الوردية، والمعتمة تارة أخرى، والغارقة في ضوء كبريتي. وتبدو الكثبان الكبيرة المملة تدنو وتتزاحم على المدينة الكئيبة ذات الأعداد غير المحصورة من القباب وعلى الحي الهادئ لأولاد أحمد، وعلى البيت المغلق والهادئ لصلاح بن فليبا، كما لتأسرنا ولتحتفظ بنا إلى الأبد بغرابة... يا أرض صوف المتعصبة والصلبة! لماذا لم تحتفظي بنا وقد أحببناك كثيراً، ونحبك دوماً ويسكننا بلاانقطاع حنينك وذكراك المقلقة؟

في حي الواد الجنوب الشرقي، وفي عمق ممر يفضي إلى شارع أولاد أحمد وينتهي إلى المقبرة التي تحمل الإسم نفسه، كان هناك بيت فسيح له شرفة هي الوحيدة بمدينة القباب، وكان هناك باب عتيق مترنح بألواح خشبية مفككة يحمي المدخل. شيّد هذا البيت العتيق مثل كل بيوت صوف بالحجر الكلسي مدعماً بالجبص الرمادي المصفر. وكانت هناك باحة داخلية فسيحة حيث تبدو مجدداً رمال الصحراء المحيطة الصفراء.

وهناك، داخل ذلك البيت الذي كان في الماضي ملكاً لصلاح بن فليبا، شقيق قايد المصاعبة السابق، وهو الآن بحوزة شعانبي مسن يقطن جوار القباب، أخذت تمضي الأيام هادئة جداً في البداية ثم غريبة جداً، وحزينة جداً ومضطربة بوجودي العاصف.

كانت في البداية أوقات هدوء في شعبان ورمضان وهي أيام قضيتها في الأعمال

المنزلية المتواضعة، والتجوال في الزاوية الكبرى المقدسة، على صوفي المسكين الوفي، وليالي حب وأمان مطلق في حُضن كل منا، بحسب التعبير السليم جداً لسليمان، وأوقات فجر بهيجة، هادئة ووردية بعد ليالي الصلاة الرمضانية، والغسق المحتدم أو الشاحب، والتي أبصر فيها من على شرفتي واد عليندا وطيبة القبلية، التي تهت فيها ذات صباح...

كنت أنتظر في البداية أن تتغير رمادية قبة السوق، ولمعان منارة سيدي سالم البيضاء لونيهما، وأن ينطفئ شعاع الغروب الوردي على صفحتها الغريبة... وهكذا يرتفع من البعيد، من مسجد أولاد خليفة، ومسجد عزيزبة، صوت الشكوى الممتدة والبربرية للمؤذن «الله أكبر!» كذاك كان يقول لتخرج من كل الصدور المضغوطة زفرة ارتياح... وفي الحال، تفرغ ساحة السوق، وتغدو هادئة وخالية.

وفي الأسفل، في الغرفة الكبيرة المفتوحة، يجلس سليمان وعبد القادر، أحدهما في مواجهة الآخر، في يد كل منهما سيجارة، وبينهما صندوق خشبي نستعمله كمائدة، منتظرين تلك اللحظة في صمت... أما أنا، فقد كنت أستمتع بالحط من عزيمتيهما صارخة بأن سيدي سالم ماتزال حمراء، فيرد سليمان بِسَيل من اللعنات على المؤذن، فيقول بأنه من مزابيط أولاد أحمد، وبأنه يبالغ في تمديد مدة الصوم. أما عبد القادر فقد كان يسخر مني على عادته منادياً إياي «بالسي محفوظ». وكان خليفة وعلي ينتظران بغليونيهما في اليدين، أحدهما للكيف والآخر للعرعر. أما طاهر فقد كان يسكب الحساء في الصحن حتى لا يكون عليه الانتظار.

أما أنا، فقد كنت أمدد صومي بحزن، مفتونة بمنظر الواد المتفرد، حيث يكون أرجوانياً في البداية ثم وردياً فبنفسجياً، ليتحول بعد الانطفاء السريع للحريق الغربي إلى لون رمادي موحد...

وفي مرات أخرى، وخارج أوقات الصيام، كنت أخرج ساعة المغيب لأنتظر «الرجل صاحب البزة الحمراء». فكنت أجلس على الحافة قرب باب السباهي اللفاتي في عمق المثلث الذي يفصل بين الثكنة والمكتب العربي للمدينة قبالة فراغ الصحراء الكبير، الذي يبدأ بالكثيب المنخفض لقمائن الجير، ويستمر بالكثبان المخروطية لطريق عليندة، وهناك تظهر في تألق الأفق الذي لا مثيل له شخوص رمادية على كثيب قمائن الجير، ثم تأخذ في تغيير أشكالها مرتسمة على السماء الأرجوانية لتصير عملاقة...

ثم يخرج من الباب المحروس، والذي يتسكع أمامه الجندي الشاب الأزرق والحربة في فوهة بندقيته، الظل الأحمر والذي لم أره أبداً من دون أن تجتاح قلبي القشعريرة. كان شعوراً لطيفاً في آن ولذيذاً بعض الشيء، وحزيناً على نحو غريب... لماذا؟ لن أتمكن أبداً من معرفة السبب.

كنت جالسة هناك، على ذلك الحجر، في ليلة معتمة عندما انبثق الظل فجأة، قريباً جداً، كان ذلك الظل هو الصغيرة الغريبة، هنية ابنة دحمان، بضحكتها المتقطعة والغامضة، ضحكتها الخاصة، وحزن عينيها المؤثر، مغلفة في خرقها الزرقاء والحمراء المعتمة الخاصة بالصوفية. كانت تحمل الخشب إلى بيت أحمد بن سالم.

... ومن بيت صلاح بن فليبا أيضاً، بعد الليلة المجنونة ليوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير، والتي أمضيتها في تبادل محموم للمداعبات، والتي كانت الأخيرة المقدر أن أمضيها في بيتي، رحلتُ إلى بهيمة المشؤومة التي بقي ظلها القاتل محفوراً بذاكرتي، كما بدت لي من قمة أحد الكثبان، عند طرف سهل مقفر، حيث تنتشر قبور شبيهة بتلك لتلك التي في تاغزوت، وأسوار رمادية وشجرة نخيل وحيدة تهيمن على المشهد كله... يرتسم التل على الأفق الرمادي القاتم لبعد ظهر ذلك اليوم من فصل الشتاء، حيث رياح الشهيلي (الشرقية) تبعث الرعب في النفوس مالئة الكثبان بالدخان، ومقلِّبة الرمال المتحركة.

... يراودني إحساس بالضيق في صوف في فصل الخريف، بعيداً عن البساتين الحفرية العميقة، وبعيداً عن «سيحان» في طريق ديبيلا. لا شيء على هذه الأرض يمكنه أن يشهد مرور الوقت وتقلّب المواسم. يختلط الخريف والشتاء والربيع والصيف جميعاً، وتمضي موحدة في الأماكن الموحشة والميتة للكثبان المتشابهة أبداً عبر صمت القرون الأزلي.

فهنا لا يأتي صوت بشري ليقلق الصمت بأنينه وإنشاده، الشبيه بالأنين، إلا الصوت البحري المرتفع للشهيلي وهو يلف الموجات الرمادية الدقيقة أو صوت البحري المنعش بلا جدوى، والذي لا يكاد يُميَّز، ذلك أنه لا شيء يعيد الحياة للأماكن الموحشة من دون ماء.

فالسماء أقل تأججاً، وأكثر شفافية، وأكثر زرقة، ونور الشمس أكثر بياضاً،

والظلال أقل سواداً قاسياً، وفي الهواء خفة متميزة. هذه هي العلامات الوحيدة لمعرفة أن الخريف حل، وأن نهارات الإرهاق الكامدة قد انتهت وأن الحياة ستولد من جديد قريباً في البساتين.

وتنبت الحلفاء الصلبة في متاهات الكثبان، باستثناء طريق عليندة المحزنة، وفي طريق بير صوف والسفوح الواهنة الباردة. لا وجود للورود في أي مكان... وفي البساتين، تحرك رياح البحري العائدة غبار أشجار النخيل التي تستعيد خضرتها اللامعة، والجزر والفلفل والنعنع والأعشاب الطارئة التي تنثر اخضراراً باذخاً لا شبيه له، بينما تتساقط آخر الأوراق المصفرة للرمان والتين وبعض الكروم النادرة، وحيث يظهر مجدداً الخيار والبطيخ الأحمر... وتظهر الطيور أيضاً والسنونو التي تأتي سريعاً من أجل قضاء فصل الشتاء. وتكون الليالي التي تظلم سريعة، حزينة، ويتم الغروب في آفاق رقيقة. والصباحات، تلك الأوقات المباركة في الصحراء، والأوقات التي يشعر فيها المرء بأنه خفيف وسعيد، وبأنه يعيش، هي أكثر انتعاشاً وأكثر تأخراً...

غير أن هيئة صوف الثابتة تبقى هي نفسها دائماً وبصفة نهائية. فما تغير هو بعض التفاصيل والضوء، غير أن الأفق المتموج ولون الرمال الذي يشق وصفه، والصمت والوحدة، كلها أمور لا تتغير أبداً. ويراودني شعور بكدر مشوّش وحزن كبير للاعتقاد بأنه في مكان آخر تتزين الطبيعة التي تستعد للنوم بمنتهى الروعة، بينما تبدو هناك كأنها تفرغ لنفسها فقط...

... ماذا عساني أقول عن ذلك الإنشاد عند مغرب الشمس في الصحراء؟ أنّى لي إيجاد كلمات كافية لتحديد الروعة للتعبير بها عن السحر والحزن والغموض؟ في «يومياتي» السابقة دوّنت حينذاك، بطريقة غير تامة، العديد من اللحظات المهيبة...

كم من مرة، خاصة في انتظارات رمضان، تأملت عيناي باندهاش ذلك المنظر الذي لا يحمل اسماً! كم من مرة، وبينما يختفي الكوكب العاتي خلف الكثبان، انقبض القلب بانتشاء وبلذة وبحزن...

أذكر إحدى الأماسي حيث قصدت على متن صوفي العاري والمتحمس، بحثاً عن سرج الديرة عبدالقادر بلهلالي في المصاعبة، شرق المدينة على طريق المنفى باتجاه توقورت وبسكرة، حين شاهدت باندهاش روعة التألّق النادرة...

ومرة أخرى، لما كنت عائدة من تجوالي الطويل بحثاً عن سيدي الحسين، في طريق بير صوف، توقفت مأخوذة بافتتان ديني على قمة الكثيب الذي يطل على أولاد تواتي لرؤية الضيعة الهادئة، وأنقاض البيت أو البيت الذي لم يكتمل بناؤه المرتفع بطابق بفرادة الممر الذي كان على شكل قوس قوطي في البداية. كنت وحيدة في تلك الطريق التي تؤدي إلى المجهول المطلق، وإلى غموض الصحراء والسودان البعيد الذي يؤدي إلى الاضطراب ويشد إليه. والبيوت المغطاة بما يشبه سلسلة من القباب الصغيرة والزرائب من الجريد الجاف!... وبعض ظلال الجمال الممددة بهيئاتها الخاضعة والحالمة، وظهورها التي تعلوها برادع مخروطية الشكل، من شرائح خشبية، وجمل رمادي كبير يقف ساكناً بقائمة مرتفعة ومربوطة كما تقتضي العادة، وبعض النساء القلائل بخرقهن الزرقاء والسوداء وتقريباً على الهيئة الإغريقية، يدخلن البيوت منحنيات تحت ثقل القرب أو جرار تشبه قوارير بعروتين. قبل آلاف السنين كانت نساء نسل سام يغرفن الماء فيها من السواقي الكنعانية... كل ذلك في الأنوار الوردية والمتقزحة والصدفية عند السفح الأبيض لسهل أولاد التواتي الكبير...

وفي إحدى الأماسي، وبعد نزهة قصيرة، وتوقف في ظل أشجار النخيل المنخفضة لسبخة ديبيلا، ثار صوف فجأة رافضاً أن أمتطيه، ومرغماً إياي على قيادته حتى مسلخ الواد لأثب عليه من قبة منخفضة.

عدت وحيدة متمايلة من قرية قدري ودوي روحا المعجزة باتجاه اليمين، وسلكت الممرات الضيقة الوعرة المهيمنة على البساتين بشكل مدوخ، والمتعرجة والضيقة على القمم المسننة.

وفي اللحظة التي توقف فيها أذان المغرب، وحيث شرع المؤمنون يصلون في جماعات بيضاء، مررت أمام مسجد أولاد خليفة الصغير أو المصاعبة راربي (لم أدرك أبداً مكانهما على التوالي، وهما متجاوران). وكان كل شيء يشع بلون أرجواني وذهبي حولي، وغرق قلبي الأعمى، لأنه فان، في العتمات. وكان هادئاً...

وكثير من الأماسي المشابهة حتى ذلك المساء حيث أصبت بالقلق وكنت أعبر سريعاً على متن حصان دحمان ذي الخطوات الممتدة الطويلة، أولاد أحمد وأولاد التواتي والبياضة والقباب قاصدة سيدي سليمان لأطلب نجدته... ورأيت مجدداً الزاوية الخربة، الأقدم في صوف، والتي تنتصب على هضبة منخفضة بقبتين

متماثلتين. وكان كل المنظر مضاءً بانحراف بأنوار زنبقية، كانت ماتزال وردية. كان مساءً بهدوء غريب ومبهج وسط مشاعر قلق أيام ما قبل المنفى...

ومرة أخرى هذا المغرب السابق حيث القلب المخنوق بقلق يلامس الذعر، فقد كنت أنتظر سليمان على الكثيب الذي يطل من الغرب على مقابر المسيحيين واليهود المحزنة، ومن الشرق على مدينة الأموات الهادئة لأولاد أحمد... كانت مصابيح الليالي المقدسة والمنذرة ليوم الجمعة مضاءة، حيث النار الصفراء والفوانيس في احتدام تلك اللحظة الهائلة، وحيث المخلص علي يتسكع بين القبور من دون أن يدرك ما يصنع ببُرنُس سليمان...

... كان آخر مغيب للشمس في الصحراء أيضاً آخر وداع لنا للصحراء... كنا وحيدين نهمّ بدخول ظلال نخيل بسكرة العتيقة، عندما رجوت سليمان بأن يتوقف ويدير لجامه. وكانت شساعة الصحراء ما تزال تمتد خلفنا، وقد أعتمت. وكان قرص الشمس الأحمر ينزل من دون شعاع باتجاه حدّ الصحراء الأسود تقريباً، وسط محيط من اللون الأرجواني. «إنه وطننا» كذاك قلت لأضيف: «سنعود إليه مجدداً حتى لا نتركه أبداً. إن شاء الله!» فقال «آمين»، وقد بدا عليه الضيق مثلي تماماً، وكان حزيناً لترك تلك الأرض، الوحيدة التي أردنا أن نموت بها...

ومنذ ذلك الحين، لم أر مجدداً سحر المغرب في الصحراء. هل سأراه أبداً؟...

... سماء فصل الشتاء المكفهرة والسوداء فوق الكثبان الكابية حيث تجري الرمال الميتة، والتي ما عادت تشارك في حياة الرياح المتقلبة!

صباحات ضبابية وعطور مملحة للرمال الرطبة، وسلام الأشياء وانبعاث الكائنات... كنت أتأخر فيها أيام الاعتقال والأسر حين رأيت ذات مرة من أعلى شرفة الطبيب، بنظرة ودودة، صوف الوفي الذي كنت على وشك مفارقته والذي أضحى بالنسبة لي مجرد حيوان غريب في حياتي.

وعلى اليمين، خلف الساحة حيث صوف جنباً إلى جنب مع حصان الطبيب، يأكل شعيره المسائي، كان السور المسيّج بالزجاج المكسور في أعلاه، والبئر الجديدة

التي كان السجناء يشقّونها، والأعمال الشاقة المحروسة من أحد الديرة، وبناية المدرسة الرمادية الكبيرة المحدودة بخطوط مستقيمة، «الكوليج» مثلما يقال هناك، ثم الكثبان. . .

وفي الجانب المقابل، هناك ساحة الثكنة الفسيحة. . . والمداومون والجنود، وغرفة العريف الفرنسي، والساحة حيث كنت أنتظر عودة سليمان في الكثير من المرات، والذي كنت أراه عندما يغادر منزل قايد المصاعبة، ثم قباب الإسطبلات، والخيول ذات الأثواب المختلفة، والتي يتجول أمامها بعض أصحاب البرانس الحمراء. . . كنت أدرك أنه من ضمن كل تلك الأجساد المألوفة لن يمر أبداً ذاك الذي كانت عيناي تبحثان عنه منذ مدة طويلة. . . سور المكتب العربي، والمقرات التأديبية بالزنزانة المشؤومة، والتي أدرك أن عبد الله بن محمود فيها، ومركز الشرطة حيث دخّنّا الكيف رفقة القنّاصة الشجعان في ليلة ضيق، أنا وسليمان، والباب ذو المصطبة حيث يجلس رجال الحراسة. . . ثم مستشفاي، على امتداد البناية ذات السطح المائل قليلاً، وقبالته «غرفة الجثث» ومغسل الثياب والحمام. . . ووسط الساحة المائلة كانت البناية المنخفضة جداً والفسيحة من الداخل، ثم المسقاة والمغسل. وهناك كانت تتجول بلطف بعض الغزلان الأسيرة، التي تجفل من استثارات الجنود. . .

هي ذي الشخوص المعروفة أيضاً: الملازم أول لوميتر الذي يصرخ أمام المقرات التأديبية، بكلمات عربية مُهرّبة، والملازم أول غويو الممنطق بحزام يمر بمحاذاة المستشفى عائداً إلى بيته، والرقيب عثمان الفظ الغليظ والمرهق للكلب الصغير المسكين، سلوقي المفرزة، والقنّاص الفرنسي الذي يشبه رأسه رأس صبي جزار مرسيلي، جنباً إلى جنب مع الثقيل إيزاور، ثم القنّاص المجنون صاحب الجسد الأزرق المارد، يتجول صامتاً وبيده سُبحة لسيدي عمار، وأخيراً السباهيون، أو الفرسان الجزائريون، الذين يمتطون أحصنتهم من دون سروج بعد عودتهم من الساقية، وعرضهم المعروف الذي لن يرافق مجدداً الولي سليمان كما قالوا. . .

جميعهم هنا، العريف سعيد المنحني قليلاً، وهو رجل إيمان وواجب، كما لو كان منحنياً تحت نير الالتزام غيرالضاغط كثيراً بالواد، والمسنّ المزعج والسائل الملحاح سلامي المنشغل دوماً بلعبه دور العريف، والخائن امبارك بوسامته الحمراء

وهيئته المجنونة، والقواد الغبي سعيد زمولي متحدثاً من دون شك في هذه اللحظة، كما في كل لحظة، عن بنت اللحاحيد؛ والسكير منصور بهيئته المازحة، وابن شعبان المتسامح الذليل، وزاردي الهادئ واللطيف، وعلي الشعامبي الأشبه بشابة جميلة بعينين يزينهما الكحل، والمسنّ الجبان ناصر بن العياشي، والمخبول حانوشي، المقوس، متبختراً، والطويل ساولي، وصادوق المتعجرف، المتزوج من أسرة بن ضيف الله، والقاتل الطاهر بن مراد ذو المظهر اللطيف والمرح، وعمور الخياط، وهو شاب جميل أبيض البشرة، والبدين ساودي من أولاد دراج، والدنيء الخسيس سليمان بوخليف بأنف سكير وعيني لص، واللفاتي، غير الطبيعي دائماً، الملتحي كأنه أحد الوجهاء الهنود، والمتزوج طوعاً من الشعانبة، وأخيراً المعتزل دائماً، صاحب أصلب رأس في المفرزة، السكير وزير النساء دحمان بن بورني بمظهر فظ، ومتحفظ... كانوا جميعاً هنا.

هو ذا أيضاً خليفة البطيء بُبرنسه الواسع وصداراته المركبة والمتعددة، وغليونه وخرقته المملوءة بالكيف في طربوش برنسه يجر صوف من لجامه، وقد أحنى رأسه، وأخذ يحرك عُرفه القصير متقافزاً بفرح، لأنه يدرك جيداً أنه بعد الماء تأتي مأدبة الشعير.

يمر كل هذا أمامي تحت السماء التي أخذت تسمرّ مع دنو المساء، وحيث ينار الغرب بضوء كبريتي. وهكذا يحوم حزن غامر على أرض الشرق، بينما يحل الليل الشتوي، وتنادي أصوات المؤذنين البيضاء إلى الله لحماية الناس من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد (من يقوم بأعمال السحر الأسود)، ومن شر حاسد إذا حسد، ومن شر الناس المخادعين.

... شتاء مشؤوم هناك، ذلك أنه يزيح عن البلد مجده وروعته: النور المنتصر ووفرة شمسه التي تعيد الحياة...

*
* *

مهتزة منذ ما يقرب من ثلاث ساعات على نقّالة بسبب الكثبان، وتحت سماء الشتاء الرمادية، رأيت أخيراً فوق رأسي في البداية مرور قبة باب الثكنة، ولمحت مرور الحارس ذي الأعصاب الهادئة، بوجهه الأسمر، وحربته الحادة ذات الوميض،

ووجوه الحراس الفضولية، ثم قبة أخرى أكثر انخفاضاً إلى اليمين. . . وضغطت على بلعومي رائحة حمض الفينيك.

في البداية، كان التعذيب الجسدي البليد والمتوحش، حيث تثور الحيوانية كلها وتبكي؛ والخوف من المذبحة الجراحية، بينما كنت راقدة مرهقة ومرتعشة برداً على طاولة الجراحة في القاعة الصغيرة المضاءة.

ألقيت من جديد نظرة على تلك القاعة ذات الباب الخشبي الرمادي، تعلوه نافذة مفتوحة، وعلى اليسار طاولة صغيرة عليها بعض الكتب مع علم التقويم الضروري. وعلى امتداد الجدار قدور مستشيطة تضم سدادات وضمادات، ولوحة قياس الحرارة، والمحرار، ثم الطاولة المملوءة بالجرار والأحواض الكبيرة المزخرفة، حيث تبلل الأدوات الوحشية من ملاقط ومباضع ومكاشط ومقصات وإبر، معمل ألم كامل، والشرارة الزرقاء لمصباح كحول تماماً مثل نار ماجنة تتمايل ساخرة. وفي العمق نافذة عالية تطل على الممر المقبب وعلى مكتب الإدارة، التي تبدو بعيدة في الرؤية الخادعة لتلك الباحة ذات الأحجام التي يتعذر تحديدها. وهنا، في الوسط، الطاولة التي أتمدد عليها على مرتبة. وعلى جانبي الأيسر قماش مشمع أسود ينتهي إلى سطل الماء الدامي، ثم الدولاب المخصص للعقارات، وهي خزانة ذات أدراج من الخشب الرمادي. تمتزج الجدران بالقبة، وهو ما يمنح الحجرة الانطباع الملح لزنزانة أو لغرفة تحت الأرض، فقد طليت بطلاء شاحب وبزوايا سوداء، وشرارات حمراء، وكانت الأرضية مبلطة ورمادية.

وكان الطبيب يتحرك حولي بسترته ذات القماش الرمادي، وبوجهه الشاب ونظارته الطبية السميكة، والعريف ريفيير، مميلاً قبعته إلى الخلف، بلحيته المزدوجة الحمراء كأنه يسوع، والعريف الشاب غويومان، الفتى الأسود، وهما معاً يرتديان قميصين بكمين طويلين مشمرين على ذراعين صافيتين و بيضاويين وبوزرتين بصدريتين، وأخيراً الفارس رمضان بلباس من القماش الأبيض، وحزام أحمر وشاشية مسطحة، وهو شاب جبلي بوجه هادئ وواضح التقاسيم، ونادراً ما كان يضحك، وهو حساس جداً ويغضب بسهولة من مداعبات «الطبيب» المضايقة حول الدين.

مشوّشة الرأس، ومهشمة الأطراف، وضِعت على نقالة لأخذي إلى الغرفة المجاورة، حيث سأمدد على سرير عال وضيق، وحيث لن أجد مكاناً لجسدي المرهق، ولذراعي التي تؤلمني بفظاعة.

ولم تكن حرارة فصل الصيف المحرقة لتتسبب في وهم الاحتضار التام، ولكن «رائحة الموت»، والعتمات المشؤومة لليالي الحمى، والتي أتت لتسبب الرؤى المشوشة، ولتملي نداءات الموت المخلّص المجنونة.

أفكار العزل والهجر والحزن المغِمّ، وخاصة منذ التاسع من شهر شباط/ فبراير...

كانت الحجرة طويلة وضيقة ومقببة وقد صبغت باللون الأصفر والرمادي في الزوايا بخط أحمر - بني للفصل، وثمة بلاطة رمادية مقابلة للمغسلة. وعلى لافتة بالباب الكبير يمكن قراءة «غرفة المعزولين».

سريران مفصولان بطاولة صغيرة وكرسي، ويعلو مسندي السريرين رف خشبي يحمل وعاء نقاعة، وكأساً قصديرية ومبصقة بيضاء. وعلى الطاولة الصغيرة مشكاة شمعدان سليمان صغيرة، والتبغ والكيف وكؤوس النبيذ والقهوة الأبدية المتراكمة، والتي لم تشرب. وقبالة سرير ورقة بيضاء ألصقت على الحائط بأربع قطع ورق مثلثة بمسامير مثبتة، وكانت تحمل العنوان التالي «ملحقة الواد ـ المستشفى العسكري ـ قانون مصلحة الصحة».

هذه الورقة التي هي من عمل رقيب سابق أو لربما غوغان تنتهي بهذا العنوان: «العقوبات التأديبية المعاقب بها المرضى المدنيين».

وعلى يسار النافذة المغطاة بملاءة عسكرية حمراء، كان هناك المصباح الزيتي الذي كان ضوؤه الوردي الشاحب ينير ليالي الفظيعة، وكانت فوقه «حقيبة الصف» المصنوعةمن الجلد المصقول... وفيما بعد، وعلى سبيل الحظوة، كان هناك أيضاً كرسي خشبي من أجل الزوار.

وفي تلك القاعة، وعلى الرغم من الآلام وقلق الافتراق القريب، أمضينا ليلتين مختلفتين، وبعض لحظات النشوة، التي لامني عليها الطبيب الصالح فيما بعد لوماً

قاسياً ومرعداً ومهدداً، غير أنه هدأ أخيراً عندما عاين القدرة الكلية للحب الذي يغلب على كل شيء، ويصنع كل شيء، ويتجاوز كل شيء سواء كان مستبداً أو ساحراً.

بعد مدة قصيرة، أضحى ذلك «الملجأ» مألوفاً بالنسبة لي، وأصبح كما لو أنه بيت حقيقي. أحاديث طويلة مع الطبيب في السرير بداية، ثم عنده في تلك الغرفة البيضاء الفقيرة المتناقضة مع الترف المتصنع والمجاور لبهو غويو.

أضحى الدكتور تاست الذي كان فرحاً تارة، وعصبياً وخشناً تارة أخرى، متأملاً متفكراً ومتعمقاً في الروح ومفاجأً بي وأخوياً ومفتوناً، وغالباً عنيفاً وخاصة فيما يتعلق بالمسألة الدينية، وغدا صديقاً لي بسرعة، وأكثر حميمية مما كان عليه دو ميرغ، الأكثر هدوءاً وواقعية والأكثر تواضعاً أيضاً. وكان تاست المشبوب العاطفة أكثر من أي شيء آخر يسر لي دوماً بأموره، إذ يحكي لي عن عشيقاته وأفكاره ومغامراته وأحلامه. كان فضولياً محباً للاطلاع وخاصة على عالم الأحاسيس وباحثاً عن المشاعر النادرة، والتجارب الغريبة، سابراً ماضيَّ، وخاصة ماضيَّ القريب، وشاعراً بأني مهما تمكنت من معرفة الأشياء ليس هناك من شيء أكثر حقيقية وأكثر صدقاً من الأشياء التي مكنني من معرفتها، بطريقة غير واعية، الشخص الوحيد الذي أحببته فعلاً وأحبني. ذلك أن معجزة الحب، وأنا على وشك أن أفشي السر هنا، لا تتم إلا إذا كان الحب متبادلاً، وليس أُحاديّ الجانب إذا صح القول.

وكان تاست يبحث عن معرفة شخصية سليمان الحساسة والمؤثرة، حتى يعرف شخصيتي معرفة أفضل. غير أنه ابتدأ بالخطأ التام في معرفته بالشخصية الأولى مدفوعاً بالأحكام المسبقة للطبقة المنغلقة أو بالأحرى للرتبة وخاصة للعرق، فالفرنسي يظن العربي كائناً غريزياً فقط، وحيوانياً لا يرى في الحب إلا الفعل العنيف وأنه ليس هناك ما يرقيه ويهذبه، ويقدم الضابط ضابط الصف بالضرورة على أنه ينتمي إلى نوع، وهنا يعتقد أنه كان متسامحاً، الفارس الملكي الحساس، الذي ينتقل من ماء الورد المريب للإعلانات المتكلفة (نوع عبد العزيز) إلى فظاظة الأفعال الحيوانية. فاهتمامه بالحالة وإعجابه الصادق بي ازداد في اليوم الذي عرف فيه من سليمان ما يجهله هذا الأخير تقريباً عن نفسه، حيث غرابة تلك الطبيعة المتميزة جداً والتي لا تشبه أحداً آخر سواء في الخير أو في الشر.

كانت حياتي في المستشفى، على الرغم من مرارة الفراق مع الروح الكحلة،

والصراع القاسي من أجل الدفاع عن كل الأطماع المحيطة بي والعنيفة غالباً حد التسبب في انزعاج كبير، أو غير ذات جدوى حد اضطرابي، كانت حياتي هناك الأكثر تحمّلاً من بين آخر فترات حياتي في إفريقيا. احتفظت من ذلك المأوى، ملجأ الألم المفقود في الواحات البعيدة، بذكرى طيبة وحنونة. أحببتها، وحزنت عليها دوماً منذ ذلك الحين، وخاصة في أيام باتنة السوداء، ومستودع الجثث... فليكن! غير أنه يصير أحياناً بمثابة الملجأ المبارك للمهجور وللمنفي، لسيّئ الحظ وللفقير وللجندي الذي لا يملك مسكناً وعائلة، ويصير ذلك غالباً، كما أعتقد...

الواد، شباط/ فبراير ١٩٠١.

بعد الأيام الأولى من الحمى والقلق الغامض، من دون سبب، والتي أعقبت ليالي مريعة ، ليالي راعدة من دون نوم، بدأت أُبعث إلى الحياة بخُطى سريعة.

وعلى الرغم من أنني كنت ما أزال واهنة القوى فقد تمكنت من الوقوف والخروج، والجلوس لساعات في الرواق السفلي الذي يحاذي المستشفى من الجهة الجنوبية. وهناك كانت الشمس حارة وأحسست بشعور جيد.

ومع ذلك، كانت ساحة القصبة تلك كئيبة وحزينة، حيث توجد كل المباني العسكرية، وحيث توجد المستشفى.

ولاشيء يخضرّ أبداً في ذلك المنظر حيث الحجر والرمال، فكل شيء ثابت فيه، وحده الضوء الحار الأكثر ذهبية للشمس يوحي بأن فصل الربيع قد عاد.

فليس هناك رياح شرقية، ولا سحب رمادية ثقيلة، والهواء صاف وخفيف والنسيم فاتر تقريباً.

اعتدت على هذه الحياة الرتيبة في هذا الإطار غير المتحول وعلى الوجوه التي لا تتغير، والتي تروح وتجيء حولي.

وعند الفجر، دق المنبه أسفل رواق ثكنة الفرسان خشناً في البداية مثل صوت نائم ثم صافياً وملحاً بعد ذلك.

وسرعان ما فتح الباب مصدراً صريراً، وبدأت حركات الجيئة والذهاب.

أما هنا، فقد استيقظ الممرضون ذوو النعال العربية.

بعد لحظة، طُرق بابي ودُفع، ذلك أن القانون المعلق على الجدار يمنع أن يغلق

الباب ليلاً. دخل غوتورب الشاب الأشقر الطويل والهادئ حاملاً ربعية القهوة. وطرح السؤال عينه لكل يوم:

ـ هل أنت بخير اليوم يا سيدتي؟

قمت بصعوبة، مخالفة نصائح الطبيب الذي يصرخ ويرعد كثيراً غير أنه ينتهي أخيراً بالسماح لي بذلك.

أحسست دواراً برأسي وفتوراً بساقيَ، غير أن هذا الخدر كان لطيفاً، وبدت روحي ترتقي، وأضحت أكثر قابلية لالتقاط الأحاسيس السعيدة للحظات النقاهة تلك.

ذهبت هذا الصباح لأستند إلى جدار البناية، ورحت أتطلع إلى الواد من خلال الفتحات...

وما من كلمة تستطيع وصف مرارة حزن ذلك الانطباع، فقد بدا لي أنني أتأمل منظراً عادياً، منظر مدينة مجهولة مثل أية مدينة ترى من على سطح سفينة خلال توقف قصير. وبدت لي الرابطة العميقة التي كانت تربطني بذلك القصر في صوف الذي أردت أن أجعله وطني، تلك الرابطة الأليمة تقريباً، وكأنها قطعت إلى الأبد. لست إلا غريبة هنا...

من المؤكد أني سأرحل على سفينة يوم الخامس والعشرين، وسينتهي الأمر... لربما سينتهي إلى الأبد.

وللفرار من ذلك الحزن المغِمّ، ابتعدت عن تلك الفرجة حتى لا أرى مجدداً الثكنة وحياتها المتميزة، والتي لا تتغير أبداً.

يوجد معنا هنا حتى هذه الساعة أحد الفرسان، وهو رجل من القبايل طويل القامة، ونحيف بارز العظم، بعينين غائصتين ومحتدمتين. يقول الطبيب بأن عمر مجنون... أما العرب فيقولون بأنه صار ولياً.

كان يزجي سحابة يومه متجولاً في الباحة مطأطئاً والسبحة في يده. وكان لا يتحدث إلى أي شخص، ولا يرد على الأسئلة.

وعندما قابلني عمر صدفة أثناء نزهتنا أمسك يدي من دون أن يقول كلمة، ومشينا معاً ببطء على الرمال الثقيلة... وبين الفينة والأخرى، كان الفارس يحدثني عندما نكون بعيدين عن المزعجين. كانت أفكاره من دون نهاية، غير أنه لا يشط كثيراً. هو لطيف جداً، وقد اعتدت عليه.

ـ عليك أن تصلي يا السي محمود. عندما ترحل من هنا، عليك أن تنضم إلى إحدى الزوايا، وتصلي...

ربيع في الصحراء

لم أر من فصل الربيع بصوف إلا لمحات خاطفة في «الثكنة الكئيبة» بين الثكنات والإسطبلات وإقامات الضباط والمستشفى... فهناك كل شيء من الرمل ومن الحجارة، ولا شيء يخضر أبداً.

ومع ذلك، فالهواء أضحى أكثر فتوراً، وأكثر لطفاً قبل الزوابع الرملية للأيام الأخيرة، وانتشر بطء كبير في كل البلد الحار جداً بعد منتصف النهار بفعل الشمس. وعندما كانت تسمح لي الفرصة بالخروج على متن حصان في الجوار كنت أرى مجدداً بساتين صوف العميقة. كانت حفراً حقيقية بين الكثبان المتموجة والجميلة جمالاً متفرداً، وبروعة لم أرها أبداً حتى تلك اللحظة، ومساءً حين أخذت رفقة الطبيب في البداية الشاي لدى سيدي الهاشمي، أو فيما بعد حين مضينا حتى القباب مع علمنا بأن الشيخ، المارد الأسمر الجبار ذو العينين الزرقاوين، كان بالجريد.

وهكذا فقد عدنا عبر الممرات الضيقة بين البساتين الواقعة من جهة الشرق بالبياضة قرب الكثبان.

غير أني عرفت فصل الربيع الصحراوي الغريب بحزنه اللطيف على الطريق، وفي الأماكن المهجورة التي تفصل بين الواد وبسكرة.

ففي تلك الطريق، وبعد مدينة غيمار الصغيرة والمتعصبة والمعتمة، وحاضرة الإخوان التيجانيين، لا توجد ضيعة، ولا دوار، ولا خيمة للبدو الرحل. لا شيء. هناك فقط الأبراج الوحيدة ذات الأسماء الغريبة، بير بوشحمة، وسيف المينيدي، وسطح الحمرية، ومقيبرة، والقميرات الحجرية وهي أهرامات صغيرة بدرجات، ومنارات رمادية مبعثرة في المنطقة الشاسعة الكئيبة.

تركت عند الساعة السابعة الظل الصديق لزاوية سيدي محمد حسين، والتحقت سريعاً بالقافلة الذي كان يتعيّن عليّ السفر معها حيث جمال الأداء، التي تشكل كل خمسة عشر يوماً قافلة تموين للمكتب العربي. في البداية كان الباش آمر (قائد القافلة)، وساسي وهو رجل صموت وعنيد، ولخضر السكير الشاعر والذي كان

يسحرنا بأغانيه، ثم منفيان طاعنان في السن من شلالة، وعصبة غريبة حيث اثنان من المنتحلين الدراويش يمتهنان التسول في الجزائر، متظاهرين بالجنون والصمم، وقد أرسلا إلى بسكرة للتخلص منهما، وامرأة مسنة رفقة ابنها... ورجال الخدمة ومكلفون بالجمال من قبيلة أولاد أحمد أعشيش.

في البداية، وحتى سيف المينيدي، امتدّ السهل المتموج الذي تجزّئه الكثبان وتنتشر فيه أعداد لا تحصى من الأجمات الخضراء المعتمة ذات الفروع الحمراء الصلبة والمشدودة كما لو أنها متشنجة في ألم سرمدي... وأشجار شائكة، وأجمات خضراء وشاحبة وذهبية، ونباتات شيح فضية اللون تنثر عطورها الصمغية في الصباحات البهيجة، وورود...

وفي سيف المينيدي الواقعة على مستوى أدنى تقريباً من البرج هناك بستان وفير، مسوّر بالطوب مثل بساتين واد رير.

وهناك أيضاً قمم فضية لأشجار النخيل، وتشابك لأشجار تين ماتزال من دون أوراق، وأشجار الرمان، وكرمات مغطاة ببراعم شاحبة، والنعنع والرياحين ذات الروائح النفاذة. نباتات غزيرة... وفي الأسفل الفلفل ونباتات دقيقة تميل على الهمس اللطيف للساقية المغنيسية. وفي الليل ترتفع الأصوات الكثيرة اللطيفة والحزينة لأعداد كبيرة من الضفادع الصغيرة وسط كل تلك السواقي.

كنا جالسين هناك في زاوية بالباحة التي كانت ماتزال باردة، وكنا نستدفئ حول نار ملفوفين ببرانسنا. وكنت أفكر بحزن لذيذ في كل غرابة حياتي وسط تلك المناظر الغريبة... وبعينين نصف مغمضتين كنت أنصت إلى الأغاني الشاكية للجماليين ولرجال الديرة. وكالعادة عندما أكون على الطريق في الصحراء، كنت أحس هدوءاً كبيراً يحل بروحي. لا أندم على شيء، ولا أرغب في شيء. أنا سعيدة.

وهناك، بعد شهور طويلة، أرى لأول مرة الأرض أيضاً والعشب الدقيق والبري، وأشياء لا توجد في صوف.

وتنحدر الأرض في البعيد في الأعماق الصلصالية ذات الألوان المختلفة والمقسمة إلى سبخات ماتزال جافة، وذات سُمرة داكنة، وقد أحاطتها بعض التلال على شكل قمم الجبال زرقاء اللون.

ولجنا بعدها منطقة السبخات الكبرى، وهي واحدة من بين الأغرب في الأرض كلّها.

تبعنا في البداية طريقاً بحرية وصلبة بين الأعماق الخادعة والمختفية تحت قشرة جافة في ظاهرها وهاوية طينية شديدة العمق.

وعلى اليمين وعلى اليسار رأينا بحرين بلون أزرق، وتقريباً ناصع البياض باتجاه الأفق الذي لا يقدر بثمن، ويبدو أنهما يمتزجان تحت سماء شاحبة، وهما كذلك أيضاً في المياه المالحة الساكنة والشفافة ذات الأعداد التي لا تحصى من الأرخبيلات الصلصالية والحجرية مختلفة الألوان، وفي النتوءات العمودية والمنضدة.

ليس هناك من كائن ذي حركة، وليس هناك من شجرة، وليس هناك من دغل. لا شيء. لحظنا وجود هرمين صغيرين من الحجارة الجافة. فيما مضى كان أفراد قبيلتين يأتون إلى هناك مدججين بالأسلحة لإنهاء شجار قديم. هناك نطق البارود وكان أموات...

رؤية هذا النموذج من الصحراء من القمة مساءً بعد المغرب تثير ما يفعله بحر هائج بعض الشيء في الساعة عينها. كان ثمة اللون الأزرق المعتم والأفق العالي والصافي... وسرعان ما بدا البرج، وهو بناية رمادية كبيرة، كئيباً على قمة كثيب رمادي.

بعض الأيادي المسلمة التقية وضعت تلك الأحجار هناك، لتشهد على الموتى. مر ما يقرب من ثلاثين سنة على تلك الحلقة المظلمة من حياة البدو الرحل، ومايزال الهرمان الصغيران دوماً هناك، مخلدين ذكرى أولئك الموتى، الذين لا يعرف أحد أسماءهم.

وهناك يبدأ بوجلود الحقيقي، متاهة من القنوات العميقة ومن الجزر الصغيرة، ومن الأخاديد، ومن رواسب الملح والملح الصخري... منطقة منبوذة حيث كل الكيمياء السرية للأرض تعرض تحت الشمس.

وباتجاه اليسار غرباً، هناك الأفق البخاري المتحرك لسبخة مروان الغارقة والذي يمتد باتجاه الواحات المنخفضة لواد رير، وشرقاً هناك ملريري الكبير الذي يمضي ليلتحق بسبخات الجريد التونسي.

حزن كبير مبهم يسود تلك المنطقة الفريدة «والتي انسحبت منها بركة الله». لربما

هي بقايا لبحر ميت منسي حيث يسود الآن الملح المر والصلصال العقيم والملح الصخري واليود. . .

وبحيرات حزينة عابرة من دون أسماك، ومن دون طيور ومن دون مراكب، وجزر حزينة من دون نباتات، وقفر مطلق أكثر حزناً من أكثر الكثبان جفافاً!

وهناك، يمكن للحياة أن تولد من قبل الإنسان، حيث الأرض خصبة، أما في هذا المكان فالموت مزمن، وعدا فيضان الشتاء لا يمكن لشيء أن يميز تعاقب الأيام.

ومع ذلك للمكان روعته وسحره، حيث أودية الملح الصغيرة تبرعم، وحيث البحيرات الشفافة وحيث تتلاعب السرابات، وحيث تتراءى المدن الوهمية وغابات النخيل والمساجد الخارجة من حلم، وحيث تأتي القطعان بأعداد كبيرة لترتوي ولا تبدو إلا كأبخرة بيضاء حارقة بفعل الشمس! بلد الأوهام والظلال والرؤى والأشباح، وبلد الخيال والغموض، حيث ذكريات الأصول المحيطية للكوكب لم تمس، أو جروح التفسخ البطيء والنبذ والغنغرينا المبكرة، التي انفجرت على سطح الأرض. . . من يدري؟

يهيمن سطح الحمرية الأجمل من بين كل الأبراج، والمنتصب على قمة تل جاف، على شساعة السبخات. وكان يبدو كحارس يراقب الأماكن المقفرة.

وعند سفح التل بستان صغير مقعر من دون سياج، حيث بعض أشجار النخيل الوحيدة، وأشجار تين هزيلة ومن دون أوراق، وأشجار بأوراق متساقطة تبدو كأنها أشجار الحور الرجراج أو نوع من أشجار الأوكالبتوس الهزيلة. . . وعلى الأرض، وفي الماء، نباتات مرتفعة صلبة وقاتمة، مثل خصلات شعر غارقة. . .

وبعد عبور المنطقة الصلصالية والحمراء المملوءة بالأحجار المسننة إلى الدغل تمضي الطريق. وهناك يبدو فصل الربيع أكثر وضوحاً. فكل شيء قد اخضرّ أو استعاد اخضراره، وكل شيء يبدو حياً وفتياً. (. . .)

وتخلصت الأشجار الكبرى الصحراوية ذات الأوراق الحادة والمعتمة من الغبار الشتوي، وبدت وقد تزينت بالمخمل. وتغطى العناب الذابل والذي بدا وكأنه تكوم على نفسه في وضع سيئ بأوراق دائرية صغيرة ذات لون أخضر لطيف وذهبي تقريباً. وهناك شجيرات الوزال المتوجة بأزهار بيضاء، والقباقب الصغيرة البريئة والمعطرة،

والأعشاب العالية المفعمة بالنسغ، وباقات الدرين والرزم الصلبة واللامعة الخضراء والتي تزينت بالريش وفي أماكن متفرقة تُرى سيقان الزنابق وقد ارتفعت عالياً، واللبلاب الشاحب الصغير، والسوسن البنفسجي، وأزهار متواضعة صغيرة زرقاء تختفي في الظل المجاور للأشجار. . .

ومن كل تلك الخضرة، ومن كل ذلك الثراء المزهر الذي يعود للماضي، والمعروض لأيام تحت سماء ستغدو في القريب رصاصية اللون، وستتوقف عن الابتسام لشهور وشهور، كان يفوح عطر يصعد مركباً ومثملاً، رائحة مضنية وحارة.

وحلقت في الأجواء أعداد غير محصورة من الطيور المهاجرة، مغردة في الصحراء المحتفية. وتصعد القنبرات باتجاه النهار الذي يولد، مصدرة نداءها اللطيف، وهي تخفق بأجنحتها، ثم تعود للسقوط في الأشجار كما لو أغمي عليها.

وكان الحزن الغامض يلقي على كل تلك السعادة العابرة ظله الأبدي.

وكانت القافلة تتقدم مفرّقة.

وكانت الجمال ترعى. أما الخلاصة رجال الخدمة الصوافة السمر طوال القامة القادمون من قبيلة أولاد أحمد عشيش فقد كانوا يغنون كما في حلم أغاني حزينة لا تنتهي. وكانوا تائهين في احتفال عودة فصل الربيع، وكانوا يأسفون على كثبانهم الجرداء ومدينتهم الكئيبة ذات القباب المنخفضة الألف. وكان المهران العملاقان لرجلي الديرة لخضر وناصر يسرحان بهدوء، بسرجيهما الطوارقيّين، وبغطاءيهما الصوفيين الطويلين مثيرين عند كل خطوة رنين جرسيهما. وكان الفارس القصير رزقي «الذي أنهى مدته»، يعود باتجاه جبال جورجورة مسقط رأسه ويغني لنفسه فقط أغاني شعبية عذبة ما كان أحد منا يفهمها.

صباحاً، عند الفجر، تركنا برج شغة المشيد وسط مستنقع والذي كان الملح الصخري واليود يفتتان أسواره ببطء.

ليس هذا واد صوف الطاهر، وأرض الرمال اللاذعة والرائعة، إنه واد رير المالح، والأراضي القاسية والقاتلة. واد رير بجماله الخاص، وبهجاته المتميزة، كأنه قطعة من السحر.

وهناك في الأفق كنا نرى منذ الأمس، ومن برج المقيبرة، تسننات الأوراس الكبيرة المائلة إلى الزرقة. وفي مستوى أدنى، في السهل، الخطوط غير المتصلة والسوداء للواحات الأخيرة حيث بسكرة لاوطة، وبني مرة، وسيدي عقبة.

كانت تلك الأماكن المجاورة لبسكرة قفراء وجرداء وكئيبة ومن دون سحر. وهناك طريق حقيقية عوض المسارب الصحراوية غير المتوقعة والساحرة. لم يعد هناك من صحراء حد أن بسكرة لم تعد اليوم ملكة الواحات، بل ملكة أزيحت عن عرشها وأضحت مدنسة. كانت واحة عرض هيئت لإلهاء الكسالى. ستظل دوماً الروح العميقة والروح القديمة للصحراء مغلقة وغير ودودة.

. . . هو ذا المساء الأخير، للأسف! وصلنا وحيدين تحت أفياء بسكرة العتيقة المغبرة. انتهى كل شيء.

انتهت جولات ركوب الخيل الطويلة في منظر الرمال المتميزة، وانتهت الأحلام التي استمرأت لذاذاتها في ظل الزوايا المقدسة، وانتهت أيضاً الاستيقاظات السعيدة في الصحراء! أدرنا لآخر مرة رؤوس جيادنا باتجاه الجنوب، وبصمت رأينا بأعين المنفيين الصحراء المعتمة التي ينحدر إليها قرص الشمس الكبير الدامي.

بلد فاتن، وبلد متفرد حيث الصمت، وحيث السلام على امتداد قرون رتيبة. بلد حلم وسراب لا تصله أبداً الارتعاشات العقيمة لأوروبا العصرية.

. . . انتهت الشمس من انطفائها في البعيد، وبقي التماع أحمر فقط. وهكذا أضحت الصحراء بأفقها المرتفع والصافي، وتموج أزرق معتم، كأنها بحر هائج عند الغسق في الصحو. ومنذ ذلك المساء الربيعي الأخير لم أر الصحراء مجدداً بتلك الروعة والكآبة.

. . . آه! يا لخدر الأصوات والوعي العذب في رتابة الحياة في بلاد الشمس! آه! يا للإحساس الوديع بالاستسلام للحياة، وعدم التفكير، وعدم التصرف وعدم الالتزام بأي شيء، وعدم الندم وعدم الرغبة سوى في أن يدوم أبداً هذا الوضع! آه! يالإلغاء نفسي السعيد في هذه الحياة المتأملة للصحراء! . . . ومع ذلك، هناك بعض اللحظات المضطربة أحياناً حيث الروح والضمير يستيقظان من نعاسهما الطويل، ولست أدري لماذا، ويشرعان في تعذيبنا.

فكم من مرة أحسست قلبي ينقبض عندما أفكر في توجهي للكتابة والتفكير، وعشقي القديم للدراسة وللكتب، ولفضولي الثقافي القديم... لحظات ندم، وقلق وحزن، غير أن هذه الأحاسيس ليس لها أبداً تقريباً من تأثير على الإرادة التي تبقى خامدة ولا تتحرك أبداً... ثم يأخذنا السلام والهدوء الغامران. ومجدداً، تبدأ بالنسبة لنا الحياة المتأملة، الأكثر وداعة، ولكن الأكثر عمقاً أيضاً «ستولدين في الألم»، كذاك قال لأول امرأة، والتزام مماثل أرهق من دون شك أقدار أول بروميثوس (إله النار) للفكر. وأول هيراكليس للفن. لعل صوت خفي قال له: عندما لا تكون روحك معذبة، وعندما لا يتألم قلبك، وعندما لا يخضعك الضمير لتحقيقات عنيفة، لن تستطيع الإبداع...

بقيت يدي ساكنة، وشفتاي صامتتين... ومع ذلك، فأنا أدرك جيداً الحتمية الكاملة، فالاحتراق الناعم والمعذب للحب هو ما يجعل العصفور يغرد في فصل الربيع، والروائع الخالدة للفكر هي نتاج الألم البشري...

... قبل الوصول إلى مقيبرة، رأيت متقدمة جوار صوف عن يميني، وباتجاه الشمال، سُحباً رمادية زرقاء بأشكال غريبة تتجمع عند الأفق.

قلت للفارس:

ـ أنظر. ألاتبدو كالجبال؟...

لكن هل في الصحراء جبال عدا الكثبان والرمال!

وفي مكان أبعد، بين مقيبرة وشغة، رأينا الرياح تشتت تلك السحب، وبدا لنا الأوراس فجأة أزرق اللون ومتعرجاً مرتسماً جانبياً تحت سماء شاحبة. لم أخدع... لكني فقدت أنا أيضاً مفهوم الجبال، وفقدت مفهوم الأرض أيضاً في شساعة الكثبان الرملية البيضاء الدقيقة والخفيفة مثل الغبار...

راودني شعور غريب بالعودة إلى الأرض الحقيقية...

في باتنة أحسست في البداية بانطباع غامض، غير أنه لذيذ، لمعاودة رؤية الأشجار الكبيرة والخضرة والحقول والمروج... ولكن سرعان ما انتابني حزن غير محدود، وحنين شديد إلى الرمال والنخيل.

غير أن الظل الكثيف والضاغط للغابات لا يعادل أبداً بهاء ولا لطافة الظلال الدقيقة لأشجار النخيل المنحنية كقباب على الرمال البيضاء! ولا تبدو انعكاسات القمر بمثل ذلك السحر بين الجذوع الكبيرة لأشجار البلوط أو الزان مثلما تبدو بين الجذوع المشيقة والتي تشبه الأعمدة المعقوفة الدقيقة لأشجار النخيل الهيفاء والرشيقة! ولا يعادل أبداً همسُ الأوراق الطرية الهمسَ المعدني المنغم للجريد الفضي! ولن يشمل ماء الجداول الرقراقة صدراً ضائقاً مثلما تفعل مياه آبار منعشة مساءً بعد يوم قائظ! ولن يعادل أبداً بستان في أي مكان في لطفه وروعته غيطان صوف العميقة حيث يجمع النخل المختار بأحجام مختلفة من النخل القصير ومن النخل الفتي ذي الأوراق الكبيرة المحدبة حتى العظيمة منها والمائلة غالباً على الأماكن الخضراء المجاورة... ولن تمنح أبداً الرياض الثرية فكرة عن تلك البساتين في شهر آب/أغسطس عندما تتلون بحسب أنواعها، بعضها باللون الأصفر وبعضها الآخر باللون الوردي الفاتح، وباللون القرمزي والأرجواني المخملي أسفل الجدول، والمغبر في الأعلى بلون أخضر شديد وفضي في الأسفل، للجريد (النخل) المرن...

مرسيليا، ١٢ أيار/مايو ١٩٠١.

الرحيل عن باتنة يوم الإثنين السادس من شهر أيار/مايو على الساعة الرابعة صباحاً.

صباح هادئ، وقمر صاف، وصمت مطلق في الشوارع. نزلت حتى باب سطيف رفقة سليمان واللبادي وخليفة... توقف قصير على مقعد بشارع محطة القطار رفقة سليمان. العودة لرؤية الشخص العزيز الأحمر لآخر مرة، والذي يصعب تمييزه في الظل.

ريف باتنة وحتى منطقة الجراح حزين وفقير... وزيادة على الغنى غير المسبوق، وألق الألوان، واللوينات حيث الخشخاش المنثور ببقع حمراء في اللون الأخضر المعتم لحقول الأعشاب ونباتات سيف الغراب الحمراء وشقائق النعمان، والترنجان، إضافة إلى بُقع اللفت الذهبية... الشبيهة بحقلي هناك في طريق لومبيز في الكيلومتر الرابع، المكان الذي قدمت منه، حيث صباحات شهر نيسان/أبريل الصافية رفقة صوف الوفي المسكين... أين هي باتنة مدينة المرارة والمنفى التي

أحزن عليها اليوم لأن الصديق المسكين صاحب القلب الوفي الودود بقي فيها؟ أين هو صوف؟ أين خليفة؟ أين كل تلك الأشياء البائسة المجلوبة من الواد. ذكريات بيتنا الورعة هناك. . .

. . . وصلت إلى بون عند الساعة الثالثة. أحسست بانطباع قوي أشبه بالذي شعرت به لدى خوجة في الماضي، في الباحة الزرقاء الضيقة حيث جلست أمي في العديد من المرات.

راودتني ذكريات الماضي خلال كل أيام الإقامة، باستثناء اليوم الأخير. شعور بالحلم خلفته تلك المدينة، التي لم أر فيها شيئاً سوى ذلك البيت العربي، وظل الرحيل.

. . . قطعت هذه الملاحظات الحزينة بدفق مفاجئ لليأس الذي سببه فراق ويحا. . . كيف أعيش من دونه. الله وحده يعلم كم من الوقت سأبقى منفية ومن دون بيت، أنا التي اعتدت أن أكون ببيت مهما كان متواضعاً.

قضيت أياماً مملة وحزينة في بون، أصارع قلقي لأني سأترك سليمان وأواجه شعوراً ملحاً بالوهم الذي يحيط بي. الرحيل بسرعة محمومة على متن بيري تحت اسم بيير موشيه. أمضيت في بون أيام السابع والثامن والتاسع من أيار/ مايو. . . ركبت السفينة يوم التاسع منه الساعة الثالثة. الرحيل الساعة السادسة. رؤية المنظر الذي كان من قبل أليفاً جداً وأضحى غريباً الآن، والرصيف والحصون، وجبل الإيدوغ، وسان أوغستان، والتلة المقدسة الخضراء ذات أشجار السرو المعتمة المأتمية.

كانت هذه العودة الأخيرة إلى بون أشبه بحلم، لأنها كانت عابرة جداً وقصيرة جداً، ولأنها كانت على الخصوص مهتزة ومتقلبة.

. . . بداية جلست قرب آلة رفع الأثقال بلباس بحار بائس، على صرّة أمتعتي، أشعر بحزن عميق وتمزق للرحيل عن أرض إفريقيا المقدسة، والابتعاد عن ويحا، ولكوني فقيرة جداً، ووحيدة جداً، ومهجورة جداً على هذه الأرض.

فكرت في مناظر الماضي حيث ملابس الملاحين ترتدى بذوق في أيام الرخاء. . .

البدء في النوم على فكرة مهدئة مع الاعتياد على الألم. . . «هريسة عدن» كذاك

كتب الجنود على باب برج كف إدور. . . ويمكن للمرء إيجاد متعة في الضحك على مأساته. هبت عاصفة قوية وهطلت أمطار. تهت بصرّة أمتعتي المملة في السطح وألفيت ملجأً في النهاية تحت ممر أمامي مع النابوليين والمسنّ ذي القشابية السوداء القادم من اليابان. ليلة جيدة بعض الشيء، نمت حتى الساعة الرابعة من يوم الجمعة. بدأت العاصفة، وبقيت ممددة في الماء قرب المسن النابوليني المريض جداً. . . دوار البحر. نقلت ما شكل مسكني خلف حاملة المرساة على حبال كثيرة. ليلة مريعة. اندفعت صناديق بحر ضخمة من الأمام، أصابني ماؤها كلها. شبه هذيان طيلة الليل، ومخاوف جادة من مكروه. أصوات شديدة ومرعبة. ظلت أصوات الرياح العاصفة والبحر تعوي طيلة الليل. كان ذلك مريعاً. كوّنت ملاحظات شديدة الوضوح في تلك الليلة، ولازمتني قشعريرة.

هو صوت الموت الذي يحنق على الشيء الصغير المهتز والمعذَّب والذي يرتجف كريشة في المدى الهائج.

حرص مفاجئ على تكوين جمل، والبحث عن كلمات كما لو أن الكتابة ستتم في ساعات الكدر والألم الجسدي تلك حيث دوار البحر، وانقباض في البطن وفي الضلع، وبرد قارس وتعب وألم بالكليتين بفعل تصلبي على الحبال المبللة والصلبة. . .

. . . كان الوصول ظهيرة يوم صاف. ثم كان النزول بمرفأ الميناء، وركبت الترامواي إلى لاماغدالين بهدوء راجلة أحمل صرّة أمتعتي بعناء، خائرة القوى، منقطعة الأنفاس.

ارتعبت لما لم أجد أخباراً عن سليمان. استيقظت في الليل على نحو مفاجئ. كنت مكدرة جداً حد أني أوشكت أن أوقظ أوغستان. صبيحة من دون راحة حتى وصول برقية من ويحا. إنه يعيش ولا ينساني. منحني ذلك الشجاعة لتحمل هذا البلاء الجديد، الأكثر وحشية من بين كل البلايا: الفراق.

أنا سعيدة هنا، ليس من أجلي، وإن لم أجد اليسر الكبير، فعلى الأقل هناك ضمان لعيش كريم. . .

. . . عادت أحاسيس إقامتي في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٨٩٩ أكثر حياة. سمعت قبل قليل رنين أجراس مرسيليا. ذكرى الأيام المشمسة حين وصولنا أنا وبوبوفا إلى هذه المدينة التي أحبها حباً عجيباً، والتي لا أحب أن أقطن بها. . . جولة بقصر إيف، وجولة بسان فيكتور في صباح حفل زفاف. . . أيام خريف بروفانسي صافية، والتي كانت بعيدة!

لكن من سيعيد لي بلدي المشمس دوماً وزاويتنا البيضاء وهدوء البيوت المقببة، وآفاق الرمال اللامحدودة، و«الرويحة الكحلة»، والخدم الطيبين الأوفياء، وصوف رفيقي المتواضع والوفي، وبيليسا الماكرة، وأرانبي ودجاجاتي وحماماتي وكل الرتابة المتواضعة لحياتنا الهادئة هناك؟ من سيعيد للمنفي بيته ولليتيم أسرته؟. . .

كل شيء هناك، غير أننا لم نعد هناك في بلدنا القاسي حيث الإيمان القديم وحده يزهر من أجل الإعجاب به ومن أجل حبه.

وأكثر قرباً ـ ومع ذلك كم هو بعيد عني للأسف! ـ هناك في واد حزين وفي ظل قمم جبال الشاوية الكبيرة، مدينة فرنسية جداً، وعادية، لا يلفي المرء فيها إلا الثكنات، ومستشفى وسجناً وبعض المباني الإدارية والعسكرية وحيث لا يقابل المرء إلا السباهيين (الفرسان الجزائريين) والزواوفيين (جنود فرنسيين بلباس أهل مراكش والجزائر) وجنود قطار ومدفعيين. في تلك المدينة في ضاحية المعسكر، منزل قديم من طبقة واحدة، وإلى الأمام، في مجمع الفرق الكثيرة الأشبه ببيوت النمل التي يسكنها السباهيون مع نسائهم، وجوار السلم حيث لا يسمع إلا صليل السيوف، هناك غرفتان بائستان تطلان على السطوح المجاورة وسور المدينة. . .

انقضى بذلك البيت شهران يبدوان لي أزيد من عامين. . .

وكان في تلك المدينة إنسان وكنت أعشقه. . .

ومع ذلك، تبدو لي من قبيل الوهم تلك المناظر الإفريقية المحيطة، ويبدو لي أن ذلك لم يكن إلا أحلاماً عبثية، ورؤى فارة، وحتى شخصية سليمان نفسها لا تبدو لي دوماً حقيقية هي أيضاً. . .

أما بالنسبة لباقي بلاد الأرض حيث انقضى ماضيّ العاصف والمضطرب فتبدو كأنها لم توجد خارج خيالي!. . . من سطح بيري أنظر إلى تلك التلة المقدسة لمقبرة

بون، غير أنني رغم ما بذلته من جهدٍ إرادي عنيف لم أنجح أبداً في امتلاك الإحساس الواقعي والمؤلم بأن أمي كانت هناك، ترقد في قبر منذ أربع سنوات. . . وبدا لي أنني لم أسكن بون أبداً، وأن تلك المدينة كانت غريبة بالنسبة لي، ولا تسترعي الانتباه تماماً مثل أي مدينة أخرى!

. . . أحسست دوماً ومنذ أن تركت سليمان رغبة معذبة في تجاوز المسافة التي تفصل بيننا، وحاجة مطلقة وحميمية بأن يكون قربي، هو ولا شيء سواه، ويأساً مزمناً من كوني منفية، وأني لا أستطيع الركض نحوه، وظمأ مراً ومؤلماً لسماع صوته، ورؤية نظره يقع على نظري، والإحساس بحضوره، والشعور مجدداً بالأمان المطلق في حضوره، والذي نتشارك فيه.

كم سيدوم المنفى؟. . .

. . . إلامَ سيؤول الغناء الحزين والمؤلم والإنشاد الحر الكبير لجمّال متسكع في الصحراء خلف جماله البطيئة إذا ما مُثل ذلك على خشبة مسرح أو في صالة؟

في سطح الحمرية، وفي قاعة البرج الكبيرة المتقشفة، وأنا شبه ممددة على أغطية جزائرية، كنت أنصت مساءً إلى رجل الديرة لخضر، وأحد الخلاصة وإبراهيم يغنون أغاني الصحراء الحرة الموجعة للحشد المتجمع حولهم.

وكان لخضر الثمل كالعادة يغني بشغف ضارباً في غير انسجام على صندوق صفيحي قديم. . . كان ذلك الغناء مستمداً من الذاكرة الشعرية الحزينة لحياة التيه في الصحراء الحزينة.

تذكرت كل أولئك الذين سمعتهم، جالسة مع الجمّالين في زاوية بباحة برج بير بوشحمة، قرب النار حيث يطهى الحساء في الخلاء، وحيث كان الليل حالكاً والأصوات ترن بشكل غريب في ساحة البرج تلك، الأكثر عزلة والأكثر حزناً في تلك الطريق القفراء.

أخذت أفكر في الغربة الفاتنة لوضعي، بلذة حميمية، وفي سعادة أن أكون مشردة، وواحدة من بين أولئك الذين أحسست بهم بقوة.

. . . للأسف! ليس هناك من بيت، حتى ذاك الذي هو لي، بيتي المتواضع للفقيرة التي كنتها، يستطيع أن ينوب عن صحرائي وأفقي المضطرب والمتموج،

واستيقاظاتي الفجرية الناعمة على اللون الرمادي اللامتناهي، وغروب الشمس الذي يجعل المدن الصغيرة المنهارة وذات الأسماء الغريبة تتشرّب بالحمرة، وصوفي المسكين الذي لا ينسى أبداً، والرفيق الودود لجولاتي الوحيدة في البلد العزيز، والذي منحته اسماً، وصحراويتي التي جردت منها، وحريتي وأحلامي!

قمت بهذه الملاحظة حول نيتوتشكا نزفانوفا التي أحبها دوستويفسكي رسام الألم بامتياز، وروائي الأرواح السقيمة، والذي كان يدرك أكثر من أي شخص آخر رسم الأرواح الطفولية، وخاصة أرواح الأطفال التعساء، في خضم رأفته الدائمة أمام المعاناة. فليس بين شخوص رواياته كلها من هو حي، وواقعي بحقيقة مؤثرة وأحياناً مرعبة. ولا يوجد لديه أي من تلك الشخوص الشاحبة، اصطلاحاً، والتي تتكاثر لدى كتاب آخرين عرفوا بـ«السادة».

. . . لا شيء يمكنه أن يعادل روعة وغرابة الليالي المقمرة في صحراء الرمال.

سديمية الكثبان والقبور والمنازل والبساتين، وكل الأشياء تتلاشى وتنهار، وتملأ الصحراء الناصعة البياض بالأشباح والانعكاسات التي تكون وردية تارة وزرقاء بأضواء فضية تارة أخرى. . . هناك محيط صاف وواضح، وليس هناك من شكل بيّن يمكن تمييزه، فكل شيء مضاء ويلمع إلى ما لا نهاية، غير أن كل شيء مضطرب.

وتبدو الكثبان كأبخرة متراكمة في الأفق، وتختفي المنحدرات الأقرب في الوضوح اللامحدود للأعلى، ويمشي الرجال بثياب بيضاء مثل أطياف لا تكاد تميز مثل البخار تماماً.

. . . لاحظت دوماً الهيئة العجيبة التي تأخذها على ضوء القمر بقية جدار صغير ظلت قائمة عند زاوية الخرابات الواقعة خلف «الثكنة» أعلى بستان الجنود. وكانت تبدو لي دوماً في البعيد، وعلى الرغم مني، كطيف بشري ينتصب هناك، على طريقي، وكان يحدث أن أرتعد عند رؤيتها.

. . . ذكرى بعيدة، تعود لما يقارب سنة، لأول ليلة في بستان بير أزيلي فوق المقبرة المسيحية.

كنا ممددين على منحدر الكثيب المضاء في حفرة عميقة، وكنا ننظر إلى غرابة البستان حيث أشعة القمر الفضية تسطع في ظل أشجار النخيل بين الجذوع المشيقة وعلى الرمال البيضاء.

. . . والبستان الآخر، بستان قيادة عشيش حيث بكينا مثل طفلين مستشعرين الشر، للأسف! فجأة وكما لو أن الأمر تعلق بحدس كل السوء الذي كان سيرهقنا شهوراً بعد ذلك. . . يا للغموض الذي يشق سبر غوره لكل تلك البصيرة البشرية، ولكل ذلك الاستشعار المشوش من دون أساس مادي ومنطقي، واللذين لا يخدعان مع ذلك أبداً!. . .

. . . أمضينا ليالي صوفية صافية، نشق طرق صوف المقفرة.

. . . وأيضاً تلك الليلة في الساحة الكبرى المهدمة لزاوية القباب عندما كنت أنتظر سيدي محمد الإيمان[1] مستندة إلى نافذة المسجد الصغيرة حيث كان الإخوان يرددون ذكر صلاة المغرب، تحت القباب الرمادية الواطئة وفي الضوء الغريب لبعض الشموع. . .

. . . أذكر أيضاً السلام العميق واللامحدود الذي حل على روحي في تلك الليلة بينما كنت أعبر القريتين الصوفيتين البياضة والقباب الغارقتين في آخر أشعة الغروب. . . ومع ذلك، فبأي قلق وبأي ظروف وحشية وصلت إلى هذا! لكن هل تمس كل تلك الماديات وكل ذلك البؤس العابر للأرواح المطلعة؟ خلال لحظات مباركة يمكن تجريد كل الظروف المؤلمة والاستسلام لأحاسيس أخرى، تلك التي نحملها بدواخلنا، والتي تأتينا من المجهول عن طريق القياس الفاتن للكون الشاسع!

مرسيليا، أيار/مايو ١٩٠١.

. . . كم هم تعساء أولئك الذين يتدنسون بشكل يتعذر الشفاء منه في الماديات اليومية الوضيعة، والذين يستهلكون لحظات الحياة القصيرة في اعتراضات عبثية

---

(١) تقصد سيدي محمد الإمام، وهذا واحد من أخطاء كثيرة لأسماء الأشخاص والأماكن التي يحفل بها الكتاب، والتي تركت من دون تغيير كما تقدم. المترجم.

وخرقاء ضد الجميع وضد كل شيء، والذين يبقون عمياناً أمام الأشياء التي تفوق الوصف، وأمام الروعة البشرية الحزينة والمؤلمة.

وسعيد ذاك الذي لا يستسلم للصدفة بشكل عبثي ووحشي، والذي تعدّ كل كنوز الأرض أليفة بالنسبة إليه، والذي لا ينتهي كل شيء بالنسبة إليه بغباء في ظلمة القبر!

هناك أناس فقدوا الحظوة، والذين ينظرون إلى العالم بألوان قاتمة، والذين لا يرون شيئاً من الجمال الذي لا ينضب، والذي هو جوهر الكون والحياة.

إنه أشد أنواع الحرمان في هذا العالم، حيث منفية من دون بيت، ومن دون وطن، ويتيمة جردت من كل شيء، تكتب هذه السطور. إنها صادقة وحقيقية.

عادة، وفي لحظات الرخاء المحلقة، كنت أجد الحياة مملة ومقززة، لكن منذ أن صرت لا أملك إلا روحي المنتبهة دوماً، ومنذ أن بلل الألم روحي، أحسست بصدق مطلق، الغموض الذي يفوق الوصف، والذي غمر كل الأشياء...

فالراعي البدوي، الأمي وغير الواعي، الذي يسبح بحمد الله أمام آفاق الصحراء الرائعة عند طلوع الشمس، والذي يسبح بحمده أيضاً أمام الموت، أسمى من المثقف الزائف الذي يراكم جُملاً على جُمل ليقدح في عالم لا يفقه معناه، وليشتم الألم، معلّم الأرواح الجميل ذاك، والرائع والمفيد...

في الماضي، عندما كنت «لا أحتاج إلى أي شيء» من الناحية المادية، لكن كنت أفتقر إلى ما هو ثقافي ومعنوي، كنت أحزن، وأصبّ اللعنات بحماقة على الحياة التي لم أكن أعرفها. الآن فقط، وفي ظل الفاقة التي أجدني فخورة بها أؤكد أنها حياة جميلة وتستحق أن تعاش.

ثلاثة أشياء يمكنها أن تفتح أعيننا على فجر الحقيقة الساطع، وهي الألم والإيمان والحب، كل الحب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

العودة إلى الجنوب

بوسعادة

أردت أن أرى الجنوب ثانية، فارة من ابتذال الجزائر وصخبها وأناسها، الجنوب بلد السكون الخيِّر، وأن أعيش مجدداً ولو للحظة واحدة حياة الحرية هناك والتي آسف عليها منذ وقت طويل في الجو العنيف للمدن الكبرى المتورطة في «الحضارة».

ومضيت سريعاً خفية تقريباً حتى بوسعادة، ونمت على ضفاف وادها الهادئ مندرجة في خضرة بساتينها.

كانت رؤى قصيرة ومتوالية بشكل سريع، تماماً مثل حجابات نزعت فجأة وأعيدت على أماكن بلد متباينة جداً.

في البداية كان ظل برج بوعريريج، تحت سماء سوداء حجبتها الريح الشرقية، وقلعته القديمة المشربة بالحمرة، وهي مدينة صغيرة مفقودة في شساعة السهل الذي أضحى عارياً بفعل الحصاد.

ثم استراحة قصيرة، لمدة ساعة تقريباً، على مقعد حارق، في متجر اجتاحه الذباب.

كان التاجر صوفياً من قبيلة زغون. ولما كنا حزانى معاً، كل بطريقته، فقد تحدثنا عن البلد الذي يلمع هنالك في البعيد تحت شمس باهرة.

ثم كان يتعيّن الرحيل على متن عربة تهتز مغطاة بألواح خشبية قرنت بحصانين هزيلين متذمرين، يقودهما المدعو بوغتار السائس الذي يشبه قاطع طريق.

كانت الحرارة مرهقة، وكانت مجموعة من الذباب تلاحقنا، وكانت العربة تترنّح بارتجاجات مختلجة وفجائية. . . ومع ذلك، فهي أفضل كثيراً من «عربة البريد».

السي بوبكر هو رفيقي في الطريق ودليلي، وهو رجل في حوالي الأربعين من العمر، هزيل بهيئة شخص كثير المرض، وبوجه أسمر ونسكي وبنظرة غائمة وحزينة

ومعتمة تقريباً. وكان ذلك الرجل، وهو وكيل الصوفية المقدسة لبوسعادة، ويدير ثروات طائلة، يرتدي غندورات (صِدارات) وبرانس ناصعة البياض، غير أنها قديمة وبسيطة جداً. وطريقة عيشه هي نفسها لفقير غير أنه يتمتع بصفاء روحي كبير.

كنا نتحدث جالسين في الجزء الخلفي للعربة، وأرجلنا تتمرجح في الفراغ بلامبالاة، عن أشياء حول الجنوب تمس الإيمان والفقه.

وكان السي بوبكر يدرك جيداً من أكون ويعرف قصتي، وبعد أن تأمل حالتي جيداً، وافق على طريقة عيشي...

غير أني لم أستطع أن أسيطر على سعادتي لرؤية السماء تصفو والطبيعة تتغير تدريجياً كلما تقدمنا في اتجاه الجنوب... فقد أضحى البلد أكثر وعورة وخلاءً. رأينا بعض الضِّيع القليلة جداً المشيدة بالطوب، والقائمة على جوانب التلال الجرداء. وعند منتصف الطريق، على ضفة واد المسيلة، كان هناك موقف أبدال وبرج مربع له باب كبير لمرور العربات، مُشيّد أعلى النهر الذي يتدفق هامساً بين تيه نباتات الدفلى والقصب، التي تمنح استراحة ميدجز تلك هيئة خان صحراوي مزيّف.

كانت هيئتي تجعلني أبدو كأني أحد أبناء القبائل، وهكذا فقد عاند أحد سكان ميدجز ليكلمني بتلك اللغة مؤكداً أنه سبق له أن رآني في تيزي وزو التي لم أزرها قط... تركته يتحدث منتظرة الرحيل. وكانت حوادث صغيرة من ذلك القبيل تدفعني للضحك في غمرة السعادة التي استعدتها.

انطلقنا. حاولنا النوم، أنا جاثمة فوق صندوق والسي بوبكر محشوراً في ركن العربة... كان نوماً مضطرباً، يقلق في كل لحظة، وأحلام من دون أشكال محددة مزجت ببقايا الواقع التي جعلته غريباً.

أخيراً وصلنا إلى المسيلة قبل الفجر. سرنا راجلين في ممرات طويلة مشكلة من أشجار التوت حتى بلغنا ساحة كبيرة، شقت بجداول صغيرة يرتفع فيها نقيق الضفادع الصغيرة. وفي العمق، كانت هناك مبان من طوب. ومباشرة أمام مقهى مغربي كان بعض سكان المدينة ينامون على حصائر من قصب، فارين من حرارة بيوتهم.

ونحن أيضاً، بعد أن تبادلنا السلام مع أناس لا أعرفهم وبدوا لي في شبه غفوتي أشبه بالأشباح، تمددنا على حصيرة من قصب نظيفة.

... سمعت أيضاً، كما لو أن ذلك يأتي من بعيد، الصوت الملح لرجل كان مع

ذلك قريباً جداً، على عتبة المقهى، يوقظ النائمين قائلاً: «الصلاة خير من النوم!» وأخذت أشكال بيضاء تهتز، وتتمطى وتنهض، وبدأت القِرب تصدر أصواتاً وهي تحتك بحواف المغاسل. ثم غرق كل شيء في عتمة العدم لنوم ثقيل. . .

*
* *

منتصف النهار. تشطر خطوطُ أسوار الطوب الرمادية المستقيمة والرتيبة السماءَ بشحوب متأجج.

وفي الشوارع الصغيرة المتعرجة، وجوار الأسوار المبقّعة المتصدعة والقديمة جداً، وفي الظل القصير الأزرق، كان رجال ببرانس ترابية ينامون كيفما اتفق، رفقة مِعاز سود. وحده الذباب يتكاثر على القذارات الجافّة وعلى الوجوه التي تقطر عرقاً، وعلى الخرق المغبرة.

كل شيء ينام تحت وطأة الحرارة المستعرة. وكان الواد يتدفق على سرير من حجارة بيضاء بهمس واضح. وفي البعيد، كانت بساتين بوجملين ذات الخضرة المحتدمة تمتد بلذة.

وعلى الجسر الحديدي، الجسر الرمادي البشع، كان متسول أعمى مقرفصاً، يهز ببطء بنديره مصدراً صوتاً خافتاً، وفي هدأة الجو المحيط به، كانت تلك الضربات الخرساء تنظم شكوى المسن الذي يشارف الموت منشداً «باسم عبد القادر الجيلاني، سيد بغداد، وإمام المقامات العليا، تصدقوا أيها المسلمون!»

وكان الأعمى يردد إلى ما لا نهاية طلباته التي لم يكن أحد ليسمعها، والتي لم يستجب لها أحد. . .

وفي تحصين من الأسوار الخشنة، وعلى حصيرة من قصب، كان رجلان ممددان يتباحثان على نحو غريب. . .

كانت بلا شك إحدى المسائل الخطيرة، التي تهم السياسة المعقدة في الجنوب، أو لربما كان الأمر يتعلق بمؤامرة. . . لكن كلاّ، فالأمر ببساطة يتمثل في كون أحدهما، الطالب رقيق العظم ذو اللحية السوداء والمقلنس بالبياض، يشرح لرفيقه أصل الحلم.

يقول «تحرك الروح الجسد، ويرفعها الخالق في بعض الأحيان سواء مؤقتاً تماماً مثلما يحدث أثناء النوم، أو نهائياً كما في الموت. والروح مادة نورانية تنثر أنواراً ما إن تتخلص من أسر الجسد. وهكذا تنزل تلك الأنوار إلى العالم المرئي وعلى الأرض حيث تمضي إلى العالم الآخر، فيرى النائم المدن والبلاد والأشجار والورود والناس والأنبياء والجيوش التي تعمر الأرض... وفي العالم الآخر يلتقط في بعض الأحيان أجزاء صغيرة من المجهول لما بعد الموت... ثم تنطفئ الأنوار وتعود الروح إلى عتمة سجنها الجسدي...»

وتابع المتصوفان تسبيحهما الهادئ بمظهريهما الغامضين في ثقل المسيلة النائمة، بعقيدتهما القديمة وسط المشهد الثابت للأرض وللشمس...

بعد غروب الشمس، وفي قاعة قديمة من الطوب العتيق البالي مسودّة بالدخان، وأسفل عارضات السقف الخشبية السوداء حيث خمسة من جذوع الأشجار رديئة القطع بضربات فأس كانت ما تزال تحمل العروق الصلبة لأشجار الجنوب الهزيلة، مجموعة بتنافر غريب، كان مصباح عتيق يصدر دخاناً ويضيء ثلاثة رجال مقلنسين يضربون بناديرهم المجزّعة ويتمايلون على الإيقاع نفسه مرتلين برتابة وبطء صلواتهم لإمام بغداد الأكبر، سيدي عبد القادر... ويحمل الضوء الأحمر للمصباح بلطف ظلالهم المشوهة على الجدران الغليظة حيث تمر في بعض الأحيان بعض العقارب الصفراء الصغيرة الخفية أو عناكب رمادية.

وحولهم، وعلى حصائر القصب، تزاحمت أجساد التفّت بالجوخ، وتحلقت في أوضاع غير مبالية، وبدت كعقبان شدت إلى المنشدين، وأخذت تغمض أعين طويلة ذات ظلال سوداء، وذهبية تميل إلى اللون البني...

وكانت هناك فتاتان سمراوان لطيفتان ترتديان فستانين أخضرين زاهيين بمشابك فضية، ومنديلي رأس حريريين حمراوين، حيكا بالذهب وأخفيا شعر رأسيهما الأسود، تصيخان السمع بانتباه وبجدية وقد وقفتا وسط المقهى المغربي. كانتا قمر وأم هاني ابنتا صاحب المقهى الصغيرتين.

... وفتح باب في شارع صغير مظلم على ساحة مضاءة بعض الشيء. كن يجلسن بمحاذاة الجدار بفساتين زاهية الألوان، وقد تزينّ مثل عشيقات تألقن بقطع ذهبية، وكن جامدات مثل أصنام معبودة بعيون زائغة في دخان السجائر... وكان يمر

أحيانا بُرنس يندس ويختفي في الساحة. البرنس الأبيض للمسيليين والبرنس الأزرق لرجال الديرة... وهكذا تقوم إحدى تلك الأصنام فتصدر حليّها صوتاً، وتتبع الزائر في الظل الحار للزنازين الفقيرة.

وهكذا تنام المسيلة الصوفية والمومس ساكنة وصلبة تحت وقع حرارة الليل القائظ، تهدهدها بلطف البنادير والأغاني الدينية القديمة، وجلجلة حلي بنات أولاد نايل.

والمسيلة فاتنة مثل قصر صحراوي.

والواد الذي يحمل اسمها، يشطرها نصفين، صاباً في عمق واد واسع وعميق على حصبات. ويربط جسر حديدي بين المسيلتين.

كنا في المسيلة الجديدة ذات المباني الجديدة، وحيث الشوارع واسعة، وحيث لا توجد أماكن ظل أو غموض، وحيث تمت التضحية بكل شيء، حتى بالرفاهية، لفائدة الذوق الرومي ذي الخطوط المستقيمة.

وفي الضفة الأخرى، تقوم المدينة العتيقة، متزاحمة وسديمية بكل منازلها المشيدة بالطوب الأسود، وشوارعها التي لا تحمل أسماء، ومن دون تراصف ومن دون بلاطات، لطيفة بأشيائها غير المتوقعة، مع أنها متشابهة.

تهب الريح الشرقية طيلة النهار، الريح الحارقة والملتهمة والتي لم تتركنا منذ جحيم أبواب الحديد المستعر. وأماكنها البعيدة مشتعلة وقد تشوهت أشكالها. والغبار يعلو في زوابع رمادية تجتاح الطرقات. وكان الذباب يطن بغضب ويلسع متحمساً بفعل الحرارة.

وحده المسجد الواقع على ضفة الواد، والذي تفتح نوافذه على المياه، أبقى على بعض الانتعاش. وهناك لجأنا طيلة النهار.

... عند المساء، غيرت الرياح مسارها فجأة. وفي الوقت الذي خرج السي بوبكر من أجل طلب مطيتين، والقيام ببعض الزيارات، خرجت لأجلس وحيدة على حافة الواد العالية.

صارت السماء صافية تماماً الآن، وغدا الهواء منعشاً. غابت الشمس في ضبابة

خفيفة، وكانت ماتزال صفراء بعض الشيء فوق السهل الأجرد الكبير، وهو المدخل الشرقي لهدنة.

وانتصبت أمامي المسيلة العتيقة بسُمْرة حارة في الشفافية الليلكية للأفق، محاطة ببساتين شديدة الاخضرار وكثيفة جداً، ومن ورائي كانت تنفصل منازل المدينة الحديثة، ذهبية تقريباً، في الضوء الوردي المذهب للغروب.

وكانت النساء ينزلن إلى سرير الواد ملتحفات بأقمشة زرقاء وحمراء وحاملات قِرباً منجلود تيس أو قوارير ذوات عروتين ثقيلة من الطين. كن يمشين بأقدام عارية على الحصباء وعلى الرمال، متعثرات أحياناً، ويضفين ملمحاً خاصاً على ذلك المنظر اللطيف الهادئ المشوب بمسحة حزينة.

وهناك أيضاً، انضافت إلى نشوة المكان والزمان الواقعية جداً نشوة الذكرى، وتداعيات أماكن أخرى، من تلك المناطق التي لا تبدو تلك التي أعبرها الآن إلا انعكاساً شاحباً لها... وليس للمسيليات أبداً ذلك اللطف الغريب والملمح الغامض للفتيات اللواتي يخرجن عند الغروب لجلب الماء النقيع من الآبار في بساتين صوف البهيجة...

آه! لو تستمر أوقات الغروب الصيفية في إفريقيا إلى الأبد، ولو أن نزعة الاستبداد الحمقاء لدى الرجال المغرمين بالابتذال لم تأت لإزعاج أحلام الشعراء!

غير أن الجوادين كانا هناك أمام المسجد، وكان علينا الرحيل. مُنحت لي فرس بيضاء جميلة أسرجت بفيلالي أحمر. ونزلنا سرير الواد حيث كان أطفال صغار سمر وعراة يرافقون الجياد في استحمامها. وأخذت حيواناتهم المهتاجة توسع تمدد مناخرها وتتواثب محيية بصهيلها فرسي التي أخذتها رجفة.

قبالتنا، في اخضرار البساتين المخملي، حيث تنتصب بعض رؤوس أشجار النخيل الشعثاء، كانت بعض القباب المغطاة، والمشيدة بالطوب. كانت صغيرة غريبة الأشكال.

وكانت إحداها تشبه معبداً صينياً، بأسطحها المتراصفة بعضها فوق بعض، وبقمتها الغريبة. أحببت أن أرى فيها علامات الفن المحلي الذي يعود لفترة ما قبل الإسلام، والبربري جداً، والمثير للقلق بشكل غريب.

رافقنا طالب على متن بغل يحمل أمتعتنا، وخرجنا من الواد. وألقينا آخر نظرة على المسيلة قبل الدخول إلى السهل الكبير.

* * *

كان سهل هدنة يشبه الصحراء، وكان يبدو لامحدوداً في ظل المساء... وكانت الجبال البعيدة ذات الزرقة المتقزحة تتلاشى، وتغرق في شحوب السماء، وتبدو المساحة الحرة، كأنها بلاحدود.

تنسّم جوادانا تلك الشساعة الهادئة والحرة... كانا يودان أن ينطلقا عبرها، ليثملا في سباق مدوخ.

وتفرقت في السهل أدغال ذات شجيرات منخفضة رمادية شاحبة، بلون التراب المسحوق، وبعض الأودية الجافة. ولم يكن هناك من تموج، ولم تكن هناك أية تلة. كان السهل كبيراً ورتيباً ومهدهداً...

تقدمنا بهدوء. وهبط الليل. وحل فتور أشبه بمداعبة في الهواء الذي كان يشق تنفسه. كان خالياً من كل قذارة.

ألفيت هناك إحساس الصمت المطبق الذي أعشقه كثيراً، والسلام العظيم الذي لا يأتي شيء لإزعاجه، أبداً.

... وكان الليل قد حل تماماً عندما رأينا سوراً أسود ينتصب أمامنا. كان برج السي الراهب الذي هو في ملكية حبوس الزاوية الرحمانية لبو سعادة. وكانت بساتين كثيفة تشكل كتلة متمازجة وسوداء عظيمة.

بعد عشاء خفيف تمددنا على ملاءة في الساحة، ذلك أن الجو كان حاراً، وكانت العقارب تسكن البيوت المشيدة بالطوب. كان البستان والبرج، والخيول والبغال التي ترعى في الريف في عُهدة بعض الطلبة، الذين يعيشون منعزلين هنالك، وحيدين في السهل، والذين كانوا يمضون أوقاتهم في قراءة الكتب القديمة وفي الصلاة مثل الرهبان.

... هي الليلة الثانية التي نمضيها من دون نوم، وهكذا فقد أخذت أعيننا تغمض... غير أن البراغيث آفة الدواوير، هاجمتنا... أما الطلبة المعتادون فقد استغرقوا في النوم. والإعياء الذي حل برفيقي انتهى بإنهاكه، فنام أيضاً. وهكذا، لما

بقيت وحيدة، قمت وتمددت في الخارج على الأرض الحارة والجافة.

بقيت أنتظر هناك طلوع القمر، وقت الرحيل، حالمة في العتمة، تحت تساقط النجوم المدوّخ... وشرعت أنصت لقلبي يولد من جديد في الحياة، وأحس بسعادة حيوية شبابي، الذي أنساه غالباً لكثرة ما أعاني...

وأخيراً، عندما ارتفع القرص المشوّه والكابي للقمر على شكل هلال فوق السهب، والذي بدا لي وكأنه أنقاض أكواخ زرعت فيها، وغُرِست بساتين كثيفة مثل أجمات، دخلت لأوقظ السي بوبكر والطلبة الذين كانوا نياماً في الجو المنعش الصباحي.

رحلنا. وعلى متن أحصنتنا غفونا مثل المخدرين. وبين الفينة والأخرى، وفي الصمت العميق، كان أحد الأحصنة يحمحم أو يتعثر. وهكذا يحاول الطلبة أن يشرعوا في إنشاد تلك الأغاني الجنوبية البطيئة التي تساعد على عبور الأماكن الرتيبة الطويلة:

«آه، آه، آه، آه! ناديت وما أُجبت
آه، آه، آه، آه! رجوت وما تُصدّق عليّ ...»

ثم يعود صوت الحلم ليصمت من جديد، ونستمر في مسيرنا العابر في صمت.

غير أننا دخلنا منطقة حيث أخذت الجياد تتقدم مرغمة ومرعوبة، ذلك أنه كان هناك دغل دائري لا نهاية له، وكان أسود في عمقه وفضي اللون في قمته، ويشبه من بعيد رجالاً نائمين أو أشباحاً. وهكذا أجبرنا على الاستيقاظ تماماً مخافة السقوط.

... وطلع النهار. أتتنا من الأماكن الزرقاء البعيدة رطوبة لذيذة، وترك الليل الطويل مكانه لعودة الشباب والسعادة اللذين تأتي بهما عادة لحظات النهار الأولى تلك في أماكن الجنوب الفسيحة والمقفرة...

مررنا بالقرب من حوالي عشرين بيتاً مشيداً من الطوب، كانت بيوتاً نائمة، والكلاب الشرسة وحدها ساهرة، وفد حيتنا بنباحها الأبحّ بملء أحناكها... هي قرية صيادة حيث لا شجرة ولا قشة نبات.

بعدها، دخلنا في مكان دغل فضي حيث ارتفعت الشكوى الغريبة والحزينة مثل نداء بلا صدى، «للكروان»، طائر الصحراء الذي يعيش أرضاً ويفضل الخروج ليلاً للتغريد.

كان النهار قد حل تماماً عند وصولنا إلى الشرم الغربي لهدنة، وكانت هناك سبخة ذات اصفرار داكن ممددة ووحيدة وواطئة من دون حدبة ومن دون نبات. وهكذا ترجل الطلبة عن أحصنتهم لأداء صلاة الفجر.

فقدت منذ ما يقرب من سنة الاعتياد على صلابة السرج والركابات العربية، وهكذا، فقد أحسستني متعبة جداً، وقد ارتخت ساقاي وأضحتا مؤلمتين.

تركنا السي علي الطالب الذي رافقنا ليعود إلى المسيلة. وركب السي بوبكر البغلة، وغصنا في السبخة.

سطعت الشمس الحمراء متوهجة، وسرعان ما اشتدت الحرارة.

بانيو، برج عسكري بلون أبيض ضارب إلى الرمادي يقوم مكان مرتفع، وفي ممر مشكل من أشجار الحور يقود إلى بئر بماء ساخن ومعكر ونتن. وحوله مبان مشيدة من الطوب. وفي الأسفل رمال، رمال حقيقية حمراء بعض الشيء، هي حقيقية غير أنها دقيقة وجافة. وفي أماكن متفرقة أدغال من أشجار الطرفاء التي تشكل جذورها تلالاً من الرمال المتجمع حولها، تماماً مثل باقي الأشجار الصحراوية. استرحنا تحت ظل إحداها لنشرب بنهم من الماء الموحل، ونحتسي قهوة مريعة ملأى بالذباب.

ازدادت الحرارة شدة، فرحلنا.

مرت ساعتان، ووصلنا إلى بير خالي. وهناك منازل مشيدة بالطوب هجرت خلال فصل الصيف، وبئر ماء صاف جداً، وبارد تقريباً. شربنا بحنق... لا أدري أي كلمة أخرى أستعملها.

بعد ذلك، كانت ساعات النهار الثقيلة في السهل الأجرد والمحترق. غير أنه كانت أمامنا الجبال التي تحجب الأفق، وبو سعادة على تَلِّها المنخفض بين قمتين مرتفعتين. ميزنا بوضوح القصبة التي تطل على المدينة، وعتمة البساتين.

وبدأ مجدداً وهمُ الجنوب الأبدي، فقد بدت لنا المدينة قريبة، ومع ذلك كنا نتقدم دوماً من دون أن تتقلص المسافة كما يبدو. وغدت رؤية المدينة المسحورة التي تفر في الأفق مع مرور الوقت مكدرة، فالحرارة شديدة، وشفاهنا جفّت، وتشققت، وأحرقتنا رياح الشرقي.

سقانا جمّال ثم تجاوزناه، وسرعان ما تشوّهت صورة الرجل ومطيته الكبيرة

والبطيئة، قبل أن يغوصا في التموجات التي لا يمكن تمييزها بسهولة في السهل البور.

*
* *

عندما رأيت بو سعادة بدت لي جميلة، متوجة بالشمس ومذهبة ومرصّعة باللون الزمردي الزاهي في حدائقها!

يتدفق واد بوسعادة، بمسار كبير عند سفح المدينة، على حصبات بيضاء. وعلى اليسار يفيض فوق الأسوار المشيدة بالطوب الأصفر والبساتين الغزيرة مثل غابة عذراء متوّجة بزينة الريش الملكية لأشجار النخيل. وعلى اليمين تبرز البيوت المرتفعة عن الأرض المنتظمة في فوضى جميلة وصحراوية جداً من حزام أشجار التين والدفلى، وأشجار الرمان.

مشينا وسط الماء الذي انحنت عليه مطايانا العطشى، وتبعنا سرير الواد حتى وصلنا «عين بسام». هي عين منعشة جداً، انبثقت من صخرة عند سفح المدينة. وشربنا هناك أيضاً.

. . . وبو سعادة مقسمة هي أيضاً إلى مدينتين مفصولتين بواد عميق، ومتصلتين بجسر.

وفي إحدى المدينتين هناك البنايات الأوروبية، والمكتب العربي وبناية العدالة والسلام، أما في المدينة الأخرى فهناك أكداس البيوت المشادة من التراب العتيق المعجون، وهي تمثل بوسعادة الحقيقية.

والمدينة المزدوجة محاصرة وسط تلال حمراء مرتفعة تطل عليها الجبال، الغريبة لسلسلة الجنوب، المنضدة والتي تعلوها أسطح منحدرة وبعضها مائل.

ويشبه شعب بو سعادة شعب الصحراء الشديد التعلق بالتقاليد القديمة، والسلوكات القديمة... ويبدو أن هذا الشعب كلما ابتعد عن المدن الكبرى الفاسدة، والتي تختلط فيها الأجناس، اقترب أكثر من القرون القديمة البائدة.

وجوه سمر تحت العمائم البيضاء، أو الحجب المشدودة بشرائط من وبر الجمال ذي اللون البني الفاتح، ووجوه ذكورية أو زاهدة، وعيون صهباء مصفرة وغائصة،

تلمع بشعلة سوداء أسفل طنف غلمونة (غطاء الرأس بالبرنس) وسبحات حول الأعناق بمظهر لزمن آخر، وتقريباً لعالم آخر.

أما الزي النسائي فارتداؤه أصعب حيث النسيج الموصلي يُتخذ كجلباب يوناني مكسو بالجوخ، ومشدود بحزام منخفض جداً، مع تصفيفة شعر ضخمة تمتد عرضاً، ولا يناسب كل هذا إلا النساء الطويلات والممشوقات وخاصة الرشيقات، وليس هؤلاء ممن يوجدن في الشوارع، بل ثمة هياكل عظمية شائخة ومسكينة ومثيرة للرثاء.

... أعددنا فراشنا المكون من حصائر وزرابي أسفل شرفة مقوسة لبيت كبير يعود للزاوية، التي تقع في ناصية معزولة من المدينة الحديثة قرب بناية العدل والسلام التي يفصلها عنها أخدود عميق ينمو فيه بستان جميل جداً، في فوضى خضراء قوية.

قبالتنا، وكما لو أن الأمر يتعلق بتعارض، كان هناك بستان أوروبي ونباتات ميموزا الجائعة، وأشجار توت ضامرة وفي غير موضعها، والكل محاط بشكل يدعو للحزن بالعوسج الاصطناعي، مثل تلك البساتين ذات الصفوف المتماثلة من دون أشياء لا يمكن توقعها، ومن دون سحر، تدعو للرثاء مقارنة بروعة البساتين العربية التي تعمر كيفما اتفق بخيال مبدع قريب جداً من الطبيعة وبمثل ثرائها!

فالجنود العابسون، والأسرى المساكين ذوو الثياب الرثة، وحراسهم لا يعرفون، مثل الفلاح الجاهل والشاعر، كيف تطعّم الدالية ذات الأوراق فاتحة اللون مع الأوراق الداكنة لأشجار التين، وكيف تُلقى وردة الدُّفلى الفاتحة وسط أشجار النخيل القوية والحمراء الموردة لأشجار الرمان في الظل الكثيف لأشجار التفاح.

... مر الوقت، وانطلقنا منذ الفجر إلى الزاوية الموجودة هناك على الطريق الجذابة جلفة وطريق الصحراء.

بعد أن تحاذي الطريق واد بو سعادة تدخل وسط الجبال الزرقاء بفعل ضوء الفجر الواضح.

جفت المروج والدغل بفعل فصل الصيف، واستعاد كل شيء في الأرض ألوانه المحايدة ومع ذلك ظلت متداخلة الألوان، حيث أحمر الآجرّ، والبني الأمغر، والأصفر الصلصالي، والأخضر الأمغر، وألوان شاحبة من دون اسم لا تكاد تُلحظ، وتداخل ألوان خبازية وبيضاء كابية، وألوان محايدة تعوزها الدقة وتمنح سحراً كبيراً

لتداخل الضوء الذي لا يوجد في أي مكان آخر، وتعد من معجزات تلك المناطق القاحلة.

الزاوية

اقتربنا من الواد مجدداً حيث الضفتان ممتلئتان بالبساتين ودوماً باللون الأخضر عينه الندي والمغبش حد أنه لا مثيل له تقريباً.

وكانت هناك بعض البيوت المشيدة بالطوب على ما يشبه نطاق متفرد. هو انعزال آخر للطلبة والمرتبطين تماماً مثل بساتينهم بزاوية الهامل.

ويعني الهامل، وهو اسم شاعري، «التائه» والذي يتوافق تماماً مع هذا المكان الموحش والفسيح والمفقود في واد منحصر من جهة، ومفتوح من الجهة الأخرى باتجاه الواد، على أفق شاسع وأزرق.

وبدت لنا الزاوية على المرتفع حيث هيكلا بنايتين كبيرتين، إحداهما بيضاء جداً، وبمظهر أوروبي، والأخرى مشيدة بالطوب ومضاءة جداً بفتحات نادرة ضيقة.

وفي الأعلى تتكدّس بيوت ترابية، ثم قرية قبيلة الشرفاء، وهي عبارة عن تكدس فسيفسائي لبيوت ذات طراز قديم، مثل كل تلك المباني المشيدة بالطوب.

وفي الأسفل، كانت أشجار النخيل تشكل بحراً من الخضرة تماماً مثل سرادق رائع.

وكان كل ذلك يرتسم بشكل واضح جداً، وبلطف أيضاً في الألوان التي يصعب وصفها على التلة، وفي هواء الجبل النقي. وكان لذلك المكان طابعه الخاص به، والذي لا يستمده من الصحراء أو من الطبيعة العادية للهضاب العليا.

. . . نمتُ على الفور، على سجادة في غرفة صغيرة مشيدة بالطوب، وكانت متواضعة جداً وعادية جداً، وهي بيت السي بوبكر، بينما كانت حركات ذهاب وإياب سعيدة للترحيب بنا.

عند استيقاظي، ألفيت تلك الأحاديث الهادئة والخفية والمهذبة والتي تساعد على قضاء النهارات الطويلة والمتشابهة دوماً في كل مكان، حيث اللامبالاة الإسلامية الكبيرة لم تُمسّ بالحركة الأوروبية الهدامة.

وهناك، في ذلك المكان المعزول حيث الطبيعة شاسعة وعادية، يأتي ليموت كل

صخب صراعاتنا الضارية وغير المجدية في الهدوء الكبير الثابت، وحيث الأعمال الرائجة، والتي تتشابه دوماً بحساسية، ليست سوى حوادث.

ومن أجل العيش مع أولئك الناس المنغلقين والحساسين ينبغي اقتحام أفكارهم، وجعلها أفكاراً خاصة بك، وتطهيرها بإعادتها إلى منبعها القديم... وهكذا فالحياة يسيرة ومهدهدة بشكل رقيق في عالم البرانس والعمائم ذاك، المنغلق أبداً على ملاحظة السائح مهما اتصف بالانتباه والذكاء.

قِلّة الكلام، والإنصات كثيراً، وعدم الاستسلام، هي القوانين التي يلزم اتباعها لحيازة الرضى في أوساط عرب الجنوب حتى يكون المرء على سجيته فيها...

بعد أن عبرنا العديد من القاعات والساحات الواسعة المعتمة، ولجنا ساحة داخلية كبيرة قديمة جداً ومحاطة بأسوار عالية جداً مبنية بالطوب الداكن. وقد نمت في وسطها شجرة تين فتية ستظلل ذلك المكان بعد سنوات قليلة، حيث يعم الهدوء التام. رأينا في تلك الساحة ما يشبه السرير، وكان عبارة عن بلاطة كبيرة مصقولة، وضعت على أربع دعامات حجرية. هناك يرقد الصوفي الراحل، سيدي محمد بلقاسم.

*
* *

كانت هناك امرأة في لباس بو سعادة الأبيض والبسيط جداً، تجلس في زاوية قرب الغرف الداخلية على ما يشبه درج مدخل حجري. وكان وجهها مشرباً بالسمرة بفعل الشمس، ذلك أنها كانت تسافر كثيراً في المنطقة. وكانت التجاعيد تغضّن وجهها، وتقارب الخمسين من العمر. وكانت تتألق في حدقتي عينيها السوداوين، ذاتي النظرة الحنونة جداً، شعلة الذكاء فتبدو كما لو أنها مغلفة بحزن عظيم. وكل شيء فيها يدل على بساطة كبيرة، صوتها وتصرفها وترحيبها بالحجاج. هي لالة زينب، ابنة سيدي محمد بلقاسم ووريثته.

كان الصوفي الذي لم يخلف وراءه ولداً ذكراً قد عيّن ابنته الوحيدة خلفاً له بعد موته، وعلمها باللغة العربية ما يتعلمه أفضل الطلبة. وخص ابنته بدور يختلف اختلافاً كلياً عمّا يتوجب عموماً على المرأة العربية، وهي التي تدير اليوم الزاوية، وإخوان الطائفة.

وليست الزوايا «مدارس التعصب» كما يؤكد بعض الكتاب الذين لا يعرفون عنها غير اسمها. فعلاوة على التعليم الإسلامي، توزع الزوايا الصدقات لآلاف الفقراء واليتامى والأرامل وذوي العاهات، الذين كانوا من دونها سيجدون أنفسهم من دون مأوى ومن دون مساعدة.

إضافة إلى كل ذلك، كانت زاوية لالة زينب تعد ملجأ لكل الذين يتقاطرون عليها من كل حدب وصوب.

وكانت لالة زينب المصابة بداء مؤلم في حنجرتها مستمرة بشجاعة في محاربة كل الأعداء الذين تحركهم الغيرة، وتنجز عملها بإخلاص ونكران ذات.

. . . أثارت حالتي وطريقة حياتي وحكايتي اهتمام الصوفية الشديد. وعندما سمعت كل شيء أيّدتني وأكدت صداقتها إلى الأبد، غير أنها بدت حزينة فجأة، ورأيت الدمع في عينيها.

ـ يا ابنتي. . . بذلت كل حياتي لفعل الخير في سبيل الله. . . ولا يعترف الناس بالخير الذي أقوم به لأجلهم، ويكرهني الكثيرون ويحسدونني، مع أني تخليت عن كل شيء، لم أتزوج أبداً، وليست لي أسرة ولا سعادة. . .

أحزنني ذلك الألم غير المنصف، المخفي لربما منذ سنوات، والذي لم يظهر إلا بحضور امرأة أخرى، وقدرها البعيد جداً عن المعتاد.

وبين الفينة والأخرى، كان سعال خشن يهز صدر للاة زينب. . . أحسستها مريضة جداً للأسف! هي الموجودة هنا من أجل السهر على العائلة الكبرى تحيط بها المنغصات وتسرع إليها المصاعب. إلامَ ستؤول الزاوية المحسنة عند وفاة لالة زينب، التي ستحدث في يوم قريب من دون شك؟

فشخصية امرأة تعيش عازبة، وتقوم بدور ديني كبير، ولربما كانت الوحيدة في الغرب الإسلامي، تستحق بكل تأكيد أن تُدرس أكثر مما استطعت فعله في مقام سريع جداً بالزاوية. . .

. . . أمضيت الليلة وحيدة في غرفة واسعة مقببة. وكانت رياح الجبل تهز بعنف مصاريع النوافذ. كانت تبكي وتنوح في الوادي وبين أضرحة المقبرة القريبة جداً.

. . . أيقظني صوت حالم حزين وبرقة غير محدودة عند طلوع الشمس:

ـ قل هو الله أحد، الله الصمد. . . لم يلد ولم يولد. . . ولم يكن له كفؤاً أحدا! كذاك كان ينشد الصوت بطيئاً، بطيئاً.

قمت مفكرة بحزن أنه اليوم الأخير. دنوت من النافذة. وفي الأسفل، كان رجل مسنّ يتجول، مستظهراً آيات من القرآن بالطريقة القديمة.

ودّعت لالة زينب، وتركت زاوية الهامل. . .

ركبت في بو سعادة عربة مشوّهة. كانت مكتظة باليهود وتقصد أومال عبر مئة وثلاثين كيلومتر من الارتجاجات والأخاديد.

كانت هناك في البداية الرمال الحمراء، وأشجار طرفاء متناثرة، وأفق واسع وفارغ يشبه أفق الصحراء، التي كنت أبتعد عنها مرة أخرى.

وكانت لمحطات التوقف الأولى مظاهر معروفة ومحبوبة حيث أبراج قديمة، وأشجار النخل المجتمعة في المنخفضات العميقة، ثم تغير كل شيء. فقد صعدنا نحو الهضاب العليا، وأضحت الطبيعة قاسية وحزينة حزناً لا أحبه. إنها النهاية. . .

فحلم الأيام السبعة حلّق بعيداً، آخذاً طريق أحلام أخرى. كنت على وشك أن أتساءل إن كان ذلك حقيقياً، وإن لم يكن كل ذلك السحر السريع مجرد رؤيا، وإن لم تكن بو سعادة تلك، وتلك الزاوية وتلك الصوفية ذات اللباس الأبيض، إلا وليدة خيالي الحنيني.

كم عليّ أن أندم على بو سعادة وضوئها الذي لا يقارن، وتجمهرها الحار جداً والفسيفسائي جداً!

رحلت بعد وقت قصير إلى تنس المملة، حيث عشت شهوراً طويلة إلى جوار فلاحي التل. وهناك تمكنت من دراسة علاقات الأهالي والمعمّرين بتأن. . . فللقروي العربي صبر الموجيك[1]، أما المستعمر فهو في الغالب إنسان طيب لا يفهم جاره.

كنت أقصد الجزائر دوماً وأكتب فيها. والتقيت ذات يوم ماطر بو بكر تحت شرفات مقوسة.

---

(١) فلاح روسي: المترجم.

ـ ألن تحضري لرؤيتنا هناك؟ . . . فقد بدأت الأشجار تورق. . . وتتحدث عنك الصوفية دوماً. . .

وبعد يومين، كنت في طريقي مجدداً إلى بوسعادة، من دون همّ، وسعيدة على الرغم من برودة الفصل. كنت كما لو أنني أذهب لأقطف ورود بستان.

الجنوب الوهراني
الجزء الأول

ملاحظات على الطريق خريف ـ شتاء ١٩٠٣

كانت آخر أيام فصل الصيف تمضي رتيبة وبطيئة. وكانت الجزائر تنام تحت وطأة سماء من دون غيوم. وبدت الشوارع التي خلت من المارة إلا فيما ندر أكثر اتساعاً. وكانت مجموعات من الذباب زرقاء اللون تطن في الظلال القصيرة للبيوت. وغطيت تلال مصطفى غبار رقيق. وانطفأ البياض الناصع للمدينة العالية. ومع ذلك فقد كانت الحياة تستمر هناك قاسية في الشوارع المختنقة، وثملة بالأضواء والألوان، وبعروض الفواكه والأثواب والتغريد المتأمل للعنادل في الأقفاص أمام المقاهي المغربية.

كان ملل ثقيل يضغط على الجزائر، واستسلمت لنعاس مضطرب، من دون سعادة ومن دون وهْم، والذي لو كان من دون رغبات أيضاً لكان أشبه بغناء ناعم. ثم حل قتال المنقار فجأة، وما يوفره من إمكانية لرؤية المناطق الجنوبية الحارة، فقد كنت أقصد الجنوب الوهراني كمراسلة... كان حلم شهور عديدة على وشك أن يتحقق، وبطريقة مباغتة جداً.

كانت الرحلة الطويلة على متن القطار ساحرة عبر الغرب والجنوب الغربي للجزائر.

وفي عاطفة السعادة الأولى للانطلاق حصلت على بعض ساعات من الراحة والحلم.

كذاك الأمر في بعض مراحل الحياة، حيث لا شيء يحدث في بعض الأحيان، غير أنها لا تنسى أبداً فيما بعد، لأنها برقة لا توصف.

كان ذلك في بريكو حيث كان يتعين انتظار قطار أرزو الذي سيقصد الجنوب.

لم تكن بريكو إلا قصبة إسبانية، مزينة ببساتين خضراء كبيرة وسط سهل خصب كبير. ومع ذلك فإن تلك المنطقة العادية من التل الجزائري بدت لي مبتسمة وجميلة تقريباً.

كان النهار يمضي صافياً وسط هدوء الريف، وكانت تلة مرتفعة تسد الأفق الذي أخذ يتألق شيئاً فشيئاً. وعلى قمتها مصلّى صغير لسيدي عبد القادر البغدادي، بدا وردياً جداً وسط بعض أشجار الزيتون الرمادية. وكانت هناك حجارة خشنة مختفية وسط الأعشاب الجافة. كانت تلك هي المقبرة الإسلامية، في مكان هادئ حزين من دون جنائزية.

. . . وفي المساء، قصدت إحدى الحصائر لأتمدد عليها، قرب مقهى مغربي، وكان يمكن قراءة العبارة التالية مكتوبة بحروف كبيرة وعناء على باب عربة دار ضيافة إسبانية «ممنوع دخول الغجر[(١)]».

وارتسم أمامي حائط خال على قرص الغروب الوردي. وكان البدو الرحل العرب المقرفصون أرضاً يحلمون. وفي حرارة الجو كانت روائح مألوفة تجر روائح البلاد البدوية في أماسي فصل الصيف حيث دخان الأرز أو دخان العرعر، وروائح جلود التيوس وروائح القطران وروائح الأجساد السمراء في الرطوبة. أما أنا، فقد كنت أتذوق اللذة العميقة لحياة التيه، وسعادة أن أكون وحيدة، مجهولة خلف البرنس والعمامة الإسلامية لحياة التيه، وأن أنظر بسلام إلى النهار وهو ينتهي في أنوار حمراء على بساطة الأشياء في تلك القرية حيث لا شيء يبقيني، والتي سأتركها مع حلول الليل.

فيما بعد، ومجدداً، أمضيت ساعات طويلة عند نافذة العربة عبر بلاد أكثر خلاءً وأكثر مرارة دوماً كلما انحدر القطار الصغير البطيء باتجاه الجنوب.

---

(١) كتبت باللغة الإسبانية مع ترجمتها من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

وأخذت القرى والقصبات تمر في الليلة المقمرة، سريعة وعابرة تماماً مثل الرؤى.

وحوالي منتصف الليل، كانت صيادة البائسة حيث الضائعون من الناس يأتون للبحث عن النسيان تحت المعطف المجهول للفيلق الأجنبي، ثم الصعود القاسي للهضبات المرتفعة على طريق متعرجة، وهنالك بدأت آلتا القطار تلهثان وتحوزقان مثل دابتين ضاقت أنفاسهما.

وفي الأعلى، عند مدخل الهضبة الجرداء والشاسعة، قبتان صوفيتان، بدتا وكأنهما تحرسان.

وتوقف القطار في العديد من المحطات بالأراضي المنبسطة في قرى لم نرها ودواير بعيدة من قبيل عين الحجار وبوراشد وتفراوة. . .

وأشرق النهار أخيراً في سماء خضراء وحمراء على كثبان خريدر الصغيرة الداكنة.

وهكذا إلى ما لا نهاية، حيث تسود الرتابة البالغة والحزن، وأيضاً السحر الكبير البادي لسهل الجنوب، بباقات الحلفاء الصلبة النادرة وبشجيرات منبسطة، واللون الرمادي على الأرض ذات الحجر القاني، وسلاسل جبال تفرّ إلى البعيد ولا تكاد تُميّزها لشفافيتها ولشحوبها.

سطعت الشمس، ووصلنا أمام النتوءات الصخرية الصلبة لجبل عنتر المتقدم في اضطراب الآفاق المسطحة. وعند سفح ذلك السور الأزرق العالي كانت ميشيريا حيث بعض الأسطح الوردية، وبعض الأشجار الهزيلة المصفرة، وبعدها مباشرة لا شيء، غير فراغ السهب مجدداً في أضواء الصباح المتقزحة.

ومنذ خريدر تغيرت هيئة المحطات المتوحدة وصار الأمر يتعلق الآن بقلاع صغيرة عالية، ومحصنة بشرفات رمادية ومقفولة بأبواب حديدية ثقيلة.

. . . وأخيراً انبثقت جبال من السماء اللازوردية الصافية الحارة من البعيد: جبل مختار، ومير الجبل، وجبال سفيسيفة. ومن بعدها، باتجاه الغرب، يبدأ المغرب.

وانتصبت كثبان حمراء كبيرة مطبقة على مختار مثل أمواج متدفقة، وأحاط حزام من الاخضرار المزرقّ مباني المعقل الأجورية العالية.

وتزاحمت إلى اليمين بعض البيوت الصحراوية المشيدة بالطوب ومجاميع من أشجار التين السوداء، وبعض أشجار النخيل، وبعض الأضرحة البيضاء الصغيرة.

وأخيراً كانت عين صفرا، التي كان يتعين عليّ عبورها فقط لأذهب بعيداً إلى بني ونيف الفكيك.

ظلال الحرب

كانت عين صفرا، التي أضحت حامية عادية حديثاً، غارقة في سباتها، وفي رتابة الحياة العسكرية لزمن السلم[1].

واليوم، مع اضطرابات الجنوب والعواصف التي تزمجر من جديد عبر المغرب باهتياج، بدت عين صفرا وكأنها استيقظت، واستعادت مظاهر الماضي، حيث العهود البطولية لبوعمامة. وأضحت أعداد الجنود كبيرة وأكثر صخباً، وتعدد الوصول والانطلاق والانتظار القلق في بعض الأحيان، وعمّت حركة غريبة الشوارع الرملية.

وامتزج بالشمس خيّالة يمتطون جياداً صغيرة وهزيلة برزت عضلاتها، ومخازنية ببرانس سوداء طويلة طُرزت باللون الأحمر جهة الصدر وبأحزمة ملئت بالخراطيش، وقنّاصة بألوان زرقاء، وسباهيون بمعاطف حمراء... وأخيراً، رجال الفيلق، أولئك الرجال الشقر القادمون من الشمال، وقد اسمرّت وجوههم ودبغت بفعل شموس الأماكن البعيدة، شموس المستعمرات.

وفي مطاعم الجند، والمقاهي المغربية المملوءة بجلبة سعيدة، تتصادم التناقضات الأكثر لاتوقعاً. فهناك الأغاني الرخيصة الغامضة ذات المقطعين، والأغاني الحديثة تمتزج بالأحاسيس المسجوعة للأغاني العاطفية الألمانية أو الإيطالية، إلى جانب الغيطة الإفريقية القديمة، والتي تنوح ثُمانيتها[2] الغريبة، مرافقة أغاني رتيبة بطيئة ومتقطعة على شكل لازمات بصراخ طويل وحزين.

وفي حركة انتشاء واحدة ت[3] من الضجيج، يتصل العالمان المتجاوران، العالم

(١) ملاحظات أولية: عين صفرا، منظر مزدوج لقرية فرنسية ذات خضرة تلية شاحبة ـ حيث أشجار الحور الفضية، وأشجار دلب صفراء واهنة، وقصور مشيدة بالطوب الرمادي، وشوارع مقفرة لامثيل لها. وهناك عند سفح الجبال العالية جداً وشديدة الزرقة قمم مسننة لكثبان حمراء، وتموجات رمال صفراء رخوة، واجتياح الحلفاء الهائجة (ملاحظات فيكتور باريكون).

(٢) قصيدة ثمانية الأبيات ذات قافيتين: المترجم.

(٣) لاشيء في الأصل سوى حرف T . المترجم.

الأوروبي والعالم العربي، ويمتزجان من دون أن يتطابقا.

إلى كل تنافر الأصوات ذاك الذي يتعذر محوه يأتي الفيلق الغريب ليضفي أيضاً بعض الإشارات البعيدة. وعين صفرا جميلة بكل تلك الضوضاء، وبكل أولئك الناس في ظرفية اللحظة ولايقينيتها...

***

صعدت إلى المستشفى في المعقل الذي يطل على المدينة.

كانت بنايات كبيرة من الآجرّ الأحمر، محاطة بأروقة ذات شرفات مائلة. وكان جرحى المنقار يتيهون في الظل بضمادات ناصعة البياض في خمول نقاهتهم.

وكان بين أولئك الأجانب فرنسيان أو ثلاثة... أما الباقون فألمان وإيطاليون بوجوه قاسية وكالحة وابتسامات ظريفة.

ومع أنهم فخورون كونهم «يُستجوبون»، الكلمة التي عُلّمت لهم، فقد كانوا خجلين. وهكذا، وكما تقتضيه الجندية، كان ينتهي بهم الأمر إلى تحويلي إلى قائدهم، العريف زولي.

وكان شاباً طويل القامة رقيق العظم، يرتدي بارتياح بذلة المستشفى الرمادية، ويتحدث اللغة الفرنسية بسلاسة، وفي بعض الأحيان بأناقة، ولما كان معتاداً، فلم يكن مضطرباً.

روى لي بأسلوب واضح وحماسي التوقف غير الحذر ومن دون احتياطات في الوادي بين المنقار والزفراني، واللامبالاة القاتلة للقائد المسكين فوشي، الذي قال وهو يضحك إنه سيذهب من دون سترة حتى تافيلالت، وذلك قبل أيام فقط من موته... ومع ذلك، يشهد العريف بجسارة القائد الهادئة والكبيرة، والذي وجد على الرغم من إصابته القاتلة القوة ليكتب بعض الكلمات بقلم الرصاص محذراً القائد دو سيسبيال في تاغيت.

وفي خضمّ حديث العريف، مر أيضاً الطيف الحزين للضابط الدنمركي الملازم أول سيلكوهوسن الذي خدم في الفيلق الأجنبي برتبته العسكرية من أجل أن يتعلم، والذي ذهب ليموت هناك في ذلك المكان المجهول في الجنوب الوهراني.

أضاف العريف:

ـ ويبدو أن الملازم أول كان خاطباً في بلده. الأمر سيّان. فقد كانت تلك الميتة محزنة!

كان زولي يدرك جيداً كيف يعيد إحياء هول ذلك اليوم من القتال المحتدم وغير العادل، والبعيد عن كل نجدة. كان متواضعاً، ولم يغال في الدور الذي قام به، إذ اعترف بجرح في يده اليمنى منعه منذ البداية من الضغط على الزناد.

وكان زولي، وهو جندي سابق للجنرال مينوتي غاريبالدي، يحب الحرب، ذلك أنه كان يجد دوماً وسيلة ليكون حيث يكون القتال.

يتجرأ في بعض الأحيان الرجال الأكثر خشونة، ويغامرون بكلمة أو ذكرى عادية ومؤثرة أو بعض السخرية من حظهم العاثر.

قال أحدهم، وبدا أنه لا يذكر شيئاً آخر:

ـ كنا عطشى في ذلك اليوم، ولما لم يكن هناك ماء فقد شربنا في الليل لترات كثيرة من النبيذ الصافي عندما انتهى كل شيء. وهكذا، فقد ضغط ذلك علينا وانتهى بنا الأمر وقد سكرنا قليلاً.

ودودون جداً أولئك الأشقياء المساكين، الذين عانوا وأوشكوا أن يموتوا من أجل قضايا لا تخصهم وتتركهم غير مبالين تماماً.

في الطابق الأرضي قاعة صغيرة مملوءة بالجنود المرضى.

وكان هناك أيضاً مولاي إدريس المخزني الأسمر المارد، وصاحب العضلات المفتولة، والخشن ذو الوجه الواضح القسمات، وهمّة البدو الرحل. كان نائماً لأنه يشعر بالملل.

أصيب ذلك المخزني قبل أيام قليلة من المنقار على يد أحد الجيوش. ومع أن مولاي إدريس كان بدائياً جداً ومحافظاً قبل كل شيء فقد انتهى مع ذلك إلى أن يطمئن ويبستم. كان يعبّر عن كل ما يفكر فيه عرب الجنوب الغربي. فبالنسبة إليهم، لا يتعلق الأمر بحرب ضد المغرب، وعلى الخصوص، لا يتعلق بحرب مقدسة. فقد كانت المنطقة دوماً بلاد البارود[1]، وكانت قبائل الحدود المضطربة تغير إحداها على

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمته في النص الأصلي من قبل الكاتبة. المترجم.

الأخرى على نحو دائم. ويشير مولاي إدريس إلى العدو باسم معبر الخيان أي اللصوص وقطاع الطرق، ويعتبر العمليات العسكرية الحالية كغارات مضادة، وعمليات انتقام من الجيوش بكل بساطة.

هذا يفسر عدم شعور المساعدين من الأهالي، والذين يقومون بأعمال ذات قيمة كبيرة من مخازنية وخيالة، وفرسان البريد والمسخرين الذين يتم تجنيد معظمهم من قبائل بدو البلد، بأي نفور من قتال اللصوص، ويقدمون المثال على البسالة وعلى التحمل، وعلى إخلاص يفوق المدح.

ومولاي إدريس يستهجن بشدّة، من دون أن يصرّ على ما يعانيه من قبل العدو، ما يقدم عليه أولئك الذين يطلق عليهم اسم قطاع الطريق والمستبدين، إزاء الضعفاء.

وفي قرارة نفسه يجدر أن لا يرغب أن ينتهي كل ذلك بصدق، فهو من البدو الرحل، وإذن فهو رجل البارود ويحب القتال.

وينتمي مولاي إدريس إلى مخزن سيدي مولاي ولد محمد، آغا عين صفرا، إحدى الشخصيات الأهلية في الجنوب الغربي الأكثر تعاطفاً والأكثر إخلاصاً للقضية الفرنسية.

وبينما كنت أتحدث إلى مولاي إدريس، أحاط بنا رفاقه الجنود.

كان منظرهم طريفاً ما داموا قد جُرّدوا من لباسهم، وكانوا نصف عراة بملابس المستشفى التي لم تكن لائقة بهم، ومع عصابات حول رؤوسهم الحليقة. وكانوا يقومون بأفعال صبيانية وقهقهات تتعارض مع أجسادهم القوية ووجوههم الذكورية.

كان كل أولئك الرجال المتألمين ينتظرون بنفاد صبر اليوم الذي سيسمح لهم فيه بالخروج حتى وإن لم يشفوا تماماً. فالمستشفى عند العرب مكان جالب للشؤم وأشبه بسجن.

*
* *

الساعة الثامنة ليلاً. ضغط كبير يجثم على عين صفرا في عتمة الدكاكين المغلقة والمقاهي التي تختفي خلف أبوابها أمسيات السكر الملحمي التي يقيمها جنود اللواء. ليس هناك من مدني يمر، وهناك صمت مطبق وكأنّ ثمة مدينة في خطر.

ويتجمع التجار، أو التجار الغشاشون كما يناديهم العرب، في قاعات مغلقة حول

البليادرو الأخضر الفارغ. وترتسم على وجوههم علامات الحزن، ويظهر القلق عليهم. هي الشكاوى الطويلة، والمبالغة الأبدية في الأشياء، والتضخيم غير المقدر بفعل الخوف. وهكذا يبدأ الحديث عن الاستراتيجية، ذلك أنهم يجدون الحامية غير كافية بشكل سخيف. وتُقدّر مخاطر الاستفاقة في صباح اليوم الموالي بخط سكة حديد وتلغراف مقطوعين. فقد تم الإعلان عن وجود حركة، وهي عصابة كبيرة من اللصوص حضرت من سفيسيفة. حتى إن الأمر ذهب حد تقدير المسافة الفاصلة بين القرية والمعقل، الملجأ الآمن...

في المساء، كان هناك ما يشبه الرعب بعين صفرا. كل ذلك لأن دورية تعرضت لهجوم بثنية مرباح، التي تبعد عنها حوالي عشرين كيلومتراً، ولأن أحد المخازنية قد قُتل... إضافة إلى ذلك، فقد تمت الإشارة إلى مرور جيش قرب محطة ميكاليس.

في متجر أحد المزابيين حيث ذهبت بحثاً عن بعض الضوء والفرح، دخل سباهي، وكان شاباً وسيماً بوجه معبر وناعم.

وكان بادي القلق.

قال:

ـ الوداع. سامحوني جميعاً إذا ما أخطأت في حقكم.

ـ لكن إلى أين تذهب؟

ـ آه! ألم أؤد القسم؟ الذي ينخرط يضع رأسه في الأنشوطة المتحركة، وفيما بعد يقوم بما يؤمر به من دون أن يفكر في خيمته أو في أصدقائه. لست أخشى أن أموت، لأن المرء لا يموت إلا مرة واحدة، ولكني أخشى أن أمشي وحيداً في الليل من دون إيجاد شخص أكلمه... لقد أرسلت حاملاً رسالة إلى بني ياحو.

وعانق كل الحضور ذلك السباهي (الفارس الجزائري)، وهم يفكرون في المخازني الذي قتل صباحاً.

كان رحيل الجندي المسكين الذي كان يخاطر بحياته في الظلمة المهددة وهدوء البادية هو النقطة الحزينة فعلاً والمؤثرة في كل منظر المدينة الفزعة.

ومع ذلك، فكل شيء مر على أحسن وجه، وانقضت ساعات الليل البطيئة من دون إنذار، ومن دون صدى أية طلقة.

وطلع النهار متألقاً مزيلاً الأشباح التي أثيرت في الليلة الماضية.

أعلمت بأن السباهي عبد القادر لم يتعرض لهجوم، وأن كل شيء هدأ بالقرية، واستعادت الحياة الرتيبة مسارها العادي.

مغرار الفوقاني

نزلت اليوم باتجاه هجرة مغيل لأرى جرحى آخرين من المنقار بقوا هناك.

بعد طلوع النهار بقليل، دخل القطار بلداً متفرداً بغرابة أخاذة.

فلا مزيد من الرمال أو الحلفاء، لا شيء آخر سوى الحجارة. سديم شاسع من الحجارة المكسرة والمدحرجة والمشقوقة والمنزوعة من الأرض كما لو تم ذلك بفعل كارثة أرضية مريعة.

كانت هناك ضلوع حادة متشابكة وقد علا بعضها فوق بعض، وشقوق واسعة بشكل مخيف على الصخور وعلى التلال الصلصالية، وخنادق ضيقة وعميقة مثل دهاليز مالت على كتل ضخمة وضعت بتوازن خطر وبدت على وشك الانفصال وتحطيم القطار الذي كان يمر.

كان ذلك أشبه بدفق كبير للحُمم تقيأتها رؤوس الجبال المعتمة التي تسد الأفق، والتي اجتاحت الوادي لتبرد فيه وتتجمد حول كتل قديمة جداً وأكثر صلابة، مشكلة قشرة منتفخة وخشنة، وهيكل مدينة بأكملها دمرتها نيران السماء.

أي تناسق غير مسبوق للألوان في تلك الأنقاض! وأي انعكاسات نارية! حيث اللون الوردي الكامد لخبث المعادن التي لم تكد تنطفئ، واصفرار الصدأ، واخضرار المغرة، وبنفسجية المنغنيز، وقرمزية معتمة على الصلصال البارد، وأوردة بارزة بزرقة رمادية، واحمرار كئيب على النتوءات الوعرة!

وعلى كل الواجهات الحجرية طغى لون موحد بسواد السخام، وكانت ما تزال تحفظ آثار النيران والأدخنة الأصلية.

مشهد قاتم ورائع لسعير متحجر، ومنظر قمري لخراب يفوق كل وصف، ومأساة عظيمة تحت سماء مبتسمة في ضوء الصباح الصافي. . .

وفجأة، عند الخروج من خندق بعد إحدى المحطات، بدا منظر غير متوقع

للخصوبة وللحياة، إذ كان هناك القصر الساحر لمغرار الفوقاني مع بستان النخيل الصغير على سرير الواد الرطب.

وكان هناك حوالي ثلاثين بيتاً عالياً من بيوت البربر المشيدة بالطوب وبلون أصفر شاحب، وقد تزاحمت متجاوزة شوارع صغيرة معتمة، وتجمعت سطوحها غير المتوازنة في عدم انسجام لطيف.

وأعلى الجدران، وتحت عارضات جذوع النخل للأسقف، زخرفة فظة بآجرّ طيني، وضعت جانباً على شكل أكاليل مسننة.

وفي بستان النخل الصغير، تتموّ حقول الشعير الصغيرة الشديدة الاخضرار، أسفل الفصيلة الهامسة للنخل الأزرق بين الأسوار المنخفضة، حيث تتمايل أشجار رمان مزهرة.

تنزلق الأشعة المائلة للشمس في شروقها بين الجذوع المصقولة مضيئة عند أقصى أشجار النخيل أنواراً شديدة وخاطفة، ناشرة أضواءها على الأرض المذهبة، وعلى الثمار الحمراء للطماطم والفلفل الحلو.

امتدت واحة في ضوء النهار الذي بدأ لتوه وسط الإعصار البركاني، ناتئة كتصدع ضيق وسط الحُمم الميتة.

وعلى صخرة فوق خط السكة الحديد كانت طفلة صغيرة ترتدي ثوباً صوفياً أرجوانياً غارقة في الضوء الشديد، وهي تنظر إلى مرور القطار.

كانت جميلة وضاحكة، مع حركاتها اللطيفة البسيطة، والسعادة الساذجة التي تضيء وجهها المدور الصغير، ولونها الكهرماني، ودعابة عينيها العسليتين الواسعتين.

وظهرت طفلة أخرى، وأخذت إحداهما تضايق الأخرى بشقاوة، ضاحكتين ولاعبتين من أجل الظهور.

وفجأة، ولجنا مشهد الحجارة الخارق في قلب الحياة الجامدة والمعتمة والصامتة.

حجيرة مغيل

محطة، برج محصن معزول وسط الصخور المكسرة.

وكان هناك معقل مشيد بالطوب على بعد ألف وخمسمئة متر يطل على بعض

الأكواخ الخشبية على منحدر صخرة عند قدم آخر خاصرة جبل بني سمير.

وهناك واد اجتاحته الحلفاء والدفلى، وبعض النخلات المتناثرة. وخلف المعقل، على ضفة الواد، كان هناك قبران فرنسيان صغيران.

كان أحدهما يعود إلى ثلاث سنوات، بينما كان الآخر حديثاً، حيث بدأ يبهت لون بعض الأكاليل البائسة. كان ذلك قبر عريف في سلاح الفرسان الجزائريين مارشال قُتل قبل شهر في قمة الشعبة الحمرا في بني سمير أثناء مطاردة أحد الجيوش.

وكانا قبرا الجنديين يبدوان مهجورين، وبحزن لا حد له، بصليبيهما من الخشب الأسود. وكانا معزولين ومخالفين لمشهد الصحراء الحارق الكبير.

في المحطة حيث نزلت صدفة، حتى من دون معرفة اتجاه المعقل الذي كنت أقصده، وجدت بدوياً شديد السمرة. كان عربياً وسيماً من الهضاب العليا وكان ينزل من القطار سرجاً وعدة ركوب حصان. وعلى الرغم من أثوابه البيضاء تعرفت بيسر شديد على الجندي خلفها. كان الرجل من سلاح الفرسان الجزائريين أو مخازنياً في زي مدني.

توجهت إليه لأنه أوحى لي بالثقة. شرعت في الحديث لأشرح له هويتي وحضوري، وسرعان ما صرنا رفيقين ببساطة الألفة التي يتصف بها المسلمون.

الطيّب ولد سليمان، من قبيلة الرزانية لسعيدة، غادر سلاح الفرسان الجزائريين لينخرط في صفوف المخزن بتاغيت. وكان يقصد في ذلك اليوم تحديداً واد الرمل ليقتني مطيته.

ـ تعالى معي إذا شئت. سنشرب القهوة عند رفاقي السابقين بالمعقل، وستنفذ مهامك هناك، ثم سنذهب لواد الرمل لقضاء الليلة هناك، إذا كنت قادراً على السير. وفي الغد، سنُمنح حصانين وسنعود إلى هنا لأخذ قطار الجنوب.

كان الرجل مصيباً، فقبلت.

رحلنا على خط السكة الحديدَ بداية، ثم على طريق وادية من بعد.

حدث مشهد هزلي في المعقل.

فقد نظر إلي رئيس المعقل وقائد اللواء مخدراً، ذلك أنه لم يفهم العلاقة التي يمكن أن تكون بين بطاقتي كصحفية والشاب العربي الذي مدها له. ومع ذلك، فقد انتهى بنا الأمر إلى التفاهم.

وكان من المستحيل استجواب أفراد اللواء من دون ترخيص من جهة عليا. وفي المجمل، لم يحزنني ذلك مادمت سألحق بالطبيب لدى أفراد سلاح الفرسان الجزائريين.

تحت معسكر طويل من الخشب والتراب المدكوك، وفراش من القش الموضوع أرضاً، كان الفرسان بأزيائهم المصنوعة من نسيج الكتان وأحزمتهم الحمراء يتحلقون بسعادة حول المحرر. ولما كان هو من أحضرني فقد احتفلوا بي أيضاً.

مدوا سريعاً أغطية أسرّة، وأجلسونا عليها. وبعد مقدمات طويلة من التهذيب العربي والأمنيات المتجددة، منحونا أربع أو خمس ربعيات قهوة، وعصيراً صافياً عديم الرائحة، يشبه نقاعة عرق السوس الخاص بالمستشفيات.

ومع ذلك، لم نجرؤ على رفض كل تلك القهوة المقدمة لنا عن طيب خاطر... ثم إننا كنا قد شربنا ما هو أسوأ.

لم نبق طويلاً على الرغم من إصرار أولئك الفرسان الجزائريين لإبقائنا حتى نمضي الليلة هناك.

***

قال الطبيب إنه يود الذهاب للبحث عن شخص يدعى التيجاني، يتحدر من بوسمرون، وهو عامل في المحطة ويملك بغلة.

خلف المعقل، وفي خيمة صغيرة من الخرق، وجدنا زوجة التيجاني. كانت ذابلة وبجسد دبغته الشمس غير أن ذلك لم يخف جمالاً قديماً.

وكانت ما تزال تعرف كيف تلبس بأناقة، إذ وضعت أسمالاً من الصوف الأحمر.

غمزني الطبيب، الذي يعتقد بيقين أني السي محمود القسطنطيني، بطرفه مبتسماً، ومتخلياً عن رزانته الجميلة التي كان عليها من قبل.

ـ حسونة من جبل عمور، بلد الفتيات الجميلات.

استند الطبيب إلى مقعد صوفي عتيق لينظر جيداً إلى البدوية التي خاطبها بنبرة حنونة مقصودة، قائلاً:

ـ هل تذكرين قبل سنتين بديفيريي؟

أنكرت حسونة على الفور، لكن بابتسامة مضطربة فضحتها:

ـ ماذا حدث في ديفيريي؟ أنت مجنون وتكذب. لا يوجد بيننا إلا الخير. . .

ـ بطبيعة الحال! وهل هناك خير يقارن بذلك؟ تحدثي، تحدثي مثل العصفور الكاذب الذي يبيض ويطير ناكراً بيضه! إذا لم أكن أعرفك أنا، فمن يعرفك؟

ـ أبي الذي جئت من صلبه!

ـ ليس مثلي، وقد امتلكتك عندما كنت شابة وندية!

واستمرا في نبرة غزلهما الفظ من دون كلمات فاحشة.

أعتقد جازماً أني لو لم أكن حاضرة لدفع الطيب الأمور إلى ما هو أبعد، على الرغم من بداية تداعي حسونة.

قدمت لنا القهوة، وهي ترمق بطرف خفي الطيب، الذي قام بحركة معبرة بضمها وسحقها في حضنه.

وصل التيجاني، وبدا أنه لم يفاجأ لوجودنا في الخيمة رفقة زوجته.

وكان التيجاني هذا يرتدي أسمالاً أوروبية قديمة، وشاشية.

ومع ذلك، فهو أحد الأبطال الخفيين لمعركة الشعبة الحمرا، حيث توفي العريف مارشال.

اقترض التيجاني، المدني البسيط بمحض إرادته، بندقية من أحد اليهود، وانطلق راجلاً يعدو رفقة رجال السباهي الممتطين صهوات جيادهم في مطاردة الجيش.

عندما ذهب الزوج لإحضار بغلته، أخذت المومس المتعقلة تسائلنا بطريقة ودية، وتحدثنا عن نفسها.

كانت تعيش هناك حيث يلعلع البارود كل يوم، ومع ذلك فهي تحتفظ بلامبالاة مدهشة. ضحكت وهي تتحدث عن الجيوش المختبئين في مكان قريب في دغل بني سمير.

قالت متفكهة إن من ضمن أولاد عبدالله اللصوص فتياناً وسيمين وفخورين وإنها كانت مستعدة لاستقبالهم لولا خشيتها من سكين زوجها.

قالت كل ذلك بغنج كبير اتجاه الطيب. ومع ذلك، فقد كان يعبر وجهها الذي بدأ يهرم ظل حنين عندما تتحدث عن تلال جبل عمور حيث ولدت.

ظهور غريب لتلك الفتاة التي لم يذوِ شبابها بعد في ذلك المشهد الذي تطغى عليه الحجارة والغبار في تلك الأيام المضطربة!

* * *

رحلنا راكبين بالتناوب بغلة التيجاني العرجاء.

ألقى علينا الرجل الخدوم خطاباً طويلاً ليثبت لنا أن دابته جيدة مع ذلك.

ومن دون أن ينصت له الطيب اللامبالي، راح يغني عن العموريات الجميلات ذوات الأوشام، والركض الطويل على متن جواد في الطرقات القاسية، وحرب المناوشات، والقدر القوي جداً.

أما أنا، فرحت أنظر إلى آفاق الطبيعة وهي تتمدد، وهي تصير أكثر هدوءاً، وأكثر تناغماً عند الخروج من متاهة الحجارة، التي يمر بها خط السكة الحديد، تقريباً منذ عين صفرا.

أخذ سور بني سمير يبتعد إلى الغرب، وبدأ وادي الغرب ينفتح. رمال صفراء أخذت تتموّج، مع وفرة نبات الدرين الرمادي، نبات الجنوب الأكثر صلابة، والأكثر حزناً من حلفاء الهضاب العليا.

وعلى صفحة الرمال تركت رياح هبت حديثاً طيّات دقيقة وموجات خفيفة، منحت ذلك الموقع الصحراوي طابعاً بحرياً بعض الشيء.

ألفينا عند قدم قمة جبل تافشتالت المستديرة دوار المخزن لواد الرمل، وهو عبارة عن حوالي عشرين خيمة منخفضة، من الخيم الخاصة بالبدو الرحل، ذات خطوط سوداء ورمادية، مسطحة أرضاً بوجل.

كان المخازنية الذين جنّدوا من كل مكان تقريباً من عمور يعسكرون هناك رفقة نسائهم وأطفالهم من أجل حراسة خط السكة الحديد، والجبال المحيطة حيث يكمن اللصوص.

وكانت الجياد الصغيرة المشكولة بين الخيام تأكل بحزن أكوام الدرين.

وكانت بعض العنزات تلعب مع الأطفال، والكلاب التي ما إن رأتنا نقترب حتى أخذت تهتز وتصلبت وأضحت شرسة بعيون حمراء قانية.

كان يخيم على معسكر الجنود المسلمين ذاك جو مهيب من الوحدة والحزن.

استقبلنا شيخ الدوار عبد القادر ولد رمضان برزانة، وهو شاب بوجه ذكي ومتحفظ.

وأضافنا المخازنية الطيبون بحفاوة في خيمة كبيرة فرشت بالحايك الصوفي الأحمر، وقدموا لنا الشاي المغربي بالنعنع، والكعك والزبدة. وأخبرونا بالتهديدات الدائمة والهجمات والملاحقات في الجبال، وحيل المتسكعين كما لو أنها أشياء عادية جداً وطبيعية جداً.

وهناك أيضاً ما من فكرة عن الحرب بالمعنى الصحيح للكلمة، وقتال عرق لعرق، ودين لدين.

فالمخازنية لا يتحدثون إلا عن قطاع الطرق واللصوص. وهم أناس بسطاء جداً وبدائيون جداً بأجساد ضخمة وبطيئة، تميز البدو الرحل. وهم رعاة وسائسو جمال، ويستمرون في حياتهم الاعتيادية من دون أن يغيروا بها شيئاً تقريباً، ببرانسهم السوداء الخاصة بمخزن عين صفرا.

وصفهم الطيب بكلمة فرنسية ساخرة بعض الشيء، وخاصة بالسباهيين حين قال: «ليسوا أذكياء».

*
* *

كان الجو حاراً داخل الخيمة المزدحمة بالرجال نصف الممددين والمتكئين على ركبهم أو على كتف من يجلس إلى جوارهم بطريقة أخوية.

وفي النصف الثاني للخيمة، خلف بُسط من الصوف الأرجواني ذات انعكاسات رائعة، كان يسمع حفيف نساء وهمس، حيّرا رفيقي، ومع ذلك فقد كان يبذل جهداً كبيراً لئلا يبدو متأثراً بما تثيره لديه مجاورة النساء.

تركنا الظل الخانق للخيمة، وتبعنا الطيب رغماً عنه. خرجنا لنتمدّد على الأرض الرملية أعلى الواد الجاف الذي يمثل بالنسبة للمخازنية الحدادة، أي حدود المغرب المثيرة للمشاكل.

مرت نسمة خفيفة على الرمال الدقيقة، وبالكاد أحدثت حفيفاً في الدرين والعناب الشائك المنغلق على نفسه والمنيع مثل نباتات بحرية.

كان هدوء كبير يعم ذلك البلد النائي، وذلك الدوار ومجموعتنا الصغيرة. فحولي، كان هناك حوالي عشرة مخازنية نصف ممددين، بوجوه معتدلة وذات همة، وكلهم تقريباً بملامح صافية جميلة.

مالت الشمس على قمم الجبال المذهبة، وداعب البريق الوردي الرمال، مضيئاً أسفل النباتات القاسية. ساعة راحة أخرى، مثل استراحة في حياتي، ساعة من اللامبالاة والحلم المضطرب بحزن والذي لا يكدر بندم أو بالرغبات!

ومضى النهار، وظهر فجأة من خلف الدغل بدوي بأسمال بالية، تقدم نحو قائد المخازنية عبد القادر ولد رمضان وتحدث إليه بصوت منخفض.

قام القائد وقد علا الكدر وجهه:

ـ قوموا!... وأنتم أيضاً، إذهبوا في الحال، واجمعوا كل الداوب وسط الدوار. هناك جيش من أولاد عبد الله على بعد نصف ساعة منا.

جيش! بدا لي في البداية أنه أمر لا يدعو إلى القلق. إضافة إلى ذلك، هل يجرؤ اللصوص على مهاجمة الدوار وفيه حوالي عشرين بندقية؟

ومع ذلك، فقد امتثل المخازنية للأمر، فذهبوا متذمرين بعض الشيء لتجميع الأحصنة، والبغال والماعز التي تمر جوار الدوار. وكل الخراف التي كانت متواجدة شمال عين صفرا، كانت بأمان.

... ثماني ساعات. لم يطلع القمر بعد. كنا متكئين على الزرابي في الخيمة. وكان الظلام حالكاً، وسمح لنا عبد القادر بأكل الكسكس بالشعير وشرب بعض كؤوس الشاي قبل أن يأمر بإطفاء كل الأنوار، ووضع القائد أيضاً حراساً منبطحين في جهات الدوار الأربع، ورفع المخازنية جوانب الخيمة من جهة الخلاء وانبطحوا جوار بنادقهم الملقمة.

وكانوا يرصدون الليل بعيونهم الأشبه بعيون السنوريات.

أضحى الأمر مقلقاً الآن.

وهكذا بدأت سهرة طويلة، وكان الحديث يتم بصوت منخفض، ويختبئ بعضهم من أجل التدخين. وكان الصمت ثقيلاً لا يكسره سوى غناء مخنوق ورتيب في خباء مجاور لامرأة تهدهد صغيرها.

وفجأة أخذت الكلاب تنخر من دون صوت، وارتعد المخازنية وأوقفوا أحاديثهم

ودعاباتهم، وازداد هيجان الكلاب، وسرعان ما أضحى ذلك صخباً، وأخذت تتقافز بنباح غاضب على أقمشة الخيمة، وأخذت تتراكض مثيرة الغبار علينا.

خاطبني الطيب قائلاً:

ـ هل تسمع؟ إنها تنبح في كل الاتجاهات. إنهم هنا، وهم يحاصروننا في هذه اللحظة. آه! يا السي محمود، لو كان لدينا على الأقل، أنا وأنت، بندقيتان!

لم يكن ما شعرت به خوفاً. لكن كل ذلك المشهد، كل ضجيج الكلاب مع أولئك الناس الذين يريدون القضاء علينا، والذين كانوا هناك، في الليل، وقريبين منا، والذين لم نكن نراهم، أحدث كل ذلك في داخلي انطباعاً غريباً بحلم مزعج قليلاً، ومع ذلك أحسست الرغبة الطفولية بأن يتم الهجوم وأن يحدث أخيراً شيء ما.

دام ذلك أزيد من ساعتين.

انتهى الأمر بالطيب بأن غالبه النعاس فغمغم قائلاً:

ـ فليأتوا إذن أو فليذهبوا إلى الجحيم!

مازحه أحد المخازنية قائلاً:

ـ إذهب وأخبرهم بأن يرحلوا، ستقدم لنا خدمة!

انتهينا جميعاً مازحين وضاحكين من تلك المغامرة المملة ومن أولئك الرجال الذين لا يريدون الهجوم أو الرحيل.

قال عبد القادر برزانته عينها:

ـ لا شك أن عددهم قليل، ثم ما دام ليس هناك ضوء بالدوار وليس هناك من دواب في الخارج، فهم يعلمون بأننا نعلم بأمرهم.

وكان المخازنية على وشك إطلاق صرخات سخرية وسب الجيش غير المرئي بيد أن خوفهم من القائد منعهم من ذلك.

غير أن الهدوء عاد شيئاً فشيئاً، وصمتت الكلاب، ونمنا.

وكان هناك إنذار آخر وسط الليل. ونزلت الكلاب مجدداً فوق رؤوسنا مزمجرة، وغمغم المخازنية قائلين: ألا نستطيع أن ننام بهدوء!

سهرنا منتظرين. لا شيء. عاد الهدوء ليحل بالدوار مع البرودة التي تسبق الفجر عادة، ونمنا بعدها نوماً مضنياً وعميقاً.

إنه الفجر، اللحظة الأكثر ألقاً في الصحراء. استقيظت على الهمسات الجادة للمخازنية الذين يؤدّون الصلاة في الخارج. كانوا غارقين في الضوء المتقزح للنهار الجديد.

وحول الدوار، وعلى بعد حوالي مئتي متر، فحص المخازنية آثار أقدام الجيش. كانوا حوالي عشرين رجلاً راجلين.

رحلنا صاعدين نحو صخور حجيرة مغيل المكسرة.

القرية الميتة

ومجدداً، أخذ القطار الصغير مساره ببطء عبر الأماكن الموحشة. ومرت المحطات مع توقفات طويلة.

جناين بورزق، والسهل الحار، والمعقل الكبير أحمر اللون، وبعض الأكواخ المنعزلة.

والآن ديفريي، وزوبيا العرب الواقعة في سلسلة من التلال الحمراء والصخور السوداء.

توقف خط السكك الحديد الصحراوي حديثاً هناك، وأنشئت القرية بحيوية على النمط الأوروبي، فالمنازل منخفضة على أرض كئيبة حيث تتقاطع أغاني منفيي اللواء، وحيث فتحت المطاعم والحانات والأكواخ الخشبية الصغيرة بأسطحها الصفيحية، حتى إن مُسِنّة جريئة جلبت معها العديد من المومسات التائهات من مواخير سعيدة وسيدي بلعباس.

وكانت مجموعات من الإبل تنوخ في الشوارع الرملية قبل أن تقصد مراكز الجنوب النائي لمدّها بالمؤن.

وكانت ديفريي منبع النهر الغزير الذي يتدفق باتجاه الصحراء، وقد حل الرخاء بها خلال بضعة أشهر بشكل واضح، فقد أخذ الناس يفتنون بها، وهاجروا إليها من أماكن متفرقة يجذبهم طُعم التجارة غير المشروعة والمزعجة غالباً.

وأثناء بعض المعاملات يهمس بصوت خفيض الإسم الذي يملأ منذ ٢٥ سنة الأمداء في الجنوب الوهراني، الإسم القديم والأسطوري تقريباً، والذي يتردد بشكل مزعج وبغرابة هناك حيث هو حقيقة: بوعمامة.

في أحد الأيام تجاوز خط السكة الحديد الصغير خطا السكة الحديد اللذان يمضيان لامعين ومنعزلين عبر الصحراء، واجتازا ديفريي ليتوقفا في مكان أبعد، قبالة فيكيك الفاتنة. وانبعثت بين عشية وضحاها مدينة أخرى، قبل أوانها تماماً مثل أعشاب الصحراء تحت أمطار فصل الشتاء الأولى، واختفت حياة ديفري العابرة، التي امتصّتها الوافدة الجديدة بني ونيف لفيكيك.

. . . واليوم، وفي ضوء الصباح الوردي، تمنح ديفريي انطباعاً فريداً للهجر السابق لأوانه، حيث البيوت بجدران ماتزال حديثة لكن من دون أسطح، وحيث الأبواب السوداء المقعرة، والنوافذ المشرعة، وحيث حمل التجار الغشاشون كل ما استطاعوا حمله في هجرتهم السابقة لأوانها، العارضات وزجاج النوافذ والقرميد. وأضحت الحانات المغلقة أو التي خلعت أبوابها أنقاضاً وملأتها الرمال، وبدا كأن كارثة أو حريقاً أو فيضاناً حل بتلك القرية التي ولدت بالأمس فقط، وأحالها إلى صمت الصحراء الأبدي.

وكانت تلك المنطقة المهجورة مع خرائبها توحي بحزن بالغ.

وحدها الحامية الصغيرة كانت تمنح ديفريي بعض مظاهر الحياة عبر اللون الأحمر الفاقع لبرانس السباهيين على طول الشوارع، أو الأزرق للباس الجنود القنّاصة.

الكل يقصد المحطة لمشاهدة مرور القطار وما يمثله ذلك من تسلية حزينة. . . وتمضي الحياة إلى البعيد.

. . . حصلت مفاجأة، فيدفريي كانت انعكاساً للأشهر المقلقة التي مضت، ذلك أن زمرة من الجنود المسلحين صعدوا القطار، تحسّباً لوقوع هجوم.

ورغم كل ذلك، ومرة أخرى، تماماً مثل ما حدث بعين صفرا وبواد الرمل، لم يكن هناك أي شعور حقيقي بالخوف في هدوء السهل المشمس الكبير وابتسامته.

بني ونيف

زوسفانا جسر حديدي رمادي اللون وبشع جداً، ولا يناسب الطبيعة المحيطة حيث الحلفاء والقصب والدفلى.

وكان الواد يدفع ماء عكراً وأحمر اللون إلى حصبات بيضاء. ووسط التيار مجرى صاف دقيق لبعض المنابع المجاورة.

وفي إيغلي تشكل زوسفانا مع نهر غير القادم من الغرب واد ساورة الذي لا يجف أبداً، وتخضر ضفتاه في عز فصل الصيف حول البرج الصغير المحروس من قبل الجنود، وأكواخ تستخدم كمحطة.

والجو هناك رطب وحار، مع بخار أبيض يحجب الأماكن البعيدة.

ثم هناك على اليسار سهل جنان الدار الكبير حيث الأفق الأحمر والصافي. وفي البعيد هناك جبل سيدي مومن الذي ينتصب من جهة الجنوب، وأرض مسطحة مربعة بشكل هندسي. دخلنا وادي بني ونيف ذي التربة المفتتة والمشكل من تلال قاحلة تنفرج غرباً عن أفق متأجج.

لا مثيل لبلد الغبار والحجارة ذاك، بلد المناطق المحبوبة للجنوب الشرقي حيث الكثبان النظيفة الكبيرة، وكثبان صوف الصافية والمتقزحة، والسبخات الشاسعة وبساتين النخل الغريبة في واد رير المالح!

. . . وإلى اليمين تنتصب فيكيك، سلسلة من الجبال الشاهقة المتدرجة في صفوف متناسقة. . . ولم نر إلا بساتين النخيل، ودوماً في خلفية محايدة بلون يشق تحديده غير أنه محتدم، حيث البقع السوداء لأشجار النخيل.

. . . وأخيراً بني ونيف، وهي محطة صغيرة مع الحزن المؤثر لخطي السكة الحديد اللذين ينتهيان فجأة قبالة المدى اللامتناهي.

وإلى اليمين، المعقل المنخفض الناصع البياض والمهدم.

وفي الخلف، أمام الدفق الأخضر القوي لقمة زناغة ذات الخطوط البسيطة والواضحة، باللون البنفسجي الداكن، والتي تؤطر اجتياح النخيل، يقوم قصر بني ونيف القديم على ذلك المنحدر الناعم كناية عن ركام من الأنقاض بلون ذهبي شاحب وأصفر مائل إلى البرتقالي المتوهج في المخمل القاتم لبستان النخل.

***

وسط الخرابات، وفي أماكن متفرقة، شوارع صغيرة ما تزال قائمة، مأهولة، ومغطاة مثل كل الشوراع القصرية بروافد النخل الصغيرة، وشوارع معتمة وندية حيث أقيمت في سمك الأسوار مقاعد تجري عليها نقاشات الجماعة البربرية المملة.

وفجأة، برزت بقع شمسية قاطعة الظلال الزرقاء والظلال الصفراء القاتمة للممرات المغطاة.

وفي أماكن أخرى، بين الأنقاض، بيوت نزعت أبوابها لتظهر بقايا أثاث متواضع من أوانٍ طينية مكسرة، وخرق بهتت ألوانها بفعل الشمس وآثار دخان أسود على الجدران فاتحة الألوان.

انسحبت الحياة من القصر العتيق لتقصد القرية الجديدة النافعة والصاخبة والقبيحة.

وإلى الجنوب تنحدر البيوت حتى عمق الواد الجاف والضفاف بنزق. وهناك تسود رطوبة البساتين المفصولة بأسوار ترابية صغيرة لاعتراض أشعة الشمس الحادة.

وفي أماكن متفرقة، توجد الفجاجير وهي ينابيع باطنية محصورة وموجّهة عبر ممرات سالكة في الغالب تحت البساتين، وتحت الشوارع. مدينة بأكملها مفعمة بظل أبدي وبغموض حيث تختلط في أيام فصل الصيف القائظة ضحكات وأصوات النساء اللواتي يغتسلن. وهناك يأخذن لون وجوههن الشاحب وفتور حركاتهن.

وفي الأعلى، باتجاه الغرب، أخدود واسع وسط الأنقاض، يعبره ممر ماعز ضيق، ويصل حتى الحصن العتيق، الذي يبدو سليماً تقريباً في ذلك المكان. والقمة وحدها آخذة في التفتُّت ببطء مشكّلة بتجاويف غريبة.

ويفتح باب حذر صغير وضيق ومنخفض جداً حد انثناء المرء إلى نصفين للمرور عبره على المقبرة الكبيرة التي لا سياج لها ولا توحي بالحزن ويغيب فيها الإحساس بالموت في رتابة المنظر الفارغة.

وخلف القبور، بين بعض مجاميع النخل النحيلة تقوم قبة سيدي سليمان.

وتمضي الساعات رتيبة على القصر المحتضر. وعلى الصلصال الكامد للحصن، وحده ذلك الجزء من السماء الذي يقتطعه الباب يتغير لونه من خبازي الصباحات المتقزح إلى الأزرق المتأجج لفترات منتصف النهار، فالأحمر القرمزي المبقع باللون الذهبي لأوقات الغروب، فالألوان البحرية الشفافة لليالي القمرية.

وفي الليل يبدو الباب كأنه ينفتح على سعير تهبط انعكاساته اللاهبة إلى عمق الأنقاض.

وفي القصر كما في القرية، ومثلما هو الحال في كل مكان بواد بني ونيف، يغشي غبار الكلس المحمر الأشياء ويجعلها كامدة ويتطاير ضاغطاً في الهواء المحرق أيام العجاج[1].

المارة قليلون هناك.

في بعض الأحيان، يمر فلاح دافعاً أمامه حماراً صغيراً اختفى تحت حمولة جريد تحتك بالجدران محدثة صوتاً معدنياً. يمشي الرجل مشوّش النظرات واضعاً على كتفه عصاً يمسكها مستقيمة بحركة كهنوتية تماماً مثل تلك الشخوص التي تُرى على النقوش المصرية. كان يغني لنفسه فقط بصوت منخفض أغنية شجية بربرية قديمة، ويتبادل السلام بطريقة خفية مع الأشباح البيضاء الثابتة جوار الأسوار. وتظهر عجوز منحنية تحت قربة ثقيلة. ويتبادل القصريون، وهم البربر البيض أو الحرطانيون من السكان الأصليين السود، أحاديث لا تنقطع وهم جالسون أو شبه ممددين منتشين بالظل والسكون الطويل.

والزواوة، وهم عرب اختلطوا كثيراً بالبربر، يغطون أجسادهم الهزيلة بأثواب صوفية بيضاء غليظة. أفقر دفق الدم القصري القديم عبر القرون وهجّنت الحياة الناعسة دوماً في الظل دمهم العربي ولم تعد لهم هيبة أو صلابة البدو المرنة. إلا أن بعضهم وسيمون مع ذلك، غير أنها وسامة مخنثة وشاحبة مثل وسامة الشبان في ملتقيات الطرق بقرطاج. وهم حرفيون وكتاب وليسوا رجال حرب.

ومع ذلك، يمكن تمييز الزواوة عن الفلاحين ذوي العرق البربري الخالص، فهم يتحدثون اللغة العربية فيما بينهم ويشكلون جماعة منعزلة، وهم جد فخورين بأصولهم الصوفية، ويدّعون بأنهم جميعاً من نسل سيدي تاج المتحدر من نسل سيدي سليمان بو سماحة وسيدي الشيخ. وهم بذلك أقرباء بوعمامة.

والزواوة الذين بقوا ببني ونيف بعد هجرة أبناء جلدتهم تابعين بوعمامة يعيشون على ما تنتجه بساتينهم، وأيضاً على ريع الزيارة أي ما يقدم لسيدي سليمان من هبات يقتسمونها في ما بينهم.

ورئيسهم اليوم هو بوّاب القبة ويدعى بن الشيخ. وهو رجل في حوالي الأربعين

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، وتعني الزوابع الرملية. المترجم.

من العمر، يرتدي ملابس تجعله يبدو فقيراً ويقوم بحركات لطيفة ومتملقة. وهو على الرغم من وجهه الهزيل المسمرّ وعينيه المتهرِّبتين يوحي بالمكر والإرادة.

وأدنى منزلة من الزواوة والفلاحين البربر البيض في السلم الاجتماعي الحرطانيون سكان الصحراء الحقيقيون. وتجري في عروقهم دماء سوداء صافية تقريباً. وهم طوال القامة، بأطراف طويلة هزيلة وبوجوه ممدودة بارزة العظام، ويشبهون كل القبائل السوداء المتفرقة في الصحراء. وهم يتكلمون الشلحة، اللغة البربرية التي تقترب قليلاً من لهجة مزاب الزناتية.

وهناك سود أيضاً، وهم عبيد قدموا من توات ومن غورارة، وحتى من السودان، ويتحدثون بلهجات من أصل زنجي معروفة تحت الإسم العام كوريا.

بعد أن غادر الزواوة بني ونيف بأعداد كبيرة بعد الاحتلال الفرنسي بقي الحرطانيون كسادة للبلاد، وهو ما يفسر، إضافة إلى بعض الأسباب السياسية، تعيين أحدهم ويدعى بوشتة قائداً، وهو الشيء الذي أثار حنق الزواوة.

والبيض كلهم، بمن فيهم القصريون البربر، يحتقرون الحرطانيين الذين كانوا إلى وقت قريب عبيداً لهم. وتماماً مثل اليهود، لم يكن للحرطانيين من صوت داخل الجماعة مع أنهم مسلمون.

وكان منظر القائد بوشتة الخارجي يثير الضحك. كان طويل القامة، بذراعين طويلتين وبمظهر أخرق ومن دون شرف في سلوكاته. فبوشتة لم يكن يلبس برنسه الأحمر الجميل، ولا يبدو بهيئة رصينة إلا أيام الأعياد لمقابلة القادة الفرنسيين.

والزواوة يسخرون من القايد في العلن، ويلقبونه بالحرطاني أو العبد[1].

ويتظاهر بوشتة المبتهج، بابتسامته الواسعة التي تبدي أسنانه الصفراء وبحركاته الأشبه بحركات قرد، بأنه لا يلاحظ شيئاً محتفظاً في صدره بالخوف من الأولياء.

الصغيرة فاطمة

والأطفال هم الشيء الحي الوحيد، والشيء المفرح الوحيد في صمت مدينة الأموات حيث حزن القصر الحنيني.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

والأصغر سناً على الخصوص هم الأكثر طرافة، وهم سود في غالبيتهم، بقمصانهم القصيرة جداً، وعلى رؤوسهم الحليقة خصلة شعر صوفية مزجت بصدفات دقيقة أو تمائم.

وهم على حداثة سنهم تعلموا أن يسألوا ضباط الصف الذين يمرون جوارهم، وأن يتقافزوا حولهم، ويضربوا الأرض بأقدامهم، ويتصارعوا بلطف ومداعبات القطط الصغيرة، ويتقاتلوا بحدة أكبر من أجل القطع النحاسية التي تلقى إليهم، ويتكوروا وينغمسوا في التراب.

وقائدتهم هي الصغيرة فاطمة.

هي في الحادية عشرة من العمر، ولها جسد مراهقة مَشيق يختفي خلف أسمال من الصوف الأخضر، مشدودة على صدرها الهزيل بمشبك فضيّ مطرق بديع زُيّن بمرجان شديد الحمرة نادر.

والصغيرة فاطمة خلاسية، بوجه مدور وبخدين مخمليين وبلون نحاسي حار، وهي وقحة وحنونة في الآن عينه، بعينيها المداعبتين، وشفتيها اللذيذتين. وبعد سنوات قليلة ستغدو فاطمة جميلة جداً وفاجرة جداً.

كانت تقود التحليق الصاخب للأولاد السمر والسود، وتركض عبر الخرابات مطلقة ضحكتها كجنية حمقاء، لتظهر فجأة وهي تجلس على نحو خطر على شرفة مهدمة أو على منحدر جدار منتصب. كانت تتوسل، وتتظارف، وتبتسم.

رأيتها يوماً تشكر ضابطاً رومياً ممسكة يده بين يديها الفاترتين قائلة بجدية مزعجة «أحبك كثيراً يا سيدي!». ابتسم الرجل وأرجع هذه المداعبة لرغبتها في الحصول على المزيد من القطع النقدية. وهكذا فقد تكدر وجه الصغيرة فاطمة بحزن، وهزت رأسها وعادت لتقول: «كلا، كلا، ليس الأمر كما تظن. أحبك هكذا في سبيل الله!» وهو ما يعني في اللغة العربية أن حنانها المفاجئ كان مترفعاً.

كانت إنسانة صغيرة غريبة، لها روح فاتنة غير أنها مخيّبة للآمال، وفارّة من الخرابات المحمرة.

سيدي سليمان

أحسست اليوم شعوراً قوياً بالعودة بالزمن إلى الخلف، إلى القرون الغابرة. ذهبت لزيارة قبر سيدي سليمان بو سماحة في صبيحة قائظة.

وكانت هناك سياسة رشيدة تقضي باحترام الحساسية الإسلامية حفظت حتى اليوم حصانة القبة فلم يدخلها أبداً شخص مسيحي، بمن في ذلك الضباط.

ولما كنت مسلمة فقد أخذوني إليها، ذلك أن سيدي سليمان هو شافي المرضى الكبير.

ذهبت مع بن الشيخ، قائد الزواوة إلى قبر الولي الكبير.

وبعد أن مررنا بدهليز طويل استدرنا يميناً، وخلعنا حذاءينا.

كان المصلى أسفل القبة.

وكان القبر يتوسط غرفة صغيرة شديدة البياض، ومضاءة من الأعلى بشكل غريب. وكان القبر من الخشب، هرمي الشكل، ومغطى بأثواب حريرية حمراء وخضراء.

ومثل كل شيء في ذلك المكان كان لتلك الأثواب سحر القِدَم الكبير بألوانها الحائلة والملطفة في الظل الأزرق.

وكانت هناك شبكة مصنوعة من الخشب، وهي قديمة جداً حد أنها تتفتت بمجرد لمسها، تحيط بالقبر وتحاصره من مكان قريب، وثمة مسابح ثقيلة من الخشب المعطر بحبات كبيرة مثل تفاحات صغيرة علقت عند قدمي ورأس الولي.

وبفعل نزوة غريبة وضِعتْ هناك ساعة أوروبية قديمة نُقِشَت على عُلبتها الخشبية بعض الأزهار البسيطة باللون الأحمر الزاهي، والأزرق والذهبي.

بأية صدفة، وبعد أي تقلّبات وجولات انتهت تلك الساعة في ذلك المزار الفيكيكي؟ لعلها ثمرة سرقات بربرية مجهولة تمت عند السواحل الإيطالية أو الإسبانية وأرسلت كقربان على ظهور الدواب عبر المغرب...

وتوقفت حركتها عند منتصف النهار أو منتصف الليل المنسي، ولا شيء أتى ليزعج الصمت التقي.

كانت بعض الشموع العسلية العذراء ومبخرات الجاوي تثقل الجو تحت القبة الواطئة.

وكان هناك شخص مسنّ شديد البياض والانحناء تحت أثواب نظيفة يتلقى الزيارة أي الهدايا، وأتبعنا بمباركته الهامسة بصوت منخفض كما لو أنه آتٍ من بعيد.

عُدْنا أدراجنا وبهرني في الخارج الضوء الغامر في السهل الأجرد حيث انتشرت العديد من القبور.

رواية أخرى:

زيارة قبة سيدي سليمان بوسماحة في صبيحة حارة جداً وصافية جداً من شهر تشرين الأول/أكتوبر. راودني إحساس شديد بالعودة المفاجئة للقرون الغابرة حيث الإيمان والسكون.

حتى لا تُجرح الحساسية المحلية، وخاصة الحساسية المجاورة (فيكيك) احترمت سياسة رشيدة حتى الوقت الحاضر حصانة المعبد، فلم يدخله أبداً أي شخص مسيحي. واكتفى الضباط الفرنسيون في عهد الاستعمار بتلقي طاعة القصريين في الممر الخارجي للقبة.

قصدت مقام الولي الأكبر للجنوب الغربي رفقة بن الشيخ.

بعد الدهليز المبلط، استدرنا إلى اليمين، ونزعنا حذاءينا. إنه المقام. كان القبر وسط قاعة صغيرة ناصعة البياض ومضاءة بشكل غريب من الأعلى. وكان القبر من الخشب هرمي الشكل، ومغطى بأثواب حريرية حمراء وخضراء.

ومثل كل شيء بذلك المكان، كان لتلك الأثواب القديمة سحر القِدَم الكبير، بألوانها الحائلة والملطفة في الظل الأزرق. وكانت هناك شبكة مصنوعة من الخشب قديمة جداً حد أنها تتفتت تحت الأصبع، وقد أحاطت بالمقام. وبفعل نزوة غريبة وضعت هناك ساعة أوروبية عالية جداً، وقديمة جداً نقشت على علبتها الخشبية بعض الأزهار باللون الأحمر الزاهي، والأزرق والذهبي.

بأي صدفة غير متوقعة، وبأي تقلّبات فريدة أتت تلك الساعة لتنتهي هناك وسط الصحراء عند أبواب فيكيك؟ لربما يرجع ذلك إلى سرقة بعيدة لا يعرف من قام بها على السواحل الأندلسية وقدمت كقربان بعد رحلة عبر المغرب...

وتوقفت حركتها منذ مدة طويلة من دون أن تزعج الصمت التقي. وهناك بعض الشموع العسلية العذراء، ومباخر الجاوي التي أثقلت الجو تحت القبة الواطئة.

وكان هناك مُقدَّم طاعن في السن ومقوس جداً يضع أثواباً صوفية نظيفة يتلقى الزيارة، وقد رافقنا بالدعوات الهامسة بصوت منخفض... خرجنا وبهرني الضوء الذهبي الغامر في السهل الأجرد، حيث نثرت بعض الحجارة الرمادية القاتمة ممثلة قبوراً لا تعد ولا تحصى.

وباتجاه الجنوب، والجنوب الغربي للقرية، كانت تلة صخرية مرتفعة تحجب الأفق. وعند سفح السور الترابي مكان ساحر: في عمق سرير الواد الجاف تُرى مجموعة من النخيل والدفلى حول بئر.

هناك كان يُصنَع آجرّ من الطوب وحفرت التلة فبدا المقلع مفتوحاً مثل جراح وردية بدفق أحمر. وكان هناك عمال مغاربة بملابس أوروبية، وبعمامات منخفضة يعملون وهم يغنون تحت أوامر إسباني مسن مدبوغ وأسمر بوجه فظ وخشن بسبب لحية مهملة، جعلته يبدو كقرصان.

وليس هناك من شيء باتجاه واد بن زيرق وبشار، حيث السهل الأجرد، والحمادة المبلطة بالحجارة السوداء المقطعة إلى ضلوع مسننة. وباتجاه اليمين كانت هناك الجبال المرتفعة والتي تتغير ألوانها، وبستان نخيل صغير تابع لملياس عند مدخله ممر عميق. كان ذلك أيضاً مخبأ الجيوش، وهو مكان غير آمن قليلاً كما يقال، ويبدو هادئاً ومقفراً عندما ينظرِ إليه من بعيد، وهو يواجه المنظر الكبير والرائع للسهل وللتلال.

ومن ذلك الجانب تزيّف نزوات الضوء حقيقة الأشياء، مقرّبة ومبعدة تموجات الطريق بشكل فريد. ذات صباح بدت لي مجموعة من الإبل كانت ترعى عند أسفل الطريق في البعيد، وفجاة أخذت تكبر وتتغير أشكالها لتصير عملاقة... ولما استدارت الشمس راحت تتضاءل تدريجاً حتى كادت تختفي في الضباب الساطع.

يوم أحد في القرية

كانت السماء ملبدة بالغيوم، وريح الشلوق تهب بأنفاسها الحارة، وبمداعباتها الحارقة والقاتلة على الرطوبة للأجساد المتشنجة.

وبدأت الجلبة والصراخ في المقاهي المغربية، العودة إلى بشار، ونجمة الجنوب، وأم الجندي، وواحة فيكيك. ويحمل جنود الفوج إلى الحانات مسحة يأس وندم مسترسلة بالثمالة المعاندة والمريعة لرجال الشمال. وتعكس الأبواب المفتوحة دفقاً من النور الأحمر على الرمال في الشوراع المعتمة. ثمة تكدُّس مشوّش للمعاطف العسكرية الزرقاء علي المشارب الخشبية ويسيل شراب الإبسنت المسكر، وتهب ريح الشلوق.

تدبُّ الحرارة في الأجساد، فترتفع بلبلة الأغاني حيث تختلط لهجات جرمانية أو باتافية بطيئة وأغان إيطالية ومقاطع صوتية مبحوحة تعترضها لهجات إسبانية.

فجأة، ومن دون سبب جلي، ينطلق دفق من الانفعالات العاطفية التي تبدو طريفة للوهلة الأولى غير أنها في الواقع حزينة حدّ البكاء لأنها تصعد من أعماق الألم الإنساني لدى كل أولئك المحرومين الذين لجأوا إلى الحياة العسكرية القاسية في الجنوب.

وتبدأ المعانقات بين الرجال السكارى، وغالباً ما تنتهي بالمشاجرات وتبادل اللكمات، وفي بعض الأحيان بالدم.

وتمر في الخارج دورية يضع أفرادها بنادقهم على الأكتاف، منتظرين بجدية المشاجرات المتوقعة، والسقطات التي لا يمكن تلافيها.

وفي أحد مطاعم الجنوب كان شاب ألماني شاحب يعزف على الأوكورديون بينما كان آخرون يرقصون.

والمقاهي المغربية هي قاعات بيضاء فارغة، في أحد أركانها الوجاق وعلى الألواح الخشبية تزاحم صدفي للأكواب الخزفية، وبريق كؤوس الشاي الصغيرة المختلفة الألوان، والشموس الشاحبة للصينيات النحاسية.

هنا، الموج الأزرق المعتم لِزيّ الجنود القناصة، مع الإزهار الأرجواني للشاشيات، والتزاحم القرمزي للسباهيين المعتمين بعمامات بيضاء عالية ذات شرائط شقراء أو سوداء، وهنا أيضاً البرانس الزرقاء للمخازنية الذين تلتمع جُعبهم ببريق نحاسي بفعل أشعة المصباح الحمراء، والبرانس البيضاء والترابية للبدو.

والقناصة هم الأكثر صخباً، فهم يلعبون الورق أو الدومينو مطلقين صرخات الابتهاج.

وهناك غناء.

كان مخازني في مقتبل العمر، طويل القامة، لطيف وهادئ، ومن دون شك سكران بعض الشيء، شبه غافٍ على كتف قناص ضخم ينفخ بكل قواه في غيطة فيخترق نحيبها الحانق ويهيمن على كل الضجيج.

قام أحد القناصة، وهو رجل ملتح، واستعار من رفاقه شالين أحمرين من

الحرير، وشرع يرقص وسط الضحكات رقصة بنات جبل عمور، مقلداً رقصهن الخليع، وارتعاش أجسادهن المصطنع.

وأخيراً، ونتيجة للحاجة إلى الحركة وبفعل السكر، أخذ القناصة يلعبون ويتصارعون، ويتدحرجون بهيجان على الحصائر وعلى المقاعد مثل الأطفال.

. . . كانت الساعة تشير إلى التاسعة، فأخذ البوّاق ينثر الأنغام الحزينة في المعقل معلناً إطفاء الأنوار، الذي يسبق أوانه هناك تفادياً للأمور السيئة.

انتشر رجال سكارى في الشوارع، وانتهى الصراخ والأغاني. وفي العتمة الخانقة كانت تسمع الحشرجة والشكوى الغاضبة جداً، وألم الرغبة الجنسية غير المشبعة للذكور المتلهفين عبثاً، منذ أشهر، من أجل عناق ومداعبة جسد أنثى.

رواية أخرى:

... بأم الجندي، كان هناك جندي ألماني شاب وشاحب يعزف على الأوكورديون، وكان آخرون يرقصون. هاجوا وسكروا، وشرعوا في نزع ملابسهم، وأخذوا يلقون بها كيفما اتفق، ثم طفقوا يكسرون المقاعد ويقلبون كل شيء... وهكذا استطاعت صاحبة الحانة، وهي قيّمة حانة قديمة، وفرس أصيلة ضامرة ومتخلعة بوجه شاحب بارز العظام، وبشعر عنق أصفر وبراس بارزة، أن تتدخل بقبضة حديدية، وصارخة أكثر من الجنود، فطردت أكثرهم صخباً...

وفي نجمة الجنوب كانت مجموعة من الضباط الذين لم يكونوا يجرؤون على السكر، وأن يفقدوا عقولهم أمام الملأ، والذين مع ذلك كان يعذبهم الملل و«الكآبة»... قد دلفوا إلى الحانة ليشربوا على مدى ساعات ببطء منصتين إلى إسبانية أدركها العمر ذات وجه ممتقع صلب، وهي تسجع بأغنية لابالوما العاطفية.

وفي المقاهي المغربية كان الموج الأزرق للجنود مع إزهار الشاشيات الحمراء، وبهوت اللون القرمزي لبرانس السباهيين. كانوا يلعبون الورق صارخين ملء حناجرهم، ومقهقهين بروعة... وكانوا يغنون.

وكان مخازني في مقتبل العمر، طويل القامة لطيف وهادئ، ومن دون شك سكران بعض الشيء، شبه غاف على كتف قناص ضخم ينفخ بكل قواه في غيطة، فيخترق نحيبها الحانق ويهيمن على كل الضجيج. وقام أحد الجنود واستعار شالين من القطن الأحمر بتشجير بسيط وأصفر كناري، وأخذ يرقص وسط الضحكات رقصة بنات أولاد نايل، بنات بلده، مقلداً رقصهن الخليع، وارتعاش أجسادهن المصطنع.

ثم لما كانوا محتاجين لأن تمسك أياديهم العطشى باللحم الحي، أخذ الجنود الثملين بالدخان وبالشاي المغربي يتصارعون متدحرجين بهيجان على الحصائر، وعلى المقاعد مصدرين صرخات قوية.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة... انتشر السكارى في رمال الشوارع. يوشك الصراخ والأغاني أن تصمت. وفي العتمة والحرارة، كانت هناك فقط الحشرجة والشكوى الغاضبة جداً، وكل الحنق، وكل الشبق الظامئ للذكور المنادين عبثاً من أجل عناق ومداعبات أنثى منذ أشهر.

الأولياء

قصر بني ونيف مساءً.

غرفة خشنة مشيدة بالطوب الرمادي القديم، كأنها كهف بجدران غير متساوية، وبسقف واطئ صنع من سيقان الجريد المسودة والمنفلتة جميعها.

كانت الغرفة الصغيرة المتهالكة جرداء، ولم يكن هناك شيء يشير إلى الزمن في ذلك المكان حيث السكون واللامبالاة الإسلامية، ولدى أولئك الناس، الذين يشهدون غير مكترثين على تداعي الأشياء، والذين لن يعيدوا بناء الخرائب أبداً.

وكانت شمعة عسلية صفراء ملصقة على الأرض المصقولة تضيء الحجرة بخفوت. وكانت رياح المساء تدخل من تصدعات السور فتتمايل الشعلة الحمراء مثيرة ظلالاً سوداء كبيرة على الجدران الكامدة. وداخل القاعة، أخذت حفر العتمة تزداد غوراً حيث تتجمع أشياء من دون شكل.

وفي الجدار، تقريباً على سطح الأرض كانت نافذة مربعة صغيرة تفتح على بستان النخيل الصغير الغافي، وعلى حمرة السماء المحتضرة، وعلى صمت السهل المطبق.

كنا شبه ممددين على شكل دائرة على حصير رث من قصب وزربية عتيقة من مزق.

وفي الوسط، على صينية قصديرية، كؤوس صغيرة بألوان فاتحة ومزخرفة بأزهار ذهبية اللون، وإبريق معدني، وقالب سكر، وكل عدة الشاي الخاصة بالضيافة المغربية من الشاي المعطر بالنعنع المفلفل والعذب والثقيل والمثمل، وهو شراب الأحاديث البطيئة بأصوات خافتة، والمقطوعة بالأحلام.

كان بن عيسى الولي الحكاء مقرفصاً على إحدى الدعامات الأرضية الصلبة، يعدّ الشاي بجدية، بوجهه الشاحب ذي الابتسامة الفاترة في أثوابه الترابية، وواضعاً مرفقيه على فخذيه. وكان يحرك ذراعيه العاريتين وحدهما في لامبالاة الجسد المتعبة.

وضعت رأسي على برنسي المطوي. كنت أنظر إلى المضيف، وكان بكل تأكيد الأفضل من بين كثيبي زواوة بوعمامة، وأكثرهم بساطة، وأقلهم حيلة.

هو درويش نوعاً ما، ومرحّب وضاحك... إلى جواره تمدد بارتخاء في وضعية سنور رشيق رفيقي المؤقت في الطريق، السباهي السابق الطيب الرزايني، وقد لفّ جسده ببرنس رقيق من الصوف الجديد، ذي الثنيات الطويلة الناعمة الملمس. وكانت ابتسامته مشوشة تكشف أسناناً ناصعة البياض، وتنير السمرة الداكنة لوجهه البدوي الجاف والمغضّن، وظل عينيه الكبيرتين القاسيتين.

رسم الوميض غير الثابت للشمعة العسلية الجسد الدقيق للمخازني طويل القامة عبد الحكيم الذي بدا كأنه أحد الكواسر. واختفى جسده البارز والصلب تحت جوخ برنسه الأزرق الثقيل. كان صموتاً وخشناً جداً وغريباً جداً في «الخدمة» بالمخزن الفرنسي.

وراءهم كانت أجساد فيكيكية جامدة حيث الصوف الأبيض يؤطر وجوهاً مشمعة. وفي الخلف بدا مثل قناع أسود وجه الحرطاني الطاهر، الأخ غير الشقيق لابن عيسى.

صمتنا جميعاً منصتين بانتباه إلى حديث المضيف بصوته الفريد والسريع والمتقطع والمعدل أحياناً بالشكوى أو الدعابة الطفولية. كان يحكي لنا قصص الماضي، والأساطير، حيث يتوالى أولياء الإسلام ومعجزاتهم، والأعمال الجليلة للسلف، وكل الحياة اللاذعة والعنيفة للبدو الرحل، والغموض والدسائس والحيل والدم التي أعتمت الحياة القصرية.

ـ هل رأيت يا السي محمود ذلك الحجر هناك في الخارج قبالة حائط البيت؟ لذلك الحجر حكاية. ففي القديم، في زمن ولينا المقدس سيدي عبد القادر محمد، سيد فيكيك ـ فليمن الله علينا من فضله! ـ كانت تقع شجارات لا تنتهي بين مختلف قصور فيكيك من أجل ماء الساقية، والفجاجير. فكل قصر بل كل مجموعة أرادت المياه لنفسها، وبالتالي الحكم على بساتين القصر المجاور بالجفاف والموت.

ولمدة طويلة حث سيدي عبد القادر محمد القصريين على التعامل بالعدل، وأن يقتسموا بطريقة أخوية الماء الذي منحهم إياه موزع كل الخيرات بوفرة. تحدث إليهم لمدة طويلة، وكانت لحديثه حلاوة وعطر العسل البري المعنبر، غير أن الملحدين لا يسمعون، وعيون ذوي الرؤوس الصلبة لا ترى حتى الشمس المشرقة. وهكذا استمر الدم في التدفق، وأيادي قاتلي إخوانهم تسارع في الغالب إلى أخذ السيف والمعول. وذات يوم، بعد مجزرة كبيرة بين الحمّامين، تعب ولي الله، وبلغ حدود الغضب، ولعن الجاحدين بهذه الكلمات: «عليك اللعنة يا قصور فيكيك التي يسكنها التجديف، والتي حمت الفتنة والوحشية! عليكم اللعنة أنتم وأرضكم حتى حجارة جبالكم!» وهكذا انفصلت عن الأرض ثلاثة أحجار مقدسة حملتها لعنة الولي ، استقر أحدها في قبّة سيدي سليمان حيث ما تزال ترى، والحجر الثاني بقي في طريق المؤمنين من أجل تعليمهم وحثهم على الحلم، وهو الذي بنى أسلافنا ـ يرحمهم الله! ـ هذا المنزل القديم جداً عليه. والحجر الثالث. . .

ـ السي بن عيسى. ما عُمر منزلك؟

هز بن عيسى رأسه بحركة مشوّشة:

ـ الله وحده يعلم، لأنه الوحيد الذي يعد السنين المتشابهة دوماً والتي تمضي على المخلوقات والأشياء التي تمر.

وكان الطيب منذ مدة مشغولاً بتحضير الكيف على قصعة كسكس مصنوعة من خشب الوزان، وأخذ يقطع أغصان وأوراق القنّب الهندي بسكين مغربية طويلة. ثم أخذ يحك القطع بيديه، ويحيلها إلى غبار ويخلطها بالتبغ المغربي المسحوق. وأخذ غليون حديدي صغير على أنبوب طويل من القصب يمر من شخص إلى شخص آخر.

وشيئاً فشيئاً، صمت كل شيء. كان صمتاً مطبقاً حيث لا شيء من الأحلام الإباحية، التي تنسب في أوروبا إلى مدخني الكيف، حلّ على المنزل القديم المتداعي، وعلى القاعة المفعمة بالظل والدخان الأزرق. وفي ساعة متأخرة، ذابت الشمعة العسلية الصغيرة وانطفأت. ونمنا في راحة عذبة، وفي قلب حلم مشوش طفا على حدود الدائرة.

آه، يا لبهجة بيوت الصدف حيث يتوهم المرء غير مبال، ووحيد ومجهول من قبل الجميع! أيها الظل الصديق للمرافئ المؤقتة والاستراحات الطويلة في الطريق

المشمسة للمتشرد الحر! عذوبة لا حدود لها للأحلام الخالصة في عتمات الصمت في بلاد الإسلام!

مريامة

سماء خفيضة وكثيفة ومتأججة، وشمس كامدة من دون أشعة لكنها محرقة. وعلى الغبار الذي يغطي كل شيء، وعلى الواجهات البيضاء والرمادية للمنازل، كان انعكاس كئيب يصيب بالعمى يبدو أنه صادر عن نار جمر داخلية. وعلى المنحدرات الوعرة للتلال الملتهبة نار سوداء كامنة، وأدخنة لافحة تتكدس خلف قمم فيكيك.

لا شيء يلمع، ولا شيء يعيش وسط ذلك التوهج كله، وحدها بعض الروائح الجافة كانت تصدر في بعض الأحيان من سعير مجهول بعيد، محدثة زوابع صغيرة من الغبار، تأخذ في الفرار مسرعة في اتجاه الشرق لتتلاشى في الوادي.

وكان الناس في المحطة ينتظرون القطار بين العربات السوداء والسياجات المخلّعة. كانوا أوروبيين مرهقين وعرباً متراخين.

وكانت الجياد والبغال المستسلمة تمد أعناقها نحو الأرض برؤوسها المدلاّة ومناخرها المدماة.

إضافة إلى كل ذلك كان هناك صمت يتعذر سبره يضغط بشدة ويشعر به الجميع. لم يكن ذلك الصمت لذيذاً أو مريحاً، كان الصمت كسلاً مقرفاً يصل حد الكدر.

كان ذلك أول إحساس لي ببني ونيف.

لا دليل، ولا رؤية غريبة تقف بين حواسي والأشياء، ولا تفسير عديم الفائدة، بينما كنت أتجول وحيدة في ذلك البلد الجديد بالنسبة لي.

عند مخرج القرية، وباتجاه المحطة، كانت هناك بقية جدار، صبغ بلون رمادي متأجج من المعدن المخلوط. وفي البعيد، خلف خطوط السكة الحديد المنتهية في حفرة حمراء، لا شيء غير حجارة سوداء منتشرة في السهل، ومزيد من الغبار والرطوبة المحرقة اللامتناهية.

هناك رأيت مريامة مقرفصة أمام كومة صغيرة حوت خردة عتيقة ومخلفات مختلفة.

كانت جسداً عارياً ومقوّساً وخائر القوى، ونهدين فارغين معلقين بجسد أسود

مرهق وملطخ بالقذارة والتراب. وكان شعرها قصيراً ومقصوصاً مثل شعر الذكور، ووجهها نحيف ومجعد وفمها واسع وغليظ يفتح على أسنان صفراء قوية، وعيناها أشبه بعيني دابة مريضة: مظهر حزين أشبه بقرد في ألمه وخوفه وضياعه.

كانت تهز رأسها بشكل غريب، وتقلّب بأصابعها الهزيلة والطويلة كومة الخرق والقمامة.

وكانت تتكلم من دون توقّف، كما لو أنها تخاطب شخصاً معيّناً بلهجة غير مفهومة، وذات تناغم بربري، أدركت فيما بعد أنها الكوري، وهي لغة زنجية صحراوية أو سودانية غامضة.

تحدثت إليها باللغة العربية، فاستمرت دمدمتها لترتفع إلى ما يشبه نحيباً هائجاً.

مددت لها يدي، فأخذت تسحب على التوالي أصابع يدي من دون أن تكفّ عن هذرها. وكانت تكشيرات كوابيس تصيب وجهها بالتشنج.

خاطبني أحد الفيكيكيين الذي كان ينظر إليها قائلاً:

ـ هل تعلم بأن هذه المرأة ليست من هنا؟ كانت أسيرة لدى مسلمين بميشيريا، وكانت متزوجة، وكان لها ابن يدعى محمود. انظر إلى القدر. كانت مريامة هذه تقية هادئة وعاقلة، وكانت تتمتع بين النساء بسمعة عفيفة، وفي أحد الأيام أخذ الله منها ولدها، وهكذا أضحت مجنونة وفرّت وحيدة وعارية، وتوقفت عن الحديث باللغة العربية مستعيدة لغة أجدادها الذين قدموا من مكان بعيد، مكان أبعد من توات. وهكذا راحت تجوب كل الطرقات والبلدات والقرى، وتعيش بفضل إحسان المؤمنين. وأخذت في العديد من المرات إلى قصر أوداريرر بفيكيك حيث أخذ بعض المسلمين الورعين يعتنون بها، غير أنها كانت تعود دوماً إلى بني ونيف. وهي تسكن تحت ركام من الخشب الرقيق. ومع ذلك فالأطفال هنا يضايقونها ويسخرون منها. وفي ليالي يوم الأحد، عندما يسكر رجال الفوج والجنود، وينسون أنها مسكينة بريئة، يعمدون إلى اغتصابها على الرغم من أنينها وصراخها... فالرجل السكران أشبه بحيوان متوحش... ليحفظنا الله من مصير بائس مثل مصير هذه الإنسانة!

... ذات صباح مشرق، سكنت رياح الشلوق في السهل حيث انتشر لعدة أيام مرهقة رماد مغبر.

وعند الفجر، هزت رياح خفيفة قادمة من الشمال غبار أشجار النخيل التي بدأت تخضر في الوادي حول القصر الترابي!

وطلع النهار في اخضرار شفّاف، ومر الجنود قاصدين سرير الواد حيث نمت بعض أشجار النخيل والدفلى أسفل الطوب الأحمر.

وفي ملابس من نسيج الكتان الأبيض مع الآلات النحاسية التي تلمع في الشمس المشرقة، والعدة الأبسط للنوبة العربية، كان الموسيقيون قد شرعوا في العزف موقظين حتى الساعة التاسعة أصداء الوادي الميت بأصوات أبواقهم الصاخبة، وألحان الغيطة الأنفية المنتحبة وقرع الطبول.

عبروا القرية، وقد رسمت غبطة الساعة الصباحية ابتسامة على وجوههم السمراء ذات الأسنان البيضاء وداعبت أعناقهم القوية العارية.

وبحركة خاطفة وآلية رفعت كل الأذرع معاً الآلات النحاسية، وانطلقت موسيقى نشيطة وسعيدة ولامبالية.

وفجأة ظهرت مريامة خارجة من تجويف ظلي مثل دمية متحركة سوداء، وكانت قد ألبست بغرابة غندورة من القماش البالي وقبعة نسائية عتيقة من القش بأشرطة زرقاء حائلة.

وأخذت ترقص متقدّمة فرقة القنّاصة الذين أخذوا يضحكون، وشرعت تنط مصدرة صرخات قصيرة أشبه بصرخات قرد هائج. وشيئاً فشيئاً رفعت وتيرة حركاتها متمايلة بعصبية، ثم مزقت غندورتها واستمرت في الرقص عارية إلا من قبّعتها المشدودة بخيط.

ورافقت مريامة موسيقى القناصة، الذين كانوا في منتهى السعادة ذلك الصباح الخالي من الغيوم، حتى مقلع الطوب.

. . . يوم هادئ في الصحراء الصامتة. وفي القرية، كانت سحابة بيضاء صغيرة تضبّب صفاء السماء التي تعبرها بسرعة طيور مهاجرة. وفي سرير الواد وبين البلاطات السوداء، وتحت الأوراق المسننة لأشجار النخيل الزرقاء، كانت مريامة جالسة.

وأخذت تزيّن الأشجار بخرق متعددة الألوان التقطتها من الشوارع، وكأنها تحيي مناسبة غريبة لطقس سحري.

كانت ترفع بتناغم ذراعيها الطويلتين والهزيلتين والمعقودتين على رأسها، وتضرب صفيحة قديمة كأنها طبل.

وكانت تغني بنبرة مملة وبصوت خشن أغنية شعبية غامضة.

وارتفع دخان حامز الرائحة على شكل دوائر لولبية من نار وقودها بعر الإبل أوقدتها المجنونة أمام الأشجار.

ومع ذلك فقد كانت الأرض تفوح برائحة عظام عديمة الطعم، كانت عظام موتى ملقاة هناك، وتقزحت بقعة دماء كبيرة، وتعفنت... كان ذلك المكان يستخدم كمذبح.

غير أن مريامة لم تكن ترى القتل المؤلم، والخنازير النجسة التي كانت تقلب بأفواهها الجائعة البقايا المدماة، وتلعق الدم المتخثر. لم تكن تشم رائحة الموت الفظيعة. كانت تصلي، وكانت ترتل، وكانت تبكي، وقد انفصلت تماماً عما يوحّد الناس من مشاعر، وغاصت في الوحدة المحزنة لروحها المعتمة.

... قابلت مريامة أول مرة مساء المغادرة. كان الوقت متأخراً، وطلع القمر المتناقص والباهت كأنه خفي على السهل الأزرق. وكانت مريامة ترقص عارية تماماً، وسوداء جداً، ووحيدة على كثيب منخفض.

عظاءات

في الجدران المفتتة التي أحال الزمن لونها إلى الذهبي وقطعها إلى تجويفات غريبة أخذت الريح تجمع الرمال فيها شيئاً فشيئاً.

وعلى مستوى أدنى، أسفل الأرض حيث تستمر الرطوبة، زرع القصريون أشجار نخل ذوات جذور قوية، خرجت من الأرض مائلة كأنها أقواس.

كانت بداية فصل الخريف، فظهرت أعشاب دقيقة أسفل أشجار النخل. وفي ظل الجدران العتيقة كانت للهواء رطوبة مالحة بعض الشيء. وكانت هبات مداعبة تعبر تحت وطأة شمس ماتزال حارة.

كان بستان النخيل هذا مهملاً من قبل الفلاحين، وبعيداً عن أي ضجيج، وكان بإمكان المرء أن ينعم بسكون لذيذ مثل توجه بطيء نحو العدم المنشود.

كنت ممددة على الرمال منذ لحظات أو منذ ساعات، لست أدري. وأقل حركة كان من شأنها أن تزعج تناغم أحاسيسي الواهنة والفارة.

وإلى جواري كان لوبيو، كلبي الأسود الغريب من فصيلة غريف، الذي ولد وسمّي بإحدى الثكنات. وكان يشاركني سكوني. كان مقعياً ويأخذ أوضاعاً تمثال ليرقب الأشكال الغامضة والمتحركة في مكان ما في البعيد.

كانت الشمس تدور وتنزلق مائلة على بقايا جدار حيث حفرت مياه الأمطار أخاديد سوداء صغيرة.

وهكذا، على الطوب المخدد، كانت العظاءات تأتي طالبة متعتها. كانت أمامي، وقد شدت انتباهي لفترة طويلة.

اثنتان منها، رقيقتان مثل إبرتين ورماديتان، كانتا تلعبان تطارد إحداهما الأخرى بسرعة ومرونة، محركة بسرعة دوائر ظل صغيرة على واجهة الجدار.

وكانت عظاءات أخرى، أكبر حجماً، وزرقاء اللون ممددة تتنفس، نافخة بطونها الخشنة، والأجمل من بينها تزهر بألوان نادرة مثل ورود طويلة سامة. وهناك على الخصوص من هي أكبر حجماً بلون أخضر كالزمرد الخالص، وجيدها مغطى كله بنقاط ذهبية أشبه بعيون يعاسيب، وعلى رؤوسها المسطحة خطوط ذهبية أرجوانية تخط رسماً معقداً.

كانت تستلذ بالحرارة، ممددة بكسل وقد تدلّت ذيولها الرخوة. وتثبت على ذلك الوضع ساكنة وسعيدة ومع ذلك لم تكن تسقط. وتفتح أفواهها في بعض الأحيان وكأنها تتثاءب برهافة. وتبدو كأنها تسخر كثيراً من الحركات الطفولية للعظاءات الرمادية الصغيرة التي تستمر في سباقها الدائري، وكأنها مصابة بالدوار.

وفجأة، لمحها الكلب.

قام، واقترب ببطء وبحذر ومن دون صوت. مد خطمه الأشعر، متطلعاً بعينين حائرتين وأذنين منتصبتين.

أقعى أمام الجدار، وأخذ يتأمل لعب العظاءات مندهشاً.

غير أن الشمس مالت نحو الأفق، ملقية الظل المشوه للكلب على عائلة الحيوانات الهادئة.

وهكذا، فرت العظاءات بسرعة مذعورة، واختفت في شقوق الجدار العتيق، في حفر الظل حيث تسكن.

وبقي الجدار مقفراً وذهبي اللون في شمس المساء، الشاحبة جداً...

احتضار

انطلق موكب بشار حوالي منتصف النهار، حاملاً روافد ألواح خشبية.

ولم تتمكن مسعودة ناقة معمر ولد الجيلالي الرمادية والتي أضعفها طول المسير أن تمضي أبعد من ذلك. فقبالة بستان نخيل ملياس ارتجفت قبل أن تميل على جنبها.

وكان معمر يعلم بأن ناقته على وشك الموت، فأخذ يبتهل إلى الله لأن حزناً كبيراً حصر قلبه البدوي.

توقف الموكب، وأنيخت جمال أخرى قُسّم عليها حمل الدابّة المحتضرة وسط الصراخ واللعنات، ونُزع عنها كل شيء حتى بردعتها المستطيلة الصغيرة، والأقمشة البالية التي كانت تحمي حدبتها المجرودة. وتأمل معمر للحظة ناقته محركاً ذراعيه المفتولتين ورأسه الشبيه برأس معقوف، ثم حمل عصاه ورحل زافراً، دافعاً أمامه جمليه الآخرين بصفير قصير أشبه بآهة مبحوحة!

. . . كان النهار ينتهي في الوادي المحزن والمحاصر وسط الجبال الوعرة والتلال الجافة الصغيرة والقاحلة، والتي لا نبات فيها والكامدة بلون دخان أصهب.

وكانت هناك انعكاسات حريق تنساب على الصخور التي اصطبغت بلون جمر باهت.

وكانت الناقة المتهالكة على الأرض الحارة ما تزال على قيد الحياة، مستسلمة.

غير أن تشنجاً طويلاً هزّ جسدها فجأة، من قوائمها الممددة حتى رأسها الصغير ذي الأسنان الصفراء الطويلة، والعينين الوديعتين الكبيرتين والمتألمتين اللتين كانتا تذرفان الدمع.

كانت تلك الدموع الحقيقية الثقيلة والبطيئة مُفعمة بحزن مؤثر ومحيّر على وجه تلك الدابة البدائية، والتي بدت فجأة قريبة جداً من إنسانيتنا في الجزع من الموت.

. . . ثم كان اختلاج كبير. رجت قوائمها وأثنتها كما لو أنها تتحضر لتقفز.

تمددت العنق الطويلة ومالت إلى الخلف في حركة تخلّ سامية.

وأضحت العينان شبه زجاجيتين، وانطفأتا. وأضحى وبرها كامداً، وأطرافها متيبسة. كانت مسعودة، الناقة الرمادية، قد ماتت.

. . . كان موكب بشار قد مر منذ ثلاثة أيام على الطريق في وادي ملياس.

وأخذت الشمس عند منتصف النهار تسلط أشعتها العمودية على البلاط الأسود، وفتحت جثة الناقة الميتة.

واستمرت أجزاء صغيرة من الوبر الناعم الملطخ بالدم المخثر على العنق الطويلة، ووسط الفقرات العارية، وعلى الرأس الصغيرة. وبقيت على أضلعها قطع جلد رقيقة بلون أحمر شفاف.

وفي مغامرات القتال الليلي، فتحت أبناء آوى والضباع بطن مسعودة، نازعة أحشاءها وأمعاءها. كانت موضع قتال مستعر في مابينها مصدرة نحيباً جنائزياً.

ومع طلوع الشمس راحت فيالق من الحشرات الدافِنة، بألوانها السوداء الممزوجة بألوان التعفُّن اللازوردية والزمردية الرائعة تصعد مهاجمة الجيفة.

كانت تلتهمها في أجزاء صغيرة، مسرعة في عملها الهدام.

وكانت الأحصنة الخائفة حتى أعمق نقطة من أجسادها الفانية ومن الخشية المبهمة من كل ما يتعلق بالموت، تجعل آذانها تنتصب بعصبية وتبتعد بغتة عن بقايا مسعودة المهجورة على طريق بشار الصحراوية، مثل هيكل قارب جنح وسط الرمال.

رواية أخرى:

عندما كانت الأحصنة تمر، كانت آذانها العصبية تنتصب، شاخرة بخوف مبهم من الأشياء المتعلقة بالموت والتي ترعدها كما لو أنها تشم رائحته تغوص حتى أعمق نقطة في أجسادها الفانية...

وتبتعد مرتعدة عن الناقة الرمادية المهجورة على الطريق المقفرة مثل هيكل قارب جنح وسط الرمال.

السوق

سوق بني ونيف كل صباح.

أمام الأكواخ المنخفضة للمكتب العربي كان حوالي عشرين قصرياً يرتدون ملابس صوفية ترابية اللون يجلسون القرفصاء أمام الأسمال المعروضة، برانس من الصوف السميك بأهداب طويلة حول غطاء الرأس، وجلود فيلالية وسلال البيض، وأكوام من البصل واللفت وجلود الجديان المليئة بالزبدة أو القطران، ومجموعات من التمور

الذهبية اللون، وعلب من الصوف المصبوغ باللون الأحمر والأخضر والبنفسجي. هذا كل شيء.

وحول كل ذلك، يتزاحم السباهيون والمخازنية والحراس والإسبان، ويشرعون في أعمال المقايضة. ولما كان رجال الغرب ما يزالون خائفين ومتحفظين فقد كانوا يكتفون بالردود السريعة والقصيرة وبرؤوس مطأطاة بعناد.

وبدأ طُعم الربح يجذبهم، ومع ذلك فقد أخذوا يعتادون شيئاً فشيئاً على الهدوء والأمان غير المعهودين.

«سوق البصل» كذاك يقول السباهيون ساخرين، وهم جميعاً أبناء التل أو الهضاب العليا المفعمون بالكثير من الاحتقار والكراهية المتوارثة بين الجزائريين للناس القادمين من الغرب.

وبمعزل عن ذلك، وداخل خيام ضيقة للبدو الرحل مصنوعة من أسمال بالية وبائسة كان يهود من قنادسة يسبكون الحلي.

كانوا يرتدون غندورات خضراء وبيضاء متسخة وعلى رؤوسهم عمائم سوداء صغيرة، تخفي شعورهم الحمراء الطويلة. وكانت وجوههم شاحبة ومتورمة بفعل العزل وقد ملأتها الدهون الفاسدة. كانوا يقرفصون ويعملون أمام مسابكهم، وسط روائح أسمالهم المقززة وحموضة المعدن المذاب. وكانت أصابعهم الهزيلة تشكل خواتم ثقيلة، ومشابك نساء كبيرة، وكرات فضية صغيرة لتعطير الشاي.

وتقدم لهم ليرات ذهبية فرنسية أو قطع فضية يذيبونها ويحولونها إلى حلي.

وهناك أيضاً مقايضات لا تنتهي لملء فراغ الساعات بالنسبة للعديد من المنفيين.

ويعدّ ذلك السوق الصغير أحد ضامني السلام بالنسبة للبلد، وهو أيضاً أحد أماكن التسلية النادرة في ونيف. فالمرء يقصده من أجل الفرار من كآبة الجنوب السوداء.

جنان الدار

هناك أمسيات ثقيلة في المشهد المتحجّر لبني ونيف. أمسيات مأتمية حيث تنثر ريح الشلوق غباراً رمادياً على الأشياء، أو تجتاح الكآبة السوداء الأرواح، وتجعلها تنطوي على نفسها في قلق كئيب.

ما مِن هدوء أو إعدام لذيذ للكائن في تلك الطبيعة التي تفتقد النعومة، ذات الخطوط القاسية المتنافرة الباهتة الألوان.

فررت ذلك المساء إلى جنان الدار القريب بحثاً عن المناظر المعروفة والمحبوبة للصحراء الحقيقية المهدهدة. وهي عبارة عن تجمع بشري، ومحاولة خجولة للعيش المفقود في الفراغ وعقم السهل الشاسع والحر والهادئ.

في جنوب ونيف، تتقدم سلسلة الكارة المنخفضة وتنتهي بقمة مستديرة، وردية جداً، ومنزوعة عن الثنيات الواسعة والتي هي عبارة عن مقالع.

وعند المنعطف يتغير كل شيء بغتة. فهناك الأماكن الشاسعة من دون حدود، ذات الآفاق الناعمة والملتبسة، والتي لا تشد النظر إليها، والفارة باتجاه النور حيث المجهول.

هناك الرتابة المتناغمة للأشياء، والأرض الحمراء الحارقة، وأفق ناري متغير.

والنباتات الوحيدة هناك، ذات المظهر المعدني، هي التحدّبات العديدة للدكاع الفضية اللون، والتي أطلق عليها الجنود اسم «القنبيط» نبتة الحمادة الحجرية الغريبة. كل ذلك في تكتل مزدحم ودائري لنجوم صغيرة مُسنّنة وقاسية مثبتة بالأرض بساق ليفية وحيدة وضعيفة.

ولاشيء آخر، غير بعض باقات الحلفاء. وإلى الشرق في ما يشبه تراكماً غامضاً للسحب الزرقاء، سلسلة جبال وكثبان زوسفانا المبقعة بسواد أشجار النخل المتناثرة.

وفي الجنوب، لا شيء آخر، غير الأفق المشتعل والرائع... وفي البعيد، لا يكاد يُتميَّز جبل سيدي مومن المستقيم، والذي يضمحل في إشعاع السماء الكئيب.

... جنان الدار قلعة رمادية صارمة وحديثة جداً، ووحيدة أقيمت على تضاريس منخفضة.

وإلى اليمين أرض معسكر أو مدن زائلة، ومجموعات متفرقة من الخيم البيضاء تزهر وتتوالى كأنها في تجدّد دائم.

ويأتي القنّاصة وجنود اللواء ليعسكروا هناك في انتظار أن يتفرقوا في مراكز الجنوب الغربي. وترتسم حيوات قصيرة وتُكتسب عادات صغيرة، وفي الغد ينتهي كل شيء، ويشطب، وينسى سريعاً.

. . . وأبعد، في الوهدة الخصبة بعض الشيء، هناك بعض مجموعات النخيل ذات الجذوع المتعددة والمرتفعة جداً، والممشوقة جداً، والتي تحتضن منازل بائسة من التراب المدكوك لمجموعة الضباط.

زاوية للرطوبة والنسيان، حيث تمضي ساعات الانتظار بطيئة أمام دفق المشروبات الحنينية.

وهناك أيضاً حقل أجرد كثير الحصى، ثم الأسوار المنخفضة والمتصدعة والمتداعية للمعقل القديم حيث ما يزال يعسكر السباهيون وجنود اللواء.

وإلى اليمين هناك ما كان يتخذ كمكتب عربي عندما كانت جنان الدار مركزاً للمنطقة، حيث أربعة أو خمسة بيوت ترابية وخشبية صغيرة في ساحة مفتوحة على الصحراء.

هناك سوف أستلقي تحت قماش خيمة أو غطاء سرير طلباً لنوم هادئ في ليال هانئة.

ويقوم سباهيّ ومخازنيان بحراسة ذلك الشارع ويسهرون على النظام في القرية الصغيرة غير المكتملة. وخلف المعقل القديم شارع محفوف بصفين من الأكواخ المهتزّة، وحانات ومتاجر ومقهى مغربي ودكان جزارة. بدأ كل ذلك في الرمال، وانتهى في الفراغ. وهذا كل شيء. فالقليل القليل من الأشياء قرب بني ونيف تعرف رخاءً ونشاطاً كبيراً.

ومع ذلك فجنان الدار تتميز بطابع فريد، فهي القرية العسكرية والتي ولدت من حاجات الحرب والتي ستختفي باختفائها.

ثم أخذ يتولّد في جنان الدار أحساس بالبعد والانزواء في المشهد المحيط الجامد الذي أزاله في بني ونيف وجود سكة الحديد، نواة بسكرة جديدة.

ويعيش هناك بعض التجار الغشاشين من الإسبان واليهود على النقود القليلة التي ينفقها الجنود العرب أو الأجانب. وداخل أكواخهم المشكلة من مواد عتيقة استعمالها من قبل في أماكن أخرى، في قرى مؤقتة أخرى، يسكب «روّاد الحضارة» إكسير النسيان لأولئك الذين تقتلهم الكآبة.

وكانت عجوز إسبانية هزيلة تجلس أمام باب كوخها الأسود، بوجهها البارز التقاطيع وشعرها الجعد الكثّ، تنتظر بجمود متعَب الجنود الذين ستلقي بهم على

جسدها المتهالك لليالي القيظ والضيق والنزوة المتوحشة.

وما إن يدخل رجل حتى تغلق المرأة الباب بسرعة وبإحكام. وفي الخارج تندلع شجارات عنيفة، وفي بعض الأحيان معارك حقيقية عندما يصطدم ذوو الطباع السيئة من رجال اللواء بجنود القنّاصة. كلهم يصرخون برغباتهم بشكل خشن ومن دون خجل. وتؤخذ تلك الخرقة البائسة والتي ما تزال تبدو كامرأة في أعينهم كنعمة وإغراء وتقريباً كجمال في محنتهم.

... بعد بضع ساعات من التجوال البطيء في جنان، وبعد استراحات طويلة على حصائر القصب في المقهى المغربي، عدت إلى أنقاض المكتب العربي.

وهناك، على ضوء شمعة، أعددنا أنا والعرب الثلاثة طبقاً مفرحاً من المرق المبهّر، ثم أخذت أُنصت إلى الليل الصامت الذي يحلّ على الصحراء، وأنا أشرب القهوة في ربعية من الحديد الأبيض.

ولاذ المخزنيان، وهما من أبناء سهوب جيري فيل، بدائيان جداً، وحالمان جداً، بالصمت بينما راح السباهي، ذلك التلمساني المرح، يغني أغاني حزينة فاترة وطويلة، أو يروي أساطير بلده.

نمت ببطء ولطف في هدوء الكوخ ذي الباب الذي يقفل، في ساحة من دون حراس، مشرعة على ظلام البلاد.

دوار المخزن

مثل واد الرمال، ومثل عين صفرا، ومثل مراكز المنطقة كلها، كان لبني ونيف دوار المخزن التابع لها، بخيامه المضلّعة المنصوبة على الأرض الجرداء المسحوقة.

وكان ذلك الدوار المعزول باتجاه الجنوب الشرقي للقصر على طرف البساتين يبدو هادئاً جداً وغافياً جداً. ومع ذلك فقد كان يأوي الدسائس ومشاريع روايات وحتى المآسي.

عمور من دائرة عين صفرا، وحميان من ميشيرا، وترافي من جيري فيل، والعديد من المخازنية متزوجون ويجرّون وراءهم مجموعة النساء والأطفال الذين تجبرهم مقتضيات الخدمة على هجرهم لشهور.

ولما كان المخازنية فرساناً متطوعين من دون ملابس الخدمة الرسمية ولم يتلقوا

تدريباً عسكرياً، فهم من بين كل الجنود المسلمين الذين تجندهم فرنسا في الجزائر، أكثرهم سلامة ويحتفظون تحت برانسهم الزرقاء بأعرافهم وعاداتهم التقليدية.

وهم متعلقون جداً بإيمانهم الإسلامي بخلاف أغلب القنّاصة والكثير من رجال سلاح الفرسان الجزائريين [المعروفين بالسباهيين].

وهكذا فقد كانوا يرون وهم ينعزلون في الصحراء خمس مرات يومياً وهم يصلّون بخشوع، غير مبالين بكل ما يحيط بهم. وكانوا يبدون وسيمين جداً بحركاتهم النبيلة في تلك الساعة حيث يعودون إلى ما هم عليه فعلاً.

ومع ذلك، وعند تواصلهم مع النظاميين، السباهيين أو القناصة يأخذ الكثير من المخازنية الأمور باستخفاف أكثر، وبتمرد أكثر من الجنود أبناء البلاد. ويتخلّص بعضهم دون وازع أخلاقي من القيود الأبوية، ومن التحفظ الكبير للغة البدو الرحل، وينتهون أيضاً مع مرور الوقت ليعتبروا خيمهم تقريباً كأنها مأوى للمغامرة.

وفي حياة الأخطار المستمرة التي يحيونها، والتعب، وعدم يقينية الغد، تأخذ مغامرات الحب التي يعرفونها من قبل في دوارهم الأصلي، نكهة وسحراً أكبر.

تتراخى التقاليد بصفة حتمية. وفي دوار المخزن يفعل في العلن ما يفعل في البلد تحت حجاب السر وفي ظلمة الليالي حيث الحب يجاور القبر من مكان قريب. . .

وكل مساء تخرج الموشومات الجميلات ذوات البشرة السمراء والنظرات الشرسة في جماعات، بلباسهن الصوفي الأرجواني والأزرق الداكن الجميل باتجاه فجاجير الواد.

وكنّ يثرثرن ويتضاحكن، ويصرن جديات وصامتات فقط عند مرور بعض المسلمين.

ويمر الفرسان ذوو البرانس الزرقاء أو الحمراء، والذين يأخذون جيادهم الفتِيّة والنشيطة لتشرب من أقرب المناهل ذات المياه الشهيّة. ولايتبادلون أية كلمة مع البدويات، ومع ذلك فهناك هدايا واعترافات ورفض ووعود يتبادلونها بحركات قصيرة وخفية.

ويمرر الرجل الجاد يده على لحيته، وهذا يعني: فلتحلق لحيتي، وتنزع عني الصفة المرئية لرجولتي، إذا لم أنجح في امتلاكك!

وترد المرأة بابتسامة من عينيها وحركة نفي من رأسها وبشيء من الغنج. ثم تقوم خفية، وبحذر حتى من رفيقاتها، بحركة خفيفة من يدها.

وهذا يكفي، فقد حصل الوعد، وسيساوي ذلك بعض الأمتعة العتيقة بألوان زاهية مشتراة من المزابيط، وبعض القطع النقدية البيضاء، ولا شيء أكثر.

وفيما بعد، يستبد الشوق بالعاشقين، ولربما الشوق العربي المعذب والغيور والذي يأخذ في الغالب مظاهر مجنونة ملقية بالرجال خارج مظهرهم الهادئ المعتاد.

. . . وهكذا، فدوار المخزن الذي هو معسكر للجنود القساة وذوي البأس الشديد، هو في الوقت عينه مدينة صغيرة لمغامرات الحب العابر والخطر معاً، لأن إطلاق النار يحدث هناك بسهولة كبيرة، ومن اليسير جداً إرجاع ذلك إلى جيش ما! . . وليس للبلاد من أصداء.

وينام المخازنية العزّاب في العراء في ساحة المكتب العربي المؤقت.

وحتى رجال الحراسة ينامون ملتفين ببرانسهم في اللامبالاة المطلقة لأناس الجنوب والمعتادين دوماً على الإحساس بالخطر قريباً جداً في ظل الليالي.

وهؤلاء المخازنية المنعزلون هم الذين يجوبون بجرأة كبيرة أطراف الدوار وفي الغالب الأعم يصيدون محرماً في بيوت رفاقهم المتزوجين الذين يغارون منهم، والذين يحتقرونهم بعض الشيء لأنهم أزواج بؤساء جداً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

وصل ذات يوم خريفي كئيب موكب كبير ضمّ جمالاً وكوماً من الفرسان الذين عسكروا في الوادي قرب بساتين النخل الصغيرة.

وكان ذلك عبارة عن بعض خيام الضباط البيضاء وخيمة القايد، وسط تراكم سديمي للأشياء بين الجياد المشكلة الصاهلة، والجمال التي تنوخ مصدرة أنيناً أبحّاً.

وكانت هناك أكوام من الحرير، وقطع الزرابي وأغطية وقدور مسودّة بالدخان، وقِرب من الوبر معلقة إلى ثلاث مطارق في رزم، والتماع الصحون القصديرية الجديدة وسط ركام الأشياء البدوية العتيقة ذوات الألوان الحارة والداكنة حيث يسود اللونان الأحمر والأسود المشيّط. . . كل ذلك يجتمع ويخلط في فوضى فظة وجميلة.

وأخذ الرجال يتجولون، ويتعارفون ويستقرون.

كان هناك كوم ببرانس بيضاء وأحزمة مليئة بالخراطيش؛ وسخارة (حرّاس) هم رجال الصحراء الحقيقيون، النحيفون والمدبوغون والأقوياء ذوو القمصان القطنية بنسالة الحرير الترابية اللون، والمشدودة من الحزام بزنار جلدي غليظ أو بحبل، ونعال (خفّ) في القدمين، وكل ذلك محوك بندوب قديمة، والرأس مغطى فقط بثوب أبيض، وفي بعض الأحيان بضفائر تتدلى حتى الخدين. وهم رجال بقووا كما كان عليه الحال أيام الأجداد والأنبياء منذ فجر التاريخ.

والباش آمرون وهم قادة مجموعات تتكوّن كل منها من ستة عشر سخاراً، يمتطون جيادهم ويصرخون ملقين الأوامر.

وفي بضع ساعات غيّر وصول الكوم وذلك الموكب مظهر الوادي الكئيب الذي بدا وكأنه قاعدة مؤقتة لشعب مهاجر بأكلمه.

كان عرض الأشياء العتيقة التي لم تتغير أبداً منذ عدة قرون، ووصول أولئك الناس ذوي اللباس والحركات التي تعود إلى القديم الغابر، والذين حضروا هناك لبضعة أيام فقط، والذين سيتحركون ذات صباح قريب مجدداً، وسيحزمون أمتعتهم مرّة أخرى آخذين معهم كل أغراضهم البدوية الجميلة والبائسة إلى مكان بعيد، عادياً جداً ومثيراً جداً.

. . . طلع النهار الشتوي على الحمادة ذات الحجارة السوداء. وفي الأفق، وعلى كثبان زوسفانا، كان ضوء كبريتي أصاب السحب السوداء الثقيلة بالشحوب، وبدت الجبال والتلال المدخنة كهياكل مضطربة بلون محايد في السماء الكامدة. وكانت بساتين النخل المصفر، والمنازل العتيقة المشيدة بالطوب منتصبة وسط الأنقاض الصفراء، ومنبعثة كما لو أنها مملحة بظل الوادي المضطرب خلف المقابر الكبيرة المعزولة.

وتجردت الصحراء من أنوارها المتألقة، وأخذ يحوم حولها رداء حزن كبير.

وفي المعسكرات، وحول الجياد المغطاة بأقمشة حريرية، وحول الجمال، كان الكوم والسخار يقظين، وارتفع الهمس من تكتل البرانس الفاترة المكوّمة على الأرض.

وعند الاستيقاظ، أخذت الجمال الهائجة المتدافعة تصدر ما يشبه الشكوى. وبصمت، وبلا نشاط، استفاق البدو وأشعلوا النيران. وفي الرطوبة الباردة أخذ الجريد يصدر دخاناً من دون فرح.

وكنست الرياح الباردة المعسكرات فجأة، فقد ظهرت زوابع رملية ودخانية، وجعلت القماش المشدود لخيمة قائد الكوم المزينة بعلم فرنسي صغير تهتز.

ومر الملازم أول الفرنسي. كان هادئاً بنظرة حزينة، ويداه داخل جيبي بنطاله المصنوع من نسيج الكتان الأزرق. كان يدخن غليونه وهو يراقب خفية الرجال والدواب.

هو أيضاً يشعر بوطأة صيف صباح التكرار هذا، بعد شهور وشهور من ممارسة المهنة القاسية لقائد الجمال كما يقول، دوماً على الطريق، ووحيد دوماً، ولا مَن يعزّيه سوى غليونه الكئيب حيث يستهلك ساعات حياته الرتيبة في أدخنة خفيفة...

أخذ البدو يعدّون القهوة في صحونهم القصديرية، ثم قاموا ببطء تحت رياح تعوي، وبكسل راجّين الأرض التي أثقلت ببرانسهم.

وانصرفوا لأعمال المعسكر بعناية دقيقة.

ألقى الكوم والسخار رِزَم الحلفاء أمام دوابهم، وتولّى بعضهم تنظيف جواد الضابط الرمادي على وجه السرعة. وبدأ البعض ممن كانوا يجلسون وسط دخان النار بخياطة عدة الرحيل أو برانسهم، في حين قصد آخرون القرية من أجل مقايضات لا تنتهي مع اليهود أو شرب الشاي المغربي في جلسات طويلة في القاعات البربرية للمقاهي المغربية.

وأخذت الجمال تدمدم وتعض حرايرها. وتحرر حصان من رباطه وأخذ يعدو بغضب عبر المعسكر. وتشاجرت امرأتان من أجل رزمة حلفاء... هذا كل شيء. مثل كل يوم في ملل الساعات الطويلة، ساعات الانتظار.

ونسى البدو الرحّل منذ مدة طويلة وحدة حياتهم التقليدية في الهضاب العليا من دون همّ سوى قطعانهم والمشاجرات الأبدية بين مجموعات مقسمة، والتي تفرغ في بعض الأحيان بعض طلقات البنادق من دون صدى.

ومنذ مدة طويلة يمشون كذلك عبر الصحراء في صفوف ومواكب في انعدام

الأمن المستمر لبلد يضم عصابات جائعة، يتجمعون مثل قطعان أبناء آوى متربصين في شعاب الجبال الوعرة.

قريباً سيحل فصل الشتاء المعتم القارس، والليالي من دون مأوى، قرب نيران من دون حرارة. اعتادوا على تلك الحياة، باستسلام بني جلدتهم الكبير، لأنها من الله، مثل كل الأشياء على هذه الأرض.

وفي مصادفات الجوار نشأت بين البدو الرحّل صداقات في الأكل والنوم، والأخوّة السريعة التي يعلنها الجنود ذات يوم ولكنها لا تدوم.

هي مجموعات صغيرة من الرجال الذين يقيدون خيولهم معاً، والذين يدفعون جمالهم إلى الزاوية نفسها بالمعسكر، والذين يأكلون في الصحون الخشبية الكبيرة عينها، والذين يوحدون مصالح حيواتهم قليلة التعقيد من شراء المؤن، والاعتناء بالدواب، ثروتهم الوحيدة، وفي بعض الأحيان، مرورهم السري العابر لدى جميلات دوار المخزن وحتى لدى عموريات فيكيك، ولدى المومسات النحيفات المنشقات من زناغة وأودارير.

*
* *

إنه المساء، وقت الأغاني، أغان رتيبة، وارتجالات ساذجة ومؤثرة حول أشياء تتعلق بالحرب وبالحب وبالمنفى وبالموت على الطريقة الحماسية القديمة:

أعلمنا الزعماء برحلة طويلة
قلبي منذري
يعلمني بموت وشيك
من سيراني أموت؟ من سيصلي من أجلي؟
من سيتصدق في ذكراي على قبري؟
آه! من يدري ما يخبئه لي قدر الله!
ستنساني غزالتي البيضاء
وسيركب شخص آخر فرسي الأصيلة...

اصمت يا قلبي! لا تبكي يا عيني!
لأن الدموع لا تجدي شيئاً.
لاأحد سينال ما لم يكتب له
وما كتب لن يستطيع أحد تفاديه...
إهدئي يا روحي حتى تحل رحمة الله
وإذا لم تستطيعي أن تهدئي، فهناك الموت...

ويعدّل المغنون قصائدهم المؤثرة، مرافقين بجواق ناعم، حيث المزمار البدوي الصغير، ذو الهمس الغامض، والمقطوع في بعض الأحيان بصرخات الكئيبة، وصوت الغيطة الثاقب.

... وبعد غسق مائل إلى اللون الأحمر ومكدّر تحت قبة أضحت سوداء من فورها بالغمام، يحل الليل ثقيلاً وكثيفاً.

وتشعل نيران كثيرة، نيران جريد يابس بلهيب كبير وبهيج صاعداً باستقامة في الظلام، ونيران بعر الجمال، ونيران جمر باحمرار داكن.

هبت نسمة، وتمايل اللهب، نازعاً من الظلال أشكالاً مشوشة وغريبة ومجموعات وهيئات أشباح.

وتشوّه جسد بارز أسود لجمل، وأضحى مرعباً تقريباً، وأخذ ظل حصان أبيض يهز عرفه الطويل.

وحول نار كبيرة، كانت مجموعة بيضاء من البدو الواقفين تحرك أطراف برانسها مثل أجنحة كبيرة، وآخرون جالسون في دائرة منشغلين بتحضيرات العشاء. ومن بين ملامحهم الحادة ككواسر، كانت هناك بعض الوجوه المعتدلة ذات التقاطيع الصافية حيث الدم الآسيوي الأقل اختلاطاً، حافظ على الجمال العربي القديم.

كانت هناك مظاهر راحة ولامبالاة، وتجمعات مضطربة لأجساد ممددة، وفجأة، ومن دون سبب جلي، تحصل اهتزازات وحركات رائعة تحت أثواب شديدة الإضاءة...

ويسهر البدو الرحل لمدة طويلة في حمى الوصول.

... لكن في الأعلى، على هضبة المعقل: يصدر البوّاقون الألحان المجرورة

لإطفاء الأنوار. . . وشيئاً فشيئاً، تنطفئ نيران الجمر، ويطبق الليل على المعسكر، ويتكوّم البدو الرحل في أثوابهم البالية، ويتمددون على الأرض من أجل نوم من دون قلق، وقد وضعوا البندقية أو المطرقة تحت رؤوسهم وتوسّدوا أحذيتهم.

وجوار النار الأخيرة كان شاب بضفيرتي شعر سوداوين وقصيرتين ينسدلان على خديه العريضين يقلّب الجمر بطرف عصاه، وهو ما يزال يغني خفية تقريباً.

رواية أخرى:

مخازنيان من دائرة جيري فيل، شابان جداً من أبناء سهب الحلفاء ذي الآفاق الواسعة يجلسان أحدهما قبالة الآخر، ويشرعان في غناء أغنية شعبية حزينة لازمتها بمثابة صرخة حزينة طويلة تنتهي بما يشبه حشرجة كئيبة.

للوهلة الأولى بدَوَا في البداية نائمين بعيون مغمضة، وكان صوتاهما كخرير مياه يتدفق:

«البارحة، نحت طوال النهار، وبكيت. ـ حزنت على خيمتي وحزنت على غزالتي ـ نظرت الشمس إلي اليوم ـ وابتعد الحزن عن قلبي.»

وبطريقة غير محسوسة، أخذ الصوتان يرتفعان، راسخين وصارا أكثر سرعة.

«اصمت يا قلبي، لا تبكي يا عيني! ـ لن تجدي الدموع في شيء ـ لا أحد ينال ما لم يكتب له ـ وما كتب لا يستطيع أحد أن يتجنّبه ـ بلدنا بلد البارود. ـ وقبورنا مُعلمة في الرمال. ـ اهدئي يا روحي. اصمتي حتى يبرأ جرحك ـ وإذا لم يبرأ عزي نفسك، هناك الموت...»

وهكذا، ومن دائرة المخازنية ارتفع صوت آخر، أكثر خشونة وأكثر فظاظة، جعل ينتحب بحزن على مصير الجندي المسلم:

«تخلّى الله عني لأني مذنب. ـ تركت قبيلتي وخيمتي ـ ولبست مجدداً البرنس الأزرق ـ وجعلت بندقيتي زوجتي ـ أعلن لنا القادة رحيلاً بعيداً ـ قلبي مُنذري، يعلمني بموت وشيك ـ وغداً تأزف الساعة ـ ويدنو ملك الموت ـ هل يكون غيلياً رث الثياب، أو فيلالياً من دون رحمة، من ستقضي علي رصاصته؟ ـ ذلك من أسرار الله ـ من سيصلي عليّ صلاة الجنازة ـ من سيبكي على قبري؟ سأموت ولن يرحمني أحد».

وارتفعت أصوات كثيرة في الليل الساكن، وهمست النايات حزناً غير محسوس:

البارحة، نحتُ طوال النهار:

حزنت على خيمتي،
حزنت على غزالتي،
سطعت الشمس اليوم وابتسمت...

هناك من ذهب إلى تافيلالت، إلى بشار،
وآخرون ممن كانوا حاضرين، قاتلوا
في أيام تيميمون والمنقار.
وحفظهم الله.
وآخرون لم يتركوا أبداً خيامهم،
وهؤلاء ماتوا...
الحياة بين يدي الله،
وليس هناك إلا موت واحد.
لاتفكر في شيء، ولا تُخفِ أي فكرة في قلبك.
فبلدنا بلد البارود،
وقبورنا مُعلمة في الرمال،
وقبرك مفتوح يا ابن ميمون!...

* * *

آخر أيام الصحو، حيث بدت الصحراء قد فرغت إلى نفسها قبل هول الزوابع الرملية.

وحجبت السماء الشاحبة بسحابة بيضاء. لا رياح تهب. فقط، وفي بعض الأحيان، هبة خفيفة ما تزال فاترة. وفي بني ونيف حركة ذهاب وإياب محمومة، ونشاط غريب. فموكب بني عباس الكبير الذي يزوّد أيضاً واحات صحراوية بعيدة جداً سيتحرك غداً.

وبالنسبة إلى كوم جيري فيل أتى أمر التحرك. سيقصدون بشار، وستتفرق مجموعة البدو الرحّل في الحمادة والمناطق الرملية المقفرة.

وفي شوارع القرية كانت مجموعات صغيرة مقرفصة بين أكوام الحجارة والجبص حيث المخازنية الزرق، ورجال سلاح الفرسان الجزائريين الحمر، والبدو الرحل ذوو

الثياب خبازية اللون، يقتسمون بصخب المواد الغذائية والقطع النقدية، فقبل أن يفترقوا عليهم أن يتخلصوا من حيواتهم المشتركة المؤقتة والمنتهية.

. . . حل الفجر على ليل صاف باتجاه زوسفانا. ووسط التكدس السديمي والأسود للمعسكرات كان وميض لهب أحمر ينبعث من رماد مواقدء الليلة الماضية، ثم ارتفع همس كبير وحزين ورتيب من كل هذا النعاس المضطرب للرجال والدواب. فقد كان البدو الرحّل يصلون. كانوا يتضرعون إلى الله بصوت مرتفع عند بزوغ النهار.

والنور الذي بدا أولاً متردّداً، مُنْسلاً، غمر الأفق، والنجوم الكبيرة التي كانت تلمع شحبت قبل أن تنطفئ.

وحده برج البحار كانت تلمع فيه نجمة الصباح، مصباح سعادة وأمل مضاء في ولادة النهار الباسمة.

وفي الشرق، على مستوى أكثر انخفاضاً كانت بعض السحب الخفيفة تتألق سابحة في شفافية ذهبية خضراء محيطية.

ثم كان تألق كثيف للضوء في الشارع حيث استيقظت الحياة التي بدت في تلك الساعة المبكرة خفيفة وجيدة.

وعلى الأثر امتلأت المعسكرات بالأصوات المختلطة بالصراخ.

انتصبت الجمال رغم إرادتها مصدرة أنيناً غاضباً لتصعد حتى القرية حيث ستتوقف لساعات بين المحطة والمعقل وسط ركام الأكياس المنتفخة والألواح الخشبية والحانات والصناديق التي تحمل عناوين بعيدة، تاغيت وإيغلي بني عباس وعين صلاح وأدرار. . .

وفي المعقل أطلق البوّاق في البداية أصواتاً مبحوحة ثم صاخبة وملحة للاستيقاظ.

وأمام أكواخ المكتب العربي الصغيرة، التي كانت ما تزال غافية، كان بعض ذوي البرانس الزرقاء والحمراء يمرون بين ذوي الأسمال الخضراء والسوداء من يهود قنادسة القادمين من الجنوب لبيع حُليّهم المزوّرة.

وأخيراً، بعد عدة ساعات من العمل، جُمعت الإبل وهي في حدود الألفين بين الأحمال المعدّة للنقل.

كانت واقفة، والشمس المائلة تنزلق وسط غابة من القوائم الكبيرة الثابتة وفوق الرؤوس المتموّجة والحائرة والمتيقظة، وعلى حدبات الظهور وعلى الجوانب المجرودة والرمادية والبيضاء الكامدة والسمراء والصفراء...

وكان ثمة عدد من صغار الجمال الطريفة بأعناقها الطويلة الناعمة وملامحها الطفولية بنحو غريب وبأناقة الطيور الكبيرة ذات الزغب الداكن، تلتصق بأمهاتها، باحثة بمشافرها عن الضروع ذات الحلمات الرفيعة.

والآن، أخذ السخار ينيخون دوابهم بضربات عصي صغيرة تحت ركبها.

وشُرع في التحميل.

عندئذٍ ثارت جلبة يشق وصفها، إذ اندلعت شجارات حول كل دابة، وارتفعت صيحات غاضبة وهتافات بملء الحناجر، وشتائم وحركات صاخبة كما لو أن كل ذلك سينتهي بمذبحة.

ويؤخذ الله كشهيد. ويُشهد الرسول على خيط من ليف النخل لم يربط جيداً، ومن أجل إقفال كيس، ويستمر ذلك من دون عناء الانتباه للساعة مع جلبة تتزايد.

وكانت عربات التجهيزات الصارّة، والفرسان الذين يمرّون مسرعين، تثير الفوضى والرعب في الجمال التي تقوم من جديد فجأة، ملقية حمولتها المجموع نصفها لتفرّ تلاحقها لعنات السخار.

أما الباش آمرون الذين ظلوا على ظهور جيادهم منذ الصباح وعصيهم في أياديهم فيضايقون رجالهم ويستعجلونهم، ويصيحون مصدرين الأوامر، مهددين ضاربين.

ومن مكان بعيد جداً ينادي البدو الرحل بعضهم بعضاً، متحدثين بأصوات مرتفعة فاترة.

آه! يا لحناجر أناس الجنوب هذه، من أي معدن هم حتى لا يتعبوا ولا ينزفوا جراء كل ذلك الزعيق الكبير، وتلك النداءات التي تطلق مثل أصوات الأبواق؟

ثارت بعض الجمال، فأخذت تضرب الأرض بقوائمها وفرّ بعضها مثقلاً على ثلاث قوائم، والقائمة الرابعة مثنية.

وشبّت بعض الأحصنة، وصهلت عند مرور فرس. وهبت الريح فجأة، وأخذت تصفق الأثواب مثل أغطية منفوخة. وامتلأ المعسكر بزوابع رملية، محرقة العيون ومجففة الصدور.

وألقت الأزياء العسكرية لأصحاب البرانس الحمراء والزرقاء بُقعاً زاهية على أمواج الألوان المعتمة والترابية تلك.

... مرت ساعة، وفقد القادة عقولهم، وأخذوا يتراكضون من أجل تسريع وتيرة الرحيل، وأخذوا يصيحون هم أيضاً. غير أن أصواتهم الفرنسية كانت أضعف من أن تخترق الصراخ البدوي وضاعت في الجلبة التي أخذت تتزايد مع حمى اللحظات الأخيرة.

وكان الصوت الأجش والوحشي الناجم عن أنين الجمال المستمر يُهيمن على هذه الجلبة المتصاعدة، مالئاً السهل حتى الصمت الأبدي للأماكن البعيدة.

... ومع ذلك، ستنتهي تلك الرؤية الكبرى للحياة البدائية، والتي لن يرى منها في القريب الروعة التي لا تنسى، مع الأمان وخطوط السكة الحديد...

في البداية انطلق بعض الكوم على صهوات الجياد يعدون الخبَب ملتفين حول زاوية المعقل باتجاه الغرب رافعين الأعلام الفرنسية فوق بياض البرانس وأثواب الأحصنة المغبرَّة. كان هؤلاء من ترافيي جيري فيل الذين سيرافقون موكب بشار الصغير.

وكان كومي آخر تابع لعمور عين صفرا قد سبق موكب بني ونيف الكبير سالكاً طريق الجنوب.

وكان جنود الحراسة بالشاشيات والأحزمة القرمزية على القماش الأبيض لزي المرافقة يهتزون ويمرون مثيرين نقعاً كبيراً على القطيع. وأخذت الشمس تلقي وميضاً أبيض على فولاذ البنادق.

وصمتت الجمال الواقفة كما لو أنها انكفأت على نفسها ونزلت إلى الواد قاصدة جنان الدار. وخلال ساعة أخذت تتحرك مشكلة خيطاً لا نهاية له أخذ يتموج عبر السهل. وجعلت الشمس الغبار يبدو ذهبياً. واختفى الموكب عند الأفق الذي أخذ يحمرّ، هناك حيث طفت سحب حارقة.

رواية أخرى:

من مكان ناءٍ باتجاه الغرب تراءت ظلال جبال لا تكاد تبين ذات أشكال غريبة يصعب تمييزها: مخروطات مقطوعة ونتوءات صخرية مُسنَّنة ومسطحة...

وقد امتد من حولها سهل لا نهاية له أحمر مُسْتَعِر أرضه مشققة وفيه ما لا يحصى من مشاتل باقات الحلفاء الخضراء من أسفل والمبعثرة في نُدَفٍ رمادية نحو أعلى السيقان اليابسة: تَبَقُّع داكن ممتد تحت سماء خريفية صافية وفاترة.

وكانت نسمات خفيفة تعبر السهل مداعبة، وكان الفرسان يتقدّمون على التوالي ممتطين جياداً ضامرة مجدولة من عظم وأوتار ذات وبر رمادي مُنتصب وعيون تقدح شرراً. وكانت البرانس السوداء والحايكات الصوفية ذات اللون الترابي تمنحهم هيئة مهيبة.

رجال بوجوه نحيلة وملامح واضحة وقسمات قاسية، تومض عيونهم ببريق وحشي أشبه بعيون العقبان، طلّتهم بهية وحركاتهم متحرّرة ومنظرهم مهيب... وكان يُنظر إليهم على أنهم أولياء تقريباً، لولا البنادق التي يحملونها بنجادات أو المرفوعة وأعقابها مُسندة إلى الأفخاذ. إنهم باش آمرون في المواكب، ومحاربون عند الاقتضاء شجعان بالعادة واللامبالاة المتأصّلة بالموت.

وبعيداً من ورائهم كان البدو الرحّل يتقدّمون متفرقين في الحلفاء وقد عصبوا جباههم بعصابات صفراء على غطاء رأس دقيق، حاملين عصيّهم على الأكتاف نافخين صدوراً مدبوغة هزيلة، ومظهرين عضلات صلبة في فتحات أسمال بلون الغبار، وهم يدفعون أمامهم دوابهم الكبيرة البطيئة من دون حمولة سوى البردعة الصغيرة المستطيلة.

وتشرئبّ الأعناق الطويلة المرنة، وترعى أفواهها الهدلاء بعض الأعشاب الرمادية الموجودة بين الحجارة السوداء وباقات الحلفاء.

توقفت الجمال، ولما استمر ذلك لوقت طويل أصدر السخار صراخاً مبحوحاً، كان عبارة عن آهة صدرت ملء حلوقهم من عمق حناجرهم النحاسية وصفيراً قصيراً. وأخذت الأعناق المتماوجة تنتصب ببطء والرؤوس التي تشبه في آن رؤوس الأفاعي والخراف، تلك الرؤوس الغريبة المستخفّة ذوات الأعين الوديعة تستعيد تمايلها المنتظم فيما الأسنان الصفراء الطويلة تجترّ محدثة ضجة طاحونة لا تتوقف.

مرت المجموعة، واختفى الرجال الأصغر حجماً أولاً خلف تموّجات الحلفاء اللامتناهية، ثم تغيرت أشكال الجمال، وأضحت دائرية وامتزجت بتضاريس الأرض البور.

... أتوا من كل دواوير الهضاب العليا التي تنحدر إلى الجنوب، عابرين الأماكن المقفرة الباسمة لعمور غير المبالية، حيث الغزلان والطيور البرية. عمور التي يعرفونها وحدهم، رعاة ومتجولين، ويحبونها بلا وعي.

...كانت الأيام الصافية الأخيرة قبل الزوابع الرملية، وغطت سحابة شديدة البياض السماء الشاحبة. لا ريح هناك، غير هبة فاترة في بعض الأحيان.

وأزهرت فجأة في بني ونيف في الوادي وجوار القصر حياة صاخبة.

كان البدو يصلون كل يوم مع مواكب طويلة من الجمال ليعسكروا قرب الكوم.

وكانت معسكرات السخار أكثر خشونة، وأكثر تشويشاً وأغزر ألواناً.

كان هذا تراكماً سديمياً للأشياء، حيث الحراير، تلك الأكياس الضيقة الطويلة من الصوف السميك الرمادي والأسود، والتي تربط جوار سروج الجمال، ومزق الزرابي، وأغطية منسلة وسط القدور المدخنة وقرب من الوبر معلقة بين ثلاث عصي مشبكة، والتماع صحن قصديري جديد وسط ركام الأسمال البالية البدوية ذات الألوان المعتمة والحارة والتي يهيمن عليها اللونان الأحمر والأسود الحالك. تتراكم كل تلك الأشياء وتمتزج حول نيران من الجريد اليابس وبعر الجمال وسط الجمال المنيخة المجترّة، بينما تبدو أخرى وكأنها تحلم، وقد سيطرت على كل شيء بأجسادها المرتفعة ذات الزوايا الحادة.

واستمرت رفقة النوم والأكل التي ولدت في الطريق الطويلة، وولدت رفقات أخرى في حين تفرّق غيرها بشجارات رهيبة... عندها كان الدم يسيل أحياناً.

... ويتعلق الأمر دوماً بأولئك السخار وتلك الجمال المهاجرة كما في عصور العالم الأولى.

... وفي المعقل، يصدر البوّاق أصواتاً مبحوحة في البداية ثم صاخبة وملحة للاستيقاظ.

وأمام الأكواخ الصغيرة للمكتب العربي التي كانت ماتزال نائمة، أخذ بعض أصحاب البرانس الزرقاء والحمراء يمرون من بين ذوي الأسمال البالية الخضراء والسوداء للبدو الرحل من يهود قنادسة، الذين قدموا من الجنوب لبيع حلي الفضة والذهب.

وكانت هناك حركة غريبة أيضاً لدى الكوم حيث كان عموريو عين صفرا يستعدون للمسير غرباً نحو بشار، وسينحدر ترافيو جيري فيل إلى تاغيت وبني عباس من أجل حماية الموكب، فذكر اسمي المنقار والزفراني مايزالان يثيران قشعريرة الموت.

... في النهاية، وبعد ساعات من العمل والصراخ، جمعت كل الجمال، وكانت في حدود ألفي جمل وسط الحمولات التي كان يتعين حملها.

كانت واقفة، والشمس المائلة تنزلق على ركام لا حصر له من القوائم الكبيرة الثابتة وعلى رؤوس مائلة، فضولية، ومتيقظة، وعلى الظهور والجوانب السمراء والرمادية والبيضاء الكامدة والشقراء والحمراء...

وكانت هناك بعض الجمال الصغيرة الطريفة ذات الرؤوس الطويلة والوديعة، وتظارُف

الطيور الكبيرة ذات الزغب الحالك، تلتصق بأمهاتها باحثة بمشافرها المشعرة عن حلمات الضروع.

واخذ السخار في تلك اللحظة ينيخون جمالهم بضربات عصي صغيرة تحت ركبها.

وشُرع في التحميل. فكانت جلبة يشق وصفها، إذ اندلعت شجارات حول كل دابة، بصراع غاضب وهتاف ملء الحلق، وسباب وحركات صاخبة كما لو أن كل ذلك سينتهي بمذبحة. ويؤخذ الله كشهيد. ويُشهَد الرسول على خيط من ليف النخل لم يربط جيداً ومن أجل إقفال كيس.

ويستمر ذلك من دون عناء الانتباه للساعة مع جلبة متزايدة.

كانت هناك عربات تصرّ، وفرسان يمرّون مسرعين مثيرين الفوضى والرعب في الجمال التي تقوم ملقية حمولتها المجموع نصفها لتفر تتعقبها لعنات السخار.

ويتحرش الباش آمرون الذين ظلوا على ظهور جيادهم منذ الصباح وعصيّهم في أياديهم برجالهم يحثّونهم ويصيحون مصدرين الأوامر، مهدّدين، حتى أنهم يضربونهم في بعض الأحيان.

ومن مكان بعيد جداً، ينادي البدو الرحّل بعضهم بعضاً صائحين بأصوات عالية.

آه! يالأصوات أناس الجنوب. من أي معدن هم حتى لا يتعبوا ولا ينزفوا من كل ذلك الزعيق الكبير، وتلك النداءات التي تطلق مثل أصوات الأبواق؟

وثارت بعض الجمال، وفرّت، وضربت الأرض بقوائمها، وشبت بعض الأحصنة.

وهبت الرياح صافقة الأثواب العالية مثل أغطية منفوخة في الغبار المتطاير.

وألقت الأزياء العسكرية لأصحاب البرانس الحمراء والزرقاء أطيافاً زاهية على أمواج الألوان المعتمة والترابية تلك.

وصدرت أصوات فرنسية ضعيفة جداً محاولة النفاذ وسط الصراخ البدوي غير انها كانت تضيع في غمرته.

وكان صوت الجمال الأجش والفظ وأنينها المستمر مهيمناً على كل الجلبة التي أخذت تتصاعد مالئة السهل حتى الصمت الأبدي للأماكن البعيدة.

... ومع ذلك، ستنتهي تلك الرؤية الكبرى للحياة البدائية، والتي لن يُرى عمّا قريب بهاؤها مع الأمان وخطوط السكة الحديد...

وكان جنود الحراسة بالشاشيات والأحزمة القرمزية على القماش الأبيض لزي المرافقين يهتزون ويمرون مثيرين نقعاً كبيراً على القطيع، فيما تبعث الشمس وميضاً أبيض على معدن البنادق.

ومضى كومي باتجاه الغرب خلف المعقل، بأعلامه الفرنسية الصغيرة الثلاثية الألوان على بياض البرانس الكامد.

حُمل كل شيء، وانتهى الأمر.

وببطء، أخذت الجمال تنحدر في الوادي الذي عبرته قاصدة جنان الدار.

وخلال ساعة شكلت خيطاً لا ينتهي، يتعرج عبر السهل(١)، حيث تجعل الشمس الغبار ذهبياً.

ثم اختفى الموكب، وتلاشى في الأفق الذي أخذ يحمر، هناك حيث سُحب البخار الحارق.

الإنجيل

عند الغسق، يوم الأحد، طفا السُّكر في جنان الدار، وسال الخمر بجنونه الحزين وأغاني المنفى عبر الحانات والشوارع الرملية.

ومع ذلك، فقد كان هناك مكان هادئ كنت أقصده للانعزال في اللحظات التي لم أكن أشعر خلالها بالحاجة المؤلمة إلى التسكع وسط الجموع والغوص في لُجّة السعير...

كان ذلك خلف المقهى المغربي الوحيد على مقعد مائل تسنده صفيحة بترول.

ولم يكن هناك من صوت. لا شيء سوى واد صغير أجرد، وكثيب منخفض، وفي الخلف احتدام النهار الذي ينتهي.

وتأتي من القاعة المملوءة بالدخان الأغاني العربية الحزينة، والأنين البطيء للنايات وانتحاب الغيطة، لتضيع في السكون.

كان المكان مثالياً للاسترخاء والحلم في تبديد لذيذ للكائن.

... وجدت ذات مرة أحد رجال الفيلق جالساً على مقعدي. كان جرماني الوجه أشقر مع اسمرار الجنوب القوي وبنظرة متفكرة وحزينة تقريباً.

سرعان ما شرعنا في الحديث بجمل قصيرة في البداية.

ولأرد على استغراب رجل الفيلق لسماع عربي يتحدث إليه كيفما اتفق لغة من لغات بلده أخذت في قص حكاية عادية.

---

(١) ورد في النص الفرنسي a traver la pleine ولا شك أن الكاتبة تقصد السهل la plaine. المترجم.

وهكذا أخذ يثير بعض الذكريات البعيدة والمبهمة مستعرضاً أمامي على نحو غير واع ملامح حياة أُفسدت بالتشرد عبر العالم ما جعلها تبدو أمامي جذابة.

ولد في ديلسدورف، وفي سن العشرين حين كان طالباً في الحقوق أُخِذ بحاجة قاهرة للسفر والمغامرة. وانخرط في الجيش، فأُرسل إلى الصين تحت قيادة المارشال دو والديرسي.

وفر من الجندية ذات يوم وهو في طريق العودة بعد أن مل الحياة في الثكنة. وكان على التوالي مهرجاً في المرافئ الصينية، وكاتباً في إحدى القنصليات، ثم ملاحاً. وأخيراً، بعد خمس سنوات من تركه المدينة التي ولد بها، انتهى به الأمر في الجزائر من دون موارد، فانخرط في الفيلق.

يستعيد أوغيست سيمان عيش السنوات الماضية من دون ندم. لقد أفسدت حياته، هذا صحيح، لكن ماذا يهمه في النهاية؟ ذلك أنه لم يشعر بالملل، وقد رأى بلاداً، وصار يعرف الآن الناس والأشياء.

. . . سرعان ما غدونا رفيقين، أنا والفار من الجندية، وتقريباً كلّما حضرت إلى جنان الدار كان يسارع للالتحاق بي في المقهى المغربي الذي يفضله على الحانات الصاخبة لأنه لم يكن يشرب.

حدثني سيمان ذات مساء قائلاً:

ـ السيّئ هنا هو أننا لا نجد ما نقرأه. . . لا شيء أبداً، حتى جريدة! نتوحش هنا، ونعيش مثل الداوب. كان الأمر سيكون جيداً لو أننا نقرأ هنا في هذه اللحظة معاً، ونحن نشرب القهوة.

وبدا كأنه تردد قليلاً قبل أن يضيف:

ـ لديّ كتاب. . . لكنك لست مسيحياً، ومن دون شك لا تريد. . .

فحدثته عن القرب الكبير بين الإسلام واليهودية القديمة، وتوحيدهما عينه، وهكذا فقد ركض سعيداً إلى المعقل العتيق حيث غرفته الخشنة المشيدة من الطوب المتداعي.

وعندما عاد فك ثنيات خمار عتيق من الكشمير الأصفر.

وكان جلد كتابه الأسود يتألق بصليب ممدد بشكل مائل على فجر ذهبي، بشمس كبيرة تسطع من أفق معتم ومضطرب.

وكانت أسماء ألمانية وتواريخ قديمة تثير ذكريات من الماضي قد كتبت بحروف قوطية جميلة على حافظة الكتاب المصفرة. وكان بين الأوراق الدقيقة القديمة بعض الأزهار التي شحبت، وأفكار وزهر النسرين والبنفسج الميت تسقط كغبار وكانت قد قطفت من المروج البعيدة.

ـ هذا الإنجيل قدّمه القسّ إلى أمي في موطني يوم زفافها. هذا كل ما احتفظت به منها، ومن البيت العزيز هناك...

بعد لحظة بدا صوت رجل الفيلق يرتعش قليلاً، ولما فتح الكتاب على مرثيات ونبوءات التدمير لأشعيا العظيم، قرأ بجدية وتقريباً مرتّلاً.

... وفي الصحراء المقفرة، والغارقة في شفافية وردية، التمعت المياه.

ومن أفق إلى أفق آخر انطلقت موجة لهب أرجوانية عبر السماء الخضراء والذهبية.

وأخذ صوت الجندي البطيء ينشد مقطّعاً الإصحاحات، وترددت لغته الشمالية بشكل غريب في تلك اللحظة وفي ذلك المكان والمنظر.

جلب الكتاب الأسود الصغير الطلسمي المؤثر ضباباً شمالياً شوّهت قرون من المنفى روعته، وجعلته يبدو شاحباً ليصير شيئاً فشيئاً كتاب إسرائيل الذي كتب من أجل أرض مماثلة، أرض قاحلة، مثل الأرض اليهودية القديمة المتألقة.

عند قريب بوعمامة

ابتسامات ودودة على وجوه مستريحة، وحركات بطيئة وجادة تحت أثواب بيضاء. صمت وانكفاء على الذات في ساحات واسعة حيث يعبر الرجال من دون صوت، مثل أطياف. صلوات هامسة، وهيئات منتشية... سكون الأشياء عبر القرون...

لا يُميَّز شيء عند النظرة الأولى في زوايا الغرب العتيقة والمنيعة، والوحيدة وسط الزوابع التي تهدر في الجوار، ووسط أنقاض عالم ينهار.

ومع ذلك، فهناك شيء آخر خلف واجهة اللامبالاة الأنوفة لتلك الأشياء القديمة، فهناك دسائس غريبة تنتهي غالباً في المغرب وسط الدم، وكراهية قديمة، وإخلاص

مطلق إلى جانب خيانات معلومة، وشغف بعنف رهيب يغفو في القلوب، واختمار الحرب وسفك الدماء.

غير أنه لتمييز كل تلك الأشياء الخفية ينبغي أن يعمل المرء على أن يكون مقبولاً في الزوايا، وأن يعيش فيها، وأن يكتسب بعض الثقة هناك، لأن كل شيء يبدو من الخارج أبيض وساكناً. . .

وفي زاوية بوعمامة القديمة بالحمام الفوقاني، وبعد يوم حارّ تخلّلته هبّات عواصف، كان المساء هادئاً وساكناً مع نوع من الإحساس بالضيق في ذلك الصمت.

وغابت الشمس من دون التقزحات الصافية المعتادة، ومن دون أن تلطف أطياف اللون، غابت في حريق هائل، مرّ من الأحمر القاني إلى الأخضر الكبريتي في السماء حيث كانت تطفو بعض السحب بلون الجسد الوردي.

اسودّ بستان النخل المجاور بظل مبكر، بلون أزرق داكن، لون أسود تقريباً، بينما كان بعض اللهيب الذهبي الأحمر وحده يتحرك على القمم المبعثرة لأشجار النخيل.

وفي ما وراء أسوار الساحة المنخفضة كان السهل الكبير يمتد خلف فيكيك حتى جبل غروز الوعر، وكان يحترق بنار كامدة مثل أتون مغطى برماد لم يطفأ تماماً.

وقامت إلى اليمين، في منحدر وسط واد حجري قاحل، قبة سيدي عبد الرحمن محمد، سيد فيكيك. وقد صبغت قبته البيضاء بألوان النحاس المغلي، وانعكاسات انصهار لامع يتدفق على جدرانها.

وقبالتها، وفي القصور البعيدة جداً، ارتسم خط أسود بالكاد يمكن تميزه أسفل التسننات الملتمعة للجبال وكان ذلك لنخيل العرجة.

وأقرب منها تبدو الدار البيضاء[1]، وهي ثكنة المخزن الشريفي التي بقيت وحدها متقدة في السهل الذي صار شاحباً.

وإلى اليسار، على الجهة الغربية، كان سور غروز القوي الذي صار أسود اللون، و هيكل جبل ميلياس المائل والمشتعل. منظر عظيم تتقلب فيه الأنوار الساحرة.

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة لها باللغة الفرنسية من قبل الكاتبة في الهامش. المترجم.

وكان الليل وشيكاً.

ارتفع صوت أذان المغرب بأنغام بطيئة من المنارات البيضاء المرتفعة لمعيز وأودارير، وخرجت ظلال زرقاء مسرعة من حفر الأرض باتجاه المرتفعات التي أخذت تنطفئ شيئاً فشيئاً وتغرق في شفافية بحرية.

وهكذا انبعث حوالي عشرة رجال هزيلين تسلّلوا خفية ملتفين حول أسوار أودهير بشكل غير متوقع ومقلق مؤتزرين بخِرق غريبة. كانوا مسلحين ببنادق من نوع موزير، ويدفعون أمامهم بعض الخراف الهزيلة... وإلى جواري كان أحد خدام الزاوية ينهي صلاته بجدية، وبنظرة مداعبة ومعتمة.

سألته قائلاً:

ـ من يكون هؤلاء الرجال يا السي محمد؟

ـ آه! لا أحد، مجرّد رعاة من ميلياس.

ـ لكنهم يضعون عمامة بني غويل.

ـ كلا، هم عرب منا، ويلبسون مثل بني غويل لأنهم بقوا طويلاً في سبخة تيغري.

غير أن السي محمد تركني فجأة، واختفى عند منعطف رواق. وبينما زادت كثافة العتمة دخل أولئك الرعاة الذين كانوا يشبهون لصوصاً إلى الشوارع المغطاة للحمام الفوقاني، وبعد لحظة سمعت ثغاءً في ساحة خلفية من الزاوية.

وشرح لي السي محمد الذي عاد جارّاً حذاءيه الجلديين القديمين الأصفرين:

ـ هؤلاء الناس المساكين أرهقتهم الحرب، وقد حضروا إلى هنا من أجل بيع خرافهم وطلب بركة الشيخ وبركة أجداده، فليمنّ الله عليهم من فضله! ليس لهم من ملجأ آخر غير هذا البيت...

كانت هناك قاعة طويلة، بجدران جرداء، وأرضية مغطاة بزرابي سميكة من الصوف الرفيع، وبوسادات حريرية صفراء وخضراء مغلفة بورود ذهبية مشتتة.

وعلى مشكاة مرتفعة كانت شمعة وحيدة تضيء الغرفة، وكان الضوء الخفي يتدفق على الزرابي مرسلاً موجات أرجوانية، وموجات خضراء، وتنزلق انعكاسات بنفسجية وحمراء ذهبية بحسب تلوينات الصوف الواضحة والدافئة.

وفي إحدى الزوايا كان ضوء خبازي يلتمع على جنب مقبب لغلاية مغربية من النحاس الأحمر موضوعة على ركيزة مرتفعة ذات ثلاثة أرجل. وعلى الأرض صحن صغير يلمع مثل قمر شاحب. وكانت مياه ماسية تتألق من إبريق من البلور الأبيض إلى جانب كؤوس الشاي الصغيرة المرصّعة بأحجار كريمة مختلفة الألوان. . .

وكان السي محمد بن منور قريب ونسيب بوعمامة والسيد الحالي للزاوية نصف ممدد على الزرابي. وكان جسده القوي والمرن ملتف في بُرنس من نسيج أحمر رماني، وحايك من الصوف الدقيق يؤطر وجهه الأسمر والهزيل على هيئة القصريين البادية، بلحية سوداء تتخلّلها بعض الخطوط البيضاء.

. . . وكان وجهه ينمّ عن الذكاء والحيلة والنباهة ونظرته بشوشة ومداعبة تقريباً لكنها تغدو قاسية فجأة. ويبتسم من دون لطف، وابتسامته ساخرة غالباً، إلا أن حركاته كثيرة ونشيطة من دون الهيئة الجدية والتحفظ اللذين يميزان باقي أولياء الجنوب.

والسي أحمد يحب أن يمزح ويضحك عندما يكون رفقة الأوروبيين، ويحرص على تقليد نبرتهم الخفيفة والمتهكمة. كما يحرص السي محمد على إظهار مشاعر إيجابية اتجاه الفرنسيين وإثبات إخلاصه. . .

وكان يبدو في تلك الساعة منشغلاً، وأخذ يحدثني مطولاً عن بستان النخيل الصغير في ميلياس، وعن أناس الفوقاني من دون أن أسأله، حتى أنه بدا مصرّاً على غير عادته وهو الذي ينتقل بسهولة كبيرة عن الموضوع الذي لا يسعده كثيراً التطرق إليه.

وأمامنا مباشرة كان ابن الشيخ، حارس سيدي سليمان، الذي أتيت معه، وهو رجل هزيل بادي الزهد غير أن في عينيه طاقة حياة غير عادية.

كان يتحدث بكل حرية أمام من كان يحل محل السيد المنفي، فله أيضاً وضعه المهم، ذلك أنه الخادم الأكثر إخلاصاً لبوعمامة في بني ونيف.

حكى لي أن بعض المخلصين رحلوا ذلك الصباح لزيارة الولي هناك في الزاوية المتنقلة الموجودة حالياً عند سفح جبل الثلج على بعد حوالي خمسة أو ستة أيام سيراً إلى الشمال الغربي من فيكيك. وبزفرة عميقة حزن بن الشيخ للقدر الذي يبقيه هنا هو

الذي يرغب كثيراً في رؤية المعلم مجدداً. ثم للمرة المئة تقريباً منذ أن عرفته قال بابتسامة مغرية:

«عليك أن تذهب لرؤية سيدي بوعمامة يا السي محمود، فبصحبتي، وبحماية السي أحمد، ليس هناك ما تخشاه، ستذهب إلى زاويته، وكأنك تأتي إلى هنا. أما سيدي بوعمامة، فسيستقبلك فاتحاً ذراعيه وكأنك ابنه... عليك أن تفعل هذا يا السي محمود، وفيما بعد، عند عودتك، يمكنك أن تقول للفرنسيين: « رأيت بوعمامة، ولم يصبني بأي سوء. استقبلني جيداً، مثلما يستقبل المسلمين الجزائريين. إنه ليس عدو فرنسا، وهناك سوء تفاهم بينهما...»

أنصت له ورددت عليه مراوغة:

- إن شاء الله[1]. سأذهب!

ربما أذهب في يوم من الأيام...

وعاد الصمت، وابتسم السي أحمد بطريقة غامضة، وبدا بن الشيخ غارقاً في حزنه كخادم متعصب. أخذ الضوء يتمايل وحرك ظلالاً مشوّهة كبيرة على الجدران البيضاء.

... نظرت إلى الرجلين، صاحبي الوجهين اللطيفين والمليحين اللذين يخفيان أسراراً عجيبة، هذان الرجلان صاحبا الروحين المغلقتين، واللذان تتملّكهما إرادة عنيدة تتجه نحو هدف واحد: خدمة بوعمامة.

وأنا أفضلهما كذلك، ثم عادا إلى طبيعتهما جادين وصامتين، وأكثر تناغماً مع هدوء الزمان والمكان...

كان الباب مفتوحاً على الرواق الواسع المغطى الذي يحيط بالطابق الأول. وإلى الأمام بدت دعامة مربعة من الطوب وسط الظلمة تحت انعكاس الشمعة الأحمر. وكانت هيئة بيضاء قد قرفصت على الأرض، وخلف تلك الحجب الساكنة من الأثواب الغليظة، لم يكن من الممكن تمييز وجه الخادم الأسود. وفي الساحة كان الحديث يتم همساً، وكانت أقدام العبيد العارية تمر محدثة حفيفاً. وكان ضيق شديد يضغط على الواحة الغافية، وعلى ذلك البيت.

---

(١) هكذا ذكر في النص الأصلي مع ترجمة باللغة الفرنسية. المترجم.

وأخذ الوقت يمضي في ليل بلا برودة.

انسحب السي أحمد إلى غرفته ناسياً، كما لو أن الأمر حدث صدفة، مسدسه ذا اللبدة المخملية الخضراء إلى جواري.

والتف بن الشيخ في بُرنسه العتيق. وتمددت جوار الباب الذي بقي مفتوحاً.

في البداية كانت هناك أشياء مشوشة، ورؤى عبرت روحي، ثم أخذ ذلك يتحدد أكثر. من هم أولئك الرعاة المسلحون بالبنادق والذين قدموا خفية مع حلول الليل؟ ومع ذلك، فليس هنا ما يُخشى... ويمكن للمرء أن ينام في أمان تام.

غير أن النوم جافاني.

كان الجو حاراً، وفاحت في الهواء روائح محمومة. قمت ونزلت من دون إحداث صوت. وفي صحن الدار المعتم كان بعض الرجال ينامون. وألفيت باباً آخر مواربا.

هناك، على ضوء النجوم الخافت، كان رعاة ميلياس ينامون، بنادقهم تحت رؤوسهم، وكناناتهم مشدودة على بطونهم الفارغة فوق جلاليبهم البالية.

كانت الوجوه تبدو نحيلة في لحظات الراحة، تعلوها أمارات ألم وقسوة، وخدود مقعرة وعيون غائرة ومغمضة تعباً.

وفي إحدى الزوايا ظهر ازدحام أبيض وناعم، يتموج أحياناً: هناك كانت الخراف.

عدت إلى الأعلى، ونمت أسفل الرواق. وبعد لحظة استيقظ خادمان كانا ينامان في الأسفل، وتحدثا هامسين:

ـ هل سيرحل بني غويل غداً صباحاً؟

ـ قال سيدي إنهم سيرحلون فجراً.

ثم تابعا بلهجة بربرية، ولم أفهم إلا قليلاً مما يقولانه. كانا يتحدثان عن باشا أودهرير وسيدي بوعمامة...

فأولئك الذين حسبتهم رعاة هم فعلاً من بني غويل المنشقين، وهم فلول جيش ما انفض بسبب الموت أو الجوع، ولربما قدموا من مكان بعيد جداً بتلك الأغنام التي حصلوا عليها بطريقة يعلمها الله وحده.

جاءوا حاملين أخباراً من الغرب، وربما من جبل الثلج، وحضروا من أجل التزود أيضاً.

. . . غير أن النعاس غلبني أخيراً. كان نوماً هادئاً وناعماً في تلك الساعة المنعشة من منتصف الليل.

وعند الفجر ذي اللون الخبازي، وفي سعادة الاستيقاظ، كانت ساحة الزاوية خالية، ذلك أن بني غويل تلاشوا مع الظلال الأخيرة.

مِهَن الماضي

هناك شارع مظلم ينتهي إلى ملتقى طرق مكشوف حيث تتدفق انعكاسات ذهبية على امتداد الأسوار الشاحبة لجماعة المعيز.

وكانت هناك بعض المتاجر الضيقة والتي يلجها المرء عبر أبواب ضيقة مثل أبواب المخازن. وهناك، تشحب أجيال من القصريين في مهن دقيقة في تجارات صغيرة ورتيبة.

كانوا هناك مدثرين بصوف أبيض، أمال بعضهم جباهاً بيضاء وأعيناً سوداء كبيرة على كتابات عربية مبهمة. إنهم الكتاب ورجال القانون والكتاب العموميون.

بينما يحرك آخرون أصابع مرنة على الأثواب الفيلالية الحمراء الليّنة، وهم يستخرجون الحرير بألوان حيّة، مخففين لمعان الجلد الدموي عبر ترصيعه بألوان زرقاء شاحبة، والألوان الصفراء الذهبية بألوان خضراء حارّة أو ألوان بنفسجية دافئة.

ويشبه جهدهم لعباً مادامت حركاتهم سريعة وسهلة ومقتصرة فقط على معاصمهم في سكون أجسادهم المنحنية وسيقانهم المتشابكة.

وفي بعض الأحيان تضيف جبيرة (خُرج سرج الفرسان) معلقة على مسمار لمسة فرح على ضوء سور عارٍ. . .

. . . وتحت رواق عتيق جداً ذي دعامات مربعة ثقيلة كان رجل عجوز يجلس على حصير من قصب. كان هذا المسنّ البربري هادئاً وساكناً يرتدي ثياباً بيضاء. وكان يأتي فجر كل يوم ليجلس هناك لساعات طويلة. وكانت عدة جرار طينية مملوءة بالماء موضوعة أمامه، وفي كل جرّة يطفو قمع نحاسي مثقوب من الأسفل يملأ ببطء.

في الماضي حسب القصريون المبتكرون الوقت اللازم لريّ كل قسم من بستان نخل. وهكذا ابتكروا هذا النظام الغريب للقماع الذي يوافق كل منها قسماً معلوماً. فقد كان يلزم القمع ليمتلئ الوقت عينه الذي يلزم مجموعة النخل لأخذ الماء الضروري لخصوبتها.

ومن أجل تفادي الشجارات التي لا تنتهي، والتي تكون دامية في الغالب، فقد أوكلت إدارة المياه إلى مسنّ حكيم وهادئ، يمضي حياته مراقباً تلك الأدوات القديمة أسفل الرواق العتيق. . .

وقبالته يقوم جدار مشيد بالطوب ومزيّن بفسيفساء صنعت من الحجر الكريم. وأسفل ذلك الجدار مقاعد طينية كان أعضاء الجماعة يجلسون عليها ليتباحثوا في شؤون القصر.

فيما مضى كانوا يقررون هناك في أمري السلم والحرب، ويحاكمون الناس على أخطائهم ويصدرون في حقهم أحياناً قراراً بالإعدام.

ومنذ سنوات طويلة يحضر شيخ الماء(١) هادئاً إلى أكثر النقاشات صخباً ومللاً. وينظر إلى جراره مبتسماً بطريقة غامضة، كما يلاحظ على الجدار المقابل فوق الرؤوس التي ماتزال شابة والتي تغلي وتحتدّ، حركة أشعّة الشمس وانعكاسات السماء.

رجال الفيلق

يوم وداع على رصيف المحطة المتداعي. نظرة حزينة على رجال الفيلق المنشغلين الذين يمرون ويعاودون المرور أمامنا. قال لي ضابط فيلق متقدم في السن:

ـ كثير من المجرمين ممن حكم عليهم سابقاً، ومن الفارين من السجن، ومن الذين لا وطن لهم. . . ماذا أعلم أنا! هكذا يحكم بصفة عامة على رجال الفيلق. صحيح أن لدينا هنا العديد من الذين لا تُعرف أصولهم، وممن أغرقتهم الحياة. ماذا! وصحيح أيضاً أن أعضاء الفيلق يشربون الكحول من دون ماء، وأن سكرهم غالباً ما يكون مرعباً. لكن يا للشيطان! ليس هناك إلا هذا، وليس للرجال إلا العيوب. آه! إذا

(١) شيخ الما كما ذكر في الأصل مع ترجمة من قبل الكاتبة على الهامش. المترجم.

ما عرفت إلى كل هذا قساوة حياتهم، فهم دوماً في بلدان يفتقد فيها كل شيء ويموت الناس، وليس هناك على الخصوص متفرّجون من أجل تشجيعك والافتتان بك! ها نحن مثلاً نرجع من بن زيرق حيث شيّدنا المركز ودافعنا عنه، وحيث على امتداد عدة أشهر لم نكن مرتاحين ليوم واحد، وحيث خلّفنا وراءنا أناساً... إذن، هل تظن أننا أرسلنا إلى هناك من أجل الراحة؟ والآن، ما إن نستعيد قوانا حتى نذهب إلى تونكان... هكذا!...

وأبدى الضابط المتقدم في السن حركة غامضة، حركة عربية تعني: مكتوب!... فليكن الأمر كما كُتب...

... كنت قد رأيت قبل بضعة أيام رجال الفيلق أولئك من مفرزة بني زريق وهم يدخلون. حدث ذلك على الكثيب المنخفض وراء بني ونيف الذي يشرف على طريق الغرب بعد ظهر يوم صافٍ من شتاء صحراوي شاحب وكئيب.

في البداية كانت هناك بعض الجمال المشتتة، وبعض الباش آمرين وبعض السباهيين، والذين ظهروا في وادي الحجارة.

ثم أتى رجال الفيلق، متيبسين ومدبوغين، وقد غارت أعينهم في محاجرها وأنهكتهم الحُمّى متدثّرين بمعاطفهم العسكرية الحائلة الألوان والبالية، وبعتادهم المرهق القديم المغطى بالغبار.

وكان الضباط منهم ينحنون من على سروجهم ليسلموا على الرفاق الذين قدموا قبلهم.

وكانت تطفح من عيونهم هم أيضاً السعادة الغامرة لرؤية ذلك المكان من بني ونيف، كما لو أنهم دخلوا عاصمة للحلم بعد شهور من المنفى.

... وكانوا وسيمين بأسمالهم البائسة وفي هالة اليوم الهادئ حيث يغدو رجال الفيلق أفظاظاً في عمق الحمادة الكئيبة... لم يكونوا مثل جنود الاستعراضات الذين يجوبون بخيلوهم شوارع المدن الصديقة بلا مأوى ولا عمل...

ففي روعة الآفاق الكئيبة وتحت تهديدها، على تلك الأرض المعلّلَة والمميتة حيث يحيون حياة مريرة ومن دون فرح، كان الجنود يأخذون مظهراً آخر.

فيكيك

كان وادي فيكيك ينفتح تحت الشمس مثل كأس كبيرة شاحبة.

كنت جالسة على حاجز من تراب ذهبي اللون لبرج عال مهتزّ. كان قديماً جداً وهشاً جداً حد أنه بدا على وشك الانهيار والاستحالة إلى التراب. وكان البرج يتراءى في الماء المعتم لمستنقع بمحاذاة بساتين أوداغير، ويقع في مكان عالٍ جداً ويشرف على الوادي كله.

كنت وحيدة في روعة بداية النهار، وكنت أحلم وأنا أنظر إلى فيكيك، الواحة الملكة، والتي لم تبد لي أبداً بمثل ذلك الجمال، ربما لأنني كنت أعتزم الرحيل في اليوم التالي.

وفي البعيد، باتجاه الجنوب، وفوق قمم تاغلة وميلياس، كانت الصحراء الحمراء تصعد إلى الأعلى في السماء، محاذية الأفق بخط واضح ومعتم مثل منظر أعالي البحار.

وكان التصدع القوي لقمّة زناغة ينفتح مثل سرير نهر حيث يجري الدفق الأسود لأشجار النخيل بين جبل تاعرلة ذي اللون شديد الزرقة وجبل زناغة المضيء كله بشكل مائل بلون وردي.

وإلى اليمين كان هناك تخريم قمة لاجويف القاحلة والحجرية وسط تلال جرداء وقمة موجابدين حيث السرابات الحارقة لفصل الصيف.

وكان مدخل الوادي المسطح والقاحل يلمع تحت الشمس. وفي مكان أقرب، أسفل الموضع الذي كنت أقف عليه، كان بستان نخيل زناغة يلف تموجه العظيم ويضرب موجه الجُرف، ذلك الجُرف الرمادي العالي الذي يفصل سطحي فيكيك.

وكانت رؤوس النخل المتراصة تأخذ ألواناً مخملية زرقاء شاحبة حيث تنزلق انعكاسات فضية. وباتجاه اليمين قصر زناغة العتيق، الذي يضيف لمسة ذهبية داكنة أكثر احتداماً في شحوبه الدقيق. وعلى الجبل كما على الوادي، كانت شمس الصباح تنثر دفقاً من الصفاء الأزرق، صفاء حي بشفافية لامتناهية. وعند قدم البرج كان رجل مسنّ أعمى يقف مستنداً بظهره إلى السور الخشن، ماداً في صمت يده باتجاه الطريق التي يعبرها المؤمنون.

كان طويل القامة، وسيماً جداً بوجه نحيل، وبعينين فارغتين وبهدوء برونزي معتم. وكان جسده الهزيل مغطى بشكل رائع بأثواب ذات ألوان ترابية.

وفي البعيد، على الطريق المشمسة، توقفت امرأتان بربريتان، وانعكس ضوء الشمس على الثنيات الثقيلة لأثوابهما الصوفية الأرجوانية التي تجر الغبار.

... وفوق أحد الأسوار أخذ رأس جمل صغير وديع يتمايل مع أنين مبحوح ووجه غامض بأسنان صفراء طويلة.

... وانفصل جزء جاف من الطوب من أعلى البرج، وسقط على ماء المستنقع الميت، حيث أخذت دوائر فضية تتسع لتخبو على الضفاف الرطبة.

نزلت نحو زناغة عبر ممر الجرف الضيق حيث تنزلق الجياد، وترتعد عند اقترابها من الهاوية. وبقدر ما كنت أنزل كان سور أشجار النخل الهامس يرتفع، مخفياً شيئاً فشيئاً صفاء الأماكن البعيدة.

وفي الأسفل، تحت ظل بستان النخل الأزرق، كانت مياه ساقية تجري على الطحلب. وكانت البساتين القصرية تعرض فيض اخضرارها المزرقّ، واخضرارها المعتدل. وكانت أشعة الشمس التي تتخلل الجريد المسنّن الذي لا تكاد تحركه الرياح تنشر بقعاً ذهبية على الرمال الحمراء والحجارة البيضاء. ومن مكان قريب تنفرج ممرات صغيرة جميلة ملأى بالظلال وبالانتعاش وسط الأسوار المشيدة من طوب البساتين الصافي.

وتحت الجريد المائل على شكل أقواس، كانت أشجار تين تميل باتجاه الضوء بأوراقها المذهبة بفعل الخريف حيث تختلط أوراق الكروم الحمراء بأوراق أشجار الرمان والخوخ التي ما تزال حمراء مثل ورود متفتحة.

وكان ظل ساحر يمتد إلى الخطوط والألوان في تيه تلك الشوارع الضيقة التي لا مساكن فيها، والهادئة جداً حد سماع الحمام البري يحط بلطف على الأشجار المجاورة.

وفي بعض الأحيان، وفي انفراج مباغت، يظهر مستنقع كبير أزرق أشبه بمرآة ساكنة تنعكس على صفحته أشجار النخل المائلة ذات الجذوع التي اجتاحتها الأعشاب الضارة.

وكان الهمس يستمر في كل مكان، حيث الغناء الغزير للسواقي التي ينبثق ماؤها

من سور لتختفي فجأة تحت الأرض محدثة صوتاً ندياً لشلال، وتظهر ثانية على بعد خطوتين أسفل التخريمات الخفيفة للسرخسيات الخضراء.

. . . وتصعد الشمس ببطء كما لو أنها تحتفي بانتصارها فوق هدوء وسعادة الواحة الرائعة.

وبعد بستان النخل ولجت الظلّ الأبدي لشوارع زناغة المغطاة حيث تمر أجساد بيضاء محاذية الأسوار بهدوء كما لو أنها تفعل ذلك في السر.

وكانت هناك أبواب فظة لا تكاد تنفتح، وساحات غير متناسقة تسلط عليها أنوار زرقاء.

ووسط كل ذلك الحذر، وكل ذلك الصمت، كانت تسمع في بعض الأحيان عبر سمك الأسوار العمياء الدمدمة الخرساء للطاحونة الإفريقية ذات الذراع، والغناء الرتيب باللهجة البربرية لبعض النساء القصراويات غير المرئيات.

كنت أمضي مفكرة بحزن أنه بعد بضعة أعوام لا بد أن تأتي الأرباح الفاحشة والحماقة والخمر التي لوثت بسكرة لتدمر السحر الذي لم يمس بعد لهذا الملجأ الصحراوي القديم.

وبالطريقة التي حافظت بها واحة فيكيك على نفسها بشكل يثير الغيرة عبر قرون في ماضيها البعيد، بدت لي كجوهرة في منتهى الجمال.

. . . وعلى الطريق المغبرة، في الوادي القاحل المستعر، كان بعض الفيكيكيين على صهوات جيادهم قد قدموا لمرافقة حمير محملة بأكياس قمح وشعير يدفعها عبيد حرطانيون سود.

وكان البربر الواضحو البياض والهادئون جداً بأثوابهم الصوفية، يتقدمون ببطء، وقد تركوا الأعنة على أعناق مطيّهم الهادئة.

وكانت أعينهم السوداء الواسعة تلقي نظرة غامضة نحو جبال بلدهم البعيدة حيث اختفت روعة الصباح الفاتنة.

مروا جوار رفيقي ذي البرنس الأزرق وقربي، على نحو خفي، وألقوا علينا تحية السلام المفروضة في الإسلام، وهي علامة على التضامن والأخوة بين كل المسلمين

من تخوم الصين حتى ضفاف الأطلسي ومن سواحل البوسفور حتى حدود السنغال.

فهمت وأنا أنظر إلى أولئك الرجال وهم يسيرون في الوادي بطريقة أكثر حميمية من أي وقت مضى، روحَ الإسلام، وأحسستها ترتعش في داخلي. وتذوقت خشونة الطبيعة الرائعة، والرضوخ والحلم المشوّش جداً، واللامبالاة العميقة للأشياء في الحياة وفي الموت.

. . . وفهمت أيضاً لماذا كان المتسول الضرير نبيلاً جداً وهو يمد يده إلى المارة الذين لا يراهم في ليل عماه الأبدي، ولماذا ينام العرب عوض أن ينتفضوا وتعرق جباههم في رتابة الأيام الهادئة، ممددين في ظل الأسوار العتيقة التي تتفتت والتي لا يعيد تقويمها أحد، وعلى الأرض القاحلة التي يجدونها لطيفة. . .

لدى العامل الشريفي

زيارة لعبدالسلام عامل فيكيك، تحت وطأة شمس مستعرة خلف أراض غامضة نُثرت فيها القبور (. . .).

(. . .) سور أبيض مُسنّن: قصر أودارير (أعاد بناءه الحاكم) المغربي.

(خلف) الأسوار حوالي عشرين خيمة من خيم البدو الرحل (. . .) مومسات.

(داخل) ساحة كبرى حيث ترفع الرياح سحباً من الرمال صغيرة، كان نصف دستة من الجنود ينامون أرضاً جوار بنادقهم المتشابكة.

كانوا طوال القامة وأشداء، معتمرين الشاشيات الحمراء على رؤوسهم النشيطة شأن مغاربة الشمال.

وفي الأمام، كان هناك سور صغير آخر، أكثر حداثة وأكثر بياضاً (. . .).

وإلى اليمين حجرة صغيرة فارغة تستخدم كمركز للجنود، وهي ذات سقف مقبب وفيها يستقبل العامل العموم ويقضي بينهم.

أُدخلنا إلى الساحة الداخلية حيث أشجار تين صغيرة تلقي بقعها الخضراء على الألوان اللبنية للجدران والرياض، الرواق الكبير ذي الأقواس (. . .) حيث فرشت الزرابي.

وهناك استقبلنا.

جاء العامل السي عبدالسلام لمقابلتنا صحبة كاتبه ومترجمه.

كان رجلاً في حوالي الخمسين من العمر، قوي البنية أسمر الوجه يشع طاقة، أما عيناه الجميلتان فتبدوان مداعبتين حيناً وحادّتين حيناً آخر، وذكيتين وعميقتين.

استَقبلنا بلطف كبير وبحركات بطيئة تحت الثنيات اللينة لجلابيته الواسعة ذات القماش الرقيق الأسود.

تولّى السي[1] عبد السلام، وهو صديق محمد الجباص، السلطة الوهمية تقريباً كعامل للسلطان على فيكيك عندما كان الفرنسيون المستقرون بجنان الدار بداية، وفيما بعد ببني ونيف، على أعتاب الواحة.

ولم يكن الباشا، مثلما ينادى هناك، يحكم قصر أودارير على نحو فعلي.

ولم تعترف القصور الأخرى بسلطته إلا على نحو شفاهي، ولولا مجاورة المفتشية الفرنسية لفيكيك ولبني ونيف (. . .) لثارت في الحال.

وكان السي عبد السلام قد أقام بإنجلترا ويتحدث اللغة الإنجليزية، وكان (يفهم) اللغة الفرنسية من دون أن يتحدثها.

(ومن أجل المحادثات) الأوروبية، كان له مترجم، وهو شخصية (ذات سلوك مستقيم) مدعية بعض الشيء ولمّاحة (. . .) وتحدَّث مطوّلاً عن باريس لزملائي الفرنسيين.

ومثل كل شيء مغربي كانت الساحة الصغيرة التي تحيط (. . .) توحي بالشرف والغموض. . .

ومن بين الضباط بدا أحدهم أكثر أهمية.

(. . .) (طويل القامة)، ونحيف جداً، أعضاؤه هزيلة تحت الجلابية (. . .) ووجهه معتم وقاس وعيناه (. . .)

مؤطر بشعر رمادي طويل ومتماوج تحت شاشية حمراء مثنية من وسطها.

كان ذلك الضابط يصلح كجلاد، وقدمته لنفسي كقاطع للرؤوس (. . .) بكوميته[2] الواسعة ذات القبضة المذهبة.

ومع ذلك فقد اكتفى بتوزيع الشاي بهدوء، والحلوى والتمر. . .

---

(١) السي: السيد في المغرب. المترجم.

(٢) الكومية: سيف مغربي بنصل معقوف. ملاحظة إيزابيل إبرهارت.

وكان الحديث يدور بمفردات محسوبة وودودة حول مواضيع راهنة، ومُجِّد السلطان، ولُعِن الطامع، وأُثقل بوعمامة بالشتائم...

وكانت فترات صمت طويلة تقطع تلك المحادثة الرسمية جداً والمهيبة، والتي أرهقتني تماماً مثل زملائي الذين أخذوا على سبيل العادة يدوّنون ملاحظات تحت أنظار المغاربة الحذرة.

... المزيد من عبارات المجاملة، ثم انتهت الجلسة، ورحلنا. ورافقنا العامل حتى باب قصره. أما المترجم فحتى باب القصر.

وفي الإجمال حملت تلك القصبة البيضاء والغافية شعوراً حادّاً بتداعٍ لا يرجى منه شفاء، ونهاية (...) المغرب الفاسد والآيل للانهيار...

(...) كان الجو جميلاً جداً في شمس الجنوب المشرقة في (الشساعة) (...) ذات المظاهر الخالدة بعد الانحطاط و(...) ملجأ أمة انتهت...

منطقة عمور

طلبنا أنا والمخزني عبد القادر (...) الإذن بقضاء اليوم في زناغة...

بعد الغداء لدى أحد الكتاب ذهبنا (لنحتفل) لدى المومسات...

حاذينا شوارع مكشوفة، وشوارع مقفرة تتدفق عليها (الرمال) من السهل. وأخيراً، توقفنا عند حائط يتفتت، أمام باب منخفض ومرتج.

نزع عبد القادر برنسه الأزرق بسرعة، ذلك أنه إذا ما تمت رؤية علامة المخزن الفرنسي تلك فلن يفتح لنا الباب أبداً، لأن الجماعة تمنع على المومسات أن يستقبلن جنوداً من بني ونيف، وإلا سيعاقبن بالضرب بالعصا. وكان السبب المعلن لذلك القرار هو الخشية من الشجار مع المخزن المغربي. لكن في الواقع كان السبب كراهية المغاربة العميقة للمزانات[1].

طرقنا الباب.

وبعد لحظة لمحنا عينين غائمتين لعجوز كانت تنظر إلينا عبر ثقب. وبدأ عبد

---

(١) مزانات: المرتشون والفاسدون والخونة وهو الإسم الذي أطلقه المغاربة على مسلمي الجزائر الذين كانوا يكرهونهم بشدة. ملاحظة إيزابيل إبرهارت.

القادر يفقد صبره، فما أتى به هناك لم يكن فضول فنان. . .

وعينان أخريان، كبيرتان جداً وسوداوان جداً وقد بدتا في الظليل:

ـ من أنتما؟

ـ ترافيان. . . افتحي يا ابنة الزنا وإلا كسرنا الباب!

ـ ما الذي تريدانه؟ (كان صوت شاب ومبتهج يباشر المفاوضات عبر الفتحة).

رج عبد القادر الباب بقبضته.

ـ فل(. . .)! نحن تحت الشمس! افتحي!

(. . .) ولما رأت أننا عازمان على عدم (المغادرة) (. . .) رضيت بأن تفتح.

(الباب مقفل) وعرض عبد القادر برنسه الأزرق أمام النساء المذعورات.

ـ ستتلقين غداً الضرب بالعصا، أما اليوم، فاحمدن الله أننا لم نكسر الباب.

كنّ ثلاث شابات وعجوزاً قبيحة جداً بجسد رخو، أخذت تنتحب وتلعننا.

كانت الساحة كبيرة، وكان نصفها مملوءاً بالأنقاض وبجدران مرتفعة بعض الشيء هوت كأنقاض، وتحاذيها غرفتان سوداوان طويلتان مثل كهفين ببابين منخفضين.

ووسط الباحة نُصبت خيمة بدوية صغيرة، ملئت بزرابي عتيقة تألقت فيها أثواب جميلة ذات ألوان خضراء وصفراء، وأدوات منزلية من الطين المدخن، وصينية جميلة من النحاس المصقول وطبلة.

وإلى جوار السور جلس أربعة رجال، وكان أحدهم يخيط قميصاً ممسكاً القماش بأصبع رجله اليمنى. وكان الثلاثة الآخرون يحلمون بعيون نصف مغمضة مثل قطط سعيدة. في فيكيك لا توجد مقاه مغربية، وتستخدم بيوت الفرح كأماكن لالتقاء البدو الرحّل باستثناء القادة وكبار السن.

كان أولئك الذين ألفيناهم لدى مضيفاتنا سخاراً من أولاد بو عنان ودوي مينيا مجتمعين، وقد استقبلونا (. . .)

جلسنا على الزرابي الرثة (تقمصت في العلن) دور الشخص المعتاد على الخيام الكبرى، وتركت (المبادرة) للنساء اللواتي بدأن المجاملة مع بعض الخجل.

(. . .) غطت رقية الأكبر سناً (جسدها) الرقيق، والرشيق بملحفة لونها أصفر حامضي. كان لها وجه صغير (. . .) بشفتين غليظتين، وبعينين عسليتين واسعتين اللتين (. . .)

(. . .) بدينة أكثر امتلاءً، وتقاسيم أكثر وضوحاً وذات جمال مصري غريب، بوجهها المدور ذي (. . .) وبشفتيها المقوستين وبعينين واسعتين مظللتين (. . .)

(. . .) رزينة، ذات حركات رشيقة، وعندما تمشي يميل ردفاها الممتلئان ميلاناً عذباً جداً تحت الثنيات الطويلة لثوبها الأرجواني.

وعندما تكون مستريحة تبدو بحليها الثقيلة وكأنها صنم قديم.

كانت تدعى مغنية. ولدت في سهل أنجاد قرب وجدة. وحملها جنود مغاربة إلى فيكيك، وتركوها هناك.

. . . والثالثة خديجة، وهي طفلة تقريباً. كانت خلاسية بأسنان رائعة خلف شفتين شديدتي الاحمرار.

أعدّت مغنية الشاي، واستقبلتنا حسب الأصول. لاحظت بارتياح أن مومسات زناغة، على الرغم من تراكم الأثواب وفوضى الباحة، كن أقل اتساخاً، وأقل خسّة من أخواتهن الأكثر فقراً، واللواتي يثملن في خيم أودارير. . . وكن أيضاً أكثر ودّاً، وأقل استجداءً.

ومثل كل المومسات العرب، إذا لم يكنّ مصابات بعدوى اتصالهم بالجنود، كانت أولئك النساء الثلاث يتصرفن بشكل جيد، من دون حركات فاحشة، ومن دون كلام بذيء.

ومع ذلك فقد كن سعيدات، وكن يجزلن لنا تارة (مداعبات) متحفظة جداً، وتارة أخرى دلالاً صبيانياً وإيحاءات (. . .) لكنها مقنّعة جداً.

وقدم إلينا (جمالون) وقد أغراهم الشاي (. . .) وبعد طول تردد، (اختفى) عبد القادر (مع رقية) بعد أن اعتذر مني، (. . .) جداً.

(تمددت) على الزربية، ورحت أتأمل الألعاب الطفولية (للبدو الرحل) مع مغنية وخديجة.

كانوا يتدافعون، ويتقارصون، ويتصارعون مصدرين قهقهات وصراخاً نافذاً.

(ب) أحزمتهم المملوءة بالخراطيش، وبرانسهم الترابية، والعصابات البالية المؤطرة لرؤوسهم المفعمة بالحيوية، والجميلة، كان أولاد بو عنان يشبهون قطاع الطرق.

كانت (أسلحتهم) هناك على الزربية، في المتناول. لا شك في أنهم أطلقوا أكثر من رصاصة شجاعة في حياتهم...

ولكنهم الآن يلعبون مثل أطفال غير مكترثين، وضاحكين، ويغنون.

وكانوا يبدون مطمئنين وسعداء، ويمكن للمرء أن يذهب معهم عبر المغرب من دون احتراس... تلك هي خصائص البدو الرحل، حيث اللامبالاة الكبيرة، والطيش الكبير، وعدم ثبات شغفهم الذي يكون صبيانياً وسطحياً تارة، وعميقاً تارة أخرى، ولكنه لا يدوم أبداً.

فمع أيّ حادث يحصل هناك، في منفى مُتعهم ذاك، ولدى أقل شجار ينشب سترى أولئك الرجال الذين يبدون غير مؤذين البتّة يقومون قافزين، ويحملون بنادقهم، ويصيرون فجأة مهددين، ومستعدين للقتل.

... أخذت مغنية بلكنتها المغردة كمغربية تحدثني عن وجدة التي تحب كثيراً أن تعود لرؤيتها، مع أنها تألمت فيها كثيراً مع جنود المخزن وشباب المدارس الفاسقين.

روت حكايتها هناك في كوخ قذر بالقصبة، وسط الشجارات والخصومات الدموية في الغالب، مروراً (...) من شخص لآخر، مسحوبة ومقذوفة مثل شيء حقير (...) وكيفما اتفق عبر الزوابع.

(والآن) في هدوء وأمن فيكيك النسبيين (هي) ملت وتزفر بعد تلك الحياة (المغربية) المروّعة (حيث قصص) الحب تنتهي في الدم.

(...) أخذ أفراد دوي مينيا يروون (...) السطو والغزوات والشجارات (...) والقتل والحب في الصحراء (...) قصور وادي غير.

(كل) حكايات البارود تلك تتميز (باحتقار) كامل للحياة البشرية، حتى حياتهم، وباللامبالاة المطلقة للبدو الرحل المعتادين على العيش (...) من دون التفكير في الغد.

أو (يضحكون) من الدعابات المجازفة في بعض الأحيان، والدعابات القديمة التي كُررت ألف مرة، وأذيعت عبر معسكرات الجنوب الغربي كله.

وكانت المرأتان تضحكان مغطيتين نصفي وجهيهما بخفر بأطراف خماريهما...

تمضي الساعات بطيئة وهانئة في ركب الحب العربي ذاك، في عمق زناغة الصامتة.

ومالت الشمس إلى الأفق، واجتاح ظل أزرق كبير الباحة.

إنها ساعة العصر، صلاة بعد الظهر. قام الجمالون وتراجعوا إلى أقصى الباحة. تركتنا مغنية أيضاً، واختفت خلف طرف جدار بوعاء طيني مليء بالماء.

وعندما عادت، كانت مبللة الوجه والذراعين والقدمين العاريتين، وكانت قطرات واضحة ما تزال تسيل على بشرتها السمراء الذهبية.

كانت جدية جداً، وأكثر ما تكون بعداً عما كانت عليه قبل قليل، الصديقة اللامبالية للجمالين وللجنود المغاربة. استدارت جهة القبلة[1] وشرعت في الصلاة بصوت منخفض، ساجدة (. . .) على التراب مع طقطقة (دمالجها).

بنو إسرائيل

ممرات مغطاة معتمة مفصولة في أماكن متفرقة بملتقيات طرق مكشوفة حيث يبدو ضوء النهار بها أخضر مزرقاً مثل داخل الآبار. وفي بعض الأحيان، وعلى جدار ترابي، لمسة فرح لشعاع شمس مائلة في قلق الظلام. كانت تلك شوارع زناغة.

انعراجات مباغتة وممرات على مستوى أكثر انخفاضاً وأكثر سواداً حيث لا تمر الجياد، وحيث يتعين الانزلاق للمرور، واحداً في إثر الآخر.

تمر أشباح بيضاء غامضة ومن دون صوت، بينما تحافظ أخرى على هيئات التماثيل الجامدة على مقاعد ترابية غائصة في سمك الأسوار.

كل شيء في فيكيك يصمت ويغفو. لا جلبة ولا صرخة في تلك الممرات المتميزة بالرطوبة، وبالأصوات الخاصة بأديرة الرهبان حيث توقظ حوافر الجياد أصداء متعددة وبعيدة.

ولم تكن في الشارع الصغير الذي كان أكثر ضيقاً، والذي ينحدر إلى ملتقى طرق شديد الضيق بين سورين مصقولين بزوايا ناتئة، أية فرجة تفضي إلى الضوء الموجود

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، مع ملاحظة للكاتبة على الهامش تشرح فيها القبلة على أنها اتجاه مكة. المترجم.

في الخارج. يعيش بنو إسرائيل في ليل سرمدي، خاضعين تحت الحكم الإسلامي، ومحرومين، تماماً مثل الحرطانيين السود، من الحق في المشاركة في جماعات القصور، ومحكومين بالطاعة والصمت حتى لا يُزعَجوا ولا يُضطهدوا أبداً.

وفي الأحياء المسلمة هناك نظافة عارمة وعناية صارمة بالمنازل والجدران. وليست هناك خرابات أو قاذورات أو أنقاض متراكمة. كان ذلك هو الانطباع الأول والمفاجأة الأولى عند الدخول إلى القصور.

وعلى النقيض تماماً، كانت هناك رائحة فضلات نفاذة، وتجمّع بشري غريب، أو باحات واسعة كالسجون.

. . . وفي الخارج وفي بساتين النخل الصغيرة، كانت أشجار النخل الزرقاء تسبح في الضوء الأصفر، وأشعة ذهبية تتراقص على المياه الساكنة للبرك الخضراء المزرقة.

أصابت النتانة حلوقنا، في الملاح المعتم، وفي الظلمة الشديدة.

ومن أجل إيجاد الباب المغلّف بصفيحة عتيقة كان يتعيّن علينا إشعال عود ثقاب.

وأخيراً فُتح لنا الباب ببطء وحذر على ممر صغير غير منتظم، ضيق وعميق مثل حجرة، وكان حوله في الطابقين رواق مكشوف قبل غرف ذات أسقف واطئة.

كان يوماً مكفهراً، نهاراً كاذباً لسجن يحلّ على أرض مغطاة بالحُطام ومبللة بمياه ملأى بالدهون.

تجمهرت هناك مجموعة من الأطفال الشقر بغندوراتهم القذرة. فروا عند دخولنا، وتزاحموا خلف الدعامات المسودة بالشحم والملتمعة.

وتصاعد دخان جريد يابس خشن فارشاً جوار الجدران لون السخام. وفي الزوايا ركام من القاذورات والخرق وملابس وأشياء قديمة مختلفة الأشكال لم تحرك أبداً منذ سنوات.

كانت النساء الجالسات حول الموقد قد استدرن عند رؤيتنا. وكن يرتدين ملاحف البدويات، غير أنها كانت من الصوف الأبيض المتسخ، وكانت بائسة جداً، وطويلة ومحزومة عند الأسفل.

وعلى جباههن نصف المغطاة بعصابات سوداء كن يضعن مناديل حريرية داكنة شُدّت بإحكام، ويحملن سلاسل فضية صغيرة تتدلّى جوار أقراط الذهب الثقيلة في آذانهن. وكن أشد نحافة من القصراويات وأكثر ضموراً، وبلون الشمع الشاحب، غير

أن منهنّ جميلات ذوات وجوه مستديرة وأعين نُجلٌ حُورٌ وجفون ثقيلة.

وحده الالتماع المتحرك للحلي كان يضفي بعض الحياة وبعض الفرح على تلك الوجوه المرتعشة كوجوه الميتات.

وانعزلت أكثرهن جمالاً بعينيها المحمرتين دمعاً ووجهها الطافح بالشهوة والمرارة في إحدى الزوايا نافرة.

رمتنا بنظرة كئيبة.

كانت قربها عجوز هزيلة. هي جدة عمياء تنتحب بصوت مرتفع وتلوي يديها المخدرتين العجفاوين.

ترك حاييم الجواهري مصهره الصغير وأداوته الدقيقة ليرحب بنا. واعتذر عن الحالة التي ألفينا عليها منزله لأن مصيبة حلت عليه من وقت قريب. ذلك أن إستيرا، زوجة حاييم، كانت تزور رفقة أمها قريبات لها بقصر أودارير فاعترضها رعاة من البدو وهاجموهما، ووصلت بهم الجرأة حد كشف وجه إستيرا، وكانوا على وشك اغتصابها عندما مرّ فرسان مخزن باشا أودارير فلاذوا بالفرار. وعند وصولنا كان ما يزال العار والأسى يحزنان البيت.

كانت إستيرا جميلة وحزينة.

عندما ابتعد حاييم ليأمر بتحضير القهوة لنا أخذ رفيقي المخزني يضحك قائلاً:

ـ عندما يحل بنا أمر مماثل يجد الرجلُ الجاني ويقتله. أما هم فيكتفون بالشكوى مثل جرذان وطأ أحدهم على ذيولها، زد على ذلك أن اليهودية جميلة. كان الرعاة على حق. وهي ساذجة فعلاً إذا قاومتهم. أنظر إلى يهوديّها ما أقبحه!

كان حاييم طويل القامة، اتسخت أطرافه بالشحوم الصفراء. وكان يرتدي غندورة مبقعة بالزيت، وهو عُرف فُرض من دون شك فيما مضى على يهود فيكيك، بسبب الاحتقار الإسلامي، وكان يضع فوق عمامته السوداء الصغيرة منديلاً كبيراً مبقعاً بدوائر زرقاء عقده أسفل ذقنه تماماً مثلما تفعل النساء المسنات.

عرض حاييم أعماله أمامنا. إبزيمات، وهي مشابك فضية على شكل أوراق ونجوم، وخواتم كبيرة مصقولة، ومشابك بجرسيات فضية، وحلقات أذن ذهبية،

زينت بالأحمر الترابي للعقيق، والأبيض المتقزح للأحجار الكريمة. كل هذا مختلط كيفما اتفق في العمق الملمع لقطعة قماش حريري أخضر اللون.

وكانت الأصوات قد خرست عند دخولنا. وحتى الأطفال صار حديثهم همساً فقط. وكنا نسمع صوتاً واحداً فقط كأنه يأتي من علو شاهق، لأنه يأتي من الباحة المجاورة. كان ذلك الصوت الأغن والرتيب لحاخام يرتل صلواته باللغة المقدسة القديمة لإسرائيل. وكان ذلك المنزل اليهودي، وذلك الصوت العتيق، يثيران بداخلي انطباع عالم مغلق وعتيق بشكل خاص، وثابت وسط كل السكون القديم لفيكيك.

. . . هبت الرياح الشرقية المحملة بالرمال والغبار تحت سماء متأججة وكامدة.

وكان أعضاء جماعة زناغة يجلسون على مقاعد عند أحد ملتقيات الطرق، وإلى يمينهم دفق من الضوء المضطرب بين جدارين.

بدوا فاترين في اختناق الشلوقي ومستسلمين للخدر المنوم للأشياء.

توقف حاييم هناك طالباً الانتصاف من الرعاة الذين اعتدوا على زوجته. . . غير أنه لم يكن لديه أدنى أمل. ومع ذلك فقد روى حكايته وهو منحن أرضاً.

عندما انتهى، صدرت عن رجل مسنّ مقوّس ذي نظرة ما تزال تحمل القسوة أسفل حاجبين أبيضين غليظين، حركة مشوشة، قبل أن يقول:

ـ ما الذي نستطيع فعله في هذا؟ لو كان من أزعج زوجتك من جماعتنا لعاقبناه، أما أولئك البدو الرحل. . . أنت الجاني لأنك سمحت لزوجك بأن تتجول وحدها في القصور. . . كلا، أيها اليهودي، لا نستطيع فعل شيء!

حاول حاييم أن يصرّ بخجل فقطّب الرجل المسن حاجبيه، وقال بجفاء:

ـ لقد قلنا أيها اليهودي! هيا، ارحل!

قام حاييم، وانصرف محيياً بانحناء. كان عليه الرضوخ، لأن من لا يملك ساعداً قوياً، ومن لا يعرف كيف يمسك بندقية، ليس له إلا أن يذلّ نفسه، ويصمت في بلد البارود.

. . . وما إن يحل الفجر حتى يمضي أطفال بني إسرائيل الشقر ونصف العراة اتجاه البساتين حيث ينبسط ظل الفجاجير الرطبة المغطاة بسرخسيات وزبد خفيف.

ينزلون في منتهى الحذر من دون صوت باتجاه السواقي الباطنية، ويجثون في الرواسب السوداء العميقة ليرقبوا لساعات الأسماك عديمة الألوان. تلك الأسماك العمياء، والتي تبدو فضية نوعاً ما تحت الضوء المنتشر في المياه الخضراء.

ويمسك الأطفال بأيديهم تلك المخلوقات السريعة، والتي تفر عند أقل بقبقة للماء باتجاه الأعماق المعتمة للممرات التي يستحيل المرور منها.

وعند الظهر، وعندما يكون الصيد مربحاً، تنتشر صرخات في الأعماق باتجاه البساتين البهيجة المغمورة بشمس مداعبة.

ويعدو اليهود الصغار فرحين محركين أسماكهم اللزجة والمشدودة من خياشيمها، قاصدين شوارع الملاح الصغيرة المعتمة حيث تنتظرهم أمهاتهم بجوههن الشاحبة.

الجيش

كان أولاد عامر، وهم فرقة من العموريين المنشقين، لا يتجاوز عددهم عشرة أفراد. وكانوا يحتلون الجبل منذ أشهر، جائعين مترقبين بعض القطعان الهزيلة ليغيروا عليها.

أخذت ألبستهم لوناً أحمر ترابياً. وكانت لهم لحى فظة غطت وجوههم العظمية التي أحرقتها الشمس والريح. وكانوا يضعون على عبقاتهم ذات الأهداب، وعلى برانسهم الحمراء، جُعَب الخرطوش الفيلالية الحمراء التي تشد بطونهم الفارغة. كانوا بؤساء وشرسين، وشديدي الحذر مثل حيوانات الصحراء، طردهم الجوع ولاحقهم.

وبعد قضية تاغيت أضحت طريق الجنوب خطيرة جداً بالنسبة لهم، فصعدوا باتجاه الشمال، متسكعين حول الدواوير والمعسكرات، ويظهرون حيثما وُجِد البارود.

عانوا كثيراً، وبشكل مرعب من الجوع، وهم محاصرون في الشعاب الجافة وغيضات بني سمي.

وحالفهم الحظ ذات يوم، ذلك أنهم نجحوا في سلب بعض الأغنام والجمال جوار عيش. وهكذا عادوا للانحدار باتجاه فيكيك. وعند حلول الليل كانوا يتبعون من جانب الوادِ القاحل أسوار الطوب الحمراء العالية لقصر أودارير. فُتحت أعينهم السوداء الجائعة على البساتين الخصبة، وعلى البيوت الترابية الكبيرة المغلقة والصامتة، وداعب الفرح حدقاتهم التي تشبه حدقات النسور.

وكانت أبراج الحراسة الترابية العالية والدائرية، والتي تضم ثقوباً صغيرة، والتي تدعم جوانب الأسوار، ترتسم بلون ذهبي كامد وأحمر للمساء الذي كان يمضي وسط الأوراق الساكنة لأشجار النخل السوداء. وعند أسفل الحصن، كان معسكر عمورية حيث نُصِب حوالي عشرين خيمة منخفضة ورمادية، وهو مكان للبؤس الوحشي وللدعارة. وكانت بعض نيران الجمر الصغيرة المدخّنة تلقي انعكاسات الحريق على الخيام وعلى الأسوار، مبرزة في بعض الأحيان في الظل المتدرج أجساداً سوداء لنساء يرتدين ألبسة معتمة.

حط الجيش الجائع مثل رفّ من الكواسر قرب الخيام متبادلين سلاماً سعيداً مع بنات عرقهم، وبعض الرعاة الهزيلين الممددين قرب النيران.

وفجأة أحدث إلقاء بعض الجريد اليابس على الجمر المشتعل شعلة كبيرة، وعالية جداً، وشديدة الوضوح، وعمودية في الجو الهادئ. وكانت الظلال المشوهة للرجال والأشياء ماردة، وهي ترقص في عمق الغبار الكامد. وعلت أصوات وصراخ سعيد ابتهاجاً بالعودة وأمن اللحظة المؤقت.

وكانت النساء الهزيلات ذوات الوجوه الموشومة يأتين ويذهبن مرحبات بالمتجولين، متعرفات عليهم، وطالبات منهم أخباراً عن رفاقهم. ولما كانت أغلبيتهم قد ماتت، وقد نثرت عظامهم في الجبل من دون قبور، دعت النساء للأموات بالرحمة الإلهية.

وانقض العموريون بشراهة على الكسكس المتبل، وسُمع صرير الرمال التي كانت فيه تحت نواجذهم. وكان يحوي بعض اللحم الهزيل. ثم أخذوا يعدون الشاي بجدّية، وهو العمل الذي يختص به الرجال.

وتجمّعت أجسادهم المرتخية على زرابيّ عتيقة في أوضاع مريحة. ومع ذلك فقد احتفظوا جميعاً ببنادقهم قربهم بحكم العادة، وأيضاً لأن مخازنية باشا أودارير، صديق المسيحيين، كانوا في الجوار.

وأخذت النار تلقي انعكاسات حمراء على وجوههم الجافة، والتي تشبه وجوه صقور. وكان هناك زنجي طويل القامة حرطاني قد اندسّ بينهم، ولم تكن تُرى منه إلا كرتا عينيه البيضاوين، وبريق أسنانه الكامد.

وتم تبادل أخبار البلاد، وتكررت حكايات النهب، التي تمجد البعض، وتلعن ارتداد البعض الآخر. وخلال كل تلك الأحاديث كان اسم يتردد كثيراً بإجلال وحب، مثيراً ذكرى السيد الشيخ المبجل بوعمامة. وفي كل مرة يذكر فيها اسمه كانت كل الأيادي اليمنى ترفع إلى الجباه ومنها إلى الشفاه كعلامة على الخضوع والاحترام. وكان اسم بوعمامة هذا يعود في كل لحظة، ذلك أنه كان في أولاد داود، وحتى في العموريين السمر الصغار، من يحملون اسم بوعمامة.

وشُرب الكثير من الشاي في ذلك المساء في معسكر النساء، ثم ارتفع غناء رتيب وممل. كان الصوت يعلو بفواصل منظمة، بشكل لا يصدق مع أنغام المزمار الصافية. . . ثم تلاشى الصوت ببطء، في شكوى حزينة.

قال قطّاع الطرق: «البارحة، نحت طوال النهار، وبكيت. سطعت الشمس اليوم وابتسمت. بلدنا بلد البارود، وقبورنا معلمة في الرمال». ورافق النافخون في القصب بخفوت الحزن الأثيري، غناء الموت لقطّاع الطرق.

ومضت ساعات الليل الخرساء، وبدأت النيران تخبو. عندئذ قام العموريون ببطء وهم يمطون أجسادهم الرشيقة والمفتولة كالهررة، ولحقوا بالنساء في ظل الخيام الحار من أجل العناق المحتدم بعد تعفف الحرب الطويل. وأصدرت حلي الفضة أصواتاً خلال لحظة، ثم عمّ همس خفي ومضطرب وشهواني محلقاً فوق الخيام على القدر المتوحش للبدو الرحل، وبعض الثغاء المنتحب للخرفان التي استيقظت، وبعض النباح الأبح للكلاب القلقة لمجاورتها كل أولئك الغرباء.

ثم همدت كل تلك الأصوات. وحل صمت عارم على كل معسكر المومسات، وعلى فيكيك النائمة في الظل الرطب لبساتينها الصغيرة ولأشجار النخل حيث تغفو البرك الزرقاء الكبيرة.

وحل صباح وردي وأرجواني على الوادي ذي الخطوط المتناغمة. وأضيئت القمة المسننة للجبال الشاهقة والوعرة بوميض أحمر، وانزلقت انعكاسات لامعة على مخمل البساتين الأزرق.

واشتعلت القصور الحمراء بلون ذهبي في بهجة الصباح.

وخرج من أسوار أودارير رجال بوجوه غريبة وجادة، يلبسون جلابيب من نسيج الكتان باللون الأزرق البحري، ومسلحين بالبنادق. وكان يتقدمهم مغربي طويل القامة

رقيق العظم بجلابية بيضاء وشاشية حمراء على رأسه، وقد طويت في الوسط على خصلات غريبة من شعر أشيب. وكان وجهه المصفر بشعاً ونظرته مراوغة.

قفز العموريون ممسكين بنادقهم. وتقدم ضابط مخزن الباشا ثم قال: «السلام عليكم! من أنتم؟ ولمَ أنتم هنا؟ ـ نحن عموريون وقد قدمنا من الشمال لطلب الأمام[1] وكرم ضيافة سكان فيكيك».

ولما كان الباشا قد التزم بعدم استقبال المنشقين وقطاع الطرق، فقد عاد الضابط ليقول: «هيا، ارحلوا!»

وكان العموريون ينصتون برؤوس محنية وأعين شرسة. لم يكونوا إلا عشرة، وإذا ما أطلق البارود سيتعرضون للموت.

وهكذا، من دون أن يقولوا كلمة، جمعوا ثيابهم الترابية، وذهبوا إلى الوادي باتجاه الغرب من أجل أعمال نهب أخرى.

تبعتهم نظرات النساء ومخازنية الباشا وهم يبتعدون في الصفاء الوردي للنهار الذي كان يحل هادئاً ومبتسماً.

ليالي رمضان

كان أول يوم من أيام الصوم الإسلامية الطويلة والقاسية.

وكان اليوم يبدو من دون نهاية في الإمساك التام حتى من دون سيجارة واحدة على سبيل التعزية. ومنذ الصباح يتيه الناس ملتفين في برانسهم من البرد وسط جلبة عاداتهم. وجنح آخرون أسفل الأسوار في أوضاع عنيفة وعابسة. واندلعت الشجارات في غضب الساعات البطيئة... وأخيراً يبدأ النهار بالأفول.

وهكذا تتشكل مجموعات في شوارع البلدة في انتظار اللحظات الأخيرة الذي يغدو فجأة مرحاً ونافد الصبر.

وتتجه كل الأنظار نحو الغرب، باتجاه أودية الحجارة السوداء وجبال المغرب المسننة حيث تغرب الشمس، وتغوص شيئاً فشيئاً في عالم من البخار نحاسي اللون.

وسيمون هم أناس الجنوب ذوي الألبسة الغليظة، وهم وقوف في البخار الدموي

(١) هكذا أوردنها الكاتبة في الأصل وتقصد الأمان. المترجم.

الذي بدا وكأنه يصعد من الأرض الحمراء، وأخذت ظلالهم تتمدد بإفراط في الغبار الذي يدوسونه ببطء.

وفي الخارج كان الانتظار أيضاً حول النيران ووسط الجمال المنيخة في معسكر البدو الرحل. في هذا اليوم يتخذ دوي مينيا وأولاد جرير من أولاد غوير، الذين كانوا بالأمس فقط خارجين عن القانون ولصوصاً، مظهرَ جمالين هادئين بغية التوجه إلى الأسواق حتى يتزودوا بالمؤن بعد الجوع الفظيع الذي عانوه في الشهور الأخيرة.

وحولهم كان بدو آخرون يروون ضاحكين حكايات تجديفهم القديمة.

قديماً كان دوي مينيا عائدين من الحرب في أيام الصيام، وكانوا يعانون من الجوع، ذلك أن أيام المسير في الصحراء كان طويلاً فانقبضت قلوبهم إذ كان عليهم أن يسيروا في البلاد خمسة أيام أخرى. وصادف أن لاقوا عربياً كان يمشي وحيداً وقد وضع عصاه على كتفيه. وكان قد أصابهم الملل فعنفوه، ثم سألوه عن اسمه فقال المسكين: «اسمي رمضان»، كذاك قال المسكين. فأمسكوه وخاطبوه قائلين: «إذن فأنت هو رمضان الذي يجعلنا نعاني كل سنة من الجوع ومن العطش!»

ثم قتلوا المسكين، وأفطروا وعادوا إلى قبيلتهم. وهناك أخذوا يسخرون من أولئك الذين كانوا ما يزالون صائمين قائلين: «لا حاجة للصوم بعد الآن، فقد قابلنا رمضان في الطريق وقتلناه.»

وقال شخص آخر:

ـ أجل قتل دوي مينيا رمضان... لكن هناك من لا يزال يصوم... غير أنهم يتدبرون أمرهم أفضل منا، وهم يجتمعون كل ثلاثين نفراً ليصوم كل منهم يوماً. في النهاية هم يعتقدون أن الصوم نال مبتغاه مادام يتعين الصوم ثلاثين يوماً...

وعلى الرغم من كل هذه السخرية فإن قطاع الطرق السابقين يبدون غير مبالين في الظاهر، ويختالون صامتين في أثوابهم الرائعة.

... وفي المقاهي المغربية كان النُدل بفوطهم المبقعة حول خصورهم على شكل وزرات يضعون الكؤوس المملوءة أمام المسلمين الذين يلفون سجائرهم.

آخر لحظات الانتظار هي أكثرها عصبية. ويمّحى ظل الضجر من الوجوه المصفرة المشدودة.

وتعلو الضحكات، والمداعبات. وينعتونني بالميناثي لأني كنت من السذاجة بحيث اقترحت قطع الصيام بعد أن رأيت جماعة الدوي مينيا، شرعوا في الأكل.

. . . اختفى المساء في الليل الأرجواني، وأخذت الأشياء ألواناً زرقاء، وألواناً عميقة وباردة.

وهكذا، علا من مكان بعيد جداً من خرابات القصر، وفي عمق الوادي، صوت بطيء وحزين. كان صوت المؤذن الذي يعلن عن صلاة المغرب وحلول موعد الإفطار.

وتصدر عن الصدور زفرة ارتياح قوية، ويُسبِّح الله بصوت مرتفع. أما الرجال الورعون، ذوو الحركات البطيئة فعوض أن يلقوا بأنفسهم مثلما يفعل الشبان على التبغ والقهوة، يخرجون إلى الطريق من أجل الصلاة من دون استعجال وبوقار مثل عادتهم.

لهذه الساعات الأولى من المساء في رمضان سحرها، ذلك أن جواً من الحميمية الأخوية النادرة يعم المقاهي المغربية.

. . . أما أنا فقد كنت أستعيد بصمت في إحدى الزوايا ذكريات أشهر رمضان الماضية، التي تعود إلى عدة سنوات في مختلف مناطق الأرض المختارة. . . . مناظر حساسة بشكل سري في تونس، والحمى بالجزائر المكدرة، ثم البلد الرائع والمتعصب بواد صوف، والمدن الصغيرة ذات القباب المتفرقة في المكثبة المحتدمة.

رواية أخرى:

هو أول يوم من أيام الصيام الإسلامية الطويلة والشاقة، وحيث الإمساك المطلق من دون سيجارة على سبيل التعزية وحيث تفقد الساعات التي تبدو من دون نهاية انتظامها.

ومنذ الصباح تتجول الأجساد الباردة الملفوفة في البرانس في شوارع البلدة، أو تجنح على الرمال، وقد أصابها ضجر كبير.

ثم لمّا تأخذ الشمس تميل نحو الغروب، وفي الهدوء والصفاء الخريفي، يبدأ الانتظار الطويل.

ويختفي خدر النهار الطويل، ويجتمع المسلمون أمام المقاهي المغربية، ويديرون وجوههم باتجاه الغرب، وباتجاه الأودية المغربية حيث يحل المساء الساحر.

وتمتدّ الظلال الطويلة على نحو مفرط. إنها ساعة النور اليومي الساطع الكبير، واللحظة التي تنعش القلوب وتثير الآمال.

وفي الخارج، ووسط الجمال المنيخة، كان أناس دوي مينيا الهزيلون والذين كانوا بالأمس فقط خارجين على القانون ولصوصاً، أما اليوم فهم تجار بمظهر هادئ، ينتظرون هم أيضاً، مطلقين دعابات ساخرة تمنحها لهم سمعتهم كمسلمين سيئين.

حولهم، وسط بطالة الجماعات وفقدان الصبر، تروى الحكايا القديمة الساخرة عن تجديفهم.

ويختال بدو الحمادة في ملابسهم مع غرور وتحدي أولئك الذين كانوا يدركون كيف يجعلون الآخرين يخشونهم.

وما إن تنطفئ حُمرة الغسق حتى يكون جماعة دوي مينيا أول الناس الذين ينهون صيامهم.

جالسة وسط لامبالاتهم الكئيبة، رحت أنتظر أنا أيضاً ساعة المغرب.

سهرات

الليلة باردة ومضنية. وقمر رمضان مكتمل، وفيض من النور الأخضر المزرق يتدفق على البلدة حيث تتوهج أضواء المصابيح القوية الحمراء أمام المطاعم.

هنا، في باحة المكتب العربي، وسط الأكواخ المتداعية، ترقد الجياد المربوطة.

ويستيقظ في بعض الأحيان حصان ويصهل، ويوسع منخريه ويمدهما نحو الزاوية حيث تجتر الجياد هادئة تبنها الجاف.

ثمة احتفال كبير هذه الليلة لدى المخازنية.

كان هناك حوالي خمسين فرداً جلسوا متحلقين على الرمال. وفي الوسط كانت شمعة ألصقت على نعل مقلوب تتمايل مضيئة الحماسة الذكورية والفرح الصبياني للوجوه.

. . . يمنح التمدد أرضاً في الليالي الصافية شعوراً جيداً، تحت مداعبة الخيدوس، البرنس الأسود الكبير من وبر الجمال الذي يرتديه أهل الغرب. ومن الجيد الإنصات بصمت وسكون لغناء البدو الرحّل لساعات، ولنداءات الحب والموت المرتفعة والحزينة مع الصوت الفضي والصوت المائي للجواق القصبي.

جلس مخازنيان من دائرة جيري فيل، من أبناء سهوب الحلفاء، أحدهما في

مواجهة الآخر، من أجل أداء أغنية شعبية منتحبة تعتبر لازمتها صرخة حزينة طويلة على نغمة منخفضة.

بدَوَا وكأنهما نائمين في البداية، بعيونهما شبه المغمضة، وصوتيهما الأشبه بهمس الرياح.

الحمامة الصغيرة، أيتها الحمامة الصغيرة!
أحرقتني، قتلتني
جعلت قلبي مريضاً
ولم أبرأ. . .
الحمامة الصغيرة، أيتها الحمامة الصغيرة!

مات قلبي، ودفنته في الصحراء
لم يكن أحد حاضراً يوم دفنته
لم يضحك عليّ أحد
كنت وحيداً وغطى بُرنسي رأسي وبكيت
آه ياربي، يا ربي، كم بكيت!

الحمامة الصغيرة، أيتها الحمامة الصغيرة!
جعلت قلبي مريضاً، قتلتني. . .
أنا مريض، وليس هناك دواء
لمن جرح قلبه
إلا الاستسلام وراحة القبر

الحمامة الصغيرة، أيتها الحمامة الصغيرة!
قتلتني في ليلة وحيدة
وفي الفجر ألفيتني جريحاً
ولم أبرأ. . .

عندئذ ارتفع صوت آخر من دائرة المخازنية. كان صوتاً أكثر خشونة وغِلظاً. كان صوت صديقي عبد القادر بن شهرة[1].

إبكِ عليّ يا صديقي، إبكِ على المنفيّ!
عندما تركت دواري، خرجت امباركة...
أهالت التراب على رأسها علامة على الحداد
ومع ذلك فكل يتبع قدره، ورحلت
وقصدت طريق الجنوب...

بكيت لأربعين يوماً وأربعين ليلةً
حتى جف قلبي
وصار أصلب من الحجارة
أمام أجمل بقاع الأرض
ولن يبكي قلبي بعد.

آه! عندما يموت القلب
لاشيء يعيده إلى الحياة
عدا نظرة الغزالة
لأنها مثل مطر الصحراء...
لسوف أرى امباركة أو أموت.

وعلت أصوات عديدة في سكون الليل، وسكبت المزامير المبتهجة أحزاناً لا توصف...

كان البدو الرحل الأميون، وجنود بلاد البارود الغليظون، يرتجلون أغاني كثيرة، ولفترة طويلة.

---

(١) قتل عبدالقادر بن شهرة برصاصة في واد زوسفانا بعد بضعة أيام. ملاحظة إيزابيل إيرهارت.

أغمضت عيني في برودة الرياح التي أخذت تهب حوالي منتصف الليل.

من الجيد النوم كذلك في أي مكان، في الخلاء، مدركين أننا سنرحل في اليوم الموالي، وأنني لن أعود أبداً، وأن لا شيء يدوم أبداً... فيما كان البدو يغنون، وكان الجواق ينوح، وكانت الفكرة تتلاشى وتخبو مثل نار غير ذات جدوى.

الرؤى الأخيرة

... أخذت الأشياء مظاهر ألفتها عيناي. وادي الحجارة، والبلدة المحمومة، والغرفة الصغيرة الجرداء حيث أقيم، وحيث يوجد دوماً متاع من برانس، وبنادق، وأثواب مختلفة مخزنة هناك من طرف أحد أصدقائي الطارئين من السباهية والمخازنية. أضحت كل تلك الأشياء التي شكلت إطار حياتي خلال ثلاثة أشهر غالية بالنسبة لي.

... وفي الانتظار اليومي في شهر رمضان للمساء المحرر، كنت مستندة إلى الجدار المنخفض لمقر المكتب العربي القديم. كنت أنظر إلى قرص الشمس الأحمر الذي يغوص كامداً ومن دون أشعة في محيط من الأبخرة المائلة إلى اللون الأرجواني فوق الأرض التي اكتنفتها العتمة.

ولربما لأول مرة أحسست أن تلك المنطقة المحرومة جداً من هذا البلد قد حازت مع طول المدة جزءاً من قلبي وأني سأحزن عليها فيما بعد هي أيضاً، بعد مناطق أخرى كثيرة لم أعد إليها أبداً.

... واليوم غرق كل شيء في المطر الأسود، في رعب بلد معروف، تغير بشكل عنيف، وغرق في الظلام. وتحت عصف الرياح الشديد انطلق القطار.

أما أنا فقد أحسست بغتة بكل مرارة الرحيل المفاجئ، وانهيار الأشياء الصغيرة الزائلة. بعد سحر ونشوة الحياة التائهة يأتي الحزن والتمزقات.

... وصعد القطار باتجاه الشمال ببطء كما لو أنه يفعل ذلك مرغماً. وبدا لي البلد تحت السماء الرمادية منذراً، متحولاً كما لو أن ذلك يحدث في كابوس. وصعدت آفاق الرمال المضببة عالياً جداً في السماء المضطربة، وأخذ الضوء الكامد لليوم المنتهي يشوه الأماكن البعيدة.

حجارة مغويل ومغرار وكل السديم الرائع للحجارة السوداء واللامعة اصطبغت اليوم بلون رمادي يشق وصفه. وأقفلت الشعاب البرية والمعابر بفعل الصخور المهشمة، واجتاحت ضبابة بلون السخام كل شيء. وكانت ريح باردة جداً تهب من خلال البوابات المركبة والمفككة للمقصورة العتيقة، محركةً الستائر المغبرة. وحلّ في قلبي حزن عميق حد القنوط. لففت جسدي في برنسي. وحاولت النوم حتى لا أرى شيئاً، وحتى لا أفكر أبداً.

. . . استيقاظ محزن، عند رصيف المحطة في عين صفرا التي أخذت هبات باردة تكنسها، آتية من جبل مختار المغطى بالثلوج حتى الكثبان، في تناقض غريب. وكانت مصابيح كئيبة تتمايل في الليل، وأصوات مبحوحة تشتم، وأجساد تفر مسرعة ومنحنية.

رواية أخرى:

في ذلك المكان أيضاً، وكما في مناطق أخرى كثيرة في الأرض الإسلامية الإفريقية، كنت على وشك أن أترك جزءاً مني وأحمل حزناً كبيراً وحنيناً مديداً.

كنت على وشك أن ألوم الحياة البدوية، وأنا أفكر في حزن الرحيل المباغت، وانهيار أشياء صغيرة زائلة، ومناظر صغيرة من حياة بدأنا نعتادها ونحبها من دون إدارك ذلك حتى النهاية المحتومة.

أرض الجنوب الوهراني وعرة ورائعة، وهي أرض خشنة من دون رقة وتقريباً من دون ابتسامة، وأرض قديمة للنهب والبارود حيث الرجال أيضاً خشنون جداً واشداء جداً مثل الأرض القاحلة!

في ذلك المساء الأخير تحرك داخل روحي السؤال الأبدي: هل سأرى كل هذا مجدداً؟

... وكان السباهية والمخازنية يدخلون ببطء في مجموعات صغيرة من أجل الوجبة الأولى ليوم الصيام.

أما أنا فقد اكتفيت بإشعال سيجارة، وبقيت هناك أنظر إلى مرور الرفاق الباسلين العاديين للأيام الماضية، رفاق جولاتي وسهراتي.

فجاة أضحى حزني المشوش أكثر قتامة وأكثر تاثيراً، فاي منهم ممن يعبر أمامي قُدّر له أن يسقط عمّا قريب بالرصاص المغربي، وأن ينام نومه الأخير في تلك الأرض المحروقة، بعيداً عن السهوب التي وُلِد في أحضانها؟ كان معظمهم شباناً ضاحكين

ومفعمين بالحياة واللامبالاة البسيطة والرائعة. كانوا يمرون وهم يغنون. ثم اقترب بعضهم وقالوا:

ـ إبق معنا يا السي محمود. لقد ألفناك. نحن إخوتك الآن. سنحزن إذا رحلت لأنك شاب شجاع، ولأنك أكلت معنا الخبز والملح، وركبت الجواد معنا.

كانوا يدركون جيداً أن السي محمود كان امرأة، بفعل إفشاء السر الأوروبي. لكن مع التكتم العربي كانوا يحدثون أنفسهم بأن ذلك لا يعنيهم ومن غير اللائق التلميح إليه، وأنهم سيستمرون بالتعامل معي مثل الأيام الأولى، كرفيق متعلم وأعلى مستوى.

كان السباهية والمخازنية يمرون.

ورحلت.

هم أيضاً، مثل قصر الطوب الذهبي الجميل، ومثل البلدة الكئيبة الحزينة، ومثل الوادي القاحل، ومثل فيكيك، ومثل جنان، أحس بأني أحبهم، وبأني حزينة من أجلهم.

وحل الليل حالكاً وعميقاً وطنّاناً مثل هوّة.

وساد صمت عارم البلدة حيث كانت مصابيح المطاعم تتألق وحدها، حمراء جداً، مثل عيون كامدة لزرابيّ سمراء مصفرّة في الظل.

وكانت الريح تهب في بعض الأحيان في الظلام، مع صرخة طويلة، وأنين حزين بشكل لا ينتهي.

كنت مستلقية في كوخ صغير جوار قاعة مضاءة إضاءة خفيفة بشمعة وحيدة، فيها خمسة أو ستة من العسة[1] المغاربة كانوا يجلسون في دائرة على حصير من قصب، وقد وضعوا بنادقهم على أفخاذهم. وكانوا يدخنون الكيف، ويغنون وقد مالت رؤوسهم إلى الخلف، وأغمضوا أعينهم كما لو أنهم منتشين. وفي الباحة كانت الأحصنة القلقة تحمحم وتهتز. لم أستطع النوم، فقد لازمتني رؤى محزنة مكدرة...

اقترب الصباح، وانطفأت الشمعة في حجرة الحراسة، وصمت المغاربة المتعبون، وهدأت الجياد، وهطلت أمطار رقيقة بانتظام كبير محدثة همساً كبيراً على نوم الأشياء الحزين.

وطلع النهار، مكفهراً وكامداً وغارقاً في البخار الكثيف والثقيل للسحب المائلة إلى الاخضرار، والتي تشبه أجزاء من جسد يتحلل.

وبدا القصر أشبه بقطعة طين قذرة ومبللة، وبدا بستان النخيل الصغير مضطرباً مثل بحر هائج بفعل هزات الرياح الغاضبة.

---

(١) حرس: المترجم.

وفي عتمة الأشياء تلك، بدت البلدة التي كانت من دون أشجار ومن دون أية لمسة خضراء، في قُبْحِ معتقل مشؤوم. رحلت عن بني ونيف الغارقة في المياه السوداء، والتي تغيرت وأضحت مرعبة تقريباً.

صعد القطار ببطء كأنه يفعل ذلك مرغماً السهول الضبابية وسديم الصخور السوداء لحجارة مغويل ومغرار.

أما أنا فقد كنت حزينة حد البكاء. لففت جسدي في برنسي المغربي، ورقدت مغمضة عينيّ حتى لا أرى شيئاً ولكي لا أحمل من هناك إلا رؤية مشرقة.

بدت عين صفرا في وضوح قمر كبير بارد. وانتصبت الجبال الشاهقة التي غطتها الثلوج حتى سفوحها. وأخذت هيئة ليّنة واستدارت خطوط صوفية في نور الليل الأخضر المزرق.

ومثل أمواج مخيفة كانت الكثبان الصفراء الكبيرة تصعد مطبقة على الجبل، راسخة في غضبها الأبدي.

كانت رؤية غريبة، رؤية تلك الكثبان القاحلة التي رأيتها في بداية فصل الخريف متألقة تحت الشمس، والتي ارتسمت في تلك اللحظة على الجبال الشمالية ناصعة البياض...

كانت عين صفرا، ببساتينها ذات الأشجار العارية وضمور هياكل أشجار الحور الصغيرة النحيلة، تغفو باردة في ليلها الهادئ.

سوق عين صفرا

منذ مساء يوم الأحد، في كل الطرقات، وعبر كل الكثبان، يصل البدو الرحل على الجياد والبغال ومشياً دافعين أمامهم الحمير الصغيرة الصبورة، والجمال الكبيرة البطيئة التي تمد أعناقها الرشيقة ومشافرها الهدلاء نحو باقات الحلفاء الخضراء. وفي عين صفرا يحتشد «العموريون» و«بنو غويل»، كل ذلك الشعب المهاجر دوماً وأبداً يقصدها من أجل السوق الكبير الذي يقام صبيحة يوم الإثنين.

ويلعب السوق دوراً محورياً في الحياة العربية، وبخاصة حياة البدو الرحّل.

فهناك تتم اللقاءات، وتحدث التجمعات، وهناك تُعرف الأخبار، وهناك على الخصوص يربح المرء بعض المال.

ومنذ الفجر، يتقاطر الناس على أرض قاحلة بين البلدة وثكنة سلاح الفرسان محدثين جلبة كبيرة تستمر في التصاعد حتى منتصف النهار.

تُناخ الجمال مزمجرة بأصواتها المبحوحة، وتحمحم الأحصنة المربوطة إلى أشجار الأكاسيا الباردة في الشارع، وتصهل عند مرور فرس، ويهيج الناس ويصرخون.

ويهيمن على كل تلك الأصوات الثغاء الأنيني للخراف المربوطة إلى بعضها من الأعناق، وخوار الثيران الصغيرة والأبقار السوداء التي لا تكاد تبدو أكبر حجماً من العجول.

وعلى الأرض تتزاحم بضائع الجنوب في فوضى رائعة حيث جزّات الصوف برائحتها النفّاذة، والملح الخام في قطع إسفنجية ورمادية، وجلود التيوس المملوءة بحليب حامض، والزبدة والقطران، وسلال مجدولة من الحلفاء، وأغطية، وأثواب الحايك بألون زاهية، وبرانس جديدة ما تزال صلبة، وجرار من الطين المشوي، وخيوط من الصوف، وسروج إلخ.

ومن بين كل هذا السديم من الأشياء المعروضة للبيع كان البدو الرحل يتجولون حيث يتجمّع أبناء «عمور» بأثوابهم الرائعة، و«بني غويل» بأسمالهم المائلة إلى الحمرة مثل التراب، وبأحزمة مملوءة بالخراطيش.

وتختلط النساء أيضاً في المجموعات، وغالباً ما كن عجائز متيبسات بوجوه موشومة ملأتها الأخاديد، ومدبوغة بفعل فصول صيف طويلة، وبمشية حازمة، وحركات ذكورية، ونادراً ما كانت إحداهن تبدو بوجه شاب بعض الشيء، بعينين زرقاوين جميلتين، وأسنان بيضاء، من اللواتي كن يخفين أنصاف وجوههن خلف حجاب طويل طُرّز بالأزهار.

. . . ومنذ أن حصل «بني غويل» على الأمان، وبدأوا يحضرون إلى أسواق الحدود، عادوا إلى الحياة مجدداً، بعد المأساة المروّعة التي عاشوها السنة الماضية بينما كانوا يحتلون الجبل. وأبرز اللصوص مجدداً مخالبهم المعقوفة، وشرعوا يتجولون في البلدة بثياب أقل اهتراءً أو أقل فظاظة عن سابق عهدهم.

يمرون وينظرون بلامبالاة إلى مزانات، وتقريباً ببعض الإزدراء، ويدخلون المتاجر في مجموعات مريبة. وهناك تبدأ عمليات البيع والشراء اللامتناهية، ويتحدث البدو الرحل لساعات، ويتداولون من أجل مشتريات دقيقة.

وفي المقاهي المغربية كانوا يتشاركون في مجموعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص من أجل تناول بعض الشاي وقطعة خبز جافة.

يا لها من رؤوس تحت عمائم واسعة مغطاة في أعلاها بثوب ! ويا لها من وجوه بأنوف مائلة كمناقير وحوش كواسر وبعيون متقدة!

وفي السوق يندلع الشجار لأقل خصومة، ويمكن تخمين الوضع في بلاد السيبة المغربية بعيداً عن المراقبة. فهناك، وفي تلك الأسواق الأكثر صخباً، ما تزال للبارود الكلمة العليا، وتتدحرج الجثث وسط البضائع، ويسيل الدم على الطين. وهناك يكتفي «بني غويل» بحركات صاخبة وبالتهديد والسباب الملحمي: «انتظر يا ابن الخائنة، يا ابن الزنا! لقد خارت قوانا هنا، وصرنا أشبه بالنساء لكثرة ما أكلنا الخبز الأبيض، وشربنا من الماء الصافي! انتظر حتى نصير خلف فرطاسة، ونشرب ماء الغدير[1]، وسترى حينها إن كنّا رجالاً...»

وعلى خلفية التراب الأحمر تهيمن الألوان المحايدة، حيث الألوان الترابية للباس، واللون الأحمر والأسمر الداكن للجمال، والأسود المضيء للعجول والماعز، والرمادي الضارب إلى اللون الوردي للأغنام ذات الجزات المتكومة.

هذه اللوحة الخشنة النابضة بالحياة لمعيشة البدو الرحّل بقيت كما كانت عليه في الماضي، قبل عصور التاريخ البعيدة.

العودة

تبدو عين صفرا تحت شمس الشتاء أشبه ببلدة حزينة من بلدان الشمال، بمنازلها الشاحبة، وأشجارها العارية من الأوراق... غير أن اللمسة الإفريقية حاضرة، بوجود الكثبان المائلة إلى اللون الأحمر، والمباني العسكرية بشرفاتها المقوّسة من الآجرّ الأحمر، وفراغ صحراء الرمال الكبير.

كان الهواء صافياً ومنعشاً، وفي السماء الصافية كانت مجموعات صغيرة من السحب الصوفية تعبر ناقلة معها ظلالها الزرقاء على السهل الذهبي.

---

(١) الغدير: خزان طبيعي تتجمع فيه مياه الأمطار. وبالنسبة للبدو الرحل يعتبر الخبز الأبيض والمياه الصافية بذخاً يصيبهم بالضعف. ملاحظة إيزابيل إبرهارت.

سأعود إلى مقاطعة الجزائر عبر الطريق الطويلة للهضاب العليا. لقد تلاشى حزن الرحيل الكئيب من بني ونيف. وأحاسيس اليوم ثقيلة وهادئة. قصدت على مهل القصر عند سفح الكثبان. ما تزال هناك بعض المظاهر الصحراوية حيث أشجار النخل الباسقة، والتي لا تتغير عبر الفصول، والقباب البيضاء الثابتة عبر القرون في الغبار وفي عُري المكان.

كانت القباب المقدسة تحيط بالقصر وتحرسه مثل حراس الحلم والهدوء. سيدي بو تل، سيد عين صفرا، وسيدي عبد القادر الجيلاني أمير أولياء الإسلام، وسيدي السهالي، حامي الجمّالين والبدو الرحل...

اليوم يوم الفضيلة لشهر رمضان حيث انتصاف شهر الصيام العربي، والذي لا يقطع الصيام، والذي يحتفى به فقط بالأناشيد وزيارات الأضرحة.

وفي ظل القبة ارتفعت أصوات صافية لفتيات غير مرئيات ينشدن أدعية قديمة مرافقات بأصوات طبول مخنوقة. تحلق تلك الأصوات الصافية، ويبدو أنها تتلاشى في الصمت اللامنتهي الذي لا تزعجه.

وفي البعيد، على طريق ميكاليس، كانت جمال حمراء تتقدم ببطء، وهي ترعى البتوم المر الذي ينمو بمحاذاة الطرق الحجرية. وتنزل عبر عين صفرا باتجاه بني ونيف من أجل أحد أكبر مواكب الجنوب الأقصى. رأيتها تمر، ومرة أخرى، عاودني إغواء النزول مع الجمالين غير المكترثين باتجاه الآفاق المحبوبة، عوض العودة باتجاه ملل أسر المدينة، وألا أعود أبداً...

... تيوت، قصرٌ مبتسم صغير في مجال أخضر لإحدى الواحات عند طرف وادي الرمال والحلفاء.

تعبر الممرات الضيقة المحفوفة بجدران ترابية تحت الظل الأبدي لأشجار النخل الفوضى الفاتنة للبساتين التي عادت للاخضرار. وفي عتمة زقاق قصري يبدو مدخل بيت أبيض صامت، بباحات كبيرة مشمسة، هو بيت آغا العموريين سيدي مولاي، سليل الولي الكبير سيدي أحمد بن يوسف من مليانة.

كان الآغا غائباً فاستقبلني ابنه السي محمد. كان يشبه زهرة كبيرة ذابلة. هذا الشاب الوسيم، بوجهه الشاحب كالشمع، وبعينيه الواسعتين شديدتي السواد والثقيلتين جداً، والمفتوحتين بصعوبة كما لو أنهما متعبتان.

كان ظريفاً وخجولاً مع اتصافه على الرغم من ذلك بكل وقار وضعه وبتحفظ متكبر بعض الشيء سرعان ما تركه ليصير مبتسماً وسعيداً تقريباً.

. . . عندما حل الليل قصدت دار الضياف لرؤية المخازنية والسباهية الذين قدمت معهم وكانوا سيغادرون إلى الجبل في دورية.

للوصول إلى دار الضيافة يتعيّن العبور في متاهة من الدروب المظلمة المتشابكة. وهنا وهناك يتسلل نور طيف من خلال ثقوب في الحائط أو الباب المغلق، ويضرّج باللون الأحمر طوب الشارع الكامد. عندئذ تتخذ تلك الدروب الخالية من المارّة شكل الأنفاق العميقة المتأخرة حيث تهتزّ ظلال غامضة.

في باحة دار الضيافة طالعني مشهد لحياة البدو الرحل، مشهد رأيته لأيام وأيام وصرت أراه كل ليلة بمناظر مختلفة.

كان جنود الغرب شبه نائمين على حصائر القصب حول مجمر، وهو موقد جمر عربي من الطين المشوي، وصينية شاي.

وخلفهم، في الظليل الأزرق، كانت الجياد تجتر الدرين بكسل، وتحمحم.

وكان المخازنية يغنون كالعادة عند الليل. لا شك أنهم كانوا يفكرون في العموريات السمراوات الجميلات، المهجورات في مكان بعيد في الخيام، لأنهم ينظمون أغاني حب طويلة، غير أنها حزينة حزناً عميقاً:

أيها الزرزور الأزرق المحلق باتجاه بلدي
أخبر غزالتي، أخبر صديقتي،
بأن تشتري تسع عقد من النسيج الأبيض. . .
أخبرها بأن تحيك لباس حبيبها،
آه! بأن تحيك وهي تغني،
اللباس الأبيض لصديقها
الذي لن يلبسه إلا بعد أن يغسل جسده
بالمياه الغامرة الصافية،
عندما تكون عيناه مغمضتين.

أخبرها بأن صديقها يحييها ويودعها
تملّكه ذات يوم الجنون والغضب
وترك خيمته،
اشترى حصاناً رمادياً ورحل.
لبس البرنس الأزرق مجدداً،
وحزم غندورته بكنانة من الفيلالي الأحمر،
وألقى بندقيته على كتفه،
وارتحل عند الحدود إلى بلاد البارود...
أيها الزرزور الأزرق، أخبر صديقتي
بأن حبيبها يودعها،
ويرجوها بأن تحيك كفنه،
لأنه سيموت وحيداً في مكان بعيد...
وستأكل أبناء آوى لحمه، وتلعق عظامه...

كان المخازنية يغنون أغانيهم المأساوية الحزينة من دون حزن، ومن دون خشية... ومع ذلك لربما كان المرتجل البسيط محقاً، فقد كان من بينهم من سينامون نومهم الأخير في بلاد الصحراء... لكن أليس هناك مكتوب؟ ما جدوى أن يقلق المرء بشأن ما هو مكتوب؟

دخلت عند الآغا. في القاعة البيضاء الكبرى كان رجال سُمر ببرانس سوداء يتحادثون بسرور. وفي الركن قرب موقد تشتعل فيه حطبات ملويّة وقاسية من الصحراء مجموعة من البنادق مسندة إلى الحائط، وجُعَب خرطوش معلّقة. وعلى الأرضية تتكدّس أكياس من صوف أسود ورمادي وزرابي ثقيلة من جبل عمور. هؤلاء هم زعماء كوم ترافي جيري فيل، الذين يصعدون من الجنوب بعد أربعة أشهر من التعب والخطر، وهم أيضاً رفاقي القادمون حتى جيري فيل. كانوا يتحدثون عن متاعبهم هناك في الحمادة المقفرة، ويتحدثون أيضاً عن العودة إلى قبائلهم، والسعادة تلطف وجوههم المتجهمة، والتي زادت شمس الجنوب المستعرة في اسمرارها...

انتهى المساء بصمت طويل مُمِلّ، وذهبت لأنام حالمة بالغد، بذلك السفر

الطويل على متن جواد، والذي سيعزيني بعض الشيء لاضطراري إلى الرحيل عن الجنوب.

ثم حل صمت كبير على القصر. وفي مكان ما، بعيداً جداً، في معسكر الكوم كان مزمار بدوي ينوح بهدوء. كنت أنصت إليه كما لو أن ذلك يحدث في قلب حلم طويل جداً.

وصمت صوت المزمار، ونام كل شيء. نمت وأنا أفكر بشكل مشوش في سعادة كوني حرة على الأقل، وهادئة في السهوب الكبرى الخالية، من أجل العودة إلى الجزائر، التي رغبت في تأخيرها إلى ما لا نهاية.

ملاحظة

ينتهي هنا الجزء الأول من الجنوب الوهراني والنص الأخير المعنون بالعودة لايوجد في نهاية مخطوطة عين صفرا، ولكنه يوافق ملاحظات كتبتها الكاتبة في الفترة نفسها على أوراق منفصلة، ونشر في حياة إيزابيل إبرهارت، وأعيد نشره في الأخبار المؤرخة في ٥ حزيران/ يونيو سنة ١٩٠٥.

وأضفنا نصّين عند نهاية الجزء الأول، وهما الهضاب العليا، ووجدة. النص الأول مستلهم من رحلة العودة باتجاه الجزائر، في حين يحكي الثاني رحلة قصيرة إلى المغرب، قامت بها بعد وقت قصير من ذلك. نشر الجزء الأول من الجنوب الوهراني بداية في الأخبار، بالتزامن مع تقدم رحلة إيزابيل إبرهارت. وقامت بتحرير ثان أغنته بمشاهد جديدة، ثم أعادت نسخ كل شيء في كراسة وجدت بعد فيضان عين صفرا. وهذه الرواية هي التي أعدنا نشرها، وهي أيضاً التي استعملها فيكتور باريكون من أجل تأسيس أهم ما تضمنته ملاحظات على الطريق (مصدر سابق) باستثناء نصّيْ عند العامل الشريفي، وركن عمور اللذين حذفا لأسباب «دبلوماسية» ومن أجل هاجس أخلاقي. وباستثناء الجيش، و سوق عين صفرا، اللذين نُشرا في كتب أخرى.

الهضاب العليا

الصباح. صباح شتائي شاحب ومضيء بشمس ناعمة تداعب أشجار التين والرمان العارية في الباحة، وتضيء شعلاً بيضاء في السُّعف المسنّنة، التي كانت النسمات الباردة لا تكاد تحركها.

وكان قد رحل قايد العكارمة وكومه قبل الفجر، وكنت أعتزم اللحاق به في المساء عند الاستراحة.

امتطيت والكومي المسنّ محمد النعيمي حصانين، وكنا ملتفين في برنسين من جلد الجمال السوداء الكبيرة، وأخذنا نتقدم في صمت البداية عبر البساتين، ثم في الوادي البور القاحل حيث الحلفاء التي تلتف بأمواجها الرمادية.

ولم يكن الرحيل مفرحاً في الصباح الباكر من شهر رمضان. فقد انطوت الروح على نفسها في أفكار باهتة مشوشة. وعلى النقيض كانت الجياد متحمسة للهواء المنعش فأخذت تحمحم بسعادة. سيكون اليوم طويلاً من دون أكل، وعلى الخصوص من دون تدخين في رتابة الوادي اللامتناهية.

ومن الجانبين كانت جبال متراكبة ذات زرقة شاحبة وضبابية تحجب الأفق. وفي الشمال الشرقي، في مكان بعيد، يرتفع جبل شيئاً فشيئاً، محدوداً بخطوط مستقيمة وشديدة. ورحت أفكر بحنين شديد المرارة في الهيكل المماثل لجبل مومن، هناك عند الأفق الأحمر لجنان الدار.

وفي ضبابة الصباح البيضاء كانت الشمس تصعد، ويبدو وادي الحلفاء أكثر ابتساماً. وأخذ يختفي كدر ساعات الصوم الأولى شيئاً فشيئاً. وعزيت نفسي قائلة بأنه ما يزال أمامي على الأقل حوالي عشرين يوماً من حياة البدو الرحل.

لم نقابل على طريق جيري فيل إلا بعض الرعاة الفتيان مقرفصين قرب باقات الحلفاء حيث كانوا يشعلون النار ليدفأوا. وهكذا فقد ترجلنا لأن أقدامنا كانت قد تخدرت في الأحذية العالية الدقيقة من الفيلالي الأحمر، وتصلبت أيادينا حد أنها لم تعد تستطيع الإمساك باللجامين.

رأى محمد النعيمي بأني أبدو حزيناً فشرع يحكي لي بطيبة البدو الرحّل قصصاً لتسليتي.

كانت قصص الكوميين بسيطة جداً، ومؤثرة للغاية عادة، حيث الرحيل عن الوطن رفقة الفرسان الترافيين، والحزن والوداع، والنساء والأطفال الذين يبكون، ثم أيام وأيام على الطريق في رتابة الحمادة، تارة في مطاردة الجيوش الذين يتعذر الإمساك بهم، وتارة أخرى من أجل فتح الطريق ومرافقة مواكب الجمال البطيئة بكل بساطة، غير أن النعيمي تمطط بلذة تحت برنسه الثقيل، وقال بابتسامة كشفت أسنانه ناصعة البياض:

ـ الحمد لله! كل هذا مَرّ، وغداً أو بعد غد سيكون كل في خيمته.

وكان يقصد بوضوح العزوبية القاسية خلال أشهر، والوحدة بعيداً عن البدويات الحسان ذوات الجباه الموشومة. ومع ذلك فقد كان النعيمي يوشك أن يبلغ عامه الخمسين، وبدأت لحيته تشيب.

شجعته قليلاً، ثم شرع يحكي لي المآثر الغرامية لسنوات شبابه، في كلمات سليمة ومواربة، بيد أن شعلة أضاءت عينيه الواسعتين الصهباوين الشبيهتين بعيني كاسر. وليست قصص حب البدو بالقصص العادية، وإنما وضِعت لكي تضفي على خشونة حياة الرعاة بعض اللمسات الرومانسية، والتي تترك فيما بعد بصمات على كل المظهر الأخلاقي للبدو وعلى شخصياتهم وسلوكاتهم.

وما همّ أن تكون شاعرية حياتهم البرية غير واعية!

. . . مالت الشمس على الأفق، ووصلنا إلى معبر ضيق بين جبلبن مرتفعين حيث الحلفاء أشد كثافة، ووسط الدغل الشائك توسعت أشجار الزيتون البرية. عدنا للنزول. وعلى اليمين من طريق جيري فيل كان جبل بريزات.

ووسط إحدى الفرجات، وعلى هضبة صغيرة مائلة باتجاه الوادي، حوالي عشر خيام جميلة ذات خطوط حمراء وسوداء تعلوها ندف صوفية حمراء. كان ذلك معسكر جماعة الأولياء من أولاد سيدي محمد المجذوب.

كانت جياد كومنا مربوطة حول الخيام. وكان أناس الدوار يشعلون نيراناً كبيرة لإعداد ضيافة قايد العكارمة، سيدي لعربي ولد الحاج علي.

اندفع كلبي، لوبيو، الذي تبع أغراضي التي حملها بغل لاستقبالي مصدراً أصواتاً سعيدة.

كانت لحظة وصولي إلى المعسكر سعيدة في رمضان، وأحسست بشعور العائد إلى «الديار[1]» داخل خيمة غريبة سأتركها غداً إلى الأبد، لكنني أشعر بأنني أفضل حالاً فيها، وأنا ممددة على حراير سميكة.

تربع القايد الطيب وسط رجاله السمر ذوي الثياب الرثة على نحو مقبول بعد أربعة أشهر في الجنوب. كان المتصوفون يجلسون مشكلين نصف دائرة، واضعين ذقونهم على ركبهم، ينصتون بانتباه إلى الحكايات التي يرويها القايد وإلى أخبار الغرب.

كل عرب وهران الجنوب يهتمون بشغف بشؤون الحدود والمغرب.

ولم تعد لدى أولئك الترافيين والعموريين الذين كان بوعمامة قائدهم قبل عشرين سنة أية رغبة في اتباع قاطع الطريق السابق. واليوم هم الأكثر حرصاً من بين الجنود المسلمين الذين يقاتلون هناك من أجل فرنسا.

سهرنا حتى وقت متأخر منتظرين وقت الوجبة الثانية، وعلا همس كبير من المعسكر في تلك الليلة الليلاء.

كان الحديث في تلك اللحظة عن المواشي والأغنام والجمال والحلفاء والأسواق، وهي أحاديث الرعاة التي سمعتها تتكرر في كل الاستراحات حتى جيري فيل، وحتى أفلو، وحتى بوغاري. . .

وأخيراً، بعد مرور منتصف الليل بوقت طويل، صمت كل شيء، ونمت على الرغم من البرد الذي يخترق البرنس والأغطية ومن التمطيات الرشيقة للوبيو الذي تكوّم على صدري.

دخلنا السهل عند مطلع النهار.

تبعنا في البداية طريقاً حجرية في أرض مشوهة أخذت تتقزح بألوان بنفسجية.

انتصب أمامنا سور رمادي عال يتعذر تجاوزه: منطقة ضباب كثيف حيث تشرق الشمس من الجهة المعاكسة، وحيث ترتسم أقواس قزح شاحبة، وأنصاف دوائر بيضاء وكبيرة بدت كالقباب، وكان علينا أن نمر تحتها.

كان البرد قارساً في ذلك الضباب وقريباً جداً توشك غيمة فضية أن تغطي برانسنا، ووبر الخيول، ولحى الكوم.

---

(١) كتبتها الكاتبة باللغة الإنجليزية home. المترجم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مشينا خبباً حوالي نصف ساعة في محاولة منا لندفأ غير أن البرد كان يزداد دوماً. ونزلنا وسط مدرج صغير من التلال السوداء حيث كانت الحلفاء سميكة جداً، وسرعان ما صعد دخان رمادي عالياً في الضباب وتدفقت أنوار واضحة عند الرمال المبللة. شجعتنا الحرارة وجلبت بعض الفرح إلى مجموعتنا الصغيرة التي كان استيقاظها متجهّماً.

التحق بنا مخازني وبعض الكوم. قدم المخازني أحمد من تاغيت وحيداً على متن فرسه الرمادية مثل فأرة لرؤية ذويه المعسكرين في مكان ما قرب بريزيزينا باتجاه الجنوب.

بعد ساعة، وعندما تلاشت الضبابة، أدركنا الجمال البطيئة للسخار الترافيين، والتي كانت تحمل المتاع وحوالي عشرة صناديق من الخراطيش وكان يتعيّن على الكوم مرافقتها حتى المكتب العربي في جيري فيل.

صارت الشمس عند منتصف النهار ساطعة وحارة ومستعرة تماماً مثلما تكون عليه في فصل الربيع.

وبقدر ما كنا نصعد باتجاه الشمال كانت الأرض تصير أكثر احمراراً، وأكثر حجارة بتموجات طويلة تخترق السهل حافرة أودية واسعة ماتزال جافة. وإلى اليمين، على مستوى منخفض، بدا قصر صغير شديد البياض مع بساتين ذات أشجار عارية. ليس هناك من نخل. إنها الشلالة القبلية.

وإلى اليسار، على تلة في طرف الطريق، قبة كبيرة لسيدي عبد القادر الجيلاني من بغداد، وهي بناء مربّع وسط الأسوار العارية العالية، وقبة بيضاوية الشكل والكل في لون أبيض عتيق، وقد اصطبغ على نحو مشوش باللون الذهبي بفعل الشمس.

وصلنا سفح ذلك الجبل الذي يمكن ملاحظة شكله الهندسي الشبيه بجبل سيدي مومن من تيوت.

وفي منخفض صغير من الأرض الحمراء جداً قصر جميل من الطوب الأحمر الغامق، وبساتين نخل جميلة. كانت تلك شلالة الظهراوية حيث كنا سنمضي الليلة.

شُيّد القصر على أرض وعرة جداً مقطوعة بأخاديد عميقة. عبرنا الشوارع التي كانت مغطاة في بعض أجزائها، شوارع القصرية الغريبة المليئة بالظل وبالغموض.

حاذينا في ممر ضيق جداً فتحة واسعة مثل جُرف توجد في عمقه بساتين وقبة قديمة تفتت قشرتها الكلسية. ويصل ارتفاع هذه القبة الخشنة إلى مستوى الطريق، وتحيط بها قبور وحجارة رمادية صغيرة قائمة.

. . . وصلنا عند القايد الحاج أحمد، وهو رجل مسن مرحب ومرح استقبلنا في قاعة الضيوف، وهي قاعة بيضاء طويلة في إحدى زواياها سرير أوروبي، وأرضها مفروشة بزرابي جبل عمور.

وفي انتظار المغرب خرجنا إلى تلة جرداء أسفل القصر حيث بقينا تحت الشمس متكاسلين لفترة طويلة على الأرض الفاترة، رفقة قاضي القايد، وبعض المتعلمين، ومن بينهم شاب أسمر وسيم كان يغني بصوت عذب. هو ابن قايد بوسمغون وهو قصر يقع جنوب غرب المنطقة.

وفي الشلالة ما يزال القصريون يتحدثون الشلحة، وكنت أنصت هناك لآخر مرة إلى اللغة البربرية القديمة، الغريبة وصعبة الفهم، والتي تزيد من الغموض المقصود للحياة الأهلية في فيكيك. وبعدها سندخل إلى المناطق العربية الخالصة.

عند الغروب راودني أيضاً إحساس بالجنوب المستعاد.

وبينما كنا نعود إلى القصر قابلنا على طريق الآبار مجموعة من النساء المدثرات بحجابات حمراء وبيضاء طويلة كنّ يأتين في المساء الذهبي بقوارير ذوات عروتين من جلود التيوس ترشح بالماء على أكتافهن.

وكانت ظلال بنفسجية طويلة تتبع خطواتهن على الأرض الوردية. . .

. . . تُختصر كل حياة البدو الرحّل جيداً في السؤال الذي طرحه القايد العربي على زميله في الشلالة عند الانطلاق:

ـ هل تستطيع أن تخبرني أين يعسكر أهلي الآن؟

وقام القايد أحمد بحركة بدت لي غامضة جداً ذلك أنه مد يده اليمنى باتجاه الشمال الشرقي. كان ذلك كافياً، فقد فهم قايد العكارمة وسيجد أهله التائهين بعد أزيد من مئة كيلومتر من المنطقة التي تركهم فيها مع بداية فصل الخريف. . .

دويي واد وسط التلال الحجرية والجرداء والجبال التي أخبرني القايد بأسمائها: جبل بوسباع وأوسيرا وميزرو وتازينا حيث تتدفق عيون غزيرة.

وفي عمق الوادي واد أحمر محفور مثل جرح دام مديد، وغدران، (برك) بدأت تمتلئ.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة عندما كنا نقترب من معسكر القايد. وانطلقت رصاصتان أو ثلاث رصاصات في الهواء، وامتدت زغاريد النساء القوية أصداءً في الجبل.

هرع كل أفراد القبيلة لاستقبال القائد، الرجل البسيط والصلب، من دون خبث، وإخوان عائدين من بلاد البارود [1].

كان عليّ أن أقضي هناك اليوم التالي، قبل أن أترك الترافيين الطيبين وأقصد جيري فيل.

وبعد وجبة المغرب ذهبت لأتجول وحيدة، رفقة لوبيو في الحلفاء.

أريد أن تتلاشى كآبة حزني، مادمت قد أدركت أنه إذا ما كان عليّ أن أعود في يوم من الأيام إلى هذا المكان لن أجد أي شيء مما تركته...

أمضينا الأمسية والليلة في خيمة الضيوف. كنا حوالي ثلاثين شخصاً مزدحمين هناك وهو ما أدى إلى عدم إحساسنا بالبرد الرهيب قُبيل الفجر.

في الصباح، حوالي الساعة العاشرة، ودعنا القايد العربي وكل العكارمة. كان وداعاً أخوياً ومؤثراً تقريباً. ثم أخذت طريق جيري فيل رفقة رجل طويل القامة يدعى عبد السلام، وهو شخص أخرق وهمجي التزم الصمت منذ البداية ولعدة ساعات.

كان الجو فاتراً تحت سماء صافية.

بعد أن اجتزنا أودية وأخاديد عبرنا سهلاً رملياً كبيراً صحراوياً جداً.

أضحت الشمس حارة تقريباً، ومضى النهار سريعاً.

كان علينا أن نقطع خمسة وتسعين كيلومتراً للوصول إلى جيري فيل. وكانت تلك

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة إلى اللغة الفرنسية في النص الأصلي. المترجم.

الطريق خالية ليس فيها دوار، باستثناء دار الضياف البائسة شبه الخربة التي يحرسها بعض البدو من نسل «المرابطين»، غير أنهم كانوا يشبهون قطاع الطرق، أولاد الحاج بن عمار.

دار الضياف بعيدة جداً، على بعد ستين كيلومتراً على الأقل من معسكر السي العربي، وهكذا سرنا خبباً طيلة النهار للوصول إليها قبل حلول الليل.

وشيئاً فشيئاً قبل عبد السلام أن يتحدث، غير أني أدركت حماقته المزمنة، وفضلت أن أنصت إلى أغنية شعبية رتيبة ومنتحبة أطلقها دليلي بصوت مرتفع ترددت أصداؤه في البلاد.

أسرّ لي بأنه لم يذهب أبداً إلى جيري فيل، بل إن قدميه لم تطآ من قبل بلدة فرنسية، وطرح علي أسئلة سخيفة جداً أجبت عنها بطرق غامضة وببال مشغول.

أسفت على رفيقي لليوم الأول، محمد النعيمي الذي كان ذكياً ومثيراً للاهتمام.

غابت الشمس. حلّ المغرب، وحظيت بعزاء أني أستطيع أخيراً أن أشعل سيجارة.

غير أنه لم تكن هناك آثار لدار الضياف، وأولاد الحاج بن عمار.

تمتد الطريق على نحو مستقيم في السهل القاحل حتى تبلغ في نهاية الأفق سلسة من التلال الطويلة والمنخفضة حيث نمت بعض أشجار الزيتون البرية.

ـ لربما تقع دار الضيافهناك عند سفح التلة ؟

ـ الله أعلم. . .

ولاشيء آخر يؤخذ من الإنسان الفظ، فاكتفيت بالإسراع بحصاني.

كان الليل وشيكاً، فدخلنا في مضيق حيث تنحدر الطريق، وحيث أخذت ظلال المساء البنفسجية تعتم الأشياء.

وأخيراً، بدت لنا دار الضياف، المنحنية والمتداعية في أرض مستنقعية قطعت بسواقٍ منعشة. جعلنا فرسينا تشربان، ثم بحثنا عن الحراس.

كانوا يعسكرون في ما يشبه صدع جبل في خيام مائلة وبائسة. وكانت سحناتهم سيئة، ووجوهم جائعة جشعة.

دارت مفاوضات طويلة من أجل ثمن الضيافة والشعير. وأخيراً أخذنا قهوة رديئة

وكسكساً أسود من دون لحم. وارتحنا داخل إحدى الخيام. وكانت ترقبنا أعين النساء بفضول من خلال ثقوب في ستارة داخلية.

أراد عبد السلام أن ينام هناك، وأراد «المرابطون» إبقاءنا.

غير أني كنت متضايقة من أولئك الناس ومن ذلك المكان، ذلك أني أحب صمت الليل البارد ومن دون قمر. وهكذا لم أتركهم يؤثرون في قراري فركبنا فرسينا، وذهبنا مسرعين نقصد الطريق.

كانت الظلمة كثيفة، وهبت ريح باردة. وتذمّر عبد السلام قليلاً، وانتهى به الأمر صامتاً لما أدرك أني لم أكن أنصت إليه. وجدنا أخيراً ساقية ومورداً عند سفح تلة عالية اجتاحتها الحلفاء. صعدنا وأشعلنا ناراً لندفأ، ولنستضيء خلال أكلنا بعض الكعك البارد، وجبة الليلة الرمضانية الثانية.

... وصلنا إلى جيري فيل. سوف تعقبها مراحل أخرى...

التقطت عند المرور بأفلو في جبل عمور بعض مواضيع الحكي، وتأثرت كثيراً بطباع ذلك الشعب الماهر والجميل والقوي في تلك المنطقة حيث ما زالوا يضعون الزرابي. تحدثنا طويلاً عن الجنوب وحرب أفلو. وكانت أصداء البنادق الصحراوية تتضخم في تلك الجبال فيجري الحديث عنها ويُعلّق عليها من قبل الكوم الذين يعودون من حملة قاسية لم تسبق الكتابة عن مسيرها المضني وأيامها الخطيرة.

حصار تيغيت الذي رواه شاعر ملحمي عربي أثار شغف المستمعين في مقهى مغربي. كان ذلك أشبه بغناء حروب صليبية حيث شرح الراوي بأبيات موزونة كيف أتى فرسان الحركة من تافيلالت ليموتوا من غير هدى أسفل منافذ المعقل مستفزين القائد دو سيسبيل في مبارزة...

وجدة

تلمسان، ٢٧ آذار/مارس ١٩٠٤.

عبر سنوات التسكع تتعود العين الضجرة على أكثر الألوان زهاءً على أكثر المناظر غرابة، وتنتهي باكتشاف الرتابة الأرضية المخيّبة وعلى تشابه الكائنات، وهي إحدى أعمق خيبات الحياة.

ومع ذلك ففي البلد مناطق تظل سليمة وهي الوحيدة التي يمكنها أن تعيد للأرواح الأكثر تعباً الرعشة التي ظنت أنها فقدتها إلى الأبد.

وجدة من ضمن تلك المناطق المنسية، مثل صخور في سيل عَرِم قديم.

كان الانطباع ثمة أكثر قوة ولا سيما أن الوصول إليها وسط بيئة معروفة بجمالها منذ زمن بعيد من دون أي شيء يوحي بتوقع رؤية وجدة.

في البداية، كان ظهور خاطف لتلمسان المغطاة بالضباب والغارقة في الأمطار، والغائصة في بساتينها شديدة الاخضرار، وشديدة الابتسام، بأسوارها الرمادية العالية، وشوارعها ومتاجرها ومظاهرها المدخنة والقديمة ومنارة سيدي بومدين التي ترتسم سوداء في الأفق الحزين.

وعند الانصراف تحت أشعة شمس واهنة وخافتة مثل ابتسامة وسط الدموع، تبدو هياكل منصورة الكبيرة والخربة والمصعوقة والتي تعاند مع ذلك للبقاء، فخورة دوماً وهي على عتبة الفناء، في النمو المحتدم للحياة النباتية في فصل الربيع الإفريقي.

وفي ما يتعدّى الدغل والتلال الهادئة، وفي ما وراء تافنة الموحلة والثائرة، كانت لالّة مغنية، الضيعة العسكرية الصغيرة، ذات الشوارع الواسعة والمستقيمة المحفوفة بالفنادق الواسعة حيث تأتي الموجة المتقلبة للمغرب المهتاج، تضرب وتزبد في تجارة رديئة.

وخلف مغنية يمتد سهل أنجاد الكبير وجباله ذات المنخفضات الواسعة.

وليس هناك إلا الحزن والرتابة مع هياكل أشجار العنّاب التي تساقطت أوراقها، ومجاري الوديان الأشبه بجراح طويلة تشق العشب المبتل.

وعلى الدرب غير المنتظم كانت الجيف المبقورة تعرض رعب أحشائها المنزوعة، تلامسها شمس صفراء مغطاة بأبخرة بيضاء خفيفة.

وثمة حزام من بساتين الزيتون الكثيفة، وحدائق خصبة والخضرة المخملية لحقول الشعير الصغيرة مع الإزهار القرمزي للدراقن الموجود في بعض الأحيان عند زاوية سور ترابي: كان منظراً هادئاً يذكر بمنظر الساحل التونسي.

غير أن أشجار الزيتون تبتعد فجأة وينتصب سور أبيض كامد عال وخشن يتعذر عبوره، حفر فيه باب مقبب وقوي، إنها وجدة.

كان العسكر، وهم جنود السلطان، يحرسون الباب جالسين أو نصف ممددين

أرضاً بثيابهم وشاشياتهم القرمزية. نظر إلينا هؤلاء ونحن نمر بلامبالاة وردّوا على تحيّتنا بشرود.

عندما تغيب الشمس، في الوقت الذي سيطلق فيه المؤذنون أنغام نداءاتهم الرتيبة، تُغلق أبواب وجدة وتصرّ على مفصلاتها الحديدية القديمة. وتُحمل مفاتيح القصبة إلى العامل حيث تبقى حتى الفجر. ومن مغرب الشمس إلى طلوعها تظل وجدة معزولة عن باقي العالم، ولن يستطيع أي شخص دخولها أو مغادرتها.

وما إن عبرنا القبة حتى اجتاحتنا رائحة. كانت رائحة قوية ومركبة شكلت من عفن القذارات والمسك والجِيف والزيتون المنقوع.

دخلنا في الطين والتعفن وسط البرك الراكدة التي اصطبغت بعفن أخضر حيث يتجمع البراز، وبهائم ميتة، وبقايا قذرة، وأسمال بالية.

وعوض الصمت والانزواء الذي تعرف به باقي مدن الإسلام الأخرى كان في ذلك المكان تجمهر متلاحم وضاج لرعاع يكدون ويدورون في وحل الشوارع. حتى لكأن ريحاً تنقل الحُمّى ضربت وجدة. وبدا الناس كأنهم يهرعون، وهم الذين انتظرنا أن نراهم يمشون ببطء ووقار.

كانوا يسرعون ويتدافعون. أي أمور مستعجلة لا بدّ لهم من إنجازها، وأي مكان كانوا يقصدون، ما دام قد حل المساء، وكل الأبواب ستغلق حتماً؟

في البداية طالعتنا شوارع بائسة ثم ساحة تحيط بها منازل كانت بيضاء في الماضي وأخذت تتداعى مظهرة بقعاً جذامية سوداء وتصدعات عميقة مثل جروح، ومشرعة على الحمأة السوداء للأرض، والدكاكين، وأماكن ضيقة أشبه بخلايا النحل، حيث تتكدس البضائع والمؤن من زيتون أسود لامع، وتمر أصفر مصفوط في جلود باهتة، وجرار زيت أخضر، وقوالب سكر لفت في أوراق زرقاء.

وفي الممرات الجافة قليلاً كان الناس يتكدسون على جوانب الأسوار التي لمّعها الاحتكاك الدائم للأيادي ولطخها.

أي اختلاط للأعراق والأجناس والأثواب! سكان مدن من فاس ومن وجدة بجلابيب من نسيج الكتان الرقيق، وبوجوه بيضاء هادئة بنظرات خبيثة ومتعجرفة... وبدو رحّل بأسمال ترابية اللون معتمين ومقلنسين، والسبحات في الأعناق، ووجوه واضحة الملامح وصلبة. ومع ذلك فهي معروفة أكثر وودودة أكثر... ونساء بثياب

رثة وحقيرة ملتفات في حايكات عتيقة من الصوف القذر ساحبات أحذيتهن البالية في الوحل. . .

وكانت جماعات من الأطفال الأشقياء يعدون بين المارة، ويفرون كالجرذان بين قوائم الأحصنة، ومع ذلك كانوا مؤدبين بوجوه لطيفة، وعيون كبيرة مداعبة. . . وأخيراً هناك الجنود والمتسكعون الذين يكاد يتعذر التفريق بينهما، حيث الوجوه تنمّ عن الجوع واللصوصية، ولا سيما جبليو الوسط الذين كانوا ما يزالون أقوياء، على الرغم من شهور طويلة من البؤس الفظيع، بوجوهم النحيلة وأسنانهم الحادة وعيونهم اللامعة. وكان بعضهم يرتدون سترة المخزن الحمراء فوق أسمال يشق وصفها.

وكان كل الناس يتحدثون في الوقت عينه، ويتشاجرون، ويغنون ويضحكون ويتمازحون. . . لأن الفرح كان يعم مدينة البؤس والقذارة في تلك الساعة الأخيرة من النهار فتنطلق الضحكات والأغاني.

وبطريقة غريبة يزيد ذلك الفرح من الإحساس المشؤوم بالوصول والرعب الذي توحي به تلك الكائنات الحانقة، والمضغوطة حتى أقصى الحدود، والتي تعود إلى الحيوانية المتوحشة.

ويدور بين الأطفال والنساء والجنود مزاح ودعابات بذيئة. وما يزال أولئك الرجال الذين يموتون جوعاً يفكرون في المتع التي تعكسها عيونهم العطشى على الطريق الطويلة من تازة التي أتت بهم إلى ذلك السعير، حيث مات العديد منهم جوعاً ومرضاً في موج القذارة المتصاعد.

عبرت رفقة فارسين من بني واسين الحدودية كل المدينة من أجل الذهاب إلى مأوى آمن وهادئ في زاوية سيدي عبد القادر من بغداد.

وفجأة، ولما كانت الشمس تميل إلى المغيب، بدت وجدة أرجوانية في محيط ذهبي مشرب بخضرة في تلك الأحياء البعيدة التي لم يعد يتجمهر فيها الرعاع بكثرة فترفع وجدة ستائر الحداد والرعب. وتبتسم وجدة البيضاء والوردية المحاصرة بأسوار سوداء ذات شرفات أنيقة، وأشجار زيتون هامسة. كل شيء خرس بينما كان الصوت البشري الوحيد هو صوت المؤذنين ينادون المؤمنين لصلاة المغرب.

وعلى الأقواس المتفتتة حيث نما العشب كان الحمام يصقل ريشه الذي يتقزَّح وهو يتساقط ببطء.

كان السلام العارم والسكون والصفاء المهيب لمدن الإسلام، ما ألفيته هنا فجأة وطبعاً بعد كابوس الوصول.

حل الليل المظلم تحت سماء بدأت تحمل السحب.

وعدت لأعبر وجدة على حصاني لأزور البعثة الفرنسية الصغيرة المكلفة بتدريب المدفعيين المغاربة، صحبة عبد أسود من الزاوية كان مارداً بصوت أجش.

وهكذا بدت لي المدينة المدهشة بوجه آخر، أكثر حزناً وأكثر غرابة.

واستمر الذهاب والإياب في الظلام حيث تتمايل فوانيس في الزجاج الملون بالأحمر والأخضر والأزرق ملقية امتدادات فوسفورية على البرك النتنة التي تخرج منها فقاعات تتشظى.

وكان المارة يحركون مصابيحهم المعلقة على أطراف عصي يحملونها مخافة أن يتورطوا في أحد المستنقعات.

هنا ساحة هي عبارة عن سوق غير نظامية تتخللها حفر نتنة وركام من القذارات. وفي إحدى الزوايا جيفتان أو ثلاث لكلاب كانت الكلاب الحية تأتي لتشمّها قبل أن تفر مذعورة وذيولها بين قوائمها وهي تهرّ هرير الموت الطويل...

وتحت أضواء المصابيح المريبة تباع الخضار والليمون والزيتون والحامض والتمور والأمتعة العتيقة والكيف، وحده الخبز هو ما لا يمكن إيجاده في مثل تلك الساعة المتأخرة، ذلك الخبز الذي يلهث خلفه الجنود الجوعى. وتتكاثر أشكال الكائنات المشوّهة، بؤساء ومهدّدين يخرجون من الزوايا المعتمة ليعودوا إليها فيما بعد، مخلّفين القلق من ظهور طيف مشؤوم عابر يشعر المرء أنه في مكان ما قريب جداً خلفه.

انزلق حصاني وارتعد. كان خائفاً من تلك الأضواء ومن كل تلك الجلبة فثار، وكان لا بدّ من الابتعاد حتى لا يدوس المارة وجماعة الأطفال الذين يصرخون عند أقدامنا.

هنا، في الليل، حيث يشعر المرء بالجوع، الجوع المخيف الذي يعذب الجنود والمشردين وأولئك الذين لجأوا إلى هذا المكان منذ اندلاع الحرب.

وصعدت جلبة تئن برتابة من كل الساحات ومن كل الأزقة «خبز في سبيل الله!»، و«خبز من أجل سيدي عبد القادر الجيلاني!». وخلف السوق، وفي الأماكن

المظلمة، هيمن صوت على بقية الأصوات، كان صوتاً من دون طابع لضرير، يطرق العدم في السؤال نفسه بنبرة رتيبة ومتقطعة «من يتصدق علي بالخبز من أجل سيدي يحيى؟»

ويعود اسم سيدي يحيى، سيّد وجدة، كلازمة، ويتردد بصلابة تعبير تنتهي بجعل توسل المتسول جافاً.

وأخيراً، وجدنا القصبة، وهي عبارة عن بيت مغلق مثل كل بيوت وجدة. كان هناك مهجوراً من قبل تلامذته منذ أن فُقِد الخبز، وكان يقطنه ضابطان ورقيب فرنسيون وضابطا صف من السكان المحليين وحدهم، منفيين وقد انتهوا إلى الكسل في الحزن الكئيب لذلك الركن من وجدة. بقوا في مركزهم كجنود، مستسلمين في الشك ولا جدوى وجودهم، فقراء وطيبين ولربما يصيرون في الغد ضحايا الشجارات وأعمال النهب مغربية.

تمددت على زربية في غرفة عتيقة ونمت. وكما لو أن الأمر يحدث في حلم، وفي شبه غفوة، سمعت صوتاً غير مميز في البداية، في الصمت المقلق لوجدة التي هدأت أخيراً. وأخذ الصوت يعلو ويعلو وصولاً إلى أنغام مزمار الواضحة، لينتهي في انتحاب عذب خرس في زفرة. كانوا عيساوة يصلون ويرتلون أذكارهم في صفاء الليل المتحفّظ الذي يخفي قذارة الأشياء وانحطاط الناس.

وهناك أيضاً، وكما عند مغيب الشمس، كان إحساس من السلام العارم، ومن السكون، إحساس قوي بالإسلام القديم غير المبالي أمام الموت، وغير المكترث بالخرابات، والمستمر عبر قرون الحرب والدم تلك حلمُه الكبير الصافي بالخلود.

. . . وطلع النهار مشرقاً ومتألقاً على بستان الورود الصغير المختفي في باحة البعثة، وفي ظل شجرة حور كبيرة فضية اللون، وحصون القصبة العتيقة التي قرضها الطحلب.

عدت إلى السوق، على حصاني دوماً، مخافة أن أمشي في الطين الموحل بالسخام والصديد.

. . . تتنفس وجدة: عند الفجر خرج أربعة آلاف من الرجال الجائعين والمُهدِّدين الذين يؤلفون جيش تازة، والذين جندوا جميعهم تقريباً من سكان جبالة الفطيعين،

وانطلقت قبلهم المحلة بحثاً عن الخبز الموعود ولم تعد. . . يا لمصيبة من سيلتقيهم ذلك الحشد الفوضوي الكبير على الطرقات المقفرة!

ومع ذلك كان ما يزال هناك رجال يعدون ويبيعون بالمناداة بنادقهم غير المجدية وستراتهم القانية. كانوا يستميتون لبيع تلك الأشياء بأي ثمن، وبالسباب والسخرية من المخزن العاجز والكاذب. فقد انفجرت كراهيتهم في واضحة النهار.

وما إن نتقدم حتى تصير الشوارع أكثر ضيقاً والحشد أكثر التحاماً. وفي أماكن متفرقة في الطين الساخن جيف منتفخة. هنا حذوة حصان، ومخلب كلب شره يمزق قطعاً من اللحم الميت تاركاً خيط دم أسود وصديداً.

أهل المدينة، الخضر النظيفون والمتميزون والذين تدفّقت عليهم منذ أشهر الجماعات البرانية، لم يحاولوا حتى تنظيف مدينتهم، فقد كانوا يمرون قرب القذارات ويستديرون متأففين.

ويُرى أيضاً في تلك الشوارع، المقطوعة في كل خطوة بقبة، أماكن مسوّرة متتابعة، وتشرّد عجيب لجموع من العميان والمجذومين والمشوهين والمعتوهين. . .

تملكني الإحساس بأني في أرض مَهْلَكة وفي حانة قذرة ومأوى للصوص والأشرار، كل ذلك امتزج في داخلي وأخذ يضغط عليّ.

رجال مفتولو العضلات، جميعهم تقريباً يلبسون أسمال المخزن الحمراء ويعدون عبر المدينة، دافعين الناس، وفي أعناقهم سلاسل طويلة رُبطت بها صحون قصديرية للطعام، وأجراس صغيرة من النحاس الأصفر تصدر رنيناً، ويحملون على ظهورهم قرباً مملوءة. هؤلاء هم الكرابة، باعة الماء، وهم يضيفون لمسة أخرى من الغرابة بأصواتهم الفريدة.

فجأة، ظهر وسط باعة الأشياء المختلفة، جندي أسمر وسيم طويل القامة، يرتدي سترة قرمزية اللون ويحمل بين ذراعيه الممدودتين كلباً غاضباً ومزمجراً، أمسكه من جلد عنقه. وبصوت مرتفع أخذ يصرخ مقلداً الباعة بسخرية:

ـ الكلب بخمسة قروش عزيزية! هو حارس جيد، وهذا كلب لا يكذب أبداً!

وفهم الجميع الإيحاء الذي يسبّ به المخزن المخادع. وانطلقت عاصفة من الضحكات بينما كان الحيوان الذي أطلق سراحه يفر وهو ينبح بغضب.

. . . وفي الزاوية باحات كبيرة مضاءة، وقاعات طويلة واضحة وبيضاء، وصمت وانعزال.

وحول ابن الشيخ الغائب، وهو طفل شاحب كثير المرض في جلابية من نسيج الكتان المعتم، يتحلّق رجال مهيبون، بطيئو الحركة، ذوو ابتسامات مرحّبة، وسلوك وديع. كانوا يتحدثون كما لو أنهم يرددون درساً حُفظ عن ظهر قلب عن السلطان وأفكاره المفيدة للإصلاح، وعن جرائم الروغي.

غير أنهم كانوا أذكى من أن يؤمنوا بكل تلك الخصومات. أرادوا أن يتجردوا من ذلك في عالمهم الثابت والمغلق، وأن يعيشوا تماماً مثلما عاش أجدادهم، وأن يديروا في صمت وفي الظل، شؤون المؤمنين، من دون اهتمام بسيد المغرب، المنزوي دائماً والبعيد جداً.

قدّمت لنا عبدات زنجيات رائعات في ملاحفهن الصوفية الداكنة الشاي والضيافة من الحليب واللحم المبهّر. كانت أجسادهنّ مرنة وقوية العضلات. ومع كل حركة كانت تظهر أشكال مثالية. وكن نصف مبتسمات يُجِلْن فينا عيوناً نجلاوات حُوراً بحيوانية مداعبة.

كم كانت تلك الزاوية البعيدة عن الفظاعات التي تحدث في الخارج متوراية خلف الأسوار، وأماكن مسوّرة متتابعة، وباحات ودهاليز !وكم كانت نظيفة وهادئة في عفن وجدة وصياحها!

رحلتُ حاملة هذا الانطباع بالهدوء العميق والمتسربل بالغموض.

عبرتُ لآخر مرة كل سديم وجدة تحت شمس منتصف النهار، وخرجنا من الباب الشرقي عينه.

إنها النهاية، يسدل الستار الأخضر والفضي الرائع لأشجار الزيتون على كل الرؤى القصيرة، وعلى ذلك الحلم الذي دام بضع ساعات، حيث الثمل والكوابيس.

على الرغم من كل شيء، ومع كل ما في وجدة من تناقضات، ورغم أنها وجدة القذرة والجائعة والمومس، وجدة مدينة التعفن والموت، فقد خلّفت فيّ أحد أعمق انطباعاتي الإفريقية، وأكثرها استحواذاً. تركتها من دون أن أفر منها، وتقريباً ضد رغبتي، محتفظة بذكرى حنين لتلك اللحظات النادرة، التي أخذت تظهر في وجداني

وكأنها سرية، هادئة وباسمة، بجمال حزين لأميرة أزيحت من منصبها، وغارقة في قلب الرعب والخرابات المغربية، في ذلك البلد حيث كل شيء يغفو، وكل شيء يتداعى ببطء على مرأى من الناس غير المكترثين، والذين لا يحاولون أن يصارعوا الفناء ولا يؤمنون بالقوة البشرية...

ملاحظة

في ربيع سنة ١٩٠٤، عادت إيزابيل إبرهارت إلى الجنوب الوهراني، ونشرت البرقية الجزائرية في الفاتح من شهر أيار/مايو مقالاً قصيراً لإعلان رحيل مراسلتها مؤكداً: «... ستتكلف بالدخول إلى تافيلالت، تلك المنطقة المجدة والثرية، والمغلقة حتى الآن على الأوروبيين.»

الجنوب الوهراني
الجزء الثاني

عين صفرا، أيار/مايو ١٩٠٤.

كنت قد تركت عين صفرا في السنة الماضية عند أول هبات فصل الشتاء. كانت ترتعد برداً، ورياح قوية تعوي وهي تكنسها مميلة الأشجار العارية الهزيلة. رأيتها اليوم وكأنها مدينة أخرى، وقد عادت لتصير هي نفسها، في الإشعاع الصيفي الكثيب والصحراوي جداً والغافي جداً بقصرها الأحمر عند سفح كثيب ذهبي، وبقبابها المقدسة وبساتينها المائلة إلى الزرقة.

هي فعلاً عاصمة وهران الصغيرة والقاحلة، والمعزولة في واديها الرملي، وسط الشساعة الرتيبة للهضاب العليا وسعير الجنوب.

بدت لي كئيبة ومن دون سحر، ذلك أن الشمس الخافتة لم تكن تغلف الجو الساطع الذي يمثل روعة مدن الصحراء كلها. أما الآن وقد أقمت بها في بيت مؤقت صغير فقد بدأت أحبها. ثم إنني ما كنت لأرحل عنها من أجل عودة كئيبة باتجاه التل المبتذل، وهذا يكفي لكي أنظر إليها بعيون أخرى. وعندما سأرحل لن يكون ذلك من أجل الانحدار إلى مكان أبعد، وإنما للذهاب إلى هناك، باتجاه الجنوب الكبير حيث تنام الحمادة تحت شمس أبدية.

وسط أشجار الحور ذات الجذوع البيضاء، في ممرات طويلة تبعاً لتموجات الكثيب الأولى، ومع الروائح الزكية المستعادة للنسغ والصمغ، توهّمتُ أنني أضيع في

الغابة. كان شعوراً عذباً جداً، وصافياً جداً الذي طبع للحظات لذة الرائحة البعيدة جداً لمجموعة الأكاسيا المزهرة. كم أحب الخضرة الغزيرة، والجذوع الحية، والمغضنة مثل جلد فيل، لأشجار التين المنتفخة بحليب مر، وحولها تطن أسراب ذباب ذهبية اللون!

وفي ذلك البستان الذي تفاجأت لوجوده وسط مكان قاحل أمضيت ساعات طويلة، ممددة على ظهري، ثملة من السكون بتأثير مداعبة النسيم الفاترة أنظر إلى الأغصان التي تكاد لا تتحرك، جيئة وذهاباً في عمق السماء الفاتن، مثل عتاد سفينة تتمايل بهدوء.

وخلف أشجار الحور الأخيرة، الأقلّ نمواً والأكثر نحولاً، ترتفع الطريق الرملية، لتنتهي بغتة عند سفح الكثيب النظيف الذي بدت رماله كحبات بارود من دقيق الذهب.

هناك تتحرك رياح السماء على هواها مشيّدة تلالأ، وحافرةً أودية، وفاتحة جُرفاً، وخالقة بنزوة كل يوم منظراً جديداً عابراً.

وعلى مستوى أعلى شُيّد معقل كيفما اتفق على تل أكثر سكوناً بعض الشيء، تحدّه حجارة سوداء، ويميل إلى الحمرة. ويحرس الوادي حارس بعيون جوفاء، شهد مرور جيوش وعصابات من قطاع الطرق ويرنو الآن إلى الصمت وسلام الآفاق الغامضة.

كان الكثيب المتوهج بلونه الأحمر الذهبي يتمايز بقوة عن الأرضية الزرقاء الخشنة لجبل مختار. انتهى اليوم صافياً غارقاً في أبخرة خفيفة ودخان معطر. وانتابني ذلك الشعور الحزين واللذيذ بتجدّد الشباب في عشيّات الرحيل. كل الهموم والضيق الثقيل للأشهر الأخيرة في الجزائر المضجرة والواهنة، وكل ما كان يشكل حزني و«كربي» بقي هناك.

كان عليّ أن أحتقر الأشياء والناس في الجزائر. لا أحب أن أحتقر. أردت أن أفهم كل شيء، وأن أسامح كل شيء. لمَ علينا أن ندافع عن أنفسنا ضد الحماقة عندما لا يكون لدينا شيء لننازعها إياه، وعندما لا نكون جزءاً منها! لست أدري. لا

تهمني هذه الأشياء. بقيت لي الشمس، وتغويني الطريق. تكاد هذه أن تكون فلسفة بعض الشيء.

إلى جواري، سنحت لي الفرصة لأرى شغفاً صافياً وقوياً يكبر في روح اعتقدتها متحررة، فقلت لصديقي: «إحترس، فعندما نكون سعداء لا ندرك شيئاً من آلام الآخرين...»

انطلق باتجاه السعادة، أو على الأقل، هذا ما كان يعتقد، ومضيت باتجاه قدري.

ابتعدت الآن، وأحسست بروحي تعود لتصير سوية أكثر، ومقبلة بسذاجة على كل الأفراح، وعلى كل لذات العين والحلم الناعمة.

عدت لألفي مجدداً في الشارع العربي الوحيد للبلدة مشاعر هادئة لـ«موطني» تعود لشهر رمضان الماضي.

الكثير من الوجوه المعروفة على المقاعد، وعلى الحصائر، وأمام «القهوجية»، والكثير من التحيات الودّية المتبادلة.

وإلى كل ذلك هناك الفرح الحميمي حين أفكر بأني سأرحل في اليوم التالي، ومنذ الفجر، وأترك كل تلك الأشياء التي راقتني مع ذلك هذا المساء، وبدت لي رقيقة.

لكن من يستطيع أن يفهم هذه اللذة المزدوجة غير شخص من البدو الرحّل أو متشرّد؟

كان القلب مايزال متأثراً بكل ما أخذني وما تركت، وخاطبت نفسي بأن الحب عبارة عن قلق، وأنه يتعين الحب حد التخلي مادام ليس للناس وللأشياء إلا جمال عابر.

وخلف قضبان حديدية لنافذة مقهى مغربي، وأمام أصيصات الحبق، أخذ تجمّعٌ يتشكّل شيئاً فشيئاً.

كان بعضهم يعزف على الناي فدخلت: ستهدهد تلك الموسيقى الرتيبة والحزينة حلمي، وستعفيني من الكلام خاصة...

موسيقيو الغرب

قاعة مربعة صبغت باللون الأزرق الشاحب، مع لوحات وردية، وعلى اليمين، وفي العمق، كان هناك وجاق من الجبص المدخن، وعلى رفوف خشبية فناجين وكؤوس وصينيات ومقاعد خشبية، وطاولات عادية من الحديد الصدئ تتزاحم في المقهى. كان هناك طائر أسير يغفو في قفص.

كان الحضور حاشداً في مقهى صحراوي صغير وغريب يرتاده المغاربة والبدو الرحل! ووسط العرب ذوي البرانس والحايكات الترابية كان بعض السباهيين، والمخازنية، وفرسان من الأهالي.

المرافق على الأفخاذ، والجميع صامتون شاخصون بانتباه إلى أقصى القاعة حيث اصطف الموسيقيون على مصطبة.

كانوا من بني غويل من سبخة تيغري.

كانوا بأثواب حمراء ونعال. يشبهون قليلاً مغنيي وموسيقيي الهضاب العليا الجزائريين، الذين يرتدون مثل المتعلمين ثياباً نظيفة ويلبسون، وعلى سبيل التأنق العربي، صدريات مطرّزة وعمائم ذات شرائط حريرية. كان موسيقيو الغرب أولئك يحافظون على نمط عِرقهم الخشن، وقد منحت لِحاهم السوداء القصيرة والمتيبسة وجوههم هيئة هندية زائفة.

ومع ذلك كان الحجاب السميك الذي يغطي العمامة البيضاء الواسعة يؤطر وجهاً وسيماً واضح القسمات لأحدهم، بأنف أعقف ومنخرين نافرتين وعينين حزينتين. بينما كان الآخر الذي يعزف على الناي ضريراً. كان يمنح روحه كلها في الشكوى وفي همس قصبته كما لو أنه كان يتحدث داخلها، وكان يقلّب حدقتي عينيه الكامدتين الميتتين، ونصفه الأعلى يتمايل باتزان ضابطاً الإيقاع. وكان في المجموعة أيضاً ضارب سنطور وأبعد قليلاً مغن بعينين مغمضتين، ورأس مائل إلى الخلف كما لو أنه ثمل.

كان ترف أولئك البؤساء الوحيد نايين محاطين بالجلد، وأقراص من النحاس المصقول بجدائل حريرية زرقاء مزجت بسلاسل صغيرة من الفضة، وقطع نقدية مغربية.

كان قرع الطبل الأصمّ يمتد إلى ما لا نهاية وعلى نحو غير ملائم لنبض القلب البشري فيغدو تباعاً مؤثراً ومهيجاً وتعباً وميتاً موتاً لذيذاً. وكان للنايين همس لا يكاد يُميز كماء ساكن أو نسمة فاترة.

اجتاح بنو غويل القاعة، وكانوا خرقاء مزعجين، أبناء صحراء فوجئت بهم المقاعد والطاولات.

ومع ذلك كانوا يبتسمون، وكانوا فخورين بنجاح إخوانهم بين المزانات.

وعلى صينية وضعت أرضاً كانت القطع النقدية الكبيرة والبيضاء تسقط محدثة صوتاً واضحاً. وعند كل هبة كان ضارب الطبلة يبارك من طرفه القصيّ كرم العاطي.

غير أن رجال بني غويل اكتفوا بتشجيع الموسيقيين بهيئاتهم وهتافاتهم المستحسنة. وكان من النادر جداً أن يُذعن أحدهم ويلقي قطعة نقدية على الصينية بعد أن يقلب لوقت طويل زعبولته وهي نوع من الأكياس من الجلد الفيلالي.

قام أحدهم وكان شاباً يافعاً، وشرع في رقصة موزونة وبطيئة، وقد أسند طرف عصاه المعقود إلى صدره.

أخذ الجميع في الضحك.

وكان صاحب المقهى الذي ربط فوطة حمراء وخضراء على وسطه كحزام يقدم الشاي في صينيات. وفي كل مرة كان يسمّي من طلب الشاي بصوت مرتفع داعياً له ببركة المجازي...

الموت الإسلامي

أشرقت شمس الصباح الأولى في الأفق مثل زهرة أرجوانية كبيرة. وكان كثيب الرمل الذي ضم باقات من الحلفاء يحتدم حول قبة سيدي بوجمعة التي تشرف على طريق بني ياحو وسفيسيفة. والتمع وميض وردي عند قمم أشجار التين السوداء، وأشجار الصفصاف الكبيرة التي تقطر دمعاً فضياً متقزحاً.

وحول القبة قام عرب، وهم حجاج قدموا من مكان بعيد لطلب حماية الولي الكبير، وصلوا طويلاً بالحركات الرزينة والجميلة للطقس الإسلامي الذي يسمو بأصحاب أرث الثياب.

وخلف سور المقام الصغير كانت النساء قد بدأن يثرثرن حول نار من الجمر خبت. كنّ بدويات قدمن مع رجال قبيلتهن لا يكدن يغطين وجوههن.

وتحت شجرة كان أحد المجانين يرتدي أسمالاً، ويستند إلى عصاه، ويرتل القرآن كيفما اتفق خالطاً آيات من دون تتمة. كان وسيماً على الرغم من وجهه النحيل، أسود الشعر ربط حول جبهته خرقة بيضاء، ينظر بعينيه الملتهبتين الكبيرتين نحو نقطة غير مرئية في الأفق.

وبين الفينة والأخرى كانت مجموعة من النساء يطلقن «زغاريد» بلورية لأيام العيد.

غير أن موكباً ظهر من أعلى الكثيب. كان بعض العرب يتقدمون ببطء مصحوبين بغناء موزون وحزين.

وخلف المجموعة الأولى حمل أربعة رجال على أكتافهم نقالة غطيت بقماش أبيض طويل، وعند ظهور هذا المؤمن المجهول المتوجه صوب الخلود، وفي هالة الصباح، صمتت كل الأصوات الفرحة.

وهكذا نزل كل الرجال تقريباً في اتجاه المقبرة، حيث احتشدت القبور في الكثيب حجارة مجهولة من دون تواريخ. وسرعان ما حفرت حفرة في الرمال المتحركة وضع الميت فيها مواجهاً الشمس.

هناك صلّى المسلمون الذين شكلوا نصف دائرة صلاتهم الأخيرة بصوت خفيض من دون سجود.

وبسرعة شُرع في ردم الحفرة من على صف من الآجرّ، وزرعت ثلاث سعفات خضراء على التل وأخذ النسيم المنعش يحركها... ثم رحل الجميع.

وإلى جواري أخذ السي عبد العالي، وهو متعلم من مراكش، يغني بصوت شبه خافت أغنية مأساوية قديمة عن مصير أولئك الذين ماتوا:

هو ذا أنا ميت وغادرت روحي جسدي
ذُرِفتْ عليّ دموع اليوم الأخير
حملني أربعة رجال على أكتافهم
مثبتين إيمانهم بالله الواحد

حملت حتى المقبرة
وصلوا عليّ صلاة من دون سجود
آخر صلاة في هذه الدنيا
وأهالوا التراب عليّ
ورحل أصدقائي كأنهم لم يعرفوني أبداً
وبقيت وحيداً في ظلمات القبر
حيث لا فرح ولا هم ولا قمر ولا شمس

ليس لي من رفيق آخر إلا الدود الأعمى
جفت الدموع في خدود أهلي
ونمت الأشواك في تربتي
قال ابني: فليرحمه الله!
فلتعلموا بأن من رحل إلى رحمة خالقه
خرج في الوقت نفسه من قلوب الخلق
ولتعلموا بألا أحد يهتم بالغائبين في بيت الموتى

يا من وقفت أمام قبري
لاتتفاجأ بمصيري
مضى زمن كنت فيه مثلك
وسيأتي عليك وقت تغدو مثلي

كان لحن هذه الأغنية المأسوية حزيناً وعذباً، وكان صوت الطالب المغربي متناغماً... نظرت إلى التلة الصغيرة المهجورة هناك إلى الأبد في فراغ صحراء الرمال.

... قصدنا سفيسيفة، وهي قرية إسلامية صغيرة من دون أي شخص أوروبي أو حتى يهودي.

ومرة أخرى تحضر الصخور المعتمة للجنوب الوهراني. وداخل القصر حياة خربة حيث جدران آجورية تتداعى، ووجوه مومياءات تغطى. كل شيء صار خرباً غير أننا أحسسنا بنعاس ناعم أسفل شجرة رمان واسعة في ألق شمس قد ارتفعت. . .

قصوريون هزيلون بسُحن باهتة وهيئات متواضعة، وأثواب مخنثة، جنس من الناس منحلّ بفعل الحياة الحضرية، وفي ظل القصور الضيقة، والزواج اللحمي. تتحول القصور إلى خرابات في ظل البساتين اللذيذة التي تجتاحها الصحراء شيئاً فشيئاً وتلتهمها، وشعب بأكمله يموت ببطء في اللامبالاة والنسيان.

وعند العودة كانت الشمس قد اختفت منذ وقت قصير غير أن ألقاً أحمر كان ما يزال يطفو على الوادي.

مررنا أمام سيدي بوجمعة.

كان ثمة صمت عميق. صمت يشعر به المرء، أشبه بكربٍ يهيمن على القبة وعلى المقبرة حيث ترتفع بعض قبور المرابطين وسط حجارة صغيرة مجهولة، مستطيلة من التربة الجافة.

كان الباب مغلقاً، جلس جواره متسول مسن وقد أسند عصاه إلى الجدار بهدوء. وفي ظل عماه كان يتمتم كلمات من دون نبرة، كما لو أنه يحكي لنفسه قصصاً.

وفي مستوى أعلى كان مخزنيان يرتديان برنسين قد ترجلا عن حصانيهما، وأخذا يصليان وحيدين في الشعاع الأرجواني الأخير للنهار.

وكان هناك كلب مقيد يمد فمه الأشبه بفم دب إلى السماء بعينيه الملتهبتين الصغيرتين والمائلتين، وأطلق نباحاً طويلاً، كان أشبه بأنين حزين غير متناه.

غرقت في الظلام صحراء الرمال والحلفاء. وفي أشجار الصفصاف في الواد. وكان صوت البومة حزين يتردد صداه بالتناوب على نحو متعاقب. . .

على الطريق

بعد ليلة مقمرة قصيرة أمضيتها على حصير من قصب، أمام مقهى المخزن المغربي في قصر بني ونيف، استيقظت سعيدة بأحاسيس عذبة طالما شعرت بها عندما كنت أنام في الخلاء تحت السماء الواسعة، وعندما أكون على أهبة الانطلاق.

قصدت الطريق لانتظار الجيلالي ولد بهتي المخزني الذي يتعيّن عليّ الذهاب برفقته إلى بشار.

الذهاب إلى بشار! وأن أتجاوز أخيراً ذلك الحد المقدّر لبني ونيف من أجل الدخول إلى بلاد الجنوب الوهراني الحقيقية كان كافياً لأشعر بأني هادئة وسعيدة، وأن الملل الذي بدأ يجتاحني في عين صفرا آخذ بالاختفاء.

مر الوقت، وتأخر الجيلالي في الوصول.

طلع النهار. كان يوماً رائعاً من فصل الصيف من دون سحب، ومن دون ضباب. وهبّت نسمة منعشة منذ ليلة أمس، طردت كل الغبار وكل الأبخرة. وانكشفت السماء لامتناهية وعميقة بشفافية محيط هادئ خضراء.

وعند الأفق، في كل ذلك الاخضرار الذهبي، تصاعد وميض أكثر صفرة واحتداماً، وسرعان ما أضحى برتقالياً فاقعاً ثم أحمر. وفي المقابل، في الغرب المعتم، كان القمر ينحدر داكناً مثل وجه محتضر.

وقريباً جداً منا ارتسمت قبة سيدي سليمان البيضاء الكبيرة، ذهبية على لون السماء النحاسي الذي كان ما يزال أخضر. وطفت تلك الأشعة البرتقالية على الأرض المعتمة وعلى المقابر والمنازل المتصدعة.

وأخيراً وصل الجيلالي، ورحلنا مديرين حصانينا باتجاه القمر الذي أكمل انطفاءه.

كان ذلك المخزني شاباً طويل القامة أسمر البشرة، بوجه واضح القسمات طيّب كبدوي ترفاوي[1] من جيري فيل، وكان ظريفاً و«ذكياً»، وسيكون بالنسبة لي رفيق طريق جيداً.

. . . تقدمنا في وادي الحجارة السوداء بين جبل غروز الذي كان مايزال متقزحاً كلياً وتلال الكارة المنخفضة والمحروقة.

إلى اليمين مررنا ببستان نخيل ميلياس الصغير والجميل الغافي بسواقيه وأحواضه الصافية عند مدخل مضيق عميق في الغروز.

قدمت في السنة الماضية الجيوش المطاردة لترتوي هناك، في تلك البساتين المقفرة الهادئة جداً والباسمة جداً اليوم.

---

(١) من قبيلة طرفاية. ملاحظة إيزابيل إبرهارت.

وبقدر ما كنا نبتعد عن عقم بني ونيف القاحلة كانت الحلفاء تظهر على الأرض الرملية. وكانت هناك وديان تحفر، مملوءة بالجنيات الأكثر كثافة، وبعض أشجار المصطكا الكبيرة، تلك الأشجار المناسبة للمناطق المعزولة الحارقة والتي تحرك ظلالها الدائرية على التربة الحمراء على امتداد الساعات الفارغة.

. . . قدمت سحابة من الغبار من الغرب بعكس اتجاه الريح.

كانت فرقة من اللواء تضمّ رجالاً شقراً عائدين من الجنوب، مرددين أغاني عاطفية ألمانية أو إيطالية، وقد اسمرت وجوههم وغطاهم الغبار.

وعلى عربات القطار المحملة بالبضائع كان المرضى ينامون.

ولما كانوا في مكان مرتفع فقد أخذوا ينظرون إلى رتابة المشهد باللامبالاة الكئيبة لأشخاص مصابين بالحمى، وهم يعدّون في صمت الساعات المقدّرة لوصولهم إلى بني ونيف التي سينقلون منها غداً بقطارات السكة الحديد إلى مستشفى عين صفرا.

. . . مرت ساعة، والتحقنا مرة أخرى بموكب صغير من العربات يرافقها الجنود.

تخلص الرجال من حقائبهم ومن بنادقهم التي حملوها على عربات نقل مغطاة. كانوا يمشون ببطء شديد على وقع خطوات البغال الصغيرة مثل أناس يتنزهون.

مروا، وبقينا في صمت الطريق.

وبين الفينة والأخرى كان الجيلالي يبدأ أغنية حزينة لا ينهيها.

وهبّ بعض النسيم، وكنا ندير ظهرينا للشمس، ولم تكن الحرارة مضنية. كنا بخير من دون الرغبة في الكلام.

هكذا تمضي على طرقات الجنوب المقفرة ساعات طويلة من دون حزن ولا ملل، غامضة ومريحة بحيث يمكن للمرء أن يعيش من الصمت. . . لم آسف أبداً على أي من تلك الساعات الضائعة.

توقّف في الصحراء

من أجل الذهاب إلى بشار في السنة الماضية اتجهنا شرقاً ومررنا خلف الجبال عبر مركز بويعلى الصغير، الذي هجر منذ ذلك الوقت بسبب نقل خط الحفاظ على

الحدود باتجاه الغرب أكثر. أما الآن فبوعياش هي المحطة الأولى بعد بني ونيف على بعد خمسة وثلاثين كيلومتراً.

. . . الساعة العاشرة، والوادي محترق. ويرتعش بخار أحمر في الأفق الذي يتغير شكله. أضحت الحرارة حارقة، وسال خيط دماء دقيق من أنفي فرسينا الجافين. واجتاحني فتور شديد فاستسلمت على متن سرجي العربي المريح الذي كان يشبه مقعداً بذراعين.

لم تعد تفصلنا عن بن زيرق إلا ثمانية وعشرون كيلومتراً، وسيكون لدينا كل الوقت لنمضي الليلة فيها. لكن ما الذي يدفعنا للعجلة؟

علينا الوصول إلى مدخل «قرية» بوعياش لنتمكن من رؤيتها مادامت بلون يشبه لون الرمال.

وكان هناك حوالي عشرة أكواخ من الخشب الرقيق، ومعقل من التراب المائل إلى الصفرة، ونحو مئة من الاستراحات مختلفة الأشكال من العليق حيث يقطن العمال المغاربة المنشغلون في خط السكة الحديد الذي كان في طور الإنشاء. ويختلط كل ذلك على بعد مئة متر بالحلفاء والغبار، وتبدو تلك المنطقة من الوادي مقفرة مثل الأماكن الأخرى.

يتوقف خط السكة الحديد الحكومي في تلك اللحظة على بعد بضعة كيلومترات خلف بوعياش، وتمنح الأشغال جواً من الحيوية التجارية لذلك المركز المعزول.

ويأخذ البلد مظاهر أكثر صحراوية وأقل حزناً في الوقت عينه من بني ونيف حيث الرمال الصفراء تحت معطف الحلفاء الأخضر الذهبي الذي لا يتسبب بالشعور القاسي في بعض الأحيان حد الكرب من حمادة ونيف السوداء.

على مائدة خشبية في أحد أكواخ «القرية» كان بعض الإسبان يحتسون شراب اليانسون.

كانت وجوهم حليقة ومدبوغة على عجل، يعتمرون قبعات كبيرة من اللبد الأسود، ويرتدون سترات صغيرة وأحذية رياضية. كانوا يمثلون عرقاً من نوع خاص

ذلك أنهم كانوا أفظاظاً وأشداء، وكانوا يعبرون كل المناطق المنعزلة ويعرّضون أنفسهم لكل أنواع الحرمان تحت أكثر الشموس قسوة.

ومن خلال شباك في سور البيت الحقير كان أمين المخازن الأوروبية لبني ونيف يوزع المؤن على العمال. ولحظت أنهم قد تخلوا عن كل ألبستهم الجميلة ذات الألوان الترابية من أجل الثياب الأوروبية الخاصة بالعمال والمتنافرة مع عمائمهم البيضاء الواسعة.

كلهم من مغاربة الشمال تقريباً، بوجوه ملتحية ومتحمسة بينها كثير من الوجوه ذات القسمات الواضحة والوسيمة جداً والعيون الواسعة الفظة.

ومعهم بعض البربر الشقر ذوي العيون الزرقاء، من ذلك الجنس الخاص الذي يصادف في القبايل، والذي يعود من دون شك إلى وارد دم جرماني قديم.

من بين أولئك العمال كان الفيكيكيون والرجال القادمون من تافيلالت هم الذين حافظوا وحدهم على الثياب الرثة العربية. وهم لا يأتون إلى هناك إلا بصفة مؤقتة ليحصلوا على بعض القطع النقدية ثم يعودون إلى قصورهم.

كانت بوعياش بالنسبة لنا منطقة راحة.

ولما كنا نطهو البطاطس في حفرة رملية، بعيداً بعض الشيء عن بيت المركز الحقير وعن المقهى المغربي، في الظل الدائري لأشجار المصطكا الجميلة والكبيرة مثل أشجار البلوط، كان رجال بسترات وطاقيات صوفية رمادية يدورون حولنا، تحت أنظار أفراد اللواء. رأيت فيهم «مطرودين» من الجيش، من الدرجة الأخيرة، ومن أصحاب الأحكام العسكرية، الذين يستخدمون في الأشغال العمومية في المراكز المعزولة. وكان بعضهم عراة حتى الحزام. وكانوا يمثلون نوعاً آخر من الهمجية على تلك الأرض الهمجية، وقد عرضوا أوشاماً باريسية غير عادية ورسموا شعارات متشائمة وثائرة وفاحشة.

وبدافع الملل أتى المطرودون ورجال اللواء ليتحدثوا إلينا. كان ذلك مسلياً بالنسبة لي في البداية، وقاومت حتى لا أضحك وأنا أسمع اثنين منهما يتحدثان:

ـ وسيم هذا الفارس الجزائري الصغير، وله بشرة ناعمة!

والتحق بنا بعض المخازنية من بني ونيف وتعرفت من بينهم على وجوه صديقة من السنة الماضية.

أعددنا معهم القهوة في صفيحة معدنية، وتحدثنا مثلما يتحدث أهل الجنوب، بردود قصيرة، ودعابات ساذجة من دون أية كلمة بذيئة.

وقدِم سخّار من دوي مينيا معسكرون في الأعلى في عز الشمس ليجلسوا قربنا. وشاكسهم المخازنية محولين طريقة كلامهم الغريبة إلى شيء مثير للسخرية. ورد البدو الرحل بأفضل ما استطاعوا، من دون غضب واضح. ولكن في العمق كان يكمن الإحساس بالكراهية القديمة التي تقسم أهل الهضاب العليا الجزائريين والمغاربة.

وانتهى الأمر بالسخار إلى الذهاب، وشرع المخازنية في تحضير الملة، الخبز الذي يعد على الطرق الصحراوية.

عجن أحدهم السميد بماء من قربة جلد التيس على كيس المطرية، وحفر الجيلالي حفرة في الرمال بيديه، بينما أحضر آخرون الخشب.

وأشعلت النار داخل الحفرة، وعلى الجمر مدت طلمية رمادية غطيت بالأوراق أو بالرمال الدقيقة فقط، وجعلت نار أخرى فوقها. وبعد مرور نصف ساعة كانت الملة قد أعدت. صحيح أنها كانت ثقيلة بعض الشيء غير أنها كانت حارة. وكان ذلك أفضل من العلب الحافظة من دون شك.

وأعلن الجيلالي:

ـ تمثل الملة بالنسبة للإنسان مثل ما تمثله الحلفاء للخيول. هي لا تسمن غير أنها تمنح القوة.

[(١)] مساءً، جاء ضباط الصف التابعين للواء الأجنبي الأول، والذين رأوني السنة الماضية في جولة بحجارة مغويل فتعرفوا علي واحتفوا بي.

حملت منهم ذكرى زادها جمالاً أنهم كانوا يعلمون حقيقتي، غير أنهم احترموا بصرامة تنكري.

تأخر بنا الوقت في تبادل الحديث من دون معنى، فقط من أجل متعة الحديث عن البلد الصحراوي، عن لبلاد، وتحركات الجيوش، وأشغال البناء، وعن مستقبل تلك المنطقة من الأرض المعزولة. في ذلك المساء، وبعد «الأكل» أحسست بالروح

---

(١) نشير بالخط المائل إلى النصوص التي أعاد فيكتور باريكون كتابة أجزاء كبيرة منها.

الرفاقية كجندي من جنود الجنوب. ومن دون أن أجبر على ذلك اهتممت بحكايات أولئك الناس الطيبين تماماً مثلما ينشرح المرء للقصص التي سمعها أثناء سهرة في ضيغة وجدها بعد مسير طويل في البادية...

ولي في ذكرياتي أشياء مثل ذلك لعائلات وبيوت ونيران معسكر صغير. وفي لحظات الانعزال والحلم أعاود إيجاد كل ذلك في دخان سيجارة، وهي أكثر طرباً من ذكرى الحماسة الكبرى التي تخلف وراءها فراغات، ومن الآمال الكبرى المؤسسة على قيمة الناس، والتي تنتهي دائماً تقريباً إلى خيبات وإخفاقات.

وصلت إلى خلاصة أنه لا ينبغي أبداً البحث عن السعادة، فهي تمر على الطريق، ولكن دوماً في الاتجاه المعاكس... وغالباً ما كنت أتعرف عليها.

وفي تلك اللحظة يغفو الليل في زرقة شديدة على سكون الوادي.

وفي المعقل نثر البوّاق ببطء نغمات حزينة لإطفاء الأنوار.

في تلك المراكز المعزولة الصغيرة، ووسط المناطق النائية الصامتة، لأصوات البوق مساءً تأثير بالغ، وبعدها يشعر المرء الصحراء حوله...

وتخرس آخر الأصوات، وتُطفأ الأنوار الأخيرة. نمت في سعادة غير محدودة. سأذهب غداً في اتجاه مناظر أخرى، من يدري إن كنت سأعود أبداً لأنام هناك، عند سفح ذلك المعقل، وسط ذلك المنظر الذي أفرحني؟...

بن زيرق

تركنا بوعياش، في العذوبة اللذيذة لما قبل الفجر. وكان القمر المنحدر يطفو في السماء المائلة إلى الخضرة بضوئه الحزين الخافت الذي ينزلق على حجارة الطريق السوداء. وانتهى الجيلالي المطرق بأن قال لي إن من الأفضل انتظار طلوع النهار لعبور مضايق بن زيرق، ممر الجوالين القديم.

ترجلنا في السرير الواسع وقليل العمق لوادي جاف، وأطلقنا فرسينا في الحلفاء، وتمددنا على الرمال الناعمة من أجل إغفاءة خفيفة وقيلولة.

وعندما استيقظنا كان النهار قد طلع.

كنا قد نمنا في منطقة ساحرة حيث ترتفع شجيرات برية مزهرة بعناقيد رهيفة بنفسجية وفوق تموج الحلفاء الشديدة الخضرة حيث تشكل الخزامى والأفسنتين بقعاً

فضية. وفي ظل المصطكا الكبيرة تنثر أزهار النجمة نجومها الصغيرة الخبازية. كان ترفاً بسيطاً للأزهار وللحياة النباتية في قلب الحمادة.

ترتفع الأرض وتصبح وعِرة. دخلنا الشعاب المفتتة المتعرجة حيث الطريق تشرف على وادٍ عميق محصور بين صخور حمراء عالية. وسرعان ما ارتفعت الشمس في الأفق، وهكذا دخلنا واد بن زيرق في غمرة الضوء.

يا للمنظر الذي لا ينسى عند الخروج من الشعاب! كان أمامنا أشد مناظر الجنوب القاحل حزناً وأكثرها غماً.

فبين الحد الشديد الانحدار لجبل بشار وسور عنتر الشاهق هناك تلال حادة مثل أسنان منشار، وسلاسل قمم الجبال التي تحيط مرة أخرى الوادي المائل إلى منحدر لطيف باتجاه الواد. وكان كل ما هنالك، التلال والتربة الناعمة المزرقة، والحجارة، أسود سواداً زيتونياً باهتاً. وعند سفح المنحدرات التي يهيمن عليها جبل بشار كان المعقل الأبيض، بياضاً كابياً، يزيد من هذا المشهد الطبيعي المكرب.

«القرية» عبارة عن بعض البيوت الحقيرة بالكاد بنيت، والتي تضم المطاعم والمقاهي المغربية.

وعلى ضفة الواد المقابلة بعض الصلبان الخشبية للمقبرة المسيحية.

ليس هناك من ظل ولا نبتة غير شجرتين أو ثلاث من أشجار النخيل في الواد.

بلد منفى شنيع، وبلد اللؤماء، كما يقول عن حق رجال الفيالق.

لاشيء ينمو في ذلك الوادي الصغير اللعين. لا أحد يقبل أن يعيش هناك قبالة تلك التلال السخامية، وعلى ذلك المدرج المحروق من دون أفق، إلا إذا كان مجبراً على ذلك.

انتابني إحساس غريب: تشبه بن زيرق تلك البلاد المشؤومة التي تُرى في الكوابيس. كل شيء فيها كامد، وأسود ومضاء بنهار شاحب يبدو مزيفاً. وتغدو الحرارة خانقة. وأعداد لا تحصى من الذباب تلتصق بأعيننا.

نزلنا الواد محاولين القيلولة تحت الظل المتحرك لأشجار النخل. من المستحيل النوم على الأرض ذات الحجارة الحارقة في المنحدر القاحل ومع الرياح الشرقية الحارة والذباب. إلى ذلك كان علينا أن نقوم كل ربع ساعة لنغير أماكننا. فقد كان الظل يتقدم بلارحمة... هناك رحنا بإرهاق وخبل ننتظر المساء الذي يعني الخلاص.

وخلال اللحظات القصيرة التي تسبق الليل يبدو ذلك المكان المعتم في بن زيرق وكأنه من ماء بجمال متألق أخّاذ.

ثم ينتهي كل شيء فوراً، ويحل الليل بغتة. ليل ضبابي كثير الغموض.

تمددنا أمام المقهى المغربي على حصير من قصب. ورحلت قبل طلوع النهار لأحتفظ من بن زيرق بآخر منظر للمساء.

الماء الكاذب

كانت رحلة هذا اليوم طويلة. قضينا ساعات طويلة في المسير البطيء على وقع خطوات فرسينا المنتظمة والوئيدة.

ومنذ أن خرجنا من مدرج بن زيرق امتد الوادي الذي لم يتغير أبداً. وفي مناطق متفرقة كنا نمر بواد قليل الخضرة، وأشجار مصطكا جميلة، ثم يطالعنا مجدداً الغبار والحجارة اللامنتهية.

في حاسي النوس، عند منتصف الطريق، تناولنا غداءنا. ثم ذهبنا لاحتساء القهوة عند مخازنية مركز بلهواري، حيث بدو «رزاين» الرحّل من دائرة سعيدة يعسكرون في أكواخ خفيفة.

وكان من اليسير أن ينظر إلى أولئك الناس الطيبين كجيوش وهم الذين استعادوا في الصحراء برانسهم الترابية البدوية.

وبعد بلهواري حاذينا في أفق متأجج ومنفرج جداً سلسلة مزدوجة من التلال ذات مظهر مُسَلٍّ ومتفرد. وكما يتطلب أمر السفر، ومن باب العلم بالشيء، سألت رفيقي عن اسم تلك الهندسة الجيولوجية.

فقال:

ـ انظر جيداً وسترى لمَ يقول الناس هنا بزاز الكلبة[1]، (أثداء الكلبة).

وعند مرورنا أشار مرة أخرى إلى خط أسود في الوادي المفتوح مثل سهل، وكان ذلك بستان وغدة.

(١) هكذا ذكر في الأصل مع الترجمة باللغة الفرنسية من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

وتحت الشمس المتوهجة أخذ شكل الأفق يتغير، وبدا من المستحيل تقدير المساحات، ذلك أن نوعاً من التيه الكثيف انتصب أمام أعيننا، ودوماً على اليمين وعلى اليسار كانت بزاز الكلبة العجيبة.

وكان أدنى تغيّر في الأرض يؤثر على الضوء، وكان ذلك يؤلم عينيَ وأحياناً يريحهما.

بعد منطقة الحجارة بدأت منطقة من الرمل الخالص. ولأول مرة في الجنوب الوهراني عاودني الإحساس العميق الذي شعرت به في الماضي عند مداخل مناطق صحراوية أخرى.

تعرفت إلى تلك الأرض التي غشيت في مداعبة الشمس الأبدية، من دون أية هزة بركانية، ومن دون جهد الجبال الكبير في كل روعتها وسحرها الكثيب وفتنتها.

وفجأة اضطرب الأفق، وتغيرت أشكال المناطق البعيدة، واختفت الرمال الحمراء، وتمددت طبقة مائية زرقاء كبيرة في البعيد، وانعكست فيها أشجار نخيل.

وتلألأت المياه تحت الشمس بصفاء غير محدود... وأخذ الجيلالي يضحك كطفل كبير كما كان، وقال:

ـ أنظر يا السي محمود كيف يسخر السراب[1] منا ونحن ظمآنان! ولو لم تكن لنا إلا هذه المياه الكاذبة لإروائنا لكان علينا أن نُخرج لساننا أو أن نرضع من أثداء الكلبة!

... وعند أقصى البحيرة الوهمية كانت تتقدم مجموعة من الفرسان، وفوق الصفوف المتلاحمة يرفرف علم أحمر اللون يخفق في الريح... ومرت السرية ثم تلاشت. كانت قافلة من الحمير تقصد وغدة، وكان ذلك أيضاً دعامة عالية لبئر صحراوية حيث علق السراب مزقاً ذات لون أحمر أرجواني.

أحيا الوصول إلى بشار في نفسي الذكريات البعيدة لواد رير والسبخات المالحة في الجنوب القسطنطيني، البلد الآخر للحمى والسراب.

جانبنا من مكان بعيد بستان نخيل وغدة وسط القبور الصغيرة المتناثرة على طول الطريق. وكان قبالتنا كثيب أحمر في أسفله بقعة بيضاء هي معقل «كولومب».

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع الترجمة باللغة الفرنسية من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

بشار وتاعكدة وكولومب، أسماء مختلفة لكنها مختلطة. والواقع أن بشار هو اسم المنطقة، وهو اسم الجبل الذي يحجب الأفق.

وتاعكدة، هي القصر وبستان النخل الواقع على مستوى أعلى من وغدة.

والإسم الغريب المستورد، كولومب، يشير إلى البلدة التي كانت في طور البناء.

عطر الواحات

. . . اختفت البحيرة الغامضة. ولم يبق في البعيد سوى برك صغيرة، وقطع من الأفق اللازوردي المتناثرة في الرمال خبازية اللون. غير أن ظل بستان النخل الصغير أغرى مطيتينا. وأخيراً مررنا تحت أقواس النخيل ومد فرسانا أنفيهما الداميين باتجاه الماء الحقيقي، وغاصت قوائمهما حتى وسطها ونحن نتقدّم في الواد الواسع جداً وسط الجذوع.

أي ارتياح، وأية سعادة جسدية مثّلها ذلك الوصول إلى الظل، حيث كان النسيم منعشاً بعض الشيء، وحيث تستريح أعيننا المتألمة على اللون الأخضر العميق للنخل الجميل، وعلى أشجار الرمان ذات الأزهار القانية وعلى أكاليل الدفلى.

وبعد المياه الخادعة، كان طعم الحقيقة.

استلقينا أرضاً حتى لا ندخل بشار إلا عند المساء بعد القيلولة.

نام الجيلالي، أما أنا فبقيت أتأمل ذلك المنظر الجديد الذي يشبه مناظر أخرى أحببتها وأيقظت في داخلي سحر الواحات الغامض، وألفيت به أيضاً رائحة الملح الصخري الخفيفة الخاصة جداً ببساتين النخل الرطبة. وكانت رائحة الثمار المقطوعة تتبل كل الروائح الأخرى للحياة في الظل.

وفي الاطمئنان العميق في تلك الفرجة العميقة، كانت أعداد لا تحصى من العظاءات والحرباءات المبدّلة ألوانها تستمتع في بقع الشمس ممددة على الحجارة.

لا تغريد عصفور، ولا صرخة حشرة. يا للصمت الجميل! كل شيء يغفو في نوم عميق، وتتناثر الأشعة منزلقة بين الجذوع العالية لأشجار النخيل مثل خصلات حلم. . .

بشار

في بشار، عند سفح الكثيب، يميل الوادي بشكل غير محسوس باتجاه حزام الواد الأخضر.

وعلى الضفة، خلف المقابر الكبيرة حيث تخفي الريح وخطوات الجمال القبور شيئاً فشيئاً، كان قصر تاعكدة المحصن بأبراج مربّعة، والمحاط بأسوار رمادية مرتفعة من دون فتحات يتم الدخول إليها عبر أبواب مقببة منخفضة. كانت لتاعكدة ملامح مدينة فظة.

. . . وفي الداخل، على الأرض الناعمة والصامتة، عبرنا شوارع صغيرة مخربة وممرات طويلة مكشوفة وشديدة العتمة حد أن المرء يمشي داخلها في واضحة النهار خبط عشواء. أين هي اصطفافات فيكيك الجميلة ومنحنياتها الممتلئة؟ لم يكن هناك إلا الركام. ذلك أن المنازل العالية المشيدة بالطوب، وبعضها من طابقين، كانت تتزاحم بعضها في بعض وصولاً إلى الشوارع.

وفي بشار، كما في كل القصور، كان كل شيء ينام، وكل شيء يتداعى، ويخبو النشاط الصحراوي المجهد ببطء، وتنضب مصادر النشاط، ويثقل خدر احتضار ثقيل على المحاولات الموؤودة لبعث حياة حضرية مُجدّة وسط الصحارى الموقوفة للبدو الرحل.

وأهل بشار حرطانيون سود في غالبيتهم، ولكنهم بلسان عربي، وهم هادئون وحذرون. ويتصفون ببعض العجرفة المغربية، ونفور من أهل الشرق المزانات. ومع ذلك فهم قصوريون، وبستانيون وادعون وليسوا رجال بارود.

في السنة الماضية، عندما كانت بشار محتلة، أغار المخازنية والجنود على تاعكدة ووغدة. وهذه السنة بعد أن اطمأن القريون بعض الشيء استعادوا شجاعتهم وعادوا إلى بساتينهم. ولم يكن مركز كولومب إلا سديماً من المباني غير المنتهية، ومواد البناء وخثارة الجص، والمزيد من «الملاجئ» البشعة المشيّدة بالطوب والمبيضة بالتراب المصفر في كل مراكز الجنوب الوهراني، ومعاقل مشيّدة على استعجال من أجل إقامة المطاعم ومتاجر الأشياء القديمة والمقاهي المغربية.

وهناك، كما في كل مكان آخر في البلد الجديد، يهيمن العنصران الإسباني واليهودي.

أقام يهود قنادسة الذين يضعون خرقاً خضراء وسوداء خيمهم الرثة، وسارعوا إلى إشعال مواقد مسابكهم لتحويل «دورروهات[1]» الضباط وسلاح الفرسان الجزائريين إلى حلي.

ولقد ألفيتُ في بساتين بشار مشاعر أحسستها في سرير وادي بوسعادة الذي لا ينسى، جوهرة الجنوب.

هناك كانت نساء مقرفصات على صخور صغيرة مرتديات الملاحف الزرقاء والسوداء، يغسلن ثياباً أخذن يضربنها بسيقان الجريد... أجل، إنها الذكريات الفاتنة لوادي بوسعادة في الأيام المشرقة لفصل الصيف، مع لمسة أبعد، وأكثر عتمة، هي اللمسة المغربية يثيرها منظر بساتين نخيل بشار الصغيرة الناعمة.

وفي البساتين، تحت أشجار الرمان الكثيفة، وفي الظل المنحرف لأشجار التين، أماكن عذبة، تعطيها القبة الخضراء المزرقة لأشجار النخل شيئاً من غموض الغابات الحقيقية. وتهمس سواقي الري في العشب المنبسط. وفي كل مكان يعلو الصوت الحزين الخفيف لضفادع الجنوب، لحناً متفرداً، يتكرر إلى ما لا نهاية حتى الكثبان القاحلة على طريق قنادسة، وفي السواقي الأخيرة شبه الرملية.

جنود اللواء والمخازنية

في مكان مرتفع يقوم معقل بشار بأسواره الخفيفة من الآجرّ وأبوابه الواسعة المحروسة على الدوام. وفي الداخل مواد البناء وركام من الحجارة، وكل سديم مدينة في طور البناء.

وإلى اليسار باحة كبيرة ربطت فيها أحصنة المخزن الفرنسي الهزيلة والصغيرة التي كانت تمضغ بكسل باقات الحلفاء الهزيلة. وداخل الأكواخ استلقى المخازنية واضعين رؤوسهم على قرابيس سروجهم وبنادقهم في متناول أياديهم، وكناناتهم مشدودة إلى غناديرهم الترابية... كانوا يضحكون ويمزحون ويغنون منتظرين بنفاد صبر الأمر

(١) عملة قديمة. المترجم.

بالرحيل - ومن يدري؟ - لربما لن يعودوا أبداً.

لايهم! ما كتب سيحدث مهما فعل المرء، حتى أنهم لا يفكرون في ذلك، ولا يشغلهم إلا تأليف أغان حزينة، في لايقينية حيواتهم في تلك المراكز النائية، أو عند كل لحظة يتربص فيها الموت بهم.

ويعرف العربي الشرف الذكوري، ويريد أن يموت كرجل شجاع في مواجهة العدو، غير أنه يجهل مطلقاً الرغبة في مجد ما بعد الوفاة، وعلى الخصوص، أولئك الرجال البسطاء، البدو الرحل الخشنون، الذين يقدمون طواعية شجاعتهم وإقدامهم الجميل وتحمّلهم الذي لا يعرف التعب لمصلحة فرنسا.

. . . وإلى جوار المخازنية لامبالون آخرون، وأولاد تائهون آخرون، غير أنهم أكثر تعقيداً منهم، وكان أولئك الرجال، رجال اللواء، يشيّدون مباني المكتب العربي. وفي كل مكان، وفي كل مراكز الجنوب الوهراني، هم من يقيم الجدران الأولى، وهم لفرط حيويتهم وصبرهم من يزرع البذور الأولى في البساتين الصغيرة التي تظهر كما لو بفعل السحر في المناطق الأكثر جفافاً. وكانوا يشيدون في الأيام المضطربة حيث يكون عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد قطاع الطرق، وبعد ليال أمضوها مطرقين في قلق المفاجآت المحتملة.

وليس هناك من جدار ولا مخابئ مشيدة بالطوب في بشار، أو في أي مكان آخر في البلد، لم تكن من صنع رجال اللواء، وهو عمل مجهول ولعلّه أصعب وأجدر بالتقدير من مآثر الشجاعة التي تصنع كل يوم في داخلية البلاد من دون أن تترك صدى.

تاملات في باحة[1]

لم أشعر بضيق وسط أولئك الناس الطيبين. دخلت عندهم، وجلست في زاوية من زوايا الباحة، حتى إنهم لم يلاحظوني. ليس هناك ما يستدعي ملاحظتي. وكان بإمكاني أن أمر في أي مكان من دون أن أرى. وضعية ممتازة للرؤية الجيدة، وإذا لم تكن النساء ملاحظات جيدات فلأن ثيابهن تجلب الأنظار إليهن. وجدن دائماً لينظر

(١) النصوص المكتوبة بخط مائل أعيدت كتابة جزء منها من قبل فيكتور باريكون. الأصل.

إليهن، ولم يعد ذلك يؤلمهن. بدا لي ذلك الشعور، مع مرور الوقت، إغراء مبالغاً فيه للرجال.

غالباً ما كنت أُلام لأنني أجد متعة مع عامة الشعب. لكن أين تكمن الحياة إن لم تكن وسط الشعب؟ وفي أي مكان آخر بعيد عن الشعب يبدو لي العالم ضيقاً. ولدي إحساس في بعض الأوساط بجو مصطنع أتنفس فيه بصعوبة. لم أعرف أبداً ما الذي سيكون «لائقاً». والحقيقة أنني لا أتألم كثيراً من الفقر والسذاجة وحتى من الفظاظة. لا أتألم بشكل عميق. ما يبدو لي غير محتمل مع الوقت هو الخزي الدائم والوضيع لبعض الناس، ثم نقص الشجاعة الذي يميزهم، والحذر وتصنّع العيش على نحو حكيم ومحسوب جيداً. والواقع أني رأيت دوماً بأن المرء يصل بهذه الطريقة إلى اقتراف أخطاء في حساباته. واندهشت كثيراً وأنا أرى أن قبعة على نمط حديث، وأن صداراً لائقاً، وأن زوجي حذاء نصفي بشريط مشدود جيداً، وأن منقولات صغيرة من أثاث صغير ومزعج، وبعض الأواني الفضية وبعض الأواني الخزفية، تكفي لكي تهدئ لدى كثير من الناس ظمأ السعادة. أحسست وأنا بعد صغيرة بأن الأرض توجد، وأردت أن أعرف مناطقها النائية. وليس من طبيعتي أن أدور في لعبة بكمامة حريرية، ولم أنشئ تصوراً مثالياً، فقد ذهبت من أجل الاكتشاف. وأدرك جيداً أن طريقة الحياة هذه خطيرة، غير أن لحظة الخطر هي لحظة الأمل أيضاً. إضافة إلى ذلك فقد اقتنعت بهذه الفكرة القائلة بأن المرء لا يمكنه أن يهوي أكثر من نفسه. وعندما يتألم قلبي يبدأ في العيش. وفي عدة مرات، وعلى طرقات حياتي التائهة، تساءلت إلى أين أمضي، وخلصت إلى الإدراك بأنني حين أكون وسط الشعب، وعند البدو الرحل، أعود إلى منابع الحياة، وبأنني أنهي رحلة في أعماق البشرية. وعلى عكس العديد من علماء النفس البارعين لم أكتشف أي إحساس جديد، ولكني استجمعت أحاسيس قوية عبر كل حقارات مخاطراتي، ورسمت على شكل واسع الانعطافة المقصودة لحياتي.

ستفسر هذه الكلمات، التي قد لا تكون لها تتمة لكني أحسها بصدق، على نحو: لماذا يمكنني أن أهتم كثيراً بأشياء حقيرة؟

تنظر عيناي الآن إلى هذه الباحة الصغيرة في معقل بشار، وتصوران المظاهر، وتستحوذان عليها في بساطتها.

من أجل قتل الوقت

في خيمة صغيرة من خِيَم البدو الرحّل مصنوعة من الخرق ويجتاحها الذباب أقام قصراوي أبيض من قنادسة مقهى مغربياً. وهناك تودع سروج المخازنية وبنادقهم، وملابس الجنود العتيقة.

يأتي المخازنية والسباهية [الفرسان الجزائريون] إلى ذلك الملجأ المؤقت من أجل شرب الشاي ولعب أدوار لا تنتهي من «الروندة» الإسبانية أو الدومينو بذلك الشغف الذي يُقبل به كل العرب على اللعب.

وعندما يلعبون يمكن لرياح الشلوق الحارّة أن تهز الخيمة، ويمكن للرمال أن تسفع الوجوه، ويمكن للذباب أن يعمي العيون. لا شيء، باستثناء نداء الخدمة، يمكنه أن ينزع أنظار اللاعبين عن أوراقهم المداعبة أو عن المستطيل الصغير المصنوع من الأبنوس والعظام. صراخ وضحكات، وفي الغالب شجارات مرعبة كانت لتنتهي بالدم لولا الخشية من قوادهم، وكلها أشياء ترافق ألعابهم حيث تذهب أغلب مرتباتهم. وفي باحة المكتب العربي ببشار، مثل بني ونيف، ومثل كل مكان آخر في المساء، وبعد الصلاة، توقظ أغان حرة طويلة أصداء السهل الميت. . .

تتحرر الروح المتأملة وغير المبالية والحساسة للبدو الرحل في تلك الأغاني البرية الجميلة المؤثرة التي تخاطب القلب والحواس والتي تخترق روحي بحزن عذب لا ينتهي، ويريحني.

قنادسة

وضع قدّور أوبركة قائد إخوان زيانية بشار في تصرّفي دليلاً هو عبد أسود حرطاني يدعى امبارك. تركنا دوار المخزن عند ساعة الفجر الوردية والخضراء. وكان الجو صافياً من دون مؤشرات على وجود رياح الشرقي. غير أن ضباباً خفيفاً كان يغطي بساتين النخل الصغيرة في عمق الواد.

كان الوادي الذي كنا نتقدم فيه مثل كل وديان الجنوب الوهراني. وكنت على صهوة حصان وامبارك راجلاً. وكان الوادي يمتد بين سلسلتين من التلال. وإلى

اليسار، على مستوى مرتفع من تلك التموجات المنخفضة، كان جبل بشار الشامخ ينتصب أمامنا.

ومنذ بزاز الكلبة لم ينقطع منظر الرمال الصفراء والتموجات اللينة، ويتكرّر المنظر عينه، والتناغم الرتيب نفسه للخطوط الكبرى من دون زوايا، ومن دون تنافر وحتى من دون وعورة.

وبقدر ما كنا نبتعد باتجاه الغرب كانت التلال تنخفض.

حاذينا إلى اليمين الكثيب الغريب المتوج بحجارة مائلة والذي يتحكم ببشار، واستمر الأمر طويلاً كذلك، بينما ارتفعت الشمس حارقة من فورها خلفنا، ومددت ظلالنا على التراب الذي جعلته شاحباً.

وأخيراً وصلنا إلى قمة منحدر صخري، ينتشر فيه الصوّان وقطع من الألواح الصخرية مثل وادي بن زيرق الكثيب.

وفي الأفق الذي تضببه أبخرة وردية تبدو قنادسة حيث بقع الأشجار المبعثرة السوداء، وخط أزرق لبستان نخل كبير، ومنارة محطمة ترتفع فوق الرمال وتبدو تحت شمس ما تزال مائلة باصفرار باهت...

وبعيداً، تبعنا ممراً ضيقاً محاطاً لمسافة تزيد عن كيلومتر بصفٍ من النخل الباسق وحيداً في فراغ الوادي.

وتحت ظلها المتقلب ساقية جوفية، وفي أماكن متفرقة عيون صغيرة تتدفق صافية ومنعشة.

وأخذت قنادسة ترتفع أمامنا كقصر كبير شُيّد من الطوب بلون غامق ودافئ تسبقه من جهة اليسار بساتين شديدة الاخضرار جميلة. وينحدر القصر في عدم انتظام لطيف في سطوح بعضها فوق بعض بحسب الانحدار اللطيف لتل، وإلى اليمين ينتصب الكثيب الذهبي بأسطحه الحجرية التي تبدو شديدة الانحدار تقريباً.

وتحوي قبة ناصعة البياض ضريح الولية المسلمة لالّة عائشة، من عائلة سيدي محمد بن بوزيان المبجل، مؤسس قنادسة والطائفة الزيانية.

وحول القبة أعداد لا تحصى من القبور المتفرقة في الرمال، والتي تجتاحها شيئاً فشيئاً.

مررنا قرب تلك المقابر الغامضة، وحاذينا كل ذلك الرماد البشري الذي جمع

هناك منذ قرون في الهجر والنسيان، وسلكنا الطريق التي تلتف على حصن القصر وهو عبارة عن سور من التراب المعتم من دون فتحات ولا منافذ.

وفي ساحة صغيرة رأينا رجالاً نصف ممددين معظمهم من الحرطانيين.

ويدخل الناس إلى القصر من خلال باب مربع كبير بمصراعين ثقيلين، ثم يتعين بعدها عبور الملاح وهو حي اليهود الذين يقيمون في متاجر ضيقة بالشارع نفسه.

وهنا، بخلاف العادات الفيكيكية، فاليهوديات اللواتي يرتدين الزيّ نفسه، لسن منقطعات، ذلك أنهن يثرثرن ويطبخن ويغسلن وجوههن أمام أبواب بيوتهن.

وبعد منعرج آخر نلج شارعاً آخر أكثر ضيقاً وأكثر نظافة ينتهي بتدرج للضوء بعيد أسفل منازل تتجاوزه.

الدخول إلى الزاوية

كان يتعيّن الترجّل وتجاوز باب آخر، فنحن في الزاوية.

المرابطون الزيانيون موالون لفرنسا، وهم أناس هادئون وإنسانيون ويدافعون عن قوة العدالة، ويقدمون كل يوم أدلة جديدة على شعورهم بالتقدير والاحترام للعهد المقطوع.

وتقع قنادسة خارج الحدود وتعترف بسلطان فاس. كنا إذن في المجال الترابي المغربي على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً من بشار، الأرض الفرنسية.

أين هي الحدود إذن؟ أين تنتهي وهران، وأين يبدأ المغرب؟ لا أحد يهتم بمعرفة ذلك.

ولكن لـِمَ تصلح حدود مرسومة بعناية؟ فالوضع الحالي الهجين والغامض يوافق الطبع العربي، فهو لا يجرح أحداً ويسرّ الجميع...

استقبلنا ثلاثة أو أربعة عبيد سود. وكرر عليهم دليلي ما قاله له قدّور أو بركة بأني محمود ولد علي، متعلم تونسي يسافر من زاوية إلى زاوية أخرى من أجل العلم...

وهكذا أُجلست على كيس من الصوف المطوي أرضاً بينما يُعلم بوصولي الولي الحالي، سيدي إبراهيم ولد محمد الذي سأناوله رسالة تقديمية لأحد إخوانه من عين صفرا.

ووقف العبيد مصطفين أمام الجدار صامتين. اثنان منهم حرطانيان، وكانا شابين أمردين يرتديان جلبابين مغربيين رماديين ويعصبان رأسيهما الحليقين بقماش شفاف أبيض. أما الثالث، وكان أكثر سواداً وطولاً، فقد كان بلباس أبيض، وهو سوداني، بوجه يحمل شجات نصل حمراء. وكان الثلاثة مسلحين بكوميات، والكومية خنجر طويل بنصل قصير وبغمد نحاسي منقوش ومشدود بحبل جميل من خيوط حريرية ذات ألوان زاهية تبدو كحمّالة.

وأخيراً، بعد ربع ساعة طويل من الانتظار، حضر عبد أسود طويل القامة ذو سحنة بشعة وعينين صغيرتين غائرتين ومتقدتين. انحنى وقبّل باحترام عقد عمامتي.

أدخلني إلى باحة واسعة هادئة وخالية تنحدر أرضيتها انحداراً خفيفاً.

بدأت أتنفس جواً من السلام المقلق بعض الشيء. وكانت الأبواب التي تقفل على التوالي خلفي تزيد من المسافة التي عبرتها.

ثم عبرنا باباً صغيراً منخفضاً ودخلنا غرفة مربعة كبيرة تشبه صحن مسجد. وكانت الشمس الواهنة تتدفق فيها عبر فتحة مربعة في سقف شُكّل من روافد صغيرة وضعت بذوق.

وفرشت الزرابي. كنت في بيتي، لأني سأقيم هنا... والله وحده يعلم إلى كم من الوقت.

وبينما ذهب الزنوج ليحضروا لي القهوة والماء البارد اعتادت عيناي على الظليل، ورحت أفحص مسكني فحصاً أمنياً بعض الشيء.

كان هناك سلّم ضيّق وخشن من الحجارة السوداء يقود إلى السطح. وإلى اليسار فتحة عميقة مملوءة بموقد جمر من الحديد يستعمل في إعداد الشاي يخرج الدخان منه عبر فتحة في السقف. ووسط الغرفة حوض مربّع صغير. وعلى جانبه جرة طينية مليئة بالماء، وهو ما يلزم من أجل الوضوء. وكان بالإمكان استعمال الماء الساكن في الحوض كمرآة. وهناك أربع دعامات ارتفعت حتى السور داعمة السقف. وفي الطرف القصي من الغرفة باب خشبي رُسمت عليه أزهار بألوان خافتة.

لا شك في أن غرفة الضيوف تلك قديمة ذلك أن طوب الجدران وعارضات السقف أخذت لوناً أسود مائلاً إلى الخضرة واتسخت الأعمدة التي كانت بحجم الرجال بفعل احتكاك الأيادي والثياب...

حياة جديدة

وأخيراً، ولمّا بدأت أنام، دخل سيدي إبراهيم، وليّ قنادسة. كان يقف أمامي، فبدا بديناً بوجه عليه علامات الجدري وبلحية شيباء. وكانت حركاته بطيئة وهادئة، وابتسامته لطيفة ومرحبة. لا شيء خشن به. وكان يرتدي ملابس عادية جداً وناصعة البياض تحت حايك صوفي رقيق ويعتمر عمامة دائرية كبيرة لفت على شاشية تغطي رأسه، من دون حجاب يؤطر وجهه. وكان شكله يأخذ قليلاً من مغاربة المدن بلُكنته اللثغاء ومن قصراويي الجنوب.

وكان يرافقه السي محمد لعرج ابن أخ سيدي إبراهيم ورجل ثقته.

وكان أقصر قامة رقيق العظم، يرتدي ثياباً ناصعة البياض، لطيف الوجه بابتسامة شبه خجولة، لكن بعينين ذكيتين وعميقتين من دون قسوة.

وبكثير من الوقار رحّب بي سيدي إبراهيم ثم أخذ يسألني بنبرة رزينة.

استمر ذلك لوقت مع لحظات صمت وتبادل عبارات المجاملة. وسرعان ما انسحب الصوفيان مثل ظلين أبيضين.

كانت مقابلتنا قصيرة، وخلّفت لديّ انطباعاً بالأمان. فأنا ضيف ذينك الرجلين، وسأعيش في سكينة بيتهما. وكانا قد حملا لي كل هدوء روحيهما. وأحسست بظل سلام تغلغل في طيّات روحي. ستمرّ عليّ أيام طويلة ومن دون رغبة، وسيكون فضولي لطيفاً مثل قنديل في غرفةٍ متماثلٍ للشفاء. سأسبر أغوار أسرار ضميري الصاخب، وستخمد الحرائق الكبرى التي تشعلنا بالعلم وبالكراهية وبالحب تحت الرماد، وسأتمكن من تنسّم حياتي بنفس متوازن. ذاك إذن ما أتيت لأبحث عنه؟ سيسكن أخيراً كل ظمئي، ولكن إلى كم من الوقت؟

كانت فكرة للفناء المطلق قد ألانت قلبي. فالصحراء التي عبرتها كانت صحراء رغباتي. ويبدو لي أنه عندما ستستيقظ إرادتي سترغب في أشياء أخرى، ولن أتذكر أي شيء من آلام الماضي. أحلم بنوم يكون موتاً، سأخرج منه مسلحاً، قوياً بشخصية تجدّدت بالنسيان، وتقوّت في اللاوعي.

... صعد امبارك إلى السطح وألقى حصيراً على «عين المنزل».

وهكذا تلاشت في العتمة أسراب الذباب التي كانت تنقضّ علي، وكان الجو منعشاً بعض الشيء وأتتني من الأعلى هبة نسيم، مع صمت كبير أحسست بأنه أبدي.

عبيد

كان انطباعي اليومي الأول في قنادسة هو أنني محاطة دوماً بوجوه سوداء، وبأني أرى كل يوم وجوهاً جديدة منها، ولا أسمع إلا صوت العبيد الضعيف الفاتر. وكان انطباعاً غريباً وقوياً.

وباستثناء بعض العائلات البربرية القليلة كان كل سكان القصر من الحرطانيين السود. وفي الزاوية كان العنصر السوداني يضفي لمسة اغتراب بعيدة.

قدم آباء أولئك العبيد إلى قنادسة، وهم أبناء أسرى من سواه وموسي بعد طول معاناة وترحال معقّد.

قُبض عليهم في البداية من قبل رجال من عِرقهم، في خضمّ صراعات القرى الدائمة، والملوك السود الصغار، ثم بيعوا إلى تجار السوق السوداء المغاربة، وسلموا بعد ذلك إلى الطوارق والشعانبة. ولم يستطيعوا المحافظة على لغة بلدهم الأصلي، التي ما يزال يفهمها بعض الشيوخ الطاعنين في السن وحدهم. فالكل في قنادسة يتحدث اللغة العربية... وحتى اللهجة البربرية، الشلحة، المنتشرة كثيراً على الحدود مع المغرب مجهولة هناك.

وبقدر ما حافظ سودانيو الزاوية على دمهم نقياً فقد بقوا أشداء ووسيمين غالباً، وسامة عربية ما يتناقض على الأخص مع سواد بشرتهم الحالك. وعلى العكس من ذلك كان أولئك المنحدرون من الاختلاط مع الحرطانيين ضعفاء وبشعين عادة بوجوه بارزة التقاطيع، وبأطراف ضعيفة وعديمة التناسق.

والانطباع المقلق والمنفر الذي يحدثه الزنوج يعود تقريباً فقط لحركة وجوههم الغريبة وعيونهم المنتبذة وملامحهم المتشنجة من دون توقف بسبب تقلص وجوههم وتغضنها. للوهلة الأولى تولّد لديّ انطباع صبياني لا يقهر بعدم الإنسانية وعدم القرابة الحيوانية.

ومن بين كل العبيد كان با محمادو أوسالم حامل المفاتيح، ورجل الثقة بالنسبة لسيدي إبراهيم، هو الوحيد الذي كان يبدو لي ودوداً.

وهو سوادني طويل القامة، وهادئ، بوجه دُمِغ بسماتِ حديد محمر. وكان يرتدي ملابس بيضاء طاهرة تحت برنس أسود، ولم يكن في تعابير وجهه أو في حركاته أو قسماته المنتظمة شيء من الرجل ـ القرد، المتغضن والماكر ذلك المكر الحيواني الذي يستخدم كذكاء لدى السود.

وكان با محمادو يتميز عن بقية الزنوج، فقد ألفى في عمق نفسه أو في ثقافته كعبد سر الحركات الوقورة والسلوكات المحترمة، وهذا الشعور ليس شعور الخدمة الموهنة. فقد كان النبل في تحياته، بينما لا يعرف الزنوج عادة كيف يحييون.

وفي كل مرة يظهر با محمادو أمام مسلمين بيض يبدأ بالانحناء ثلاث مرات أمامهم، ولا يدنو إلا حافياً بعد أن يترك حذاءه عند الباب. ومع ذلك، فمعنى أنه يحترم لم يكن لينقص من شأنه.

ستكون دراسة طريفة إنْ كُتبت تلك التي تتناول العبيد الذين يعيشون هناك. ويلزم من أجل الإقدام عليها ألا تكون هناك أحكام مسبقة يميناً أو يساراً، وأن يكتب تاريخ طبيعي وتاريخ اجتماعي في آن. وينبغي، وأنا أشعر بهذا، أن يشفى المرء من الأحكام المسبقة للأعراق السامية، ومن خرافة الأعراق الدنيا.

يملك كل أولئك العبيد تقريباً منازل في القصر، وحدائق في بساتين النخل، وحتى قطعاناً صغيرة. وهم يبيعون الصوف واللحم والتمر لحسابهم الخاص، غير أنهم يظلون مرغمين على الخدمة لدى سادتهم.

وليتزوجوا عليهم أن يطلبوا إذناً من سيد الزاوية، غير أنهم السادة في بيوتهم .

وهكذا فهم يعيشون حياة مزدوجة لرجال أحرار تقريباً في الخارج، وعبيداً في الزاوية، حيث توزع مهامهم بطريقة غامضة.

عالم النساء الصغير

تشكل النساء هناك عالماً منفصلاً بتراتبيته.

بداية هناك لالة (السيدة).

ولوالدة سيدي إبراهيم كل مهام الإدارة الداخلية من نفقات ومداخيل وصدقات.

ولا أحد يراها أبداً غير أن سلطتها تُلمس في كل مكان. وهي شخصية يُخشى جانبها، معظمة من قبل الجميع. وتعيش هذه الملكة الأم العجوز المسلمة هناك مترهبة تقريباً، ولا تخرج إلا نادراً، وعندما تفعل تكون محجبة بشكل تام لتقصد قبري بن بوزيان وسيدي محمد، الذي كان زوجها.

ويدور حولها عالم صغير كامل من النساء الشاحبات، وهن زوجات الصوفيين. وبمستوى أدنى هناك شعب من الزنجيات أبكاراً ومتزوجات وأرامل ومطلقات.

ويسود وسط أولئك النساء السوداوات تساهل كبير مع العادات. فمن أجل بضع قطع نقدية أو خرقة، بل حتى من أجل المتعة، يمكنهن أن يمنحن أنفسهن لأي كان، عربياً كان أو أسود. ويمهدن في العلن لإقامة صداقات مع الضيوف ويمنحن أنفسهن بانعدام خجل لاشعوري، وغالباً بشكل طريف.

وما يزال العبيد الذكور يحتوون بعض الشيء حركات دمهم، غير أن الإناث الزنجيات يستسلمن للغريزة، وشجاراتهن تافهة تماماً مثل حبهن. وفي الباحة تندلع في بعض الأحيان شجارات صاخبة تسبق التشابك بالأيدي والقفز العاري تحت الشمس.

ذات صباح راحت زنجيتان تتسابان أمام بابي:

ـ يا قحبة يهود الملاح!

ـ أيتها المنشقة! أيتها اللصة! يا بذرة مصيبة! أيتها الجذر الفاسد!

ـ فليمتك الله، أيتها اليهودية، أيتها الطماعة !

وفي الحال أتى الصوت الصافِر لقدّور، القيِّم، ليضع حداً للفضيحة، بأسنانه التي تلمع عندما يشتم، وبالضغط على الكلمات كما لو أنها لحم يعضه.

تحوّل

. . . مضى علي أزيد من أسبوع هنا. تتدفق حياتي بهدوء مثل ساقية خاملة. وحتى اللحظة لم أخرج من الزاوية. وهنا لا يمكن التفكير بأي شيء من دون إذن سيدي إبراهيم. ويصطدم المرء هنا بصمت العبيد والأبواب المقفلة بلا رحمة.

لمَ لا يُراد لي أن أخرج؟ بدأ هذا السؤال يثقل صدري، ويصيبني بالقلق. فوحدتي الحبيبة لم تعد اختيارية، وغرفتي الملائمة جداً للرؤى الداخلية تشبه إلى حد كبير سجناً خفياً. . .

وأخيراً طلبت هذا الصباح رؤية الصوفي وأعربت له عن رغبتي.

ابتسم الصوفي الطيب، ثم قال:

ـ السي محمود، يا ابني، لا تتصور أي فكرة سيئة ! إذا أردت الخروج فلا شيء يبقيك... لكن يتعين عليك إذن تغيير ثوبك. أنت تعلم بأنه يُنظر هنا إلى لباس الجزائريين نظرة سيّئة. وهو لا يمثل بالنسبة لك خطراً حقيقياً غير أنه سيجلب لك بعض المتاعب، وستنعت علناً بمزابي.

والواقع أن المغاربة يحتقرون الجزائريين الذين يعتبرونهم مارقين.

ولربما يكره المغاربة المسلمون الجزائريين بشكل أعمق حتى من المسيحيين أنفسهم، لأنهم يعتقدون بأن الأولين ارتدّوا عن الإسلام، بينما ظل الآخرون على ما كانوا عليه، كفاراً.

ويغذي المغاربة الذين نسوا مبادئ التسامح في الإسلام الصحيح كراهية مزمنة ضد المسيحيين والمزانات.

... وهكذا، فقد تحولتُ في ذلك المساء إلى مغربي من أجل الخروج، مستبدلة بالزي الثقيل للسباهية جلّابية بيضاء خفيفة، ونعلين أصفرين يحتذيان في الأقدام العارية، وعمامة صغيرة من دون خمار لُفّت بشكل هالة حول شاشية.

كان ذلك أكثر خفة، وأكثر نداوة، غير أني فكرت برعب في الشمس المخيفة لفترة منتصف النهار، وتساءلت إن كنت لن أقع مصعوقة بتلك العمرة الشفافة تقريباً.

أسررت لبا محمادو بقلقي، فابتسم السوداني من دون قلق، وقال:

ـ سيحميك الله، وسيدي محمد بن بوزيان، إن كنت أتيت إلى هنا بثقة وصدق!

... فلنأمل أن تتحقق التنبؤات المطمئنة لبا محمادو، وبأن لا يقوم هذا الزي الجديد، الذي يسليني حتى الآن، بأي لعبة خادعة ضدي.

البرقة

«البرقة» كثيب غريب يطل على قنادسة، ويعلو كتلاً من الحجارة مع بعض النتوءات المتفرقة على شكل أهرامات.

قصدته للنزهة في صباح مشمس ندي.

عبرت المقابر. وخلف قبة لالة عيشة، التي تتزين بألوان وردية مثل ظل خفر، صعدت في درب رملي يمر في بعض الأحيان تحت سقيفة تقوم على حجارة تبدو كأنها على وشك أن تتدحرج في الفراغ.

وتتحول الأماكن البعيدة إلى أماكن شفافة لامتناهية. وفي الأفق عند الشرق كان جبل بشار يعلو شديد الزرقة، ويهيمن على كل المنطقة من بن زيرق إلى قنادسة.

ارتفعت الشمس ببطء. كانت تطفو في محيط من الأضواء القرمزية التي تغرق بشكل غير محسوس في اللون الذهبي المخضر.

وتقزّحت الرمال الذهبية والحجارة التي كانت بلون رمادي بارد ولامع. وكانت ثمة انعكاسات خضراء وبرتقالية وحمراء اكتسبت جمالاً عتيقاً ومتباعداً على هذه التلة القاحلة.

وخلف البرقة واد ضيق آخر مثل وهد حيث الرمال الرمادية تتخللها حجارة سوداء رقيقة، ثم تلة حجرية أخرى...

وينفتح وادي قنادسة من جهة الشرق مانحاً نفسه لمداعبة الشمس اليومية. وفي الأسفل القصر المشيد من الطوب ذي الألوان المختلفة التي تمنحه تلك المسحة الدافئة من خليط الألوان الحائرة بين البنفسجي الغامق والأحمر الداكن، وبعض الأسوار الأكثر جدة التي لا تزال تحتفظ بألوان ترابها الذهبية الكامدة والمائلة إلى اللون الفضي مثل رمال الكثبان.

وثمة منزلان أو ثلاثة منازل بنوافذ مسيجة، ويسكنها صوفيون، تعلو فوق سديم من المنازل القصورية.

وعند الطرف الغربي للقصر، وسط ما يشبه ساحة فيها قبور، القبة العتيقة جداً للالة كلثوم (زاهدة أخرى من نسل سيدي بوزيان) وكانت عبارة عن مزيج من الطوب الأسود بتزيينات عند الزوايا على شكل قرون مسننة. وفي وسط سطحها تنتصب قبة صغيرة بثماني زوايا. وكانت هناك امرأة في ملحفة بلون وردي حائل، وهي متسولة من دون شك، تجلس على العتبة. والمنارة البيضاء التي أضحت صفراء بفعل الزمن والشمس تنتصب باتجاه النور الأصفر للأعلى مثل شجرة حجرية كبيرة. وكان هناك أيضاً بعض أهل أولاد جرير بأسمالهم مسلحين ببنادق يقصدون غوير

دافعين أمامهم حوالي عشرين جملاً مجروداً محمّلة بأكياس طويلة من الصوف الأسود مُلئت قمحاً.

ودوماً، مثلما كان يحدث في الأيام الغابرة من دون شك، قبل مئتي سنة، عندما كان الشيخ السعيد محمد يعلّم مبادئه الإنسانية، المقتصرة على فئة معينة، كان هناك هدوء صاف عارم يهيمن على هذا الوادي وعلى القصر.

المستنير

في قمة البرقة، وسط ركام الصخور السوداء، كان أحد المستنيرين يعيش في حجرة ضيقة نُحتت في الصخر.

وكان يلبس خرقة سوداء على قامة فارعة وجسد هزيل، وجهه دقيق مسمرّ وضامر، وشعره رمادي طويل ولحيته كثة. وكانت نظرته مسمّرة تقدح شرراً، ولا تكفّ شفتاه عن الهمس بالأدعية الصوفية عينها التي تحفظ منذ ما يقرب من عشرين سنة نشوته الثابتة.

سافر المستنير في سنوات شبابه، ولم تكن قد شملته بعد عناية اللاوعي، كثيراً في المغرب وفي الجزائر وفي صحراء السودان. ومما لا شك فيه أنها إحدى أجمل الرحلات حتى يومنا هذا التي يعرف العرب وحدهم كيفية القيام بها، حين كان يتنقل من بلدة إلى بلدة أخرى طالباً مأوى وخبزاً في سبيل الله.

ثم لما تعب من غرور العِلم البشري، ومن رتابة الأشياء، عاد الزاهد إلى أرضه الأم، وانعزل إلى الأبد في زنزانته الكئيبة، التي لن يخرج منها أبداً إلا محمولاً من قبل المؤمنين باتجاه الهدوء النهائي، حيث مدن الأموات السفلية الغامضة.

نظرت إلى ذلك العابد الصحراوي الجميل، ثم فكرت في أن عزلات مسيحيي القرون الأولى كانت تشبه عزلته بلاشك في المناظر الكئيبة للعزلة التامة في طيبة وبريكة الحارقتين.

هم أيضاً كانوا يبحثون، سالكين سبلاً أخرى في النشوة، عن إرضاء الحاجة الملحة إلى الخلود التي ترقد في كل الأرواح.

غضب الصوفي

البارحة، في أثناء القيلولة، دخل سيدي إبراهيم فجأة، وهو يحمل واجماً رسالة في يده ليقول:

ـ تلقيت يا السي محمود لتوّي رسالة من وجدة تُعلمني بأن الحاج محمد ولد عبد الغوث زعيم القادرية قد اغتيل على يد رجال بوعمامة، ليخزه الله!

وتهالك الصوفي على الزربية ماداً الرسالة لي.

كانت الرسالة قد كتبت على ورقة رمادية مدعوكة حملها خادم موكل من طرف زاوية وجدة إلى الزاوية الزيانية.

وروى الخادم موت الحاج محمد الذي ذهب عند بوعمامة ليكلمه عن السلام، وحتى يلزمه ألا يأتي بالمأساة والحرب إلى أنجاد.

واستقبل بوعمامة المبعوث استقبالاً كريماً، وقدم له الوعود، ولكن في طريق العودة لحق أحد رجال قاطع الطريق السابق بالحاج محمد في السهل، وأخذه بعيداً عن مرافقيه تحت ذريعة أنه يريد إطلاعه على سر، وقاده إلى باطن وادٍ كان يتربص فيه أفراد عصابة فقتلوا الصوفي المسكين.

انتهيت من فك طلاسم الرسالة، ورأيت وجدة الحزينة فريسة للجنود الجوعى والحانقين، والرعاع اللجوجين والمهددين الذين يسيرون في الوحل حيث تتعفن الجيف. وعند نهاية كل ذلك الرعب، وخلف الخرابات حيث تزهر الدراقن الوردية، تقوم الزاوية القادرية البيضاء المنطوية على نفسها، والهادئة جداً والتي كان يديرها الحاج محمد الذي اغتيل غدراً، والذي ألفيت لديه قبل ثلاثة أشهر فقط مأوى آمناً وأخوياً.

خاطبني سيدي إبراهيم قائلاً:

ـ سيضيع المغرب يا السي محمود إذا ما شُرع هناك في قتل خلق الله المسالمين، رجال الصلاة والصدقة، والذين لا يحملون سيفاً أو بندقية. لا شك أن الله أعمى أبناء المغرب ليتخلوا بهذه الطريقة عن سبيله، وليغدروا بسلطانهم المتحدر من سلالة

الرسول ـ صلّى الله عليه وسلم! ـ عن طريق مولاي إدريس، وليتبعوا من؟ مخادعين بؤساء مثل بوعمامة والروغي بوحمارال[1]!

أكمل سيدي إبراهيم بصوته اللطيف والبطيء ندب حظ المغرب قائلاً:

ـ في الحقيقة، بِمَ يمكن تفسير شعبية بوعمامة وهو ابن مرتزق فيكيكي لا شأن له، ورجل من دون أصل أو علم، ومسبب الفوضى والقتل، وموزع الكرامات الزائفة والوعود الخادعة، إن لم يكن ذلك بسبب الجنون؟ والله، إن بيت بوعمامة شُيّد على الأسس المترنحة للكذب والقلق! لكن أليس من طبع البدو الرحل في الصحراء أنهم كلما وعِظوا بشيء يستحيل تصديقه ازدادوا إيماناً به؟ أما من يعلن لهم الحقيقة فالويل له، يحتقرونه وإذا ما استطاعوا يبيدونه... وماذا ستقول أنت يا من قرأت كلام الله، وزرت العديد من المدن والبلاد؟ ما الذي تقوله في الروغي؟ كيف يمكنك تفسير مغامرة هذا الرجل الذي لا يعرفه أحد، والذي أضحى يقدم نفسه بين عشية وضحاها كسلطان وأمير للمؤمنين؟ يقول بأنه مولاي أحمد شقيق مولاي عبدالعزيز المعزول. ولكن كيف لا يوجد رجل واحد يستحق التصديق من بين أولئك الذين عرفوا محمداً ليجهر في وجه المؤمنين قائلاً: «في الحقيقة، إنه هو» أو يخزي المخادع؟ وآخرون يدعون بأن بوعمامة يتحدر أصله من صنهاجيي جبل زرهون. كيف لا يعرف أحد من الصنهاجيين أو من بني زرهون هذا الرجل؟ يُعتقد فعلاً بأن بوعمامة ليس ابن آدم ولكنه ابن الجن، وصاحب روح نارية، وعلامة الزمان، وبلية الله حلت من السماء، أو خرجت من الأرض من أجل لعن المغرب الفاسد والمجرم!... أنتم يا أبناء الشرق، أنتم سعداء وتنعمون بالسلام الذي خصكم به الله ، أما نحن أبناء المغرب التعساء فنعيش في بلد الذئاب الجائعة حيث تفيض الأنهار دماً، وحيث يسود القلق. وفي كل ساعة من ساعات الليل أو النهار نرتعش من أجل حياتنا أو من أجل ما نملك... أنظر يا السي محمود، لدينا عائدات مهمة من تافيلالا ومن الوطا ومن فاس وخاصة من منطقة أنجاد. والآن اجتاحت جيوش المخادعين البلاد، ولم نعد نحصّل إلا على ربع العائدات التي كنا نحصّلها فيما مضى... وهنا، يتوافد الفقراء واليتامى والمساكين الذين لا حامي لهم والطلبة وأبناء السبيل ويطلبون المأوى والخبز اللذين يتوجب علينا

(١) تقصد بوحمارة. المترجم.

منحهما لهم بحسب القاعدة الخالصة لسيدنا ـ رضي الله عنه! ـ آه يا السي محمود، فلندعو الله حتى يقضي على بوعمامة ابن المرتزق، وصانع الخدع، وبوحمارة الرجل الجهنمي، والذي يرغب في تسلق الدرجات على ظهر أتانه لعرش دام ألف سنة، ويظفر بالإرث الذي أوصى به مولاي إدريس لذريته بإرادة وارث كل شيء.

وهكذا، أضحى سيدي إبراهيم يأتي كل يوم ليخبرني بأخبار الغرب، الأخبار المحزنة وجلبة الخارج. ومع ذلك لم تكن أصداء الإعصار التي تهدر في المغرب الفاسد إلا مخففة بعض الشيء في هذا المكان النائي والمعزول. . .

فهنا لا شيء يحدث، ولا تحمل أخبار العالم الخارجي شيئاً من القشعريرة الباردة للواقع المأساوي عند دخولها إلى هذا الظل الحار والصافي.

وفي رتابة حياتي بقنادسة بدأت أفقد شيئاً فشيئاً مفهوم الاهتياج والانفعالات الثائرة. ويبدو لي أنه في كل مكان ينبغي أن يكون الناس والأشياء ساكنين وناعسين مثل ما هم عليه في هذا المكان. . .

رسالة

يوم طويل من الحمى والألم، مرّت عليّ ساعات ثقيلة في غرفة السطح الصغيرة وأنا مستلقية على حصير من قصب في مواجهة أفق النار. . .

وفي المساء، لمّا بدأ الجو يلطف بعض الشيء، أحسست بأني أفضل، فقمت أجر نفسي حتى الحاجز. وكانت إحدى أحاسيسي الأكثر لطفاً، والفاترة حد اللذة أن أنظر هكذا، في كل الأماسي، إلى الشمس وهي تغرب على قنادسة المتوجة باللون الأرجواني الملكي.

. . . ومع ذلك فقد تأخر العبيد في الحضور اليوم. وحل الليل، ليل قمري بشفافية غير محدودة.

لا شيء. لا شاي، ولا عشاء، إلا القليل من الماء داخل الدلو الجلدية التي تقطر ببطء.

ناديت.

وظهرت من ظل سطح مجاور عجوز زنجية. وكان كل العبيد قد غادروا من أجل سهرة مأتمية في حي المسجد.

وهكذا وضعت زربيتين كيفما اتفق على السطح الذي كان مايزال ساخناً، ونمت في الصفاء الوردي للقمر الذي كان ينحدر نحو الأفق.

ومنذ الفجر قدم با محمادو، وقد بدا منسحق القلب، وقدّم تحيات أكثر احتراماً من المعتاد ليقول:

ـ سيدي محمود، أرسلتني «لالّة» لأخبرك بأنها ترجوك باسم الله، وباسم سيدي بوزيان أن تسامحها، وأن تطرد كل الحزن من قلبك، فقد رافقناها جميعنا ليلة أمس إلى جنازة امرأة زاهدة، لالة فاطمة الأنجادية، التي توفيت ساعة المغرب ـ فليرحمها الله! لأجل هذا السبب نَسِيَت «لالة» أن ترسل لك الشاي، وطعام المساء، وتستميحك عذراً على هذه الإساءة غير المقصودة، وتدعو لك ببركة الله وأجدادها.

لم أر أبداً تلك الـ «لالة» القوية جداً والمعظمة جداً، والتي تدفع طقس الكرم حد إعلام غريب عن طريق رسالة صبغت بتذلّل لطيف مماثل، وطلب الاعتذار جراء أمر حدث بفعل نسيان من دون تبعات. . .

كيف هي هذه السيدة المسلمة العظيمة، والتي لم أستطع الدخول إليها ما دمت سيدي محمود، وقد استمروا في معاملتي على ذلك الأساس؟ ـ حتى إذا ما كانت هناك شكوك بحكم وشايات بشار، فقد تحفظوا عن إشعاري بها لأن ذلك يُعدّ قلة أدب من منظور إسلامي.

هل لها سلوكات ابنها الرصينة؟ وما هي الأفكار التي تستحوذ على عقل تلك المرأة التي توجد في وضع خاص جداً من حيث إنها معزولة جداً ومخوّلة سلطة يرضخ لها حتى ابنها نفسه؟

رؤية النساء

انزلقت أشعة بلون النحاس الأحمر، مائلة على طوب الجدران الأحمر في الساحة الكبيرة. كنت جالسة على حجر منتظرة سيدي إبراهيم. ومثل كل الأمسيات كانت النساء يحضرن إلى الساقية، وكنت أرقب موكبهن البطيء، وروعة أثوابهن في الضوء.

كنّ شابات وعجائز، جميلات وبشعات، وأخريات يخطرنَ برؤوس مطأطأة من دون أن يعرف شيء عنهن عدا سلام لا يكاد يهمس.

وتوقفت امرأتان تحت القوس المنخفض للباب الذي يفضي إلى الباحة الداخلية.

إحداهما كانت زنجية سودانية ذات وجه مدور، وعينين عسليتين ورقّة حيوانية، تضع في شحمتي أذنيها قُرطين ثقيلين من الفضة يصلان إلى كتفيها، وقد ضفرت شعرها الأسود الحالك ضفيرتين بدتا كحيّتين فضيّتين طويلتين امتدتا على صدرها. ولفّت جسدها الطويل الممشوق بملحفة صفراء بلون الحامض.

كانت تجلس مسندة مرفقيها إلى فخذيها وتتحدث وهي تحرك يديها حركات معبّرة وقد بسطت راحتيها فيما تُصلصِلُ دمالجها.

أما الأخرى، وكانت خلاسية، فقد ظلت واقفة، وكانت جميلة جمالاً غريباً بوجهها المعتم وأنفها الأقنى، وعينيها الواسعتين الحزينتين، وشفتيها المثيرتين، والمقوستين اللتين تنفرجان عن أسنان حادة.

وكانت ملحفة من الصوف الأحمر، بصبغة حمراء باهتة، تغطي بمرونة تقاطيع جسدها البيّنة الأشكال. وكان أحد أطراف خمارها ينحدر على نحو مستقيم من رأسها إلى صلبها المقوس ماراً خلف ذراعها العارية الجميلة ذات اللون البرونزي القديم. كانت تقف مستقيمة حاملة على خصرها المدوّر قربتها ذات العروتين من الطين المشوي.

كانت الخلاسية تنصت لرفيقتها برصانة من دون أن تبتسم.

... وهزت نسمة خفيفة خماريهما اللذين فاحا برائحة نفاذة، رائحة القرفة المتبلة واللحم الأسود الرطب. ولوقت طويل بقيت المرأتان تتحدثان عند السور الرمادي المورَّد في ضوء المساء البنفسجي الذي أخذ يسودّ شيئاً فشيئاً تحت قوس الباب.

وبدت لي هاتان الإفريقيتان ذواتا الأثواب الزاهية جميلتين جداً في هذا الإطار المتسخ لذلك الركن من الباحة...

صلاة الجمعة

اليوم يوم الجمعة، يوم الخروج إلى المسجد لأداء صلاة الجماعة.

بُعيد منتصف النهار تقريباً، تحت وطأة القيلولة وسكونها، أتاني من بعيد، كما لو أن ذلك يحدث في قلب حلم، صوت ممدود. إنه الزوال[١]، النداء الأول.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

قمت وحاولت عبر حمّام منعش تبديد خدري الثقيل بعض الشيء. مشيت أمام فراجي السوداني الصامت في نور الباحة الساطع المعمي. وسرنا في أزقّة ضيّقة، وحاذينا جدران البساتين المتداعية تجنّباً لسلوك الممرات الضيقة المعتمة التي تعبر القصر وخرجنا إلى الوادي الرملي.

الكل يحترق، والكل يلمع بانعكاسات معدنية على حجارة البرقة القاسية، وعلى رمال السبخة المالحة حيث تهتز أبخرة حمراء مشكلة سرابات مشوشة.

إنها الساعة القاتلة لضربات الشمس وللحمى، الساعة التي يشعر المرء فيها بأنه مسحوق ومضغوط في صدره نار ورأسه فارغ.

وأخيراً وصلنا. دخلنا القصر حيث بعض الظل. وفي ممر المؤمنين كان المتسولون العميان يرتلون تضرّعاتهم. وكان باب المسجد مسيّجاً بعارضة عالية بعض الشيء لمنع الأطفال والدواب من الدخول. نزعنا نعلينا الأصفرين وحملناهما بأيدينا، وعبرنا الباحة بأقدام عارية شبه مهروليين فارين من الاحتراق الذي لا يطاق على الرمال الساخنة.

أحسست منذ دخولنا إحساساً لذيذاً بالرطوبة، والضوء الخافت المزرقّ والسلام اللامحدود.

كان كل شيء أبيض وعارياً في ذلك المأوى الصحراوي العتيق، حيث الجدران والدعامات الثقيلة المربعة والموصولة التي تتحمل السقف بروافده الصغيرة المصنوعة من جذوع النخل المقصوصة. كان النور ضئيلاً ومشتتاً ويأتي من الأعلى عبر «فتحات» مشقوقة تترك كل داخل المسجد في الظل. وعلى الحصائر العتيقة كان أهل قنادسة والبدو الرحل يصلّون. وإلى اليمين، أسفل كوّة واسعة، كان يطفو ضوء أكثر حرارة حيث كان التلاميذ وأساتذة المدرسة[1]، والطلبة يرتلون القرآن. كان أطفال المدرسة يرددون درس أجدادهم.

وفي أماكن متفرقة كان بعض الطلبة المنعزلين يرددون بأصوات عالية الصلاة على الرسول.

كانت كل تلك الأصوات، أصوات الرجال المهيبة، وبعضها صاف جداً وجميل

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

جداً، التي تهيمن على الأصوات الأخرى تتداخل والأصوات الواضحة للأطفال في همس مشوّش كبير على لحن رتيب وحزين ذي نهايات ممدودة.

ودام ذلك الإنشاد المهدهد في الركن الصوفي طويلاً.

وفجأة أعلن المؤذن من المنارة في الأعلى نداءه الثاني. وبدا كأن صوته ينزل من كواكب مجهولة لأنه كان يأتي من مكان شاهق، ولأنه لم يكن يُرى.

وعند نهاية إحدى الآيات تباطأت أصوات الطلبة وصمتت في زفرة، وخرج الأطفال يعدون محدثين ضجة نتيجة احتكاك ألواحهم الخشبية.

وصمت كل شيء في تلك اللحظة، وانحنت كل الرؤوس، منصتة.

وارتفع من العتمة حيث المحراب، تلك الفتحة الكبيرة التي تشير إلى اتجاه مكة، صوت الإمام المكسر والمرتعش. كان يقرأ الخطبة(١)، تلك الصلاة الطويلة المتضمنة للنصح وهي بمقام موعظة ينصت المصلون إليها جلوساً، وصامتين.

وليس الإمام راهباً أبداً، ففي الإسلام لا يوجد كهنة نظاميون، ولكنه الأكثر علماً من بين الحضور. فكل رجل متعلم يمكن أن يلعب دور الإمام، وعليه أن يتلو الصلاة فقط.

وليس هناك غموض في الإسلام، وليس هناك سر مقدس، وليس هناك شيء يستوجب وساطة الراهب.

... وتخلّلت الخطبة مرة أخرى لحظات حلم غامض وهدوء كبير ولطيف.

وكان هناك رجل يرتدي قميصاً أبيض، وقد تمنطق بحبل عادي، ورأسه عار، وكان يحمل سطل ماء بارد وكأساً من الطين، أخذ يقدم الماء للشيوخ المسنين وللمرضى. وهذا عمل إحسان يفرض نفسه هناك كل جمعة.

... ثم كان النداء الأخير للمؤذن وأنهى الإمام قراءته، وشرع في الصلاة.

وكان بقربه رجل ذو صوت قوي وجهوري يكرر التضرّعات بصوت رخيم.

يقوم الجميع، ويرفعون أياديهم حتى مستوى وجوههم، ثم يتركونها تسقط على امتداد أجسادهم قائلين مع الإمام والمرتل «الله أكبر!»

ويركعون ويسجدون...

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

عندما انتهت الصلاة بقيت مع الطلبة والزاهدين الذين يرتلون مرة أخرى صلوات مقفاة على الرسول.

«الصلاة والسلام عليك يا محمد يا رسول الله، يا أفضل الخلق دوماً وأبداً، أيها النبي العربي، يا نوراً وسط الظلام، يا مفتاح المؤمنين، يا محمد القرشي، يا سيد مكة والمدينة المنورة، يا سيد المسلمين والمسلمات دوماً وأبداً. . .»

للصوفيين أصوات جميلة رزينة، وهم يعرفون اللحن القديم الذي يتضمنه الجهر بالآيات في تلك الابتهالات، بينما يكتفي الناس العاديون بترديده بسرعة وعلى نحو رخيم ومتقطع.

انتهى كل شيء. . . فقمنا وأخذنا نعلينا الموضوعين على الحصائر وقد قلبا إذ جعل أحدها في مواجهة النعل الآخر.

ومرة أخرى كان يتعيّن عبور سعير الوادي الذي يصيب بالعمى.

خانتني الشجاعة، وتبعت فراجي في تيه الممرات المعتمة والمنخفضة جداً حد أنه كان يتعين الانحناء حتى نصف قامتينا لأزيد من مئتي متر. وكان الظلام كثيفاً في تلك القناة ذات الأرضية المصقولة حيث تطغى رطوبة الكهوف القديمة.

بعد هدوء الساعة التي أمضيناها في الظليل الأزرق داخل المسجد، بدت تلك العودة وكأنها كابوس حالك السواد.

لالة خدّوجة

كان با محمادو غارقاً في أحلامه في درجات السلّم بينما كان ماء الشاي يغني بهدوء في الغلاية. كان ينظر إلى الغرفة والرسوم البسيطة على الباب الداخلي.

وفجأة قال زافراً:

ـ أين عساها تكون سيدة هذا البيت هذه الساعة؟!

ولما سألته روى لي السوداني أن هذا البيت كان في ملك سيدة تدعى لالة خدوجة، وهي قريبة سيدي إبراهيم، وأنها غدت أرملة وهي بعد شابة ذات طفلين، ولد وبنت، وتزوجت الناسكة التي كانت ورعة جداً، مرة ثانية أحد أقاربها بشرط ملح هو أن يذهبوا سريعاً إلى مكة. وأوفى القريب بوعده، وتركت لالة خدوجة الزاوية ولم تترك فيها إلا ابنها.

قال با محمادو:

ـ في اليوم الذي رحلت فيه عن قنادسة رافقناها كلنا نحن الخدم حتى عين عش الشيخ في الطريق إلى بشار. ونظرت من على متن بغلها إلى القصر لآخر مرة وقالت لنا إنها لن تعود أبداً لأنها ترغب في أن تعيش وتموت بأرض الحجاز المقدسة... في فصل الشتاء هذا سيكون قد مر على رحيلها سنتان. وكتبت لابنها لتخبره بأنها وصلت متأخرة عن موعد الحج وأنها ستنتظر في بيت القدس حج هذه السنة، وبعد ذلك ستستقر بشكل نهائي في إحدى المدينتين المقدستين... فليمنحها الله العون والرحمة! كانت ورعة ومحسنة اتجاهنا جميعاً نحن العبيد المساكين!

... وبدوري رحت أحلم بلالة خدوجة المجهولة تلك، والتي تملك روحاً مغامرة بعض الشيء، ما دامت قد قطعت بمحض إرادتها، مع الرتابة المخدرة للحياة المنعزلة التي تحياها مثيلاتها، لتذهب إلى أماكن بعيدة، وتبدأ حياة جديدة، تحت سماء أخرى.

ما الذي أصاب قلب تلك الزاهدة المهاجرة؟ ولمَ عزمت فجأة على ترك قصر ولادتها إلى الأبد؟ أية مغامرة مستبعدة الحدوث لربما وقعت ولن يعرفها أي شخص أبداً...

(...) والواقع أنه بالنسبة للسوداني الأمي، فبيت المقدس هذه وغيرها من المدن في سوريا، والعربية السعودية، هي في الأعماق الأرضية البعيدة... ولا شك أنها تبدو له كمدن للحلم، وهمية تقريباً...

سادة البدو الرحل

الساعة الخامسة مساءً، تحت أقواس الرياض البيضاء، والبوابة الكبيرة التي تفضي إلى الحديقة الداخلية في منزل سيدي إبراهيم.

في الخارج، في الوادي، كانت رياح الشلوق تثير زوابع رملية، أما هنا فهبوب خفيف يغطي ثقل الهواء في حرارة الشمس الأخيرة...

وعلى زربية رباطية كبيرة ذات ألوان زاهية جميلة كان سيدي إبراهيم شبه ممدد، متكئاً على وسادة من الحرير مطرّزة بزيتونيات ذهبية. وكان إسماعيل يسقط حبّات

سبحته الأبنوسية حبّة حبّة. وكان السي محمد لعرج الجالس قرب الحائط يفرغ على قماش حريري قرمزي مربّع كيسين من قطع الدورو الإسباني الصدئة بفعل الرطوبة.

وأمامه كان ثلاثة من زعماء دوي مينيا من واد غوير متربعين في نصف دائرة.

أحدهم، وهو مسنّ بوجه عميق التجاعيد، وقد دبغته الشمس بلون ترابي، وبلحية بيضاء ذات زغب صلب وأشعث، كان ملتفاً في حايك قديم من الصوف الرقيق ومعه كومية ذات مقبض وغمد نحاسي.

وكان الثاني، وهو رجل مسن أيضاً ملتفاً في بُرنس بال يخفي سلاحه تحت ثوبه، ويأخذ أوضاعاً احتفالية لا تتوافق مع سلوكه الصعب، ووجهه الكاسر بأنفه الطويل المعقوف فوق فم أدرد. كان الرجل ممثلاً لزيانيي غوير.

أما الثالث، وكان الأصغر سناً من بين الرجال الثلاثة، ومع ذلك فقد كان أعلاهم شأناً. كان في حدود الخامسة والثلاثين من العمر، طويل القامة، مفتول العضلات. وكان يرتدي تحت برنس ثقيل من جلد الجمال الأسود ثياباً بيضاء. وكانت كوميته المرصعة بمقبض ذهبي مشدودة بحبل حريري بنفسجي وسميك على شكل سلسلة. وكان حبل آخر برتقالي اللون يحمل كيساً من النسيج الفيلالي الأحمر بطرز فاسي. وكان يحمل أيضاً مسدساً أخمصه فضي مصقول.

غير أنه كان حافياً، ذلك أنه ترك صنداله البدوي قرب الباب.

وكان شديد السمرة، بنظرات ذكية، وسيماء النباهة ووجه يتألق نشاطاً مؤطر بلحية كثة سوداء. وكاد الشيخ امبارك يكون أكثر وسامة لو لم تكن أسنانه تشبه أسنان ذئب، وأطول مما يجب، متجاوزة شفته السفلى، وهو ما يضفي على وجهه ما إن يقلب شفتيه مظهراً وحشياً ومنفراً.

يمارس امبارك تأثيراً كبيراً على أولاد بو عنان، وكان يكيد ليجعل من نفسه سيد قبيلته بصفة نهائية.

ومنذ أن أقام أولاد بو عنان السلم مع الفرنسيين، وصار بإمكانهم ارتياد أسواق الجنوب الوهراني، أخذ امبارك يتوقع الإلحاق التام، ويستعد للمساهمة في ذلك إذ كان يأمل في أن يكون القائد الكبير لكل دوي مينيا، والشخص الذي سيمنحه المسيحيون البرنس القرمزي بزخارفه.

وامبارك شخص طموح وماكر، ولكنه أيضاً رجل بارود، وقاطع طريق، لم يتخل

عن أعمال النهب التقليدية إلا بأمل تحصيل المزيد من الربح من السلم أكثر من المناوشات.

وكان سيدي إبراهيم يريد أن يكلّف زعماء البدو الرحل هؤلاء القيام بعمليات شراء مهمة للأغنام في غوير. سيعودون إلى هناك قادمين من بني ونيف حيث أوصلوا جمالاً من أجل قافلة بني عباس، وثمن الأغنام هو ما كان السي الأعرج يعدّه لهم بدمائته وحركاته الوديعة.

وكان أفراد دوي مينيا ينظرون باشتهاء وبعيون جشعة إلى قطع الدورو التي ترن وتتكدس. وبحركة غريزية اقتربوا منها. ومالوا نحو تلك القطع التي كان يتعين أن تنتهي بين أيديهم، ذلك أنهم بذريعة الشراء كانوا هم من سيبيع الأغنام بأغلى سعر ممكن.

تظاهروا بأنهم لا يعرفون العد، وأخذوا يشوّشون بتلذذ حسابات السي محمد.

ولما رأى سيدي إبراهيم أن ذلك سيستمر إلى ما لا نهاية، رجاني أن أقيم حساباً كتابياً.

كتبت بسرعة على فخذي بقصبة وبأرقام هندية كما تسمى، مألوفة لدى العرب حتى يتمكن امبارك الذي كان يعرف القراءة من التعامل معها.

وأخيراً، استسلم البدو الرحل لحكم الواقع.

وسرعان ما مد الشيخان الجشعان أيديهما الهزيلة إلى المال، غير أن امبارك لم يكن قد قال كلمته الأخيرة بعد، إذ أوقفهما بحركة ثم قال مبتسماً ابتسامة مغرية:

ـ الحساب صحيح يا سيدي إبراهيم. يتعين ستمئة وخمسون دورو لشراء الأغنام بسعر اليوم، والمال هنا. صحيح أننا خدامك، وخدام جدك العظيم سيدي بوزيان، فليشمله الله بفضله! غير أنه يتعين علينا إحضار الأغنام من إخوتنا المتفرقين في مناطق غوير. . . ثم علينا أن نرافقها إلى هنا، حتى لا يأخذها أولاد ناصر وبربر آيت خباش. سنتكفل بكل هذا، والحقيقة أننا سعداء بخدمتك، وليس لك ما تخشى من أجله إن شاء الله! لكننا بدو فقراء، أفلستنا الحرب، وصحيح أن كرمك سيشملنا. امنحنا مكافأة. . . من أجل عنائنا.

ابتسم سيدي إبراهيم، وأحنى السي محمد لعرج رأسه، وأظهر وجهاً يتعذر سبر غوره.

ـ وأية مكافأة تتمنون؟

ـ امنحنا متي فرنك فرنسي، وجزاك الله على إحسانك.

عندئذٍ قال سيدي إبراهيم:

ـ صلوا على النبي، والعنوا إبليس الذي يتدخل بين الناس والذي يبث الكراهية بينهم، والذي يغويهم أيضاً بمفاتن هذا العالم على حساب الحقيقة والعدل! إذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت خدمتكم ستشترى بهذا الثمن المبالغ فيه، أفضل أن أرسل عبيدي إلى غوير.

وتحدث جماعة دوي مينا لفترة طويلة أيضاً غير أن الزاهد لم يستسلم أبداً لجشعهم.

وبينما اهتاج البدو، وذهبوا حد رفع أصواتهم، بقي سيدي إبراهيم والسي محمد صامتين، وظلا ينتظران.

أخيراً، ولما أدرك امبارك لا جدوى جهودهم، استعادوا كلامهم الطيب وابتساماتهم المصطنعة.

ـ أنت سيدنا يا سيدي إبراهيم، ولن نجرؤ على مناقشة قراراتك، لأن ما تقوم به هو الخير. ابق بسلام، وادع الله ونبيه ـ عليه الصلاة والسلام! ـ وسيدي محمد بن بوزيان من أجلنا، لأننا سننطلق غداً منذ الفجر بكل تأكيد في طريق غوير...

ـ انطلقوا في سلام يا أبنائي، وليحفظكم الله، وليقدكم إلى الطريق السوي.

وهكذا قام البدو الرحل، وقد أصدرت أسلحتهم رنيناً، ثم استداروا لينظروا مرة أخرى بحسرة إلى قطع الدورو الجميلة، والتي كان السي محمد لعرج يعيدها إلى الأكياس حيث كانت تتساقط برنين صاف.

مسعود

منذ عدة أيام أضحى زنجي حرطاني شاب هو من يخدمني. وكان يدعى مسعود. ولربما كان يبلغ من العمر أربع عشرة سنة. وكان أكبر من سنه وأكثر دهاءً. وكان يرتدي قمصاناً بيضاء شدت من الوسط بحزام من الصوف الرمادي. وكان وجهه الأسمر رائعاً ومعبراً، وعياه كبيرتان معتمتان من دون تقزح، وتعكسان مكراً خاصاً. وعلى رأسه الحليق خصلة صغيرة من الشعر المجعد كعلامة على العبودية والمراهقة

أيضاً تبقى معلقة بشكل غريب فوق أذنه اليسرى. وهذه الزينة الغريبة تضفي بعض الهزل القردي على هذا العبد النشيط، والضاحك من دون سذاجة. وفي شحمة أذنه المثقوبة، وضع مسعود قطعة من الورق الأزرق الملفوق لما أُعدم إيجاد قرط.

ومسعود متحفز ورشيق مثل قط، ومختلس وكاذب وكثير الكلام مثل كل الزنوج، ويمثل نموذج العبد الصغير المحتال.

فعندما كنت أرسله ليشتري لي التبغ عند اليهود كان يعدو إلى هناك متعجلاً، لكن عند عودته يخدعني بالحساب شديد التعقيد للاستبدال بالعملة المغربية. كان يدرك جيداً أني لا أفهم شيئاً في النظام الغامض للنقد المستعمل في المغرب، وكان يستفيد من جهلي.

وعندما كنت ألومه، يبدأ منكراً بأقسام غليظة وببعض الوجوم الذي يعلو وجهه، ثم ينتهي بأن يقهقه كما لو أن لومي له يبدو طريفاً.

ومن أجل كأس شاي بالنعناع، يمكنه أن يفعل أي شيء. وإضافة إلى هذا كان يتصف بكسل لا يقهر، وله طريقة في عدم سماع الأوامر، تفترض تعقيداً من الخداع الحيواني العميق جداً. ويحدث أن يسخر في العلن من العبيد الذين يكبرونه سناً، وتقريباً من دون عقاب من الجميع.

ينظر با محمادو حامل المفاتيح إلى مسعود بكراهية ويقول:

ـ إنه وباء أسود، ابن الزنا ومصيبة!

ويقلب با محمادو عينيه الوديعتين محاولاً أن يصعق مسعود بنظراته، فيضحك الأخير ويفر.

وعندما يريد الزنجي الصغير أن يحصل على شيء يبدو ذليلاً ومداعباً بلطف وتظارف، ويغدو بوداعة مبالغاً فيها، ومزعجة في الغالب، وتتوقف ما إن يحصل على ما يريد. وهو شره ونهم يلعق الصحون ويقضم طول النهار السكر الذي يسرقه.

لا يحب مسعود أي شخص، حتى بلال والده المسنّ، والمزارع الوضيع في بساتين سيدي إبراهيم. وعندما يخاطر المسنّ بالحضور حتى الباحة يطرده مسعود بقسوة متصنعاً تحقير الخادم ذي المكانة الأفضل للقروي.

وكلما أنبه على هذه المسألة التي تهمني لأن عندي فكرة غير واضحة مفادها أن

الكثير من الأطفال لا يحبون آباءهم بشكل طبيعي - كان الخسيس يكتفي بأن يرد علي بتكشيرة متنطعة قائلاً:

- إنه متسخ! ينضح برائحة الزبل! وهو مقمل!

ومع الصوفيين، كان مسعود يبدي مزيداً من الاحترام عندما يكون أمامهم تجنباً للضرب، لكن ما إن يديروا ظهورهم حتى يأخذ في السخرية منهم مخرجاً لسانه.

كان حيواناً صغيراً مفعماً بالمزايا والعيوب، وشيطاناً مألوفاً لا يعيره أحد أي اهتمام. ذكرني هذا الزنجي الصغير بأطفال بيض.

الحكم الديني في الصحراء

غيّر التأثير القديم للصوفيين العرب بشكل عميق المؤسسات والعادات بالنسبة لأهل قنادسة.

ولدى سائر البربر الآخرين كانت الجماعة وهي مجلس الجماعات أو القصور هي التي تحكم. وكل القضايا السياسية أو الإدارية تخضع لقرارات الجماعة. وإذا ما كانت هناك حاجة إلى قائد فالجماعة هي من تعينه. والقائد يطاع مادام يحافظ على توليته غير أنه يبقى مسؤولاً دوماً أمام أولئك الذين اختاروه.

وتلك المجالس البربرية صاخبة. وتتحكم فيها الأهواء عادة، وهي عنيفة إذ تنتهي في بعض الأحيان في الدم المراق. ومع ذلك يبقى البربر دوماً غيورين على حريتهم الجماعية. وهكذا فإنهم يدافعون عن أنفسهم ضد الاستبداد مزيحين أولئك الذين يجرؤون على الطموح إليه.

وفي قنادسة انتصرت روح الحكم الديني العربية على الروح البربرية الجمهورية والكونفدرالية.

فقائد الزاوية هو السيد الوحيد الوارث للقصر وهو الذي يفصل في كل القضايا والذي يعيّن كل القواد العسكريين في حالة الحرب، وهو الذي يقضي بالعدالة الجنائية، بينما يقضي القاضي في القضايا المدنية، لكن هنا أيضاً للصوفي الكلمة الأخيرة وتتم العودة إليه في ما قضى به القاضي!

وأراد سيدي محمد بن بوزيان مؤسس الطائفة أن يجعل من تابعيه مجتمعاً مسالماً وكريماً.

وتتمتع الزاوية بحق حماية من يلجأ إليها، فكل مجرم لجأ إليها يلفي نفسه في مأمن من العدالة البشرية. وإذا كان سارقاً يدفعه الصوفي إلى رد ما سرقه، وإذا كان قاتلاً، يتعين عليه أداء دية الروح التي أزهقها. وفي ظل هذه الظروف، لا ينزل العقاب أبداً بأي مذنب ما إن يلج الزاوية أو حتى أرضاً تابعة لها.

وليس معمولاً بحكم الإعدام من قبل الصوفيين. وإذا حدث أن أعدم أحد الجناة فإن ذلك يتم عن طريق أقارب الضحية أو حتى عن طريق أقارب الجاني أنفسهم، وليس أبداً عن طريق اتهام من قبل الصوفيين.

ومع ذلك فالمتحدرون من نسل سيدي بن بوزيان يبدون صارمين مع اللصوص ومثيري العار القصوريين والعبيد يعاقبونهم بالضرب بالعصا.

ومن الشائع أن يقوم أحد الحضور أثناء تنفيذ العقوبة فيطلب العفو للجاني. وفي بعض الأحيان ترسل النساء من أجل هذا الغرض عبداً أو زنجية ويرضخ الصوفي دائماً.

وبفضل الزاوية لا يُعرف البؤس بقنادسة، وشوارع القصر خالية من المتسولين، فكل المساكين يذهبون ليحتموا في الظل المحسن، ويعيشون هناك بقدر ما يريدون. وأغلبهم ينفعون كخدام وعمال أو رعاة، لكن لا يُرغم أحد على العمل.

وكان التأثير الصوفي شديد العمق بقنادسة حد أن البربر والحرطانيين نسوا لهجاتهم ولم يعودوا يستعملون إلا اللغة العربية.

ولانت عاداتهم أيضاً وأضحت أكثر تحضراً مقارنة بعادات باقي القصوريين.

والخصومات وخاصة الشجارات نادرة، لأن الأهالي اكتسبوا عادة رفع كل خلافاتهم إلى الصوفيين الذين يهدئونهم ويفرضون عليهم تنازلات ودية.

ومنذ أن أقام الصوفيون علاقات حسن الجوار، وحتى الصداقة المتزايدة مع الفرنسيين، اجتاح غضب أخرس قلوب أدنى طبقات الشعب.

فلا أحد يجرؤ على رفع الصوت وانتقاد أعمال السادة. يخضع الناس، وتُردَّد آراء سيدي إبراهيم وتمتدح، لكن في الواقع لولا سلطته المعنوية الكبيرة لكان هناك استعداد لاعتباره هو والمقربين منه مثل المزانات.

. . . ما سيكون عليه مستقبل قنادسة، وما الذي يبقى بعد بضع سنين من هذه الدولة الدينية الصغيرة المتميزة جداً والمنغلقة جداً؟

صحيح أنه بعد القسوة الفيكيكية، والسديم المعتم لوجدة، يمنح وجود هذه المنطقة الهادئة عند أبواب الصحراء، والتي تقول بأنها مغربية، والتي لا تشبه بقية المغرب إلا قليلاً، إحساساً فريداً!

على هامش رسالة

ما عدت أتعرف على الأيام. نحن في عز فصل الصيف. أنا محمومة، مع فترات شكوى صاحية ولذيذة.

تلقيت البارحة رسالة غمرت بشمس أخرى. ثم ماذا، ألأن عيوناً جديدة ابتسمت للمرء يمكنه أن يكون أنانياً حتى يقترح السعادة على أصدقاء قدامى؟

عندما أعود إلى الجزائر، حيث يميل قلبي، وحيث لا تثبت رغبتي أبداً، وحيث رقة الصباحات البرتقالية تقلق حدادي، عن أي شيء سنتحدث إن لم يكن عن أنفسنا، وبأية طريقة؟

لا يمكن للنساء أن يفهمنني، ذلك أنهن ينظرن إليّ ككائن أجنبي. أنا عادية جداً بالنسبة لأذواقهن العاشقة لما هو مصطنع ولما هو ماكر. هن يثرثرن بملهاة أبدية حول الموضوع عينه. حتى إنهن لا يقبلن أبداً أن يغيرن زيهن. عندما تصير المرأة رفيقة الرجل، وعندما تكفّ عن أن تكون لعبة، تشرع في حياة أخرى. وفي انتظار ذلك تم تعليمهن ألا يتنفسن إلا بقدر، وتلقينهن رقصة.

يبدو أن هناك جيلاً جديداً يعلن عن وصوله وأن بعض الفتيات يعرفن كيف يتحدثن بطريقة مختلفة مثلما يفعلن بأعينهن، من دون أن يسقطن من أجل ذلك في ثرثرة محاضرة وفي مطالب اجتماعية. لا أصدق أي شيء أبداً، وأتصور أن هذا أيضاً يندرج في خداع التعليم الذي لن يقاوم نبرة الصالونات.

من جهة أخرى من سيكون أزواج أولئك الصديقات المخلصات ما دام الرجال، وخاصة في الضواحي، ليسوا إلا ساعين وراء النساء؟ أما المرأة فستكون ما أريد لها أن تكون. غير أني لا أستطيع أن أثبت أن الرجال راغبون في تغييرها بطريقة تتجاوز

حدود الموضة. فهي أسيرة أو معشوقة، هذا ما يستطيعون أن يحبوه، ولكن على أن لا تكون مساوية أبداً.

ألقيت هذه الأفكار على هامش رسالة أتتني من مكان بعيد جداً، وحملت لي نسمة لامبالاة رطبة متوحشة. على إثر ذلك عدت لأهوي في إحساس بالمنفى مع طعم الغوص أبعد في هذا الجنوب العدواني، ومن دون أية رغبة في باريس التي عرفتها أو أنوثة الجرائد الشفاهية التي كانت أقل جاذبية من سحر الغريزة.

لم أضع في ردي شيئاً يستحق أن يقرأ. . . ما فائدة ذلك؟

في يوم من الأيام ستتفرق السبل وتنعزل الأفكار. هذا أكثر من وجوب الالتقاء بالأصدقاء. عندما سيشرفوننا بدعوتنا إلى اقتسام سعادتهم الغريبة سنريهم كل ما تستطيعه أخوة الأرواح.

فلا نتأسف على شيء لأن سعادتنا وسعادتهم ستتركنا نذهب في يوم من الأيام في تيارات غريبة تجرّ أرواحنا إلى الانحراف نحو ضفاف مستحيلة. عندئذ سنتذوق نشوة السقوط والغرق، وسنتيه في شواطئ الليل الفسيحة، وسنشعر بصدورنا تنفجر تحت وطأة إنبات حبات الألم. . .

تمام الساعة الخامسة[١] الصوفية

لمّا علم سيدي إبراهيم بمرضي أرسل إليّ بغية تسليتي دعوة للطعام في الهواء الطلق ببساتين الزاوية. وأوكلت هذه المهمة للسي عبد الوهاب وهو رجل متعلم قدم من الشرق من أجل الاستقرار بقنادسة.

يعجبني كم أن أصغر الأشياء هنا يصبح على قدر من الأهمية والنبل. فعدم التكلف وعدم الحرج هما ميزتان أوروبيتان تمنحان الحياة سهولة أكبر. وعندما يعتاد المرء على صراحة الشعب من الصعب جداً أن تؤخذ مأخذ الجد بعض المظاهر التي يصطنعها، في بعض الأحيان وفي ظروف معيّنة، الناس الأكثر ابتذالاً، والأقل قدرة على الرقة والإحساس. فكل تهذيبهم يبدو مزيفاً. ويبدون وكأنهم يرتدون لباس العيد وهم يتحدثون. لكن التهذيب هنا ليس قاعدة، بل طريقة عيش، وهو شيء صادق.

(١) باللغة الإنجليزية في الأصل. المترجم.

هو جزء لا يتجزأ من الشخصية وليس شيئاً مصطنعاً. وهو يُعجب.

في البداية فاجأتني دعوة سيدي إبراهيم.

في أوروبا أو في التل الجزائري لا يمكن التفكير في تنظيم وجبة ريفية في جو مماثل. فالسماء كانت سوداء ملبّدة بغيوم داكنة تمضي على مستوى منخفض وتلامس تقريباً قمم الكثبان. كانت تمر وتتفرّق ثم تعود مثيرة بشكل غريب زوابع حول نفسها مثل قطع من قماش ممزق. وتطردها رياح قوية لا نشعر بها على الأرض حتى أنها لا تلامس قمم أشجار النخل الساكنة. وبدأت تتساقط قطرات مطر ثقيلة وساخنة.

وهنا، في الصحراء التي يلهبها عطش أبدي تغدو من قبيل اللذة الحسّية هذه الرطوبة الخفيفة في الهواء، وهذه السماء المفتقرة إلى الألق والحرارة.

وفي مداعبة عنيفة بعض الشيء أنعشت قطرات الماء الأجساد المتيبسة.

كنت بالكاد أستطيع جر نفسي بعد أيام الألم العشرة التي أمضيتها مستلقية على حصير صريعة الحمّى. ومع ذلك فقد لبيت الدعوة.

كان البستان عند سفح المنازل الكبرى المواجهة للغرب. وكان الزرع فيه على مستوى أدنى، ويطل عليه ممر يفضي إلى سطح فرشت عليه زرابي جميلة من جبل عمور يأخذ صوفها الجيد والناعم انعكاسات المخمل المعتم تحت ضوء العاصفة الكامد.

وفي الأسفل تلتف دوالي العنب البري بحرية حول الجذوع الرشيقة لأشجار النخيل والأغصان الرمادية والصلبة لأشجار التين. وكانت غزالتان مصطادتان تلهوان متطاردتين تحت الأشجار المورقة وتتقافزان حول السواقي التي اجتاحها النعناع المذهب.

وكان سيدي إبراهيم متكئاً على وسادته.

وكان محاطاً ببعض أقاربه الحميميين. في البداية الطالب أحمد، خوجة (كاتب) الزاوية، بقامته الطويلة وبُنيته المتينة ودفق الدم الزنجي تحت جلده اللامع. وكان ذكياً جداً ونبيهاً جداً على النقيض من الصوفي بتعابير وجهه البسيطة والمرحة تقريباً.

ثم السي محمد سلف الطالب وهو قصراوي حقيقي، وهو بربري عريض الوجه شاحب، بلحية خفيفة وحمراء تقريباً، ويبدو أنه كان محظياً هو أيضاً.

وبقي السي محمد لعرج صامتاً بابتسامته اللطيفة وكأنها خجلى. وكان شبه ممدد

على الزربية التي أخذ يتبع بأصبعه زخرفتها. وكان مظهره المفكر والمتسامح يوحي بتفكير وتجرد لا علاقة له بالزهد، فقد كان في نظرته شيء من بُعد الفنان الذي يرى العالم وكأنه عرض مسرحي.

كانت سيماء سيدي امبارك، وهو خال سيدي إبراهيم، مختلفة تماماً. فقد كان يُقرأ على وجهه الأسمر الرقيق وفي عينيه الجاحظتين الشغف الذي لا ينتظر، والعزم المفاجئ، والافتخار العربي الاستعراضي، وهو للزينة ولا يصلح إلا لها: وهذا نمط معروف في الجزائر في غرف الانتظار التابعة للمكاتب وفي مقاهي الرصيف. وهو الرجل القوي في العائلة. وكانت له مغامرات تتشابه جميعها كثيراً. . .

وفي البستان كان العبيد يحضّرون الموائد الصغيرة المنخفضة والصحون المغطاة بأقماع عالية من القش زاهية الألوان.

ومع أن العبيد يعامَلون بكثير من اللطف فهؤلاء، وإن كانوا من ذوي الحظوة أو من الأطفال، لا يختلطون أبداً بالبيض، غير أنهم يكنون للرجال البيض احتراماً أقرب إلى التبجيل. .

وبطبيعة الحال تدور الأحاديث حول شؤون المغرب، وحول تافيلالا، ويُذكر اسما الروغي وبوعمامة الكريهان.

غير أن سيدي إبراهيم لم تصله اليوم أخبار سيئة، وإذن كان الكل سعيداً. وسردت قصص طريفة بذلك الصفاء اللغوي المطلق الذي يحرص عليه المسلمون ذوو الأصول الطيبة أمام العامة، وخاصة بين المقربين منهم.

وجردت الأمطار أشجار النخل من غبارها وأضحت زرقاء تحت السماء الكئيبة، وثارت أعداد كبيرة من السنونو ضاجّة بأصوات قصيرة خفيضة وحادة.

قال الطالب أحمد:

ـ إنها جماعة (مجلس) الطير، إنهم يجتمعون ليقضوا في شؤون قبيلتهم واتخاذ قرارات هامة. هذه الدويبات التي لا يزيد حجمها عن حجم الذباب بكثير تحدث من الصخب ما يحدثه مئة من الدوي مينيا يتحدثون جميعاً في الآن نفسه.

وضحك الصوفيون المشغولون باستثارة الغزالتين الأليفتين اللتين تصنعتا مراوغات ماهرة في البداية قبل أن تتوقفا فجأة ذاهلتين.

بعد الوجبة التي كانت من خبز بلاخميرة طيب المذاق يحتوي على حبوب

اليانسون، كان الشاي. الشاي الأبدي الذي أعدّه سيدي امبارك بجدية وبحركات نذرت لتلك الغاية. فإعداد الشاي مهمة الرجال، الرجال الأحرار.

ورحلنا عند غروب الشمس الكئيب، ذلك أن ساعة صلاة المغرب قد أوشكت على الحلول.

وفي ظل القصر تفرّق الصوفيون متبادلين التحايا المهذبة.

وكانت أسوار البستان وأرضية السطح من الطوب القديم جداً والبالي جداً. منذ كم من جيل يجتمع صوفيو قنادسة هناك، من أجل متعتهم الهادئة، وهم الوحيدون الذين يسمحون لأنفسهم بذلك أمام العامة؟

وهنا أيضاً أحسست بسكون الناس والأشياء الذي أحسسته في كل مدن الإسلام العتيقة، والتي توهم بمدتها وديمومتها تقريباً.

المتمرّدة

اليوم، بعد صلاة الجمعة، وجدت القصر كله مضطرباً، ذلك أن شابة مسلمة بيضاء قد شنقت نفسها.

اختلطت بالحشد المجتمع أمام منزلها حيث يعلو نحيب النساء المأتمي.

أخذت معلومات، وأعدت تشكيل المأساة، وحاولت إضفاء المنطق عليها. . . لم تكن متوافقة مع قريباتها، بحسب ما قيل لي، ولم يكن لديها أي شخص لتشتكي إليه. فزوجها حمو حسين لم يكن ينصت إليها. وأراد أن يذلها بالضرب. وبعد العديد من أعمال التمرد انتهت البدوية الشابة والشرسة بأن تستسلم أو هذا ما أظهرته على الأقل، ذلك أن إحساساً بالحرية، بحرية غريبة، كان قد سكنها.

وكانت قد فرت في العديد من المرات عند أخيها الذي كان يعيدها إلى زوجها، وكانت تمنع من الذهاب إلى القاضي، أو سيدي إبراهيم طلباً لحماية أحدهما. كانت عبدة، عبدة أكثر من الزنجيات لأنها كانت تتعذب في خدمتها. وفي النهاية هدأت لأنها أدركت السر الكبير في التحرر المعنوي. وذات مساء، وبينما كان الجميع في المسجد، استجمعت قواها من أجل الهرب، فرفعت نفسها على قدميها الصغيرتين وتعلقت، فوق الحياة وحالتها، بحزامها الحريري الطويل، ومن دون الإسرار بشيء لأي أحد، وفي عزلة تامة.

ما يزال الانتحار ممكناً في عِرق قوي، فالحيوانات لا تنتحر أبداً، ولا يفعل الزنوج ذلك أيضاً، إلا إذا هيّجهم الكحول، فالانتحار ثمل، ولكنه ثمل الإرادة.

انصرف الشعب الخامل برعب عن تلك التي نسيت واجبها في الحياة. ومع ذلك أشفق بعض المتعلمين على امباركة وحضروا للصلاة على جثتها التي غسلتها العجائز وخطن كفنها الذي يتساوى فيه الجميع في الإسلام بكتان أبيض.

وسُجّي الجسد على حصير وسط الباحة. ولم يعد إلا شكلاً متصلباً غامضاً وأبيض.

توقف نحيب النساء، ولم تعد تسمع إلا تمتمة مبهمة لستة أو سبعة رجال طفقوا يرتلون في إيقاع بطيء سورة من القرآن عنوانها «يس»، وكانت تلك صلاة الموتى.

أضحى كل شيء هادئاً ومهيباً وصافياً في تلك الباحة التي انسحبت منها النساء الصاخبات.

. . . وارتفعت الأصوات في إنشاد حزين وناعم. إنها البُردة الآن، مرثاة الدفن.

مد الجسد على النعش[1]، المحمل المصنوع من الخشب الخام، وغطي بقماش أحمر كبير. وعم الصمت، ثم حمل أربعة رجال الجسد العموري الصغير على أكتافهم. وقصد الموكب الحزين بعد ذلك المقابر.

وضع المحمل على الرمال، ووقف الرجال مشكلين نصف دائرة، وقد أداروا وجوههم اتجاه مكة: إنها الصلاة الأخيرة على امباركة.

وعلى الأكمة التي بدأت الريح تمحيها، زرعت ثلاث سعفات، سوف تيبس هناك.

وكان حمو حسين، وهو رجل في حوالي الأربعين من العمر، قبيح ومشوّه، قد وضع أرضاً على منديل من القطن الأحمر بعض التين الجاف وقطعاً من الفطير. إنها الصدقة[2]، الحسنة التي تقدّم إلى الفقراء كذكرى عن المتوفى والتي تنوب عن باقات الزهور غير المجدية والأكاليل ذات البريق الخداع.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

(٢) هكذا ذكر في الأصل مع الترجمة. المترجم.

انتهى كل شيء، ورحلنا متفرقين. لم يرافق المتعلمون المسنّون الصارمون جنازة المنتحرة، وصلّى عليها الطلاب الشباب وحدهم.

قال لي أحدهم: «كانت تعيسة!» من المحتمل أنه لم يكن يعرف معنى التعاسة. عندما يفهم الناس معنى الألم يصيرون أكثر صلابة. لا يشفقون بل يتهمون... ومع ذلك يبدو لي أن على القلب أن ينفتح أكثر فأكثر.

هناك بعض العلماء الذين أرادوا أن يتعلموا حتى آخر أيام حياتهم... لمَ ما يصح في الذكاء يقل في تربية الأحاسيس؟ منذ أن عشت في هذه الزاوية في ظل الإسلام، ومنذ أن أصابتني الحمى، وصرت وحيدة، وحيدة بشكل إرادي، كرهت بعض لحظات ماضيّ الصاخبة، وأضحت حواسي أكثر رقة. بعد هذه الخلوة، إذا ما عدت للحياة الماضية، سأعرف كيف أفهم الحب...

احتفال سوداني

إنها الساعة الرابعة، وقد هدأت رياح الشلوق بغتة. وشيئاً فشيئاً تلاشى الغبار، وهبت نسمة خفيفة من الشرق. وصار بإمكان المرء أن يتنفس الآن. وصفقت الأبواب، وخرج القصريون والصوفيون إلى الشوارع حيث مدت الريح كفناً من الرمال الناعمة... وكان ما يزال في السماء دخان رمادي يحجب وجه الشمس. وكان الأفق ما يزال أحمر مضبباً.

وعلت القصر جلبة. كانت أشبه بطرق منغم ومبحوح، أخذ يقترب ببطء. إنها الطبول السودانية التي تتقدم. كان صوتها الغريب يحمل إلى المشهد الصحراوي لقنادسة لمسة غريبة جداً لإفريقيا شديدة البعد.

عبر قرون من وجود الإسلام حافظ السودانيون على ممارسات ماضٍ سحيق لطقوس تيمِية منسِيّة، نوع من الشعر مفرداته الأصوات والحركات التي تجد كامل معانيها في الغابات الكثيفة المأهولة بالوحوش. وانفصلت من بين إيقاعات الطبول المتواثبة الضحكات الصافية للصناجات النحاسية المزدوجة المربوطة بالأصابع بواسطة سيور جلدية مستطيلة. وكان بعض الزنوج يرقصون في مقدمة الموكب وكان الآخرون يغنون أغنية قديمة نصف عربية ونصف سودانية تقطع بلازمات صارخة ورتيبة.

وكانت مجموعة من الأطفال ترافق العبيد. ويهيمن حضور الزنوج الصغار

المثيرين للضحك بخصلات شعرهم الملبّدة على رؤوسهم الصغيرة الملتمعة وقمصانهم الترابية. وكان البيض الصغار، الصوفيون بالمولد، الذين يرتدون غندوراتهم ذات الألوان الزاهية، وقد صبغت الشمس جلودهم بلون نحاسي، يبدون كالصينيين بملامحهم الدقيقة وجدائل الشعر الوحيدة الصقيلة التي تنحدر من قمة رؤوسهم الحليقة حتى ظهورهم. وكان الجميع يقهقهون ويرقصون حول السودانيين الهادئين الذين يتذكرون على نحو مبهم أن احتفالهم هو طقس مقدس لعرقهم.

توقف الموسيقيون، ونزعوا نعالهم، وأتوا في البداية لتقبيل ثياب الصوفيين، ثم شكلوا نصف دائرة وأستأنفوا جلبتهم.

ودخل مغنيان في نصف الدائرة وشرعا في الرقص، أحدهما في مواجهة الآخر، وأخذا يقفزان مثل قردين ويقومان بقرفصات مفاجئة. وكانا يضربان الأرض بأقدامهما ويصفعان براحات أيديهما الوردية رأسيهما. استيقظ الدم الزنجي القديم، وتدفق منتصراً على العادات المتكلفة للتحفظ المفروض بسبب العبودية. عادوا إلى أنفسهم، بسيطين وشرسين في الآن عينه، وتواقين إلى الألعاب الصبيانية والهمجية القريبة جداً من الحيوانية البدائية.

واهتاج أحد الراقصين على الخصوص حد الجنون، وكان كهلاً بفم برزت عظامه، وأسنان صفراء طويلة، وعينين منتشيتين. وكان يصدر صرخات مبهمة، وهي صرخات السعادة الهمجية.

وفجأة تهاوى السودانيون منهكين مصعوقين. وبعد خدر ثان كموت قصير، قاموا نصف منتصبين مقرفصين بصعوبة وقد استداروا جهة سيدي إبراهيم.

وصعدت من ثيابهم المبللة بالعرق، ومن أجسادهم الملتمعة التي بدت أكثر سواداً، رائحة الزنوج القوية.

وارتفعت كل الأيادي أمام الوجوه، وقد بسطت أكفّها كأنها كتب.

وقرأ سيدي إبراهيم الفاتحة أول سورة في القرآن.

ثم دعا أن تحل بركة الله، وسيدي محمد بن بوزيان على السود، وعلى كل الحضور، وعلى سكان قنادسة، وعلى كل الزيانيين، وعلى كل المسلمين وكل المسلمات الأحياء منهم والأموات.

وفي التفاتة مؤثرة دعا الصوفي الله بأن يحفظ وأن يعين في كل وقت وفي أي مكان خادم المولى ورسوله السي محمود ولد علي الجزائري.

عند الطلبة

مساء ذلك اليوم قدم فراجي ليبحث عني بطريقة غامضة كما لو أن الأمر يتعلق بدسيسة.

أخبرني بأن السي المدني، شقيق السي محمد لعرج، وبعض رفاقه الطلبة بالمسجد الكبير يدعونني لتناول الشاي عندهم...

وبطريقة لاإرادية استحضرت أوصاف العربدة المقززة التي يقدمها كتاب موليراس المغرب المجهول للطلبة المغاربة. لمَ أخذ فراجي كل تلك الاحتياطات من أجل نقل دعوة أولئك الشبان؟

قابلت المدني في العديد من المرات أثناء الصلاة. كان شاباً رقيقاً وضعيفاً ومهذباً. ومع ذلك، قبلت الدعوة.

عبرنا اصطبلات فارغة، وباحات صامتة، حيث مدت أشجار معمرة جذوعها القديمة. كان الحي فارغاً تماماً. وكانت خطواتنا تتردد على البلاطات، كما لو أننا نمر أسفل القباب المقوّسة.

عند خروجنا من متاهة مظلمة ورطبة لممر تراكمت فيه الحجارة والبقايا، دخلنا فجأة باحة لذيذة صغيرة أحاطت بها أقواس ذات بياض حائل.

وفوق حائط كانت شجرة نخل تحني قليلاً رأسها ذا الأوراق المائلة فبدت وكأنها تستند إلى السطح. وكانت كرمة برّية تصعد على امتداد دعامة وتلتف حول جذع النخلة المائل لتنهمر أوراقاً وعناقيد ظهرت حديثاً.

استقبلني السي المدني وبعض الطلبة الآخرين.

ورحبوا بي بلطف كبير. هم أبناء الصوفيين القصريين، وقد بدوا بوجوههم الشاحبة والهزيلة وكأنهم ذبلوا في ظل القصر الكئيب.

وكان يتميز بينهم السي عبد الجبار، وهو بدوي قدم من حمان ميشيريا إلى الزاوية من أجل الدراسة. وكان يتجاوز برأسه كل المقيمين المنحطين، وهو ابن محارب على الحدود، قوي البنية، مفتول العضلات، يتصف بالكبرياء الذكوري في أوضاعه،

بملامحه الواضحة والدقيقة وبشرته الصقيلة، ونظرات عينيه العسليتين الواسعتين اللتين تلتمعان بألق لم يكن من دون شك ألق الذكاء.

دخلنا قاعة الشاي من خلال باب بمصراعين منحوتين يصدران صريراً على محاور صدئة. هناك كان يسود نور دخاني ضعيف. وساهمت أناقة بعض الأعمدة الدقيقة ذات التخريمات الفسيفسائية التي جلبت من وسط الحجارة اللبنية في بهجة المكان. وكانت في القبة كوى صغيرة تفتح على النسيج المتموج المنير للسماء، ساكبة ضوءاً أصفر على الزخرفة الخضراء النيلية التي تزيّن الأسوار على ارتفاع يصل إلى قامة رجل واقف، وعلى الأسوار ذات الهيئة البالية.

وتقود درجة حجرية إلى النصف الثاني من الغرفة الكبيرة المرتفعة قليلاً. وهناك مُدّت الزرابي الرباطية ومرتبات صوفية بيضاء تغطي الأرضية.

وتحت عارضات السقف السوداء المتشابكة بالقصب المصبوغ باللونين الأخضر والأحمر نقشت كتابة تدور حول كل الجدران بحروف حمراء: «العافية الباقية»(١).

وفي الكوى وعلى رفوف الجدران، وعلى الصناديق الكبيرة المصبوغة بورود ذهبية كامدة، يتوزّع ركام من الأشياء المتنافرة.

وهناك كتب باللغة العربية، وآواني المطبخ، وملابس وعدة ركوب الخيل، وآلات موسيقية وأسلحة، وكل شيء يتزاحم في فوضى فاتنة. وخلافاً لكل الأواني الخزفية المجلوبة عبر بشار، كان هناك إبريق بديع من البندقية ينفرد بزجاجه الشفاف المصبوغ بلون نادر.

وكانت هناك أيضاً مصابيح نحاسية ذات رؤوس طويلة، وإناء خزفي أخضر مزين بنبات النفل، وخزف بألوان متداخلة. ومن أجل إتمام متعة العين، وتحت قماش حريري براق، كانت هناك صينيات جميلة، وعدة الشاي حيث الكؤوس الصغيرة مختلفة الألوان تبدو كأزهار برية.

جلست قرب النافذة المسيجة التي تطل على سديم من الخرابات المبللة بالأمطار. تهدمت تلك المساكن، التي كانت لطيفة بالنسبة للناس، وأضحت غباراً وجزءاً من الأرض القفر تحت الشمس.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، وقد ترجمتها الكاتبة باللغة الفرنسية بـ«الصحة الدائمة». المترجم.

أشعل فراجي وشقيقه حدو الجريد اليابس في الباحة، وأخذ السي المدني يشرح لي من دون أن أسأله سبب الغموض المقصود الذي أحاط به الزنجي دعوة الطلاب قائلاً:

ـ أنت تعلم يا السي محمود بأن العادات واللياقة تفرض أن آباءنا ومن يكبرنا سناً يجهلون متعنا، أو على الأقل، يتظاهرون بجهلها. نحن نمضي الساعات هنا نمتع قلوبنا بالموسيقى وقراءة الأعمال العظيمة للشعراء القدامى وبالأحاديث الودية. وما يحدث هنا لا ينبغي لأحد سوى الله، وباستثنائنا نحن، أن يعرفه... وإلا فإن تسلياتنا، مهما كانت بريئة، ستشعرنا بعار كبير وستجلب علينا لوماً عنيفاً. من أجل هذا اخترت هذا البيت وهو الوحيد الذي ظل مأهولاً في هذه القصبة والذي ورثته عن جدي سيدي بومدين. لا أحد يمر من هنا، ولا أحد يأتي ليقدم لنا النصائح ويترأس التسليات الحرة لأرواحنا.

مر الاجتماع في الحديث. ومن أجل التركيز على الحميمية المبدعة عاد أحد المتعلمين المسلمين، بعد الفراغ من كلمات التعريف بنا إلى عمله في الخياطة، وشرع يبحث عن قطع حريرية من أجل غندورة بيضاء. وكانت أعمال الخياطة وتزيين الأقمشة تعتبر في أوساط الطلبة المغاربة شرفاً كبيراً، فهي الدليل على الذوق، ولم يكن القيام بذلك حتى في العلن ليحط من قدر المرء.

تناول المدني قيثارة ذات ثلاثة أوتار وشرع يغني بصوت مخدّر مقطعاً أندلسياً قديماً، كان يتمدد ويدور حول النغم نفسه، ورافقه قريبه مولاي إدريس وهو مراهق ضعيف أصفر السحنة، ضارباً على طبلته. ولم يكن يرى الوسيم حمياني عبد الجبار في الموسيقى إلا باعثاً على التثاؤب، فقد بقي هناك ممدداً على طول الزربية مثل سلوقي كبير، يمدد خصلاته الجافة كفارس يوتره السكون.

أصغيت للغناء الفاتر الحزين وفكرت في ما هي عليه حياة أولئك الطلاب المسلمين.

فخلال سنوات يكون التحصيل الدراسي في الإطار المجرد والعادي للمساجد العتيقة، وتمارين الورع التي تذهب بأغلبية أولئك الشبان المنتمين سلفاً إلى طوائف صوفية حد النشوة كل يوم.

وتحت كل ذلك التقشف المفروض يختفي فرح كبير ساذج، وإحساس محتدم يولِّد المغامرات المعقدة جداً، والخطيرة جداً. ويلزم القول أيضاً، وخاصة هنا في الغرب، أن وراء هذا التقشف الكثير من الآفات المخفية. والحياة شبه المنعزلة تشجع انحراف الأذواق.

وذات يوم يتزوج الطالب المغربي من دون فرح، راضخاً للسطلة الأبوية من دون أين يهمس بكلمة. وهكذا تتغير حياته. وتنتهي الأحلام والدراسة. ويدخل المجتمع ولا يعاود أبداً انحرفاته الشخصية أو مراوغاته، ويتعلم سلوكات عالمه الهادئة والمفروضة بوجه سوي وجامد.

ومع ذلك غالباً ما يحزنون على جو اللامبالاة اللذيذ في بيت الصوفة، مكان الاجتماع أو الغرفة المشتركة للطلبة.

وسرعان ما يأخذ الشباب المتعلم وضعاً مهماً فيصيرون إما صوفيين أو أعياناً. تكفي بعض السنوات أو بعض الشهور من أجل تعديل سلوكهم في العمق، فيشاركون في قرارات الجماعة، ويغدو الفرد منهم الرجل الذي يقرر، والذي لا ترتبط قراراته به وحده، ويشاركون في الحرب، ويسافر الكثير منهم عبر البلدان الإسلامية، وآخرون يذهبون إلى مكة...

وكل ما له علاقة بالسلف تكون له اليد الطولى ولا تمنح أبداً للفرد فرصة ليتطور. ويصير سريعاً رجل وسطه. ويجد متعة وكبرياء بأن يكون كذلك. وبعد بضع سنوات، وعندما يرى أولئك الطلاب القدامى، المغنون وقارئو الأبيات، أبناءهم يكبرون سيفرضون عليهم بقسوة القاعدة الصارمة التي يشتكون منها غالباً في أحاديثهم في مرحلة الشباب، ويساق أولئك بدورهم إلى اللذات السرية.

والمسلم الذي ولد من أسرة جيدة، وخاصة في المدينة، لا شيء من أموره الشخصية، الحياة العائلية والشهوات والحب، ينبغي له أن يظهر في الخارج.

فإظهار اللذات، العزيز لدى الأوروبيين، غير معروف في الإسلام. ومنذ الصغر يتم إعداد المغاربة المتعلمين على إخفاء فرحهم. وهذا ما يفسر طبيعتهم المحتدمة، والمحتواة مع ذلك، وشغفهم الداخلي القوي، من دون مظهر خارجي معتبر، فثقافتهم الشهوانية سرعان ما تبهت.

مرت ساعة، وأضحت أفكاري أكثر غموضاً، واستسلمت لسحر الآلات الكبير والحزين والعتيق من دون رغبة في الحركة، في وسط الاستسلام هذا الذي لا يتغير، حيث كل شيء يحتضر من دون هزات، بصفاء، تحت شمس الإسلام الغاربة. فالحروف الحمراء لشعار الإيمان، التي تدبّ حول الأسوار، وتمد زخارفها في الظل، هدأت روحي تحت مداعبة عاجية.

. . . الاحتكاك مع الوقت الذي يملكه المرء أشبه باحتكاك يد باردة وشاحبة على جبهة تحترق. . .

تبدو قوة الأشياء وسكينتها وكأنها تستمر أبداً، لأنها تتقدم بهدوء في اتجاه العدم، من دون فرقعة، ومن دون تمرّد، ومن دون اهتزاز، وحتى من دون رعشة باتجاه الموت المحتّم. . .

أفكار المساء

المساء. مساء آخر يحل بالزاوية الغافية. جماعات من النساء في أثواب متموجة البقع ذات ألوان زاهية يقصدن الساقية مثلما قصدتها أخريات منذ قرنين، في مثل تلك المشية المرنة والقوية الأصلاب، بأقدام عارية وضعت ملء الأرض المغبرة، وأخريات مررنَ من هنا ولم يعدن اليوم إلا غباراً منثوراً تحت الحجارة الصغيرة لمقبرة لالة عيشة.

وترتعش الرياح الخفيفة في الجريد الصلب لشجرة نخل كبيرة ملحمية انتصبت خلف الجدار مثل دغل. والنخلة من بين كل الأشجار هي الأقرب شبهاً بعمود معبد. ففي تلك الشجرة الخالية من الأغصان شيء من الحرب والتصوف والتوحيد والإلهام. وقد ولد الإسلام مثلها بفكرة الاستقامة والانبعاث في النور. كان التعبير المجسّد لأرض النخيل وانبجاس المياه.

. . . أحسست بهدوء غير محدود ينزل على اضطراب روحي التعبة. وخفّتي تصدر مني، ومنها وطأة نهار انتهى أخيراً ومن نعومة ظل على جفوني الجافة.

هي اللحظة الفاتنة في مدن التل، حيث الخمر المعزية تلهب العقول الخاملة. . . عندما تغني السماء فوق المدن يحتاج المرء إلى التساوق مع النغم، وعندما يفتقد الحلم يشرب بحثاً عن المثالي وعن الحماسة.

سعيد من يستطيع أن يثمل من فكرته الوحيدة والذي يعرف كيف يحوّل كل أشعة الكون إلى أثيرٍ بحرارة روحه!

كنت غير قادرة على ذلك لمدة طويلة. فقد كنت أعاني من ضعفي، ومن فتوري. ولما كنت في تلك اللحظة بعيدة عن الحشود، وحاملة في قلبي كلمات قوة لا تنسى، ما كان لأي نشوة أن تضاهي النشوة التي تسكبها داخلي سماء ذهبية وخضراء. ولما كنت مسوقة بقوة غريبة ألفيت هناك ما كنت أبحث عنه وتذوقت شعور الراحة السعيدة في ظروف كان الآخرون فيها يرتعدون مللاً...

مساء ذات يوم أحد، قالت لي شابة رهيفة، كانت ترى دمها الشاحب يتبخر تحت سماء الجزائر وهي مسترخية على وسائد مقعدها الطويل منصتة إلى الأصوات الصاخبة التي تنزل من مرتفعات مصطافة: «هل يلزم أن تكون الحياة حزينة ليغني المرء بمثل هذا الصوت المرتفع جداً!»

للأسف! كلنا أحدثنا ضجيجاً بمستويات مختلفة. كانت همجيتنا كطلاب هي التي تجهد نفسها.

وكان على عذابات الحب أن تمجد أقدارنا. منحنا حسن الحظ ألا نلقي المرساة في عمق السعادة حيث كانت ستمر حياتنا المتمايلة على الشفرات الصغيرة الخاملة كحياتنا اليومية. فلنصفق لأنفسنا أننا عرفنا الأرض، وأدركنا المكان الصغير الذي يمكن للفكرة الكبرى أن تحتله عليها. هنا وجدنا ركناً من العالم حيث عطش الابتكار لا يفسد أحداً. ومع ذلك فالحياة المادية تترك عليه بصمات قوية...

ما هي إذن الأحداث التي تثير شغف أولئك البدو، الذين يمثلون ماضياً قديماً جداً، وأولئك المتصوفة المفعمين بالصفاء والذين بازدرائهم للعمل يغمرون جباههم في ضوء مستقبلي؟

تمر حياتهم أمام عيني، وأفكر فيها.

أردت في ذلك المساء أيضاً أن أنظر إلى نفسي في مياه الجنوب الجميلة تلك وأردت أيضاً أن أشرب الماء الذي جلبته النساء من ساقية الصحراء، وأن أحس به يتدفق على يدي، اللتين تسخنهما الحمى، وأن أراه ينساب بين أصابعي مثل سبحة الحكمة العالية...

عودة القطيع

كان با محمادو أو سالم ينشد بهدوء أناشيد التمجيد القديمة للرسول إلى جواري على السطح الذي كان مايزال محتدماً. وكان ضوء الغروب الأحمر يكسو وجهه المعتم بظلال انعكاسات برونزية، ويدفئ ثيابه البيضاء. . .

فجأة، وفي صمت القصر الذي بدأ يستعد للنوم، ارتفعت جلبة أصوات متبوعة بصرير الأبواب وثغاء مختلط وصرخات سعادة:

«إنه الحراك وقد عاد! لقد أعيد الحراك!» والواقع أنها كانت العودة غير المأمولة لقطيع المتصوفين والقصوريين الكبير الذي أغير عليه مؤخراً من قبل لصوص عرب وبرابرة آيت خباش.

أخذ أولئك اللصوص القطيع باتجاه الغرب غير أن الشريف الزياني للمنطقة، مولاي أحمد، لما شُرح له من أين جاءت الغنيمة قال لرجاله بأنهم ارتكبوا ذنباً عظيماً بسرقتهم لقطيع الزاوية على أرض مقدسة وعلل موقفه قائلاً: «لقد سرقتم ممتلكات الفقراء وأبناء السبيل واليتامى. . . وإذا ما أردتم مغفرة الله وسيدي محمد بن بوزيان فلن تنتظروا من أجل إعادته.»

وبعد بعض التردد عادوا إلى ما أشار به مولاي أحمد، واختاروا أحد الموالين لهم، الحساني من بربر آيت عطا، ليأخذ الحراك إلى قنادسة يطلب باسمهم صفح سيدي إبراهيم.

وجرى العبيد لينقلوا الخبر السعيد إلى الصوفيالذي كان ينهي صلاته في الظل الندي لغرفته البيضاء الكبيرة.

وحضر سيدي إبراهيم إلى الباحة.

ونزلت.

كانت المعز السوداء قد اجتاحت الباحة وأخذت تتزاحم وتتقافز كأن بها مساً، بعضها فوق بعض، مندفعة حتى معلف الأحصنة الطويل. وكان ثلاثة رجال راجلين يدفعونها، وهم عبيد سود قدموا من بودنيب، وكانوا مسلحين جداً.

ترجل البربري الذي كان يمتطي حصاناً رمادياً هزيلاً أمام البوابة الكبيرة.

وكان سيدي إبراهيم، وهو أعمى، يعتمد بيده على كتف مسعود الصغير يتقدم ببطء وعناء وسط القطيع المتزاحم:

ـ مرحباً بكم يا أبنائي! فليجازكم الله على حسن صنيعكم الذي قمتم به لتوكم!

عندئذ قبّل أولئك الرجال القساة ثوب ويدي الصوفي المتأثر جداً والذي عانقهم بدوره.

رواية أخرى:

في زاوية قنادسة، مساءً.

عدنا أنا والعبد قدور من نزهة طويلة في بساتين النخل والحدائق. وفي الباحة الكبرى الغارقة في صفاء وردي كانت الزنجيات يمررن حاملات قربهن وقواريرهن ذوات العروتين.

وفوق جدار الباحة الداخلية، قرب الساقية، كانت نخلة تميل وتصدر حفيفاً بفعل الرياح الخفيفة التي تثير زوابع رملية صغيرة.

وكان يتعين فرش الزربية الكبيرة، والغطاء الصوفي الذي يستخدم كسرير بالنسبة لي، وتعليق الدلوة الندية في أبعد مكان ممكن عن الجدران الساخنة التي تصدر منها حرارة أشبه بحرارة فرن.

وفجاة، في صمت الزاوية، أحدثت أصوات الأبواب وصريرها وصراخ سعيد وأصوات ثغاء مختلطة جلبة كبيرة.

ـ عاد الحراك! أعيد الحراك!

إنه قطيع الماعز العائد للزاوية، والذي كان قد سرقه بدو مؤخراً. كانوا من بربر آيت خباش، وقادوا القطيع المسروق باتجاه الغرب ب(...)

وهناك لامهم مولاي أحمد الصوفي الكبير وسيد البلاد على تلك السرقة، قائلاً:

ـ يعود القطيع إلى زاوية مقدسة ومبجلة. إنه ملك الفقراء واليتامى وأبناء السبيل، الذين يجدون جميعاً ملجأ بقنادسة. إذا كنتم تريدون أن تحل عليكم رحمة الله عليكم أن تعيدوا القطيع.

وهكذا أعاد آيت خباش القطيع.

كان الحساني شاباً متوسط القامة، أمرد الوجه، رقيق العظم، مفتول العضلات، وكان يرتدي ثوباً صوفياً، أبيض ونظيفاً جداً، وقد لفّ رأسه في الطرشة، وهي عمامة

صغيرة دائرية، واحتذى نعلاً من نعال البدو الرحّل تربطه بقدميه قطع جلدية مستطلية تمر بين الأصابع. وكانت ملامح وجهه الدقيق والشاحب تبرز بوضوح وتوحي بهمّة وذكاء مشفوعة بابتسامة ساخرة ترتسم عادة على شفتيه الرقيقتين. والحساني معروف بأنه رجل بارود.

وبينما كان زنوج بودنيب يتبادلون التحية والعناق مع إخوانهم في قنادسة، بقي البربري جالساً قرب الحائط وبندقيته من نوع وينشيستر بين فخذيه. كان غير مبال، وصامتاً.

وحضر سيدي إبراهيم ليسألني إن لم يكن يزعجني أن يقيم معي الحساني ومولاي الساهل أحد سودان بودنيب.

أبداً! وافقت من فوري. وحدثني الصوفي مطولاً عن البربر قائلاً:

ـ إذا ما أردت في يوم من الأيام أن تذهب باتجاه الغرب سيكون البربر، وخاصة بربر آيت عطا، أفضل مرشدين لك. وعندما يقول لك أحدهم: «أنت تحت إصبع الله وتحت إصبعي وسأضمنك»، يمكنك أن تذهب معه إلى أي مكان يريد أن يقودك إليه، وستعود سالماً إلا إذا متما معاً. لا يخون البربر أبداً عهداً قطعوه.

ثم أضاف الصوفي:

ـ والآن، إذا ما أردت الحكم على نباهة هؤلاء القوم راقب حركات الحساني الذي مايزال في الباحة.

ألقيت من أعلى السطح نظرة عبر إحدى الفتحات على الباحة المملوءة بالعبيد وبالقصوريين في غدوهم ورواحهم من أجل التعرف على المعز. وكان الحساني غير المبالي بكل تلك الجلبة ما يزال جالساً مكانه. فقد أدى مهمته، وكان ذلك يكفيه.

قام سيدي إبراهيم ونادى البربري قائلاً:

ـ تعال التحق بنا يا بني، ومرّ عبر السطح.

قام البربري مبتسماً. ألقى بندقيته على كتفه، وطوى برنسه كرزمة ألقاه عند أقدامنا بحركة رصغ قوية.

وفحص للحظة السور المشيد من الطوب الأملس والذي يرتفع إلى ستة أو سبعة أمتار.

وفجأة قفز برشاقة قرد وتشبث بأظافر يديه وبقدميه العاريتين بخشونة لم أميزها من قبل، وتقريباً بوثبة واحدة كان على حاجز السطح.

أما أنا فقد بقيت مشدوهة. كيف فعل ذلك؟

خاطبته قائلة:

ـ السي الحساني، في الحقيقة من الأفضل أن يكون المرء صديقك على أن يكون عدوك، لأنه لا يوجد مكان يستطيع المرء الفرار منك إليه؟ فالأسوار غير موجودة بالنسبة لك.

ابتسم البربري، ورد بلطف كبير:

ـ مولاي محمود، كل أولئك الذين يخدمون سيدي محمد بن بوزيان هم إخوتي وأصدقائي.

كان يتحدث اللغة العربية بلكنة خفيفة لم تكن مع ذلك لكنة البربر الآخرين.

كان الحساني يتحلّى بطباع هادئة وعفوية رجل يعرف قدره، ويشعر بأنه واثق من نفسه. أما مولاي الساهل، رفيقه الأسود الذي اكتفى بأن صعد عبر السلالم، فقد كان يتحدث بلغة بربرية ويضغط عليها ضاحكاً. واستجابةً لرغبة رفيقه أكثر من التبجح حكى لنا الحساني مغامرة حدثت معه قبل ثلاث سنوات:

ـ أردت أنا وإخوتي بآيت عطا أن ننتقم من أهل أحد القصور الواقع على طريق تافيلالا. طردنا في البداية القصوريين. ولما دنا الليل أردنا احتلال قصبة صغيرة معزولة ومحكمة الإغلاق. تسلقت السور لأذهب وأفتح الأبواب. وعند وصولي إلى القمة، ولما أردت النزول إلى الداخل، باغتني هجوم شنه أربعة أو خمسة من القصوريين كانوا مختبئين في الباحة وأمطروني بوابل من رصاص بنادقهم ومن الحجارة. أردت أن أستقر على قمة السطح لأطلق الرصاص بارتياح على أولئك الكلاب غير أني أحصرت بسن دعامة من ثنيات سروالي[1]. عندئذ شرعت وأنا معلق في الهواء ويداي محررتان في إطلاق الرصاص. أنا متأكد من أني قتلت اثنين من القصوريين كانا مسلحين ببندقيتين. أما الآخرون فقد هربوا وقفزوا من السور المقابل ليفروا في الخلاء وتكفل رفاقي بقتلهم في الحلفاء. وفي داخل القصبة كان هناك

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

القمح المطحون، وقِرب من الزبدة وخزان بارد وتمر لذيذ. وقد أعددنا وجبة جيدة كمكافأة على عنائنا.

حكى لنا الحساني هذا وكأنه حادثة طريفة ومن دون أهمية في حياته كمتسلق للأسوار.

تركنا سيدي إبراهيم.

وتمدد رجلا الغرب المرهقان على الزربية وجعلا بندقيتيهما أسفل برنسيهما المطويين وقد استعملاهما كوسادتين. وسرعان ما غطا في النوم. وبقيت مستيقظة وحيدة في الصفاء المنتشر للغرفة المضاءة بضوء القمر.

سيرحل أولئك المسافرون غداً، وسيمرون مثل ظلال عجيبة في حياتي، بحركات حربية من دون صوت. فكرت في دُمى أقل جمالاً بخيوط أقل صلابة. تصورت الحساني يقنص في الفراغ وسط مدرج ضم العديد من عاشقي الفن الأوروبيين الذين يصفقون له، وقد جلسوا على مقاعد مخملية قرمزية يمضغون الحلوى. وفكرت أيضاً في ما قاله لي سيدي إبراهيم. فحدثت نفسي بأنه سيكون من السهل في الحقيقة الذهاب ذات يوم مع رجال مثل هؤلاء، وأن أطوف بحلمي وعطشي كشخص مجهول عبر الزوايا المغربية، في بودنيب وتافيلالا، وباتجاه الأماكن البعيدة لتيزنيت، هنالك عند بوابة الصحراء الكبرى الفارغة...

الباحثون عن النسيان

اكتشفتُ محششة للكيف في ذلك القصر حيث لا يوجد حتى مقهى مغربي، وليس للناس من مكان يجتمعوا فيه إلا الساحة العمومية، والمصاطب الترابية عند أقدام الحصون على طريق بشار.

كانت تشبه بيتاً خرباً تقريباً خلف الملاح في حجرة طويلة مضاءة بـ«عين» وحيدة وسط السقف ذي الروافد المدخنة والمشدودة. وكانت الجدران سوداء عليها سحليات واضحة جداً أشبه بجروح. وعلى الأرضية المغبرة قليلاً، والتي نادراً ما كانت تكنس، قشور الرمان وبقايا أشياء مختلفة.

ويصلح ذلك المكان الغريب كمأوى للمشردين المغاربة، وللبدو الرحل، ولمختلف الأفاقين، وذوي المظاهر السيئة. ويبدو وكأن البيت ليس في ملكية أحد.

كان مثل فندق مشبوه حيث يقضي المرء بعض الليالي السيئة. وبدا كأنه شيّد من أجل مسرح مثير للإعجاب بما يشبه قاعة انتظار قبل القيام بفعل جرمي.

في إحدى الزوايا حصيرة نظيفة مع بعض الوسائد الفاسية من الجلد المطروز. وعلى الحصيرة صندوق عربي كبير زيّن برسوم زاهية ويستخدم كمائدة. وهناك أيضاً شجرة ورد ذات أزهار وردية شاحبة علقت على حزمة من أعشاب الحدائق المبللة في جرة كبيرة من التل زينت برسوم دقيقة وزخارف. وفي مكان أبعد كانت هناك غلاية نحاسية ثلاثية القوائم، وإبريقان أو ثلاثة أباريق شاي، وقُفّة ملئت بالقنّب الهندي الجاف. كان ذلك كل المنظر والترتيب في النادي الصغير لمدخني الكيف، هؤلاء الناس الذين يحبون بساطتهم.

كنت على وشك أن أنسى وجود مجثم من سيقان الجريد عليه نسر مصطاد، مربوط بقائمته.

في بعض الأحيان يلتحق البرانية (الأجانب) المتسكعون الذين يقيمون في ذلك المكان، بمدخني الكيف الذين يشكلون تجمعاً صغيراً منغلقاً جداً يصعب الدخول إليه، وهم مسافرون أيضاً يحملون أحلامهم عبر تجوالهم في بلاد الإسلام، ويتجمعون في قنادسة، وينتمون إلى أعلى مراتب المتعلمين.

كان الحاج إدريس، وهو رجل فيلالي طويل القامة، هزيل، أسمر البشرة، ذو وجه مضيء كما لو أنه مضاء بنور داخلي، أحد المتسكعين من دون عائلة، ومن دون مهنة قارة، وهم كثر في العالم الإسلامي. فمنذ خمس وعشرين سنة يتسكع من مدينة إلى مدينة خاملاً ومتسولاً بحسب المناسبات.

كان يعزف على الكنبري وهو قيثارة عربية صغيرة بوترين شدا على قوقعة سلحفاة بقبضة خشبية منحوتة.

وللحاج إدريس صوت جميل وحزين وصاف يجعله يغني الأغاني الأندلسية القديمة ذات الألحان الحزينة والرقيقة جداً.

وهناك السي محمد البحراوي، وهو مغربي من مدينة مكناس، ببشرة شاحبة وبعيون مداعبة. وكان ما يزال شاباً. وهو شاعر متسكع عبر المغرب والجنوب الجزائري، باحثاً عن الأساطير والأدب العربي. ومن أجل أن يعيش، يؤلف ويستظهر أبياتاً حول لذات وعذابات الحب.

أما الآخر، فقد قدم من جبل زرهون، وهو طبيب وساحر، قصير القامة، وصلب مفتول العضلات، ببشرة مدبوغة بشمس السودان حيث سافر خلال سنوات طويلة، ذلك أنه تشرد مع القوافل من الساحل السينغالي حتى تومبوكتو. ويمضي سحابة يومه في تحضير الأدوية وتقليب صفحات كتب الطلاسم المغربية القديمة.

وجمعت الصدف أولئك الرجال بقنادسة، وسيرحلون عنها في اليوم الموالي، وسيتفرقون في الطرقات المتعاكسة. وكل منهم يرحل بلامبالاة مطلقة باتجاه نهاية قدره.

جمعتهم وحدة أذاوقهم في ذلك الملجأ المدخن حيث تمضي ببطء ساعات حيواتهم الخالية من الهموم.

وفي المساء، دخل شعاع مائل ووردي من الفتحة في ظل القاعة. وتجمع مدخنو الكيف، والعمائم مزينة بأغصان الريحان. اصطفوا على طول الجدار مقرفصين على حصيرتهم، وأخذوا يدخنون غلايينهم الصغيرة.

يملأ الحاج إدريس الغلايين ويوزعها بعد أن يمسح أنابيبها على خده بعناية كمظهر من مظاهر الأدب. وعندما يفرغ غليونه، يأخذ بمهارة كرة الجمر الصغيرة، والتي تبقى في العمق، ويضعها في فمه، لم يكن يشعر بالاحتراق، ثم يملأ الغليون. ولن يطفأ أبداً ذلك الرماد الحارق، وهو ما يسمح للفيلالي ليعيد إشعال الموقد الصغير، على امتداد الساعات. وكان شديد الذكاء، بروح رقيقة ثاقبة، ولطيفة حد ثمالة دائمة، ومفكرة (...) وبذهول بطيء وناعم والذي (...) في أوروبا حيث مدعي الفضيلة المثيرين للشهوة.

... يغني الباحثون عن النسيان، ويصفقون بخمول، وتعلو أصواتهم الحالمة في ساعات الليل المتأخرة، على الضوء المتراقص لمصباح ذي مربعات من الحجر اللامع. ثم، وشيئاً فشيئاً، تنخفض الأصوات، وتغدو أكثر بطئاً، وأكثر ضيقاً. وأخيراً، يصمت مدخنو الكيف، ويركزون أنظارهم على ورودهم في انتشاء.

إنهم محبون للحياة، ومحبون للذائذ، ولربما هم حكماء، ويدركون في عرين المتشردين المغاربة الأسود كيف يميزون الآفاق الساحرة، وتشييد مدن رائعة، حيث السعادة.

أماسي قنادسة

بعد صلاة العصر، ومنذ حوالي الساعة الرابعة، بدأت الشمس تنزل على تلال المغرب الحجرية.

وزفرت الأرض الساخنة وهنَ النهار الشديد. ومرت الساعات السيئة للحذر والإرهاق. عندئذ شعرت بإحساس من الراحة يشبه الإحساس الذي يتركه خطر تم تجنبه، أو كابوس بعد الاستيقاظ، ورحت رفقة عبد إلى البساتين التي تفصلها الجدران الصغيرة، التي يتعيّن تسلقها.

ليس في قنادسة بساتين نخل كبيرة ورطبة مثل تلك الموجودة في فيكيك أو بشار. فالبساتين تمتد في قلب الصحراء وتصارع بعناء ضد اجتياح الرمال البطيء والمعاند وضد جفاف الحمادة القاتلة المجاورة. هي سلالات من النخيل، خمس أو ستّ متحدرة من أرومة واحدة، وحيث الظلال الأخف للأشجار المثمرة المحملة بالفواكه ناعمة الملس التي تسقط في السواقي الشحيحة المحاذية للحقول الصغيرة المذهبة التي سبق أن حُصد فيها محصول الشعير الهزيل.

في محاذاة الجدران حيث حرارة الشمس ليست بتلك الحدّة، وبين أكوام الكرمة الملتفة غصونها على أشجار النخل والرمان وتحت أشجار التين العريضة والمنخفضة، هناك أماكن ظل ورطوبة لذيذة.

وفي أماكن متفرقة برك خضراء كبيرة تمتلئ بمياه سواقي الري الصغيرة. وتطلق ضفادع الواحات الصغيرة والكثيرة جداً غناءها الحزين.

ويقوم مزارعون سود في غالبيتهم، مقابل خُمس المحصول، بزراعة البساتين ويعيشون فيها أياماً طويلة وسط الأشجار، وهم بارعون جداً في تزيين فوضى مزارعهم الساحرة. وجميعهم يزرعون الزفور[1] ذات الأزهار البرتقالية التي تستخدمها النساء من أجل صباغة الأقمشة والتخضب. ويضيف بعضهم شجيرات برية ذات عناقيد طويلة رهيفة من ورود خبازية اللون ونجميات بنفسجية تنمو في وديان الصحراء. وهناك

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

أيضاً دغل كبيرة لورود ذات أوراق كثيرة يطلق عليها ورد الشام.

ويسارع المزارعون المضيافون إلى تحضير الشاي. ويحملون في طيّات برانسهم الترابية ثمار مشمش صغيرة مذهبة ولوزاً: فضيف الزاوية مرحّب به عندهم.

وذات مساء، أحضر لي أقدمهم، وهو مغربي متقدم في السن من قبيلة السجاع مقوس الظهر، بوجه ضامر، باقة من الرمان وربطة بصل كهدية.

ـ أنظر، إن أزهار وفواكه بستاني ليست وفيرة. وأنا شيخ فقير وليس عندي غير هذا أمنحك إياه ترحيباً بك. إقبل هذه الخضار القليلة، فالله موزع كل الأرزاق! إقبل هديتي المتواضعة وسامحني...

لم أجرؤ على رفض تلك الهدية البسيطة والمؤثرة مخافة أن أحرج البستاني المسنّ والذي كان ينظر إلي بعينين مسكينتين وخجولتين، كما لو أنه مدين لي بنتاج بستانه.

وعلى ضفاف السواقي ينمو النعناع والريحان في الظل. كان زرعاً شاحباً ومصفراً. ومع ذلك فهو يفوح بروائح شديدة نفاذة وتحلق رائحته في الجو الذي كان ما يزال حاراً، مع روائح نباتات أخرى أكثر رقة يشق وصفها.

ألفيت في بساتين قنادسة الهدوء والسكينة الناعمة للبساتين الصحراوية الأخرى، ولكن من دون «شيء ما» ضاغط بشكل غامض، كان روح بساتين النخل العميقة والغابات.

مال النهار، وغاصت الأشجار في لون السماء القرمزي. وخرجنا من البساتين حيث كانت روائح الحمى على وشك الصعود.

وتمددت ظلال بنفسجية كبيرة على الصخور التي أضحت تحت نيران الشمس الأخيرة.

مشاهد ساحرة لأماسي الجنوب اليومية، التي لا تتشابه أبداً. لحظة حزينة وتقريباً مكدرة ! وفجأة، نشعر بالصحراء تعتم وتنغلق كما لتبقي الدخلاء فيها إلى الأبد.

وعلى الدرب الذي يحاذي الحصن كانت نساء القصر يقصدن عين سيدي

أمبارك. وبدت أثوابهن في ضوء الشمس الغاربة، مصطبغة بألوان ذات كثافة غريبة، ولمعت الأقمشة بروعة، وأضحت أشبه بنسيج بروكار ثمين. ومن البعيد يمكن القول بأن القصريات يلبسن حرائر نادرة جداً مطرّزة بالذهب والجواهر. ولما كن يشعرن بعض الشيء بلطفهن فقد كُنّ يهتجن وتمتزج مجموعاتهن بتناغم الألوان الشديد الذي يتغير من دون توقف، مثل قوس قزح متحرك.

وبعضهن، وهنّ سودانيات، أو بدويات خاصة، كنّ يأتين بحركات واضحة، في أوضاع بيّنة، مع انحناءات أصلابهن وتقوّس أذرعهن من أجل رفع قواريرهن ذوات العروتين الثقيلة والمملوءة على أكتافهن. ومنهن من لها وجه جميل بتقاسيمه وتعابيره وبحساسيته الخجلى، مع شراسة في النظرة، وفجأة تلتمع ابتسامة ينطلق معها أوار الحواس بحرية.

وفي فتور الهواء انتشرت رائحة جلد ندية ورائحة القرفة.

ويأتي رجال زنوج أو من البدو الرحل من دوي مينيا ومن أولاد جرير ومن أولاد ناصر لإرواء خيولهم.

وبينما كان العبيد السود يضحكون ويمزحون مع النساء اللائي لم يكلفن أنفسهن حتى عناء إخفاء ذلك، كان رجال ينظرون إليهن من أطراف عيونهم مع ومضات خاطفة من جفونهم السمراء.

كم من حبكة غرامية نُسجت هناك قرب عين سيدي امبارك، بينما كانت الجياد المتعبة تمد مشافرها إلى نبع المياه الجوفية المنعش!

وبحركات سريعة وبنظرات خاطفة كان البدو والنساء يتفاهمون ويقيمون وعوداً مضطربة في ساعات الليل المناسبة.

وهناك أيضاً بعض الشعر لقصص الحب العربية، حب البدو الرحل الذي ينتهي في الغالب الأعم في الدم المراق.

واليهوديات الأقل رقابة والأكثر وقاحة يفاتحن الرجال بحرية موزعات غمزات مستفزة من أسفل جفونهن المحمرة بفعل الدخان اللاذع للجريد الجاف، في دكاكين الملاح الصغيرة.

هي الساعة الحرة والسعيدة حيث تثرثر النساء البعيدات عن سلطة الرجال الضاغطة ويضحكن ويلعبن لعبتهن الخطيرة، لعبة الحب الأبدية.

غجر الصحراء

أحب أن أسجّل طبع الأعراق المحلية شديدة التنوع والتي يدرك أفرادها كيف يحافظون على أنفسهم بصفاء تقريباً.

هاكم على سبيل المثال نساء غريبات، حتى هنا، يصلن إلينا من إحدى معسكرات دوي مينيا أولاد سليمان، ويُقمن منذ بضعة أيام عند سفح البرقة شرق لالة عيشة.

فالمنياعة أطول وأنحفً من القصراويات وأصلب تحت أثوابهن ذات اللون الأزرق القاتم. وأناقتهن الصعبة تتشكل مما يمكن أن نسميه «فن ارتداء الأسمال»

فكما تبدو المرأة المزدانة بحلي وبريق ووشاحات وعدة زينة الرأس، وتفصيلات الألبسة، والتصنع وروائح نفاذة، وكل فن الخياطة، يمكنها أن تظهر كأنها رزمة من الخرق، كذلك ما تبديه غالبية اليهوديات في الجزائر، اللواتي تخلين عن لباسهن التقليدي ليعوضنه بلباس على الطريقة الفرنسية. وعلى العكس من ذلك تبدو نساء البدو النهّابين اللواتي يلبسن أثواب الصوف بمظهر خشن يماثل بعض المظاهر الرياضية. ولربما كنّ نساء إفريقيا الوحيدات اللواتي يعرفن كيف يمشين بخطوات بيّنة. وتبدو الأثواب البائسة التي تغطي عريهنّ ملتصقة بأجسادهنّ السمراء. وعندما تزيد الريح العاتية في إبراز نحافتهن وتطبق لباسهن على الأشكال العصبية لسيقانهن، يظهرن مثل ذئبات هزيلات تحت سماء من نحاس وفي شحوب الأراضي الميتة، حتى ليظنّ أنهن آتيات من عصور غابرة، وأنهن يحملن هن أيضاً إلى المغارة نصيبهن من غنيمة الحرب . . .

على أن عمليات التهجين البربرية شوّهت بعض الشيء نوع وجوههن الدقيق والمدبوغ، غير أنها ما زالت تحتفظ ببعض التعابير الساميّة، والتي يبدو أنها ورثت عن آسيا الضارية. أتصور أن محاربات سميراميس كان لهن ذلك التناسق من دون رقة البشرة، وعيون مماثلة، طويلة وعسلية مثل تلك الكلاب السلوقية السوداء.

ولأولئك النساء حركات لم أرها لدى النساء العربيات، وبدرجة أقل لدى البربريات، فهن يمسن من دون خجل، ومن دون تمايل أمام رجال القبائل الأخرى. ويبدو أنهن لم يعرفن أي دلال. ومع ذلك فابتسامة شفاههن الحمراء، أقوى من

الحساسية السودانية ومن الملاطفات الشفاهية اليهودية.

وبالنسة للرجل الجنوبي فاليهودية نجسة. ولم يلاحظ البدو أبداً الجمال الأبيض السقيم بعض الشيء لبنات الملاح. العرقان يتجاوران ويتسامحان من دون أن يختلطا أبداً أو حتى يتقاربا، فالراعي والنهّاب يحتاجان عادة لليهودي، ويمكنهما أن يتشاجرا معه بقسوة، لكن ما إن تمر لحظة تجارتهما حتى لا تبقى هناك أية فائدة أخرى، أو أية فكرة يمكنها أن تجمعهما.

نساء دوي مينيا أولئك هن غجريات الصحراء مع بعض الأشياء الطارئة. فهن ذوات جمال فظ، يسمح بأن يُرى عبر ثقوب أثوابهن ذات اللون الترابي. والفقر بالنسبة لهن شيء طبيعي، وهو ليس انحطاطاً، وهن يتصورن أن كل الترف يأتي من جمال حصان أو من مقبض خنجر.

في الملاح

بعد أن جن الليل، وفي وقت متأخر، بدأت الأصوات المتداخلة تصمت شيئاً فشيئاً قرب العين، في صمت الوادي الأكثر اتساعاً الذي يوشك أن ينام.

وحل الليل البنفسجي على الأرض التي سكنت أخيراً.

مروراً بباب الحصون.

هناك يوحي لي الملاح دوماً بانطباع على أنه فانوس سحري كبير. وأقصد ذلك المكان كأني أقصد عرضاً لأرى رقص أجساد في النار.

وأمام أبواب بيوتهن ارتجلت اليهوديات مواقد يطبخن عليها وجبات المساء في القدور الكبيرة الشبيهة بقدور الساحرات.

وألسنة اللهب الطويلة المنبعثة من الجريد اليابس والاحمرار الكامد لنيران من زبل الإبل تنير الواجهات المطلية بالجير والجدران المقامة بالطوب والتي تأخذ لوناً باهتاً للذهب الأحمر ولوناً وردياً محتدماً.

وتهتز أجساد بيضاء مثل أشباح، وتتراقص ظلالها على المنازل المنخفضة وعلى الرمال حيث تتعدد انعكاسات حمراء كالدم.

وينتظر الرجال ممددين على الأرض أو مشغولين بوميض بقايا الشمع المدخن وبأعمال دقيقة.

ويلعب الأطفال، ويمرون عدة مرات في الموجات المضيئة فيبدون كأنهم يساريع. وفي بعض الأحيان تقوم يهودية جميلة أمام الموقد وتتمطى بتعب ورشاقة في هالة النيران الحمراء التي تغطي كل جسدها بضوء وردي يصبغ شحوبها الضامر بلون قرمزي مزيف (. . .) بريق عينيها الكبيرتين الزرقاوين بجفون ثقيلة.

وميض هارب، والتماع الحليّ المضيء، وأشكال بيضاء، أشبه برؤى منعتقة من حلم. . . وملاح قنادسة المقزز نهاراً فقراً وقذارة على نحو مزمن، كل ذلك يبدو لي جميلاً في ساعة الليل الأولى تلك مثل زاوية في بعض المناطق البهيجة، وقد فتنتني النار الملتهمة والقوية.

. . . تغني يهودية بصوت ضعيف لطفلها الذي يبكي بحدة محاولة أن تجعله ينام، وينهق حمار بحزن في اصطبل مجاور. وقد تأخر الوقت فدخلت اليهوديات إلى بيوتهن، وانطفأت النيران أمام الأبواب المغلقة.

وفي البعيد رفع المؤذنون أصواتهم بنداءاتهم الحزينة بشكل يتعذر سبر غوره، وأنهى السلام المخدر للإسلام محو المشاهد الأخيرة للملاح المتحول.

ملاحظة

نلاحظ هنا انقطاعاً في النص، ذلك أن إيزابيل إبرهارت مرضت، ومن المحتمل أنها كانت مصابة بالملاريا. وفي كتاب «في ظل الإسلام القائظ» أضاف فيكتور باريكون بخط يده بعد أن أعاد تركيب الفصل بشكل عميق «. . . بعد وقت قصير، صرعتني الحمى، وألقت بي إلى أحلام غريبة».

* * *

ترقص زنجيات ذوات أجساد رقيقة ومرنة، وقد غمرهن نور مائل إلى الزرقة. وفي وجوههن الليلية لمعت أسنانهن في ابتسامات فريدة. وكن يغطين أجسادهن الضامرة في ثياب حمراء وزرقاء وصفراء كبريتية طويلة تلتف وتتكور على الإيقاع الغريب لرقصهن وتهزها الريح حتى تغدو في بعض الأحيان شفافة مثل البخار.

وترفع أياديهن المعتمة الصناجات الحديدية المزدوجة الخاصة بالاحتفالات

السودانية. وتضرب الصناجات تارة إيقاعاً متوحشاً وتارة أخرى، تصطدم من دون صوت تقريباً.

. . . غير أن الزنجيات ينفصلن شيئاً فشيئاً عن الأرض، ويرتفعن في الهواء.

وتتمدد أجسادهن وتتصلب وتغيّر أشكالها، وتحدث زوبعة تماماً مثل رمال الصحراء في ليالي الشرقي. وأخيراً يتلاشين في ظل روافد السقف المدخنة.

فتحت عينيَّ بعناء، ومددت بصري على الأشياء. كنت أبحث عن المخلوقات الغريبة التي كانت ترقص معي قبل لحظات.

رأيتها، وأنصت لقهقهاتها الشبيهة بقهقهات خرساء، وأحسست بجبهتي تحترق بالأنفاس الحارة التي تصدرها أثوابها. كانت قد اختفت تاركة لي ذكرى قلق يتعذر وصفه.

أين هن الآن؟

بحثت روحي المتعبة عن مخرج من الدائرة حيث كن يحلّقن منذ ساعات أو منذ قرون. لم أعد أعرف.

بدا لي وكأني عدت من هوة سوداء حيث تعيش كائنات، وحيث تتحرك أشياء خاضعة لقوانين مختلفة عن تلك التي تحكم عالم الواقع. أصابت الحمى رأسي، وحاولت بألم أن تطرد تلك الأشباح التي تسكنها.

*
* *

كان صمت مطبق يعم الزاوية المثقلة بالنوم. إنها ساعة منتصف النهار القاتلة. ساعة السرابات وحُمّى الاحتضار. وكانت الحرارة تمتد على الأسطح المتأججة وعلى الكثبان التي تتألق من بعيد.

مددوني على حصيرة في معزل يفضي إلى السطح العالي، وتفتح الغرفة الصغيرة مشرعة على السماء الرصاصية وعلى الصحراء الصخرية والرملية التي كانت تحترق تحت الشمس.

وعلى عارضات الجريد التي تسند السقف علقت قربة صغيرة ذات عروتين من جلد التيوس أخذ الماء يقطر منها ببطء في صحن نحاسي وضع على الأرض.

وتتساقط القطرات كل دقيقة محدثة رنيناً على الصفيحة واضحاً ومنتظماً برتابة

دقات ساعات مستشفى أو سجن، وتسبب لي ذلك الصوت بألم حاد كما لو أن القطرة المعاندة كانت تسقط على رأسي المشتعلة.

وكان يقرفص جواري عبد سوداني مُحزّز الخدّين بمشجات عميقة. وكان يحرك في صمت طاردة ذباب من شعر الذنب صُبغت بالحناء مثل ذيل حصان استعراض.

كنت أنظر إلى العبد، وخلال لحظات طويلة كأنها سنوات تخيلت الارتياح الذي كنت لأشعر به عندما يزيل الصحن بعد أمر مني، وعندما ستسقط القطرة الأخيرة على الأرضية محدثة صوتاً بلا رنين. غير أني لم أكن أستطيع الكلام، واستمرت القطرة في التساقط دوماً، مرددة صوتاً قاسياً على النحاس المصقول.

وتلاشت دعامات السقف أمام عيني. وكان الجريد في تلك اللحظة ذا زرقة فضية أخذت تتمايل وتحدث حفيفاً فوق رأسي.

وحول الجذوع المدببة لأشجار النخل، تحت الأوراق المقوسة، دوالي عنب صغيرة وخضراء جداً، وأشجار رمان ذات أزهار تنزف في الظل.

كنت مستلقية في ساقية على أعشاب مائية طويلة رخوة ومطوقة مثل خصلات الشعر. وكان الماء المنعش يتدفق على طول جسدي، واستسلمت بلذة إلى المداعبة الرطبة.

وكان جدول صغير يغني في متناول فمي. وفي بعض الأحيان، ومن دون القيام بحركة، كنت أتلقى الماء البارد بين شفتي. كنت أحسه ينزل في حلقي الجاف، وفي صدري حيث ينطفئ شيئاً فشيئاً لظى العطش الذي لا يطاق. الماء، الماء الكريم، الماء المبارك للأحلام اللذيذة!

استسلمت للرؤى العديدة، وللانتشاءات البطيئة لجنة المياه... كانت هناك برك خضراء شاحبة تحت أشجار النخل اللطيفة، وأعداد لا تحصى من الجداول الصافية، وشلالات خفيفة تجري على صخور غطيت بالزبد السميك، وفي كل مكان آبار تصر ناشرة في الجوار كنوز الحياة والخصوبة...

وفي مكان ما في البعيد ارتفع صوت. كان صوتاً أبيض يصرخ في الصمت. وكان الصوت آتياً من آفاق مجهولة عبر الاخضرار والأفياء الخالدة.

أزعج الصوت راحتي. ومجدداً فتحت عينيَ على غرفة العزل الصغيرة.

كان الصوت حقيقياً، واستمر في الارتفاع. فقد كان رجل المسجد يعلن عن صلاة منتصف النهار.

وهكذا رفع العبد الذي كان يرعاني سبابة يده اليمنى، مظهراً وحدانية الله، وهي المهمة النبوية لمحمد. ثم قام وغطى جسده الأبنوسي الطويل بأثواب بيضاء.

صلّى. وفي كل سجدة، كانت كوميته، خنجره المغربي الطويل ذو النصل المعقوف وذو الغمد النحاسي المصقول، تلمس الأرضية. كان يقول: «الله أكبر» ويسجد واضعاً جبهته على التربة، وقد ولّى وجهه جهة مكة.

تابعت بعيني حركات العبد البطيئة.

عندما انتهى السوداني من صلاته عاد إلى مكانه جواري، وأخذ يهز مجدداً طاردة الذباب الطويلة من شعر الذنب المائلة إلى اللون البرتقالي.

صعد بخار لافح من السطوح التي غرقت في الهواء الساكن والثقيل مثل معدن مذاب. ولم يكن هناك من نسمة، ولا من هبة. بلّل العرق ثيابي البيضاء وأحسست بثقل يجثم على صدري، وبعطش حارق، ظمأ فظيع ما كان هناك شيء يستطيع أن يهدئه. كان يلتهمني. وكانت أطرافي مهشمة وموجعة، ورأسي ثقيل يتقلّب على الكيس الذي كنت أستخدمه كوسادة.

بلل العبد خرقة من النسيج الموصلي في وعاء مملوء بالماء وأخذ يرطب وجهي وصدري، ثم قطر في فمي بعض قطرات من الشاي المنعنع الفاتر.

زفرت، مادة ذراعي المخدرتين.

اختفى صوت المؤذن في القصر المرهق بفعل الحرارة، وحلقت روحي مجدداً باتجاه مناطق غامضة تسكنها رؤى غريبة حيث تسيل المياه المباركة.

ومضى النهار المحتدم في الإشعاع الوردي للوادي وللتلال. وخلف سبخة الملح، التمعت أشجار النخل مثل شموع كبيرة سوداء.

عاود المؤذن نداءه الحزين. وكنت قد استيقظت تماماً في تلك اللحظة، وفتحت أجفان عينيّ المرهقة والمتورّمة بلهفة على روعة المساء.

وفجأة حل بروحي حزن غير محدود، واجتاحني أسى صبياني.

كنت وحيدة، وحيدة في ذلك المكان المفقود في الأراضي المغربية، ووحيدة في

كل مكان عشت فيه، ووحيدة في كل مكان سأذهب إليه، دوماً. . . لم يكن لي وطن، ولا بيت ولا أسرة. . . مررت مثل غريب ودخيل ولم أثِر حولي سوى النبذ والإبعاد.

كنت أتألم في تلك الساعة، بعيدة عن كل نجدة، وسط رجال يشهدون بكل هدوء خراب كل ما يحيط بهم، ويعقدون أذرعهم أمام المرض والموت قائلين: «مكتوب!»

لا أحد يفكر فيّ ويتألم لألمي في أي بقعة على الأرض.

ولما صرت أكثر صفاءً وأكثر هدوءاً احتقرت ضعفي وابتسمت.

إذا ما كنت وحيدة، أليس ذلك لأني أردت أن أكون كذلك في الساعات الواعية حيث سمت فكرتي فوق كل حساسية القلب الجبانة والجسد العاجز أيضاً؟

أن أكون وحيدة، معناه أن أكون حرة، والحرية هي السعادة الوحيدة الضرورية لطبيعتي.

وهكذا خاطبت نفسي قائلة بأن الوحدة كانت شيئاً جيداً.

تحركت لفحة ساخنة باتجاه الغرب، لفحة حمّى وقلق. سقط رأسي المتعب على الوسادة، وانمحى جسدي في خدر لذيذ تقريباً، وأضحت أطرافي أكثر خفة كما لو أنها غير واعية.

وحلّ الليل الصيفي المعتم والمرصّع بالنجوم على الصحراء. وتركت روحي جسدي وحلقت مجدداً باتجاه البساتين المبهجة، والأحواض الكبيرة المائلة إلى الزرقة في جنة المياه.

صور قوية

في التعب السعيد الكبير الذي سقطت فيه لم تعد لدي القوة لأفكر بانتباه. اختلطت الصور في روحي على نحو عابر جداً. هي لمحات وظلال لونية شفافة. وفجأة، تحددت الملامح وارتسمت أمام ناظري مشاهد كنت قد نسيتها.

ولساعة كاملة رأيت نفسي مجدداً في عين صفرا. ذهبت لأبحث عن ملاحظات في كرّاسة، وأخذت أقلب صفحاتها مثل صور طفولية تتوالى على سرير مريض. . .

كان في أحد المقاهي المغربية، وسط حشد أسمر فسيفسائي، جندي مخبول.

رأيته بوضوح شديد. . . لا شك في أنه كان منتشياً بعض الشيء. وها هو يشرع في الغناء، وسرعان ما يهيمن صوته علي بقية الأصوات الأخرى. توقف فجأة وترك جبهته تسقط على صدر جاره.

أخذ الجندي الصغير يبكي وهو يقول:

ـ أنظر يا عبد القادر، هل ترى طيور القمري في القفص هناك؟ أنا أبكي من أجلها لأنها ذكرتني بمنزل والدي في فريندة. لدينا هناك أيضاً قمريات مصطادة. . . وها أنا أبكي لأني لن أراها مجدداً. مات والدي، ولا شك أن الطيور ماتت أيضاً. . .

تغير المشهد.

ففي شارع مقفر يفضي إلى كثبان تيوت الصغيرة كان الجنود يذهبون في جماعات تحت الأنفاس الحارة لرياح الشرقي.

تشنجت أياديهم الصلبة منذ عدة أشهر، في الليالي السيئة، والمضاجع الفردية. وألقاهم عذاب الشبق الرهيب الظامئ عبر الشارعين المقفرين لجنان الدار في البحث المستحيل عن امرأة لاحتضانها.

سقط الكثير منهم في حب الثكنات وسجون الأشغال الشاقة المؤلمة.

وهم الآن يذهبون لإرواء غريزة الحياة المستبدة التي تريد أن تدوم أبداً، ويقصدون الماخور الحزين الذي تجلده رياح الصحراء. . .

الساعة الثامنة. يقف بعض الجنود أمام المنزل العمومي، ذلك أنهم لم يتمكنوا من الدخول لعدم وجود مكان. كانوا يصرخون ويضربون الباب بقبضاتهم وأقدامهم فيكاد ينقض نتيجة ضغطهم الهائل.

وفي النهاية، تردد في الداخل صوت أحذية عسكرية واطئة.

وارتفع صراخ سعادة همجي من المجموعة. ورأيت مرة أخرى هناك جنديي الصغير، ذاك الذي كان يبكي بعض الظهر على طيور القمري التي كانت في القفص.

كان يفك حزامه وسط القهقهات. . .

موسيقى الكلمات

وعاودتني الحمى.

من أجل تركيز أفكاري المترنحة، أردت تدوين بعض الحِكم التي تركها سيدي

إبراهيم، صوفي قنادسة، تسقط أمامي. غير أن الكلام[1] أخذ يرتعش بين أصابعي وأخذت حروف كلماتي تفيض وتتماوج وتزحف على الجدران. هي حروف حية ومنذرة، والتي ما إن هدأت فجأة حتى أخذت تغني بصوت قديم وعذب:

«اللعنة على العالم وعلى أيامه، لأن الحياة وجدت من أجل الألم... لكن... يا للدهشة! فالحياة عدوة للناس وهم يحبونها!»

كلا، ليست فكرة خلوة، فكرة باردة، بل هي موسيقى لذيذة. فهي تقتحمني وتصدر عن إحساس عميق، كما لو أن روحاً معينة تحدثت إلى روحي لتقول لي: «إنسَي!»

وهكذا بدت روحي وكأنها كأس تفيض لما امتلأت بهذه الكلمات:

«يتدفق العالم باتجاه القبر كما يتدفق الليل باتجاه الفجر!»

غير أني أعرف موسيقى أخرى، أيها الصديق البعيد، مهدهدات لطيفة جداً ومغرية جداً حد أنك عندما تغنيها لمحبوبتك، ستقهقه في وجهك، ذلك أن محبوبتك لم تصب أبداً بالحمى، وهي لا تعرف شيئاً آخر سوى أن تنظر إلى نفسها في مرآة صغيرة، وتغمز بعينيها برقة وتزم شفتيها.

ومع ذلك، أعلمُ أن لها شعراً غامق اللون وأجمل ابتسامات العالم، ابتسامات الذكاء، وهي تدرك من أطراف أسنانها. وعندما تنقلب عيناها انتشاءً، وتحفر هالة زرقاء جفنيها، لا تعتقد على الأقل أنها تحبك، فهي رعشة صغيرة لأنانية على حافة الهاوية.

ولماذا ستحبك، أنت الذي يُعتبر الحب بالنسبة له، كما هو بالنسبة لي، مجرد معاناة شغوفة، بينما هو بالنسبة لها فرح خفيف؟ ومع ذلك، غنّ لها لترى ابتسامتها، أغاني مهدهدة ألفت من أجل عشيقات أخريات يشبهنها.

ذلك المساء صعدت حتى قلبي أغاني الحب الحزينة تلك، موسيقى الكلمات تلك، المحمولة في صمت الزاوية... وعلى الرغم من كل محاولاتي للانتباه لم أكن أرى شفتي ذاك الذي كان يغنيها تتحركان.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

كان مسافراً، ذاك الذي قال لي: «أنصت لهذه الموسيقى القادمة من مصر.» ثم كانت عيناه بعد ذلك هما من حدّثاني. أجل، لا شيء آخر سوى عينيه القاتلتين:

«لم ينخفض نظري أبداً أمام تهديد السيف الهندي، وأمام بريق عيني حبيبتي السوداوين اضطرب نظري، وانحدر إلى الأرض.

مثل عين عقاب، لم تفتتن عيناي أبداً بالشمس، وحيّرت نظرة حبيبتي عقلي ونظرتي.

ومع ذلك، وبقدر ما كانت في حضوري، حتى وهي منيعة، كنت سعيداً، فمع أن الإنسان الفاني لا يمكنه الوصول إلى النجوم، إلا أن تأمُّل ألقها يكون لطيفاً بالنسبة له.

والآن، وهي ليست هنا، يفر عقلي وتسيل دموعي من قلبي إلى عيني، وتسقط من عيني على الرمال».

أردت أن أنام على تلك الأصوات، منصتاً لذاك الذي كان يسهر عند وسادتي، وأولئك الذين يغنون فوق جيادهم إلى جواري، عندما كنا نعبر صباحاً الحمادة المشرقة:

«اجعلني أعرف أين صارت حبيبتي

هل هي حية أم ميتة؟

إذا ما تذكرتني، وإذا ما بكت، سأموت من أجل ذلك ـ وهكذا ستغسل دموعها جسدي.

وإذا ما نسيتني، وإذا ما ضحكت، وإذا ما لعبت، وإذا ما فكت ضفائر شعرها، سأموت من أجل ذلك ـ وهكذا سيصير شعرها كفناً يدثرني».

قوى إفريقيا

تركتني الحمى على نحو متقطع. غير أني ما أزال مرهقة، ومن دون رغبة في الحركة. لم تصلني رسائل منذ مدة طويلة. ولم أعد أنتظر أياً منها. وعملت على تدوين انطباعاتي حول الجنوب، وضلالاتي وإحصاءاتي من دون أن أعرف إن كانت الصفحات التي ستكتب ستثير اهتمام أي شخص أبداً.

أردت امتلاك هذا البلد، فامتلكني. أتساءل في بعض اللحظات إذا ما كانت أرض

الجنوب لن تجلب إليها كل الغزاة الذين سيأتون مع أحلام جديدة بالقوة والحرية، مثلما شوّهت القدامى.

أليست الأرض هي التي تصنع الرجال؟

ما الذي ستؤول إليه الإمبرطورية الأوروبية لإفريقيا في بضعة قرون، عندما تكمل الشمس عملها البطيء في دم الأعراق الجديدة من حيث التمثل الإفريقي، والتكيف مع الإيقاعات العميقة للجو والأرض؟ في أي وقت يمكن لأعراقنا الشمالية أن تقول لنفسها بأنها محلية مثل أفراد القبايل الشقر، والقصوريين ذوي العيون الشاحبة. تلك أسئلة عادة ما تشغلني. سأفكر فيها فيما بعد، وسيجيب عنها أناس آخرون.

هناك شيء واحد أحسه حقيقياً بشكل عميق، وهو أنه من غير المجدي الصراع ضد قضايا عويصة وغير قابلة للتبسيط، وأن من المستحيل القيام بعملية نقل للحضارة على نحو دائم.

أتنفس الانبعاثات الإفريقية في الليالي الحارة مثل بخور يتصعد دوماً باتجاه آلهة غامضة ومتوحشة. لا أحد يمكنه أن ينكر تماماً هذه الآلهة. فهي ماتزال تبدو وحشية في أماسي الحمى لكل أولئك الذين يضعون ثيابهم على الأرض ليناموا عليها، وأعينهم تحدّق في النجوم الباردة.

المغرب

أي ارتياح يصل حد اللذة عندما تميل الشمس، وعندما تتمدد ظلال أشجار النخل والجدران، وتزحف وتهيمن الأنوار الأخيرة على الأرض!

تتلاشى اللامبالاة الكئيبة التي تتملّكني خلال ساعات الانزعاج في النهار، ومن جديد أنظر إلى الروعة اليومية لمنظر قنادسة الذي أضحى مألوفاً، والذي يتميز بجمال بسيط، بخطوطه الواضحة وألوانه الدافئة والشفافة في الآن عينه، والتي تزيل بغتة رتابة المناظر الأولى، بينما تغرق الأبخرة الشفافة الأماكن البعيدة.

لطيفة هي ومجزية تلك الولادة الجديدة للروح كل مساء.

في البساتين تنساب الساعة الحارة الأخيرة للنهار بالنسبة لي بلطف في تأملات هادئة، وفي أحاديث خاملة، تقطع بلحظات صمت طويلة.

ساعة المغرب، عندما تغيب الشمس، نذهب من أجل الصلاة إلى الحمادة، التي تقع قبل المقابر الكبرى، وقبة لالة عيشة السعيدة التي يتقزح بياضها.

كل شيء هادئ، والكل يحلم ويبتسم في تلك الساعة الفاتنة.

تمر النساء بأقدام عارية قاصدات عين سيدي امبارك، بينما يتمازح الرجال وهم شبه مستلقين على الأرض.

ويعلو صوت همس كبير ذلك الركن من الصحراء الذي يهيمن عليه القصر والبرقة.

وعند انتهاء الصلاة يبقى الرجال جالسين على البرانس المفروشة، والأصابع تنقر السبحات السوداء، والسبحات الحمراء... وبأصوات خفيضة ترتل الشفاه الصلاة على النبي.

... أن يكون المرء سليم البدن، وطاهراً من كل دنس، بعد اغتسال كبير بالماء المنعش، وأن يكون بسيطاً، وأن يؤمن، وألاّ يكون قد شك أبداً، وألا يكون قد صارع ضد نفسه، وأن ينتظر من دون خوف، ومن دون نفاد الصبر، الساعة الحتمية للخلود، - فذلك هو السلام فعلاً، والسعادة الإسلامية - ومن يدري؟ لربما هي الحكمة حقاً...

صحيح أن الساعات الرتيبة تمضي هناك بلطف ساقية في السهل وهدوئها، حيث لا شيء ينعكس، سوى بعض السحب التي تحدث بخاراً كثيفاً وتمضي من دون أن تعود.

... وشيئاً فشيئاً، أحس الأسى والرغبات تخبو في داخلي. وأترك روحي تطفو في الغموض وإرادتي تهجع.

خدر خطير ولذيذ يقود بشكل غير محسوس ولكن بثبات إلى عتبات العدم.

تلك الأيام وتلك الأسابيع التي لم يحدث فيها شيء، ولم نقم فيها بشيء، ولم تتم فيها حتى محاولة القيام بأي جهد، وحيث لم نتألم، وما كدنا نفكر، هل يتعيّن شطبها من وجودنا، وإبداء الأسف على فراغها؟ وبعد الاستيقاظ المحتوم، هل يتعيّن على العكس من ذلك الندم عليها كما لو أنها الأفضل في كل حياتنا؟

ما عدتُ أعرف.

وبقدر ما يتدفق في دمي الإحساس بالإسلام القديم الساكن، والذي يبدو هنا أشبه

ما يكون بتنفس الأرض نفسها، وبقدر ما تمضي أيامي الهادئة، كانت الحاجة إلى العمل وإلى الصراع تبدو لي أقلّ يوماً بعد يوم. وأنا التي كنت منذ وقت قريب جداً ما أزال أفكر في الرحيل، ودوماً إلى أماكن بعيدة، وكنت أتمنى القيام بذلك، بلغتُ، من دون أن أجرؤ إلى الآن على الاعتراف بذلك لنفسي بشكل صريح، حدّ الأمل في أن النشوة الراهنة والحذر الحالي يمكنهما أن يستمرا إن لم يكن دوماً فلمدة طويلة على الأقل.

ومع ذلك كنت أعلم جيداً بأن حمى التسكع ستعاودني، وبأني سأرحل. أجل، أعلم بأني ما أزال بعيدة جداً عن حكمة الناسكين والزاهدين المسلمين.

لكن الذي يتحدث في داخلي، وما يقلقني، وما سيدفعني غداً مرة أخرى في طرقات الحياة، ليس الصوت الأكثر حكمة لروحي، ولكنها تلك الروح المتقلبة التي تبدو لها الأرض أكثر ضيقاً، والتي لم تعرف كيف تجد في نفسها عالمها.

أن ينتهي المرء في سلام بعض زوايا الجنوب وسكونها، يعني أن ينتهي بترديد صلوات منتشية من دون رغبات ومن دون أسف، قبالة الآفاق الرائعة.

وفي العمق، ستكون تلك النهاية المرجوة عندما سيحل الملل وخيبات الأمل، بعد سنوات.

الرحيل

استيقظت لآخر مرة فوق السطح، على نداء المؤذن الأجش ممتداً في قلب الليل.

كان الجو منعشاً، والجميع نياماً.

استيقظ البربري الحساني، والزنجي مولاي الساهل. كان عليهما أن يرحلا ذلك الصباح مثلي تماماً، ولكن في الاتجاه المعاكس.

سأصعد إلى بشار، إلى ونيف، ومنها سأقصد عين صفرا لأتلقى العلاج فيها بقية فصل الصيف بحيث يمكنني أن أستفيد من المواكب الأولى لفصل الخريف.

يستعد رفيقاي أيضاً للذهاب إلى بودنيب، ويريدان أخذي معهما، وأريد أن أحظى بالقوة لأتبعهما. قال لي البربري:

ـ فكر جيداً يا السي محمود. ما يزال لديك الوقت. سنسير لمدة شهر كامل.

وسنعبر بلاداً حيث ستكون لديك فرص متعددة لرؤية العديد من الأشياء، وأن تتعلم. سنصعد الغوير، وسنذهب حتى تافيلالا أو حتى تيزنيت. . . وحيثما ذهبنا ستستقبل كأخ لنا.

الإغراء قوي جداً. . . لكن في حال الرحيل هكذا، بالضعف الذي كنت عليه، ومن دون إذن ومن دون أن أعلم أحداً. . . ألن يتم تأويل رحلة الدراسة وحب الاطلاع على نحو خاطئ؟ وبخلاف رغبتي انقدت لسلوك الطريق إلى بشار.

كم ستكون رحلة العودة هذه مختلفة عما كانت عليه في الذهاب، عندما كنت أمشي باتجاه بلد مجهول!

ـ كلا يا لحساني، لا أستطيع. سيحدث ذلك لاحقاً، بعد بعض الوقت. سأعلمك عندما أستطيع ذلك.

ـ فلييسر الله مشاريعك!

كان هناك زنجيان آخران، سيذهبان راجلين، يجلسان جامدين مستندين إلى الجدار، وقد وضعا بندقيتيهما على فخذيهما. وكانا لا يكادان يفهمان اللغة العربية، ذلك أنهما ولدا ونشآ على طريق فاس، لدى آيت إيشخوشن، الأكثر خشونة والأكثر انغلاقاً من بين البربر كافة.

احتفظ أحدهما بصمت شرس، وكان يرمقني بنظرات خفيضة. فلم أكن في نظره بطبيعة الحال إلا منبوذاً ومزانياً ملعوناً.

وبأمر قصير من الحساني أسرج الزنجيان الحصانين. وبإشارة بالإصبع دلني رفيقاي في الزاوية على اتجاه الغوير التي يتعين عليّ سلوكه. على أنهما لم يتركاني بغتة وأعلنا أنهما سيرافقانني بعض الطريق ثم يعودان أدراجهما. خاطبني الحساني قائلاً:

ـ سنذهب معك حتى مدخل المقابر.

خرجنا وأنا أحسّ بغصة في حنجرتي من فرط التأثر حتى كدت لا أتمكن من الرد على الكلام الموجّه إليّ. ومع ذلك كان يتعيّن علي أن أحتفظ بجنان الرجل حتى النهاية.

توقفنا بين شواهد القبور الحادة المغروسة في الحقل كألواح في الطين القاسي والتي تحدّد طول القبور البارزة، حيث نادراً ما تتعثر خطوات الأحصنة المعتادة، ترجلنا كما يحدث عادة عند لحظة افتراق الأصدقاء، ثم تعانقنا ثلاث مرات.

ـ إذهب إذن في سلام وأمان الله!

ـ جوزيت خيراً!

ركبنا أحصنتنا ورحلنا في اتجاهين معاكسين فذهب الحساني باتجاه الغرب غير المكتشف حيث رغبت كثيراً في أن أتبعه، ومضيت أنا باتجاه خيبة أمل المناطق المعروفة.

ومن قمة تلة تبعت بنظري لمدة طويلة رجال بودنيب الذين كانوا يبتعدون، قبل أن يختفوا أخيراً وسط تيه الكثبان وتحت الشعاع الوردي للنهار الذي أخذ يشرق، ومعهم تلاشى في داخلي آخر بصيص للأمل: لمدة طويلة قد لا أستطيع أن أتوغل أبعد من ذلك في المغرب.

وبينما كانت فرسي تتقدم بخطوات بطيئة كانت نظراتي الآسفة تتيه في الوادي، الذي ألفيته في طريق ذهابي جميلاً جداً في البساطة الرائعة لشمس فصل الصيف. ولأني كنت أعود للخلف، ولربما لأن منفى طويلاً يبدأ بالنسبة لي، بعيداً عن الصحراء المحبوبة، فقد ألفيت اليوم البلد عادياً جداً، وتقريباً منفراً مُلئ بألف حد حيث لا يعلق أي شعاع. وتلاشى سحر كبير.

عندئذ، ضغطت بغضب شديد على جانبي فرسي البيضاء، وانطلقت في ركض مجنون، فجففت رياح الصحراء عينيّ المبللتين.

ملاحظة

ظل هذا النص المعنون بالجنوب الوهراني ـ الجزء الثاني، غير منشور تماماً حتى وفاة الكاتبة، وندين به للإرادة الحماسية التي أبداها ليوطي، الذي أمر جنوده بأن ينقبوا لأيام في أنقاض بيت إيزابيل إبرهارت. وبعد اكتشاف المخطوطات سلمها يداً بيد إلى

فيكتور باريكون الذي أهداها للجنرال في الكتاب المعنون: في ظل الإسلام القائض. فاسكيل سنة ١٩٠٦).

وأقحم فيكتور باريكون فقرات أضافها متذرعاً بالحالة السيئة لتلك الصفحات حيث «الحصان الأسود»، و«مأساة ساعات» و«نظرات إلى الخلف» و«أنفاس ليلية»، التي حذفناها من هذا الكتاب. من جهة أخرى، أعاد باريكون كتابة بعض الفقرات التي كانت غير صالحة للقراءة في مجملها في المخطوطات، وأعدنا نشرها بخط مائل.

اليوميات

اليوميات الأولى

كالياري، الفاتح من شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٠٠.

أجلس وحيداً في المدى الرمادي الشاسع للبحر الهامس... أنا وحيد... وحيد كما كنت دوماً في كل مكان، وكما سأكون دوماً عبر الكون الساحر الكبير، والمخيب... وحيد وخلفي عالم كامل من الآمال الخائبة، والأوهام الميتة، وذكريات تصير يوماً بعد يوم بعيدة، وتغدو غير واقعية تقريباً.

أنا وحيد، وأحلم...

وعلى الرغم من الحزن العميق الذي يجتاح قلبي لم يكن حلمي مكدراً أبداً أو خائب الأمل. بعد الأشهر الستة الأخيرة المتقلبة جداً وغير المتناسقة أشعر بقلبي منقوعاً إلى الأبد، وصار من الآن فصاعداً لا يقهر وقادراً على ألا يرضخ أبداً حتى عبر أسوأ العواصف، وعبر الدمار وكل الحداد. وبفضل الخبرة العميقة والدقيقة التي حصلت عليها (يا إلهي، بأي ثمن من المعاناة!)، بالحياة وبالقلوب البشرية، أتوقع جيداً السحر الغريب الذي ما يزال حزيناً جداً، والذي سيكون عليه الشهران القادمان اللذان سأمضيهما هنا حيث حللت بالصدفة، وبجزء أكبر نتيجة للامبالاتي الاستثنائية اتجاه الجميع، وكل ما هو بعيد عن عالم الأفكار هذا والمشاعر والأحلام التي تمثلها أناي الحقيقية، المحكمة الإغلاق على أعين الجميع الفضولية من دون أي استثناء.

ومن أجل العرض، أُبرز قناعي ذا البصمة الوقحة والفسق وعدم الاكتراث... لا أحد تمكن حتى اليوم من اختراق هذا القناع، ورأى روحي الحقيقية، تلك الروح الحساسة والصافية، والتي تحلق عالياً جداً فوق كل الوضاعات والخزي، حيث يروقني أن أجر جسدي، مزدرياً الاتفاقات، ومدفوعاً بحاجة غريبة للألم...

أجل، لا أحد استطاع فهم ما يوجد بهذا الصدر، الذي يبدو أن الحساسية وحدها هي التي تحركه، وحيث يخفق قلب معطاء، خاض في الماضي حباً ورقة، وهو مفعم الآن أيضاً بعطف غير محدود من أجل كل من يتألم بطريقة غير عادلة، ومن أجل كل ما هو ضعيف ومظلوم... قلب فخور وصلب منذور كلياً لقضية محبوبة... لهذه القضية الإسلامية التي لشدّ ما أرغب في يوم من الأيام أن أريق هذا الدم المحتدم الذي يغلي في عروقي من أجلها.

لا أحد يعرف كيف يفهم كل هذا، وكيف يعاملني على هذا الأساس، وللأسف، لا أحد سيفهم ذلك أبداً!

سأبقى إذن بعناد، ذاك العربيد والمنحرف ومحطم الصحون والذي يُثمل فصل الصيف رأسه المجنون والضائع في مدى الصحراء الفسيح، الفاتن، وفي هذا الخريف عبر بساتين الزيتون في الساحل التونسي.

من سيعيد لي الليالي الهادئة، والنزهة المتكاملة على متن الجواد عبر السهول المالحة لواد رير والرمال البيضاء لواد صوف...؟ من سيعيد لي الإحساس الحزين والسعيد في الآن عينه، والذي يجتاح قلبي كمهجور في مضاربي السديمية، وسط أصدقائي الطارئين. الفرسان الجزائريين أو البدو الرحّل والذين لا يشك أي أحد منهم في هذه الشخصية المكروهة والمنبوذة والتي ألبسني إياها قدري لتعاستي؟

من سيعيد لي أبداً نزهاتي المتفرقة على متن الجواد عبر قمم الساحل ووديانه في الهواء الطلق لفصل الخريف، والنزهات المثملة التي تجعلني أفقد كل معايير الواقع في نشوة رائعة!

في هذه اللحظة، وفي كل مكان آخر، وفي كل ساعة من حياتي، ليست لي إلا رغبة واحدة: أن أتقمص مجدداً بأسرع وقت ممكن الشخصية المحبوبة التي هي الشخصية الحقيقية، وأن أعود فعلاً إلى هناك، إلى إفريقيا، وأن أستعيد تلك الحياة... أن أنام في البرودة المنعشة، وفي الصمت العميق، تحت التداعي المدوخ للنجوم، سقفي الوحيد هو السماء اللامحدودة والأرض الفاترة سريري الأوحد... وأن أغفو يغمرني شعور ناعم وحزين بوحدتي المطلقة، موقناً أن ليس في هذا العالم مكان يخفق فيه قلب من أجل قلبي، وما من بقعة في الأرض، ولا كائن بشري،

يبكي من أجلي أو ينتظرني. أن أعلم كل هذا، وأن أتحرر من كل قيد ضارباً أطنابي في الحياة، تلك الصحراء الكبرى حيث لن أكون أبداً إلا غريباً ودخيلاً... تلك هي السعادة الوحيدة التي يمنحني أياه المكتوب، في كل مرارته العميقة، أنا الذي مُنِعت عليَّ السعادة الحقيقية تلك التي تسعى إليها البشرية جمعاء مبهورة الأنفاس...

إليكِ عني أيتها الأوهام والحسرات!

أية أوهام أحتفظ بها والحمامة البيضاء، التي كانت كل نور حياتي وعذوبتها، تنام منذ سنتين هناك، في الأرض، في مقبرة المؤمنين الهادئة بعنابة!

... عندما عاد فافا بدوره إلى الأصل الترابي، وعندما لم يبق شيء قائماً من كل ما يبدو دائماً، وعندما ينهار كل شيء ويفنى بفعل الوقت وبفعل الخلود!... وعندما فرقني القدر بشكل غريب وغامض عن الكائن الوحيد الذي كان قريباً جداً من روحي الحقيقية ليأخذ منها ولو انعكاساً شاحباً ـ أوغستان...

وعندما... لكن لا! فلندع كل هذه الأشياء الحديثة تنام.

ومن الآن فصاعداً، سأترك نفسي لأمواج الحياة المتقلبة تهدهدها كما تشاء... وسأتركني أثمل من كل منابع السكر من دون أسف، حتى إذا ما نضبت جميعها حتماً... تنتهي الصراعات والانتصارات والهزائم التي سأخرج منها بقلب مكلوم، ينزف دماً... وسينتهي كل جنون هبة الشباب!

أتيت إلى هنا فراراً من خرابات ماضيَ الطويل لثلاث سنوات، تقوّضت لتوها ويا للأسف في الوحل، وغاصت في العمق... أتيت إلى هنا أيضاً من أجل صداقة الرجل الذي قابلته بمحض الصدفة، والذي وضعه القدر على طريقي في اللحظة المحددة لأزمة ـ الأخيرة إن شاء الله ـ لم أستسلم لها أبداً، ولكنها تهدد بأن تمضي بعيداً...

والغريب أن ما لاحظته اليوم، وتسبّب لي بحزن غير محدود، تولّد منه تغيُّر مطلق في الإحساس من أجل...

تزايدت صداقتي... هذا أفضل! لكن لم يكن هناك من وهم أبداً، منذ اليوم الأول ومنذ الساعة الأولى!

أرى مرة أخرى أنني بدأت أضيع في ما يشق وصفه، في عالم الأشياء هذا الذي أحسه وأفهمه بشكل واضح جداً، ولا أعرف أبداً كيف أعبّر عنه.

مع ذلك، وعلى الرغم من أن حياتي لم تكن إلا نسيجاً من الآلام والأحزان فلن ألعن أبداً هذه الحياة التي يُرثى لها، وهذا الكون الحزين... حيث يجاور الحب الموت، وحيث كل شيء عابر ومتغير.

ذلك أن كلاً منهما منحني سُكراً عميقاً، ونشوة شديدة اللطف، والكثير من الأحلام والأفكار.

لن أندم على شيء ولن أرغب في شيء... سأنتظر.

وهكذا، بصفتي بدوياً من دون وطن آخر غير الإسلام، ومن دون أسرة، ومن دون أصدقاء حميميين، وحيداً أبداً في وحدة روحي العظيمة واللطيفة بشكل كئيب، سأستمر في طريقي عبر الحياة حتى تحين ساعة النوم الأكبر والأبدي في القبر...

محمود السعدي.

ويطرح مرة أخرى السؤال الأبدي والغامض والمقلق: أين سأكون؟ وعلى أية أرض، وتحت أية سماء في ساعة مماثلة بعد سنة؟ ... من دون شك سأكون في مكان بعيد جداً عن هذه المدينة الصغيرة من سردينيا... أين؟ وهل سأكون من بين الأحياء في ذلك اليوم؟

كالياري، التاسع من شهر كانون الثاني/ يناير.

انطباعات، ۱۹۰۰

الحديقة العمومية، حوالي الخامسة مساءً

منظر متقلب، وتلال ذوات حدود صلبة حمراء أو رمادية، وأخاديد عميقة، وأجمات من أشجار الصنوبر المائية والصبار الرمادي الكئيب، وخضرة وافرة، ومحيرة بعض الشيء في فصل الشتاء، وبحيرات شاطئية مالحة، وأسطح بلون رمادي رصاصي، ساكنة وميتة مثل سبخات الصحراء.

ثم في مكان عال جداً يبدو منظر مدينة تتسلق التلة المخددة والوعرة... حيث حصون عتيقة، وبرج قديم مربع ذو فتحات، وأشكال هندسية لأسقف ذات شرفات، والكل في لون أبيض محمر متماثل ينعكس على سماء نيلية.

وتقريباً في مكان عال هناك المزيد من الخضرة، وأشجار ذات أوراق ثابتة، وثكنات شبيهة في كل شيء بثكنات الجزائر، طويلة ومنخفضة ومغطاة بالقرميد الأحمر، وذات جدران، أزيلت ملاطاتها وتآكلت، وبلون ذهبي مثل باقي الأشياء.

والجدران المطلية بلون وردي محتدم، أو بالأحمر القاني أو الأزرق السماوي مثل البيوت العربية. . . وكنائس قديمة معتمة ومملوءة بالنقوشات وفسيفساء الرخام الباذخة في هذا البلد ذي البؤس القذر، وممرات مقببة حيث تتردد الخطوات بصلابة محدثة أصداء، ومتشابكة صعوداً ونزولاً، وفي بعض الأحيان مقطوعة بسلّم من الحجارة الرمادية. وبفعل غياب المرور في المدينة العالية فقد غطيت بعض البلاطات الصغيرة الحادة بأعشاب دقيقة هائجة ذات لون أخضر مائل إلى الصفرة تقريباً.

وتفتح أبواب على أقبية في مستويات دنيا حيث تعشش أسر بائسة في الظل وفي الرطوبة المزمنة، وأخرى في قاعات مقببة تفضي إليها سلالم خزفية.

ومتاجر عرضت فيها بضاعة قليلة بألوان فاقعة، وحوانيت شرقية صغيرة وضيقة ومسودة بالدخان تصدر منها أصوات غناء ممدودة. . .

وفي أماكن متفرقة، يقف شاب مستنداً إلى حائط، ويتحدث بإشارات مع شابة منحنية من أعلى شرفتها.

وبدو شدوا رؤوسهم بعُقُل تسقط حتى الظهر، ويرتدون سترات سوداء بالية ومثنية فوق سراويل من القماش القطني الأبيض، وهم ملتحون وسُمْر ذوو عيون غائرة بشكل عميق أسفل حواجب سميكة، وأجساد حذرة وشرسة، تشبه جبليي اليونان والقبايل بامتزاج ملامح غريب.

والنساء ذوات جمال عربي، بعيون سوداء جداً وكبيرة وفاترة ومفكرة. . . وبتعابير مستسلمة وحزينة لدواب مسكينة فزعة.

ومتسولون بأصوات منتحبة ومأتمية، يلاحقون الغرباء ويتبعونهم ويتحرشون بهم حيثما ولوا وجوههم. . . وأغان حزينة على نحو غير محدود أو لازمات أضحت أشبه بوسواس وقلق بشكل غريب، وأغان شعبية تشبه إلى حد الالتباس مثيلاتها في إفريقيا التي يذكر بها كل شيء ومع كل خطوة، ويدفع للحسرة عليها على نحو أكثر حدة.

كالياري، ١٨ كانون الثاني/يناير، الخميس، الساعة الخامسة والنصف مساء.

غريب أنه منذ أن صرت هنا في هدوء هذه الحياة الباعث على النعاس، والتي جعلتها الصدفة أو بالأحرى القدر في طريقي المغامرة على نحو مفاجئ، أضحت ذكريات الفيلا نوف تلازم ذاكرتي أكثر فأكثر على نحو غريب... الجيد منها والسيّئ على حد سواء... أقول الجيد ذلك أنه ينبغي أن أكون عادلة حيال العلبة البائسة ما دام قد انتهى كل شيء الآن ومضى... ولا ينبغي أن أنسى أنها كانت تضم طيبة أمي ولطفها، ونوايا فافا الحسنة التي لم تتحقق أبداً... وعلى الخصوص، كل العالم السديمي لأحلامي. كلا، لا لعنة على تلك الحياة الماضية، مهما كانت اللحظات المباركة التي لم أعشها فيها، وعلى الرغم من كل شيء، على الرغم من الأسر والملل والظلم! ومنذ أن غادرنا ذلك البيت بصفة نهائية حيث انطفأ كل شيء، وحيث مات كل شيء قبل أن يتحول نهائياً إلى خرابة، لم تعد حياتي إلا حلماً سريعاً وخاطفاً عبر بلاد متباينة، وبأسماء مختلفة، وبمظاهر شتى.

أعلم أن فصل الشتاء هذا الذي أمضيته هنا في هدوء كبير ليس إلا استراحة في هذه الحياة التي عليها أن تبقى حياتي حتى النهاية.

وفيما بعد، بعد أيام قليلة، ستعود الحياة الحقيقية التائهة وغير المتناسقة. أين؟ وكيف؟ الله أعلم! حتى إني لا أجرؤ على وضع افتراضات وفرضيات حول ذلك، لأنني حين عزمت على البقاء أشهراً عديدة في باريس ألفيتني في كالياري، في هذا المكان التائه من العالم الذي لم أفكر فيه أبداً، ليس أكثر من أي بلد آخر رأيته بعيني الشاردة على خريطة العالم المأمول.

بعد هذا، انتهت الافتراضات والفرضيات.

ومع ذلك هناك شيء يمتعني، فبقدر ما أبتعد عن حدود الماضي يتشكل سلوكي ويتأكد فعلاً مثلما أتمنى. وما يتطور في داخلي هو الطاقة الأكثر صلابة في الرأي، والتي لا تقهر أبداً، واستقامة القلب، وهما الميزتان اللتان أقدّرهما أكثر من غيرهما، والمؤسف أنهما ميزتان نادرتان لدى المرأة.

إضافة إلى هذا، ومع أربعة أشهر من الحياة في الصحراء، والتي من المحتمل جداً أنها ستكون في فصل الربيع هذا، أنا على يقين من أني سأصير شخصاً مهماً...

وفي الوقت نفسه، أني سأصل عاجلاً أو آجلاً إلى هدف حياتي المقدس. الانتقام! أوصاني فافا دوماً ألا أنسى المهمة التي أورثتنا إياها أمي، لي وله ولأوغستان. . . مات فافا، ولم يخلق أوغستان من أجل ذلك، وانخرط إلى الأبد في دروب الحياة المطروقة. . . ولم يبق أحد آخر سواي.

ومن حسن الحظ أن كل حياتي الماضية، وكل مراهقتي، ساهمت في جعلي أفهم أن السعادة الهادئة لم تصنع أبداً من أجلي، وأني وحيدة وسط الرجال مرصودة لخوض صراع ضارٍ ضدهم، وأني إذا ما أريد ذلك ضحية لكل القلق ولكل سوء الحظ اللذين عجلا في فقدان هذه الكائنات الثلاثة: أمي وفلاديمير وفافا.

والآن، تقمصت دوري. أعشقه أكثر من أية سعادة أنانية، وسأضحي من أجله بكل ما هو عزيز عليّ. سيكون هذا الهدف نقطة توجيهي عبر الحياة.

تخليت عن أن يكون لي في هذا العالم مكان، ورجل وبيت والسلام والثروة. لبست مجدداً الزي الثقيل في بعض الأحيان للمتشرد والشخص الذي لا يملك وطناً. تخليت عن سعادة العودة إلى الوطن، وإيجاد أناس عزيزين، والراحة والأمان.

في الوقت الحاضر أتوّهم أنني في هذا البيت المؤقت بكالياري حيث أنعم بإحساس لطيف سأرى كائناً أحبه فعلاً، وبات وجوده عندي بشكل غير محسوس، أحد شروط السعادة. . . غير أن هذا الحلم أيضاً سيكون قصيراً. وفيما بعد يتعيّن عليَّ من أجل القيام بجولات قاسية وخطيرة أن أعود وحيداً ومهجوراً في الهدأة المخدرة للحياة الزوجية.

غير أن هذا يجب أن يحدث، وسيحدث. وسيكون على الأقل في ليل حياة كهذه عزاء أن أعرف، ولو عند العودة، أنني ربما أجد صديقاً، كائناً حياً، سيكون سعيداً بأن يراني مجدداً. . . أو على الأقل فرحاً لذلك. . . ولكن هناك هذا الشيء المريع، الفراق الطويل جداً من أجل فسح المجال للقاءات. . . ولربما سأجد مجدداً في يوم من الأيام مكاني الذي أخذ مني. حتى إن هذا محتمل جداً نظراً لتلك الأفكار حول المراة والزواج. وسيكون غريباً جداً ألا يقابل أبداً الرفيقة التي تقتسم معه أفكاره المتناقضة تماماً مع أفكاري. آه، أعلم جيداً بأنه عندما سيكون تائهاً ومنفياً لن تتواجد تلك الرفيقة إلا إذا اكتفى بأن يعلم بأنه توجد زوجة في هذا العالم، وإذا ما أحبته، سترتعش من أجله في ساعات الخطر، عن بعد في مكان آمن جداً ودافئ جداً.

أما تلك التي هي مثلي فستكون هنا في اللحظات السيئة، حيث لا شيء سيوقفها، تلك التي لن يجدها أبداً.

لكن بعد أن تمر هذه المرحلة المؤقتة، سيؤخذ مثل أوغستان ومثل الجميع بحنينية الراحة وبيت الزوجية.

وفي ذلك اليوم يمكنني أن أستعيد تجوالي عبر العالم، مع الاطمئنان المحزن إلى إيجاد غرفة الفندق فارغة بشكل حتمي، أو الاستراحة أو الخيمة والتي تستخدم كمنفى مؤقت لحياتي البدوية. مكتوب[1]!

فلنستمتع باللحظة التي تمر وبالنشوة التي ستتلاشى في وقت قريب... فالزهرة لا تتفتح مرتين، ولا تسيل المياه نفسها مرتين في سرير الجدول عينه.

لمَ لا أثق بهذا الصديق؟ لمَ أحكم عليه قبل أن أراه على المحك وعلى الخصوص لمَ أنسب إليه أفكاراً عن الزواج والراحة المنزلية ليست أفكاره؟

ستكون حياته دوماً حياة صراع الأفكار النبيلة وسط كل الأفكار الأخرى، وفي كل الحالات سيكون دوماً جندي قضية الإسلام المقدسة، وسيكون منتصباً دائماً مثل صخرة وسط أنقاض انحلال أبناء وطنه.

كلا، لن يتزوج أبداً. ومع ذلك ستكون سعادته أن يريح رأسه كمنفي على نهد صديقة حقيقية.

ستكون سعادته أن يجد قلباً ينبض بتناغم مع قلبه، وأن تكون لديه عاطفة وروح رقيقة يسرّ لها بآلامه وأفراحه. تلك الصديقة، وذلك القلب، وتلك الروح، يعتقد أنه وجدها فيك. فلمَ الشك إذن؟

لمَ لا تنتهي الحياة البشرية مثل فصول الخريف الإفريقية بسماء صافية، وبرياح فاترة من دون تداع ومن دون نذير شؤم؟ (أوجين فرومونتنان. سنة في الساحل)

دُوّنت في كالياري في الفاتح من شهر كانون الثاني/يناير سنة ١٩٠٠، في لحظة حزن كبير، ومن دون أسباب واقعية.

---

(١) الكلمات أو الجمل المكتوبة باللغة العربية والمترجمة تسبقها علامة غ، أما تلك المكتوبة باللغة الروسية فبعلامة ٠، بحسب طبعة روني لويس دويون. الأصل.

كالياري، ٢٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٠.

Perché afrettar l'arrivo
Della giornara negra ?
....
Nei baei miei t'allegra,
O brevemento vivo ![١]

انتهى الحلم القصير للتأمل الهادئ في المدينة السردينية القديمة تحت سماء مفكرة ورحيمة، بشكل لطيف وفي منظر إفريقي جداً.

في الغد، وفي ساعة مماثلة، سأكون بعيداً جداًعن الصخور الكاليارية. سأكون هناك، في البحر الرمادي، الذي يهدر منذ عدة أيام...

في هذه الليلة تتردد في كالياري أصداء الرعد الذي يدوي... واليوم، أخذ البحر مظهره الأكثر شؤماً، بانعكاسات شبه زجاجية وداكنة... كل شيء انتهى هنا، وغداً سأرحل من أجل بدء صراع مشؤوم، صراع ضار سيستمر على قبر مغلق منذ أزيد من ثمانية أشهر طويلة، على حياة ألغيت وعادت إلى الغموض الأصلي...

وفي هذا المساء، أثناء حلول الليل الباهت، وفي مسكني البدائي المهجور الذي خرّبه الرحيل وأحاله إلى فوضى، أشعر بهذا الحزن العميق الذي يرافق تغيرات الحياة، وعمليات الفناء المتلاحقة، والتي تقودنا بشكل غير محسوس إلى الفناء النهائي الكبير.

كيف ستكون مرحلة حياتي الجديدة هذه؟

في يوم الثلاثين، في الساعة الرابعة والنصف، أخّر المكتوب رحيلي لبضع ساعات. غير أن الأفق أعتم أيضاً.

جنيف، ٢٧ أيار/ مايو ١٩٠٠، الساعة التاسعة والنصف ليلاً (الأحد).

مرة أخرى ها أنا أؤرّخ هذه اليومية الحزينة لهذه المدينة المؤذية التي تألمت فيها كثيراً، والتي أوشكت أن تودي بحياتي.

---

(١) هكذا جاء في الأصل، باللغة الإيطالية. المترجم.

أنا فيها منذ أسبوع فقط، وأشعر مع ذلك بضيق الماضي المرضي، وآمل أن أرحل عنها أبداً.

، تحت سماء خفيضة وغائمة أعدت رؤية البيت السيّئ الحظ المغلق والأخرس، والتائه وسط الأعشاب البرية كما لو أنه غرق في حلم جنائزي كئيب.

ونظرت إلى الطريق ثانية، الطريق البيضاء مثل نهر من الفضة الكامدة، والمستقيمة مثل سهم، تتجه صوب الجورا الكبير والحزين وسط أشجار مخملية كبيرة.

ورأيت قبرين في مشهد لا يقارن لهذه المقبرة الخائنة في أرض المنفى، والبعيدة جداً عن التلة الأخرى المقدسة للراحة السرمدية وللصمت المقيم...

أشعر بأني غريب بشكل مطلق وإلى الأبد على هذه الأرض التي سأرحل عنها غداً وأتمنى ألا أعود إليها أبداً.

في هذه الليلة المحيرة حزن يشق على الوصف، واستسلام مطلق في مواجهة القدر المحتوم...

أية أحلام، وأي سحر، وأية نشوة يخبئها لي القدر؟
وأية أفراح... مريبة، وأية آلام أكيدة؟
متى تدق أخيراً ساعة الخلاص، وساعة الراحة النهائية؟

نيسان/ أبريل ١٩٠٠، باريس.

رأيت في ليلة على ضوء النجوم والمصابيح المشوشة الأشكالَ البيضاء لصلبان مقبرة مونمبارناس ترتسم وكأنها أطياف في الظلمة المخملية للأشجار الكبيرة... ولم ينجح أبداً التفكير بأن كل الرائحة النفاذة لباريس التي تهدر في الجوار في إزعاج النوم المهيب للمجهولين الذين يرقدون هناك...

اليوميات الثانية

«باسم الله الرحمن الرحيم»

Gia non si deve a te doglia ni pianto
Chi si muori nel mondo nel ciel renasci. (١)

«كتابة على شاهدة قبر في مقبرة فيرنيي الصغيرة، في الرابع من شهر حزيران/ يونيو سنة ١٨٩٩، عند آخر زيارة لقبر فافا، يوم رحيلي عن جنيف.»

السلام على رمادكم، وعلى أولئك الذين
يرقدون هناك في الأرض الغريبة البعيدة، وعليك يا
من ترقد في التلة المقدسة فوق المد الأبدي للبحر
الأبيض المتوسط الأزرق...

«لست أنا من كتب، فيدي موجّهة من قِبلك
أنت يا من تحبني، وكل صوت نشاز سيعذبك في
راحتك...»
ما يزال كل شيء كما في الأيام الماضية...

ب. لوتي. زواج لوتي

---

(١) هكذا جاء في الأصل، باللغة الإيطالية. (عليك ألا تحزن وألاتبكي لأن من يموت على الأرض يولد في السماء). المترجم.

جنيف، ٨ حزيران/يونيو ١٩٠٠

عودة إلى مقبرة فيرنيي
حزن لامحدود.

تنام الروح مع عادة الأسفار، ذلك أننا نتعود على كل شيء، على المواقع الغريبة، والأكثر فرادة مثل الوجوه غير الطبيعية جداً. ومع ذلك، ففي بعض اللحظات، وعندما تستيقظ الروح وتستعيد ذاتها، نصدم فجأة بغرابة ما يحيط بنا.
ب. لوتي. زواج لوتي

... في التلة الجنائزية، هناك فوق الخليج الأزرق الكبير لعنابة التي لا تنسى، ترقد اليوم تحت أضواء النهارات الصيفية الحارة، والمنتهية بإفريقيا... قبور الرخام الأبيض والخزف المختلفة ألوانه. لا شك أنها تشبه الأزهار فاقعة الألوان وسط أشجار السرو السوداء الكبيرة، والكرم البري، ونباتات الغرنوقي الطويلة ذات الورود الحمراء أو الصفراء كالبشرة الشاحبة، وكروم البلاد البربرية...

... وأنا، في هذه اللحظة تحديداً، أعود إلى هنا، لفترة قصيرة جداً، إلى أرض المنفى. كنت جالساً على العشب الخفيض لمقبرة أخرى... أمام قبرين رماديين حيث نمت أعشاب الخريف البرية، أفكر في القبر الأبيض الإسلامي حيث ترقد الروح البيضاء... أفكر مرة أخرى في الغموض الكبير للحيوات الفانية في الطبيعة الثابتة... كانت العصافير تغرد، بريئة وهادئة فوق الرماد البشري المتزاحم هنا بأعداد لا حصر لها...

والشيء الغريب جداً هو أن يومياتي، وكل الملاحظات التي دوّنتها حتى الآن، يمكنها أن تتلخص في هذه الكلمات القليلة جداً، والبسيطة جداً: «فهي تقارير تعاد من دون توقف للحزن المنغلق الموجود داخل روحي، وداخل حياتي، وإشارات تزداد غموضاً، ليس للكائنات التي أقابلها، والأحداث التي ألاحظها، ولكن للأحاسيس الحزينة والكئيبة دوماً فقط، والتي تثيرها هذه الكائنات وهذه الأحداث داخلي».

كتابة غير مجدية، وجنائزية وبرتابة مخيبة للآمال.

تغيب عنها بصفة مطلقة لمسة الفرح، لا بل لمسة الأمل.

والشيء المعزي الوحيد الذي يمكن اكتشافه فيها فهو الخضوع الإسلامي المتزايد. . .

لاحظت أخيراً بداية اللامبالاة تحل على روحي اتجاه الأشياء والكائنات غير المبالية وهو ما يعني التأكيد الأكثر قوة لشخصيتي.

ألفيت أنه من الوضيع والمشين من قبلي أن أمنح كل تلك الأهمية أشياء بائسة ولقاءات غير مجدية، وغير ذات معنى. . .

وحتى الحقيقة التي انتهيت إليها هذا المساء - لعدم قدرتي الجذرية أن أكون جزءاً من تجمّع ما، وأن أكون مرتاحاً بين كائنات مجتمعة، ليس من أجل صدفة عابرة ولكن بسبب حياة موحدة، وحتى هذا التكريس للقدر، المستشعر منذ مدة طويلة، والذي يحكم علي بشكل مميت بالوحدة ـ حتى هذا الذي جعلني أتألم في الماضي بشكل وحشي، لا يحزنني[١] . . .

هل هذا أمر سيّئ بالفعل؟ أليس ذلك تعليماً من القدر، الذي يبدو أنه يريد في كل الأحوال السمو بروحي في الوحدة والألم؟

«. . . لكن المحنة هي محك الأرواح، ويعجز أولئك الذين لم يتألموا عن تحقيق أشياء عظيمة».

والآن، رغباتي واضحة بالنسبة لي على الأقل، فأنا أريد من الشخص الذي كتب تلك الكلمات التي استشهدت بها أعلاه، من الشخص الذي قالها لي بشكل مباشر ملء صوته في الأيام الأخيرة بباريس ـ يوم آخر اعتراف لي ـ أن يفهم ما قلته له وما كتبته له. . . وأريد بعد ذلك أن يمنحني بأسرع ما يمكن فرصة التصرف، وأن أقوم بتلك الأشياء العظيمة، التي يبدو أنها تثمله بعمق وبلذة، مثلما تثملني تماماً. . .

أريد أن أرى ذلك الشخص يبتسم كما يعرف وحده أن يفعل ذلك، وأن أسمعه يقول لي بالنبرة نفسها لليوم الذي فتحت له قلبي تقريباً: «هيا يا محمود، أنجز أشياء عظيمة وجميلة. . . كن بطلاً. . .»

---

(١) «اليوم، وبعد أربع سنوات من المعاناة، يحزنني ذلك على نحو أقل. الجزائر ٨ نيسان/ أبريل ١٩٠٤». (ملاحظة إيزابيل إبرهارت، بقلم الرصاص على الهامش).

والشيء الغريب أن كل تلك الأقوال العذبة عن الإيمان وعن المجد لا تُحدث رنيناً، بل إنها لم تحدث رنيناً مزيفاً في أذني أبداً مع أنها أليفة على لسان ذلك المثقف، الوحيد الذي لم أجد لديه أبداً مواربة أو نفاقاً أو عدم تفهم.

والحقيقة أن من بين كل أولئك الذين قابلتهم في طريقي كان هو، الذي توجد صورته أمامي، الأكثر سحراً، وكان سحره الأعلى والأجمل، فقد كان يتحدث عن الروح، وليس عن الحواس، وكان يمجد ما هو عظيم، ويُخمد ما هو وضيع وحقير... والحقيقة أن لا أحد أبداً كان له مثل قوة ذلك التأثير الكبير على روحي. لم يعرف أي شخص كيف يفهم وكيف يريح تلك الأشياء المباركة التي بدأت تبذر في داخلي ببطء، لكن بثقة منذ موت الروح البيضاء، حيث الإيمان والندم والرغبة في الكمال الأخلاقي، والرغبة في المجد المستحق بشكل نبيل، والترفع، واللذة المخزية لألمي، وزهدي، والظمأ للأعمال العظيمة والجميلة.

أحكم عليه وأحبه كما أعرفه حتى الآن، وسيخبرني المستقبل إذا ما كنت متبصراً، وإذا ما كنت قد فهمته كما هو في الحقيقة أو إذا ما أخطأت مرة أخرى. لا أؤكد أي شيء، ولكن لا شيء إلى الآن يتسبب في خلق الشك لدي. ومع ذلك أضحى حذري مريعاً ولا يقهر وخاصة منذ صامويل. يمكن لقضية النائب أن تكون محك هذه الروح. أنا متأكد من أن ما سيفعله سيقوم به من تلقاء نفسه من دون أن يسمح لنفسه بأن يتأثر بعبد العزيز أو بأي شخص آخر. ومن خلال ما سيقوم به بهذه المناسبة، يمكنني على الأرجح أن أحظى بالثقة التي بحثت عنها طويلاً.

أنتظر إذن، بكل نزاهة ووعي، الأحداث من أجل إصدار حكمي على هذا الرجل... وإذا لم أضل طريقي فإن لدي الكثير من الحظ من أجل الخلاص المعنوي.

وعلى النقيض من ذلك، وإذا ما قام هو أيضاً بالمواربة والمراوغة، يغدو مستحيلاً منذ تلك اللحظة أن أثق في أي من الرجال الذين سأعرفهم في المستقبل.

سينتهي الأمر، وسينتهي تماماً. وذلك أنه إذا ما اعتبرنا أن الصفاء يخفي القذارة. وأن ما يبدو لي جمالاً حقيقياً يغطي القبح، الذي قابلته كثيراً، وإذا لم يكن النور الذي أعتبره مفيداً لنجمة موجهة أو لمنارة في التيه الأسود للحياة إلا لعباً خادعاً موجهاً ليضل المسافر في أخطاء قاتلة ـ ما الذي سأنتظره بعد ذلك؟

لكن مرة أخرى، وحتى الآن، لا شيء، لا شيء مطلقاً يشير إلى هذا الاحتمال الوحشي... ومثلما أعرفه فقد لا يتسبب في آلام عظيمة، لكن في آلام جميلة... لربما يكون هو من سيرسل لي الموت، غير أنه لن يتسبب لي في ضغينة كبرى لخيبة أمل.

جنيف، ١٥ حزيران/يونيو ١٩٠٠.

ضعوا أنفسكم على الطرقات، وانظروا واسألوا عن الدروب القديمة، وعن الطريق القويمة. امشوا فيها، وستجدون راحة أرواحكم. (إرميا، IV، ٦)

في كآبة الوقت الحاضر مرة أخرى هناك حلم مرة أخرى، ومرة أخرى هناك نشوة جديدة.

كم ستدوم؟ متى سيقرع الجرس؟ وكيف سيكون الغد؟ ومع ذلك فذكرى هذه الأيام القليلة الأفضل والأكثر حياة ستبقى عزيزة علي إلى الأبد، ذلك أنها لحظات أخرى انتزعت من ابتذال الحياة المخيب للآمال، وبعض الساعات التي أنقذت من العدم.

لن أشعر أبداً بأني أنجذب إلى الأرواح التي تعاني من هذا الألم الكبير والكثيف، والذي يحمل اسم الاستياء من الذات والظمأ إلى المثالي، إلى ذلك الشيء الصوفي والمرغوب فيه، والذي يتعين عليه أن يحرق أرواحنا وأن يسمو بها إلى الطبقات الرائعة للآخرة... لن يجذبني أبداً صفاء الهدف المحقق. وبالنسبة لي فالكائنات الراقية فعلاً في هذا العالم مثلما هي عليه في أيامنا هذه هي تلك التي تعاني من ألم الخلق المستمر لأنا أفضل.

أكره من يرضى عن نفسه وعن مصيره وروحه وقلبه.

أكره التبجح البليد للبورجوازي الأصم والأبكم والأعمى، والذي لا يعود أبداً على أعقابه...

على المرء أن يتعلم كيف يفكر. هذا مؤلم وطويل ولكن من دونه لا شيء يُنتظر من ناحية السعادة الفردية، تلك السعادة التي لا يمكنها أن تصدر بالنسبة لكائنات

مشابهة إلا من وجود عالم استثنائي، عالم مغلق، ينبغي عليه أن يدفعنا إلى أن نعيش ونقنع.

. . . يستحيل أن لا أقول كم أزدري نفسي، وأني أكره نفسي على هذه الخاصية الخرقاء في سلوكي: الحاجة لرؤية الناس حتى وهم غير مبالين، وبأن أعهّر قلبي وروحي في شروحات مملة.

لماذا عوض أن أبحث في داخلي عن القناعات التي تحتاج إليها روحي أذهب لأبحث عنها لدى الآخرين، هناك حيث أنا متأكد أني لن أجدها؟

آه! لـمَ لا أستطيع إذن أن أتصرف ضد هذا، وأن أتخلص من حشو الكلام غير المجدي، والذي يقيد حياتي؟ فالتواصل الفكري مستحيل إلا مع بعض الناس القليلين جداً. وإذن، لـمَ البحث بشكل إرادي عن الخيبات؟

. . . من بين كل الناس الذين لا يتفقون معي أبداً على بعض النقاط الأساسية، الإيمان والحب إلخ، إلخ، هناك اثنان لا أستطيع إلا أن أحبهما من أعماق قلبي، ولا يمكنني أن أكون غير مهتمة بهما، هما أخي وفيرا.

وأتألم بصدق من أن هذه الأخيرة لا تفهم على سبيل المثال ما حدث، وأنها لا تصدق مع أني أقسمت لها بأن ذكرى تلك الأيام القليلة من الحميمية مع أرشافير، أيام تبعتها، كما قالت بالأمس، صداقة قريبة أو بعيدة مدى الحياة، ستبقى من أعز ذكريات حياتي.

أفكار أدبية

من أجل البدء، يبدو لي أن من الملح الاعتناء قبل كل شيء بالجانب الفني، وبالجانب الشكلي. رحيل المدافع عن القرآن ضد كل الأحكام المسبقة للعالم الإسلامي الحديث (لا أهمية). ورحيل أغنية الحب الأبدي، الجميلة القوام، تغني بجملها وتدغدغ بصورها، وتثمل على نحو فعلي أرواحاً محبة للذة أو عاشقة للفن فقط، والأمر في المجمل سيّان.

هي صورة مؤثرة لما أضحت عليه، وكل ما ستكون عليه، حياتي على الأرجح، حيث هذه اللافتة غرفة للإيجار، عند نافذة هذه الحجرة البائسة حيث أعيش وسط

سرير يطوى والأوراق وكتبي القليلة. هذا مثير للسخرية وحزين[1].

لا مكان من أماكن إقامتي العابرة يمكنه أن يظهر وحدتي العميقة بشكل أكثر وضوحاً، وهجراني المطلق وسط الكون الواسع. . .

يا لها من لحظات إحباط، وحزن ثقيل من دون سحر!

جينف، ١٦ حزيران/يونيو ١٩٠٠.

اليوم التالي الساعة الثالثة مساءً

بعد ليلة من الألم، صباح غريب. . .

أرى أني لا أستطيع أن أكتب في هذه اللحظة.

سأكتفي فقط بتدوين كلمات الوضع الراهن: رغبة فكرية خالصة في أن أعدّل سلوكي للأفضل، وأن أعمل. . . لكن من دون أي روح، ليس لسبب بيّن. . . كآبة.

أف! على الحياة وعلى الأيام لأنها خلقت من أجل الألم. لا يتوقف القلق أبداً ولو للحظة ـ لملك على الأرض أو لعبد.

أي دهشة للحياة ولكل ما له علاقة بها!
هي ذي عدوة للناس، والذين يحبونها!
تركتكم ولم يتوقف قلبي عن البقاء قربكم
وأضحى لطف الحياة بعد رحيلكم مرارة
وحال حجاب الفراق بيني وبينكم،
كما يحول القبر بين الحي والميت!

مكتبة
t.me/soramnqraa

وفجأة هو ذا فارس جزائري يرفع في خضمّ هذا الطفح من الخبل الصاخب كأس الشامبانيا، ويعلن هذا النخب غير المتوقع: ـ لأولئك الذين سقطوا في مكة وبوبديارا[2]!

---

(١) نبوءة: الجزائر ٨ نيسان/أبريل. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

(٢) رواية فارس جزائري. ملاحظة روني لويس دويون. الأصل.

. . . غريب جداً ذلك النخب الذي لم يخترعه كاتب ذلك النص، ولم يكن متوقعاً أبداً ذلك النخب الذي رفع! هل هو تكريم لذكرى أو مزحة مدنسة في حق أولئك الذين قضوا؟ . . . كان سكراناً جداً، ذاك الفارس جزائري الذي رفع ذلك النخب الجنائزي، وكانت عيناه المرجرجتان معتمتين.

اليوم نفسه

وأنا أكتب أول أمس هذه الكلمات في قصر من قصور واد إيغرغار البعيد أحسست بقرار الرحيل إلى ورقلة يولد فجأة في داخلي ويترسخ، مهما كلفني ذلك من ثمن، وأن أحاول مرة أخرى أن أحبس نفسي على امتداد أشهر في صمت الصحراء الكبير، وأن أعتاد على تلك الحياة البطيئة والحالمة لذلك المكان البعيد[1].

وفي المجمل، لا شيء يمنع ذلك.

توصلت إلى ذلك حتى من دون رسائل عبد العزيز، وستمكنني إمكانيات عيشي المتواضعة أن أعيش هناك بقدر ما يمكنني ذلك، وبقدر ما هي عليه رغبة العيش.

والغريب أني لم أستطع أبداً نسيان ما عانيته هناك، حيث الحرمان الغريب والمرض. . .

ومع ذلك سيكون ذلك بسبب الظروف المعادية فقط، ويروقني الآن هذا المنفذ كثيراً.

فهذه الحياة القاسية في الصحراء، والأقل إثارة للتعب مادمت لن أكون مضطراً للسهر ليلاً، ستساعدني في إتمام تكويني كرجل فاعل، ذلك التكوين الصارم، والذي يعدّ سلاحاً ضرورياً لوضعي. . .

. . . وأية لذات مريرة: الوداع هنا في البداية، مع فيرا التي أحبها من كل قلبي،

---

(١) «في ذكرى يوم التاسع عشر من شهر حزيران/يونيو هذا، اليوم المصيري. حيث تحدّد بطريقة غير واعية، لكن بكل تأكيد عن طريق الإلهام، مصيري، وكيف انبثقت من عتمات روحي آنذاك الطريق التي كان يتعين علي اتباعها، تلك الطريق التي كانت ستصل بعد أشهر من ذلك إلى حديقة بير الزلير، وإلى سليمان، وإلى التحاقي بالإخوان، وإلى بهيمة، وإلى الخلاص. مرسيليا، ٢٣ تموز/يوليو ١٩٠١، يوم الثلاثاء الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش.). الأصل.

والتي هي الكائن الأكثر إنسانيةً والتي يمكن للمرء أن يقابلها، ومع أرشافير الغريب والذي يمنحني في الآن نفسه لحظات شديدة الفرادة بمرارة وعذوبة غير محدودتين. . .

ثم في مرسيليا، المنظر الاحتفالي لصعود المركب والوداع مع ذلك الأخ الذي يدفعني للحياة في هذا العالم. . .

ثم الحج الحزين واللطيف بعنابة. . . التلة المقدسة حيث قبرها. . .

ثم باتنة، حيث العديد من الذكريات التي تحيل عادة إلى ذاكرتي الحنينية. . .

وبسكرة الحارقة حيث كنت أقضي في الماضي ساعات ساحرة جداً في المساء أمام المقاهي المغربية. . .

والطريق الوعرة والمحتدمة لواد رير القاحل. . .

وتوقرت الحزينة النائمة في كفنها الملحي فوق سبختها المعتمة. . .

ثم ورقلة المجهولة تلك، عند مدخل العدم الغامض للصحراء الكبرى لوادي واد إغرغار ذي الإسم الغريب الذي كان يدفعنا للحلم في الماضي. . .

«الأصدقاء مثل الكلاب: ينتهي الأمر معهم بشكل سيّئ دوماً، والأفضل ألا يكون للمرء أصدقاء». (أزيادي[1]).

وكذكرى لسوق الحالمين والعصار في تونس:

أن يكون المرء مراكبياً بسترة مذهبة في مكان ما من الجنوب التركي، هناك حيث السماء صافية دوماً، وحيث الشمس حارة دوماً. . . سيكون ذلك ممكناً في النهاية، وسأكون هناك أقل تعاسة مني في أي مكان آخر. (أزيادي).

ملاحظة دوّنت في جنيف يوم الإثنين ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٠٠

١٥ حزيران/يونيو ـ بقدر ما نذهب نصير أقل قدرة على أن نمثل كوميديا العالم المتعبة والتي يؤديها الجميع بشكل طبيعي جداً، ومن دون أي جهد إلخ. . (يومية الغونكور ت. إ. ب. ١٩٤ ـ ١٩٥).

---

(١) أزيادي هو عنوان أول رواية لبيير لوتي، ونشرت باسم مجهول سنة ١٨٧٩. المترجم.

جنيف، ٢٧ حزيران/يونيو ١٩٠٠ الأربعاء.

بعد حديث مهم مع فيرا أحسّ مرة أخرى، ولكن بعنف أشد، الحاجة إلى العمل ـ كثيراً ـ على الحقل غير المزروع تقريباً، وشبه الأجرد لعقلي، والذي هو متخلف جداً عن حقل روحي.

فتطوير هذا العقل عمل منهك وخاصة الآن. لكن يبدو لي أيضاً أن ثماره ستكون مفاجئة حد أني سأكون أول من سيذهل. هذا هو حلم اللحظة... هل سيتحقق في يوم من الأيام؟

فالذهاب إلى ورقلة عند عتبة محيط الغموض الكبير الذي تمثله الصحراء، وأن أستقر هناك، وأن أؤسس هناك ذلك البيت الذي أشتاق إليه أكثر فأكثر[1]، وهو منزل صغير مشيّد بالطوب تحت ظل أشجار النخيل، وبعض المزروعات في الواحة، ومعي أحمد كخادم ورفيق، وبعض الدواب الجسورة من أجل تدفئة قلبي، ولربما حصان ـ حلم، مع مرور الوقت، وكتب.

أن أعيش حياة مزدوجة، حياة الصحراء المغامرة دوماً، وحياة الفكر الهادئة والناعمة بعيداً عن كل ما يمكن أن يزعجها[2].

وأن آتي أحياناً من هناك إلى جوار أوغستان، وإلى باريس... باريس التي تحولت إلى تلك العزلة التامة والصامتة...

وأن أخلق فيها لنفسي روحاً، ووعياً، وعقلاً، وإرادة.

هناك سيكمل بداخلي بكل تأكيد الإزهار الرائع للإيمان الإسلامي، الذي أحتاج إليه كثيراً، والذي يبهت هنا...

حلم يمكن تحقيقه نظرياً، هل... هل سيتحقق؟ هذا هو السؤال[3]!

ربّما تعوّض هذه الكرّاسة في يوم من الأيام مكتبة وركاماً من الكتب التي يتعذر

---

(١) نبوءة أخرى أجهل معناها! آذار/مارس ٢٨ /VIII ١٩٠١. ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش. الأصل.

(٢) تحقق هذا الحلم أكثر مما أملت، وتوج بعد سبعة أشهر في بهيمة، في آذار/مارس ٢٣ / VII ١٩٠١. ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش. الأصل.

(٣) بالإنجليزية. المترجم.

الوصول إليها في حياتي المتسكعة، ومن الآن فصاعداً حياتي الفقيرة.

ومن أجل الشخص الذي سيتحمل عناء قراءته بمحض الصدفة ذات يوم، سيكون مرآة وفيّة لكل سيرورة تطوّري التي تصير أكثر سرعة، والتي لعلّها أضحت نهائية. . .

فالتمثلات التي تقابل بها عند كل خطوة ترسم حالة روحي التي أمر منها. . .

. . . شخصية سعدي غانيلين تدعو للاهتمام، وتمثل تلك الحياة التي حلمت بها كثيراً، حياة البوهيمي المثقف والعامل والمتشرد. . .

عيون تبدو كعيون الليل. (يومية الغونكور).

السبت ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٠٠.

بعد يومين من الملل القاتل، ومن المعاناة الجسدية، (أمس واليوم) حرصت على العودة إلى العمل. . .

أحس أكثر فأكثر بالنفور من أناي الثانية، السوقية والخليعة أخلاقياً، والتي تظهر بين الفينة والأخرى. والشيء الغريب الذي يستحق الملاحظة هو أن هذه الشخصية تظهر عموماً، إن لم يكن دوماً، (وهو شيء يستحق الملاحظة في وقت لاحق) تحت تأثير عاملين ماديين كلياً. وهكذا فإن حالة صحية مفيدة ستنتج تحسّناً حساساً لحياتي العقلية والمعنوية. . .

. . . أول أمس ليلاً جرى حديث مطوّل مع أرشافير حول المسألة الأبدية بيننا ـ المتعة. دعمت نظريتي المتعلقة بإنقاص الحاجات، وبفضل ذلك تجنّب الخيبات ما أمكن، وأيضاً إنهاك الحساسية بالمشاعر الكريهة، والسلوك الفظ.

وعلى النقيض من ذلك، يرى أرشافير أنه ينبغي تطوير حاجاته ومن ثم العمل بالطاقة الأخيرة، على إشباعها، وهو يرى في هذا ضمان الكمال الذاتي.

فكّرت في تلك اللحظة أن أنجز مقالة في هذا الموضوع، يمكن نشرها في الثانوية.

. . . وجدت أول أمس، أثناء حديثي مع فيرا، الطريقة لأتخلص من التشويش الذي يجعل إنجاز رحيل مستحيلاً تقريباً.

باختصار أمرّ مجدداً بمرحلة من الحضانة الثقافية، التي أعتقد أنها الأكثر غزارة في حياتي حتى اليوم.

قراءة يومية الغونكور أفادتني كثيراً، وينبغي الإفادة من إقامتي بمرسيليا من أجل قراءة وتدوين الكتب الأخرى.

حتى الآن كنت أبحث عن القراءات التي تدفع إلى الحلم والإحساس، وبسبب ذلك حدث تضخم في الإحساس الشاعري على حساب الفكرة الخالصة.

جريدة الغونكور كتاب يدفع إلى التفكير عميقاً. عليّ البحث عن قراءات مماثلة، والاستفادة من إقامتي هنا من أجل التحدث والمناقشة مادام هناك أناس حولي.

(١)... لماذا لم يكن الوعي الخالص بلاجدوى بعض تصرفات حياتي، وكم هي كثيرة ويا للأسف! وحماقتها والخطر الحقيقي الذي تمثله على مستقبلي من القوة بحيث يقاوم إرادتي ويمنع تنفيذ تلك الأفعال؟

هذه مسألة لا بدّ من دراستها لمعرفة كيفية تداركها.

«الآن لم يعد في حياتنا من شُغل شاغل سوى: الانفعال بدراسة الشيء الحقيقي»، ومن دون ذلك، ليس هناك إلا الملل والفراغ... (يومية الغونكور).

كتب يوم ٣٠ يونيو الساعة الثامنة مساءً

يراودني وأنا أكتب إحساس غريب مُتنام: فموضوعي، ما إن أطوره، وما إن أنهيه، حتى يصيبني بالملل، وبسبب ذلك تأتِي الشكوك المخيبة للآمال جداً حول الاهتمام الذي يمكن أن يلقاه من القارئ.

هكذا، ومن دون مبالغة، لم أعد أدري إن لم تكن رحيل سوى كتلة مقززة من الوثائق ذات الأحرف المدوّنة بشكل سيّئ.

من أجل هذا تقتضي القراءة إلى شخص آخر، وأن أكون موضوعياً... بكل تأكيد، إذا ما أثار كتابي لدى مجموعة من القراء الإحساس الذي يثيره فيّ الآن فلا أحد سيقرأ أبعد من الصفحة الثانية بعد التمهيد، الذي يعتبر تحفة فنية خالصة.

---

(١) تحسن كبير في هذا. آذار/مارس ٢٣/ VII ١٩٠١. ملاحظة من قبل إيزابيل إبرهارت على الهامش. المترجم.

. . . هذا المساء، أحسست بهدوء الأشياء، على الرغم من بعض الضجيج البليد للشارع السوقيّ. . .

السماء ذات زرقة شاحبة تكاد تكون لازوردية، ببياض لبني، مع سحب رمادية خفيفة. . . كآبة تحلق فوق أشجار حي شامبل. . . وكآبة في السماء، وكآبة على جبل ساليف. . . وضباب رمادي يغشى الأشياء، تتوافق على نحو مثالي مع الكآبة العذبة لحالتي النفسية الحالية حيث لاانفعالية مبالغ فيها، ولا حماسة. هناك فقط رغبة هادئة في العمل وفي تطوير تفكيري.

لا ينبغي أبداً إرجاع هذه الأنانية الظاهرة في داخلي والتي تنبثق مع كل ورقة من هذا الكتاب إلى جنون العظمة. . . كلا. . . فهي عادة المتوحّد الذي أَلِف النظر في ذات نفسه أولاً؛ ومن ثم ضرورة وضْع كتاب يمكنه أن يمنحني فيما بعد صورة حقيقية لروحي في هذا اليوم، وهي الوسيلة الوحيدة للحكم على حياتي الحالية، والنظر فيما بعد إذا ما كانت فرديتي تتقدم فعلاً أم لا.

كتب في المساء عينه

في ذلك المساء عينه، وبعد قراءة لنادسون:

أنا تعب اليوم بشكل خاص،
ومنذ الصباح، يكبر في داخلي غضب أصمّ،
ومنذ الصباح، نظرت حولي بخبث،
إلى كل ما يمكنه أن يزيل الازدراء عن الروح.
وجدت الفظاظة، في فرح الآخرين
والنفاق في حزنهم، والجبن في هدوئهم،
ونضوب القوى الجيدة في قلقي،
ثم قلق ضاغط واشمئزاز وليد!

كم مرت عليّ أيام مثل هذا اليوم، تلك الأيام الكئيبة حيث كل ملكاتي تبدو سهلة الوصول إلى الأحاسيس الكريهة والمؤلمة! فقط

كُتب في جنيف، ٣ تموز/يوليو ١٩٠٠

ما فائدة هذه الدموع؟ هل هي من أجل رثائها
بألم ثابت بشكل جنونيّ؟
آه، لو كنا نستطيع أن نموت جميعاً هكذا
بروح بمثل هذا الصفاء؟

لو أننا جميعاً نقول وداعاً للأرض
بالأمل الصافي عينه؟
لما انتظرنا أبداً بعد النعش، النومَ السرمدي
بل عالم الطيبة الرائعة.

التاريخ نفسه الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً

. . . أتتني الفكرة بأن أكتب قصة خلال الطريق، ولكن بنماذج مختلفة جداً، حيث سيميونوف، وأندريوف، وساشا بباريس

الليلة نفسها، الساعة الثانية صباحاً

لا أنام. ليست لدي رغبة في النوم. وفي الأسفل تدوي الصرخات الممزقة لروسية تضع مولوداً. . . على أنه دخول مشؤوم لهذا العالم، في ليلة ماطرة، وسط صرخات الأم المحزنة. . . دخول مشؤوم، لكن من يدري؟ لربما يكون دخولاً رمزياً.

أول فعل في الحياة، البكاء. . . ولما كان دخولنا يشبه رحيلنا، مع هذا الاختلاف الوحيد بأن الرحيل أقل حزناً من الوصول المتبوع بالكثير من الملل والمعاناة!

لا تبكوا أبداً ذاك الذي مات، ولا تنتحبوا عليه. إبكوا، إبكوا ذاك الذي يرحل لأنه لن يعود أبداً، ولن يرى أبداً بلد ولادته (إرميا، XXII، ١٠).

أرايت رجلاً حكيماً في عيني نفسه؟ الرجاء بالجاهل أكثر من الرجاء به. (سفر الأمثال ٢٦، ١٢).

لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ماذا يلده يوم. (سفر الأمثال، ٢٧، ١).

(تبع بصفحة عشية (تورغنييف). الجملة التي تبعت علقت عليها إيزابيل باللغة الروسية (ملاحظة روني لويس دويون).

«... وفي حياتنا المظلمة، هناك أيضاً سعادته، وكبرياؤه...»

«أجل، هناك... سعادة مُرّة، مُرّة ومُعتمة وكبرياء التخلي وهما ليسا في متناول الجميع، وسيقضى من نسي نفسه في وليمة الحياة، والذي لم يختبرهما (٤ـ ٧ ـ ١٩٠٠. منتصف الليل)»

١١ تموز/يوليو، الساعة التاسعة ليلاً.

كُتبت بعد بضعة أيام مروّعة من الملل، ومن الخصام، ومن الجدالات المؤلمة ومن الرعب ومن الخيبة...

كُتبت في السرير هنا، على سرير المعسكر المؤقت هذا، أمام النافذة المفتوحة في ليلة لبنية اللون تذكرني في منتهى النعومة بليالي الماضي في إفريقيا.

... يا فتنة غسق الصيف التي لا تنسى في المدن البيضاء، وعلى المساحات الميتة لإفريقيا.

في القريب إن شاء الله، سأجد كل ذلك مرة ثانية، بعيداً عن الناس، ووضاعتهم ووحشيتهم، وعلى الخصوص بعيداً عن أنانيتهم المتوحشة.

متى يحل سلام الروح أخيراً؟

لكني أعلم أين سأجدها، والثمن الذي سأدفعه لقاء ذلك!

الساعة الثانية صباحاً

«كل أيام حياتنا تفر مسرعة مثل السيول
وتصير طريقنا نحو القبر في كل ساعة أقصر
اسكب إذن يا رفيق نخبك
أنى لنا أن نعرف ما تبقى أمامنا؟
ستموت وستدفن، ولن تقوم أبداً في وليمة الأصدقاء

هات يدك يا رفيق، ولنشرب! (مكرّر)
ولنغرق في خمر الفراق المرّ! (مكرّر)»

في ذكرى الحياة بجنيف في شهري حزيران/يونيو وتموز/يوليو سنة ١٩٠٤، برفقة شوشينكا وياسبكا وبوب وتشورك وغانتا (في هذه المخطوطة ص ٢٣):

«تركتكم ولم يتوقف قلبي عن البقاء قربكم
وأضحى لطف الحياة بعد رحيلكم مرارة
وحال حجاب الفراقِ بيني وبينكم،
كما يحول القبر بين الحي والميت!»

«لا راحة في الحب. ولا راحة في العلم. وما من راحة مهما فعلت. لا أتمنى لأحد أن يكون هكذا مدعاة للرثاء، وتعيساً مثلي تماماً، وبسبب هذا تولّد لديّ إحساس رائع بشكل مشوّش عندما قلت لي: سيتبعك ظلي في كل مكان...

التقينا صدفة في طريق الحياة. نحن وحيدان في هذا العالم المأهول، وتعيسان ومشوّشان. أمضينا معاً بعض الدقائق الرائعة بعيداً، بعيداً عن الناس... بلغنا الأجل، وفرّقنا الناس إلى الأبد... أخذنا وقتاً من القدر الشرس... ولا أحزن على شيء. ليلة ١٣ـ ٧ ـ ١٩٠٠. جنيف...»

الانطلاق من جنيف، ١٤ تموز/يوليو سنة ١٩٠٠ الساعة السابعة والنصف مساءً.

الجو كئيب وعاصف ومعتم. حزن غير محدود لترك بيانوشكو وشوشينكا. أين سأذهب؟... في طريق القدر!

وأرشافير، أرشافير الذي لم أعد لرؤيته؟

أمس، وعند منتصف الليل، تجوّلت مثل شبح أمام ذلك المنزل الأبيض في شارع أركبيز حيث يتعيّن عليّ عدم العودة أبداً...

١٥ تموز/يوليو، الخامسة صباحاً.

الوصول إلى مرسيليا. التعب. شروق شمس رائع على مدينة لاكرو. انطباع إفريقي. وصول جيد.

١٥ تموز/يوليو سنة ١٩٠٠، التاسعة والنصف ليلاً، مرسيليا.

حضرتني فكرة وأنا أقرأ في يومية الغونكور هذه الجملة: انتهى اليومَ، مانيط سليمان. ليس هناك أي عمل أدبي ينتهي أبداً، إلى درجة أن يصير معها غير قابل للإنهاء، أو للتحسين في الغالب. فالنهاية هي الرضا، وتقريباً مثل إذن المستشفى لمريض شفي نوعاً ما حتى يتمكن من البدء مجدداً في الحياة، كيفما اتفق. . .

وعلى الرغم من كل الفوضى، وكل نفور الأيام الأخيرة في جنيف فإن هذا الشهر من الحياة الروسية ـ الأخير في حياتي من دون شك ـ سيبقى من بين أعز الذكريات.

أبداً، وفي كل الحالات، لم أعش مع أحد ممن أحب في حميمية مماثلة لتلك التي وجدت بيننا أنا وفيرا وشوشكا وغا هان.

والمغامرة الحزينة والقصيرة مع أرشافير كانت لها فتنتها أيضاً. ولن أفترق أبداً معه على الرغم من كل شيء، من دون حقد ومن دون ضغينة.

لم تكن هناك من خشونة بين أولئك الناس.

وهذا هو كل السوء في الوضع.

إن الشر في الحب، وسواء أكان ذلك الشر مادياً أم معنوياً فهو العلامة على نهاية المجتمعات. (يومية الغونكور، III).

مرسيليا، ١٦ تموز/يوليو ١٩٠٠.

تركت جنيف أول من أمس في غسق مبكر ليوم عاصف، وتحت سماء غائمة وواطئة.

أحاسيس حزينة وبطيئة وشديدة، وعلى الخصوص عند فكرة الافتراق الأبدي من دون شك مع فيرا وشوشكا.

وخلف لي أرشافير ذكرى لطيفة جداً، وغامضة بعض الشيء مثل طبيعته الغامضة ومثلما كانت مغامرتنا غير المتوقعة والغامضة.

فهذا الرجل الذي نجا مما هو مثير للسخرية، وما هو سوقي، ترك لي إحساساً صافياً جداً من دون قذارة. فالحياة الروسية لا تصيب أبداً روح الشرقي بالابتذال، بينما يمنح التأثير الفرنسي مسوخاً مثل عبد العزيز أو وحوشاً مثل علي، فأحدهما غارق في القبح السوقي، بينما الآخر غارق في قُبح الناس الغربيين بدعوى الأناقة، المنسوخة بشكل رديء فوق ذلك.

ولأرشافير من الطبع الأرميني الطبيعة الحالمة والمعتمة والعنيفة والشاعرية، وقد أخذ من الطالب الروسي الطابع الذي لا يمكن وصفه والذي أحبه، والذي أراه جذاباً جداً وقريباً جداً.

لست أدري إن كنت سأقوم بذلك أم لا، لكنني أريد أن أحرر تقريراً عقلانياً ومنهجياً على إقامتي بجنيف.

وإذا ما أتاني الإلهام الخاص سأقوم بذلك وسيكون عملاً ذا فائدة عظيمة ومهماً جداً.

وبالمناسبة، لا أذكر أني عملت أبداً إلا بداعي الواجب أو بدافع الإلهام بصفة خاصة. ولم أعمل أبداً فراراً من الملل، وإلا ما كان للعمل أن ينجح أبداً. أقرأ غالباً، وهكذا، فالملل مثل القلق المعتم لليالِيّ السيئة، ينزاح عني دوماً تقريباً.

ويبقى الهدف الحالي نفسه دائماً: الإتقان العقلي والمعنوي. ومن الناحية الثقافية قد يكون هذا العمل أكثر تأخراً، لكنه أكثر سهولة.

فكرت هذه الليلة واليوم بأن أذهب للالتحاق بشوشكا في بلغاريا[١].

لكن كلا، لن يكون ذلك من أجل تخليد أو إعادة عيش المرحلة التي انتهت لتوّها وسيحين الوقت لنفهم أخيراً أنه لايمكننا أن نجعل ما انتهى يدوم، ولا أن نحيي ميتاً. ولاشيء مما انتهى سيعود أبداً[٢]. عدت إلى جنيف لأستعيد حياة إقامتي الأولى. فهل ألفيتها؟

---

(١) لم يكتب لي الله شيئاً من ذلك، لكنه كتب من أجلي: الواد، وسليمان، وبهيمة أخيراً. (ملاحظة دوّنت باللغة العربية بواسطة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

(٢) حقيقة بحزن غير محدود. آذار/مارس ١٢/ VII ١٩٠٤. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

الأنكى من ذلك أني دفنتها! وهكذا، فغالب الظنّ أني سأذهب إلى ورقلة[١].

بدأت أخشى فقط أن تكون الحرارة الشديدة مرهقة لي من ناحية العمل. ومع ذلك فهنا، وعلى ما يبدو، تصل درجة الحرارة اليوم أربعين درجة. ولا أحس بأني منهك أكثر من المعتاد.

وليس فقط من أجل العمل، ولكن أيضاً كإجراء صحي، ذلك أنه يلزم العمل ضد البطء العفوي الذي يتسبب فيه هذا الجو الصحراوي في فصل الصيف[٢]...

حتى هذه اللحظة أريد القيام بشيئين، إكمال المقدرة، وإنهاء قراءة يومية الغونكور.

[كتبت إيزابيل (مرسيليا ١٦ تموز/يوليو سنة ١٩٠٠) فكرة لنيتشه باللغة الألمانية، وصفحة لكيستماكيرس أخذت من لحظات سامية، ولحظة الحكم، ثم باللغة الروسية قصيدة طويلة لنادسون. (ملاحظة روني لويس دويون)]

أجل، بدأ يتشكل أمام ناظري أخيراً ما ستكون عليه كل حياتي، إذا ما أتى النجاح يوماً ليتوّج كل جهودي الأدبية حيث فتنة معتمة بلوحات سوداء تتحول بسرعة عجيبة، تماماً مثلما تتغير المشاهد... وركض مجنون في ملاحقة الأبدية الوهمية، العصيّة عليّ مثلما هي عصيّة على أيّ كان[٣].

وبكل تأكيد ستكون أحلام حياتي شبيهة بتلك الأكثر وعياً للأيام الأخيرة.

لكن، وعلى الرغم من أنه ينبغي عليها أن تكون كذلك بشكل قاتل، أريد أن أجرّب حظي في سعادة مماثلة، هي الوحيدة في اعتقادي التي يمكنها أن تحدث في حياتي الخشنة والفقيرة: فأن أخلق لنفسي بشكل مستقل عن الجميع، وبعيداً عن

---

(١) «حتى الآن لم يكتب الله شيئاً». (ملاحظة دوّنت باللغة العربية بواسطة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

(٢) «عمى: لايمكن لأي عمل أن يمنحني ما قدمه لي مجرد حضوري في الواد. آذار/مارس ٢٣ / VII ١٩٠١.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش).

(٣) «على العكس: يمكنني إدراكها. مارس/ VIII ١٩٠١.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

الجميع، عشاً وحيداً حيث يمكنني أن أعود دوماً وأدفن الأحزان المتتابعة، التي ما تزال تنتظرني.

وسأحرص على أن أخلق لنفسي ذلك العش هناك، في عمق الصحراء، بعيداً عن الناس. وسأعتزل خلال أشهر. سأعزل روحي عن أي تواصل بشري. وعلى الخصوص سأتجنب من الآن فصاعداً الحيوات المشتركة مع أي كان، فالاختلاطات المحرجة وامتزاج أعمالي ومصالحي المناقضة تماماً لمصالح الآخرين.(١)

سيتسبب هذا على الأقل في جرعة أقل ألماً.

وعليّ أيضاً أن أبذل جهدي في خلق عالم داخلي لنفسي من الأفكار ومن المشاعر التي ستعزّي وحدتي والفقر، وغياب المتع الجمالية، وهي الأشياء التي أضحت مكلفة جداً بالنظر إلى وضعيتي الحالية.(٢)

عليّ أيضاً أن أضع نظريتي في التقليص الممكن للحاجات موضع التنفيذ مهما كلفني ذلك من ثمن.

لن يكون ذلك صعباً أبداً بالنسبة لي، إذا لم تخنّي الصحة.

وحتى هناك، وبوجود شيء مقيم، بمعنى ثابت، يمكنني أن أخلق لنفسي حياة صحية تقريباً.

ويمكنني أن أتلافى الأسباب المعروفة للمرض.

ومن الناحية المعنوية،من المستعجل الآن أن ألتزم بالعمل.

وليست تلك فرصةً فقط من أجل الاستمرار في الحياة، ذلك أن وسائل الحياة قليلة ومستهلكة، ولكن أيضاً كوقاية كبرى ضد المعاناة.

وينبغي أيضاً أن أتعلّم الاستغراق في اللحظة الحالية وألا أعيش في المستقبل فقط مثلما فعلت حتى الآن، وهو سبب طبيعي للألم، والعيش في الماضي، وما حوى من شيء جيد وجميل، ونوعاً ما تتبيل الحاضر. غير أن الانتظار الدائم لما سيأتي،

---

(١) «أيام بعد ذلك، ربط المكتوب حياتي بحياة سليمان.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

(٢) «الإيمان أولاً ثم الفن بعد ذلك. وذلك سيكون كافياً، ذلك أن هذين الشيئين غزيران ويعانقان كل العالم. آذار/مارس ١٢/ VII ١٩٠١ .؛ (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

وللغد، يتسبب بشكل حتمي في كدر مستمر يسمم الحياة.

ينبغي أن أتعلم كيف أشعر بشكل أكثر عمقاً وأرى على نحو أفضل، وعلى الخصوص، أن استمر في التفكير مراراً وتكراراً.

كتب بتاريخ ١٦ تموز/يوليو الساعة العاشرة ليلاً.

في السابع عشر منه، حوالي الثالثة صباحاً، نهاية تحرير المقدرة.

١٨ تموز/يوليو ١٩٠٠ الساعة التاسعة مساء.

«يعني الظهور بالنسبة لإنسان ذي موهبة وعبقرية إقلالاً من شأنه... يمكن للفنان أن يأخذ الحياة على نحو رصين، والكاتب ملزم أن يأخذها كشيء مسروق مثل لص...» (يومية الغونكور، III).

وهكذا، يبدو أنه تقرر أخيراً أني سأرحل السبت باتجاه إفريقيا التي تركتها قبل نحو تسعة أشهر من الآن فقط. يا إلهي، لو أني أجد الشجاعة فقط، عند وصولي إلى ورقلة، أن أخلق لنفسي فيها ذلك العش الذي أشتاق إليه كثيراً، عش بومة وحيدة، وأن أستقر فيه على الأقل ستة أشهر، وعلى الخصوص أن أعمل فيه.(١)

قرأت هذه الليلة روايتي رحيل كلها. وما ينقصني تماماً من أجل الحكم عليها هو رؤية الكل. أما الآن، وحتى تصير منتهية بشكل تام، كنص ـ وليس كعمل فني ـ فلا ينقصها إلا المشهد الفني لنزهة اليهوديات ـ بمعني نصف ساعة من العمل. وقبل أي شيء ينبغي إنهاء القراءة هنا، والتعليق على يومية الغونكور.

وبعد ذلك تدوين بعض الفقرات المشرقة لكتّاب آخرين مثل بودلير وزولا ولوتي.

وينبغي في سبيل ذلك أيضاً لا تدوين الإفادات فقط، ولكن الأحاسيس أيضاً بعناية بالغة، كما ينبغي جعل عبور البحر، وزيارة الجزائر التلية، وواد رير، رحلة هامة ومثيرة للإعجاب ـ وسيكون ذلك أول شيء يُحرَّر هناك.

---

(١) حقيقة مطمئنة حتى نقطة معيّنة: بعيداً عن أبدو وكأني أنهار على نحو سريع، بدت لي تلك الأشهر التسعة طويلة مثل سنوات، وبقدر ما هي الحياة رتيبة ومقيمة بقدر ما سيبدو الوقت عابراً إذن؟ للتمحيص. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

ثم تدوين كل شيء في الواحة. والشروع في زيارة كل الأماكن، ووضع مخطط مفصّل بملاحظات كاملة ما أمكن. وفيما بعد يتعيّن البدء بيومية أدبية لمقامي هناك، ومن بين كل الأشياء، ينبغي جعل كتاب رحيل ما يتعيّن أن يكون عليه، أي أن يكون بصفة خاصة عملاً فنياً.

ينبغي الكتابة باللغة الروسية أو من أجل الروس، وتحرير رحلتي الخريفية في الساحل، وبعض • القصص.

مجموع منهك من العمل، تتعلق به إمكانية الخلاص بعد الفيلا الجديدة المنتهية. وإذا ما توفرت لي الوسائل سأذهب إلى باريس، وأعيش فيها حياة أخرى مثل السابق، وسألقي بنفسي في الصراع المحتدم من أجل الوصول بما سأحمله معي.[١]

هذا هو المخطط العقلاني الذي يمكنني إنجازه الآن.

. . . إذا ما تقدمت باتجاه المغرب في فصل الخريف عليّ اتباع التقدم بشكل طبيعي، ودوماً بتدوين ملاحظات دقيقة.

أمس، السابع عشر منه، وعند الساعة الرابعة مساءً، نزلت عبر مسارات ديفيلي والعربة العمومية عند رصيف لافراتيرنيتي. بدت لي مرسيليا كثيرة الألوان، وبمظهر حقيقي.

توقفت في «بار إديال» حيث كتبت رسالة صادقة إلى فيرا وشوشينكا.

ثم قمت بجولة طويلة مشياً رفقة أوغستان في البداية حتى جسر حصن سان نيقولا، فرأيت الجسر يدور بسواعد الرجال لتمكين مركب إيلينا[٢] اليوناني من المرور. وإلى الأمام، كان هناك قائد ذو وجه فظ مشمّر الأكمام يصرخ بين الفينة والأخرى: فيرا. فيرا. فيرا! على رجال يعانون في الجانب الخلفي من الرامغة لإدخال المركب.

وثمة أجساد سابحين صغار بسراويل السباحة القصيرة، سعداء لكونهم عراة، ولكونهم مبتلين، مستعرضين أجسادهم تحت الشمس.

ثم عبور الجسر العتيق بالمعدية أسفل حصن سان جون، والمرور على رصيف

(١) «الاشيء أكثر منطقية مما كتب.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.
(٢) كتبت باللغة اليونانية. Ελενη. المترجم.

لاجوليت، قبالة المراكب الإفريقية، ثم بسقاط نفاية الفحم.

أكوام سوداء هائلة. غبار أسود، ورجال سود بأسمال بالية، وبوجوه سودها السخام، تفتح فيها الأعين على بياض متسخ وأفواه مثل جروح، وتلقي كل بقعة من الجلد الحقيقي شيئاً أشبه بجذام بشع. وثمة خمّارة سوداء أيضاً، مالكها رجل أسمر البشرة، بسحنة قرصان كان يتشاجر مع أحد الفحامين، والواضح أنه فزع. العودة إلى الجسر حيث الأفق البحري مائل إلى الخضرة، والبحر قليل الهيجان. ومعاينة سحب شبكة وسط قاربين أخذا يهتزان بعنف.

عند رصيف لازاريت طلب مني رجل في مقهى الفحم ولاعة، ويبدو أنه كان ثملاً جداً، إذ كان يغني ويثير صخباً. ألفيناه على الرصيف جاثماً على عربته، مومئاً ومثرثراً وضاحكاً وسط حشد من الناس وتحت أنظار الجنود وابتساماتهم المتطوعة وبدا أنهم على وشك إيقافه. . . لست أدري ماذا حدث بالفعل، فلربما دهس السكران ساق أحد الجنود.

عدت إلى البيت في الساعة الثامنة. التعب، وصداع شديد، وألم في القلب. ليلة جيدة.

٢٠ تموز/ يوليو، الجمعة، العاشرة ليلاً، مرسيليا.

انتهى كل شيء ولُفّ وحُزم. . . ليس هناك أي شيء آخر سوى سرير معسكر يُطوى، في انتظار الصباح.

غداً، بعد منتصف النهار، سأرحل إلى الجزائر.

لست متاكداً كثيراً من تلك الانطلاقة إلى ورقلة، بعد أن طرأت ظروف عدّة لتعيق مشروعي الجريء.(١)

لديّ فرص في النجاح، لأني سأرحل وأنا مجهّز بشكل جيد. ومن الناحية المعنوية غمرني حزن كبير، مثل كل المرات، وأنا أترك الآن هذا المنزل على الرغم من أني لست سوى عابر غريب.

---

(١) «آه! كم أود أن أرحل الآن إلى البعيد لمدة طويلة، إلى بلد غير معروف، ولكن أن يكون بلد إسلام، وأن يكون بلداً إفريقياً. آذار/ مارس ١٢/ VII ١٩٠١.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

لَمَ يرجع ذلك؟

أدرك أن قراءة يومية الغونكور تسببت كثيراً في هذا الحزن المعتم، والذي أشعر به منذ يومين.

ولسوء الحظ، فمع كل هذه الرزم، وكل هذه الجولات، لا أملك الوقت لإنهاء تلك القراءة، فالمجلدات المكتوبة من قبل إدمون وحدها ليست بأهمية المجلدات المكتوبة من قبل جيل... ولعلّها نُسِبت إلى إدمون بسبب وفاة أخيه.

لا أشعر بأنني بصدد الكتابة حول مشاعري الخاصة، فهي كئيبة.

غير أن الأمل يولد من جديد في داخلي، وأدرك بأن هذا الإحساس سيزول ما إن أصبح في الجزائر جوار الصديق أوجين، وفريسة لمشاعر جديدة.

في كل الأحوال ينبغي العمل والكتابة هناك... يا إلهي، إذا ما وجدت الطاقة لبذل جهد كبير في سبيل إنهاء جزء على الأقل من كل ما يتعيّن عليّ إنجازه! يا إلهي! لولم أكن مكدّراً بالملل، وعلى الخصوص من هذه الجهة أنا متيّقن من أني أستطيع عمل شيء ما، وأنني سأنجح.

... والغريب أن مقامي في جنيف يبدو وكأنه تراجع بالنسبة إليّ كسفر بعيد... وبدت الأجساد المحبوبة هناك وكأنها اختُلِست، وأضحت كيانات حلم... لحسن الحظ! ومع ذلك لم يمض إلا أسبوع...

غير أني أشعر بأني مرتبط أبداً بفيرا وشوشكا برابط أشد متانة عن ذي قبل.

أما بخصوص أرشافير... فيبدو لي أني لا أستطيع إدراك أسباب هذا الشعور بأننا سنلتقي مجدداً تماماً مثلما قال ذات ليلة...

لكن واأسفاه! فالبداية الحزينة والشاحبة وغير المتناسقة لهذا اليوم في هذه الملاحظات تبدو مرة أخرى كتلك التي كانت في الماضي.

لكن لم يكن ذلك إلا عودة عابرة للماضي.

سأعود لقراءة باتجاه الآفاق الزرقاء، وسأضيف إليها في الطريق نتائج الملاحظات.

لاينبغي التوسع حول الجزائر... فهي معروفة جداً!

ألا ينبغي بالأحرى بدء الرحلة الجزائرية ببون وليس بالجزائر؟ إذا ماكانت هناك مشاعر تستحق أن تدوّن، وأن تنقل على شكل ذكريات لمرحلة أخرى. سيكون ذلك

ذريعة لبعض الصفحات الجميلة والحزينة، نوعاً من ظلال إفريقية.

ومع هذه الرحلة، سيُكتب كتاب، كتاب جميل سيكتب على وجه السرعة، ولربما يمكن أن يظهر للوجود قبل رحيل، غير أنه ينبغي العمل على المقدرة، مهما كلف ذلك من ثمن من أجل حمله منتهياً.

. . . أجل، أبلغ أحياناً درجة من التشاؤم حد أن المستقبل يصير بالنسبة لي سبباً للذعر غير المنطقي، كما لو أنه لا يمكن أن يكون إلا سيئاً ومنذراً بينما تسير الأمور على العكس من ذلك، ومع ابتعاد الكثير من الغمامات المعتمة من أفق حياتنا: حيث صامويل والولادة إلخ! . . .

كل هذا يبدو أنه يؤكد بالنسبة لنا، نحن الإثنين، أن القدر في المجمل ليس قاسياً إلا في الأشياء الصغيرة، وبصفة مؤقتة إن شاء الله! فليكن الأمر كذلك في المستقبل!

الجزائر، ٢٢ تموز/يوليو ١٩٠٠، الساعة الحادية عشرة ليلاً.

صعدت البارحة عند منتصف نهار قائظ تلك السفينة، التي كانت قد حملتني في أيلول/سبتمبر الماضي، ولكن في ظروف مختلفة جداً![1] تبعت بنظراتي جسد أوغستان حتى اختفى حين غيرت السفينة اتجاهها، ثم رحت أتأمل المنظر حيث المرفأ المملوء بالهياكل القوية الحمراء والسوداء لعابرات المحيط.

ثم المدينة. . . بداية عندما أضحت السفينة وسط المرسى بدت لي مرسيليا أشبه بتسلسل ناعم من الرمادية، حيث رمادية السماء المدخنة بشكل غامض، ورمادية الجبال المائلة إلى الزرقة، ورمادية السطوح الوردية الصفراء للمنازل. . . والصلصالية والمحتدمة لصخور أندوم، والطبشورية والمتوهجة لتلة نوتر دام. . . والرمادية الأرجوانية والفضية للبحر. . . والنباتات اليابسة للصخور تلقي في كل الأنحاء تلك الألوان الرمادية ذات البقع الحمراء المائلة للاخضرار. . . وحدها شجيرات الدلب الخضراء والقباب المذهبة لكاتدرائية وتمثال العذراء تنعزل بألوانها الحية والصافية. . .

---

(١) «٢١ تموز/يوليو سنة ١٩٠٠ الواحدة ليلاً. الرحيل من مرسيليا على متن أوجين بيريير، وفي ٢٢ تموز/يوليو الوصول إلى الجزائر الساعة الثالثة ليلاً.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

وعندما ابتعدت السفينة تغير مظهر كل شيء، وأضحت الأشياء ذات صبغة ذهبية متماثلة وكثافة غريبة. . .

رأيت غروب الشمس في بخار رمادي مائل إلى البنفسجي في بحر بلون بنفسجي معتم وشديد. . .

قضيت الليل بهدوء في المؤخرة على مقعد. وشعرت براحة حقيقية. وحوالي الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة استيقظت. كان البحر هائجاً بعض الشيء، ومنارات جزر باليارس تظهر على يميننا. . . وكان القمر ينحدر.

راودني إحساس غريب ومشوّش لكنه إحساس عذب بشيء غامض. . .

شروق الشمس، بينما كان الملاحون يمدون خيمة. . .

في البداية، كان صباحاً وردياً وأرجوانياً. وأخذ البحر لوناً أرجوانياً وفضياً في سطحه، ثم غرق القرص الذي كان بلون قرمزي وسط ضباب بنفسجي أرجواني. وإلى الأعلى قليلاً، برزت سحب وردية رقيقة محاطة بلون ذهبي شاحب. . .

. . . وفي الليل، تمتعت بإحساس معروف جداً للراحة الغامضة بسبب رؤية نيران السفينة طافية فوق نومي الهانئ.

سأكمل هذا التقرير صباح يوم غد.

أي شعور سعيد جداً بالعودة أحسسته ذلك المساء في المساجد المهيبة، ووسط رتابة بائع التبغ العربي القديم في شارع جنينة!

وأية نشوة فريدة هذا المساء، في ظل الجامع الجديد الكبير، خلال صلاة العشاء.

ها أنا أولد مرة أخرى في الحياة. . . إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم!

الجزائر، ٢٣ منه الساعة العاشرة والنصف.

لا ترى من الساحل الجزائري إلا ماتيفو ولمدة طويلة جداً، غارقة في عالم من البخار الرمادي. . .

ثم مثلث الجزائر، حيث الدفق الأبيض لمدينة الجزائر العتيقة... وأخيراً، بدا كل المنظر الشامل الرائع على ضوء النهار.

بعد توقف قصير جداً مع أوجين في غرفتي، ذهب هو وخرجت وحيداً من أجل الاستطلاع، غير أن قبعتي كانت تزعجني لأنها كانت تفصلني عن الحياة الإسلامية.

عندئذٍ رجعت. وعدت للخروج بعد أن وضعت طربوشي. وهكذا ذهبت بداية رفقة أحمد الخادم إلى الجامع الكبير... وأحسست بالانتعاش والسلام تحت الشرفات المقوسة البيضاء والمسننة في الداخل. حييت وكيل المسجد، وهو رجل مسنّ جليل كان يجلس في كوة أفقية يكتب على فخذه.

لاشيء يفاجئه. وكان من دون فضول فج، ومن دون تطفل... ثم صعدنا رفقة رئيس الحمالين محمد إلى زاوية سيدي عبد الرحمن الساحرة المائلة إلى الزرقة. حيث استرحنا في ظلها الرطب على الزرابي السميكة في مواجهة المحراب... شربت ماءً معطراً بالياسمين من إبريق الفخار، كان موضوعاً على النافذة.

الزاوية جوهرة رائعة، وسأعود إليها قبل رحيلي عن الجزائر...

بياض مائل إلى الزرقة، وبراءة في اللون الأخضر لحديقة مارنغو...

تنسمت عند عبور الحديقة عطراً يصعب وصفه. كان عطراً مثملاً وعذباً لأزهار لم أتمكن من معرفتها.

تناولت العشاء عند الحاج أحمد في طرف شارع جنينة. وهناك غمرني الشعور بسعادة العودة، وسعادة أن أكون هناك مجدداً، في تلك الأرض من إفريقيا، التي لا تربطني بها أجمل ذكريات حياتي فقط، ولكن أيضاً ذلك الانجذاب الفريد الذي شدّني إليها قبل أن أراها، في الماضي في الفيلا الرتيبة.

كنت سعيداً، هناك إلى تلك الطاولة في المطعم الحقير... شعور يشق وصفه، لم أشعر به من قبل في أي منطقة أخرى غير أفريقيا.

كم يتشابه العرب فيما بينهم!

البارحة، عند الحاج محمد، خلت أني رأيت رجالاً عرفتهم في الماضي، في بون وفي باتنة وفي الجنوب... باستثناء تونس، حيث نوع آخر من الناس.

إلامَ يعود ذلك؟ هل إلى نقصان التطور الفرداني أو التأثير العادل للإسلام؟ إليهما معاً من دون شك.

في الليل، بعد العشاء، صلّيت صلاة العشاء في الجامع الجديد الأقل جمالاً من الإثنين الآخرين، غير أني أحسست به دفقاً رائعاً للإسلام.

دخلت في الظل المنعش الذي يوشك أن يتلاشى بفعل بعض المصابيح الزيتية.

شعور بالإسلام القديم، الغامض والهادئ.

استراحة طويلة قرب المحراب، ومن البعيد خلفنا، علا صوت واضح ومرتفع ونديّ. صوت حلم، يرجع صوت الإمام الشيخ الواقف في المحراب والذي أخذ يستظهر التاتحة[1] بصوته المرتعش.

وهكذا، صلينا وقوفاً في صف، في ذلك التعاقب المثمل والمهيب في آن معاً للصوتين، أحدهما أمامنا مكسّر وشائخ لكنه يرتفع شيئاً فشيئاً ويضحى قوياً وشديداً، والآخر متحلل كما لو أنه آت من الأعلى، من العتمات البعيدة في المسجد، بوقفات منتظمة مثل غناء نصر وإيمان راسخ، ومتألق... معلناً النصر الآتي، والحتمي لله ولرسوله... أحسست شعوراً ذاهلاً تقريباً يوسع صدري في تحليق إلى الطبقات السماوية التي يبدو أن الصوت الثاني يأتي منها... شعرت بلمسة من السعادة الحزينة والصافية والعذبة والمقنعة.

... آه، ما أجمل أن أستلقي على زرابي أحد المساجد الهادئة، بعيداً عن الصخب البليد للمدينة الملوثة، بعينين مغمضتين، بينما أرفع عيني الروح باتجاه السماء، وأنصت إلى الأبد، إلى نشيد انتصار الإسلام.

... تذكرت في المناسبة تلك الليلة من السنة الماضية حيث رحت أتسكع حتى الصباح بحثاً عن علي والشاعر، وانتهيت بخرابات موركاد أسفل المنارة التي كانت نوافذها مضاءة... وهناك، في صمت الأموات الكبير لتونس ليلاً، أتاني صوت المؤذن غامضاً. كان غامضاً بشكل غير محدود، منشداً في نبرة هادئة ومنغّمة ما تزال تتردد إلى الآن في أذني وهو يقول: الصلاة خير من النوم.

ذهبت لأتسكع بعد ساعة العشاء اللذيذة.

حوالي الساعة العاشرة، وعند عودتي، توقفت بشارع ضيق أمام متجر صغير مضاء بمسرجة خزان زيتية، حيث قيثارة وأنابيب غليون، وحشوة من الأوراق المقطوعة...

---

(١) تقصد الفاتحة. المترجم.

أمام المتجر، كان البائع مستلق على حصيرة من قصب. كان رجلاً أسمر، جميل الهيئة، غير مكترث، بطيء الحركة كما لو أنه مخدر. . . هل ذلك بسبب تأثير الكيف؟

اشتريت غليوناً صغيراً، والكيف. . .

هذه هي المحصّلة، المكتملة نوعاً ما، والخاصة بي لنهار أمس.

يوم وصول لا يمكن مقارنته.

لا أعاني كثيراً من الحرارة، مع أنها رطبة ويصعب التنفس فيها.

المراير، ٣٠ تموز/يوليو ١٩٠٠.

غادرت الجزائر يوم ٢٧ من شهر تموز/يوليو الساعة الثامنة صباحاً.

وصلت يوم التاسع والعشرين منه حوالي الساعة العاشرة إلى مروايير. قيلولة. رحلت عند الساعة الخامسة والربع.[(١)]

موقف الأبدال في الفرد حوالي منتصف الليل. توقف في أورلانا حوالي الساعة الثانية.

موقف في سيدي أوفرو عند الساعة الثانية والنصف. عند الفجر آخر موقف بالمقار.

الوصول إلى توقورت يوم الحادي والثلاثين الساعة الثامنة صباحاً. بعض الحمى بين مراير وأورلانا وسيدي عمرام.[(٢)]

مزاج جيد نسبياً، أفسده حضور عشيقة الملازم أول لاغرانج، وهي إنسانة بشعة وكريهة.

النوم في سيدي عمرام، خلال الأبدال قرب نار الجريد الجاف، جوار جندي فرنسي، أتى من مكان لا أعرفه. شرب القهوة. ضعف والقليل من الحمى. . . أضاءت النار الجدار المشيّد بالطوب بنور أحمر غريب، تحت تداعي النجوم.

---

(١) «أين هو وادي رير الكئيب والمدهش! هل سأراه مجدداً؟ مارس ١٢/VIII ١٩٠١.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

(٢) تقصد سيدي عمران. المترجم.

توقورت، الثلاثاء، منتصف النهار، ٣١ تموز/يوليو ١٩٠٠.

جلست في قاعة الطعام المعتمة تقريباً فراراً من كثرة الذباب في غرفتي.

سأرحل هذه الليلة إذا لم يمانع المكتب العربي إلى الواد حيث سأحرص على إقامة بيتي.

وبالنظر إلى كل شيء، أكون هناك بشكل أقلّ تعرّضاً من الناحية الصحية مني في ورقلة. أنا سعيد بأن أرى حرارة الصحراء الشديدة لا ترهقني كثيراً، كما أني لست في أحسن أوضاعي المعنوية نتيجة لتعب السفر وللسهرات الطويلة خلال الأيام الأخيرة. يمكنني أن أعمل وأن أفكر. إلى ذلك، بدأت أستعيد قواي اليوم فقط، ولن أتمكن من ذلك تماماً إلا في اليوم الذي سأستقر فيه بالواد، حيث سيعمّ الهدوء حولي.

بدأت أيضاً أتحلى بروح اقتصادية، وقوة الإرادة الضرورية حتى لا أبذّر من دون جدوى القليل من المال المتبقي لدي.

ينبغي أيضاً ألا أنسى أنني لم آت إلى الصحراء من أجل خمول السنة الماضية ولكن من أجل العمل. ويمكن لهذه الرحلة أن تكون غرقاً مروّعاً لكل مستقبلي، أو تقدماً نحو الخلاص المادي والمعنوي على السواء، ويعود ذلك لطريقتي في تدبّر أمري.[١]

احتفظت من الجزائر، من أول ليلة إلى آخر ليلة من دون تمييز، بذكرى ساحرة.

ذهبت في الليلة الأخيرة صحبة مختار عبد الكيم[٢] ولد عيسى إلى تاجر تبغ في هضبة سولبير. وبعد حديث مثير نوعاً ما قمنا بجولة كئيبة على طول الأرصفة. وكان بن عليمور وزروق طالب الطب يغنيان أغاني شعبية جزائرية حزينة.

حظيت بالعديد من اللحظات القوية للحياة الشرقية جداً بالجزائر.

وكان للرحلة الطويلة في الدرجة الثالثة، وتقريباً وجهاً لوجه مع مختار، الشخص الفتي والودود، سحرها أيضاً.

---

(١) «كتب كل شيء من قبل». (ملاحظة كتبت باللغة العربية من قبل إيزابيل إبرهارت على الهامش.) الأصل.

(٢) لعل الكاتبة تقصد عبد الحكيم أو عبد الكريم. المترجم.

ودّعت لفترة طويلة ربما الزرقة الكبيرة.

ثم كانت القبايل البربرية والصخور الممزقة. وخلف التلال المائلة للون أبواب الحديد الرمادي، وخراب الهضاب الصلصالية العالية، والمذهبة بشكل غريب بالحقول المحصودة في مناطق مرتفعة جداً من قبل العرب، وبقع طويلة مائلة إلى الاصفرار الفضي على الحجر الأحمر والتراب الصلصالي للأراضي.

في برج بوعريريج يمنح السهل منظراً حزيناً أكثر كآبة، وأكثر إحباطاً من أي منطقة أخرى.

تشبه سان آرنو باتنة. فهي بلدة كبيرة مفتوحة وسط الهضاب المرتفعة للبلاد الشيونية. ومع ذلك فسان آرنو، وهي العلمة بالعربية، شديدة الاخضرار، وحدائقها تشبه حدائق راندون في بون.

كان القاضي شيخاً نبيلاً وهادئاً كأنه قادم من زمن آخر...

للأسف! هل سيشبه الشباب الجزائري في أيامنا هذه بعد عشر سنوات، أو بعد عشرين سنة، آباءهم، المتميزين بالصفاء المهيب لثبات الإيمان الإسلامي؟ أما ابنه، السي علي، فهو يمنح انطباعاً أولياً وكأنه نائم وبليد. ومع ذلك، فهو رجل ذكي، ومهتم بالشؤون التي تمس العامة. والسي أحسن من أصل تركي، وهو رجل فاتن بصراحته.

أول مساء في العلمة تولّد لديّ إحساس قوي وعذب جداً بإفريقيا القديمة وبلاد البدو. ففي البعيد، نبحت الكلاب الليل كله، ووصلنا صياح ديك. وكان هناك صفاء وحزن عذب ولامبالاة.

وكما أحسست في الماضي شعرت في الطريق من بسكرة إلى توقورت بذلك الشعور الساحراً والمثمل بفجر الصحراء... في بير سطيل، عندما شربنا القهوة لدى الحارس المسنّ، وهذا الصباح في المقار، عندما كنت أعد قهوة الصباح، وأنا جالس أمام النار.

هذه الليلة، حوالي الساعة الثانية، عبرت واحة أورلانا الحزينة، وهي حدائق كبيرة مسيّجة بسور ترابي، وبسواقي تصدر رائحة عطر الملح الصخري، والرطوبة والحمى...

كانت كل المنازل المشيدة بالطوب الطيني تنام نوماً غريباً...

وفي سيدي عمرام استلقيت أرضاً قرب نار الجريد اليابس على الرمال الحارة، وتحت التماع أعداد لا تحصى من النجوم. . .[1]

أيتها الصحراء، أيتها الصحراء المنذرة والمخبئة روحك الجميلة المعتمة في أماكنك القاحلة وغير المرحبة والكئيبة!

أجل أحب بلد الرمال والحجارة هذا، بلد الجمال والرجال البدائيين هذا، بلد البحيرات المالحة، والسبخات الخطيرة. . .

رأيت البارحة ليلاً بين مراير والبرد ظلالاً غريبة وجدية لأشكال بشرية غامضة زيّنت ببهارج حمراء وبيضاء. وكان قد قتل في ذلك المكان قبل سنوات قليلة أحد المسلمين، وأقيم ما يشبه الصرح البري هناك كذكرى لدم ذلك الرجل الذي دفن في توقورت. . .

برج تراجان، الفاتح من شهر آب/ أغسطس، الساعة السابعة صباحاً.

ذهبت البارحة مساءً عند الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة على متن بغلة من نتار جالله رفقة محمد الحاج من طيبة ووصلت إلى مقيتلة حوالي الساعة التاسعة.

لحظت عند مغرب الشمس الكثبان الحمراء التي اكتسبت لوناً ذهبياً لا يقارن وذا احتدام غريب.

وعلى ضوء القمرالذي كان هلالاً ببياض غير محدود؛ جهة أضاءتها الشمس وأضحت ذهبية اللون، والجهة الخلفية - ظهر الريغ - كانت ذات بياض مائل إلى الزرقة وشفاف. للألوان رقة وصفاء غريبان.

البارحة ليلاً، وعلى الرغم من بعض التعب، غمرني الشعور الرائع لأول معسكر.

في الليل، رياح باردة تقريباً، وهمس بحري في الكثبان. إحساس بحزن مكدر غير محدود ومن دون سبب.

فجر رائع، الاستيقاظ في الساعة الرابعة. سماء صافية وبرد ورياح قوية بعض الشيء. ن. إ.

---

(١) «كان هناك جندي فرنسي، أتى من مكان لا أعرفه.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

الرحيل في الساعة الخامسة. عسكرنا وحضّرنا القهوة في الكثيب. لحق بنا البريد. ركوب جمل حتى تيرجان. الوصول في الساعة الثامنة. يؤكد الحراس والبواب أن الدكتور سيبتيل ما يزال في الواد.

مزاج رائع. والحالة الصحية نفس الشيء.

كم أحسنت صنعاً عندما رحلت عن أوروبا، واخترت البارحة الواد كمكان إقامة. إن تكن صحتي على ما يرام يتعين عليَ البقاء بالواد لأطول فترة ممكنة.

وعلى الخصوص ألا يكون هذا الوقت ضائعاً أبداً من كل الجوانب، وخاصة من أجل تطوري الثقافي والمعنوي والأدبي. إن شاء الله!

الواد، ٤ آب/ أغسطس ١٩٠٠، الساعة السابعة صباحاً.

بعد أن أنهيت تدوين ملاحظاتي حول تيرجان جلست على سريري قبالة الباب.

راودني شعور بالراحة يشقّ عليّ تفسيره، وبفرح عميق لكوني هنا... قيلولة قطعها الأطفال والماعز.

الذهاب مع البريد حوالي الساعة الثانية والنصف. حرارة مرتفعة. ضيق. ركوب جمل. الوصول إلى مويت القايد حوالي المغرب. (الساعة السادسة).

ليلة بيضاء كاملة. الساعة الثانية، رأيت فوق الكثيب التماع ضوء أحمر كامد ومن دون أشعة.

وفي ضوء الصباح المشوّش لاحظت صعود نجمة الصباح المحتدمة والمنتصرة. صعدت البرج، كما قال العرب.

إيقاظ حبيب. إشعال نار، وتحضير القهوة. الرحيل مجدداً في الساعة الرابعة إلى أورميس. الوصول حوالي الساعة السابعة والنصف، عبور الكثيب الأكبر. رؤية العديد من الجمال ميتة، ومن بينها جمل مات حديثاً، ملقى في وضع هجر مطلق...

أوريس. قيلولة في البساتين. منظر بهيج. قيلولة سيئة بسبب الذباب وحرارة البرانس المحتدمة. الرحيل مجدداً في الساعة الرابعة والنصف. الوصول إلى كوينين حوالي الساعة السادسة، وإلى الواد حوالي المغرب.

النزول أمام بيت حبيب وسط الشارع. التفكير في كل غرابة حياتي.

بعض الحمى قبل أن أنام. ليلة سعيدة. الاستيقاظ في الساعة الرابعة والنصف.

زيارة منزل أحد القياد. في الساحة قبالة البرج، استئجار. بداية الاستقرار.

رؤية القائد منتصف النهار. حرارة خانقة. قيلولة هانئة.

مساء الوصول. جولة جميلة رفقة عبد الرحمان شقيق حبيب، على متن بغلين، في البير الغربي بإيكوادي. ليلة شفافة في الرمال البيضاء. بستان عميق يغفو في الظلال. نداوة الأشياء وعذوبتها.

البارحة مساءً. التوقف أمام مقهى مغربي، ثم نزهة في الآبار سيراً على الأقدام. حُمّى خفيفة. ضعف. ليلة هانئة في الباحة. الاستيقاظ في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة.

أدركت أخيراً هذا الهدف الذي بدا لي مستحيلاً بعض الشيء، كما تم تحديده في المخطط سلفاً. قُضي الأمر وينبغي العمل الآن بكل الطاقة التي أشعر أني أقدر عليها. يتعيّن عليّ دفع الإيجار ما إن يصلني المال من أوجين، وأن أدفع لحبيب، ثم أشتري ما هو ضروري.

من المفروض أن يصل المتاع اليوم، وعليّ أن أركز على العمل ما إن يصبح مقامي أكثر استقراراً. عليَ أن أُنجز كتاب رحلتي الذي ستكون مرسيليا أول فصل فيه.

أنا بعيد عن العالم، وبعيد عن الحضارة وهزلياتها المنافقة. أنا وحيد، في أرض الإسلام، وفي الصحراء، حر وفي ظروف رائعة، باستثناء الجانب الصحي. ومع ذلك لا تتوقف نتائج تدبيري إلا عليّ...

٤ آب/ أغسطس ١٩٠٠، الساعة الثالثة والنصف مساء.

بدأت أشعر بالملل لعدم وصول الأمتعة، ولأني لا أستطيع أن أقيم منزلي وحياتي بشكل نهائي...

مزاجي معتكر مع بعض العصبية، وكل ذلك من دون سبب.

يقع بيت حبيب في أحد الشوارع الملتوية المفروشة بالرمال الرقيقة غير بعيد عن الكثيب، وحيث مربّع من الطوب غير المبيّض.

في إحدى الزوايا ماعزة حمراء صغيرة حول عنقها تميمة، وكلبة مع جرائها، وإخوة حبيب الكثر يروحون ويجيئون، وزوجة الأب طويلة القامة ورقيقة العظم، ترتدي ملابس بيضاء طويلة، وعلى رأسها ما يشبه الجبل: ضفائر شعر سوداء،

وضفائر وشرّابات من صوف أحمر، وفي أذنيها قرطان ثقيلان من الحديد يدعمهما شريطان ثُبتا بزينة رأسها. وعندما خرجت ألقت فوق كل ذلك قماشاً أزرق اللون. كان لها وجه غريب، لا يبدي سني عمرها، ناحِل وبعينين سوداوين كئيبتين.

أما الأب المدخن للكيف فهو غارق في حلم عذب...

ذهبت هذا الصباح لرؤية عبدالقادر بن طالب سعيد. إحساس بالخديعة. ومحمد الحشني، إحساس مبهم. رجل كتوم إلى أقصى حدّ.[1]

الأفضل أن أترك جانباً كل أولئك الناس وكل تلك الشؤون التي كلفتني غالياً جداً.

قصدوا مشارة من أجل الوصول إلى ورقلة. قال عبد القادر إنه سيذهب إلى باريس. لم يعد النائب محبوباً غ فليرحمه الله!

قريباً يبرد الجوّ. وكانت رياح خفيفة تهب بين الفينة والأخرى.

باختصار، لم أدخل بعد في درب حياتي الجديدة. ما زال هناك العديد من الأشياء المؤقتة.

الواد، الخميس ٩ آب/ أغسطس، الساعة السابعة والنصف مساءً.

لا شيء محدد للآن في حياتي العربية الكاملة وثمة ارتخاء ليس خطيراً كثيراً لأني أشعر بأن ذلك لن يستمر طويلاً. بدأ أثاثي القليل يستقر شيئاً فشيئاً، غير أن المال غير موجود دوماً.

ينبغي تجنّب اقتراض المال من الباش عادل، فمن الواضح أنه لن يكون نزيهاً. تتراجع درجة الحرارة شيئاً فشيئاً. زالت الحُمّى. الحالة الصحية جيدة.

أنا هنا منذ بضعة أيام فقط، ومع ذلك أعتقد أنني سأغيّر نمط حياتي كلياً.

جولات كل مساء في بير الراربي. اجتزنا رمالاً بيضاء كالثلج، وتقريباً شفافة تحت ضوء القمر. مررنا أمام الظل المشؤوم للمقبرة المسيحية: أسوار عالية رمادية يعلوها صليب أسود...[2] انطباع مُغمّ. ثم صعدنا الكثيب الخفيض. ومن خلال واد

---

(١) «عمى.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

(٢) «بستان محروس.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

ضيق وعميق يبدو البستان أشبه بكل بساتين الصوافة كحوض موسع من جانب باتجاه طرق الولوج إليه والآبار: أشجار النخيل الأطول توجد عند سفح جوانب الحوض الشديدة الانحدار والأصغر باتجاه الآبار.

وفي ضوء القمر الأخضر المزرق تبدو النخيلات شفافة وأشبه بسحب من الريش. وبين جذوعها الجميلة المقصوصة تنتشر بعض المزروعات الخضراء كالشمام والبطيخ الأحمر والريحان المعطر.

والماء صاف وبارد. والبئر ذات الدعامات البدائية تصدر صريراً، وقد أضحى ذلك الصوت مألوفاً بالنسبة لي. وسقطت العومارة من جلد التيس وبقبقت خلال لحظة قصيرة في عتمة البئر، ثم صعدت تلمع ماءً. وهكذا ألقيت شاشيتي على الرمال الصافية، وبللت رأسي في العومارة المصنوعة وشربت بنهم الماء البارد بعض الشيء بإحساس لذة مقلقة تقريباً يمنحها الماء المنعش هناك، ثم تمددت للحظة على الرمال.

وعمّ صمت كبير في الليل الأزرق، وأحدثت رياح صوف الدائمة حفيفاً غريباً في أوراق النخل الصلبة مع ضجيج بحري مشوش.

ثم ببطء وبعناء بدأت العودة باتجاه المدينة النائمة، باتجاه المنزل الأبيض الذي سيكون بيتي لفترة يعلمها الله وحده...

قبل بضعة أيام قضيت ليلة مع سليمان في بستان كبير لقيادة حشايش في غرب الواد.

كان هناك حوض مستطيل وشديد العمق، مدمج وسط أسوار عجيبة من الرمال البيضاء، وقد أحاطت به حواجز صغيرة من الجريد اليابس لمنع زحف الرمال.

لا حياة في ظل النخيل الفاتر. جلسنا في البداية قرب بئر اغترفت منها عبثاً بواسطة عومارة ممزقة. كنا حزينين حزناً شديداً. لربما يتشابه حزننا إجمالاً، ما دامت فكرة الممل قد تسبب لي فيها بشكل كبير تطفل جنود الثكنة.

صحيح أنه كان لي دوماً ومع كل حزني ذلك العمق الذي يصعب سبره ويشق تفسيره للحزن من دون سبب معروف، والذي هو جوهر روحي...

لكن، ويا للأسف، شاخت روحي، وماعادت تتوهم، ولم أعد أملك إلا أن أبتسم أمام أحلام روح سليمان الفتية جداً، والذي لا يؤمن بالخلود، ولكنه يؤمن على الأقل بالأمد غير المحدود للحب الأرضي، ذلك أنه يفكر بما سيؤول إليه بعد سنة

وبعد سبع سنوات.[1] واأسفاه، هناك بعض الرماد في عمق الروحين الوحيدتين، البعيدتين جداً عن بعضهما البعض، من دون شك، والمفصولتين أبداً بركام من رماد آخر غريب، وذكريات أضحت مشوّهة ومشوّشة. . . ولكنهم لا يعلمون!

ما الفائدة من وراء إخباره، وإحزانه، وجعله يعاني. سيحدث ذلك تلقائياً في يوم الفراق الحتمي.

لكن من المؤكد أنني اكتسبت منذ بعض الوقت تجربة عميقة في الحياة.

ليس فقط في هذا الباب لم يَبْق وهْمٌ في داخلي ولكن أيضاً لم تبق أي رغبة في أن أتوهم، أو أن أجعل هذه الأشياء تدوم والتي ليست عذبة وجيدة إلا لكونها عابرة. . .

لكن هذه الأشياء شخصية جداً بالنسبة لي حد أنه يستحيل علي أن أفسرها على نحو خالص، أو على الخصوص أن أجعل شخصاً آخر يفهمها ويقبلها.

تُكْتَسَبُ التجربة بثمن الآلام الكبرى للحياة، غير أنها لا تذاع أبداً.

بعد مرور ساعة، ونحن نتحدث عن الحتميات الواقعية المروّعة الممكنة، والدموع ملء أعيننا، ذهبنا للنوم تحت أشجار النخل، على برنسينا ووسادة من الرمال تحت رأسينا.

نمنا حتى حوالي الساعة الثانية والنصف، ثم صعدنا الممرات الرملية في البرودة المتصاعدة لفترة قبل الفجر، ودخلنا عبر قيادة حشايش حيث الشوارع الصغيرة المتشابكة، وحيث تعم رائحة نفاذة للملح الصخري الشبيهة إلى حد ما برائحة واحات واد ريغ! ثم عبرنا السوق حيث لم نشاهد غير بعض الجمال نائمة مع رعاتها حول دعامات الآبار الكبرى.

أمس ليلاً، ركبت الحصان الأبيض السيّئ التابع لديرة قايد الحشايش، والد مصباح، ومضيت على الطريق إلى كوينين، في قرى الواد الصغيرة، حيث الماعز الأبيض والأسود يتبول على سطوح زرائب الجريد.

وتألق الكثيب الذي كان ما يزال باهتاً، أكثر فأكثر، وأضحى بذلك اللون اللامع المحتدم لفترة قبل المغرب، وامتدت الظلال بشكل مفرط.

---

(١) «بعد سنة!» مضت سنة وحياتي. . . ربطت بشكل حميمي بحياته إلى الأبد! مارس ١٢/ VIII ١٩٠١. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

ثم صار كل شيء أحمر شديداً بالخلفيات البنفسجية الزرقاء، والمائلة إلى الاخضرار، في تداخل ألوان متنوع وغريب.

وفي الغرب، وباتجاه كوينين وتوقورت، كانت الشمس تغيب. كانت ككرة حمراء قانية في حريق ذهبي وأرجواني قرمزي، وأضحت قمم الكثبان كما لو أنها تشتعل من الداخل، في ألوان تزداد عمقاً شيئاً فشيئاً. ولمّا أعتم قرص الشمس في البعيد، غرق كل شيء في البداية في تداخل ألوان بنفسجية... وأخيراً أضحى كل شيء أبيض، بياض صوف الكامد، والذي يصيب بالعمى عند منتصف النهار.

... طلع النهار هذا الصباح معتماً وغائماً، وكان منظراً غير متوقع هنا في بلد السماء الزرقاء العنيدة، والشمس الثابتة والمستبدة...

عاودني إحساس عابر ببعض لحظات الاستيقاظ هناك في الماضي، وأماكن عزلة عميقة في الزمان والمكان في فصل الخريف...

حزن في هذه الأيام الأخيرة.

إضافة إلى ذلك، تدبرت حياتي بشكل سيّئ هنا، حتى اللحظة. وتلعب القيلولة دوراً كبيراً في ذلك.

من جهة أخرى، كان هذا الكسل هو الذي استحوذ عليّ في كل المرات التي حضرت فيها إلى بلد جديد لأقيم به، وعلى الخصوص لمقام طويل بعض الشيء. غير أن ذلك سيمر حتماً.

ومنذ هذا الصباح، هبت الرياح الشرقية الحارة قوية بعض الشيء، وتطايرت الرمال، وأضحى الجو خانقاً، وبحسب ما يقال، ليس هناك إلا حوالي عشرين يوماً من الحرارة المرتفعة.

صحتي الآن جيدة، وباستثناء فتور كبير، أحس في بعض الأحيان بأني أفضل من أي وقت مضى.

أردت أن أتمكن من التعلق بحاجاتي، لكن من أجل ذلك ينبغي النهوض على الأقل عند الاستيقاظ، وألا أعود للنوم بعد رحيل سليمان... لكن، وللأسف، إذا ما قمت بذلك بداعي الضجر والكسل ليس إلا...

وينبغي الخروج منذ الاستيقاظ، والذهاب إلى البساتين، وفي بعض الأحيان، القيام بنزهة في الصباح، سواء على حصان أو من دونه، بحسب المناسبات.

قضيت ربع ساعة في اتخاذ تدابير تقديرية ضد الذباب الذي اجتاح غرفتيّ... ستغدو هذه الاهتمامات الصغيرة بحياتي، القليلة التعقيد، ذكريات عزيزة في يوم من الأيام.

لكن من أجل ذلك لا يتعين أن يبقى الذهن شارداً ودوماً في الانتظار. أجل، عليّ أن أكرّس نفسي للحظة الحالية، مثلما هي عليه، وأن أحرص بحسب نصيحة أوجين أن أكتشف الجانب الإيجابي من كل شيء، وهو الشيء الموجود حتماً.

آه! لو فقط يمكن للحياة الحالية أن تدوم، لو أن سليمان يبقى دوماً الرفيق الجيد، والأخ كما هو عليه الآن بالنسبة لي، ولو أني أكرّس نفسي أكثر قليلاً للحياة المحلية وللانتعاشة الأولى القادمة. إلى العمل!

عندما تتزوج شابة هنا، تُحمل على ظهر رجل إلى بيت زوجها، الذي عليه أن يختبئ سبع ليال حتى يرى زوجته تأتي بعد المغرب، وتذهب قبل الصبح.

بقايا واضحة لاختطافات الماضي...

١٨ آب/ أغسطس ١٩٠٠، الساعة الثالثة والنصف مساءً.

كنت وحيداً البارحة ليلاً على متن حصان قرب الطريق إلى توقورت، في المدن الصغيرة المتفرقة على طول الطرقات حيث الكارة وتقصبات إلخ. عبرت تقصبات، وهي مدينة صغيرة بطابع كئيب وهي خربة وشبه خالية، وحيث الأنقاض المتداعية مع كل خطوة.

عدت عبر طريق الواد مع مغيب الشمس. رأيت في الكثيب الكثيب سيلاً من الرمال بشكل غير محدود مثل الأمواج البيضاء لمحيط صامت. وبدا أن دخاناً ينبعث من عتمة كثيب كبير ومحدد من جهة الغرب، كما لو أنه بركان. ثم بدت الشمس في البداية صفراء محاطة ببخار كبريتي، وأخذت تتلون شيئاً فشيئاً بألوانها المتألقة الغنية لكل المساءات...

البارحة، وفي الوقت الذي كنت أمتطي فيه الحصان، سمعت من مكان قريب نحيباً يعلن لدى العرب عن الموت... كانت ابنة السباهي صلاح الصغيرة وأخت عبد القادر الصغير هي التي توفيت، ورأيت اليوم في متجر السوق صلاح وهو يلعب ويبتسم مع ابنه.

البارحة عند المغرب دفنت الصغيرة في الرمال الحارة... ثم اختفت إلى الأبد في ليل الموت السرمدي، أشبه بالنيازك السريعة، التي تعبر عادة السماء العميقة هنا.

الإثنين ٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٠، الساعة الخامسة والنصف مساءً.

الرحيل على متن جمل إلى توقورت. الوصول الساعة الثامنة وخمساً وأربعين دقيقة إلى أورميس. المرور من هناك، أمام البرج. الرحيل يوم الرابع منه الساعة الرابعة صباحاً. الوصول إلى موييت القايد حوالي الساعة الرابعة مساءً. قضاء الليلة بين موييت القايد وتيرجان. قيلولة. الرحيل مجدداً الساعة الرابعة. قضاء الليلة بمغيتلة. الرحيل الساعة الثانية والنصف. الوصول إلى توقورت يوم السادس منه حوالي الساعة الحادية عشرة. أمضيت اليوم لدى الطالب سعيد. قضاء الليلة. الرحيل يوم السابع منه الساعة الثامنة مساءً. النوم قرب عرصة توقورت . الرحيل مجدداً حوالي الساعة الثالثة يوم الثامن منه. الوصول إلى مغيتلة الساعة الثامنة. قيلولة. الرحيل مجدداً حوالي الساعة الثالثة مساءً. الوصول إلى تيرجون حوالي الساعة السابعة والنصف مساءً. قضاء الليلة قرب البرج. الرحيل مجدداً يوم التاسع منه الساعة الواحدة وخمساً وأربعين دقيقة صباحاً. الوصول إلى موييت القايد حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحاً. قيلولة.

لا أؤمن (بالموت)، فهو مرور مُعتِم يقابله أيّ منا في لحظة من لحظات حياته. الكثير من الناس يتخوفون منه، أولئك الذين تخيفهم العتمة مثل الأطفال.

أما أنا، ففي المرات الثلاث أو الأربع التي اتفق وجودي قريباً منه رأيت نوراً من الجانب الآخر، لست أدري ما هو، ولكنه جليّ، هدّأني بشكل تام.

(فرومونتان. سنة في الساحل)

كُتب بالواد، في ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٠ الساعة الثانية عشرة

أجل، هناك نور ضعيف خلف العتمة الكبرى.[1]

---

(١) «حُرّر في مستشفى الواد في الخامس/ II ١٩٠١ بعد حادث بهيمة». ملاحظة أضيفت بعد سنة. (ملاحظة روني لويس دويون.) الأصل.

الإثنين ٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٠، الساعة التاسعة صباحاً.

البارحة مساءً بُعيد بعد المغرب بلحظات كنت في الطريق إلى صوف لدى الديرة عبد القادر، أبحث عن سرج من أجل هذا الصباح. مررت خلف المقهى عبر الشوارع الرملية الواسعة وسط المنازل شبه الخربة.

كانت الشمس الحمراء قد اختفت لتوّها خلف كثبان الطريق المتجهة إلى توقورت، وارتسم البرج والمنازل كأطياف رمادية رقيقة في تأجّج الغروب.

لما وصلت إلى الطريق أمام منزل الديرة رأيت المنظر الذي لا يمكن مقارنته، والذي عرض أمام ناظري: الكثبان بلونها الأصفر الفاتح الفضي غير المحدود تنعكس على سماء برتقالية وأرجوانية، والكل غارق في ضوء ليلكي بصفاء لون يشق تفسيره.

وقبل لحظات من ذلك، حين كانت الشمس تغيب فيها والواد يتألّق، غارقاً في لون ذهبي ساطع، رأيت طيفي عربيين بملابس بيضاء، كما هالة مقدسة، واقفين على كثيب أفران الكلس الصغير. انطباع إنجيلي بالعودة إلى العصور القديمة للبشرية البدائية، العاشقة للأنوار السماوية الكبرى...

وفي المساء، وفي حدود المدينة والصحراء، ألفيت إحساساً بغسق فصلي الخريف والشتاء، هناك في بلد المنفى، عندما يبدو جبل جورا الثلجي وكأنه يقترب ويذوب في ألوان صفراء وأخرى مائلة إلى الزرقة...

أضحت الصباحات باردة، وغيّر الضوء لونه والسماء أيضاً. لم يعد ذلك الشعاع الكئيب لأيام فصل الصيف المرهقة، وأضحت زرقة السماء شديدة، ومنعشة وصافية.

وعاد كل شيء إلى الحياة من جديد. وولدت روحي أيضاً في الحياة... لكن، وكما يحدث عادة، أشعر بحزن غير محدود يجتاح روحي، ورغبة يشق تفسيرها في شيء لا أعرف كيف أعبّر عنه، وحنين إلى مكان بعيد لن أستطيع أبداً تسميته.

منذ عدة أيام، أخذ العمل العقلي ينفّرني بشكل أقل مما كان عليه هذا الصيف، وأظن أنني سأكتب أيضاً... ويبدو لي أن المعين لم ينضب أبداً.

مررت بمرحلة ضيق مادي وكدر لم تنتهِ بعد. لا شك في أن الغد سيكون كئيباً، ولن أستطيع حتى توقع نهاية مقامي هنا، في بلاد الرمال...

والآن، حتى لو توفرت لي الإمكانات، أشعر بأنني غير قادر على الرحيل، ومفارقة سليمان إلى الأبد. ولمَ أفعل ذلك؟

بلغت أخيراً ما أعتقده سلام القلب، أما سلام الروح فما يزال بعيداً للأسف...

... تنوُّع استثنائي في الأحاسيس! أحسست قبل قليل عندما بدأت تدوين هذه الملاحظات بإحدى حالات الروح الجيدة والصافية والغامضة والتي شعرت بها خاصة في بعض الصباحات، وأنا أتجوّل على متن حصان يركض في بلاد القبور، في الطريق إلى عميش. والآن، وأنا أنهيها، أحس تلك النشوة غير المعقولة، ومن دون سبب، والتي أعرفها جيداً، والتي تدفعني إلى توبيخ أولئك الذين يتحدثون إليّ توبيخاً فظّاً...

الرابع عشر منه مساءً، تغيير السكن. منزل عند العريف النموشي.

الواد، ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٠، الساعة التاسعة ليلاً.

كنت يوم السابع عشر منه في عميش بحثاً عن سيدي الحسين.

رحلت حوالي الساعة السادسة في صباح بارد. وصلت سريعاً إلى زاوية الشيخ البيضاء الكبيرة، والتي بدت خالية، ومهجورة بالكامل عند حدود المقابر الحزينة الواسعة... الرحيل مجدداً مع خادمين، وعبور سلاسل المنازل الطويلة والبساتين المنتشرة في فوضى رائعة.

تقوم زاوية سيدي الإيمان، المعزولة والخربة، على قمة كثبان، محاطة بالخرابات وببستان أخضر جميل. ومنها انعطفنا إلى اليسار عبر قرية الشعانبة. لقاء كوزنيل والدكتور... ثم لقاء اثنين من الشعانبة يحملان أحد أفراد قبيلتهما على محمل إلى مثواه الأخير.

وأخيراً وجدت سيد الحسين عند طرف راس عميش، على طريق بئر الصوف قبالة الرمال غير المحدودة، والتي تقود إلى غدامس الغامضة والسودان البعيد.

قضاء القيلولة رفقة الشيخ في غرفة فظة وضيقة من دون نوافذ، مقببة ومرمّلة. لا شيء داخل ذلك المنزل المعزول.(١)

---

(١) «كتب يوم ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٠، وبعد أيام قليلة حصد التيفوس في المنزل عينه الذي قضينا فيه القيلولة خمس أرواح من بينهم شيخان مسنان.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

حضر شخص غريب، وهو رجل من الجنوب أسود تقريباً، بعينين كجمرتين مصاب بنوع من الصرع، يجعله يضرب من يلمسه أو يفزعه... وفي الوقت نفسه، يتميز برقة بالغة، وكان ودوداً للغاية. حوالي الساعة الثالثة الرحيل رفقة الشيخ إلى قرية الشعانبة... الرحيل مجدداً حوالي الساعة الثالثة والربع وحيداً. الوصول عند مغيب الشمس إلى المقابر الواقعة إلى اليمين من عميش. التوقف عند المغرب على الكثيب المشرف على أولاد التواتي.

كان السهل الوردي بالكامل يمتد باتجاه اليسار فارغاً وقد حفته عند الأفق الكثبان الضاربة إلى اللون البنفسجي. وفي القرية بضع نساء بأسمال زرقاء، وجمل أصهب بأشكال غريبة. صمت وسلام مطلق... العودة حوالي الساعة الخامسة والربع.

وصلت أخيراً إلى حالة الفقر المدقع والتي كان عليّ أن أتوقعها منذ مدة طويلة. ولكن أيضاً شاءت العناية الإلهية إذ استدرجتني إلى الواد أن تجنّبني خسارة محتّمة في أي مكان بعيد آخر.

من يدري، لربما لن تصلح ضربات المحنة تلك إلا لتعديل سلوكي، وأن أستفيق مما يشبه غفوة اجتاحتني، ومن اللامبالاة خاصة في ما يتعلق المستقبل.

فليكن الأمر كما يشاء الله! حتى هذا اليوم، خرجت دوماً سالماً من كل الورطات الأكثر سوءاً، والأكثر خطورة. لربما لن يتخلى عني الحظ أبداً. طرق الله لا ينفذ إليها.

كنت اليوم في الطريق إلى صوف، حيث طريق دبيبلا، الجملية جداً، عبر جبال ووديان، وسط بساتين شبه برّية ومنازل قديمة خربة.

وحيث بعض الأراضي المالحة، والسبخات الصغيرة الحمراء وسط رمادية الكثبان المائلة إلى البياض، والأخضر القاتم لأشجار النخل.

الوصول حتى المسلخ الواقع وسط السبخة الأكثر امتداداً، والمحاطة بالكثبان... مظهر للهجر وللحزن.

الرابع من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٠.

كنت هذا الصباح بصوف، في الكثبان والبساتين التي تفصل طريق توقورت عن طريق دبيبلا. ممرات وعرة، في قمة الكثبان المائلة على البساتين العميقة.

تساقط المطر الليلة الماضية، وكانت الرمال مبللة، يميل لونها إلى الصفرة مع رائحة ملحية خفيفة، منعشة ولطيفة.[1]

وفي البعيد، على طريق الجريد باتجاه الشرق بجانب طرفاية، بدت الكثبان المرتفعة اللازوردية مثل أمواج بحر هائج.

وعلى المنحدرات الرتيبة نمت بعض الأعشاب كثيفة الأوراق هي نوع من السيدوم البارد بلون أخضر فاتح، وبساتين ينثر الجزر والفليفلة عليها زرابي بلون أخضر فاقع تحت أشجار النخل المتخلصة من غبارها الرمادي. كل شيء يعود للحياة، وفصل الخريف هذا في إفريقيا يشبه كثيراً فصول الصيف هناك في بلد المنفى، وعلى الخصوص في المساء عند غروب الشمس.

حياتي هي نفسها دوماً، رتيبة ومن دون تنوع محسوس، حتى إنها أضحت منذ بعض الوقت منعزلة جداً، متفرقة بين منزلي الذي أعتبره مثل معسكر، مادمنا سنغيره في القريب من أجل بيت آخر، ومنزل منصور، وإلا فإني سأقصد عبد القادر الذي بدأت أتعلق به بصدق. لو أتمكن فقط من إيجاد بعض الكتب لديه فإن ذلك سيشكل عزاءً لي.

أما سليمان فلا شيء تغير فيه، باستثناء أني أزداد تعلقاً به من يوم إلى يوم، إذ صار فرداً من أفراد عائلتي، أو بالأحرى كل عائلتي... فليدم ذلك أبداً، حتى هنا في الرمال الرمادية على نحو لا يتغير أبداً[2]! ومع ذلك أتوقف بعض الأحيان في المنحدر

---

(١) «سيعود فصل الخريف هناك، في بلاد الكثبان الداكنة. ومجدداً ستتألق الشمس تحت سماء أكثر صفاء، على نحو أقل إحراقاً، وستمحي رياح الصباح الباردة ضباب الليل، وستنثر الرمال الرطبة عطورها البحرية. وسيزرق الأفق، وستستعيد البساتين لونها الأخضر... أما أنا فلن أكون هناك أبداً، حتى أتجول وأحلم. كل شيء سيكون شبيهاً بالمنظر الثابت للصحراء المحبوبة... غير أننا لن نكون هناك أبداً، لنرى ولنحلم... سنكون في البعيد، بعيداً في بلد المنفى... باتنة الفاتح من شهر نيسان/ أبريل سنة ١٩٠٠.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

(٢) كُتب بتاريخ ٢٨ ـ ١ـ ١٩٠١ حتى هنا في الرمال الرمادية! واليوم ما الذي لاأستطيع منحه حتى لا أترك أبداً هذه الرمال الساحرة لوادي صوف، وحتى أنام فيها في يوم من الأيام، نومي الأبدي! ... في اليوم الموالي كنت مستعدة لأقطن بها إلى الأبد. آذار/مارس ١٢/ VIII ١٩٠١.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

الزلق لهذا الحذر الذي يجتاحني أكثر فأكثر، ولا أملك إلا الاندهاش لقدري العجيب...

أن أحضر، بعد العديد من الأحلام الكبرى، والكثير من التقلبات، وينتهي بي الأمر في واحة تائهة في عمق الصحراء!...

كيف ستكون نهاية الوضع الحالي؟...

الواد، بداية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٠.

يعني الذنْبُ الشرَّ، وهو الحالة الطبيعية للإنسان، مثلما هو الحال بالنسبة لكل الكائنات الحية...

وكل الخير الذي نقوم به ليس في الغالب إلا وهماً. وإذا ما كان بالصدفة واقعاً فهو إذن نتيجة لانتصار بطيء ومؤلم حققناه على طبيعتنا التي هي أبعد ما تكون عن دفعنا لفعل الخير بل تبعدنا عنه من دون توقف...

عند استيقاظه هذا الصباح، أحس نفسه مكدراً مجتاحاً بشيء أشبه ما يكون بحدس بالموت، في حضور هذا الفعل الذي لا يمكن علاجه. (بيير لوتي، ملاح)

تذكر الاستيقاظ في البحر، يوم الثاني والعشرين من شهر تموز/ يوليو ١٩٠٠...

دُوِّن بالواد (المستشفى) بتاريخ ٦ ـ ١١ ـ ١٩٠٠

الواد، الفاتح من شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٠.

منزل صلاح بن طالبة

تتساقط الأمطار... الجو كئيب ومعتم، واتخذ الكثيب هيئته الحزينة للأيام السيئة.

بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر تشبه بشكل فريد بداية سنة ١٨٩٧ المشؤومة... الجو نفسه، والرياح القوية عينها، والتي تصفع الوجه بغضب... لكن في ذلك الوقت كان الأفق يمتد أمامي على الاتساع الرمادي للبحر الأبيض المتوسط الهائج،

ويضرب صخور ليون السوداء بقوة كارثة أرضية... وفي روحي التي كانت ماتزال فتية، على الرغم من الحزن الحديث جداً والوحشي جداً، كانت ماتزال سعادة العيش موجودة، كامنة وقوية...

لكن منذ ذلك الوقت تغير كل شيء، كل شيء، حتى روحي شاخت، وأضحت أكثر نضجاً بفعل قدر غريب، ومتقلب وساحر... أجل تغير كل شيء... فقد ألفى أوغستان أخيراً مرفأ النعمة، الذي يبدو أنه مقدّر له ألا يخرج منه أبداً... وبعد الكثير من التعاقبات، وبعد العديد من المغامرات، هدأ أخيراً، وبطريقة غريبة.

أما أنا فأعتقد أيضاً، أو بالأحرى بدأت أعتقد، بأني وجدت مرفئي أيضاً.

أنا الذي لا تكفيني أبداً السعادة الهانئة لمدينة أوروبية أو مدينة من مدن التل، وضعت في إحدى لحظات الإلهام المشروع الجريء، والقابل للتحقيق بالنسبة لي، بأن أستقر في الصحراء، وبأن أبحث فيها عن السلام والمغامرات في الآن نفسه، وهي أشياء تتوافق وطبيعتي الغريبة. فقد وجدت السعادة المنزلية، وهي أبعد ما تكون عن التناقص، ذلك أنها تتقوى يوماً بعد يوم...

السياسة وحدها هي ما يهددها... لكن للأسف! الله يعلم غيب السماوات والأرض! ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل.

وصلت قبل خمسة عشر يوماً فقط، في ذلك المساء، للقاء الحبيب حتى أسفل كوينين، ليلاً.

خرجت باتجاه صوف في عتمة رمادية مدوخة...

ضللت الطريق في العديد من المرات... انتابتني أحاسيس غريبة في السهل ذي الأفق الذي بدا أنه يصعد على شكل كثبان، والقرى التي بدت كحواجز جريد...

تذكرت فقرة من الأزيادي، حيث الحديث عن قبور اسطنبول، المضاءة بقناديل وحيدة، عندما ألفيت نفسي فجأة أمام باب قُبّة مقبرة تقصبات.

خلال بضعة أيام كنت كل فترات بعض الظهر رفقة خليفة طاهر أو وحيداً في طريق ديبيلا... حيث بساتين ورود رملية، وبساتين نخل كثيبة، وسياجات، وفي الخلفية كثبان صوف الأبدية.

أحسست ذات يوم، خلال إحدى النزهات وحيداً، بشعور فريد للتذكر، وللعودة إلى الماضي الميت. . .

فعند مروري داخل السبخة أوقفت حصاني تحت النخل.

كنت أحلم بعينين مغمضتين، وأنصت للريح تدمدم في الأوراق. . . تذكرت غابات الرون الكبيرة ، والحديقة المغربية في لحظات التفكير أثناء الصيف. . . وكان الوهم مطلقاً تقريباً.

لكن سرعان ما عدتُ إلى الواقع على نحو سريع، وبفعل حركة مباغتة من صوف. . . أعدت فتح عيني. . . كانت الكثبان تمتد إلى ما لا نهاية، رتيبة ورمادية. وفوق رأسي كانت الأوراق التي تدمدم أوراق الجريد اليابسة. . . لحظة حنين عميقة. . .

كنت في يوم آخر في الطريق عينها رفقة سليمان.

وكنت أعود وحيداً عبر الكثبان من الطريق الخلفية للمدينة. . . كان غروب الشمس رائعاً. . . وكانت السحب حمراء في سماء لبنيّة اللون كحجر كريم. . . أمضيت ساعة المغرب أمام مسجد في جانب المدينة المرتفع حيث كانت الأطياف البيضاء تتسابق في أشعة متألقة تغرق الأرض.

وخلف منزلنا كان مسجد صغير ينتصب عند سفح كثيب جوار مكان مسيّج يضم ثلاث نخلات صغيرة. وكان ذا طابع إفريقي جداً، وقد شُيّد من الجبص الترابي الأشبه بالطوب. . .

وليس هناك إلا قُبّة صغيرة أشبه ببيضة بدعامات. وارتفعت خلفنا نخلة جميلة، تبدو من خلال سطحنا كأنها خرجت من القبة. صعدت أمس وقت المغرب هناك. . . وفي احتدام شمس المغيب كانت أطياف رمادية ومحمرّة تمر جوار البريد في البعيد. . . وهنا، إلى يميني، وبينما كان المؤذن يعلن وقت صلاة المساء في كل آفاق السماء بصوته المديد والبطيء كان الرجال ينزلون من الكثيب في مجد الساعة الحزينة.

في هذه الأيام الأخيرة راودتني الذكريات المؤلمة لنهاية الروح البيضاء.

الواد، ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٠، الساعة الثانية ليلاً.

الجمعة

بعد يومين من الألم والملل يبدو أني عدت إلى الحياة مجدداً.

يزداد الجو برداً. البارحة ليلاً عمّ ضباب كثيف، مذكراً إياي بالنهارات الضبابية لأرض المنفى.

سيكون فصل الشتاء الذي سأمضيه هاهنا قاسياً من دون نار ومن دون مال... ومع ذلك ليس لي أية رغبة في ترك هذا البلد الغريب...

ذلك اليوم، وبينما كنت جالساً مع عبد القادر في باحة زاوية القباب، كنت أتأمل باندهاش المنظر الغريب حيث الرؤوس الفريدة للشعانبة السمر نصف المغطاة بأثواب رمادية... وجوه سوداء تقريباً، ذات طاقة كبيرة حد الوحشية لأناس الجنوب... كان ذلك في باحة الزاوية الخربة محيطين بالشيخ العملاق الأشقر ذي العينين الزرقاوين...

قدر يزداد فرادة كل يوم، أكثر من قدري!

ومع ذلك فإذا ما أسفت على شيء فعلى أحلامي المتعلقة بالعمل الأدبي... للأسف، هل سيتحقق أبداً؟

ومن بين ذكرياتي في الجنوب، تلك التي ستكون من دون شك الأكثر حياة، هي بكل تأكيد ذكرى ذلك النهار الجدير بالذكر يوم الثالث من شهر كانون الأول/ ديسمبر حيث حظيت بفرصة حضور أحد أهم الاحتفالات: دخول المرابط الأكبر السي محمود الهاشمي، الشخص الذي يفوق كل وصف، والفاتن والجذاب الذي سحرني في توقورت بغرابة شخصيته... رجل آت من زمن آخر، بأفكار وتصرفات الزمن الماضي. خلق السي الهاشمي من أجل ممارسة سلطة غريبة على الأرواح المغامرة... نشوة فريدة في ذلك الصباح المتقزح والصافي لفصل الشتاء تعادل نشوة البارود، ونشوة الموسيقى البربرية لنفساوة بالبنادير، وأصوات الحشد الصارخة التي تهتف للمتحدر من نسل الرسول وولي بغداد، والعدو السريع المهتاج والأخرق وسط الدخان والضجيج...

٢٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٠ (رمضان).

على نحو غير متوقع تماماً، وعلى الرغم من مرضي ومن ضعفي، وكدر الصيام، والكدر الأكثر خطورة للجانب المادي، فقد حملت إليَّ ليالي وصباحات رمضان مشاعر هادئة ورائعة من الصفاء وتقريباً من الفرح.

وكان عذباً بالنسبة لي التأكد من أن صديقي للأيام الخوالي، الجيدة منها والسيئة، وخاصة السيئة، أوغستان، ما يزال يتذكر أخوة الروح، التي كانت تجمعنا في الماضي، سواء كان قريباً أو بعيداً، على الرغم من كل المكائد ومن كل العقبات، والتي يبدو أن الحياة أرادت وضعها بيننا من دون توقف...

ويوماً بعد يوم أتأكد أنه لا يوجد إلا سبيل واحد في الواقع للعيش، إن لم يكن بسعادة بشكل تام، مادام أن هناك المرض والبؤس والموت، فبهدوء على الأقل، وذلك بأن أنعزل ما أمكنني عن الناس، باستثناء بعض المختارين القلائل، وعلى الخصوص، ألا أتعلّق بهم.

لا وجود هنا للمجتمع العربي، غير المنظم والفاسد بالتواصل مع الأجنبي، مثلما هو عليه الحال في المدن الكبرى. أما المجتمع الفرنسي... فبحسب ما لحظت عن طريق الملازم أول في الجيش، وعلى الخصوص، عن طريق الدكتور،[1] فقد خَسِر أشياء كثيرة هنا. والشخص المفكر والجيد الوحيد هنا كان دوميرك المسن، والذي كان بإمكاني أن أتحدث إليه بخصوص أشياء تتعلق بالروح وبالنفس.

٢٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٠١، الساعة الثامنة صباحاً.

مرة أخرى، كل شيء انقلب وتكسّر في حياتي الحزينة. انتهت الحياة الواهنة والعذبة في المنظر الساحر للرمال المتحركة! وانتهى السكون اللذيذ الذي كنا نستسلم له كلانا!

يوم الثالث والعشرين مساءً علمنا بالصدفة خبر نقل سليمان والعودة إلى باتنة...

---

(١) «عمى أحكام البشر: بعد وقت قصير من ذلك حظيت بفرصة احترام الطيبة الكبيرة والذكاء الفعلي للدكتور نفسه. باتنة بتاريخ ١٣ نيسان/ أبريل ١٩٠١». (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

لحظة كدر يتعذّر وصفه، ولحظة يأسٍ تقريباً...

من جهة أخرى، أضيف إلى حزن الرحيل الغامر، والحياة القاسية بباتنة بعيداً أحدنا عن الآخر، قلق الحالة المادية حيث ١٠٠ فرنك من الديون، وهو مبلغ لا نمتلك منه قرشاً واحداً.

ليلة محزنة من دون نوم، أمضيتها في تدخين الكيف، وفي الشرب.

قمت صباح اليوم الموالي وقصدت بقلقٍ على وجه السرعة سيدي الهاشمي. وجدته محاطاً بحجاج سيرحلون غداً من أجل الزيارة الكبرى لشيخ نفطة الكبير. قضيت أكثر من ساعة، بقلب منقبض وذهن شارد، أتحدث عن أشياء تافهة من طرف شفتي. وأخيراً أخذت الشيخ جانباً، وتم الاتفاق على أن أعود بعد المغرب رفقة سليمان. عدت خبباً، محطماً، بساقين متصلبتين في الركابين.

وجدت سليمان يكاد يفقد عقله. كان تائهاً وتقريباً لا يعي ما يفعله. في المساء، وقبل المغرب بوقت قصير، ذهبت باتجاه صوف. أرسلت علياً ببرانس سليمان إلى مقبرة أولاد أحمد. وعند مغيب الشمس وصلت إلى آخر القبور الممتدة على الطريق. قلقت جداً لعدم قدوم الحبيب. منذ مدة طويلة لم ينقبض صدري بمثل الانقباض الذي كان عليه ذلك المساء، وأخذت أفكار حزينة تضغط على رأسي المحموم.

أخيراً، وبعد أذان المغرب، عند حلول الليل، وصل سليمان عبر طريق مسجد أولاد أحمد. ذهبنا خبباً حتى حديقة حماة عييش تاركين علياً الذي كنت قد أرسلته إلى الثكنة.

رحلة مشؤومة على الضوء المضطرب لهلال صفر الخير... خوف شديد من أن أرى سليمان يسقط من على متن حصانه، وغم لمعرفة ما سيقوم به الشيخ من أجلنا... وأخيراً وصلنا ورددنا على التحايا المكررة لكزون ولخدام آخرين، ثم جلسنا أمام الشيخ في القاعة الرملية الواسعة ذات القباب المنخفضة والصلبة... وكانت شمعة تضيء البساط الأحمر الكبير الذي كنا نجلس عليه، تاركة زوايا الغرفة في عتمة غامضة.

وخيم صمت ثقيل. أحسست بأن روح[١] المسكين لا يستطيع الكلام، وحتى أنا بدا وكأن شخصاً كان يخنقني.

---

(١) تقصد سليمان. المترجم.

رأيت روح يبكي، ورغبت في أن أنفجر أنا أيضاً.

غير أن الشيخ ذكرنا بأنه يمكننا أن نأتي، وأنه لا ينبغي أن نخون أنفسنا...

حرصت في اضطرابي أن أشرح له طويلاً ما حدث، وما هو وضعنا... صمت مرهقاً وبدا كما لو أنه غائب.

وأخيراً، تبادلنا أنا والشيخ نظرة حرصت أن أضع فيها كل روحي، مشيراً إلى روح الذي بدأ يفقد وعيه تماماً، وقد أحرقته الحمى... وهكذا قام الشيخ ودخل منزله... كان قد حان الوقت فقد تكدرت عيناه.

عاد بعد لحظة، ووضع أمام روح ١٧٠ فرنكاً وهو يقول «سيؤدي الله الباقي».[١]

عندئذٍ، ومن دون أن يقول شيئاً، ومن دون أن يتناول الأوراق، أخذ روح ينظر إليها ويضحك. كانت ضحكة مجنونة أصابتنا بالذعر أنا و الشيخ. كانت ضحكة صامتة تبدو أشد حزناً من الدموع.

تساءلت إن لم يكن على وشك أن يفقد عقله تماماً. وأخيراً، خرجت وراء الزاوية... وفي البعيد كانت الكثبان المحزنة لطريق طيبة القبلية تغفو على ضوء القمر المشوش.

وانتصب أمامي في الرمال الحجرية طيف مقبرة أبناء الشيخ حيث يرقد العديد من الأشخاص البريئين، الذين ما كادوا يظهرون في الحياة حتى أُخذوا في العتمات الغامضة لما بعد الموت. أرواح فتية لم تكد تفتح أعينها الأرضية على أفق الكثبان القاحلة الكبير، وسرعان ما خبت...

وفي الرمال التي راكمتها رياح الغرب على الجدار السميك ذي الدعامات الثقيلة توقفت ورأيت في الصمت العميق المرور العابر القريب جداً منها لحيوان ليلي لم أتمكن من التعرف عليه، حيوان ليلي أو ثعلب صغير، من يدري؟ رفعت عينيَّ إلى السماء وشرعت في قراءة الفاتحة بصوت منخفض، وبتوجه صادق إلى الله، وتضرعت إلى أمير الأولياء، الذي أحمل سبحته التي ضغطت عليها...

عدت، ثم رحلنا بقلبين تلطفا غير أنهما ظلا حزينين على الرغم من ذلك...

كنا نخشى أن يفقد أحدنا الآخر في المقابر الكبرى، وفي الكثبان المصفرة...

---

(١) «اجعلنا في كنفك يا سيدي!». (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

والواقع أننا دخلنا عبر البلدة شرقي أولاد التواتي، مروراً بالممر الضيق الذي يميل على البستان العميق لحماة عياشي، ورأينا المشهد الغريب حيث أشجار النخل عند أقدامنا ترقد في الظل. . . وبين جذوعها تدخل بعض الأشعة الفضية والوردية بشكل غامض.

وعلى مستوى منخفض جداً باتجاه الأفق الغربي، وفوق الكثبان الكبيرة التي تطل على المقبرة الإسرائيلية، كان الهلال المقلوب يوشك على الاختفاء.

كانت الساعة تقارب العاشرة وما من صوت يقلق صمت المناطق المعزولة القاحلة حيث كنا. بدا أن كل شيء في تلك الليلة اتخذ أشكال الأشياء الخاصة أيام تتقرر أقدارنا العابرة. . .

ساد غموض عميق حولنا وكنا نشعر به كلانا بشدة. صمتنا وأنصتنا لوقع حوافر حصانينا الناعم وهي تثير الرمال في الطريق.

عندما دخلنا مقبرة أولاد أحمد غاب القمر. وفي لحظة بدا قرنا الهلال الأحمرين وحدهما عند قمة الكثيب الكبير. كان منظراً غريباً ومقلقاً. . . ثم انتهى كل شيء، وغرق كل شيء في عتمة الليل. . .

كنا نتقدم بحذر مخافة أن نتعثر ونسقط، ذلك أن الطريق كانت مملوءة بالقبور. عند الانطلاق بعد المغرب كانت المصابيح تشتعل في المقبرة، في مدينة الأموات الصغيرة والكئيبة، شرارات ضعيفة في ضوء النهارالآفل. كانت ليلة جمعة.

كل شيء غارق الآن في العتمة، فقد أطفئت الأنوار، وكانت القبور تغفو في الظلمة. آه! مغادرة هذا البلد، ولربما عدم رؤيته مجدداً! . . .

أعلم سليمان في اليوم الموالي امبارك والعريف سعيد اللذين أثبتا كلاهما أنهما شجاعان وشريفان.

أول من أمس، حوالي الساعة الثامنة، رحلت رفقة علي إلى غيمار. مررنا عبر المقبرة وطريق سيدي عبد الله، ثم انحرفنا باتجاه الغرب من تقصبات، ومررنا أسفل كانيمين إلى اليمين قليلاً من طريق توقورت. كان الصباح ندياً مع بعض السحب. وصلنا إلى الكثبان فتركت علياً خلفي وركض بي الحصان ثم مضى خبباً.

مظاهر حزينة لسهل تاغزوت الكبير، وفي الأفق الشمالي بدا هيكل قبّة جويا الكبيرة. . . ومن البعيد كانت أشجار نخيل تاغزوت وغيمار التي تختلط في أُفق

السهل الكثيب حيث تمتد المقابر الكبيرة، تعطي انطباعاً وهمياً بالوصول إلى توقورت عند النظر إليها من الكثبان الأخيرة لطريق صوف... والسهل الحزين عينه والخط الأسود للنخل وسط المنازل المبيضة. فكرت بانقباض صدر شديد أن عليَّ خلال أيام قليلة أن أسلك تلك الطريق، وأن أصعد إلى الشمال، ولربما لآخر مرة ويا للأسف!

... في أيام الكدر هذه، والشك والحزن، أشعر بمدى ارتباطي بهذا البلد، وبأني حيثما توجهت الآن سأحزن دوماً وبشكل مرير على بلد الرمال والشمس والبساتين العميقة والرياح التي تثير سحباً من الرمال على واجهة الكثبان التي تشكلها على هواها عبر قرون على النحو نفسه دوماً، وبالرتابة عينها.

تأملت المقابر الغريبة وعلى الخصوص تلك التي تقع أسفل تاغزوت إلى اليمين، حيث المقابر على شكل أجراس مسننة، والقباب الصغيرة على شكل أبراج بدعامات، وكل الفوضى الرائعة لمدن الأموات المحيطة بالمدينتين الشقيقتين، تاغزوت وغيمار.

وجدت بسهولة زاوية سيد الحسين، حيث دار حديث حزين في الغرفة البائسة المفتوحة على الباحة الكبيرة المملوءة بأحجار ذات أشكال غريبة...

وأخيراً خرجت إلى الباحة الخارجية، فلمحت طيف الروح الأحمر، يسلك طريق السوق، فأرسلت علياً ليلحق به...

عندما قصصنا آلامنا، وعند رؤية روح الذي بدا كأنه أخرج من الأرض، بكى الشيخ الطيب مفكراً في فراقنا القادم...

وجمعتني به ذكريات طيبة أيضاً... جولاتي معه في عميش وأورميس، وأحاديثنا الطويلة، وغموض مشاريعنا المشتركة...

رحلنا قبيل العصر... وافترقنا عند كثبان كوينين. عدت لأسلك طريق الواد صحبة علي باتجاه الغرب تاركين كوينين إلى اليسار. وكانت نساء بأثواب زرقاء يعدن منحنيات تحت ثقل قِرَب مملوءة.

وما إن اجتزنا كوينين حتى رحلت وحيداً، ركضاً على متن حصاني آملاً أن ألحق بسليمان.

تأخر الوقت كثيراً فعدت مع حلول الليل عبر طريق مقبرة سيدي عبدالله المقفرة.

٢٩ كانون الثاني/ يناير، الساعة التاسعة صباحاً.

أول من أمس، حوالي الساعة الرابعة والنصف، أعلمني علي بأن كيزون أخبره بأن سيدي الإمام سيرحل في الغد (أمس) إلى نفطة... ترددت طويلاً، ومع ذلك كان ينبغي عليّ رؤية سيدي الإمام في محاولة لإنجاح المسعى الذي تحقق على نحو جيد مع شقيقيه.

أخيراً، وقبل حوالي ربع ساعة من المغرب، رحلت على متن حصان دحمان.

كانت انطلاقة سريعة على ضوء الغروب الأحمر.

سمعت أذان المغرب في القرية الواقعة أسفل زاوية البياضة.

ثم رأيت على التلة المنخفضة هيكلي قبتي زاوية سيدي عبد القادر العتيقة والأقدم في صوف...

أخذت القرية تتلاشى في ظلال مائلة إلى اللون الأزرق شفافة وليّنة. كنت في حال أهدأ وأفضل.

وجدت... (قطع هذا اليوم).

ذهبت إلى بهيمة حوالي الساعة العاشرة والنصف، ودخلتها في اليوم الموالي الثلاثين منه حوالي الساعة الثالثة مساءً.

دخلت المستشفى يوم الثلاثين من شهر كانون الثاني/ يناير...

أين أنت يا صديقي الذي لا يُنسى، صديقي الحقيقي والوحيد؟
أين أنت أيها الملك، يا من يحدثنا صوته عن الحقيقة والحب؟
أين أنت، وأنت يا شوشكا الطيبة والبسيطة، أين أنت؟

«عرفتَ كيف تُخمّن، وسط الغبار والقذارة التي اجتاحت روحي آنذاك، الشيء الذي كان لا يزال يحترق داخلها، شرارةَ النور المقدسة. شكراً لكم أيها الأحبة، أيها الودودون والذين لا ينسون أبداً! شكراً!

في لحظة الألم والمعاناة، وفي آلام الفراق، تنتصب ذكراكم العزيزة أمامي في ظل الماضي. هل سيجمعنا القدر مرة أخرى؟»

مرسيليا بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩٠١ الساعة التاسعة ليلاً. ـ«أنا وحيدة في المنزل، والجو كئيب وحزين هنا، ومَن سيبعث النور بعيد عني. أين أنتم أيها الأعزاء؟»[(١)]

٣ شباط/ فبراير ١٩٠١.

أيتها الحياة، هل قدري أن أتيه في العالم لمدة طويلة؟
أين أنت أيها المرفأ حيث يمكنني أن أستريح؟
أين النظرة التي يمكنني أن أعجب بها؟
أين الصدر الذي يمكنني أن أستند إليه؟
أنا وحيد إلى الأبد...

«للأسف! كان المرفأ هناك وسط الصحراء ذات الألوان الرمادية، وكانت هناك أيضاً العينان الصادقتان للأخ ـ الصديق، والصدر الصادق، لكن الجميع رحلوا!»

هذا الصباح (٣ شباط/ فبراير ١٩٠١) وفي لحظة حزن حنونة وغامضة حيث كان أمام باب القاعة الكئيبة، وعلى المائدة الرمادية، طائر فريد صغير. كان بلون رمادي مثل رمال الصحراء، صاعداً على قائمتين باردتين وعلى صدره المزيّن طوق صغير أسود. كان يقفز ويغني مذكراً إياي ببلد المنفى... راودني إحساس عذب ولطيف ومهموم في آن، لعلّه هو الروح البيضاء، التي حضرت على هذا الشكل اللطيف لتغوي روحي المنقبضة في المدينة المنتحبة.

أتيهُ أكثر من أي وقت مضى في ما يعجز عن الوصف، في العمق المعتم لروحي، وأتصارع مع نفسي في الظلمات. كان الحلم معتماً... كيف ستكون اليقظة، وكيف سيكون الغد؟

٣ شباط/ فبراير ١٩٠١.

إحساس بفصل الربيع في ما مضى، الفصل الشاحب والمضيء.
منحنا الحظُّ وأباؤنا كودائع، ومن الضروري أن نستعيدها في يوم من الأيام.

---

(١) كتبت الملاحظة بقلم الرصاص وباللغة الروسية. (ملاحظة روني لويس دويون.) الأصل.

في اليوم نفسه، الفكرة نفسها دوماً، والاندفاعات عينها.

«باتجاه سنوات مضت، باتجاه حب انتهى.
نامي على صدري، يا حيّة الذكريات!
لاتزعجي هدوئي الحزين!
غرفت لي في الماضي حرارة الحب،
من تلك العينين، في عاصفة الحياة
في الأرض الرطبة، تحت بلاطة الحجارة
أعلم أنه منذ مدة طويلة لم يبق أي أثر!
ظلال ضبابية للماضي
دموع صافية للماضي
آه! لماذا استيقظت، من دون توقّع
في قلب مكلوم يئنّ؟
إرحلي. لا يخدعنّكِ سِحرُكِ
فقد ماتت روحي، وتعبت من الحياة!

«...كل شيء يوحي بفصل الربيع. أعلى قباب المنزل الرمادي المقابل، وقبّة الشمس المتألقة. وأنا، أقلق وأتألم وحيداً ومهجوراً على سرير حقير في مستشفى!»

٩ شباط/ فبراير ١٩٠١.

الشر، هو عدم انتظام في قوانين الله، ولا يمكن أن يتبع بشكل قدري في تحققه طريقاً منتظمة. لأجل هذا، وفي كل الحسابات الشريرة، هناك العديد من الثقوب الممزقة ومجموعة من المكائد.

وحتى بجوهره، لا يمكن للشر إلا أن ينتهي بشكل سيّئ لدى من كان وسيلته.

فكرة حضرتني هذه الليلة بعد الساعة العجيبة، ساعة المغرب التي لا توصف،

حيث شعرت بعالم من الأحاسيس الجديدة ينبعث في داخلي، مساراً وتوجهاً نحو هدف أجهله ولا أجرؤ على تخمينه.

. . . أجل، في هذه اللحظات الأكثر اضطراباً في حياتي روحي في حالة ألم ولادة.

كيف سيكون الغد عندما أكف عن التسكع في الظلمات؟

نعيش حالة غموض قصوى، ونشعر نحن الإثنان بجناح المجهول القوي يلامسنا، وسط الأحداث الإعجازية بالفعل والتي تساعدنا مع كل خطوة. . .

هذا المساء، حوالي الساعة الخامسة، نُقل عبد الله محمد إلى زنزانة بالسجن.

رأيته يحضر، ونظرت إليه بينما كان الجنود يفتشونه. . . انتابني شعور مؤثر بالرأفة العميقة حيال ذلك الرجل، الوسيلة العمياء لقدر يجهل معناه. . . وراودني وأنا أنظر إلى الجسد الكئيب الذي كان يقف منكّس الرأس وسط الرجال ذوي الثياب الزرقاء إحساس بالغموض لعلّه الأكثر غرابة والأكثر عمقاً. . . لم أشعر بمثله يوماً.

بحثت في أعماق قلبي عن الكراهية لذلك الرجل، لكني لم أجدها أبداً، بل إني لم أجد حتى الإزدراء.

الإحساس الذي أشعر به اتجاه ذلك الكائن فريد، فهو يبدو لي وأنا أفكر في الأمر يحاذي هوّة، وغموضاً لم يقل بعد الكلمة الأخيرة. . . أو بالأحرى، لم يقل كلمته الأولى التي تتضمن كل معنى حياتي. ومادمت لم أعرف كلمة هذا اللغز ـ هل سأعرفها أبداً! الله وحده يعلم ـ لست أعرف من أكون، أو ما سبب قدري وهدفه الأكثر سحراً من بين كل الأقدار جميعاً.

ومع ذلك يبدو لي أنه مقدّر لي أن أرحل من دون أن أعرف كل الغموض العميق الذي يحيط بحياتي، منذ بدايتها الفريدة وحتى هذا اليوم.

«جنون» هذا ما سيقوله الشكاكون من محبي الحلول الجاهزة والذين يفقدهم الغموض صبرهم. . .

كلا، فإدراك العتمات التي تخفيها الحياة، والتي يجهلها ثلاثة أرباع الناس، الذين لا يشكون حتى في وجودها، لا يمكن أن يعتبر جنوناً، مثلما يعدّ احتقاراً وصفُ فنان لروعة غروب الشمس، أو ليلة مليئة بالنجوم لشخص ولد أعمى.

من اليسير جداً تهدئة روح الإنسان الخائفة والفزعة من الجوار المجهول بواسطة

تفسير مبتذل، يغترف من التجربة المزيفة للناس، ومن «الأفكار الشائعة»، ونفاية مشوّهة لبقايا أفكار ناقصة، ومعارف مصطنعة واحتمالات أخذت على أنها حقائق بواسطة ما لا يُقدّر من الجبن المعنوي للناس!

إذا كانت غرابة حياتي افتخاراً بما لا أملكه زهواً وتكلفاً، أجل يمكن أن يقال: «هي من أرادت ذلك». . . لكن كلا! فليس هناك أبداً شخص عاش عبثاً، وعلى الصدفة مثلي، حتى الأحداث بتعاقبها المحتوم هي التي قادتني إلى حيث أنا، ولست أنا من صنعها.

لعلّ كل غرابة طبيعتي تتلخص في هذه السمة الخاصة جداً: البحث مهما كلفني ذلك من ثمن عن أحداث جديدة، والفرار من العطالة والجمود.

٥ ـ ١١ ـ ١٩٠١، الساعة الثانية والنصف صباحاً[1]

لا شيء مما يمكنني قوله في هذه الصفحات الكاملة أو المجلدات يمكنه وصف الحنين الذي لا اسم له لهذا الإحساس. . . (شبح الشرق).

أفكر في الواد، في المنزل الغالي المجاور للكثبان المسحوقة. . . ما أزال في المدينة الفريدة غير أني لا أشعر بأني فيها. . . وعندما كنت أشاهد هذا الصباح عبر فتحات السور المقهى المقابل والشارع وجدار منزل قايد المصاعبة بدا لي أني أرى منظراً آخر، على سبيل المثال منظر مدينة مجهولة، أي مدينة، تُرى من جسر مركب خلال توقف قصير. . . فالرابط العميق والمؤلم تقريباً الذي كان يربطني بها كسِر بعنف. . . ولم أعد إلا شخصاً غريباً فيها. . .

من المحتمل جداً أني سأرحل مع موكب الثاني والعشرين، أي خلال سبعة عشر يوماً. . . ثم سينتهي الأمر إلى الأبد ربما.

ولن يتبقى لي شيء من حياة الأشهر الستة هذه إلا الذكرى العذبة، الحزينة والحنينية بشكل يتعذر وصفه. . . والتعلق الثابت من دون شك بالشخص الجيد

---

(١) «تغيير الضمادة الطبية وإزالة المصارف يوم الخامس منه، الساعة التاسعة والنصف صباحاً.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

والصادق الذي كان إلى جواري في اللحظات الأكثر قسوة، والذي كان لي بالكامل وإلى الأبد من دو دون شك على الرغم من كل صعوبات العيش قربي. . . وهو بكل تأكيد الشخص الذي أحببته دائماً، أحببته حباً كما لو أنه حب أخوي، والذي أمنحه ثقتي المطلقة.

وأخيراً، وفي عمق كل مأساتي، أدرك أن في العالم شخصاً على استعداد لأن يتقاسم معي حياتي كيفما كانت، ويقدّر ما في شخصي من شيء جيد، ويصفح عما هو سيئ، ويحاول تلطيفه مداوياً جروح قلبي الدامية.

تذكُّر ـ مساء اليوم الذي تلقّى فيه عبد القادر قرار الفصل ذهبنا، في غموض كبير، إلى زاوية البياضة حوالي الساعة السادسة.

كنا نمشي بحذر يتقدمنا علي، وكنا قد التقينا قرب المقبرة المسيحية، وسلكنا الطريق الغربية (السفلى). كنت مريضاً. . .

أذكر أني عندما كنت خلف الزاوية شعرت للحظة بالإحساس المقلق أني لن أتمكن من ركوب الحصان. كان رأسي يدور، واجتاح أطرافي خدر لا .يوصف.

عند العودة في عمق الليل، وتحت القبة اللامعة للنجوم المتلألئة، حوالي الساعة التاسعة، وصلنا إلى بيوت المدينة الأولى. كان صمت مطبق يعمّ الأرجاء، لا تخرقه إلا الطقطقة المنتظمة للشكيمتين العربيتين في فمي الحصانين المرضوضين. . .

لكن سرعان ما بدأت كلاب السواكرية الشرسة ، الموجودة أعلى الأبراج، والوحيدة في واد صوف، تفضحنا وشرعت في جلبتها الحادة. في تلك اللحظة، وفي الأفق الغربي، انفصل نيزك وأخذ يهوي ببطء في اتجاه الطريق إلى عليندة. . . وفجأة إلتمع مثل شمعة رومانية صامتة، وكبر وتوهج في حريق أزرق متقزح ورائع أضاء في لمح البصر كل البلد الداكن. . .

ثم انطفأ كل شيء، واستعادت النجوم ألقها الهادئ والبهي.

«إنها شعلة الأولياء. . . تنزل هكذا ليلاً في بعض الأحيان باتجاه أولئك الذين سيموتون.»

تلاشى صوت عبد القادر في الصمت، وقصدنا بيتي سكوتاً.

ومرة أخرى، في الفترة نفسها من العام القادم، أين عساي أكون؟ تحت أية سماء؟ وفوق أية أرض؟

الخميس ٧ ـ ١١ ـ ١٩٠١، الساعة الثامنة مساءً.

(تتمة للنص المقطوع ليوم ٢٩ كانون الثاني/يناير
بسبب رحيلي عن بهيمة)

عند وصولي إلى الباحة الكبرى وجدت الخدم، وكان سيدي الإمام يرتل تسبيحه الخاص عقب صلاة المساء.[1]

بقيت أنتظره وأنصت للطلبة في المسجد الكبير الذي كان قد اجتاحه الظلام وهم يرتلون القرآن بإيقاع واحد وبطء...

وأخيراً ظهر الشيخ... بقيت جالساً على حصير من قصب أسفل الجدار منتظراً بنفاد صبر انتهاء الزوار الكثر من السلام على سيدي الإمام. ثم انسحبت إلى القاعة الرملية الواسعة أسفل القبة الأولى.

وعندما دخل الشيخ من أجل الأمر بالعشاء وتحضير ما سألته إياه استندت إلى سور المسجد قرب إحدى النوافذ المشرعة.

وفي الانعكاس المضطرب لشمعة ملوّنة على أحد الجدران بدت المجموعات الباهتة للمؤمنين غامضة. فقد كانوا يرددون بنغم واحد بطيء ذِكر الجيلاني.

«لاإله إلا الله!»

حزن عميق وعذب. تناولت العشاء وحيداً مع الشيخ في إحدى غرف الزاوية الكبيرة، وقد خدمتنا زنجيات غريبات يتحدثن لغة بورنو البعيدة ذات اللكنة المنتحبة والعذبة.

رحلنا على وجه السرعة في ليل ذي قرص صاف وشفاف. وصلنا حوالي الساعة العاشرة.

كانت آخر مرة ذهبت فيها إلى القباب رفقة الطبيب حين كنت أعود عبر كثبان طريق طرفاية، وسلكت مجدداً طريق بياضة الكبيرة.

---

(١) «متابعة الرحلة إلى القباب المنتهية بباتنة. بتاريخ ١٢ نيسان/أبريل ١٩٠١ الساعة الخامسة مساءً.» (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش). الأصل.

لم تبد لي أبداً بساتين صوف بمثل ذلك الجمال، في الضوء الساطع الذهبي لفترة بعد الظهر. شعور عميق بالحنان اتجاه هذا البلد الذي لعلني لم أحس أبداً بروعته بمثل تلك الحدة.

١٢ نيسان/ أبريل ١٩٠١، باتنة.

أعدت قراءة هذا الكتاب بعد يوم فظيع من الملل الثقيل والحزن الكئيب.

هبت رياح الشلوق منذ بضعة أيام، وأضحت الحرارة خانقة. أشعر بأني مرهق ومريض... لا يزال أمامي حوالي ثلاثمئة وعشرة أيام من هذه الحياة التي لا تطاق!

(تتبع بمقتطفات لنادسون. ملاحظة روني لويس دويون)

لعل هذه الأيام الأحد عشر المنعزلة والتي أجبرت على قضائها بباتنة هي الأكثر قسوة من بين كل محن حياتي. لم يكن الفقر هو ما أقلقني ولكنه البؤس أي غياب الحاجات القصوى التي لولاها يظل المرء عبداً للانشغالات المادية الأبدية، وللقلق الأبدي بشأن المستقبل.

فلتكن مباركة ألف مرة أيام القلق الأخيرة بالواد مقارنة بهذه، ومصيبة بهيمة، والأيام الأولى في المستشفى. كانت معاناة... أما هنا فالملل، ملل العيش الكئيب وسط كائنات من دون ذكاء، في الكفاف الرهيب، ووسط تطفل إناث غير جديرات بحمل إسم كائنات بشرية. آه! إلى متى سنظل نحن الإثنان من دون الوحدة المباركة وصمت الصحراء بعيداً عن الناس وحماقتهم!

وباستثناء سليمان، كان الشخص الوحيد الذي لم يشكل وجوده أبداً عبئاً عليّ هو خليفة، ذلك الخادم البسيط والطيب والرابط مع الماضي، والذي كان يحدثني عن صوفنا وعن الأيام التي مضت. والأوقات الوحيدة التي كنت أستطيع خلالها تذوق بعض الراحة كانت ساعات الليل جوار روح، في ذلك الأمان الهادئ، الذي تمنحنا إياه تلك الساعات حيث لا شيء يأتي ليفرقنا، وأيضاً تلك الأوقات التي أكون فيها وحيداً رفقة صوفي أحلم قبالة الحقول المغمورة بالضوء بعيداً عن المدينة، الأكثر بشاعة والأكثر بلهاً، في الهدوء المريح للأعشاب والأزهار، وفي الشدو البسيط للعصافير السعيدة بأنها تعيش.

أشعر بعصبية هنا أو عند العمري أو في أي مكان لم أكن فيه وحيداً مع روح، أو وحيداً تماماً، ويجتاحني غضب أخرس اتجاه الناس واتجاه الأشياء ونفور لا يقهر.

يتضمن هذا الكتاب على الأقل مخططاً لحياتي ولأفكاري ولمشاعري خلال المرحلة الأكثر غرابة، والأكثر اضطراباً أيضاً، ومن دون شك الأكثر حسماً في حياتي.

هذا الكتاب الذي بدأ بالاستشهادات عشية رحيلي من باريس، واستمرت في مرسيليا وجنيف والجزائر وعلى الخصوص في الواد، يعكس أحزان وتيه وهموم تلك المرحلة حديثة العهد جداً، والتي ماتت الآن ودفنت.

في الواقع، انتهت تلك المرحلة من حياتي في بهيمة في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير...

مكتبة
t.me/soramnqraa

اليومية الثالثة

ملاحظات وأفكار وانطباعات
المستشفى العسكري / الواد، شباط/فبراير ١٩٠١

«بسم الله الرحمن الرحيم!»

«كلُّ مَنْ عليها فانٍ، ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلال والإكرام».
«آه! الكآبة المرة والحزن المزمن كوني لا أستطيع أبداً أن أتبادل معها حتى فكرة واحدة!». (ب. لوتي. شبح الشرق)

(أُتبعت بقصائد لنادسون، ثم يعود البوح عبر هذه الصفحات التي كتبت باللغة الروسية. (ملاحظة روني لويس دويون.)

ليلة طويلة من ليالي فصل الشتاء من دون نوم تمتد إلى مالانهاية عبر صمت الموت. هناك في قاعة المستشفى الضيقة والزهيدة حيث يخيم الظلام، ويصاب المرء بالاختناق. القنديل المعلق على الجدار قرب النافذة يضيء بخفوت اللوحة البائسة والحزينة، حيث الجدران الرطبة المطلية في أسفلها باللون الأصفر، وسريران أبيضان خاصان بالجنود، ومائدة سوداء صغيرة، وألواح عليها كتب وقوارير... النافذة مغطاة بملاءة عسكرية... وما من صوت في باحة الثكنة الكبيرة... وبين الفينة والأخرى يصل نباح بعيد وعميق إلى سمعي الرقيق كشخص مريض... ثم يعود كل شيء إلى الصمت. تشو! ويُسمَع همس، وخطوات جندي منتظمة وآلية، ثم صوت جاف لأخماص البنادق، وأمر قصير وبارد... ثم مجدداً، تبتعد الخطوات باتجاه اليمين حيث ثكنة المشاة. وهكذا استُبدلت حراسة الأبواب... ومجدداً يعود الصمت...

وأنا أعاني وحيداً. فرأسي المصاب والمرتج يحترق... وكل جسدي يؤلمني... أما الذراع فنصف مكسورة، ولست أدري أين أضعها، فهي تجعلني أتألم، وتزعجني، وهي ثقيلة بشكل فظيع. أنقلها مستعملاً ذراعي اليمنى السليمة من مكان إلى مكان آخر بملل... لا راحة في أي مكان... فحيثما أضعها أتألم، وأتألم حد الإصابة بالغثيان...

وفي رأسي المريض والملتهب تنزلق أفكار معتمة ومروعة، ويبدو لي وضعي أكثر تعاسة وأكثر تعقيداً مما هو عليه في الواقع، فقد استحوذت خيبة الأمل على روحي، وقُيّد صدري بذعر بارد. «أجل، لن أفر من أيدي القتلة...» والجميع، الجميع، حتى الطبيب جزء من التواطؤ. وفجأة يقع نظري على نظام قانون نُسخ بعناية وجمال على ورقة بيضاء علقت على الحائط...

كانت الغرفة شبه مظلمة غير أني بدأت أقرأ تلك السطور العادية بيأس تقريباً. آلم الجهد عينيّ المتعبتين بيد أني ضغطت على نفسي مع ذلك في محاولة لفك رموز خط الرقيب الضيق والمكسر... وجعلتني استحالة فك رموز تلك الكتابة أحِسّ بالاضطهاد وألقت بي إلى وهاد اليأس.

وفجأة، رحت أتذكر تفاصيل ذلك اليوم المحتوم... فها أنا ذا أرفع عينيّ، بعد أن تلقيت ضربة على رأسي، وأمامي يقف الجاني وقد رفع ذراعيه عالياً... لم أتمكن من تمييز ما يحمله في يديه... ثم ترنحت مصدراً أنيناً في جلوسي على صندوق... دار رأسي، وتألمت، وأحسست بوخز مؤلم في قلبي... وتخدّر عقلي... وأضحى كل شيء معتماً فجأة، وانطفأ... انزلقت في هوة من دون قرار... عبرت فكرة واحدة عقلي المخدر: الموت... لا أحزان، ولا خوف... «لا إله إلا الله، محمد رسول الله!» وانطفأ كل شيء... وغطى العرق البارد جبهتي. ومجدداً، وبيأس، شرعت أنقل ذراعي المصابة من مكان إلى مكان آخر... وتسبب لي العظم في ألم أخرس، وتشنجت العضلة التي قطعت، جاعلة الأصابع تتقلص... التهب الجرح الغائر الذي خِيط مرة ثانية وأخذ يخز. ما عاد باستطاعتي التحمل! تملك روحي كدر فظيع لا يمكن وصفه، وأخذت دموع صبيانية عاجزة تسيل على خديّ...

... رأيت عبر النافذة الواقعة فوق الباب ضوء القمر الشاحب فوق البناية المقابلة حيث توجد قاعة التشريح بطاولتها الحديدية وصناديق المطهرات... لربما سأكون في

القريب على تلك الطاولة البشعة!... حتى الموت لا يخيفني... أخشى فقط من المعاناة، المعاناة الطويلة وغير المعقولة... وأخشى أيضاً من شيء مظلم وغير محدد وظلامي، يبدو أنه يحيط بي، غير مرئي ولكنه محسوس من قبلي وحدي...

تنظر النجوم المتلألئة بعيونها الصافية بهدوء، كما لو أنها تلقي نظرات من السماوات العليا التي يتعذر الوصول إليها على سجني... غموض، الغموض الكبير للعالم، والذي يتعذر سبره أبداً! ملت برأسي مثبط الهمة. أنا وحيد وفقير ومريض... ليس لي مكان أنتظر الفضل منه أو المساعدة. فأذى الناس لا حدود له... والشخص الوحيد الذي يحبني، والذي هو عزيز علي، قد نُزع مني وأُبعد عني بقوة المرائين الوحشية... والعناية الأخوية المؤثرة لروح نقية أبعدت عن سرير معاناتي... أنا وحيد!

ماتت أمي وتركت روحها البيضاء العالم الأرضي الفاسد أبداً، والذي كان غريباً عنها، واختفى المسنّ ـ المفكر أيضاً في عتمات القبر، والشقيق الصديق بعيد جداً... أنا وحيد! إلى الأبد...

وإذا كان مكتوباً، وإذا كان مقدراً لي أن أموت هنا، في الصحراء البيضاء، فلن تمتد أي يد على عيني الميتتين... وفي اللحظة الأرضية الأخيرة لن يفتح فم لمواساتي ومداعبتي...

وبكيت بعجز. بكيت حياتي المحطمة، والتي فُقدت قبل الأوان...

... وبدأ النهار يطلع ببطء، كما لو أنه بطء مصمّم...

وأخيراً أضحى الأفق الغربي رمادياً فوق القباب الرمادية... وعلقت به سحب كئيبة بزرقة سوداء، ودخل إلى غرفتي الصباح غير المرحّب والمقطّب...

انطباع غريب هنا حيث الشمس صافية باحتدام شديد، وملكية من دون كلل!...

ماتزال روحي أكثر ظلمة، وأكثر انطفاءً...

وأخذت تتصايح في البعيد ديكة المدينة... وبحسب أصواتها تعرف أذني المتعودة في أي حي يتصايح كل منها، وتنتصب في خيالي التعِب لوحات حياتي الماضية هنا...

لكن بغتة، وفي الجوار، وأسفل الباب المنخفض لثكنة الجنود، دوّى صوت بوق أجشّ في البداية، ثم أضحى ثاقباً وقوياً... وسرعان ما سُمع صرير أبواب

الحصن الثقيلة والتي كانت تفتح نهاراً. ثم سمعت في بناية المستشفى نفسها أصواتاً أضحت أليفة لديّ: الممرض بالنعلين العربيين المهترئين، والعريفان بالحذاءين المصفحين بالحديد، والرقيب. كل هؤلاء الرجال أخذوا يروحون ويجيئون، وعلا الصراخ في الثكنات، وسُمعت بذاءات وأغان وضحكات... وفي البعيد، باتجاه الشرق، سُمع صهيل خيول السباهيين التي كانت تؤخذ لتشرب... يبدو أن حجراً سقط من روحي.

النهار مجدداً. ومجدداً الناس والضجيج! قريباً سيأتي الممرض الأعرج الصموت الحنون بركوة قهوة وكأس... وستتردد على الرصيف الإسمنتي خطوات خفيفة... وسيظهر عند الباب قميص بلون أحمر زاه، وضوء رائع وناعم لعينين عسليتين، يبدو لطفه كأنه نور مشع ينير كل الغرفة الكئيبة... وسيسمع صوت صادر من القلب خفيض ومرتعش بعض الشيء، وبلكنة الشمال البهيجة...

وستشعر روحي مجدداً بأنها أكثر صفاءً، ومجدداً سيغدو قلبي أكثر حرارة...

في ذكرى ليالي ٢٨ و٢٩ و٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٠١، حُرّر بالمستشفى يوم ٣ منه ١٩٠١.

(هنا ينتهي النص باللغة الروسية. ملاحظة روني لويس دويون)

... وباسم السنغال وحده، يعود ليرى الرمال غير المحدودة، والمساءات الحمراء الذابلة حيث تنخفض على الصحراء شمس هائلة. كل هذا يشده على نحو غريب، خصوصاً الضفة الصحراوية، ضفة المغاربة التي يتعذر اختراقها» (بيير لوتي. الملاح)

الواد، ٢٠ شباط/فبراير ١٩٠٧[1]، الساعة السابعة صباحاً.

أمس، أول خروج على متن حصان، في طريق عميش...

في هذه الأيام الأخيرة أخذت أسوار الثكنة الرمادية تثقل على روحي، وبدت

---

(١) هكذا جاء في الأصل على اعتبار أن الكاتبة لم تعش حتى هذه السنة، ويبدو أن السنة المقصودة هنا هي ١٩٠١. المترجم.

كأنها تضيق علي وتضغطني على نحو غريب. أشعر وكأني سجين... لكن بعد رحلة أمس لم أعد أطمع إلا أن أبقى هنا محبوساً حتى اليوم الذي سأرحل فيه عن واد صوف إلى الأبد من دون شك.

شعرت من خلال هذه النزهة السريعة بأحد أكثر أنواع الحزن مرارة، حزن شعرت به طيلة حياتي!

ماتزال الكثبان هنا، والمدينة الكثيبة والبساتين العميقة...

غير أن فتنة هذا البلد الكبيرة، وسحر الآفاق والضوء، كل هذا رحل... وأضحت صوف فارغة بشكل نهائي.

فالكثبان مقفرة، ليس ذلك الاقفرار الساحر المليء بالغموض كما كنت أجدها في الماضي... كلا، فقد ماتت... والبساتين مبعثرة، ومن دون سحر... والأفق فارغ والضوء كامد وكثيب...

وأنا، أشعر بأني أكثر غرابة هنا مني في أي مكان آخر، وأكثر وحدة، وأطمح إلى أن أرحل، أن أفر الآن من هذا البلد الذي لم يعد إلا شبح ما كنت أحب من قبل.

أدركت الآن أني ما عدت أستطيع أن أنخدع هنا أكثر، وأن كل السحر الذي ننسبه إلى بعض مناطق الأرض ليس إلا خدعة ووهماً، مادامت مظاهر الروعة فيها والجمال الخاص هي انعكاس لحالة أرواحنا... لكن في اليوم الذي تتغير فيه أرواحنا العابرة يتداعى كل شيء ويتلاشى...

أشعر بأني حزين، حزين بشكل غير محدود. أردت أن أترك صوف في حالتي الروحية التي كنت عليها قبل بهيمة، وأن أتركها خلفي بالوهم الذي يحفظ سحرها الحنيني، والذي سيحفظه بعناية بالغة إلى يوم الحادث، وعلى الخصوص، تلك العودة البعيدة...

عندما وصلت هنا قبل سبعة أشهر لم يكن المكان بهذا السحر... وإذن كيف صدقت الوجود الفعلي لهذا الشيء الغامض جداً، والذي اعتقدت أني أحسسته في هذا البلد، والذي لم يكن سوى انعكاس غموض روحي الحزين على الأشياء!

وأنا محكوم بأن أحمل معي كل حزني الكبير غير الموصوف أبداً، وكل عالم الأفكار هذا عبر بلدان ومدن الأرض من دون أجد أبداً إيكاريا أحلامي!

ما يثقل على روحي بنوع خاص هو أني عاجز عن التعبير عن الحمل الثقيل من

الأفكار والأحاسيس التي تسكن صمت روحي المتوحد، والتي غالباً ما تُسبّب لي ضيقاً وألماً نفسياً مبرحاً.

هل من الممكن أن تستمر روحي هكذا تتكدر عبر الشهور والسنين، وإلى أي ظلمات قاتلة عليها أن تصل في النهاية؟

هل من الممكن أن الشيء الذي ما يزال يصنع سعادة حياتي الفريدة، والذي ينبثق بكل تأكيد من داخلي وليس من العالم الخارجي، سيختفي أيضاً، وأني سأبقى أبداً وحيداً في العالم من دون عزاء ممكن؟

أعتقد في هذه اللحظة بأنه إذا ما تمكنت من التوصل إلى اليقين المطلق والمعقول الذي لا يدحض، ومن الوصول في أجل قريب إلى النهاية المحزنة، فإن الهم الأسود المتعذر سبره والذي يتملكني في بعض الأحيان، ويعذبني فوق كل قدر، سيصير بذلك حالتي الطبيعية والثابتة، وسأجد على الفور القوة لتفادي هذه الحتمية عبر موت هادئ جداً ومرتقب بشكل بارد جداً... لأن هذا العالم المنغلق والشخصي هو وحده الذي يعمر روحي، وهو ما يمنعني من الانتحار... والأمل بأن أراه يستمر بقدر وجودي ربما يتطور ويزداد اتساعاً. الحياة في حد ذاتها لاتعني لي شيئاً بكل صدق، ويمارس الموت على مخيلتي فتنة غريبة...

أردت أن أحاول تدوين كل هذا الذي جعلني أتألم كثيراً أمس، والذي بدا لي واضحاً جداً وأكيداً جداً لكنني كالعادة لم أنجح أبداً، ولم تكن لهذه المحاولة من نتيجة إلا بث الاضطراب والشك في روحي...

لا أعلم شيئاً عني وعن العالم الخارجي. لا شيء... لربما هذه هي الحقيقة الوحيدة.

اليوم الموالي ٢١ ـ ١١ ـ ١٩٠١، منتصف النهار.

ذهبت البارحة صحبة الطبيب إلى غيمار لدى الشيخ الطيب سيدي الحسين.

... كلا! فواد صوف ليس فارغاً أبداً، وشمس الصحراء الكبيرة لم تنطفئ أبداً...

فقلبي هو الذي كان فارغاً ومعتماً في ذلك اليوم، ولم تكن روحي حساسة للروعة المحيطة.

البارحة قمت بنزهة غير متوقعة وسريعة بعض الشيء تحت سماء صفراء جميلة. ألقت الرياح كفناً من الغبار الكثيب على أشجار النخل، وقلبت مرة أخرى الكثبان بين كوينين وتاغزوت. وبدت المدن الصغيرة الحزينة الكارة وتقصبات وكوينين أكثر فراغاً وإقفاراً بسبب رياح الشتاء العاتية.

صوف باهتة تحت شمس شاحبة، والكثبان داكنة... في المساء، وبين الفينة والأخرى، كانت تأتيني من جهة المصاعبة الأصوات المبتهجة، والترانيم الحزينة بشكل غير محدود لناي بدوي صغير...

تلك الأصوات البعيدة، والتي لن أسمعها أبداً بعد أيام قليلة، كانت تملأني بحنين يتعذر سبره.

... هذا الصباح، وبينما كان الطبيب يدندن، راودني إحساس العودة اتجاه حياتي التونسية ـ التي ماتت مع ذلك، والتي دفنت عميقاً أسفل الكثير من الرماد مثلما ستكون عليه في القريب حياتي الصحراوية...

تذكرت ذلك المساء من شهر أيلول/ سبتمبر قبل عامين، حين كنت رفقة علي مستنداً إلى النافذة الصغيرة ليهودي لاغوليت الصخّاب، عشية الرحيل المحزن، عندما أحسست كل شيء يتداعى حولي وداخلي، وحيث بدا لي الموت وحده كمخرج ممكن، سمعت من جهة البحر الهادئ يدمدم بهدوء، ومن الجهة الأخرى الصوت الواضح والصافي لنوشة سيدي بيان الصغيرة تغني الأغنية الشعبية الأندلسية الحزينة:

فرّ عقلي، فرّ عقلي!

وردد علي بصوته الدافئ والشغوف والرخيم كما في قلب حلم اللازمة الحزينة. وكنت أنصت...

في هذه الأيام الأخيرة بت أتذكر في بعض الأحيان وعلى نحو مفاجئ الماضي الحديث، المنسي جداً، وبدأت تسكنني على الخصوص ذكريات تونس، وأعود لأتذكر على نحو آلي أسماء الشوارع المنسية وغير المبالية...

... عاد الشيخ الأبيض، وسأراه غداً... ما فائدة ذلك؟

ذهبت اليوم إلى المنزل، وشعرت بخواء فظيع.

فكرت وأنا أجتاز الباب برعشة حميمية: «لن يعبر روح أبداً هذه العتبة...»

لن ننام أبداً تحت قبّة غرفتنا البيضاء وأحدنا في حضن الآخر، متعانقين بقوة، كما لو أننا حظينا بحدس معتم بأن قوى عدوة تعمل في الظلام على تفريقنا... ولن تجمعنا أبداً نشوة الحواس تحت هذا السقف، الذي أحببناه كثيراً.

أجل، انتهى كل شيء.

سأرحل أنا أيضاً بعد أربعة أيام، وسأسلك طريق الشمال التي رغبت كثيراً في عدم سلكها.

وبصبيانية حزينة أخيرة أردت أن يكون قبري هنا، في الرمال البيضاء التي تصفر في الصباحات والأماسي، وتجعل الشمس الكبيرة الملتهبة أرجوانية...

... عليّ أن أرحل... هناك بعيداً جداً، في الأفق، حيث هدف الرحلة هو الكائن المحبوب، الشخص الصادق والجيد، والذي اخترته كيما يلطف حياتي كوحيد ومتسكع...

هناك تلك الروح الفتية جداً، والتي هي ملكي، والتي أحبها بعناية قصوى والتي سأحرص بكل ما أوتيت من قوة أن أشكلها ليس كصورة متطابقة لروحي وهو ما سيكون تدنيساً، ولكن مثلما أريد، روحاً كما كانت لتُعجِب الروح البيضاء! آه، لكانت أحبّته بكل تأكيد بكل روحها، وهي التي كانت الطيبة البريئة، وصفاء القلب كل شيء بالنسبة لها!

عليّ أن أرحل، وها أنا ذا آسف ليس فقط على البلد الفاتن الذي أردت أن أعيش وأموت فيه، ولكن حتى على هذا «المأوى»، وحتى هذه الثكنة، التي اعتدت عليها، وحتى على الوجوه الأليفة للممرضين والجنود...

وآسف خصوصاً على الأحاديث، التي غالباً ما تكون لاذعة، غير أنها لا تكون أبداً حقودة أو منافقة مع الطبيب، الشخص الوحيد تقريباً الذي يفكر، والصادق إلى حد ما من بين كل الموجودين هنا.

أعتقد بأن هذا الرجل عرف كيف يخمّن بأن خلف كل غرابة، ووراء كل عدم تناسق في حياتي، كان هناك الصدق والحساسية الحقيقية، وأن جذوة الذكاء ماتزال تشتعل داخل روحي.

وأتشبه به في رقته النابعة من الاعتراف بالجميل في جزئها الأكبر، والتي أشعر بها

اتجاه كل أولئك الذين يرمونني بحجر عن حماقة أو وقاحة، والذين يكشفون تحت الرماد المتجمع ما أنا عليه، وأيضاً ما كنت لأصير عليه لو لم أكن منبوذاً، ولو لم أعانِ كثيراً.

كم أحب أن أعيد قراءة هذه اليوميات، هذه الكتب التي تبدو للآخرين مبتورة، وغير متناسقة، وفيها كل شيء... كل ما يجعل روحي تعيش!

تمرّ أوقات أشعر خلالها بأن هذه القراءة وحدها تبعث على الراحة والشفاء.

وحتى تنوعها هو أحد مواضع السحر عندي...

أريد أن أراني أنعكس فيها بوفاء، فهي بالنسبة لي كل الأشياء التي سحرتني...

مرسيليا، الثامن من شهر حزيران/يونيو ١٩٠١، الساعة التاسعة.

الرحيل عن الواد في ٢٥ شباط/فبراير (الإثنين) ١٩٠١
الساعة الواحدة والنصف ليلاً

يوم الخامس والعشرين منه كنت مع الطبيب حتى تاغزوت، ومنها إلى سيدي الحسين. قضاء الليلة هناك. في السادس والعشرين منه، الساعة الثامنة صباحاً، الرحيل صحبة لخضر الديرة والالتحاق بالقافلة في الكثبان.

يوم السادس والعشرين منه الوصول إلى بئر بوشامة حوالي المغرب.

سماء سوداء وعتمة رمادية، ورياح شمالية قوية وباردة.

القافلة: الباش آمر ساسي، الديرة: ناصر لخضر، الجندي رزقي، امبارك. س. سالم والحاج محمد من غيمار. مجنونان صحبة شاب (جزائري)، هنية والدة السباهي الزواوي، وابنها عبد الله.

بئر بوشامة، شعور كئيب وحزين.

يوم السابع والعشرين منه. الرحيل الساعة السابعة صباحاً. الوصول حوالي الساعة الخامسة مساءً إلى سيف المينيدي. الطريق: أشجار، سهول ميكا والطلق، وأدغال، وبعض السبخات المحيطة بالبرج.

سيف المينيدي: برج، على منحدر منخفض جداً، وأفق هو عبارة عن دغل، وحديقة معتنى بها على نحو جيد، وبركة شديدة الملوحة قرب الحديقة. شعور جيد

جداً، مثل الشعور بالواحات المالحة لواد رير. المساء، شردَ مهر لخضر وذهب رجل الديرة بحثاً عنه. كنت تعبة، وشعرت بألم في رأسي (مشيت راجلة ثلث الطريق)، جلست على سريري، أفكر في متعة العيش بعض الوقت في البرج، بأفق يتشكل من مدينة الأدغال الفسيحة. وفي الحديقة كان بعض الأطفال يغنون. يلحّ علي شعور واد رير.

يوم الخميس الثامن والعشرين منه. الرحيل حوالي الساعة السابعة صباحاً، رفقة لخضر عبر سبخة بوجلود. انحرفت القافلة. أراض مالحة وحجرية بلون أصفر رمادي، وصلصالية زرقاء وحمراء. سبخات فصلت بتلال حجرية. أولى السبخات الحمراء، ثم الملح الصخري بأزهار الأرض. وإلى اليسار (غرباً) وإلى اليمين، سبخات عميقة ومملوءة. ومياه صافية وزرقاء باتجاه الغرب، وباتجاه سبخة ميلريري الكبيرة، بحيرات كبيرة خضراء مائلة إلى الزرقة بأرخبيلات منضدة على شكل أسوار صغيرة عمودية غارقة في المياه وتنعكس فيها. ووسط جزيرتين تنفتح سبخة ميلريري غير المحدودة من دون أفق يمكن تقديره، كما لو أنها تفضي إلى أفق السماء اللامحدود ذي اللون اللازوردي الشاحب والمضبب قليلاً.

وفي الأراضي الحجرية ارتفعت قنبرات خافقة بجناحيها وملقية نداءاتها اللطيفة الحزينة قبل أن ترتمي في الدغل.

عبور السبخة الكبيرة المنقوعة بعناء شديد.

ينزلق صوف مع كل خطوة. عبرتُ مترجلة.

عند مدخل السبخة هرمان من الحجارة الجافة يشيران إلى المكان حيث تقاتلت قبيلتان قبل حوالي ثلاثين سنة.

أراض كثيرة الحصى نمت فيها أزهار صفراء، مفصولة بسبخات على شكل بقع أرجوانية وبيضاء وزرقاء. وفي بعض المناطق صبغت الأرض بلون أحمر بارد.

يقع برج سطح الحمرية على منحدر حجري. وإلى الغرب، وعلى مستوى منحدر جداً، هناك السبخات. وأعلى السبخة حديقة، وإلى الشمال ساقية كبيرة.

حديث مع الباش آمر. حصلنا على إذن النوم في سطح الحمرية. بعض الحمى.

جو جميل جداً في الصباح. بعض الرياح والسحب حوالي منتصف النهار.

حُرّر في سطح الحمرية، ٢٨ ـ ١١ ـ ١٩٠١. يوم الخميس مساءً.

كم يدفعني هذا الاسم الغنائي البعيد لسطح الحمرية، الذي يدلّ على مكان، أن أحلم الآن وأنا بأرض المنفى، على نحو عميق وحنيني!

مرسيليا، ٨ ـ ٧ ـ ١٩٠١.

الجمعة ١ ـ ٣ ـ ١٩٠١. شغة، الساعة التاسعة ليلاً.

قضاء الليلة في سطح الحمرية. قضاء المساء في قاعة البرج. أنصت للخضر وللجمالين وهم يغنون.

نمت رفقة خليفة والجندي رزقي. رحلت عند مطلع شمس حمراء في سماء حمراء قانية، تسطع ببطء فوق السبخات الكبيرة المفصولة بأراضٍ ضاربة إلى الحمرة.

حديقة الحمراية، هي أرض طينية مالحة مليئة بأعشاب المستنقعات. وهناك بعض أشجار النخل، والميداس، وأشجار التين المتفرقة في المستنقع شمالي غرب البرج.

رحلت على متن حصان. الأرض مالحة تارة، وحجرية تارة أخرى. وهناك الوزال ذو الأزهار البيضاء، وأشجار صحراوية وشجيرات بأزهار زرقاء. وبعض السبخات، حيث الأرض رملية ومالحة بلون أصفر. الترجل عن الحصان عند أول قميرة. الغداء بعد الساعة الثانية، خلف آخر سبخة... عارية. الوزال.

قبل هذه القميرة بقليل وإلى اليسار توجد بئر جيدة وسط الدغل بمياه منعشة. شراء أرانب من صيادين. الرحيل مجدداً راجلة. لقاء العديد من القوافل. رأيت خيمة قائد فرقة هندسة عسكرية أسفل منحدر إلى اليسار.

تعود سبخة ميلريري للظهور مجدداً. بحر لبني اللون من دون أفق، تفرقت فيه جزر بيضاء صغيرة. أراض حجرية. الوصول رفقة رزقي إلى برج المغيبرة. استخراج الماء من بئر. شرب القهوة. الرحيل (على متن الحصان) من المغيبرة. برج في المرتفع. القميرة جنوبي شرق البرج تعلوها بنايات خربة. في الأسفل ثلاث آبار إحداها شديدة الملوحة. حديقة قرب بئر شربنا من مائها باستعمال حزام رزقي.

الرحيل مجدداً، تجاوز القافلة قبل مغيب الشمس بوقت قصير. لقاء الحاج محمد. رأينا إلى يميننا أحد مجنوني الشغة.

الوصول ليلاً. التحدث إلى الحراس.

الفاتح من شهر آذار/ مارس. الشغة ـ تتدرج الحدائق في الأراضي البيضاء المالحة.

نمنا في الغرفة الصغيرة إلى اليسار، أنا وخليفة ورزقي، وعلى مقربة هنية وابنها في الغرفة الكبرى، وفي الغرفة الأخرى الأحمقان والدليل والمنفيون. وكان رجال الديرة ينامون خارجاً مع الجمالين قرب العين.

وإلى الجوار، في الحديقة الغارقة بالمياه المالحة، كان نقيق الضفادع الحزين يكسر هدأة الصحراء الكبرى.

هذا المساء غردت الطيور في الطريق بفتور. وكانت الحرارة محرقة في النهار.

التفكير بحب في هذه الصحراء التي سحرتني بأمل الحياة والبهجة للعودة إليها. شعور بالجرأة في مواجهة القدر، والحيوية التي لا تقهر طيلة النهار... وعلى الخصوص مساءً.

ومع ذلك راودتني فكرة أخرى، وفرّ النوم من رأسي المتعب، فهناك في باتنة تنتظرني النشوة. جعلتني هذه الفكرة وحدها أحس قلقاً لذيذاً يهصر قلبي.

بعد يوم غد أو بعد يومين، يمكنني أن أحرر هذا الجنون الشهواني الذي يعذبني هذا المساء بأن أعاود عيش ليالي الواد الجميلة والمجنونة... وأن أضع سيدي بين ذراعي وعلى قلبي حيث يضغط عليه ضماً الحب الشديد...

... هذا المساء، أنا على وعي بأني ما أزال شابة وبأن الحياة ليست سوداء أبداً أو كئيبة، وبأن الأمل لن يهجرني أبداً...

ما دام ثمة صحراء شاسعة ورائعة سيكون هناك ملجأ تأوي إليه روحي المعذبة جداً لترتاح من حقارة الحياة العصرية.

أخذ روح إلى البعيد في الصحراء، بعيداً عن الناس، لاستكمال مغامرات جريئة، وأحلام لا توصف مقطوعة بلحظات جنون.

باتنة، ٢٠ آذار/ مارس، الساعة الحادية عشرة ليلاً.

الفاتح من شهر آذار/ مارس. النوم في شغة.

يوم الثاني منه، الرحيل صباحاً والخروج إلى الحديقة.

سطعت الشمس حمراء فوق المكان الشاسع. يتقزح شمال الأوراس، بألوان قرمزية ووردية. الحديقة: الساقية وحوض كبير عند المدخل.

الرحيل على متن الحصان حتى جفير. سبقت القافلة فوصلت باكراً. لم أجد الحارس. اغترفت الماء من البئر الكبيرة. لقاء قافلة متوجهة إلى توقورت. بعث السلام إلى السي سعيد. الرحيل مجدداً. أنا راجلاً ورزقي على الحصان. الغداء عند رؤية سعاد. الرحيل مجدداً راجلاً. لقاء روح ربع ساعة قبل سعادة. الرحيل على متن الحصان. التوقف بعد الواد.

الوصول إلى بسكرة يوم الثاني من شهر آذار/ مارس. عند الدخول إلى بسكرة القديمة وقت المغرب أوقفنا أحصنتنا، ووجهناها باتجاه الصحراء الضاربة إلى اللون البنفسجي في وهج المغرب. قضاء الليلة عند الزيتوني.

قضاء يوم الثالث منه وليلته ببسكرة. الرحيل إلى باتنة يوم الرابع منه الساعة الواحدة ليلاً. الوصول حوالي الساعة الخامسة. قضاء الليلة عند غوسو. يوم الخامس منه تغيير مكان الإقامة.

يوم السابع عشر من شهر آذار/ مارس، الساعة الخامسة مساءً، الرحيل باتجاه القنسطنطينية. النوم هناك. الوصول على الساعة التاسعة. النوم في مطعم النزل الكبير. في الصباح، والساعة الثامنة، الذهاب إلى مجلس الحرب. الرحيل مجدداً يوم الثامن عشر منه الساعة الثالثة وخمساً وثلاثين دقيقة. الوصول إلى باتنة يوم الثامن عشر منه الساعة الثامنة والنصف ليلاً.

لاتهمني المأساة، وهي حقيقية الآن، وحياة العزلة وسط النساء العربيات... بل إن التبعية المطلقة لروح، وهو ما سيصير عليه وضعي من الآن فصاعداً، ستكون مباركة... غير أن الفراق والحزن المرير ينجمان عن كوني لا أراه إلا نادراً، وخلال لحظات خاطفة. ما الذي يهمني في الباقي، مادمت أعود للحياة عندما أحضنه بين ذراعي مثلما حدث البارحة، وأنظر إلى عينيه «وجهاً لوجه» كما قال آزيادي؟

ولد الحب العظيم في حياتي إذن من دون وعي وعلى نحو تلقائي وكنت أظن أنه لن يأتي أبداً!

أي هيجان وأية سعادة، وأي أسف وأية نشوة!...

باتنة، ٢٦ آذار/ مارس، يوم الثلاثاء الساعة الواحدة ليلاً.

كنت اليوم على متن صوف عند سفح الجبل حيث أطلقت الحصان في المرج وتمددت أسفل شجرة صنوبر، وحلمت وأنا أنظر إلى الوادي الكبير، والجبال الزرقاء المقابلة وباتنة، مذهولة مدينة المنفى والبؤس في وهدتها بنشوة لذيذة في الهواء الطلق، وتحت الشمس، وبعيداً عن الأسوار الكئيبة لسجني المُمِلّ. عاد كل شيء ليخضرّ من جديد، وأزهرت الأشجار. كانت السماء بزرقة هوة، وكانت الأعداد التي لا تحصى من العصافير تغرد في كل مكان...

وفي الأعلى، على ذلك الجبل الذي يذكرني كثيراً بجورة أو جبل ساليف، يُعطّر العرعر والعفصيات الجو.

وكانت الرياح المنعشة والحية تدمدم برقة في أشجار الصفصاف على وقع رجع الصدى للجبل.

... أين هو ذلك اليوم البعيد من فصل الخريف حين كنت أنصت بعينين مغمضتين وبقلب مطمئن (يا لعمى الطبيعة البشرية العميق!)، إلى رياح صوف الشديدة الأبدية وهي تدمدم في الجريد الصلب لنخيل سبخة دبيلا! أين هو واد صوفنا وكثبانه البيضاء، وبساتينه، وبيت صلاح بن طليبة الهادئ المجاور لكثبان سيدي مستور، ومدينة الأموات الصامتة، والتي سيرقد فيها أولاد أحمد! أين هي أرض الزوايا المقدسة، وقبور الأولياء والأرض الحارقة والمتألقة حيث تتوهج شعلة الإيمان، وحيث كنا سعيدين؟ أين كل ذلك، وهل سأراه أبداً؟

وهنا، الفقر التام... لا طعام ولا مال ولا تدفئة... لا شيء!

ومع ذلك، لا يهمني ذلك أبداً.

روحي غارقة اليوم في حزن بلاحدود، لكنها خاضعة وهادئة ولطيفة.

تجري الأيام وتفر لتسقط في عدم الماضي الأسود، وكل فجر جديد يقربنا من يوم الخلاص، من ذلك العشرين من شهر شباط/ فبراير ١٩٠٢، والذي هو في المجمل سيصير بالنسبة لنا نحن الإثنين بداية الحياة الحقيقية.

إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون!

كل شيء بين يدي الله، ولا شيء يتحقق إلا بحسب إرادته.

باتنة، يوم الجمعة ١٢ نيسان/ أبريل ١٩٠١، الساعة الخامسة مساء.

في هذه الأيام أذهب كل صباح على متن صوفي الوفي لأقضي بعض اللحظات الهادئة جوار الطرقات.

وبعد ركض مجنون في أرض العمل، ودرس أقدّمه لصوف، أسلك الطريق إلى لومبيز وأتجاوز الكيلومتر الرابع.

وهناك أترجل، وأجلس على حافة الطريق عند طرف حقل السلجم حيث مُدّت زربية كبيرة من الذهب الصافي أسفل أولاد عبدي الغامضين، وأدخّن وأنا أحلم ممسكاً بلجام صوف الذي يأكل بشراهة العشب الأخضر الذي ينتقيه بعناية وسط الأزهار.

تمتد المزارع الحزينة بمحاذاة الطريق، مع الحقول شديدة الاخضرار.

وفي البعيد، باتجاه الشمال، حيث حقول «زهرة الكبريت» تلقي على التلال زرابي بلون أرجواني شاحب وفضيّ، ومدينة الثكنات والمباني الرسمية الحزينة بعيدة جداً خلفي. أدير لها ظهري، وأنظر إلى الطبيعة وهي تزهر، حيث تغرد القنبرات، وحيث تبحث السنونوات السريعة عن طعامها.

وفي هذا المكان الذي أضحى مألوفاً بالنسبة لي أقضي لحظات سعادة حقيقية وسلام عميق.

وفي إحدى تلك الأماسي، حيث كنت مستلقية جوار سليمان على حصيرة خليفة، كنت أنظر عبر النافذة إلى السماء الزرقاء حيث اندفعت بعض السحب لتجعل شمس الغروب ذهبية، وفجأة، اخضرت رؤوس الأشجار وقمة شجرة حور. وعلى نحو مباغت هجمت عليّ ذكرى الماضي حد أني ذرفت الدمع... وعلى العموم تأتي ذكريات الفيلا الجديدة، في هذه الأيام، في هذا البلد المشابه، لتسكنني.

هبت رياح الشلوق منذ يومين. وكانت السماء مضببة وشعرنا بالإنهاك. واليوم قمت بنزهة طويلة سيراً على قدمي على طريق بسكرة الحزينة وغير الجذّابة. ثم زيارات مملة لعائلة لعمري.

عدت حوالي الساعة الواحدة والنصف منهكاً، وبقيت أقرأ يومياتي القديمة، ممدداً على حصيرة من قصب حتى الساعة الرابعة والنصف. حزن وحنين إلى صوف، وملل وكدر...

باتنة، ٢٦ نيسان/ أبريل، الساعة الحادية عشرة ليلاً.

حزين أنا بشكل مضطرب هذه الليلة، ومنذ بضعة أيام، وبطريقة لا يمكن تفسيرها. فالوحدة من دون ويحا تثقل كاهلي بشكل مخيف، وينخرني الملل. بعد عاصفة أمس غرقت باتنة وأضحت مظلمة وباردة ومليئة بالطين وبالجداول النتنة. صوفي المسكين مريض جداً، وحتى أنا حرمت من نزهاتي الحنينية على امتداد الطرقات، أو في المقبرة الحزينة المعلقة هناك في الأعلى، عند سفح التلة الكئيبة حيث القبور المشقوقة والمخيفة مثل أبواب مواربة على العدم المخيف للغبار البشري، والمنبثة في فوضى همجية وسط باقات الشيح الرمادي ذوات الروائح النفاذة، والتيمغيت الأحمر قرب الحقل الأخضر حيث يزهر الكتان البنفسجي، وشقائق النعمان البيضاء، والخشخاش ذي اللون الفاتح...

تجولت في يوم آخر وسط المسلمين الطالبين للمطر وسط أصوات النايات والطبول والأعلام الإسلامية القديمة المهيبة، ذلك المطر الذي سيبقي بعض الشيء فصل الربيع الجزائري العابر والمسرع والذي مزج في عجالته إلى التجديد أزهار فصل الصيف بأزهار فصل الخريف، والذي بدا أنه يستعد للانتهاء في أيام يصعب التنفس فيها بفعل رياح الشلوق.

عاد روح بالأمس، بعد ستة أيام لم أره فيها إلا ليلاً، وفي السر، وخلال لحظات قصيرة قرب باب تلك الثكنة الملعونة حيث هو بمثابة منفي... عانقته، وفجأة بعد الاحتدام المجنون وتقريباً الهمجي للعناقات الأولى، ومن دون أن نعرف لمَ، ومن دون أن نتكلم، ذرفت أعيننا الدمع، وانقبض قلبانا، وخفنا على نحو غامض.

وفي الليل، في جولة خرقاء تحت مطر متدفق، كنت تحت تأثير لذة السخرية من المنافق تارات، المنافق الذي كان مع ذلك من حُسن الذوق بحيث لا يخفي نفاقه. وبعد قراءة قصيرة، نمت فرأيت فافا يمنح روح من حنانه الفياض، ويمنحني تقديره بنبرة الماضي عينها... وعلى نحو مشوش، كما لو أن الأمر يعود لزمن بعيد، تذكرت هذا الحلم، بشعور عميق ولطيف، وأتت برقية أوغستان المعزية، كما لو أنها تأكيد غامض جداً...

والبارحة، أدركت مرة أخرى براءة وطيبة وبهاء روح سليمان الجميلة والتي هي

ملكي، من خلال السعادة الصبيانية بأن يعود أوغستان إليّ، ويقيم العدل لنا نحن الإثنين. وعلى الرغم من كل ما حصلت عليه، وكل ما لديّ وكل ما سيكون لي من المعاناة، حمدت الله والقدر أنهما قاداني إلى مدينة الرمال التي لا تُنسى وذلك لأمنح هذا الإنسان الذي هو بمثابة عزائي الوحيد، وسعادتي الوحيدة في هذا العالم حيث أنا الأكثر حرماناً من بين كل المحرومين، وحيث أشعر على الرغم من ذلك بأني الأكثر ثراءً من بين كل الناس، ذلك أن لديّ كنزاً لا يقدّر بثمن.

في بعض الأحيان، بل غالباً، وباعتياد على الألم الكثير، أتساءل بقلق عميق عما إذا كانت السعادة لن تؤخذ مني بهذا القدر الغيور وبالموت.

غير أنه من غير المجدي بعده الانتظار والأمل بحكم التجربة الماضية، بل حتى لو علمت بأني سأجد شخصاً يحبني بالقدر نفسه إذا ما اختفى، فإني لا أريده من أجل هذا السبب الوحيد وهو أنه سيكون شخصاً آخر وأنه هو من أحب حباً مطلقاً بعذوبة عميقة جداً ولطيفة ومضطرمة.

كنت عادة قاسياً وغير عادل معه، وعاملته بخشونة من دون داع، وكنت مخبولاً حد ضربه، وخجلاً من نفسي لأنه لم يكن يدافع عن نفسه، إذ كان يبتسم من غضبي الأعمى... وفيما بعد يتسبب لي أقل ظل لخطأ يقترف في حقه بألم حقيقي ونفور صادق من نفسي.

كنت في المساء لدى الشرطي الذي كلفه العدو بكل تأكيد بأن يتجسس علي. لا يهم ما قلت له في المساء الآخر، فسأعيده في واضحة النهار، وهذا حقيقي لأنه هو السباق إلى إرسال اقتراح ب... والذي كان يريد موتي وأن الجاني لن يعاقب، وإذا كان الأمر كذلك سيكون حكماً بالموت عليّ حيثما ذهبت في الجنوب، في البلد الوحيد الذي نستطيع أن نعيش فيه...

فجريمة بهيمة غير المعاقب عليها، أو المعاقب عليها بشكل خفيف، تشكل اعترافاً وقحاً ومؤشراً واضحاً بالنسبة للتيجانية: «اقتلوا السي محمود، وليس لكم ما تخشونه».

ومع ذلك، فقد أوقف الله مرة يد القاتل وانحرف سيف عبد الله... فلتكن مشيئته! وإذا أراد الله أن أموت شهيداً مثلما طلبت ليلة الحج فحيثما كنت ستنالني مشيئة الله، وإلا فكل دسائس أولئك الذين راكموا جريمة على جريمة فوق رؤوسهم لن تصلح لشيء إلا لخزيهم.

لايخيفني الموت، ولا أريد أن أموت مجهولاً، وعلى الخصوص، من دون جدوى. أعلم الآن، ولما رأيته قريباً جداً، ولما أحسست جناحه الأسود والبارد يلمسني، بأن قربه يجلب في الوقت نفسه انفصالاً مطلقاً وتخلّياً نهائياً عن الأشياء في هذا العالم. وأعلم أيضاً بأن أعصابي وإرادتي تتماسك في المحن الشخصية الكبرى، وبأني لن أكون سبب سعادة أعدائي بالجبن أو بالخوف.

ومع ذلك هناك شيء يخيفني بخصوص المستقبل، فأنا لست محصّناً تماماً ضد المآسي التي قد تصيب سليمان أو أوغستان، فأمامها أشعر بضعف مخيف، وهنا تهجرني كل لامبالاتي الاستثنائية وأصير أضعف من طفل. من الصعب تصور مأساة أعمق من تلك التي أتخبط فيها، وهي لا تقلقني مع أن ديوننا يمكنها أن تتسبب في كارثة بخصوص سيلمان.

من جانب آخر، وعلى الرغم من الضيق الذي تسبّبه لطبيعتي الارستقراطية الحسابات الحتمية لكل فلس فأنا من وجهة النظر هذه لست مهتماً بوضعيتي الشخصية، والتي يتحملها قلة فقط. ومن حسن الحظ أن العدو يعتقد بأني ثري كما تبيّن لي من أقوال الشرطي.

كنت على حق، فقبل سنتين كنت أبذّر أموالي هنا وفي بسكرة، فسمعة ثرائي مفيدة لنا من ناحية دفاعنا أكثر من حقيقة هذا الثراء. آه! لو علم أولئك الأنذال بأني في البؤس الأسود وأنهم يستطيعون أن يغيظوني ببعض الأوصاف الدنيئة لما توانوا عن فعل ذلك!

أية جرائم تثقل على ضمائرهم، وأي رعب من النور يتملكهم حد الارتجاف أمامي. لم أقم بشيء مدفوعاً باللامبالاة في البداية وبالخشية من إلحاق الأذى بسليمان بعد ذلك، باستثناء تحقيقات الواد!

من الواضح أنهم خافوا وإلا لمَ لم يوقفوني على سبيل المثال بتهمة التجسس أو لمَ لم يطردوني؟

كل ذلك مثلما قال ب. . . «قد تتسبب لنا هذه الفاسدة في الكثير من المتاعب. . .»

كنت على حق بإظهار طريقة العيش البائسة التي أحياها هنا، إضافة إلى اللامبالاة والأصالة. وهكذا فبؤسي لن يتكشف كثيراً.

والواقع أني بلغت حد الذهاب بعلم مسبق لدى الناس من أجل الأكل، بهدف رعاية صحتي، وهو الشيء الذي كان يبدو لي مستحيلاً في الماضي، تماماً مثل الشيء الآخر الذي قمت به أيضاً أعني الذهاب إلى الأولياء، أولئك الأشخاص المنعزلين والغامضين، وسؤالهم المال...

من المحتمل أن هذه الصحة من حديد، ما دامت متماسكة ضد كل احتمال. فقلق أيام الواد الأخيرة، والإصابة والصدمات العصبية، والنزيف الكبير في بهيمة، والمستشفى، والرحلة التي قمت بها نصف راجل، والبؤس، وهنا حيث البرد والتغذية السيئة، وحيث الخبز هو الشيء الأهم، كل هذا لم ينجح في طرحي أرضاً. كم من الوقت سيدوم ذلك؟

أعتقد بأن قوة روحي الحية، واللامبالاة في سلوكي لهما فضل كبير في هذا، إذ سيكفي أن أفكر ملياً في وضعي حتى أسقط مريضاً.

كيف يُفسّر أنني لما كنت في البيت بملابس ممتازة، وبوجود تدفئة وتغذية سليمة من بين أشياء أخرى، وبالعناية العاشقة لأمي، كانت أية ضربة خفيفة تحدث لي نزلة رئوية، وأنني الآن لست حتى مصاباً بالزكام، على الرغم من أني أعاني من البرد القارس في الواد، إضافة إلى برد المستشفى، وكنت عرضة لسوء الأحوال الجوية في الطريق، وكنت أتجمد برداً، فضلاً عن أن قدميّ مبللتان بصفة دائمة، وأرتدي ملابس صيفية وأنتعل أحذية ممزقة؟

لا قيمة للجسد البشري، فالروح البشرية هي كل شيء، زد على ذلك أن الروح الجميلة هي الجمال الحقيقي الوحيد مادام من دونه، بالنسبة لمتذوق جمال حقيقي، لا يوجد الجمال الجسدي بحد ذاته... لمَ أعشق عيني روح؟ ليس بسبب شكلهما أو بسبب لونهما ولكن بسبب الشعاع العذب والصادق لنظرتهما والذي يجعلهما جميلتين بشكل مدهش جداً.

وعندي أن جمال الروح السامي يتجسّد عملياً في السلوك المتعصب المؤدي إلى التناغم أي إلى طريق الصفاء المطلق، إلى الشهادة.

مات فعلاً سيدي محمد الطيب، وأشعر بحزن عميق عندما أفكر في هذا الرجل الذي ما أزال أراه، برأسه الجميل الأشبه برأس عقاب، في الضوء الأزرق للبدر

المكتمل، وعلى سطح المنزل الخرب للطالب سعيد، قبالة الكثبان الحزينة الصغيرة الواقعة شمال توقورت في ليلة رحيلي من شهر أيلول/ سبتمبر الماضي. . . وأنصت لصوته يقول لي: «سوف نلتقي مرة أخرى إن شاء الله ! يا السي محمود!»

كان يجهل، والجميع كان يجهل، أن العدو كان ينسج في تلك اللحظة حبائله في الظلام، ضد حياتي وضد حياته، وأن ذلك اللقاء كان عليه أن يكون وداعاً سامياً وأبدياً! . . . وأننا لن نلتقي أبداً حتى يوم القيامة، في ذلك المكان البعيد، حيث يوجد من دون شك المنطق والعدالة الغائبان عن هذا العالم حيث يُداس العادلون والشهداء من قبل الجموع التي تعدو لتقبّل في دمها وفي غبار موتاها أثر أقدام المستبدين والمخادعين وقطاع الطرق !

٣ أيار/ مايو ١٩٠١، يوم الجمعة الساعة التاسعة وخمساً وأربعين دقيقة صباحاً.

تلقيت البارحة ليلاً خبر الإبعاد.

هل ترى أن هناك نهاية لليالي. هل ترى إن كان هناك دعم لحبي. قضيت ليلتي أتألم من أوجاع الحب، واحتدام رغباتي لمهيّج. أخفي حبي، ففي نهدي علامة تكشف حبي. أخفي شغفي ورغبتي فيها. ولا أظهر حب قلبي. سأصبر حتى اليوم الذي ستتحقق فيه أمنيتي. إن المكافأة التي تتوج الانتظار الصبور تستحق المدح!

اليوم نفسه، الساعة الثالثة ليلاً.

تحطم كل شيء مرة أخرى، وتداعى وأُبيد. ومرة أخرى أيضاً أتى القدر ليعاكس كل التنبؤات البشرية، ويحني رؤوسنا تحت هبوبه الوحشي.

غير أن محن هذا العالم، الكثيرة جداً في حياتي، لا تفعل أي شيء سوى ترطيب روحي. ستكون لي الشجاعة لأقاوم كل القلق الوحشي الذي يجلدني، وأتمنى أن أنتصر بمساعدة الله وسيدنا الجيلاني.

ومع ذلك أنّى لي الابتعاد وقتاً يعلمه الله عن روح، الذي تربطه بكائني المعنوي روابط متينة جداً، والذي انتهى بأن يغدو جزءاً مني؟ أنّى لي أن أحرم نفسي من رؤيته، عندما تبدو لي الأيام من دونه لا تنتهي؟

ليس هناك إلاسعادة واحدة ووحيدة، وعزاء وحيد في حياتي، أن أراه. سننام مرتين أخريين أحدنا في حضن الآخر... مرتين أخريين سيأتي جسده المحبوب ليظهر في باب تلك الغرفة الحقيرة، والتي أضحت غالية علينا مثل كل أماكن إقامة حبنا.

ثم لا شيء... الذكريات الحزينة لبون ومرسيليا حيث سعادة رؤية أوغستان مرة أخرى، لكن أية سعادة ستكون حقيقية، من دون شقيقي اللطيف زويزو؟

فحبه وطيبته أضاءا أكثر اللحظات تعتيماً في هذه السنة الأخيرة... وفي غيابه سيكون كل شيء أسود ومحزناً.

الأحد يوم الخامس من شهر أيار/ مايو، الساعة التاسعة صباحاً.

وسط اضطراب حياتي المروّع في الأيام الأخيرة، الكئيبة أكثر من أي أيام أخرى عشتها أبداً، أدركت سعادة خلود معنى الجمال، وحب الفن والطبيعة.

وصلت هذا الحد الأخير من البؤس حيث الجوع والفاقة والقلق المستمر للحياة المادية. أنا مثل دابة ملاحقة بشراسة، مع الهدف الحتمي لقتلها والقضاء عليها. وسأُبعد عن أعز ما في هذا العالم، والذي ينير على الرغم من كل شيء حياتي الحزينة. الحزينة على نحو جوهري دوماً وأبداً. منذ سنوات وأنا أعرف بيقين أني سأصل إلى هذه الدرجة من البؤس.

لكن داخل كل هذا، وبعد كل التمزقات، وفي مواجهة كل الأخطار، أشعر بأني لن أضعف، وبأن شيئين سيظلان سليمين: ديني وكبريائي، وبأني فخور بأن أعاني من تلك النقاط آلاماً مبتذلة كوني أرقت دمي وأني مضطهد من أجل الإيمان.

لم تهدم أبداً قوة الحياة بداخلي، فهي استثنائية ولا تقهر منذ هذه اللحظة. ومع ذلك فالحياة المريرة والكئيبة والمتوحشة ليست شاحبة وكريهة، فما يزال هناك أيضاً من أجل إنارتها، سواء من قريب أو من بعيد، الحب العميق لهذه الروح الجميلة على نحو أساسي، والمنفتحة على كل الجماليات الحقيقية لروح، وهناك أيضاً الإحساس الأكثر رقة ربما، والأكثر صدقاً، حتى بالفن وبالجمال وبالطبيعة.

ويبدو لي، مثلما يبدو للجميع تقريباً، وخلافاً للماضي (مع أني كنت أشعر بذلك من قبل)، أن البؤس والابتذال المحيطان بي لن يتمكنا أبداً من فرض الصمت على

هذا المعنى المقدس لما هو جميل، وعلى حب الخير. كلا إذن... فهمٔ يمجّدانه بالأحرى.

هناك جمال في كل شيء، ومعرفة إدراكه هي موهبة الشاعر الوحيد. لم تمت أبداً تلك الموهبة بداخلي، ذلك أني أعظمه، لأن الكنوز الوحيدة الدائمة هي كنوز الأفكار. إن حجراً من بناء أثري، يبدو أخرس للشخص العادي، يحفظ بشكل يثير الغيرة الفكرة التي كونت شكله ما دام موجوداً.

وفي انتظار الصدقة التي قد تأتي لتحرم أعدائي من نصر أخير، في تجرد من كل احترام بشري، استطعت أن أقرأ اليوم وأتذوق جمال كتاب دقيق لآنونزيو...

أيام كنت أكثر فقراً، محروماً من السعادة الرائعة، كنت أستمتع بالانعكاسات الأرجوانية والذهبية للشموس الغاربة على قِمم الكثبان البيضاء المتموجة في وطن الاختيار... وأحس بتناغم المنحدرات المتماوجة وغزارة الألوان الربيعية للتلال المترعة بالأزهار والنباتات المعطرة في باتنة الحزينة، مدينة المنفى والاضطرابات.

فقير، فقير مثلما كان في الماضي أيوب العظيم، المجسد للألم البشري، شعرت ـ وكنت كذلك بالفعل ـ بأني السيد المطلق للأماكن المديدة الفاتنة في الصحراء المحبوبة وفي جبال الأوراس الموحشة.

كنت جالساً مثل متشرد على قارعة طريق جوار الرفيق الوفي والمتواضع اللامبالي، والذي هو أيضاً سينتزع مني أبداً، ورحت أنظر بعيني سيد قصر إلى الحقول المذهبة للسلجم المزهر، وحبات القمح والشعير التي بدت كالزمرد، والشيح ذي الروائح المسكرة والذي بدا كأحجار كريمة. وحده القبر يمكنه أن يسلبني كل هذا الثراء، وليس الناس... وحتى، من يدري، إذا ما منحني المكتوب الوقت من أجل إعادة تشكيل بعض القطع، هل ستعيش في ذاكرة بعض الناس؟.

وحدها تلك الأشكال الراقية للحياة تستحق أن تعاش. لو علم ريشارد البخيل والبليد بأن «سيدة العالم» غنية ومتزلفة، وتعتقد نفسها جميلة، ستتطلع إلى لباس حقير، وبيوت بائسة، وغذاء شحيح لتلك التي وجدت ينبوع الحب (الوحيد الممكن والحقيقي، وحيث لا تقحم أي من شؤون المصالح الوضيعة) والتي تعرف كيف تتصرف بكبرياء، لامتلك الكون الفسيح وروحها الغامضة، ولاستمتع بها كلياً حد أن أي مستبد من الماضي مهما كان لم يستمتع بمثل قوته الوهمية.

سعادة إلهية وفريدة أن يقرأ في مرآة عين بشرية الحب الأرضي المطلق، وفي آفاق العالم الواسعة حتى النجوم الأكثر بعداً بشكل مدوخ عنوان الملكية الأكيد!

«الحزن غير المجدي لكل سعادة مفقودة، وتذكر كل الملك الهارب، والتوسل السامي يفر ملء قوته في البحار، ويختبئ من كل شمس خلف الجبال والرغبة الجامحة، وحتمية الموت. تمضي كل هذه الأشياء في الغناء الوحيد المتحول لفضيلة الفن في الجوهر العظيم، والذي يمكن للروح أن تلتقطه من دون أن تعاني منه.» (دانينزيو. النار).

تركت باتنة يوم السادس من شهر أيار/مايو الساعة الرابعة صباحاً، ووصلت إلى بون في اليوم نفسه الساعة الثالثة ليلاً. قضاء ليلة السادس منه بمنزل خوجة، ويوم وليلة السابع منه ويوم وليلة الثامن منه.

حُرّر في بون يوم الثامن من شهر أيار/مايو الساعة السادسة مساءً.

كلا، فالحياة من دون سليمان مستحيلة بكل تأكيد، فكل شيء باهت وحزين، والوقت يتمطط بشكل لا ينتهي. يا لويحا الكحلة المسكين! يا لزويزو المسكين! متى سأراه؟

مرسيليا، يوم الثاني والعشرين من شهر أيار/مايو ١٩٠١، الساعة التاسعة ليلاً.

الأربعاء. الرحيل.

تركت بون يوم التاسع من شهر أيار/مايو الساعة السادسة مساءً على متن بيري التابعة للشركة العامة للنقل البحري. مررت إلى الدرجة الرابعة باسم بيير موشيه، صحفي. الوصول إلى مرسيليا يوم السبت الثاني عشر منه الساعة الثالثة ليلاً. النزول من رصيف الحاجز في الميناء. صعود الترامواي حتى شارع وهران.

غداً بعد أن أستريح قليلاً من تعب اليومين الأخيرين سأدوّن بالتفصيل انطباعات بون، وعبور البحر والأيام الأولى في مرسيليا... هذه الليلة أريد أن أدوّن فقط الجانب النفسي لهذه الفترة الأخيرة، والتي بدأت بالدموع والقلق، وتحولت فجأة إلى

فترة رائعة، لأنها مفيدة، وجلبت صدفاً سعيدة مثل ذلك اللقاء العجيب على سبيل المثال مع رفيق سوس القديم عبد العزيز القريبي، لقاء يمكنه أن يجلب تحسناً كبيراً لوضعنا أنا وويحا ولربما سيحصل على شيء من الجزائر، ولربما سيجد مبادلاً لسيلمان بتونس؟ (وهو ما سيكون حلماً!) وفي كل الأحوال من المحتمل جداً أنه سيبدأ بإعادة جزء مما هو مدين لي به شيئاً فشيئاً. . .

ليس هناك أي وثيقة رسمية بالطرد ضدي، وعلى الأقل هذا الخطر المروّع في الواقع قد أزيح، ويمكنني إذن أن أعود جوار سليمان ما إن تتوفر لي الإمكانات. سيوفر لي مجلس الحرب تلك الإمكانات على أكثر تقدير يوم الثامن عشر من شهر حزيران/يونيو، وحتى ذلك الوقت عليّ الانكباب منذ الغد على العمل الروسي وإنهاؤه بما أني أتوفر على الوقت لتحقيق ذلك.

صار الأفق أكثر وضوحاً من كل جانب، بعد اللقاء الغريب أمس بعبد العزيز. شعرت نحوه بصداقة صادقة وإحساس لطيف على نحو غريب، وفرح عارم، وتأثر صادق.

ولربما وضعه الله في طريقي من أجل مساعدتي على عبور هذه الفترة القاسية من حياتي!

أفكر في سليمان الآن، ربّما لأول مرة أفكر فيه بشكل معقول.

أجل، عندما أكون مجدداً جواره ينبغي من اللحظة الأولى تغيير سلوكي اتجاهه، حتى لا تتكدر سعادة بيتنا، لأنه لا ينبغي للزواج أن ينبني فقط على الحب الذي مهما كان كبيراً وقوياً ليس أساساً متيناً. وينبغي تحمل المهمة الشاقة غالباً غير أنها ضرورية للتفاني حتى يكون في سلوكي اتجاهه ما ينبغي توفره من طيبة دائمة ومواساة له على كل مرارات الحياة. وينبغي أن أتحلّى بما يكفي من السيطرة على نفسي حتى لا أكون عنيفاً وأنانياً اتجاهه لئلا أرهق في يوم من الأيام صبره، ومن دون توفر ذلك لا يمكن تصوّر أي مستقبل مشترك. . . ينبغي أن أفرض على نفسي، بالنظر إلى طبيعتي، وهو الشيء الأكثر صعوبة علي، الخضوع المحدود بكل تأكيد، إذ لا ينبغي له أبداً أن يذهب حد الحطة، ولكن ما يلزم منه ليلطف حياتنا معاً. . . ويتعين باختصار أن أبذل جهداً كبيراً على نفسي حتى أصلح مزاجي وأن أجعله أكثر تحمّلاً ولن يكون ذلك صعباً بالنسبة لي نظراً إلى طباع سليمان الحميدة ورقته الحليمة. . .

مرسيليا، يوم الثاني عشر من شهر أيار/ مايو سنة ١٩٠١.

تركت منزل شارع بيجو الساعة الثالثة صباحاً يوم السادس من شهر أيار/ مايو. هدوء كبير يعمّ الأشياء، وبدر ممتلئ، وصمت عميق في الشوارع. نزلت حتى باب المحطة مع سليمان والعبادي وخليفة... توقف قصير على مقعد بشارع المحطة... استدرت مرة أخرى لأرى لآخر مرة الجسد الأحمر العزيز، والذي أضحى غير مميز تقريباً في الظل...

افترقنا من دون انقباض كبير في القلب. مع ذلك، وعلى الرغم من أننا كنا حزينين جداً فقد كنا نشعر مسبقاً بأن هناك لقاء آخر قريب جداً...

ريف باتنة والكارة بائس وحزين... والسبخات أو البحيرات غارقة في ضباب أبيض. وانطلاقاً من الكارة هناك غنى غريب في الألوان والفوارق الدقيقة للألوان حيث زرابي من الخشخاش المنثور ملقية بقعاً حمراء قانية على لون الحصاد الأخضر المعتم، وشقائق النعمان البيضاء كالثلج، والجلاديولس الأرجواني والضارب إلى الزرقة، وبقع ذهبية للسلجم... شبيهة للأسف بحقلي هناك على طريق لومبيز عند الكيلومتر الرابع حيث كنت أذهب في صباحات شهر نيسان/ أبريل الصافية مع صوفي الوفي المسكين... أين هي باتنة، مدينة الحب والمنفى والحرارة والتي أحزن عليها اليوم لأن الصديق المسكين صاحب القلب الطيب المحبوب والودود بقي فيها؟... أين هو صوف، الحصان الباسل، والرفيق الأخرس لجولاتي غير المنسية في كثبان بلدنا؟... أين هو خليفة، وأين هي كل تلك الأشياء البائسة التي جلبت من الواد بحب لأنها كانت البقايا المقدسة لسكننا المحبوب هناك؟... أين كل هذا الذي بعثرته رياح القدر وأهلكته؟

... الوصول إلى بون الساعة الثالثة. إحساس شديد بأيام الماضي لدى خوجة في الباحة الضيقة المائلة إلى الزرقة، حيث كنت أذهب في العديد من المرات لأحلم غير مبالية في اللحظة البهيجة لغسق الصيف، وحيث كانت تأتي الروح البيضاء لتجلس هناك أيضاً!... إحساس بالحلم وباللاواقع خلفته هذه المدينة التي لم أر منها شيئاً، باستثناء هذا المنزل العربي، والهيكل الذي لا يقارن عند الرحيل.

صعود المركب تحت سماء صافية ومشرقة يوم التاسع من شهر أيار/مايو الساعة الخامسة مساءً...

«يوم الثاني عشر منه قطعت هذه الملاحظات بدفق يأس مباغت ومروع تسبب لي فيه فراق سليمان... أنى لي العيش من دونه، يعلم الله وحده لكم من الوقت، منفياً من دون بيت، أنا الذي بدأت أتعود على بيتي مهما كان فقيراً».

يوم من الملل والكدر في بون، أمضيته أصارع قلق ترك ويحا يضيع، وكسل خوجة السيئ النية، والشعور الملح الكئيب جداً بلا واقعية ما يحيط بي.

... بقيت بون تسكن ذاكرتي، بجسدها الثابت عند رؤيتها من البحر، تلك المدينة الفريدة وغير المقارنة، وذلك على امتداد سنتين من الحنين والمعاناة... والغريب أنه منذ أن عدت إليها سنة ١٨٩٩ بدا أن الانجذاب السحري لعنّابة قد توقف. ولو لم يكن قبر الروح البيضاء موجوداً فيها لربما ما كنت لأطمح حتى في أن أعود إليها!...

رحيل بسرعة وبعصبية. عبور المدينة العتيقة، التي ما كدت أراها، عدواً مع حمّال كيفما اتفق... رأيت طيف عنابة الذي كان أليفاً بالنسبة لي في السابق وهو يبتعد، وأضحت غريبة بالنسبة لي... شعرت بحزن مهاجر ومنفي انتزع بعنف من مسقط رأسه، عندما كنت جالساً في مقدمة بيري بثوب الملاح البائس تحت اسم بيار موشيه... هنا، وعلى مرأى من الركاب المندهشين، الذين لم يبتسموا مع ذلك، لم أستطع أن أمنع من الانهمار دموعاً مريرة جداً، لم يكن لدي أي مكان أخفيها فيه... رأيت بانقباض قلب عميق الرصيف متعدد الألوان والصاخب، والحصون الحمراء، وإيدو وسان أوغستان، والتلة الخضراء المقدسة حيث أشجار السرو السوداء المعتمة... فكرت بألم حاد أنها أرض إفريقيا، الأرض المحبوبة بشغف، حيث يوجد سليمان، وحيث الصحراء المشرقة والتي تبتعد هكذا سريعاً جداً، والتي بدأت تغيب عن نظري في ظلام المساء الزاحف.

هذه العودة إلى بون أشبه بكابوس، ما دامت عابرة وقصيرة، وهائجة ومتقلبة على الخصوص.

... جلست على صرّة أمتعتي قرب رافعة الأثقال أفكر في كل البؤس العميق الذي ألقيت فيه والفقر الذي صار من الآن مطلقاً... فكرت أيضاً في مناظر الماضي وبذلات الملاح النبوية المعروضة بذوق أيام الرخاء التي أضحت بعيدة جداً.

افترشت سريري على المكان عينه الحار بعض الشيء، وبراحة حقيقية ـ الراحة الحزينة على نحو غريب واللذيذة لمشرّد[1] ـ وبدأت أنعس على هذه الفكرة التي هدأت تماماً بتعوّد المعاناة: هريسة عدن .... مثلما يشير إلى ذلك وصف خطته يد ساخرة بسعادة على باب المركز البصري لكف الدور[2]...

استيقظت بسبب عاصفة شديدة... نقلت أسمالي تحت الطبقة العليا للسفينة قرب ورشة المصابيح... ولما طردت من هناك رحت أتجول تحت المطر المتدفق بصرة أمتعتي المفكوكة والقذرة والمبللة.

أخيراً، وبفضل ملاّح طيب، وجدت ملجأ في المقدمة رفقة نابوليين شبه متوحشين ورجل مسنّ يلبس قشابية عربية سوداء، أظنه عائد من اليابان.

تحوّلت بحثاً عن قليل من الماء وشربت من الخزان! ليلة جيدة نوعاً ما، أمضيتها أرضاً. نمت كل النهار الموالي (١٠ أيار/مايو) حتى الساعة الرابعة. بدأ الجو العاصف، والنابولي المسن مريض. ألقى بي فيضان خلف آلة المراسي، جعلني الملاح المتعلم المتذمر أستقر على رزمة من الحبال في ميمنة السفينة.

عاصفة هوجاء طيلة الليل، واهتزاز عنيف، والأمواج الكبيرة تضرب، في كل لحظة مقدمة السفينة، لتسقط على سطحها بدويّ شديد. ليلة فظيعة، تبللت طيلة الوقت وخشيت بكل جدية من الأذى. كانت الرياح تعوي وتئن، وكان الدفق العظيم يهدر ويجأر... سمفونية رعب عظيمة.

... ملاحظات واضحة على نحو يائس عن ليلة الحُمّى والهذيان تلك. هذا ما احتفظت به في ذاكرتي:

«هو صوت الموت الذي يصرخ هكذا، وهو الذي غضب واهتاج على بيري، الشيء الصغير المسكين الذي يُرَج ويُعَذب ويهتز مثل ريشة في المدى الفسيح السيئ.»

(١) كتبته الكاتبة باللغة الألمانية، وأرفقته بشرح على الهامش بأنه من دون وطن. المترجم.

(٢) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

والشيء المفاجئ هو أني كنت أبحث بعناية عن الكلمات من أجل تشكيل جمل من دون نهاية، كما لأكتب على الرغم من المعاناة الجسدية الناجمة عن دوار البحر، وبعض الضعف، ومغص في البطن بسبب الجوع، وآلام في جانبي الأيمن، وبرد قارس، وتعب، وألم بالكليتين ما دفعني إلى التمسك بشدة بالحبال الصلبة والمبللة.

في الليل نزل كل ركاب السطح إلى الدرجة الثالثة... وبقيت وحيداً، معزولاً بالسيول المستمرة التي تتدفق مع هزيم الرعد فوق رأسي، ثم سقطت على السطح وكادت تحطم من يحاول أن يمر...

وصلنا بعد منتصف نهار صاف ومشرق. صعدت الترامواي بهدوء، ومشيتُ بعناء منذ ماغدالين حاملاً رزمي. ارتعبت لما لم أجد أخباراً عن سليمان. في الليل استيقظت قافزاً بغتة وقد بلغ بي الهم حد أني أوشكت أن أوقظ أوغستان.

صبيحة من دون لحظة استراحة حتى وصول برقية سليمان... منحتني الشجاعة من أجل تحمل هذه المحنة الجديدة، الأكثر قسوة من بين كل المحن: الفراق.

أنا سعيد هنا، ليس من أجلي، ذلك أني وإن لم أجد الرفاهية وجدت الراحة على الأقل، والتي كانت ثروة مقارنة بفقري المدقع.

وعادت لي أحاسيس الماضي أكثر حياة، وخاصة تلك العائدة لمقامي هنا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٩٩. سمعت قبل قليل قرع أجراس كنائس مرسيليا ذات الرجع المعكوس، وعشتُ مجدداً ذكريات أيام الماضي المشمسة حين كنا نتسكع أنا وبوبوفا في هذه المدينة التي أحبها حباً غريباً، غير أنها المدينة التي لا أحب أن أقطن بها... قصر إيف، وسان فيكتور... وأيام الخريف الصافية في الجنوب والتي أضحت شديدة البعد!...

... لكن من سيعيد لي صوفي المشمسة أبداً، والزوايا البيضاء والمنازل الهادئة ذات القباب الرمادية، وأفق الرمال اللامحدود... وكل ما شكل منظر نصف سنة من الحياة هناك، في الصحراء الفاتنة... من سيعيد لي سليمان، الشقيق والعشيق الذي هو كل عائلتي في هذه الدنيا؟

... الله، لربما... الذي أؤمن وأثق به، وعبد القادر الجيلاني...

(نسخت وأكملت يوم ٢٥ أيار/ مايو).

مرسيليا، يوم الثلاثاء ٢٨ أيار/ مايو، الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

. . . فكرت هذا المساء في البؤس الذي أضحى من الآن فصاعداً قسمتي على هذه الأرض.

كنت مستندة إلى نافذة المطبخ، وحيدة في المنزل كالعادة، وفي راحة وصفاء هذه الأمسية المضاءة توصلت أخيراً إلى القناعة الصادقة بشكل مطلق بأن البؤس مهما كان لا يمكنه أن يؤثر مباشرة على الحس الفني، وأني أشعر الآن كما شعرت في السابق، إن لم يكن أفضل، بروعة الأشياء، وهي خلاصة معزية من بين كل الأشياء الأخرى.

ملل وقلق لمعرفة أن سليمان وحيد هناك، ومحاط بكل أولئك الأنذال، مولود وبورنية إلخ. . . والذين هم أعدائي الجبناء والخبثاء. أظن أنه سيخرج منتصراً من هذه المحنة غ إن شاء الله!

أنا مستعدة لفعل كل شيء من أجله. عندما سنكون معاً يمكنني أن أكون اتجاهه، لكن اتجاهه وحده، برقة وخضوع مطلقين. لا أريد تقييداً لحريتي وكرامتي من قبل كل ذلك القطيع الخسيس، الذي يعتقد بأن له حقوقاً على هذا الرجل ـ لماذا؟ ـ بينما هو وحده له الحق عليّ، ولي الحق عليه، على وفائه وسلوكه. فلتحل اللعنة عليهم في كل الأجيال.

أشعر اتجاه كل أولئك البؤساء بالكراهية الشديدة نفسها التي تحركني ضد شخص مثل علي أو بن عثمان، ليس لأنهم سرقوني، ولكن لأنهم أهانوني، ولأنهم رعاع وأنذال وقحون.

فالدناءة والسوقية في الشر جعلتاني دوماً أكثر مقتاً وأكثر بغضاً، مثل كل رداءة.

مرسيليا، ٣ حزيران/ يونيو ١٩٠١، الساعة التاسعة ليلاً.

أشعر بحاجة إلى تدوين مشاعر هذه اللحظة على نحو سريع جداً مع بعض المعاينات العادلة نوعاً ما والمهمة.

بداية، النقطة المهيمنة، وهي الرغبة في الرحيل بأسرع ما يمكن، ورؤية سليمان وعدم تركه أبداً، وأن أحافظ عليه على نحو يثير الغيرة، لأني حصلت أخيراً على

قناعة بأنه ليس لي سواه في هذه الدنيا، وبأن الحياة غير ممكنة بعيداً عنه. لا ريب في أن أوغستان يقوم بالمستحيل من أجلي، غير أن زواجه أبعده عني إلى الأبد، وما عاد باستطاعتي أن أعتمد عليه مثلما كنت أتصور في الماضي. إضافة إلى ذلك هناك اللاشعور المفروض لزوجته، ابنة الشعب، الشعب الأكثر تحريضاً، والذي يجعل حياتي المشتركة لا تحتمل بالنسبة لي أنا التي تفهم كثيراً الحياة والأشياء.

والشخص الوحيد الذي تمكنت من العيش برفقته في انسجام، والذي أحسست إلى جواره بأني في أمان ـ كم هو عذب تذكر هذا الإحساس وسط الهواجس الحالية!
ـ هو سليمان.

أترقب الآن اللحظة التي سنجتمع خلالها كلحظة خلاص، وأتصور أني سأشعر في تلك اللحظة بالإحساس السعيد الذي يشعر به المرء الذي كان يحمل عبئاً ثقيلاً وخطيراً طيلة حياته وتخلص منه فجأة.

حتى أني أعتقد، ما دام ذلك لم يغير شيئاً من قضية مجلس الحرب، بأني إذا ما وصلني المال من القريبي عبر بريد يوم الأربعاء سأرحل يوم السبت بكل تأكيد إلى فيليب ـ فيل، حتى أعجل بأسبوع اللقاء السعيد ونهاية الهواجس الدائمة التي أعيش في دوامتها منذ رحيلي عن باتنة، أي منذ شهر كامل.

وبكل تأكيد عليّ الحرص على تنظيم حياتي بطريقة أجعلها محتملة هناك، وعلى الخصوص إذا كان علينا البقاء بباتنة لفترة طويلة تقريباً. . . وعندما سأعود بعد انعقاد المجلس لن تبقى لنا إلا ثمانية أشهر من المعاناة، وبعدها هناك يقين الزواج الرسمي والحرية. وحتى الآن، شملنا الله برحمته، ولم يتخلَّ عنا أبداً في اللحظات الأكثر ألماً، بل إني بدأت أتعود على التفكير فيه، وفي ذلك الحامي الغامض الجيلاني، بإحساس تعزية.

أدركت أيضاً أني مررت وما أزال أمر بإحدى مراحل الحضانة التي بدأت أعاين بعض نتائجها. أفهم الآن الناس والأشياء أكثر، وأضحى أفق حياتي أقل تعتيماً مع أنه حزين بشكل غير محدود.

ليست الحياة مجرد صراع دائم ضد الظروف فقط، ولكنها بالأحرى صراع من دون توقف ضد أنفسنا. هي حقيقة قديمة قدم العالم غير أن ثلاثة أرباع الناس يجهلونها ولا يولونها أي اهتمام، ومن هنا يأتي التعساء واليائسون والأشرار.

قوة الروح عليها هائلة، وعلى الخصوص لدى بعض الناس، وتكبر هذه القوة مع الوقت.

وغالباً ما تكتسب هذه الميزة المفيدة على الخصوص في المعاناة مثلما هي حالتي. المعاناة جيدة، لأنها تعظم. . . من دون شك باتجاه مسارات الآخرة المجهولة، لأن كل شيء بشع وبليد من دون الآخرة. وحدها المعاناة تسبب روعة الشجاعات الكبرى والتفاني العظيم مثلما تسبب المشاعر العظيمة والأفكار الواسعة. . .

وليس ما يبهجني في البطولة على وجه التحديد الجانب الصاخب الذي يمكنه أن يحمّس الإنسان العادي ويجعل منه بطلاً غير واع، بل هو الجمال الخالص للفعل وانسجام خطوطه، إذا جاز القول، وعلى الخصوص السمو الفوري عن طريق الزهد المطلق عن كل الروابط العميقة لحيوانيتنا، والصدق المطلق المستحيل خارج لحظة السمو، حيث بلوغ الأوج، وحيث بحسب التعبير المكرس يوجد المرء وجهاً لوجه مع الموت. . . لكن من أجل هذا ينبغي أن يكون لديه اليقين المطلق بحسب قياسات المطلق البشري لوشوكية وحتمية الموت، ومن دون ذلك ليست البطولة في الغالب لدى الإنسان العادي إلا ثقة مبالغ فيها في هذا الشيء الغامض، والأقل تعزية، والتي نطلق عليها اسم الحظ.

الموت بوعي وبهدوء، ومن أجل إثبات إيماننا، مهما كان هذا الإيمان، فتلك هي الروعة الخالصة. لكن أكرر بأن على الفعل أن يكون واعياً.

أما أنا فعلى يقين بأني لو خُيّرت بين الموت الفوري والأكيد وبين الردة لاخترت الموت، ولي أسبابي في ذلك، حيث اللحظة المهيبة في البداية، وافتخار بنفسي على الخصوص، لأن توازن العالم المعنوي والفكري المغلق جداً، والذي يجعلني أعيش سيكون عرضة للخطر، وإلا فإنه سيكون مضطرباً دائماً، وفيما بعد، بالازدراء الفطري للحياة بحد ذاتها من دون ما يزينها ويجعلها تستحق العيش والدراسة. والشيء الغريب عند بداية هذه الملاحظات، أي بعد التطرق فيها إلى مشاعري اتجاه سليمان والحياة الحالية، هو أني أردت أن أقول شيئاً آخر غير ما قلت، وما قلته بشكل ناقص تماماً.

. . . هناك شيء أدركته الآن وهو أني لم أفهم أبداً، ولن أفهم أبداً، طبع وحياة أوغستان. هل أضحى ماهو عليه، أو بالأحرى كان كذلك دوماً؟ أجدني أميل

بالأحرى إلى الخيار الثاني، مع أنه عند عودته من كورسيكا، وحتى رحيله إلى اللواء الأجنبي الأول، وخلال الفترات الأولى التي أعقبت عودته من تونس، كان في الواقع ما اعتقدت أني ميزته فيه. أما الآن فقد انتهى، وانتهى كلياً، ويبدو أنه يتورط أكثر فأكثر في حياته الحالية، تلك الحياة التي ليس للمثقف فيها مكان تقريباً، والتي تنفرني أكثر فأكثر وتبدو لي غريبة.

. . . وفي ظل هذه الظروف ما سيكون عليه المستقبل الكئيب في رأيي، الذي ينتظر هذا الكائن الذي يشبهني شكلاً على نحو غامض، والذي أنا على يقين من دون أن أتمكن من معرفة السبب بأن لديه الكثير من التوافق النفسي معي. . . يا لإيلين الصغيرة المسكينة، والتي أتعرف من خلالها على ملامحي مع نوع من الحنان ومن الهم! ستجهلينني دوماً من دون شك، أنا التي أحتل جزءاً صغيراً جداً في البيت حيث عليك أن تكبري، ولن أعود للظهور فيه إلا نادراً جداً ما أمكنني ذلك! ما الذي سيصنع بها والداها؟

أين ذهب توافق طبيعتينا، أنا وأوغستان، الذي كان يؤكده في الماضي ملء صوته؟. . . للأسف، للأسف، كلما أمعنت النظر قلّت رؤيتي له!

أيا سليمان، يا سليمان، إبق ما كنته بالنسبة لي خلال عشرة أشهر، ولا تهجرني، ودعني ألجأ قربك. . . فوحدك بقيت لي!

مرسيليا ٤ حزيران/يونيو، يوم الثلاثاء منتصف النهار.

أمضيت ليلة كريهة أشك في كل شيء، خصوصاً في روح، الذي عذبني كثيراً حد أني كدت أفقد رشدي. لم أعانِ على هذا النحو إلا نادراً، جسدياً ومعنوياً، مثلما حدث منذ يوم الأحد. والسبب في جزئه الأكبر نفسيّ يعود إلى الاضطراب العنيف لكل الدوران الذي تسببت فيه الحادثة الخرقاء ذلك اليوم.

أية هواجس، وأية أفكار سوداء!

نفخت في المصباح الساعة الثانية، وبعد مدة طويلة نمت لأستيقظ قافزة الساعة الثالثة بهمّ من دون سبب، وكان ذلك تمهيداً لأزمة اليأس الكريهة التي دامت حتى طلوع النهار.

غضب وقلق وعصبية، وألم نفسي حاد حد الجنون، هذا ما قدمته لي إقامتي

الأخيرة هنا. ويوماً بعد يوم، يزداد قلبي انطلاقاً نحو سليمان. وهناك أيضاً ستكون المعاناة والبؤس والملل والحرمان الأبدي. . . غير أن العزاء الكبير يكمن في معرفة أنه هناك، وأن أراه، وأن أسمعه يحدثني، وأن أحظى أخيراً بشخص أئتمنه على كل آلامي، وعلى كل أفكاري، والذي سيكون كل شيء عني واضحاً تقريباً بالنسبة له، والذي سأكون بالنسبة له ما سيكونه بالنسبة لي.

أن أكون هادئة وواثقة بأننا في المساء سنريح الروح.

هناك بارقة أمل من ناحية العمل الروسي الذي له حظوظ قوية في جلب تحسن معقول.

آه! لو أرسل لي أتابك عشرين فرنكاً والقريبي ثلاثين فرنكاً لأمكنني الرحيل يوم الجمعة، والذهاب إلى باتنة، ولوضعت حداً لهذا الوضع الذي لا يطاق، بل إن المنطق يستوجب ألا أجدد لأسبوع آخر معاناة مماثلة، وهذا سيجنبني ملل التعامل مع أفراد عائلة بورنية الصعاليك.

كل شيء يا إلهي، كل شيء من أجل رؤيته مجدداً، ولو عند باب الثكنة، على نحو عابر، مثلما فعلنا على امتداد أسبوع!

مرسيليا، الجمعة ٧ حزيران/يونيو ١٩٠١.

يوم السادس منه، نشرت في البرقية الجزائرية رسالتي المتعلقة ببهيمة.

يوم السابع منه إرسال رسالة تصحيحية.

نص الرسالتين:

سيدي المدير

يوم الثامن عشر من شهر حزيران/يونيو المقبل سيقضي مجلس الحرب في القسطنطينية في حق أحد الأهالي وهو المدعو عبدالله بن السي محمد بن لخضر من قرية بهيمة، قرب الواد (دائرة توقورت). هذا الرجل متهم ومقتنع بالقتل أو بالأحرى محاولة القتل العمد.

أنا من كنت ضحية لذلك الاعتداء الذي أوشك أن يكلفني حياتي.

اندهشت كثيراً عندما علمت أنه لم تهمس أية جريدة جزائرية بكلمة حول هذه

القضية، ومع ذلك فأغرب شيء والأكثر غموضاً هو أن أي محكمة جزائرية لم تقض فيه. أفترض أن الصحافة لم تتلق أي تفاصيل حول هذه القضية، ومن أجل مصلحة الحقيقة والعدل فقط، أعتبر أنه كان من الجيد إعلام العموم بتفاصيل هذه القضية قبل أن يبت الحكم فيها. ولهذا أرجوكم بأن تقبلوا نشر هذه الرسالة الممهورة بتوقيعي، وأنا أتحمل المسؤولية الكاملة والمطلقة لما حوت.

فلتسمحوا لي بداية أن أعرض بعض التفاصيل الضرورية من أجل فهم النص الذي سيلي.

فخلال جلسات التحقيق في قضية عبد الله بن محمد أبدى الضباط المكلفون بإجراء تلك التحقيقات، ولمرات عديدة، اندهاشهم وهم يسمعونني أعلن بأني مسلمة، بل ومنتمية إلى الطائفة القادرية، وهم يرونني ألبس الزي العربي النسوي تارة، والذكوري تارة أخرى بحسب ظروف وحاجات حياتي المتجولة في الغالب.

وحتى لا أؤخذ على أني منافسة للدكتور غرونييه[1] أو شخصاً يلبس زياً أو يتصنّع بسمة دينية من أجل هدف لمصلحة شخص ما، أحرص على الإعلان هاهنا أني لم أكن مسيحية أبداً، وأني لم أُعمّد. وعلى الرغم من أني من الرعايا الروس فأنا مسلمة منذ مدة طويلة جداً. فوالدتي التي كانت تنتمي إلى الطبقة النبيلة الروسية توفيت في بون سنة ١٨٩٧ بعد أن أصبحت مسلمة ودفنت في المقبرة العربية لتلك المدينة.

لم أحتج إذن أن أتظاهر بأني مسلمة، وليس لديّ أي سبب يجعلني أمثل هذه المسرحية، وهو ما فهمه إخوتي في الدين الجزائريون على نحو جيد، مثل الشيخ السي محمد الحسين شقيق السي محمد الطيب، نائب الطائفة في ورقلة، والذي قبل دون أية صعوبة أن يمنحني التلقين المتوافق مع ما أخذته من أحد مقدميه. حرصت على قول كل هذا في البدء من أجل السبب المعلن أعلاه، وحتى لا يفسر اعتداء عبد الله بكراهية متعصبة ضد كل ما هو مسيحي لأني لست مسيحية، وكل الصوافة يعلمون ذلك بما في ذلك عبدالله!

هي ذي الآن حكاية الاعتداء، الذي كنت ضحية له يوم التاسع والعشرين من شهر

---

(١) نائب سابق للدوبس تظاهر بالإسلام، حتى في مجلس النواب وفي الشوارع. ملاحظة روني لويس دويون. الأصل.

كانون الثاني/ يناير الساعة الثالثة بعد الظهر في منزل يملكه شخص يدعى السي إبراهيم بن العربي في قرية بهيمة، على بعد أربعة عشر كيلومتراً شمال الواد، على طريق الجريد التونسي.

لما كنت قد مررت إلى الواد إبان أول عبور للصحراء القسطنطينية، قمت به صيف سنة ١٨٩٩، فقد احتفظت بذكرى الإحساس العميق الذي تركه بداخلي ذلك البلد ذو الكثبان النقية والبساتين العميقة، وبساتين النخل الظليلة. استقررت إذن بالواد في شهر آب/ أغسطس سنة ١٩٠٠ من دون أن أدرك إلى كم من الوقت، وهناك تلقيت مبادئ الطائفة القادرية. وشرعت منذ تلك اللحظة أرتاد الزوايا الثلاث الواقعة بمحاذاة الواد، وحصلت على صحبة الشيوخ الثلاثة، ابن سيدي إبراهيم، وشقيقي المرحوم نائب ورقلة. ويوم التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير رافقت أحدهما، السي الهاشمي، إلى قرية بهيمة، وكان الشيخ يقصد نفطة (تونس) مع بعض الإخوان من أجل زيارة قبر والده السي إبراهيم. وكانت هناك ظروف شخصية تمنعني من المضي حتى نفطة، وهكذا فقد رافقت الشيخ حتى بهيمة حيث كان الحج سيتم ليلاً. وكنت أنوي أن أعود في الليلة نفسها إلى الواد رفقة خادمي، وهو أحد أبناء صوف، وكان يصحبني راجلاً. دخلنا بيت شخص يدعى السي إبراهيم بن العربي، وبينما انسحب الصوفي إلى غرفة أخرى من أجل أداء صلاة فترة بعد الظهر، بقيت في قاعة كبيرة تفضي إلى غرفة انتظار مفتوحة على الساحة العامة حيث كان يقف حشد كبير، وحيث كان خادمي يحرس حصاني. وكان هناك خمسة أو ستة من أعيان المنطقة والمناطق المجاورة من العرب، وتقريباً جميعهم من الإخوان الرحمانية. وكنت أجلس بين اثنين من أولئك الأشخاص، صاحب البيت وتاجر شاب من غيمار يدعى أحمد بلقاسم. ورجاني هذا الأخير أن أترجم له ثلاث برقيات كانت إحداها مكتوبة على نحو سيئ جداً، ووجدت فيها الكثير من الصعوبة. وكنت منحنية وغطاء رأس برنسي كنت أضعه فوق عمامتي يمنعني من أن أرى أمامي. وفجأة، تلقيت ضربة عنيفة على رأسي، أتبعت بضربتين أخريين على ذراعي اليسرى. رفعت رأسي، ورأيت شخصاً بلباس رث أمامي، بمعنى أنه كان غريباً عن الحضور، وكان يرفع فوق رأسي سلاحاً أحسست أنه دبوس. قمت بغتة وانطلقت إلى الجدار المقابل لأخذ سيف السي الهاشمي، غير أن الضربة الأولى التي تلقيتها على رأسي دوختني. وهكذا، فقد

سقطت على أحد الصناديق شاعرة بألم مبرح في ذراعي اليسرى.

جُرّد الجاني من سلاحه من قبل مقدّم شاب من القادرية، وهو السي محمد بن بوبكر، وأحد خدم السي الهاشمي الذي يدعى سعداً، غير أنه نجح مع ذلك في الإفلات. ولما رأيته يدنو مني قمت محاولة أن آخذ السلاح مرة ثانية غير أن دوختي والآلام الحادة بذراعي منعتني من ذلك، وألقى الرجل بنفسه وسط الحشد، وهو يصرخ: «سأبحث عن بندقية لأقتله.» وهكذا جلب لي سعد سيفاً عربياً وقد أُدميَ نصله وأخبرني قائلاً: «بهذا أصابك ذلك الكلب!»

هرع الصوفي عند سماعه اللغط، حيث سُمّي القاتل على الفور من قبل أشخاص تعرفوا عليه، فاستدعى شيخ بهيمة المستقل، والذي ينتمي مثل الجاني إلى الطائفة التيجانية في الصحراء. وأبدى ذلك الموظف الغريب مقاومة عنيدة للصوفي زاعماً بأن القاتل من الشرفاء إلخ إلخ. وهكذا، فقد هدده الصوفي علناً بأن يبلغ عنه المكتب العربي كمتواطئ، وأصرّ بإلحاح أن يعتقل الجاني من فوره ويحضر، وامتثل الشيخ للأمر كرهاً.

وأُحضر الجاني إلى الحجرة حيث مُدّدت على فراش، وبدأ يتظاهر بالجنون، ثم لما أُقنع من قبل الأهالي الذين يعرفونه بأنه رجل عاقل وهادئ ومعتدل، أخذ في القول بأن الله هو من أرسله ليقتلني. ولما استعدت وعيي بشكل تام أدركت أني أجهل جهلاً تاماً وجه ذلك الرجل، فأخذت أستجوبه، ليخبرني هو أيضاً بأنه لا يعرفني ولم تسبق له رؤيتي أبداً، ولكنه أتى ليقتلني، وسيعاود الكرة إذا ما أخلي سبيله. وعند سؤالي له لَم يحقد عليّ أجاب: «أنا لا أحقد عليك أبداً، وأنت لم تقم بأي شيء ضدي، ولا أعرفك ولكن عليّ أن أقتلك.» وسأله الصوفي إن كان يعرف أني مسلمة فردّ بالإيجاب. وأعلن والده أنهم من التيجانية وأجبر الصوفي الشيخ لمعرفة مكان إخبار المكتب العربي، واستُدعي ضابط من أجل أخذ القاتل وفتح التحقيق واستدعي الطبيب النقيب من أجلي.

وحضر حوالي الساعة الحادية عشرة الضابط المكلف بالتحقيق، وهو ملازم أول من المكتب العربي والنقيب. وقرر النقيب أن إصابة رأسي وإصابة معصمي الأيسر خفيفتين، فقد أنقذ حياتي حظ سماوي، ذلك أن حبل غسيل كان مشدوداً فوق رأسي وهو ما خفف ضربة السيف الأولى التي لولا ذلك لأودت بحياتي، إلا أن مفصل

مرفقي الأيسر فتح من الجانب الخارجي، وخدشت العضلة والعظم، وسبّب النزيف الدموي الكبير الذي كنت عرضة له ـ خلال ست ساعات ـ حالة من الضعف تطلبت تركي هناك في بهيمة تلك الليلة.

حملت في اليوم الموالي على محمل إلى المستشفى العسكري في الواد، حيث بقيت حتى يوم الخامس والعشرين من شهر شباط/ فبراير الماضي. وعلى الرغم من العلاج المتفاني والذكي للسيد الدكتور تاست فقد خرجت من المستشفى بعاهة ستلازمني مدى الحياة، عاجزة عن استخدام ذراعي اليسرى لأي عمل مهما كان قليل العناء.

وعلى الرغم من الخصومات التي نشبت بيني وبين أعضاء المكتب العربي لتوقورت التي يخضع لها المكتب العربي للواد عند رحلتي الأولى، وهي الخصومات التي تسبب فيها حذر ذلك المكتب فقط، فقد أبدى رئيس ملحقة الواد، وضباط المكتب العربي والحامية إضافة الطبيب ـ النقيب حيالي طيبة كبيرة، وأحرص هاهنا على الاعتراف لهم علناً بامتناني.

وبوشر التحقيق الذي أظهر أن عبدالله ذهب خلال خمسة أيام قبل جريمته يبحث عن أسلحة نارية غير أنه لم يجدها، وفي يوم وصولنا إلى بهيمة نقل أسرته ـ لهذا الشقي أطفال صغار السن ـ وأثاثه إلى منزل والده، الذي كان يعيش بعيداً عنه منذ ست سنوات. وقد كان ووالده تيجانيين معروفين غير أنهما كذبا فجأة قائلين بأنهما ليسا من التيجانية. ففي الوقت الذي أعلن لي الأب فيه أنه فرد من الطائفة القادرية أكد الإبن خلال التحقيق أنه تلقى تعليماً على أساس أنه من طائفة مولاي الطيب، وأقنع ضابط الشرطة القضائية السيد الملازم أول غويلو عبد الله بأنه كذب في هذه النقطة.

وقبل أيام قليلة من رحيلي عن الواد سمعت إشاعة في أوساط الأهالي بأن عبدالله المرهق بالديون من قبل ذهب إلى غيمار (مركز التيجانية) قبل أيام قليلة من جريمته وحين عودته أدّى ما عليه من دين، بل إنه اشترى بستان نخل. وخلال الفترة نفسها ذهب والد عبد الله إلى زاوية سيدي الهاشمي وأخبره أمام شهود بأن ابنه اشتُرِيَ من أجل مهاجمتي وأنه كان يجهل من كان المحرضون، وكان يرغب في أخذ إذن برؤية ابنه أمام مدعي الحق العام حتى يدعوه إلى القيام باعترافات كاملة فنصحه الصوفي بأن يقصد المكتب العربي، وطلب الرجل المسن أن يحدثني عن طريق أحد خدمي وقال

لي: «لم تأت هذه الجريمة منا». وأسرّ لي أيضاً برغبته في أن يرى ابنه حتى يدفعه إلى الاعتراف. هذه هي الوقائع.

من الواضح بداية أن عبدالله لم يرد قتلي بسبب كراهيته للمسيحيين، ولكنه دُفع من قبل أشخاص آخرين، وكانت جريمته متعمدة. أعلنت في التحقيق أني أنسب جزءاً كبيراً من ذلك الاعتداء الإجرامي إلى كراهية التيجانية للقادرية، وأنني أفترض بأن كابا أو الإخوان التيجانيين هم من تواطأ من أجل التخلص مني لما رأوا أني محبوبة من قبل أعدائهم ـ وهو ما يدل على أسف الإخوان عند علمهم بالجريمة. وعندما كنت أمر محمولة على نقالة عبر القرى المحيطة بالواد، أثناء نقلي إلى المستشفى، كان سكان تلك القرى، رجالاً ونساءً، يخرجون إلى الطرقات مطلقين صرخات الانتحاب التي ترافق جنائزهم. آمل ألا يكتفي مجلس الحرب في القسطنطينية بإدانة عبدالله بن محمد الإدانة الخالصة والبسيطة، ولكن أن يحرص على تسليط الضوء على هذه القضية الغامضة.

بالنسبة لي لم يكن عبد الله إلا أداة بين أياد أخرى، وإدانته لن تكفيني، ولن تكفي أيضاً كل أولئك الذين يقدسون الحقيقة والعدل.

ليس عبد الله وحده من أريد أن أراه جالساً على كرسي الاتهام لكن بالأحرى أولئك الذين حرّضوه، أي الجناة الحقيقيون، أياً كانوا.

أتمنى، سيدي المدير، ألا ترفضوا نشر هذا الإعلان في جريدتكم الموقرة، والذي أجرؤ على الاعتقاد أنه ذو فائدة كبيرة، فإذا كان التل الجزائري ليس مختلفاً على نحو ملموس سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الاجتماعية عن المقاطعات الفرنسية الأخرى، فليس ذلك شأن الصحراء حيث تحدث الأمور بطريقة مغايرة تماماً، بل من المستحيل أن يشك أحد في فرنسا بأنها تحدث على ذلك النحو.

إيزابيل إبرهارت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مرسيليا، يوم السابع من شهر حزيران/يونيو ١٩٠١.

سيدي المدير

أشكركم بصدق بالغ كونكم قبلتم إدراج رسالتي الطويلة ليوم التاسع والعشرين

من شهر أيار/ مايو الماضي. ولم أكن أنتظر إلا النزاهة المعروفة للبرقية الجزائرية التي برهنت دوماً على الاعتدال وسط العنف الذي أضحى للأسف شبه قاعدة في السلوك بالنسبة لبعض الأجهزة الجزائرية. سيدي المدير، في الوقت الذي أضحت فيه إقامة الأجانب في الجزائر قضية راهنة يبدو لي أنه ليس لي الحق فقط، بل عليّ الواجب أيضاً أن أقدم بعض التوضيحات العمومية والصريحة لكل أولئك الذين أخذوا على عاتقهم قراءة رسالتي الأولى.

لقد منحتموني شرفاً لا أستحقه أبداً ـ ولا أحرص على نيله ـ بِنِسْبَة تأثير ديني معيّن لشخصي على أهالي دائرة توقورت، غير أني لم ألعب ولم أسع للعب أي دور سياسي أو ديني، ولم أعتبر أبداً أنني أملك الحق والأهلية الضرورية من أجل الانخراط في أمور على تلك الدرجة من الخطورة، وذلك القدر من التعقيد مثل الشؤون الدينية في بلد مشابه.

في سنة ١٨٩٩، وقبل الرحيل إلى توقورت، اعتقدت أن من واجبي الذهاب شخصياً لأُعلم السيد المقدم فريدل برحيلي، والذي كان آنذاك قائد دائرة بسكرة. سألني ذلك الضابط، الذي استقبلني استقبالاً جيداً، بصراحة عسكرية إذا لم أكن إنجليزية وميتودية(١)، وذلك ما أجبت عليه مقدمة إلى قائد الدائرة وثائق تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك أنني روسية وفي وضع قانوني جداً إزاء السلطات الإمبراطورية مع حصولي على إذن منها بالعيش في الخارج. وعرضت أيضاً على السيد فريدل آرائي الشخصية حول قضية البعثات الإنجليزية بالجزائر، مخبرة إياه بأني ضقت ذرعاً بكل التبشير، وعلى الخصوص النفاق الذي هو خاصية السلوك الإنجليزي، والذي نعتبره نحن معشر الروس غير ودود، مثلما يعتبره الفرنسيون كريهاً.

وفي توقورت، حيث كان المقدّم غائباً، وجدت القائد دو سيسبيال كقائد للمكتب العربي، وهو رجل ذو شخصية خاصة، وبتعبير عامي هو غير متساهل. وهناك أيضاً كان عليّ أن أثبت أني لست أبداً «ميس» متنكرة في زي عربي، ولكني بالفعل كاتبة

---

(١) كنيسة بروتستانتية نشأت عام ١٧٢٩ بين شبّان في جامعة أوكسفورد. تبنّت هذه الحركة المبدأ الأرميني رافضةً مبدأ الاختيار المُسبَق واقترحت على أتباعِها «نظاماً» من التقوى والتأمل العميق كردة فعل على التدين الظاهري الذي كان يعم الكنيسة الأنجليكانية آنذاك، ولهذا دُعيت بالميتوديّة . المترجم.

روسية تافهة... ومع ذلك، يبدو لي انه إذا كان هناك بلد يستطيع روسي أن يعيش فيه من دون أن يتهم بسوء نية فسيكون هذا البلد هو فرنسا!

وكان للسيد قائد ملحقة الواد، القائد كوفي، وهو رجل ذو قيمة ثقافية عالية، ومخلص جداً في عمله، على امتداد ستة أشهر فرصة التأكد من أنه لا يوجد ما ألام عليه، باستثناء غرابة كبيرة تتمثل في نمط حياة غريب بالنسبة إلى شابة، ولكنها غير مؤذية تماماً... ولم يقدّر بأن تفضيلي للبرنس على التنورة والكثبان على الموقد المنزلي يمكنهما أن يكونا خطيرين على الأمن العام في الملحقة.

قلت في رسالتي الأولى بأن الصوافة المنتمين إلى طائفة سيدي عبد القادر، وأولئك المنتمين إلى طوائف صديقة، أظهروا ألمهم عندما علموا بأنه أريد اغتيالي. وإذا كان لأولئك الناس الطيبين بعض المودة اتجاهي، فلأني قمت بأفضل ما أستطيع لنجدتهم، ولأني لما كنت أمتلك بعض المعارف الطبية البسيطة عالجتهم من الرمد والتهاب الملتحمة وأمراض أخرى متفشية في تلك المناطق، وحرصت على القيام ببعض أعمال الخير في المكان الذي كنت أعيش فيه... هذا هو الدور الوحيد الذي قمت به في الواد.

قلة من الناس في هذا العالم ليس لها أي شغف، وليس لها أي هوس إذا جاز القول. وحتى لا أتحدث إلا عن جنسي فهناك نساء يمكنهن القيام بحماقات فعلية من أجل الحصول على تبرّج لمّاع، وهناك أخريات يهرمن ويشحبن من أجل الحصول على شهادات والذهاب من أجل نجدة الموجيك... أما أنا فلا أرغب في أي شيء آخر سوى الحصول على حصان جيد ووفي، ورفيق أخرس لحياة حالمة ووحيدة، وبعض الخدم الذين هم بالكاد أكثر تعقيداً من مطيتي، والعيش في سلام أبعد مما يتيحه الممكن عن التحريض العقيم من وجهة نظري المتواضعة للعالم المتحضر، والذي ما عدت أشعر به كثيراً.

من يمكنه أن ينزعج من كوني أفضّل الأفق المتموّج والمضطرب للكثبان الرمادية على أفق الشارع؟

كلا، سيدي المدير، لست سياسية، ولست عميلة لأي حزب، لأنه بالنسبة لي كلهم مخطئون على حد سواء ليكافحوا مثلما يعملون، وأنا لست إلا غريبة وحالمة تريد أن تعيش بعيداً عن العالم المتحضر حياة البدو الرحّل الحرة لكي تحاول فيما بعد

أن تحكي ما رأت، وربما توصل إلى البعض الرعشات الحنينية والساحرة التي تشعر بها في مواجهة روائع الصحراء الفاتنة. . . هذا كل شيء. فدسائس وخيانات وحِيَل صونيا دي هيغ غريبة جداً عني بالقدر نفسه الذي لا تشبهني فيه شخصيتها. . . لست صونيا أبداً بقدر ما أنني لست الميتودية الإنجليزية، التي اعتقد الآخرون أنهم رأوها بداخلي في السابق. . . صحيح أن صيف سنة ١٨٩٩ كان حاراً بشكل كبير في الصحراء، وأن السراب يشوّه فعلاً الأشياء، ويوضح الأخطاء جيداً!

إيزابيل إبرهارت.

وأخيراً، أنا شبه متأكدة بأني سأرحل يوم الجمعة المقبل. لم يتبق لي إذن إلا سبعة أيام هنا، وأنا متأكدة أن أوغستان سيقوم بكل ما يمكنه من أجل أن يحصل لي على المال الضروري.

يا لأوغستان المسكين! يبدو لي هذا الرجل، مع أنه أشبه بلغز، جيداً بالنسبة لي، ولا شيء في العالم يمكنه أن يدمّر أبداً بداخلي التعلق العميق والأبدي الذي أشعر به نحوه. آه! وا أسفاه أن زواجه يمنعه من الالتحاق بي وبسليمان من أجل حياة كان من شأنها أن تغدو عذبة!

ومع ذلك من الأفضل للجميع أن أرحل. فعند نهاية هذا الأسبوع هناك السعادة البالغة بلقاء سليمان وضمه بين ذراعيّ[1] وألا أتركه أبداً، إن شاء الله.

قضيت البارحة مجدداً نصف الليلة في عذابات فظيعة من الدوخة وألم شديد في الرأس.

وأخيراً، عندما أعود إلى باتنة عليّ أن أعمل على ادّخار كل فلس، وأن أسعى لرد ما أمكنني من مال، وعلى الخصوص العمل بالروسية، فهذا هو السبيل الوحيد لمنحي فرصة لجني الأرباح في وقت قصير نسبياً. لن يكون ذلك قاسياً كثيراً شريطة أن تتماسك صحتي المضطربة على نحو فظيع. العمل من أجل التمكن من البقاء مع ويحا، هذا هو واجبي، وسيعرف كيف يواسيني من كل هذا العناء.

---

(١) مساحة فارغة في النص الأصلي. المترجم.

. . . كتبت هذا المساء رسالة إلى أحمد ظريف، وعندما كنت أكتبها تذكرت خريف سنة ١٨٩٩.

أين هي الحياة المغامرة والغامضة في بساتين الزيتون الكثيفة للساحل؟

كم تتردد بغرابة في أذني تلك الأسماء التي كانت أليفة بالنسبة لي في الماضي حيث المنستير وسوس وموقنين وسعيدة، وقصاصر ولبلال وسيدي النجا وبني حسان وعنورة وشراحيل وملول وغرا زويزوا، والحجاج. . . أين هو ذلك البلد الفريد في العالم، وفلسطين إفريقيا تلك ذات المروج الخضراء اللينة، وذات القرى الصغيرة، والتي ينعكس بياضها في الماء الأزرق للخلجان الهادئة؟

أين هي سوس بأسوارها البيضاء المغربية ومنارتها الدائرية، وشاطئ المنستير الأبيض حيث تضرب الأمواج المتأوهة الصخور البارزة على نحو أبدي؟

أين هي المنارة البيضاء لقصر هلال، والنخلة الكبيرة الوحيدة التي تمنح منطقة الساحل الصغيرة هذه هيئة ضيعة عادية في الصحراء، ما زلت أراها ترتسم في الاحتدام الهائل لغروب الشمس. في المساء الذي ذهبت فيه رفقة شريف إلى شاطئ سعيدة رأيت الليل يحل على البحر الغارق في أبخرة بيضاء، بينما كان ملولي الجميل الذي سبق صوف المسكين موثوقاً عند زيتونة بالبساتين يكاد يفقد صبره. . .

أين هو بستان ملول، حيث كنا نحلم وسط أشجار الرمان والهندي، حيث كنا نتحدث أنا وشريف ساعة المغرب؟. . . والطريق المضاءة بضوء القمر التي كنا نتبعها في الوقت الذي اندلع فيه تمرد لقبيلة قطاع الطرق تلك، حيث كنت أعاني بشدة لإيجاد معبر، بسوط في يدي كسلاح وحيد، بينما كان شريف يتحدث إليهم.

(عادت إيزابيل إلى القسطنطينية لحضور محاكمة المعتدي عليها. ملاحظة روني لويس دويون.)

تركت مرسيليا يوم الخميس ١٣ حزيران/يونيو ١٩٠١، عند منتصف النهار.

ليلة الثالث عشر إلى الرابع عشر منه في البحر. . . الوصول إلى فيليب فيل يوم الجمعة الفاتح منه الساعة العاشرة ليلاً. قضاء الليلة على متن السفينة رفقة عمارة من أولاد علي، والمحكوم عليه من قبل سجن شيافاري. الرحيل إلى القسطنطينية يوم السبت الخامس عشر منه الساعة السادسة. الوصول الساعة التاسعة وعشر دقائق. كنت

في مقهى الزواوي. ذهبت رفقة الحمال حمو بحثاً عن بن شكار فوجدته حوالي منتصف النهار. الليلة في مقهى سيدي قسومة. يوم الأحد السادس عشر منه قطار الساعة السادسة، ولقاء ويحا. الليلة في فندق ميتروبول شارع باس ـ دامريمون. يوم الإثنين السابع عشر منه وصول سيدي الهاشمي.

يوم الثامن عشر منه الساعة السادسة ـ مجلس الحرب. الخروج الساعة الحادية عشرة. يوم الخميس العشرين منه الساعة السادسة والنصف الذهاب إلى فيليب فيل. الوصول الساعة التاسعة وخمساً وثلاثين دقيقة. الليلة في فندق اللوفر.[1]

ملاحظة بالروسية: «الكراسة الأولى للجزء الثاني من الحياة في الصحراء، والذي ينتهي عند الوصول إلى الواد. وفي الوصف الأولي لصوف، تحدثت واصفة تشييد بساتين كوينين وتاقصبين[2] وإيغارة. توقف العمل عند وصف تلال عمور. وانتهى هكذا: «وتصدر الغابة صوتاً غريباً وسط صمت الصحراء القاتل، فوق التجمع الرمادي للقباب التي أخذت تغرق شيئاً فشيئاً في ضباب الليل المائل إلى الزرقة». . .

إعلان إيزابيل إبرهارت

كما أعلنت في السابق، في التحقيق كما في رسالتي إلى البرقية الجزائرية، كنت وسأكون دوماً مقتنعة بأن عبد الله بن السي محمد لخضر كان أداة بيد أشخاص آخرين لهم مصلحة ـ واقعية أو متخيلة - في التخلص مني. من البديهي أنه حتى لو أعلن لوالده عند اعتقاله أنه تم شراؤه من أجل قتلي، لم يكن باستطاعة عبد الله أن يأمل بأن يستمتع بثمن جريمته، لأنه هاجمني في بيت مأهول، ووسط أشخاص يعرفونني على نحو مناسب. كان متأكداً من أنه سيتم اعتقاله. من الواضح إذن أن عبد الله شخص غير متوازن وممسوس وقد أعرب عن ندمه، وحتى أثناء المحاكمة طلب صفحي. وأجد أن حكم اليوم إذن كان قاسياً بشكل مبالغ فيه، وأحرص هنا على إبداء أسفي على هذه القسوة. لعبد الله زوجة وأبناء، وأنا امرأة ولا يمكنني إلا أن أشفق من كل

(١) ما إن تمت المحاكمة (٢٠ سنة من الأشغال الشاقة للمعتدي عليها) حتى كانت إيزابيل موضوع قرار رسمي بالطرد، وهو ما تشير إليه في بيان رحلتها بجفاء كبير. وهو ذا الإعلان الذي قامت به قبل رحيلها (ملاحظة روني لويس دويون). الأصل.

(٢) بحسب الأصل. المترجم.

قلبي على تلك الأرملة وأولئك اليتامى. أما عبد الله شخصياً فلا أحمل له في قلبي إلا إحساساً عميقاً بالرأفة. كنت متفاجئة على نحو مؤلم عند علمي وأنا أخرج من جلسة هذا الصباح بأني موضوع قرار رسمي بالطرد اتخذ في حقي من قبل السيد المحافظ العام. ويمنعني هذا القرار الرسمي من الإقامة في الجزائر كلها من دون تمييز بين التراب المدني والتراب العسكري. أتساءل عن سبب اتخاذ هذا القرار في حقي، مع أني أدرك بأني روسية، إلا أنه ليس هناك ما أُلام من أجله. فلم أشارك أبداً، ولم يكن لي علم أبداً بأي عمل معاد لفرنسا، سواء في الصحراء أو في التل، بل على العكس من ذلك، دافعت بكل قواي عن المرحوم نائب ورقلة سيدي محمد الطيب، الذي توفي بعزة تحت ألوان العلم الفرنسي، ضد اتهامات بعض المسلمين، الذين يجهلون كل شيء عن الإسلام، الإسلام الحقيقي، إسلام القرآن والسنة[1]، والذين يتهمون النائب بخيانة الإسلام عندما ساعد الفرنسيين على الاستقرار في عين ـ صلاح. تحدثت دوماً، وفي كل مكان، إلى الأهالي لصالح فرنسا التي هي وطني بالتبني. لَم أكون موضوع قرار يجرح بشكل عميق مشاعري كروسية، ويتسبب لي في حزن بالغ من جانب آخر، ذلك أنه يُبعدني ـ لمدة أشهر ـ عن خطيبي، الذي لا يستطيع أن يلحق بي بما أنه ضابط صف بحامية باتنة. يمكنني أن أتفهم أنه من أجل تجنيبي انتقام قبيلة عبدالله أُمنع من الإقامة في تراب القيادة، لكني لا أنوي أبداً العودة إلى الجنوب. أطلب فقط أن يسمح لي بالعيش في باتنة، وأن أتزوج الشخص الذي كان رفيقي في البؤس ومصدر الدعم المعنوي الوحيد في هذا العالم. هذا كل شيء...

الخميس ٤ تموز/يوليو ١٩٠١، منتصف النهار.

رحيل زويزو على متن التواريخ. يوم كئيب من الملل القاتل والهم واليأس... متى سنلتقي مجدداً؟

وضعت ثقتي بالله، وبسيدنا وشيخنا عبد القادر الجيلاني. آمين!

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

مرسيليا، ٥ تموز/يوليو ١٩٠١

أمرّ مرة أخرى بفترة من الملل الضاغط ومن المعاناة التي لا تطاق بالنظر إلى طبيعتي، التي هي أكثر طولاً وأكثر صمتاً. ليست هناك أزمات ولا جمل متعاقبة. رحل روح البارحة، وأنا مبعدة عن هناك، ولا أستطيع العودة إلا بقرار جسور. . . وليس إلى مقاطعة القسنطنطينية. من المحتمل أن علي انتظار عودة زويزو لخمسة عشر يوماً، ولربما أكثر. نصف شهر من الملل الكئيب ومن المعاناة ومن الانزعاج ومن القلق الدائم، بفكرة أنه هناك يترقب عدواً سيفعل كل يمكنه فعله من أجل الاستمرار في إعاقتنا.

لكن ينبغي الصبر، مادام لا أحد، باستثناء الله، يمكنه أن يغير هذا الوضع.

جولة محزنة أمس بالتراموي حتى لاجولييت. سماء كثيبة، ورياح عاتية. وكانت السفن تتأرجح في المرفأ.

ركوب التواريغ. . . خلال كل رحلة للسفينة لم أرفع ناظري عن زويزو، بقلب ممزق، وروح حزينة. . .

سلكنا مجدداً طريق شارع مارنتيي ببطء ومن دون استعجال أو رغبة في تمديد هذه الجولة التي بدت أشبه بعودة إلى المقبرة بعد الدفن.

عدم اهتمام عميق ومطلق بكل ما في العالم. عدت ونمت لأستيقظ حوالي الساعة الثامنة بإلحاح من أوغستان.

أمضيت نصف اليوم هذا في ما يشبه الهذيان المقلق المضطرب والذي بدا من دون شكل محدد، وعندما حل الليل تماماً مررت بلحظة يأس فظيعة. كل شيء يذكرني، الآن وهنا، بزويزو وهذا ما يزيد في ألمي.

. . . الشيء الغريب هو الحاجة الأساسية لطبيعتي حيث تنوع المناظر. ومن دون ذلك فالسعادة بالنسبة لي من دون طعم ومن دون نكهة. وتمتد السعادة رتيبة وتافهة ويرهقني الألم. وعلى النقيض من ذلك تماماً فالصراعات الكبرى وأزمات اليأس تزيد من طاقتي وتهدئ من أعصابي. . . أما رتابة وتواضع المناظر والأجواء فهما العدو.

لأجل هذا يبدو لي نصف الشهر هذا أكثر عناءً بكل تأكيد في تحمّله من اللحظات الكثيبة في الواد وبهيمة وفي القسنطنطينية. . .

. . . العديد من المشاعر في هذه الفترة الأخيرة. . .

بداية، وفي ليلة العودة إلى فيليب - فيل على متن فيليكس ـ تواش راودني شعور بالراحة، ويتجدد الشباب الذي يمنحني إياه دوماً الوصول إلى هذا الشاطئ المبارك للوطن الإفريقي، والذي يتناقض بشكل فريد مع المشاعر التي تتزايد كآبة عند وصولي المكرر إلى مرسيليا. . . مشاعر حزينة أيضاً لأن الآخرين سعداء!

فيليب فيل ليلاً، طيف أسود لتلة عالية، لسعت بنيران غازية صفراء.

جولة رفقة السي محمد بن حسن من بون في المدينة. عند منتصف الليل، العودة إلى السفينة. وجدنا المحكوم من أولاد علي بين سطيف وبرج بوعريريج في زحمة ما بين الجسرين.

صعود السطح العالي، والجلوس في ميمنة السفينة في السكون وبرودة الميناء الليلية. الساعة الثالثة نزلت وحيدة إلى ما بين الجسرين. أعواد الثقاب مبللة واستحالة إضاءة المكان. ارتديت ملابسي في الظلام تلمساً. الصعود مجدداً إلى السطح وإيقاظ عمارة. ثني كيس عبارة عن رزم. صبيحة مكفهرة، وبعض قطرات المطر.

فيليب فيل نهاراً قصبة أوروبية من دون ملامح، غير أنها فاتنة وسط انحدار الخضرة فوق الشرم الأزرق. أحياء مسطحة تحاذي البحر. إحساس كأنه مرفأ بيزرت المشاهد ليلاً على نحو عابر صيف سنة ١٨٩٩. . .

الرحيل حوالي الساعة السادسة. جبال وتلال وسهول خصبة حتى القسنطينية. فرح طفولي لعمارة وهو ينظر إلى الحقول والمضارب والقطعان. في هذه الروح المعتمة، والمنحرفة والمذنبة، يكمن حبّ البدوي الحيّ للأرض الإسلامية، لوطن البدو الرحل. وأخيراً كانت هناك صخور القسنطينية الاستثنائية ترتسم في الأفق.

نزلنا في المحطة، وصعد السي محمد معي حتى الشارع الأول إلى اليسار، وهناك افترقنا ومضيت في الشوارع أمامي من دون تخطيط مسبق. وأخيراً دخلت مقهى الزواوي، خجلى من قبعتي الرومية. . . وبعد توقف طويل نوعاً ما، وحديث مع صاحب المقهى، وهو مدخن كيف مسنّ، رحلت رفقة الحمّال حانتو بحثاً عن محمد بن شكار. شوارع ضيقة وملتوية ومنحدرة، وساحات مائلة، وملتقيات طرق معقدة، وزوايا من الظل والسكون، وأروقة نظيفة ومصقولة، ومساجد عتيقة وأسواق مغطاة.

منحني كل هذا نشوة معروفة جداً، تلك التي أحسها دوماً في المناظر العربية العتيقة. أحاسيس بتونس والجزائر... وعلى الخصوص بالأولى...

جولات وتساؤلات بلا نهاية... وأخيراً اكتشفنا مكان بن شكار في أعلى شارع بدرج يوجد في أعلاه ممر غير نافذ لا يكاد يرتفع عن الأرض بأكثر من متر وستين سنتمتراً، وحيث الأرضية من عارضات علي، وهو أشبه بغار مظلم حيث يتعين المشي بانحناء لأربعة أو خمسة أمتار. ثم هناك الداخل المغربي باللونين الأبيض والأزرق كما في بون.

كان شقيق محمد بن شكار، وهو مدخن للشيرا والكيف ويعمل تارة حمالاً، وتارة أخرى بائعاً للفطائر، ودوداً جداً. وزوجه طيبة أيضاً، وهي وقحة ومسترجلة.

منذ فترة بعد الظهر، الذهاب رفقة محمد بن شكار إلى شعاب الرمل، وهي أعماق عجيبة حيث جسور باهتة معلقة في الظل غالباً، وسلالم باطنية ومسالك لا تنتهي.

لقاء بعض الحرفيين من القنسطنطينية. في الحمامات اليهودية استحمام عجيب لفتيان. العودة عبر الطريق التي تميل إلى الهاوية وعلى الضفة المقابلة للضفة التي تقع المدينة عليها.

في المساء كنت بمقهى سيدي قسومة، مع إحساس واضح جداً بأن زويزو كان في القنسطنطينية. جلست في إحدى الزوايا، باللباس العربي الذي يريحني، وسمعت الغناء والضرب على الطبل حتى ساعة متقدمة. احتفالات بلدية، ووجوه واهنة وشاحبة يصعب تمييزها بعضها من بعض، وعيون شبه مغمضة...

ليلة سيئة بسبب القلق والبراغيث...

يوم الأحد السادس عشر من شهر حزيران/ يونيو ـ جولة غير ذات جدوى في المحطة. نزهة في باب الواد رفقة الصغير صلاح. لقاء باش عادل بسكرة.

في المساء، يأس بسبب عدم وصول أي أخبار عن زويزو. كنت في المحطة رفقة الحاج. الساعة السادسة وخمساً وثلاثين دقيقة، وصول قطار فيليب فيل. كنا جالسين ومحبطين على حجرة ننتظر. وأخيراً لمح الحاج ويحا بلباس الأهالي المدنيين. تناولنا العشاء لدى بن شكار بثياب مغربية ثم ذهبنا إلى فندق ميتروبول، في شارع باس ـ دامريمون، البعيد جداً.

ليلة فرح وحنان وسلام.

صباح يوم الإثنين السابع عشر منه كنت في المحطة للقاء سيدي الهاشمي. أمام المحطة رأيت القامات الطويلة للشهود الصوافة: حماة نين، ومحمد بن بوبكر وإبراهيم ب. لعربي.

تأثر شديد لرؤية أبناء تلك البلاد هنا مجدداً يتحدثون بلكنات تلك المناطق ويعانقونني والدموع في عيونهم، وعلى الخصوص الشيخ الطيب حماة نين.

(هنا انقطع النص واستؤنف في المساء نفسه الساعة السادسة)

. . . هدوء كبير هذا المساء، وعقلانية كبيرة، وأمل مع مزاج جيد بقدر ما اقتضاه البعد عن ويحا. الحالة الجسدية جيدة أيضاً. لو يستمر الوضع على هذا النحو كل وقت فراقنا الأخير، إن شاء الله!

لمَ كل هذا التحول في الحالة النفسية؟ بأية أسباب غامضة جداً؟ أجهل ذلك! . . .

كنت مع مجموعة الصوافة على الرصيف لاستقبال الشيخ الكبير المحبوب الذي ابتسم عند رؤيتي.

جولات من دون نهاية بحثاً عن فندق رفقة حماة نين في كل مكان، عداء ورفض. وأخيراً تدبير مؤقت في الميتروبول. إحساس عذب جداً للقاء الشيخ مرة أخرى، وبشير وكل الآخرين. مشاكل في الفندق. نقل زاوية البدو الرحل إلى فندق بن شيمو، سوق الجمال قرب المسرح.

قضاء الليلة في أحد البيوت اليهودية المؤثثة يقع في ٦ شارع سيدي لخضر في الطابق الثاني.

وصلنا يوم الثلاثاء الثامن عشر منه الساعة السادسة والنصف إلى المجلس. أحضر لي الشاويش قهوة في قاعة الشهود حيث كنت وحيدة، وموضع فضول للمارة الذين أضحوا أكثر عدداً ضباطاً ونساءً.

رأيت عبد الله بيديه المصفدتين وسط الزواويين[1] الذين كانوا يرافقونه.

وأتى القائد مارتان مفوض الحكومة ليصافحني رفقة أخته. وأخيراً، حضر في الساعة السابعة العون القضائي للبحث عني. كانت القاعة مكتظة. لم أشعر بالكثير من

---

(١) جنود فرنسيون بلباس مغربي. المترجم.

الخجل، وذهبت لأجلس قرب سيدي الهاشمي على مقعدين، أمام المقعد المزدوج للشهود. . . غير مألوف مقعد الشهود هذا حيث وجوه سمراء معبّرة، وثياب بيضاء أو معتمة مع البرانس بلمسة حمراء، البرنس الأحمر للخائن محمد بن عبد الرحمن شيخ بهيمة، وكان سيدي الهاشمي بلباس أخضر وأبيض.

المحكمة: مجموعة من الأزياء الموحدة، وصدور مزينة بالأوسمة، وحركات متصلبة يتعذر اختراقها. أُديت التحية العسكرية بالسلاح، وافتتح الرئيس الخجل الجلسة بصوت واهن ومتأنٍ. وقرأ كاتب المحكمة نص الاتهام، وعد الشهود، وأنا على رأسهم، وعلى الفور أخرجنا واحداً في أثر الآخر.

في قاعة الشهود قدم القائد غابريللي وكاتبه الملازم أول من أجل مصافحتي. حديث طويل بعض الشيء، ثم حضر أحدهم بحثاً عني.

بدأ الرئيس بالمناداة على الشهود. وضعني العون القضائي أمام الرئيس، واقفة. حلف اليمين.

استجوبني من خلال ملاحظات ودوماً بخجل وتأتأة. لم يدم ذلك طويلاً. . . نادى المترجم على عبد الله، وسأله قائلاً: «هل لك ما ترد به على هذا؟ ـ كلا. كذاك قال عبد الله بكل بساطة، وأضاف بشكل حاسم: على الرغم مما قيل، ليس هناك إلا شيء واحد أقوله لها، وهي أني أرجوها بأن تسامحني.» عدت لأجلس، وظهر سيدي الهاشمي. كان هادئاً، وبسيطاً. ثم الشيخ ومن بعده بن بوبكر ثم إبراهيم، بـ. العربي، فالأب المتباكي كالعادة. . .

وبعد تعليق الجلسة لخمس دقائق كان قرار الاتهام للقائد مارتان، المستند إلى فرضية خاطئة بكل تأكيد، ثم دفاع حار عن القادرية وأولاد سيدي إبراهيم وعني أنا من قِبَل محامِيَّ. أزعجتني مرافعة المحامي. . . رد القائد مارتان، وتعقيب للمحامي، ثم انسحاب أعضاء المجلس. جلبة في القاعة. أتى أنجليني ليخبرني بأنه تحت تصرفي. اقترب مني الجنرال لاباتي. ورأيت تاست يتحدث بحماسة وسط مجموعة.

٨ تموز/يوليو، الثانية ليلاً.

أمرّ بمرحلة غريبة من الهدوء الجسدي والمعنوي، ومن اليقظة الفكرية، والأمل من دون تحمّس. ويمضي الوقت سريعاً، وهو المهم في هذه الفترة.

لحظت أيضاً أنه منذ محاكمة القنسطنطينية المشهودة هناك يقظة كبيرة بداخلي للروح الأدبية. فالاستعداد للكتابة يولد فعلياً بداخلي في الوقت الحاضر. كان عليّ في ما مضى انتظار تحسن المزاج من أجل الكتابة، وكان ذلك يدوم لعدة أشهر في بعض الأحيان. أما الآن فقد بدأت أكتب كلّما أردت ذلك. أعتقد باختصار أني بلغت مرحلة تفتح هذه الحضانة التي أشعر بها فعلاً في داخلي.

ومن الناحية الدينية تمضي الأمور باتجاه الأفضل فقد أضحى إيماني صادقاً ولم أعد أحتاج إلى القيام بأي جهد مهما كان بسيطاً. وكل مساء قبل أن أنام عندما أغوص في عمق ضميري بنظرة متفحصة، أجد فيه سلاماً عذباً جداً لليقين الغامض الذي سيصير قوتي من الآن فصاعداً.

بالنسبة لي أخذت الحياة معنى منذ أدركت أن عبوري في هذه الدنيا تقدم نحو الكمال البشري ونحو حياة أخرى. ومن هنا تنساب بالضرورة الحاجة الواقعية إلى الكمال المعنوي والثقافي، ومن دون ذلك سيكون أخرق لأنه من دون جدوى.

يهمني شيئان في هذه اللحظة، وأنوي أن أتفرغ لهما. بداية، الإتقان الأدبي الذي سيجلب الاتقان الثقافي الذي سيكون يسيراً جداً إذا ما وجدت منفذاً للمقالات على نحو ربيع في الصحراء، والمغرب، المرسلتين هذا المساء إلى أنجليني.

قراءة بعض الكتب من قبيل محاولات في علم النفس المعاصر لبورجي، وما إن أستقر، سأشترك في مكتبة جادة، وسأعيد قراءة يومية الغونكور الذي كان له تأثير مفيد جداً بالنسبة لي السنة الماضية، وكتباً أخرى يمكنها أن تمارس فعلاً مماثلاً على العقل...

لكن القضية الأخرى التي تقلقني، وهي قضية من نوع آخر، لن أجرؤ أبداً بكل تأكيد على صياغتها إلا من أجل سليمان الذي سيكون الوحيد الذي يفهمها ويقبلها، وهي المسألة الصوفية، القضية التي زُرعت في روحي بشكل عفوي، في المساء الذي نقل فيه عبد الله إلى السجن المدني في الزنزانة... ولربما شك سليمان في ذلك بالنظر من دون شك إلى الحدس غير الواعي الناجم عن الحميمية الروحية الكبيرة التي تجمعنا!...

يبدو لي أنه بالكثير من الإرادة سيكون من اليسير عليّ أن أصل إلى هذه النهاية الغامضة جداً، والتي ستبهجني، وستفتح أمامي آفاقاً لا يمكن لأي كان أن

يخمّنها... إهدنا الصراط المستقيم. أعتقد أنه السبيل القويم فعلاً بالنسبة لي.

وضع الله في روحي بعض البذرات الخصبة حيث الزهد الأقصى إزاء كل شيء في هذا العالم، والإيمان، والحب الحي والمحزن واللامحدود لكل من يعاني. فالعفو عن السوء هو تفان غير محدود للقضية الإسلامية، القضية الأجمل من بين كل القضايا، ما دامت هي قضية الحقيقة...

آه، اللحظات الطويلة التي أمضيتها في الغابات المليئة بالظل وبالغموض، وليالي السهاد التي أقضيها في تأمل العالم الاستثنائي للنجوم... ألا ينبغي لكل ذلك أن يكون الطريق المؤدي مباشرة إلى الزهد الديني!

وبكل تأكيد وأد اختيارٌ آخر لم يكن اختياري، وهو المتعلق برفيق حياتي كلها، هذا التقدمَ الضروريَ باتجاه مستقبل لربما ما زال بعيداً، إلا أن سليمان سيتبعني حيثما أردت. فمن بين كل أولئك الذين قابلتهم هو الوحيد المسلم الحقيقي لأنه يحب الإسلام بقلبه وليس بشفتيه...

لا شك في أنه إذا قرأ عالمٌ أو مختصٌ في علم النفس أو كاتبٌ هذه السطور سيصرخ «إنها قريبة جداً من الجنون!» غير أنه إذا ما اشتعلت نار ذكائي يوماً فالآن هو ذلك اليوم، كما أنني أشعر بأن هذا ليس إلا فجر الحياة الجديدة.

من غير وعي، ومن دون إدراك ما كان يقول، وفي اتجاه آخر، قال السيد دولافون حقيقة لم يشك فيها أبداً، ولا يمكن لأي شخص أن يشك فيها. قال إن عليّ أن أكون ممتنة لعبد الله. أجل، أنا ممتنة لعبد الله، بل وأكثر من ذلك أنا أحبه بصدق، والحقيقة أن ذلك الرجل هو مبعوث من الله كما أعلن.

من المحتمل أن أشخاصاً آخرين، هم الجناة الحقيقيون، دفعوه للقيام بما قام به، غير أن ذلك لا يثبت أي شيء، وهو شخصياً، هو وحده كان مرسلاً من قبل الله ومن قبل الجيلاني لأنه منذ اليوم المقدر لبهيمة أحسست روحي تدخل مرحلة جديدة جداً من حياتي الأرضية، وسيدفع عبد الله بطريقة غامضة ومن دون شك حياة بأكملها من المعاناة لخلاص حياة بشرية أخرى. غير أني أشك أنه تعيس لأنه شهيد، والشهيد المتطوع مثلما هو عبد الله هو أكثر الناس سعادة، فهو مختار. ومن يدري إن لم تخلّص شهادته آلاف الأرواح الأخرى، وليس فقط روحي أنا، وهو ما يُعدّ بمثابة إجهاض!

سيذهب عبد الله إلى الجهة المقابلة للأرض، إلى أبعد مكان في الأرض، غير أن صنيعة عبد الله، والبذرة التي وضعها بداخلي ستبقى، وكلّي يقين أنها بدأت تبذر وأنها ستنبثق في يوم من الأيام من العتمة حيث أخفيها عن كل العيون. . . هذا سري الذي لا ينبغي إفشاؤه، والذي لن أسرّ به لأحد، إلا لشخص واحد، الشخص الذي حدسه ذات يوم، والذي لن يدنس أبداً بضحكة هازئة محراب روحي، والذي يمكنني أن أفتح له وحده في بعض الأحيان أعمق الخبايا لأنه أيضاً مقدّر. ولا ينبغي لأحد آخر أن يعلم.

فليرفع كل أولئك العميان، والذين يعتقدون أنفسهم مبصرين، أكتافهم أو ليبتسموا باستخفاف، والأفضل بالنسبة لهم أن يشيروا إلى أنفسهم أمام اتحادنا، فهو ينبعث من أسباب أخرى، ومن أحاسيس أخرى، ومن أهداف أخرى غير أهداف اتحاداتهم المربحة بشكل دنيء، والطموحة والحيوانية والعاطفية على نحو صبياني. . . وهو بالنسبة لهم غامض.

١١ تموز/يوليو ١٩٠١، يوم الخميس الساعة التاسعة ليلاً.

يبدو من الممل الآن الاستمرار في تفاصيل جلسة مجلس الحرب ففي هذه اللحظة هناك أفكار أخرى وذكريات أخرى تسكنني.

البارحة ليلاً، ومثل أول من أمس، أحسست بالملل والضيق. وهذا الصباح شعرت بقلق وانزعاج جسدي كبير وأنا أكتشف عدم وصول رسالة ويحا.

نزلت إلى باحة الباب حوالي الساعة التاسعة والنصف أحمل رسالة إلى زويزو. ملل وضعف. بعد الظهر، انكببت على العمل الروسي من دون قناعة، وأخيراً وصلتني حوالي الساعة الثالثة رسالة جميلة، فقد حُلّت قضية الاستبدال وأضحت أكيدة، ولم يعد رجوع زويزو إلا مسألة أيام، أيام ستمر سريعة جداً الآن وأنا متأكدة من قدومه.

يبدو لي أن ذلك قد يحدث يوم الثالث والعشرين من هذا الشهر. صباحاً. . . وسيكون ذلك فجر الحياة الجديدة، وستكون لدينا أيضاً لحظات كئيبة ولحظات ضيق لأنه من دون ذلك لن تكون الحياة حياة. هذا أفضل. زد على ذلك أن المعاناة صحية في بعض الأحيان. . . لكن يبدو لي أن عهد الفراق سينتهي أخيراً.

يا إلهي، بأي زفرة ارتياح سنخرج من مبنى البلدية حيث سنرتبط أخيراً أحدنا بالآخر، وحيث سيجبر الناس على الاعتراف باتحادنا، لأن الله اعترف بذلك وباركه منذ وقت طويل مادام قد منحنا الحب. وأخيراً لن يكون للناس الحق المادي لتفريقنا.

بعد أيام قليلة تكون قد مرت سنة على بداية الفتنة الكبرى التي مثلتها إقامتي في الصحراء.

وإذن! لا ألعن أي شيء من تلك الإقامة، أي شيء أبداً باستثناء المنفى، وإذن في المجمل لمَ ألعنها؟ بل إني لا ألعن بهيمة، المأساة الرائعة لبهيمة التي فتحت العديد من الآفاق الجديدة، والتي كانت بمثابة الشاهد الموضوع على طرف طريق حياتي المغامرة الخطيرة.

كم أمضيت من السنوات عبثاً في الاعتراضات العقيمة والخرقاء، ضد تلك الحياة الفاتنة والأليمة، والنزوع المهيب باتجاه أقدارنا المستقبلية. كانت تبدو لي بشعة في سنوات العمى تلك... والآن، ومنذ بهيمة، تبدو لي جميلة...

من يدري؟ لعلني عند رؤيتي للموت قريباً جداً مني، ولما كنت على عتبة الغموض، استشففت الحقيقة في النهاية، وأدركت أن لهذه الحياة البائسة معنى ومنطقاً وهدفاً، ويعرف قلة من الناس فقط كيف يقدرونها ويحبونها!... لأن القليل من الناس، وسيبدو هذا مناقضاً لكنه حقيقي، يحبون الحياة... ليس على نحو حيواني أبداً، وبطريقة غير مدركة، ولكن من أجل جمالها الحقيقي والرائع.

أسماء فلسفية خرقاء لمصابين بوساوس مرضية ذوي أكباد سقيمة يصرخون مطلقين شتائم - هي تجديفات - في حق المحسنة ديميترا ماتر!

... وعادت ذكريات السنة الماضية في الفترة عينها لتسكنني... جنيف حيث الهواجس وأفراح حياتي الروسية الغالية هناك، والتي لن أعيش أيامها أبداً، وركوب البحر من أجل الأرض المحبوبة والمقدرة، الأرض البربرية، التي نفيت عنها الآن، غير أني أستطيع أن أعود إليها في القريب برأس مرفوعة إن شاء الله! والجزائر، الجزائر البيضاء حيث عشت حياة مزدوجة استثنائية ومثملة جداً وسط أناس قدّروني، بل إنهم أعجبوا بي، مع جهلهم كل شيء عني، حتى جنسي! وجولات غريبة ومثملة رفقة مختار، وتدخين الكيف... ونزهات رفقة أفراد من أولاد عيسى الودودين والأذكياء وعلى الخصوص الرقيق السي مصطفى... وفيلا بوزرياح البهيجة وبقالة

سليمان بن الإيمان التركي بهضبة سولبير، والليل... والتجوال بمحاذاة الأرصفة مرددين الأغاني الشعبية الجزائرية الحزينة... والزاوية البيضاء، منطقة الحلم الصغيرة لسيدي عبد الرحمن بن قبرين التي تصعد إليها روائح بستان المارنغو الذي تجعله شمس المغيب يبدو ذهبياً... واللحظة المذهلة لصلاة العشاء في المسجد الحنيفي، الجامع الجديد... ثم سان آرنو مرة أخرى، وبسكرة، وواد رير الذي لا ينسى بسحره وروعته الفريدين... وتوقورت الغافية في صحرائها المالحة والتي تنعكس في مياه سبختها الكابية... والطريق التي أضحت مألوفة فيما بعد، المرسومة بالقميرات الحزينة الكئيبة... وفي نهاية الرحلة الطويلة الظل المتألق للمدينة الفريدة، مدينة الاختيار، الواد القدرية!...

وكخلفية لكل تلك اللوحات... وتحت سماء ضبابية وحزينة لفصل الشتاء، سديم كاب للكثبان المستشيطة... تهب ريح عاصفة وتئن في كل الشعاب وفي كل الوديان الميتة... وتتقدم مجموعة صغيرة ببطء تحت وقع الصوت المخدر لبنادير طائفة سيدي عبد القادر، ثم استراحة طويلة على كثيب مرتفع. وتُكتشَف من ذلك الكثيب الأخير هضبة حزينة واسعة ومقفرة ملئت بالقبور المهجورة.

وهنالك، في أفق الشمال، طيف مدينة كئيبة ذات قباب منخفضة محاطة هي أيضاً بالقبور... وفي أنوار المغيب الكبريتية، ينعزل في لون أسود الطيف الوحيد والمأتمي لنخلة فريدة كحارس مارد وأشعث يقف وحيداً وسط الرياح والليل عند باب بهيمة...

«لا يفر المرء قط من لحظة قدره».

الليلة نفسها، الساعة العاشرة وخمساً وأربعين دقيقة.

... هو ذا وسواس الأماكن النائية الساحرة يعودني... الرحيل، الرحيل بعيداً، والتسكع طويلاً!... وسواس إفريقيا. وسواس الصحراء... استيقظت روحي البدوية المرتحلة، واجتاحني قلق وأنا أفكر بأني سأبقى جامدة هاهنا لربما لمدة طويلة...

«اعدُ! سرْ! فالسحابة لا تتوقف
إلا لتنشق
ولا يستقرّ الراماني
إلا ليبكي!»

الإثنين ١٥ تموز/ يوليو ١٩٠١، الساعة الحادية عشرة صباحاً.

البارحة مساءً راودني إحساس خاص جداً من دون سبب يمكن تقديره: ذكرى الوصول إلى سوس قبل سنتين... والرغبة في القيام برحلة وحيدة في مكان ما من إفريقيا ما يزال مجهولاً حيث لا أحد يعرفني، مثلما حدث عندما وصلت إلى الجزائر السنة الماضية... ولكن أن أتوفر على إمكانات كافية للقيام بهذه الرحلة في ظروف جيدة.

وعلى العموم لديّ رغبة في الانعزال المعنوي ليس لمدة طويلة، ومع ذلك أفتقد سليمان دائماً. أريد أن أحصل قبل عودته بشهر على المال الضروري للقيام برحلة وحيدة من دون استعجال... أنا واثقة من أني سأحمل أحاسيس قيّمة جداً وعميقة جداً.

ومع ذلك أمرّ بفترة معنوية صافية ومتأملة، فترة عمل على الخصوص، ويعود الفضل في حالتي المعنوية هذه إلى الأمل في حياة أفضل بأمد قصير.

قريباً تكون قد مضت ستة أشهر على يوم بهيمة القدري. في ذلك اليوم دخلت من دون إدراك إحدى فترات الحضانة، التي وجهت كل حياتي حتى الآن، لأن تطوري الثقافي تم بكل تأكيد، واستتبع بهزات إذا جاز القول: فترات من القلق ومن الاستياء، ومن الشك ثم تفتّح شكل أرقى لأناي. تقدم في الدراسة، ولربما لوصف في قصة أو رواية.

ينبغي أن تكرّس الأشهر الستة أو السبعة التي علينا قضاؤها هنا، والتي يتعيّن خلالها الوصول إلى حل نهائي بخصوص مستقبلنا، للعمل الأدبي بكل أشكاله.

منذ رحيلي إلى بون سنة ١٨٩٧ ـ كم هذا بعيد للأسف! ـ لم أهتم أبداً بهذا الفن الذي أحفظ له على الرغم من ذلك حباً لا يقهر - الرسم والتلوين. أعود لذلك الآن، وسأحرص خلال إقامتي هنا على أخذ بعض الدروس المفيدة وبعض المبادئ في رسم الوجوه وعلى الخصوص في الفن.

حياتنا، الحياة الحقيقية، لن تبدأ إلا بعد تاريخ العشرين من شهر شباط/ فبراير سنة ١٩٠٢... كيف ستكون؟ من الصعب جداً التكهن بذلك لكن ينبغي، ما إن يعود سليمان، حلّ هذا المشكل. وحتى ذلك الوقت، وإذا ما حلّت قضية موسكو على

شكل إيرادات، سيكون من الأفضل تأسيس ملجأ هادئ في الساحل التونسي، جوار موقنين على سبيل المثال، وأن نجعل منه منزل الحلم الذي يلزم من أجل العيش. وإلا فالشيء الوحيد المعقول سيكون مهنة مترجمة لبضع سنوات في مكان ما من الجنوب أياً كان، وهو ما سيكون جميلاً أيضاً - بضعة أعوام في الصحراء.

الآن يطرح المشكل الأكبر في حياتي... وكل ما مر حتى الآن، لم يكن إلا عابراً...

الله يعلم غيب السماوات والأرض.

الثلاثاء ٢٣ تموز/يوليو.

حزن كبير وعميق هذا المساء، ولكني خاضعة من دون كآبة، ومن دون ملل ومن دون نفور.

هنا وصلنا في المجمل إلى بؤس تام، وعلى الرغم من أنه مهدد إلا أني لا أستطيع القيام بشيء. ربما كان بإمكاني أن أتصرف عندما أكون محاطة بأناس مثلي، وبمبالغ صغيرة جداً كافية لحاجات صغيرة. لكن هذا ليس هو الوضع، ذلك أن لديهما مظاهر عليهما الاعتناء بها. ومع ذلك، فنهاية الآلام بالنسبة لنا أنا وسليمان وشيكة جداً. لكن ينبغي إنقاذ الوضع هنا، وهذا لن يكون هيناً، فلو كنت وحيدة، مع ما يجنيه سليمان وطريقة تدبيري، لكان يمكننا أن نعيش بعذوبة تامة وبهدوء مطلق من دون أن نتخلى عن الشيء القليل الذي نحن بحاجة إليه... لكن ما العمل؟

ليس هناك أبداً من وسيلة للتدبير إذا لم يرضيا بأن يأتيا للأكل عندنا، لن يكون لدي ما يكفي من المال أمنحهما إياه من أجل عيش حياة منفصلة. وعلينا ما إن يصل زويزو أن نخطط نحن الإثنان لهذا الأمر. وإذا نجح المسعى الذي أجدني مجبرة على القيام به لدى ريبمان فسأتخلى لهما عن كل ما سيرسله لي ريبمان وسيكون لديهما ما يكفي ليتدبرا أمرهما خلال شهر إلى شهر ونصف إذا وافق ريبمان على إقراضي مئة روبل أي حوالي مئتين وخمسين فرنكاً. سينقذنا ذلك جميعاً لأنه سيمنحنا نحن أيضاً إمكانية إقامة بيتنا الصغير، واقتناء بعض الأشياء التي أحتاج إليها. وما إن أرتدي زيّ النساء حتى أجد بكل تأكيد عملاً صغيراً أنجزه في انتظار الأفضل.

من أجل ذلك، وخلال أيام الوحدة التي ما تزال متبقية لي، عليّ أن أتقدم بقدر المستطاع في العمل الأدبي، وإنجاز بعض المقالات ونسخها بطريقة تمكنني إذا ما حصلت على ردود مقنعة من أية جهة من أن أتوفر على ما أقدمه، وحتى لا أكون مضطرة للكتابة خلال الأوقات الأولى لحياتنا المشتركة هنا، وحتى لا أتخلى عن الفرص التي يمكنها أن تأتي، وعلى الخصوص عند عودة الجرائد والمجلات.

ذهبت في ريح عاصفة لأبعث إلى سليمان برسالة قد تصله. لكن الأمل ضعيف جداً. ذهبت سيراً على قدميَ إلى آرينك، ومنها عدت إلى المنزل مروراً ببار إفريقيا.

سأرى غداً إذا ما كانت هناك وسيلة للحصول في أماكن متفرقة على القليل من المال عن طريق كتابة بعض الرسائل باللغة العربية. ومع ذلك أشعر شخصياً بأني لن أفقد شجاعتي أبداً. إذا ما كانت لدي مخاوف فمن أجل أوغستان. على أمل ألا يتصور مشروع فولوديا حتى نهاية حواره! وما دمت في المنزل من المستحيل أن يحدث انتحار جماعي. ولكن ماذا بعد؟

في النهاية فليتنه عهد المآسي الكئيبة بإذن الله.

فكرة للتفكير فيها وجدت في الكراسة الأولى:

إصنع قدر ما تستطيع من الخير اليوم
لأنك قد تموت غداً.

(نقش على نُصب تريغاستيل،
بلاد تريغور، بريطانيا).

وهو ما شكل تكراراً لقول أبكتيتوس، إعمل كأنك ستموت الآن.

فكرة عميقة ومعزية، واستهلال رائع.

ينبغي على الرغم من كل الأخطار وكل الخيبات وكل الآلام أن يبقى المرء صلباً مثل صخرة تتكسر عليها أمواج المحيط الغاضبة، وينبغي مهما كان الثمن فعل الخير والمحافظة على طقس الجمال، وهو الشيء الوحيد الذي يجعل الحياة تستحق أن تعاش. من الأفضل أن يكون المرء عظيماً على أن يكون سعيداً.

مع تصوري القديم لأمور الحياة فحالتي الحاضرة فظيعة ولاتطاق. كنت أعتقد أني أملك الحكمة. ولم أشرع في إرساء حياتي المعنوية التي تتعلق بها الحياة الأخرى كاملة إلا الآن على صخرة الإيمان الراسخة.

وحتى لا أصاب بالضعف عليّ أن أحدّث نفسي مراراً وتكراراً بأن هذه الحياة الدنيا ليست إلا تمريناً وامتحاناً ـ ليس من أجل أن يغنم المرء بعد الموت سعادة فورية أبدية، ولكن من أجل خواتيم لا أحد يمكنه أن يتوقع روعتها ونهايتها.

ما من ألم أبديّ، فالظروف الدنيوية تنتهي هنا في الدنيا. وفي البعيد هناك المجهول الكبير، ولكن هناك بكل تأكيد مكان آخر، وشيء آخر. هذه كل الحكمة[1]! هذه هي القوة، القوة التي لا تقهر، والتي لا يمكن أن تقهر بالحياة الأرضية العابرة مادامت تعتمد على الأبدية.

قليل من الناس فقط كانوا سيقاومون لو أنهم كانوا في مكاني.

أنا في بؤس شديد، لربما في مرحلة وشيكة من الجوع، وإذن! أبداً، أبداً ولا للحظة، وبوعي تام، لم تأتني فكرة قبول إمكانية الخروج من هذا البؤس المهدد باتباع الطرق المعتادة مثل مئات الآلاف من النساء، حتى أنه ليست هناك أية محاولة ينبغي عليّ التصدي لها. هذا مستحيل. هذا كل شيء. وانطلاقاً من ذلك، وعلى اعتبار أن الأرواح القوية نادرة، يبدو لي في بعض الأحيان أن ذريعة البؤس تذكر عبثاً على الأقل من قِبل أولئك اللواتي لهن ثقافة عقلية وروحية واللواتي لسن أجساد متعة بكل بساطة. لا أرمي أحداً بحجر، وسأحافظ دوماً على تسامحي الكامل إزاء كل مظاهر الضعف البشري، لأنها جميعاً نتيجة لعوامل شديدة التعقيد وكثيفة حد أن بإمكان القلة فقط اختراقها ومعرفة دراستها.

غير أن خلاص الإنسان يكمن في الإيمان.

ليس الإيمان الكئيب المشكل في بعض الصيغ ولكن الإيمان الحي الذي يجعل الأرواح قوية، وليس الإيمان الذي يحطم الإرادة والطاقة ولكن الإيمان الذي يعظّمها ويمجّدها.

لا يكفي القول فقط، ولا حتى الاقتناع بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده

(١) كتبتها الكاتبة باللغة اللاتينية sapienti sat. المترجم.

ورسوله. هذا لا يكفي أبداً ليكون المرء مسلماً. ينبغي على من يقول بأنه مسلم أن يمنح نفسه للإسلام جسداً وروحاً، وإلى الأبد، وحتى الشهادة عند الاقتضاء، وأن يدخل الإسلامُ روحَ المؤمن، وأن يحرّك أي عمل من أعماله، وأياً من أقواله، ومن دون ذلك لن تجدي الممارسات الصوفية مهما كانت.

الله هو الجمال، ويختزل كل شيء في هذه الكلمة حيث الخير والحقيقة والصدق والرحمة... كل هذه المفردات لم توجد إلا من أجل الإشارة بحسب مظاهرها المختلفة إلى الجمال أي إلى الله. وبهذا الإيمان الذي يحرك الروح يصبح الإنسان قوياً.. ويكتسب قوة تبدو في عيني الشخص العادي خارقة، ويصبح صوفياً «مهما فعلت، ومن حيث خرجت، وحيثما دخلت، قل بسم الله الرحمن الرحيم.» كذاك قال العالم، والملهم الشيخ الشافعي[1]، رسول الله. لكن ما علمه، لم يكن قول باسم الله! عند البدء في عمل ما، بل علم عدم فعل أي شيء إن لم يكن باسم الله، بمعنى ألا يفعل المرء دوماً إلا ما هو جميل، وبالتالي أن يقوم بذلك على نحو جيد وحقيقي. من غير المجدي في الواقع القول «باسم الله» في بداية كل عمل قبيح، أي على النقيض من الله! وفي كل الأشياء ينبغي على المرء أن يثابر لإيجاد ما هو إلهي في البداية. الملازمة الإلهية والأبدية. فجانب كل شيء وحده يستحق أن يؤخذ بعين الاعتبار، فالشكل لا يعني شيئاً إذا ما تعلق المرء به، وليس هو إذن إلا أداة للفناء والشقاء.

فكرت على امتداد سنوات لأصل أخيراً، بعد بهيمة، إلى فهم هذه الأشياء، التي سيصفها المدنسون بكل تأكيد بالتصوف في شغفهم الأخرق بالجمال الفارغ من المعاني، والتصنيفات الجاهزة، والتي تمكنهم من الكلام من دون تفكير. وإذا ما كان مكتوباً، مثلما أتمنى وأظن أني أخمّن ذلك، أن أعبر دورة هذا التطور المبارك، فسيكون ذلك عبر طريق الألم، التي سأغني لها من الآن نشيد الامتنان. لكن في كل هذا فعل مكتسب، فقد خرجت روحي أخيراً من الحدود الفانية حيث تاهت لمدة طويلة، وحيث أوشكت أن تغرق في العديد من المرات.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

الخميس ٢٥ تموز/يوليو، حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً.

أضحى المقام هنا أكثر عناءً وخصوصاً أنه من دون وجود روح، ومن دون أوغستان ومن دون إيلين اللذين لم يتمكنا، ولن يتمكنا أبداً، من أن يحباني لأنهما لن يفهماني أبداً. فقد أضحى أوغستان أخرس وأعمى بخصوص كل ما يبهجني، ولن يفهم شيئاً من الأشياء الرائعة التي فهمتها أخيراً.

أنا وحيدة هنا أكثر من أي مكان آخر. ولكن هي ذي نهاية الشهر أخيراً ولن يتأخر زويزو في القدوم لوضع حد لعذابي.

وصلني اليوم العددان التاسع عشر والعشرون لشهر تموز/يوليو من الأخبار الجزائرية، والمتضمنين للمغرب، وربيع في الصحراء. هذا النجاح معز، ويفتح لي طريقاً. وهكذا يتعين المحافظة على الصبر والتحلي به حتى النهاية، لكن عليّ بوجه خاص الانكفاء على نفسي وألا أتحدث عن شؤوني أو أفكاري لأولئك الناس الذين لن يهتموا بها، والذين لا يريدون فهمها.

وبكل تأكيد، وعلى الرغم من كل مظاهر السنتين الأخيرتين، كان مكتوباً إذن أنني سأنقذ وحدي من الناحية المعنوية من بين كل أولئك الذين عاشوا حياة غير طبيعية بالفيلا الجديدة، والذين اشتكى منهم أوغستان كثيراً في الماضي بدا أنه ينسخ عنهم حتى التفاصيل الصغيرة الآن. ينبغي مهما كان الثمن تبني نظام الصمت والغموض لإنهاء هذه الإقامة الفظيعة التي تدعو للرثاء.

كيف سينتهي الأمر تحت سقفهما؟ علامَ سيعتمدان؟ فيمَ يفكران؟ لست أدري، وهذا يرعبني، لأنه على الرغم من كل شيء سيبقى قلبي من دون تغيير اتجاههما.

وبطبيعة الأمور، ونظراً إلى طبع سليمان وطبعي أيضاً، سنتحمل أعباء بيتهما ما إن نستقر هنا، وكم سيكون ذلك ثقيلاً. . . وبسبب هذا، وإذا لم ينقذني ريبمان، سيكون هناك حرمان ومعاناة أكبر، لكن وكما هو معلوم دوماً وأبداً سأفعل ما يتعين فعله وسيحدث ما سيحدث.

لا أطلب من الله إلا الشيء القليل: عودة سليمان وزواجنا ونهاية الوضع هنا. فيلتدبرا أمرهما، ولتمض الأمور حتى لا تكون حياتهما رعباً جديداً بالنسبة لي! فليتمكنا من الحصول على ما يقيم أودهما بطريقتهما شريطة ألا يكون مصيرهما أبداً

مصدر كآبة دائمة وفظيعة بالنسبة لي وخاصة في عجزي عن مساعدة الناس المخالفين لي في كل شيء.

الجمعة ٢٦ نيسان/ أبريل، الساعة العاشرة ليلاً.

من أجل إنهاء هذا السجلّ لنصف السنة الأخيرة من حياتي والذي بدأ بالحنين المضطرب في المستشفى ليست لديّ أبداً إلا أشياء كئيبة وحزينة، مع أني حققت التطور الروحي. ولا ريب في أن الوسط الذي أعيش فيه هو الذي يرهقني، حيث الانشغال بوضعية مادية معقدة تتسبب لي بضغط معنوي أعاني منه منذ ثلاثة أو أربعة أيام. أما في العمق فروحي هادئة.

من الناحية الشخصية يثقل التأخر اللامحدود لعودة سليمان كاهلي ويكلفني الصبر الآن جهداً مضنياً. سأكون بحاجة إلى حضوره القيّم نفسياً لربما أكثر من أي وقت مضى. يفيض قلبي ويشدني بشكل لا يقاوم اتجاهه، كما لو أنه ينجذب اتجاه آخر ملجأ تبقّى لي في هذه الأرض، غير أن الأيام معدودة ولا ينبغي الآن فقدان الشجاعة والصبر، إضافة إلى أنّ لديّ الكثير من العمل سواء بالفرنسية أو بالروسية مجدداً، بحسب رسالة السيدة باشكوف. آه! لو يتوج هذا الجهد بالنجاح المماثل الذي أمتعني البارحة! وأخيراً من أعماق روحي التي بدأت تتعلم السيطرة على نفسها.

(لما استبدل سليمان إهني أدمج في صفوف الخيالة الفرنسيين بحامية مرسيليا، حيث تزوج رسمياً إيزابيل إبرهارت. ملاحظة روني لويس دويون.)

٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠١، يوم السبت الساعة الرابعة مساء.

انزاحت أغلب هواجس الأشهر الثلاثة الأخيرة من أفقنا.

فمنذ يوم السابع عشر من الشهر الجاري نحن معاً رسمياً، أي مجتمعين دائماً. وأيضاً أُلغيَ منع الإقامة بالجزائر، ومن المرجّح إضافة إلى ذلك أن المنفى يصل إلى نهايته، فبعد شهر من الآن سنرحل إلى الأرض المحبوبة جداً خلف البحر، ذلك أن الله والجيلاني لم يتخليا أبداً عنا، فلينهيا صنيعهما للنجاة والخلاص.

مرسيليا

(أضيفت هذه الملاحظة من قبل إيزابيل قبل سبعة أشهر من وفاتها. ملاحظة روني لويس دويون.)

الجزائر، ٨ نيسان/ أبريل ١٩٠٤، الساعة التاسعة ليلاً.

لم أدوّن الأفكار الخاصة بشهر كانون الثاني/ يناير من سنة ١٩٠٢... لا يهمّ، فبعد ثلاث سنوات، وفي مكان آخر من المنفى، ووسط بؤس عميق أيضاً، ووحدة مطلقة أيضاً، أدوّن التفسير العميق الذي أحدثه الزمن المهلك بداخلي منذ تلك الفترة...

جولات أخرى، وأحلام أخرى، ونشوات أخرى للشمس في الصمت وسحر صحارى أخرى أكثر حرقة وأكثر بعداً مرّت على تلك الأشياء الماضية. وفي الأفق، ولربما خلال بضعة أيام، سأرحل مجدداً إن شاء الله، وسأذهب إلى المغرب الكئيب حيث الغموض والموت... بعد عام من الآن، وفي تاريخ مماثل، هل أبقى على قيد الحياة؟ وأين سأكون؟

الليلة نفسها.

في هذه الليلة، وأنا أقرأ كتب الماضي تلك المليئة بالأشياء الميتة، تملّكني وسواس شديد وحنين عميق وأنا ألفي فيها بعض الأسماء التي أضحت منسية، أسماء صوف، وبرج فيرجون، وأورميس ببساتينه البهيجة، والواد، وبهيمة. أين هي الآن؟

بعد سنتين، وبعد خمس سنوات، سيكون للأسماء المألوفة الآن: عين صفرا وفيكيك وبني ونيف وجبل عمور، الصدى الحنيني نفسه في أذني.

هناك العديد من الأماكن الإفريقية التي ما تزال تسحرني... ثم إن شخصي الوحيد والمؤلم نفسه سيختفي من الأرض، حيث عبر وسط الناس والأشياء دوماً كمتفرج وكغريب.

اليومية الرابعة

ملاحظات وانطباعات
بدأت في مرسيليا بتاريخ ٢٧ تموز/يوليو ١٩٠١،
وانتهت في بوسعادة بتاريخ ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٠٣

في ذكرى الروح البيضاء

«بسم الله الرحمن الرحيم!»

مرسيليا، ٢٧ تموز/يوليو ١٩٠١.

بعد بضعة أيام من الملل ومن الحزن الكئيب ومن القلق قمت هذا الصباح مجدداً بنشاط وبصبر وبمزاج جيد من أجل العمل ومن أجل الأمل.

لو ينتهي عذاب انتظار سليمان، لو علمت تحديداً تاريخ عودته، لهدأت ولاجتزت إحدى أفضل فترات حياتي. من المحتمل أن ينتهي البؤس، والكثير من الهموم والكثير من العجز على الخصوص مع بداية فصل الخريف. آه! الحصول أخيراً على مال الفيلا الجديدة البائسة والذهاب لرؤية أرض إفريقيا مجدداً، ومن يدري، لربما صوف التي لا تنسى! والتمكن من أن أقرأ مجدداً، وأن أكتب وأن أرسم وألوّن لربما، والعيش أخيراً من الحياة الثقافية، ووضع أساس مهنتي الأدبية! وقد يتعين الذهاب إلى باريس بشكل حكيم عوض الذهاب إلى الجزائر، مع قدر من المقالات لبيعها هناك؟

وأخيراً يبدو لي أن فصل الخريف هذا سيضع حداً إن شاء الله لكل تلك الفترة

الطويلة من العذابات ومن الهم ومن البؤس.[1] منحت ثقتي لله وللجيلاني.

الفاتح من شهر آب/ أغسطس ١٩٠١، الساعة الحادية عشرة صباحاً.

وصلتني البارحة رسالة من سليمان المضطرب مجدداً، وهو في المستشفى منذ يوم الثامن والعشرين. بعد هذا من المستحيل عدم الثقة بالإنذارات الغامضة جداً، والتي تعلنها منذ سنوات، مراحل طريق آلامي[2]!

ترتعد فرائصي، ومع ذلك عليّ أن أكتب، عليّ أن أنسخ عميرة وأن أرسلها إلى بريو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في اليوم نفسه، بعد منتصف الليل بنصف ساعة.

سليمان، سليمان! من المؤكد أني لم أحبه أبداً مثلما أفعل الآن بقدسية عميقة. وإذا أراد الله أن يأخذه مني مجدداً فلتكن مشيئة الله، لكن فيما بعد لا أريد أن أحاول أي شيء، بل إني أريد شيئاً واحداً فقط وبكل قواي الذهاب حيث الصراع، في الجنوب الغربي، والبحث عن الموت مهما كان الثمن شاهدة بألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. هذه هي الغاية الوحيدة الجديرة بي، والجديرة بمن أحببت، وكل محاولة لإعادة تكوين حياة أخرى لن تكون غير مجدية فقط بل إجرامية أيضاً، وستكون شتيمة.

لربما سيذهب في القريب جوار تلك التي يأسف أنه لم يعرفها أبداً، وسيخبرها بكل ما عاناه قلبانا الموحدان أبداً في هذه الحياة الدنيا.

أيتها «الروح البيضاء» الموجودة في الأعلى، وأنت يا فافا، تريان من دون شك دموعي في هدأة هذه الليلة، وتقرآن ما في روحي. تريان أنني قربه طهرت روحي البائسة في الألم والاضطهاد، وأني لم أضعف، وأن قلبي أضحى صافياً أخيراً! احكما واطلبا رحمة الله، الله الذي جعل الروح البيضاء ترقد وسط المسلمين، لنا معاً وقد تركتمانا وحيدين في عالم الألم. واطلبا أيضاً أن تحل لعنة الله على أولئك الذين أذلونا ظالمين.

---

(١) مساحة فارغة في النص الأصلي. المترجم.

(٢) كتبتها الكاتبة في الأصل باللغة الإسبانية via dolorosa. المترجم.

لمَ لم أرحل مثلما تمنيت رفقة سيدي محمد الطيب، ولمَ لم أذهب لأموت جواره في تيميمون؟ لمَ أخذ القدر ذلك الطفل المسكين، وضمه إلى خسارتي المحتومة، هل أخذه من حياته الماضية الهادئة من أجل العذابات الكثيرة ولربما نهاية مبكرة وحشية؟ لمَ لم أذهب هناك وحيدة؟ هل يندم أنه أحبني؟ وهل يندم أنه تعذب كثيراً من أجلي؟

إلامَ ستؤول الحرارة اللامحدودة لهذه اللحظات التي أمر بها، وليالي الوحدة هذه؟ لو أُمنح بعض المساعدة لأنقذ كل شيء. سيشفى بكل تأكيد حتى لو كان مريضاً، ما دمت سأعالجه إلى جواري... لكن من دون هذا وفي ظل الحرمان والبؤس ستضعف صحته الواهنة، وسيتربّص به الشر الموروث...

الثاني من شهر آب/ أغسطس، الساعة الرابعة مساء.

بداية النهار مع بعض الشجاعة والأمل بفضل مقابلة أوغستان صحبة (صديق).

الإثنين ٥.

زيارة العقيد دورونكون. الحالة النفسية: بعض القلق والحزن. الليلة سيئة، وكآبة شاملة بخصوص كل حياتي. الثقة بالجيلاني في المستقبل.

الثلاثاء ٦، الساعة الحادية عشرة صباحاً.

حالة كئيبة بالأحرى. تعب كبير من الحياة الحالية. لا اهتمام عميق بأي شيء. تعب من المشاعر المملة والكئيبة للأيام الأخيرة على الرغم من أنها عنيفة. استرخاء. طاقة دماغية فقط من أجل إنهاء ما عليّ القيام به، ولكن من دون حماسة.

وصلتني رسالة من بريو. أُدرك أنه من وجهة نظر أدبية يتحتم عليّ القيام بعمل منهك. قرار، لأنه يتعيّن القيام به.

والشيء الغريب هو أنه بينما كنت أكتب هذه السطور شعرت بتحسّن طفيف في مزاجي يُعزى إلى هذه الفكرة التي أعتقد أن بإمكاني كتابتها في قصة تنشرها الإليستراسيون.

بعد القراءة اليومية لدوستويفسكي أحسست فجأة بالحنان اتجاه هذه الغرفة

الصغيرة التي تشبه زنزانة سجن والتي لا تشبه بكل تأكيد بقية المنزل.

فكل غرفة يسكنها المرء لمدة طويلة تُشبَع قليلاً إذا جاز القول مِنْ روح مَنْ سكن بها وفكر داخلها.

الإثنين ١٢ آب/ أغسطس ١٩٠١

«كل ما يولد، يولد في الانتظار والمعاناة».

. . . أيام حزينة وقلقة يتعذر وصفها حيث القراءة والعمل وحدهما ينقذانني. ما سبب ذلك؟ لست أدري، فروحي بعد راحة الأيام الخمسة عشر الأولى من شهر تموز/ يوليو دخلت مجدداً في مرحلة حضانة موجعة.

وحياتي الحالية، بالنظر إلى الأجواء المحيطة والظروف، بغيضة وكريهة. والهدوء وعزلة السجن سيكونان أكثر تحملاً وأكثر نفعاً. غير أن هذا من الناحية النفسية هو امتحان مجد مرة أخرى بطبيعة الحال. . . لكن كم هو مؤلم للأسف!

أنا مريضة على نحو إيجابي من انتظار سليمان، ومن هذا الشك بخصوصه. كل أعصابي وكل ملكاتي مشدودة من هذا الجانب حتى لتكاد تنفصل، ولولا المصرف المزدوج شكلاً للعمل وللقراءة لربما انتهى الأمر على نحو سيّئ، يعلم الله كيف! وتبدو طبيعتي القوية لا تستطيع أن تقاوم جيداً إذ ينتابني العناء والاختلاج والقلق أكثر فأكثر. وهي علامات الضعف الرهيب. كم من الوقت سيستمر الأمر كذلك؟ لست أدري، لكن يبدو لي أني أصل إلى حدود قواي. . .

الخميس ١٥ آب/ أغسطس ١٩٠١، الساعة الثامنة والنصف ليلاً.

منذ عدة أيام يجتاحني مجدداً حنين شديد إلى الصحراء حد الألم! لو أنني فقط أستطيع الذهاب حتى الساقية الأخيرة لبسكرة العتيقة، حيث توقفنا أنا وسليمان ليلة العودة، يوم الثاني من شهر آذار/ مارس الأخير. . . قبل ستة أشهر طويلة! . . . الذهاب هناك فجراً أو عند مغيب الشمس وإلقاء نظرة كعاشق ومنفي للصحراء الكبرى. نظرة واحدة فقط!

آه، أن نكون حُرّين الآن نحن الإثنين، ومحظوظين، وأن نذهب إلى هناك إلى بلدنا! هل سأرى مجدداً صحرائي الكبيرة الرائعة؟

لكنّ في أعماق قلبي شيئاً مثل حدس معتم يخبرني بأني سأعود إلى هناك. . . بل إن ذلك سيحدث في يوم ليس ببعيد. الله أعلم!

أنا على استعداد لمنح أي شيء في هذه اللحظات الحالية من أجل أن أترك هذه الأرض الملعونة، أرض المنفى والألم، وأعود إلى هناك، إلى الأرض الإفريقية.

أنظر على الحائط إلى الرسومات من هناك، والأفق المعتم حيث تنتصب القميرات البعيدة يجعلني أحلم. الذهاب بعيداً، وابتداء حياة جديدة في الهواء الطلق حرّة ومدهشة ! أختنق هنا، بين أربعة جدران، في مدينة لم تمنحني أبداً إلا الكدر الأشد كآبة!

الذهاب إلى هناك، كمتشرد وحر تماماً مثلما كنت، حتى لو دفعت ثمن آلام جديدة مهما كانت! العدو بسرعة كبيرة، عبر رصيف لاجوليييت ذاك، الجزء الوحيد من تلك المدينة التي أحب لأنها باب إفريقيا. وصعود سفينة كشخص بسيط ومجهول والفرار. الفرار أخيراً وإلى الأبد. هذا ما أفكر فيه، وهذه هي الأفكار التي تسكنني وتعذبني!

رؤية الأبراج المعزولة مجدداً، وطريق واد رير المالح، ثم صوف البيضاء والقميرات، القميرات الكئيبة التي هي بمثابة المنارات الفاتنة للمحيط المحبوب.

«اعدُ! سر! فالسحابة لا تتوقف
إلا لتنشقَّ
ولا يستقرّ الراماني
إلا ليبكي!»

لم آت إلى هنا بكل تأكيد إلا لأبكي ولأحزن، ومن أجل التخبط في الظلام وفي همومه، ومن أجل المعاناة، ومن أجل أن أكون أسيرة! متى سيحل موعد الرحيل المشرق؟ ومتى سيحل موعد العودة إلى هناك حيث أستطيع العيش على الأرض الفريدة في العالم، وحيث لن أكون أبداً منفية وغريبة؟

الجمعة ١٦ آب/ أغسطس، الساعة الحادية عشرة صباحاً.

آه! أجل، أن أذهب إلى هناك إلى الأبد، أن أترك كل شيء، وأن أهجر كل شيء. الآن حيث أعلم أنه لا يمكنني أن أنخدع في مكان آخر مثلما أفعل هنا، حيث أنا غريبة تماماً كما في أي مكان آخر، وأن من بين كل ما هو عزيز، وكل ما هو مقدس عندي، وكل ما هو كبير وجميل، من المستحيل أن أدفع إلى قبول أي شيء في منزل العميان هذا، والبورجوازيين... البورجوازيين حتى أطراف الأصابع والمدنّسين في الاهتمامات الفظة لحياتهم الحيوانية والجشعة.

لكنهم محقون في دفع كل هذا حتى آخر درجة من التقزز لأني بذلك أنفصل عنهم تماماً بقلبي. وفي العمق لا أتالم أبداً من المشاهد الخشنة والمؤذية هنا. فالأمر سيّان عندي. وليس لكل هذا من نتيجة أخرى إلا جعل دنوّي من معبودي الغالي أكثر شغفاً، وهو ما يدفعني للحياة، وهو خلاصي، وخلاص روح سليمان الجميلة التي أراها من خلال رسائله، والتي دخلت طريق التأمل، وهي الطريق التي ستدفعه إلى السبيل المتألقة والتي أتقدم فيها على الرغم من كل شيء. أما بخصوص الآخرين فهم صُمّ بُكم عُمي فهم لا يرجعون. كما جاء في كتاب الله...

كل عذابي الحالي مصدره هذا الانتظار المقلق لسليمان.

لكن أيضاً لا ينبغي التضحية بكل شيء من أجل هذا المكان، وعليّ التفكير أخيراً في منزلي.

ولا يشك ريمان أو بريو أبداً، وعلى الخصوص الأول، الذي ليس لي أي شيء آخذه من إحسانه والذي توسلت إليه من أجل أشخاص آخرين لم يحفظوا أي امتنان![1] حبيبي محق، أنا حمقاء، لأننا نفعل الخير لأناس يشبهون هؤلاء!

يعبّر أحدهما بصوت مرتفع عما يفكر فيه الآخر في وعيهما فقط. وهما لا يشكان كم يضرّان بمصالحهما المادية العزيزة جداً عليهما... عزيزة أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم لأنهما لا يملكان أبداً المصالح الأخرى التي تجعلنا نعيش. لن أتنازل لهما أبداً بكل تأكيد، مادامًا يتحدثان دوماً بأنه سيكون علينا «حسن التدبير لمجازفاتنا

---

(١) مساحة فارغة في النص الأصلي. المترجم.

ومخاطرنا». فليقوما بذلك أيضاً. ستكون تلك أفضل لعنة، وأكثر نفعاً.

ليس في ما أقوله هنا أي انتقام أو كراهية أو شر. ليس هناك إلا العدل. لا يريدان القيام بأي شيء من أجلنا، ونحن فقيران ومتخلى عنا، وليس لدينا ما نقوم به من أجلهما.

هذا تفكّر غبي في طيبتي، تم الاعتماد فيه على الجهل بطبعي الحقيقي، لأن هناك خطاً ينبغي عدم تجاوزه عند التعامل معي.

وقد تم تجاوز ذلك الخط.

لمَ أنا مرغمة على الاهتمام بأشياء بمثل هذه الوضاعة وبمثل هذه الخسة وأخذ تدابير مماثلة؟

في النهاية، هناك أيضاً بعض أيام الصبر والشجاعة وكل هذا سينتهي إلى الأبد. . .

يوم السبت ١٧.

أفهم طبعاً سبب كل هذا التحوّل على نحو جيد جداً. . . لكن ليس هذا نوع الأفكار الذي يسكنني اليوم. في البداية هناك القلق الدائم بخصوص المغادرة وذلك التبديل. ثم سيكون هناك شيء آخر. يبدو كأنه يفكر هو أيضاً في ذلك الشيء هناك، بحسب رسالته قبل الأخيرة، ذلك الشيء الذي يصيب بالاضطراب وبالانتشاء، والذي هو حب المعاني. والأحلام الأكثر لذة، والأقل عفة هي التي تعودني الآن. ولا يمكنني بكل تأكيد الإفضاء لأي كان بسرّ مماثل. . . إلا الشخص المؤتمن القاسي والحساس، أي الدكتور تاست. لربما من المؤسف، من وجهة نظر ثقافية، ألا يتم الأمر مع موفييز، الشخص الذكي على نحو أكثر مرضية، والمحب للاستطلاع، والذي ألفيت نفسي على اتصال به خلال الإقامة بالمستشفى التي لا تنسى. يبدو لي أنه كان أكثر نقاءً وأكثر براعة. . . «الدكتور سيبتيل»[1] الذي ما يزال غير منسيّ! ومع ذلك أحب تاست بكل تأكيد. . . الرجل الذي شدني إليه على نحو أقل، بطريقة محسوسة، على الأقل من الناحية الجسدية. بكل تأكيد هي الإباحية الفظة والعنيفة

---

(١) البارع. المترجم.

تارة والرقيقة تارة أخرى حد العصاب لهذا الرجل الذي ما كان ليزعجني. وقلت له أشياء لم يسمعها أحد قط. . . د. . . . عامي جداً وله لمسة تسامح واسعة جداً، وشرسة جداً.

الآن، وحيث كل أولئك الرجال بعيدون عني وعن حياتي، أتأمل بإعجاب شخصية تولات، وأتساءل إن لم تكن هناك أيضاً ردة وراثية قديمة. في الواقع كيف أمكن لعشر سنوات من الحياة العربية، وعلى الخصوص للروح العربية، أن تغير لون ذلك الفرنسي المتحدر من بواتيي؟ أجل، تولات عربي. فهو داكن اللون ويحب حياة الصحراء الهمجية والقاسية. ومن بين كل الضباط الفرنسيين الذين عرفتهم، كان الوحيد الذي لا يضجر هناك. أليست صلابته وحتى عنفه وقسوته عربية؟ وفي حبه أيضاً شيء همجي، وهو شيء غير فرنسي، وغير عصري لأنه بكل تأكيد أجنبي، وكان حبه في أوجه في اليوم الذي بكى فيه بيأس أثناء عودتنا إلى بسكرة. كان يحبني، ولم يكن يفهمني وكان يخشاني. آمن بأن خلاصه يكمن في الفرار والهجر.

ستستمر بكل تأكيد كل القضايا الحساسة في إثارة اهتمامي من الناحية الثقافية، ومن أجل أي شيء في العالم لن أتخلى أبداً عن دراساتي حول هذا الموضوع. لكن في الواقع، ومن أجل شخصيتي، يتحدد المجال الجنسي بشكل واضح الآن، والجملة المبتذلة «لم أعد ملك نفسي» صحيحة جداً. وفي المجال الحسي يهمني سليمان كسيد مطلق ووحيد، فهو وحده يشدني، ووحده يوحي لي بالحالة الروحية اللازمة من أجل ترك المجال الثقافي للانحدار إلى مجال الإنجازات الحسّية المعروف. هل هو انحدار؟ أشك في ذلك.

بصفة عامة، وفي العالم العصري المشوّه والمخرّب في الزواج، ليس الزوج أبداً المدرّب الحسّي. تُربط حياة شابة بدناءة وسذاجة بزوجها، وهو الشخص الحقير في النهاية، ويملك العذرية المادية للمرأة. ثم إن عليها في الغالب أن تمضي بنفور بقية حياتها إلى جواره، وأن تتحمل «الواجب الزوجي» حتى اليوم الذي يعلّمها فيه الخذلان والكذب، في العتمة، بأن هناك عالماً كاملاً يتحكم بالإنسان مكوّن من الأحاسيس والأفكار والمشاعر. ولهذا السبب يختلف زواجنا كثيراً عن بقية الزيجات، ولا يستحق مثله الكثير من البورجوازيين. ويمثل سليمان بالنسبة لي العشيق والرفيق، وهو يعرف بشكل غريزي أن يكون كذلك، مع أن الزوج لم يعد أبداً كذلك بالنسبة لزوجته.

ما الذي ألمح إليه الكائن الغريب العقيد ر. . . والذي يبدو أنه مايزال ساحراً بكل تأكيد بالنسبة للعديد من النساء الراقيات جداً، عندما قال: «كنت في الجزائر موضوع ما لا يُحصى من الاشتهاء. . . » أدرك ذلك جيداً لأني عانيت منه، حتى درجة معينة.

وبالنسبة لأولئك الذين عرفوني، وعلى الخصوص بالنسبة للضباط، فشخصية سليمان في حياتي هي شخصية غامضة بطبيعة الحال. وانتهى دوميرك إلى الوقوف وجهاً لوجه أمام الأمرالحتمي. . . وتاست يتظاهر بأنه لا يفهم شيئاً، غير أنه يدرك الأمور حتى نقطة معينة. ما الذي يظنه ر. . .؟ أريد بكل تأكيد رؤية هذا الرجل مجدداً، والتعرف إليه على نحو أفضل. أما الانطباع الذي خلفه لدي فلم يكن مبتذلاً قطعاً، ولا يمكنه أن يكون شخصاً مبتذلاً.

لاحظت أن أمور الحياة، على الأقل أمور حياتي، تميل للتسوية إزاء كل احتمال، وإزاء كل نظرية الاحتمالات الشهيرة.

وبدأت أنتظر بكل بساطة من دون القيام بافتراضات.

وهكذا لم أعد أعرف إن كان اللقاء مع سليمان وشيكاً أم لا. أريده من كل قلبي بكل تأكيد، ولكني ما عدت أتعلق بالتواريخ مخافة الخيبة.

مررت بالعديد من أيام القلق الكئيب والحلم الضاغط، ثم أخذ الأمر يتضح بعض الشيء، غير أن العمل أضحى مستحيلاً، وأشعر أنني أُدفع إلى الجمود. وكان عليّ للخروج من تلك الحالة القيام بجهد إرادي بالغ أمس. . .

. . . ما زلت لا أعرف شيئاً عن شخصية بريو المحسنة باستثناء أنه إنسان طيب من دون شك. . . لكن هل هو بسيط إلى حد بعيد مثل رسائله القصيرة، والبسيطة والمباشرة والنزيهة أم أنه أكثر الأشخاص تعقيداً؟

ومن بين الأشخاص الموجودين هنا محمد بن عيسى الطيب، الذي لا شك أنه رحل إلى الجزائر الآن، والذي يملك قلباً طيباً.

وإسماعيل بن عمة، وهو شخص فاسد حتى أخمص قدميه، وماكر وبغيض ويبدو تقريباً مترهلاً بالكامل، وإذا شرب ينتهي بالهذيان الارتعاشي أو بالشلل العام.

هو كريه إلى أقصى حدّ! وما كان زويزو في حاجة لتحذيري منه.

لو كان علي الاختيار بين ذلك الشخص «الأرستقراطي» وسليمان الحمال مدخن الكيف ما كنت لأتردد في اختيار هذا الأخير طبعاً.

مرسيليا، الخميس ٢٢ آب/ أغسطس ١٩٠١، منتصف النهار.

يستمر الألم الشديد. ومع ذلك عوض الانقياد إلى أحاسيس غريزية معتمة، أُقدِّر بتعقّل أن ثمة تحسناً كبيراً في وضعي، ذلك أن زويزو لم يعد في باتنة البائسة تلك، وهو في الطريق، والأكثر من هذا أنه في بون، في تلك المدينة حيث قبرها. فلتستقبله ولتلهمه ولتأخذه تحت حمايتها إلى الأبد!

انتهيت هنا إلى فهم الآلية الشديدة التعقيد للحالة الراهنة التي لا تطاق «شؤون نسائية صغيرة، وعمل نسائي سري وصغير، ومع ذلك فقد تحطم ذلك».

من غير المجدي الإصرار، فبكل تأكيد ليس ذلك بسبب أوغستان إلا قليلاً، بسبب ضعفه فقط، وكل ذلك لا يصدر عنه.

لقد اقترف خطأ لا يمكن إصلاحه، والآن لا أحد يملك فعل أي شيء إزاء ذلك، لكن بتعقل، لن تكون أمامه إلا فرصة واحدة للخلاص[1] أن يموت الأعداء، ويعود إلينا، وهو شيء أكيد. ومن المحتمل أن ذلك سيكون أليماً بالنسبة له، غير أنه سيكون الخلاص المعنوي. هل عليه أن يتمنى أن يحدث ذلك؟ كلا، لأن الله وحده يعلم خبايا القلوب. فلندع للوقت وللمكتوب، أي لله، رعاية تلك الحياة التي لا يمكنني التصرف إزاءها. لقد شك سليمان في ذلك، والحمد لله أنه سيفهم ذلك أكثر من أي شخص آخر!

الآن، أنا مطمئنة من هذه الناحية لأني أعلم وأفهم. سيكون هناك المزيد من الشك. فحالتي الروحية معقدة جداً. وفي هذه اللحظة للجسد دور كبير في ذلك، والبقية بسبب الوضع هنا. وحتى تأخر سليمان أيضاً، لكن هذا الإحساس صبياني.

يالهي! أي انعتاق يكون لو أن إيكزومبليارسكي أراد إقراض أوغستان مبلغاً كافياً، من أجل تخليصنا على الأقل من كل الانشغالات من هذه الناحية، وأيضاً من أجل تجنبينا مصاريف محرجة، ولربما مشؤومة أيضاً!

لدينا الكثير من المصاريف الشخصية، والكثير من الديون، ومن الأشياء التي علينا شراؤها حد أن الـ ٢٥ فرنكاً التي جاءتنا أمس ستسعدنا بالفعل فلييسر الله ذلك!

---

(١) مساحة فارغة في النص الأصلي. المترجم.

عليّ الضغط على نفسي كثيراً حتى يمر هذا الأسبوع من دون أن أنقاد إلى الاختلاج، بل الحرص على استخدامه على نحو مجد، وهو الأمر الأكثر صعوبة. وما يدعو للغرابة هو أن الحنين المبهج والهادئ والمستسلم والمفيد لم يحضرني هنا أبداً. وإذا ما وجدت في العالم مدينة تكون فيها هذه المشاعر غريبة عني فهي هذه المدينة هنا. فهذه المدينة لا تلهمني أبداً... وعلى الخصوص ما دمت تحت هذا السقف. وفيما بعد، وعندما يكون زويزو لي بالكامل، في حي آخر تماماً، سيمر ذلك لربما.

أفضل قراءة تناسبني هذه الفترة هي قراءة دوستويفسكي لربما لأن رواياته توافق على نحو أفضل الحالة الروحية المشوّشة وغير المتناسقة والأليمة التي أتخبط فيها منذ فترة طويلة.

أعدت البارحة مساءً قراءة رسائل الصديق أوجين. يا إلهي، أيّ تغير طرأ عليه أيضاً في ست سنوات من الصداقة! وأي تطور بعد رسائله الأولى المراهقة جداً، وآخر حضور له من عمق الصحراء، من توات التي يجعلني اسمها فقط أحلم! أية كآبة في تلك الروح! ويبدو لي أن مغامرة الحب في الجزائر تلك أثرت كثيراً من هذه الناحية في أوجين، ومن أجل هذا على الخصوص، وبالنظر إلى طبيعة هذا الرجل، كان على هذا الحب أن يكون حقيقياً وعميقاً، وهو ما حدث له على ما أظن بالنظر إلى رسالته الأليمة جداً حيث أعلن لي عن رحيله المباغت، وتقريباً فراره إلى الجنوب البعيد.

تغيرت أنا أيضاً أكثر منه بما لا يقاس منذ ذلك الوقت. هناك هوّة بين الطفلة التي كنتها حينها، وما أنا عليه الآن بل من غير المجدي قول ذلك. فبين ما كنت عليه في بون، مع أنه لم تمض على ذلك إلا أربعة أعوام، وما أنا عليه الآن اختلاف حد أن ذكرياتي لتلك الفترة تدفعني إلى الابتسام، وهو شيء صحيح على نحو حزين جداً. من المحتمل أنه لولا المآسي الفظيعة التي أصابتني منذ بون لحدث تطوري بشكل أكثر بطئاً، ولكان الأمر كذلك هذه السنة أيضاً لولا بهيمة. وما أدركته وتعلمت فهمه هنا كان بتأثير كبير أيضاً على طبعي، وسيكون له وقع أكيد على كل مسار حياتي من الآن فصاعداً.

وفي أفقي، وكملاذ أخير، وكأمل إنساني وحيد، ليس هناك إلا سليمان. هو وحده. اما البقية، فيتلاشون مثل أطياف ما كادت توجد، بعد أن تواجدت، ولكن في مخيلتي السقيمة فقط. فهو وحده حقيقتي، وليس إغراءً أو صورة زائفة.

الجمعة ٢٣ آب/ أغسطس ١٩٠١، الساعة الحادية عشرة صباحاً.

كان يوم أمس يوماً فظيعاً بسبب وخزتي الجديدة الصغيرة بدبوس من قِبل. . .

من الساعة الثالثة إلى الساعة الخامسة ذرعت المدينة من دون قوة، مرهقة وغير مبالية بحثاً عن إسماعيل. لم أجده. كنت في جوليبيت، حيث وجدت الحمال سليمان. اقترضت ٥٥ سنتاً وأرسلت برقية إلى زويزو، ومنحني سليمان خمسة عشر سنتاً من أجل التبغ. العودة إلى البيت. تعب كبير وانزعاج وألم في الجسد كله.

الليلة فكرت وصليت. تمالكت نفسي اليوم بعض الشيء، بفضل الجيلاني من دون شك. إذا لم تحصل تعقيدات خرقاء هنا أتمنى أن أتماسك على هذا النحو خلال الأيام الخمسة المتبقية لدي حتى وصول زويزو - المؤكد هذه المرة. حتى إني أعتقد بأني سأنهمك في العمل، على الأقل حتى درجة معينة. كل ذلك لكي لا أنقاد للكدر النفسي. لماذا على سبيل المثال تصورت أن تأخر زويزو يخفي من جانبه شيئاً قاتلاً ومؤسفاً؟ يعود السبب في جزء كبير منه إلى وضعي هنا الذي لا يطاق.

آه! يا لحاجتي إلى أداء المسرحية، ولو إلى حد معيّن! ولمَ يشعر المرء بأن هناك عدواً قريباً من دون وعي (ليس بسبب كراهيته، ولكنها كراهية من دون معرفة السبب، لأنه ليس هناك من سبب)، وعدم استطاعتي الرحيل وحتى لا أُحدث القطيعة مع أوغستان الذي أشعر أنه شديد التعاسة. لكن هذا الدور الذي عليّ أن ألعبه ليس بسبب الخوف أبداً، لأن عدواً مماثلاً وكراهيته الخرقاء لا يمكنهما إلا أن يجعلاني أبتسم، ولكن حتى لا أنهي الشخص الآخر، وحتى لا أقيم وصفاً للحال مستحيلاً تماماً - يصيبني بالنفور والتقزز.

في النهاية هي محنة أخرى، ولا يتعيّن الاستعلاء على المحن التي يرسلها الله. ستكون هذه المحنة قصيرة لحسن الحظ!

السبت ٢٤ آب/ أغسطس ١٩٠١، الساعة العاشرة ليلاً.

وأخيراً، استجاب الله والجيلاني لطلباتي، فبعد الخبر السيئ أمس، أتى العقيد شخصياً ليخبرني بأن التبديل قد تم فعلاً. بعد ثلاثة أيام سيكون زويزو هنا بكل تأكيد ما دمنا قد حظينا بحماية العقيد.

يا للأقدار البشرية المتعذر سَبْرها! ويا للطرقات المجهولة التي يأخذ الله إليها الخلق !

ليس لي أي دلال معك يا بوعلام!

معاذ الله أن أخاف وقد جعلتك خلف كتفي.

لم يتخليا أبداً عنا، لأنهما يقرآن القلوب، ويعلمان بأن قلبينا صافيان. سيتمان فضلهما في ما يتبقى عمله إن شاء الله!

الإثنين ٢٦ آب/ أغسطس، الساعة الحادية عشرة صباحاً.

أمس بعد التوعك المضطرب للأيام الأخيرة، تجاوزت تلك الأزمة الغريبة... ولما كنت أعاني من الإسهال مع وجع في كليتيّ فقد استلقيت في فترة بعد الظهر. وحوالي الساعة الرابعة ألمّ وجع برأسي أخذ يزداد عنفاً أعقبته حُمّى شديدة. كنت فريسة لذلك الهذيان الواعي والمنهك بشكل فظيع. وإذن! تركاني وحيدة في المنزل حتى الساعة العاشرة من دون مساعدة... حتى أنهما عند عودتهما لم يدخلا لرؤية ما كان يحدث... هذا ما يميز ذينك الشخصين، قسوتهما وأنانيتهما الضارية ولامبالاتهما! أخيراً لم يتبق بفضل الله إلا يومان في هذه الحياة الفظيعة، وهذا البؤس الشنيع.

فكرت أني الآن مثل الجنود في الرسومات المزينة لجدران البرج، وقلت وأنا أحك يدي، مطلقة على الأقل زفرة ارتياح: هذا ينسحب على الأقل! ليس هناك إلا يومان لجرهما! كم يغدو الوقت طويلاً عندما لا يكون لدينا، ولو مؤقتاً، من هدف آخر سوى جر الأيام وقتلها مهما كلف ذلك من ثمن!

أنا ضعيفة اليوم ومرهقة ومحطمة. مازلت مصابة بالإسهال وألم الكليتين هذا إذا لم تعدني الحمى هذا المساء! لا يهم، في الحقيقة سواء أكانت هناك رعاية أم لا، ليس هناك ما يجعلني أنتظر، أما بخصوص تسوّلها فلن أقوم بذلك اليوم مثل البارحة ليلاً. لو أني أستطيع أن أصمد على الأقل حتى يوم الخميس! فهناك، سيعالجني زويزو، وسيواسيني وكل شيء سيمضي للأحسن.

... فكرة أخرى (أفكاري لا تنتهي): وعلى باب هذه الغرفة يمكنني أن أكتب وسيكون ذلك حقيقة هريسة عدن. آه، كلا، لن تترك لي هذه الغرفة أي ذكرى طيبة. كان وهماً خالصاً وقصيراً ذات مساء، هذا ما دوّنته أعلاه.

غير أني أتصور أن صحتي استسلمت للألم. أنا واثقة أنه إذا ما كان لهذه الحياة الشاقة أن تمتد فسأسقط صريعة المرض على نحو خطير. ومن يدري كيف سينتهي الوضع الحالي؟ أنا متأكدة أني لم أحس أبداً شيئاً مماثلاً، باستثناء بداية الأمراض الخطيرة، الأنفلوانزا واليرقان والحصبة. ولربما الشيء الأفضل اليوم هو انتصار مؤقت لصحتي الصلبة؟ لكني لا أعتقد ذلك. أتمنى فقط أن أصمد هذين اليومين المتبقيين لي لجرهما.

هذا المساء، وإذا لم أكن مريضة، عليّ الذهاب لرؤية غرفة الفندق لأنه يتعين البحث غداً عن الحمّال سليمان وإسماعيل.

الثلاثاء ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٠١، منتصف النهار.

منذ مدة طويلة لم أكن بمثل هدوء اليوم. ريح شمالية قوية، وجو رائع لفصل الخريف. الطقس صاف وشفاف. الجو منعش، والشمس مشرقة، وغداً سأرحل عن هذا المنزل.

ومن أجل تلخيص كل شيء أصفح عن كل شيء، وله وحده أن يحكم. قمت وسأقوم حتى النهاية بواجبي الإنساني اتجاه تلك التي ما عادت موجودة. كانت لي أخطاء اتجاهها واتجاه فافا. أخطاء عفوية بكل تأكيد، لكن ينبغي التكفير عنها بالمضي باستقامة، وبفعل الخير من أجل الخير، ومن أجلهما، وليس من أجل امتنان هذين اللذين سأقوم بذلك من أجلهما. سيفهمني سليمان بكل تأكيد، وسيوافق على رأيي. لا شيء أجمل من الحصول على روح هادئة، والإحساس بأننا نتصرف على نحو كريم حتى اتجاه العميان!

وأخيراً، عاد بعض الهدوء إلى حياتي وإلى روحي. وماتزال هناك قضايا ينبغي حلها، وبالتحديد قضية الزواج، التي أضحت صعبة فقط بسبب مسألة المال. لكن بالنظر إلى الحماية الحتمية للعقيد أتمنى أن يمر كل شيء على نحو جيد...

إضافة إلى ذلك لم يتخل عنا الجيلاني من قبل، ولن يفعل ذلك في المستقبل لأننا سنبقى خادميه النزيهين والكريمين والوفيين.

لكن كم من سحابة انزاحت من أفقنا! وعلى الخصوص، وإذا لم يفرقنا الله بالموت، فعهد الفراق انتهى فعلاً، وأضحى نهائياً.

٢٧ آب/ أغسطس، مساء، ترك منزل أوغستان.

الساعة الرابعة كنت في رصيف جوليت. وصل زويزو بواسطة فيل دو وهران[١] يوم الثامن والعشرين من شهر آب/ أغسطس ١٩٠١ الساعة الثامنة والنصف صباحاً. جو جميل وصاف، ورياح قوية...

الفاتح من شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠١، الساعة الثالثة (ليلاً).

٦٧ شارع غرينيون

مضى شهر منذ كتابة السطور الأخيرة. تغير كل شيء بالتأكيد، فزويزو هنا إلى جواري، وصحته لم تتلف مثلما كنت أخشى. نحن وحيدان ويسود منزلنا شعور لذيذ! وزواجنا ليس إلا مسألة أيام. وبيعت الفيلا.

يا للفيلا الجديدة المسكينة العزيزة، والتي لن أدخلها بكل تأكيد أبداً، بل من المحتمل جداً ألا أراها أبداً!

ومنذ الأمس، التاريخ الذي علمت فيه بأن المنزل قد بيع يوم السابع والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر، عادت ذكريات ذلك المكان لتسكنني.

انتهت هذه المرة إلى الأبد حكاية العيش هناك، والتي كانت أول فكرة من أفكاري في هذه الدنيا! تفرّق كل شيء، وانتهى ودفن. وبعد أيام قليلة حتى الأثاث العتيق نفسه، الشواهد الفاقدة للحياة على الماضي، سيباع بالمزاد مفرّقاً... أما نحن فقد أخذت روابطنا المعنوية تزداد التحاماً يوماً بعد يوم، وبعد الأشهر الخمسة المتبقية للمنفى، سنرحل إلى أبعد مكان ممكن في الجنوب، وهذه المرة إلى الأبد إن شاء الله.

رحمني الله وسمع لصلواتي، فقد أعطاني الرفيق المثالي الذي رغبت فيه كثيراً وبشدة، والذي لولاه لبقيت الحياة دوماً غير متناغمة ومحزنة.

حتى الآن نمرّ بمرحلة من الابتلاءات والبؤس، ولكنْ وحده مَن يتألم حتى النهاية هو مَن تكتب له النجاة.

---

(١) مدينة وهران. المترجم.

اللّه وحده يعلم أين يوجهنا، ولذلك ينبغي الرضوخ ومواجهة المحنة بشجاعة، وبإدارك صارم أن حياتنا الأرضية ليست إلا توجيهاً نحو وجهات أخرى مجهولة.

مرت سنة منذ خريف صوف المشرق والحنيني... هناك تنسلخ أشجار النخل من أكفانها الترابية، والسماء مشرقة وصافية فوق الكثيب المتألق والسبخات الحمراء لديبيلا...

ونحن، نحن هنا، في هذه المدينة المقيتة والمقززة والعابسة حيث كل شيء حزين وكئيب!

مرسيليا، ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠١، الساعة الثامنة ليلاً.

منذ أيام، أعبر، أو بالأحرى، وهو شيء فريد، نعبر مرحلة من الحزن العميق، ليس كئيباً، ولكنه غامض. وبدأ لديّ هذا الإحساس الذي يحدثونني عنه هذه الأيام: حدس الرحيل. الله أعلم!

فذكريات صوف، والحب الحي والعميق الذي يغفو داخلي لبلد الاختيار، كل هذا يسكن قلبي بطريقة مؤلمة ولذيذة في الآن نفسه... ويكفي سماع أصوات الأبواق بالصدفة لإيقاظ عالم كامل من الأحاسيس في روحي التي تبدو غافية.

الانشغالات الكبرى بالماوراء هي التي جعلتني أحلم كثيراً في الماضي، في ساعات الليل الطويلة للتأمل الصامت، مستندة إلى نافذة غرفتي، التي تُرى من خلالها السماء الرحبة لذلك المكان البعيد، أو النتوءات الثلجية عادة للجورا، والأشجار الكبيرة المتجمعة في كتل سوداء مظللة حيث يبرز الطيف الهائل لشجرة الحور العتيقة في الضيعة.

وفي غيضة الليلك المليئة بالظل، والغارقة بالورود، كانت هناك في كل ليالي فصل الربيع أعداد لا تحصى من العنادل التي يملأ شدوها روحي بثقل غريب... والشيء الغريب هو أنه كانت تحدث في روحي بصفة خاصة خلال طفولتي تداعيات غريبة للأفكار والأحاسيس والذكريات...

وهكذا ترتبط لديّ ذكريات الليلك المزهر الخريفية دوماً بذكريات الليالي الواضحة والصافية لفترة ما بعد المطر... والتي تعقبها ليال فاترة معطرة، وما لا يحصى من الشدو...

يعاودني كل ذلك في هذه الحياة المتقلبة والرتيبة لهذا اليوم.

أخيراً، ولأول مرة منذ وفاة والديّ العزيزين، أي منذ دخولي الحياة الواعية أجسّد أناي بعض الشيء، ولديّ واجب أتمّه خارج نفسي. وهذا يكفي من أجل تعظيم هذه الأيام، التي هي مشوّهة من دون ذلك، وهذه الحياة التي تبدو من دون سحر والتي أجرها منذ خمسة أشهر طويلة في مدينة المنفى هذه، حيث لا شيء يشدني، وحيث كل شيء غريب عني وكريه... تماماً مثل السُّوقة، ليس سُوقة الرعاع فقط، ولكن حتى تلك التي تلمع ذكاءً وتقدماً، وتكره كل ما لا ينبغي أمام متطلباتها وقوانينها الغبية والتعسفية! وتماماً مثلما تهيج العامة، وعندما ترى كائناً ينبثق، امرأة على الخصوص، يريد أن يكون هو نفسه، وألا يشبهها! ومثلما يغتاظ الابتذال لعدم استطاعته أن يدوس كل شيء، وأن يهدّ كل شيء حتى مستواه الأخرق والوضيع!

أكتشف الآن قدرة بداخلي، ما كنت أشك في وجودها، قدرة إنشاء باحات، وعلى الخصوص باحات تاريخية مع مناظر عامة لا يعوزها الاتساع.

... ليست السيدة باشكوف من طبيعة تبهج وتأسر، فهي خليط فريد، ولكنه خليط فيه الكثير من الأنانية غير المدركة، والكثير من الزهو والكلفة الثقافية، والحركية الروسية وعلى الخصوص الاجتماعية.

وكراهية الجدال مع العامة أمر فطري بالنسبة لي، وهكذا فإني أرتدي لباسها حتى لا تكون لي أية قضية مع العامة. ومع ذلك، وأثناء النقاش يستحيل، وسيكون مستحيلاً على الدوام، أن أقول بعنف ما أقدّر أنه صحيح وصواب.

فعدم الاكتراث الاجتماعي والعصري لم يوجد أبداً لإجباري على التغيير، وهذا الصدق على الأقل في الكراهية هو فرصة للخلاص المعنوي.

والمأساة الأكثر فظاعة التي يمكنها أن تصيب الكائن البشري هي السقوط في العدمية المعنوية الكئيبة لشخص مثل نيقولا ستافروغين أو في الهوان الأناني للمثقف، تماماً مثل أوغستان. والحقيقة أن هذا الهاجس الثابت والواقعي للأشياء التي لا تمتّ لذواتنا بصلة، والتي لا تجلب لنا أي شيء من الناحية المادية هو في الحقيقة ما يعظّم وما يلطّف الروح، وهو ما يجعلها أكبر من الابتذال والصغائر المحيطة.

أشعر الآن، أكثر من أي وقت مضى، بأني لن أتحمل أبداً الحياة الساكنة وبأن

الانجذاب إلى الهناك المشرق سيسكنني دوماً... المكان الوحيد حيث سأرضى بإنهاء حياتي فيه هو الواد، حتى أني لا أريد العودة إلى هناك إلا لأبقى إلى الأبد...

٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٠، الساعة الواحدة ليلاً.

حزن هادئ اليوم، والرغبة في الرحيل والفرار من هذه الغرفة، ومن هذه المدينة، وكل أولئك الذين يقيمون بها... لأن الوحيد من بينهم والذي سنأسف عليه سيكون بكل تأكيد ف...

يبدو لي أكثر فأكثر أن الأيام الأخيرة لمنفانا هنا هي ما نمر به الآن... فليجعلها الله كذلك، ذلك أن الكابوس المرسيلي دام أكثر مما ينبغي!

وما يمتعني هو أن ويحا بدأ يدخل أيضاً أكثر فأكثر ذلك المجال المخفي من المشاعر والأفكار حيث لم أعد من الآن وحيدة هناك، وبطبيعة الحال عليه في يوم من الأيام هو أيضاً أن يحفظ كل هذه الأشياء الغامضة جداً، والتي هي بواطن الحياة، والتي هي متعذرة على الشخص العامي.

هكذا، هو ذا دليل آخر على كل ما أخذ يتأكد، فقد كان الرفيق الفعلي الذي قُدّر لي دوماً... وأي غموض يتعذر سبره يغلّف حيواتنا الأرضية حيث على امتداد عشر، وعشرين، وخمس وعشرين سنة تطارد أقدارنا بعضها بعضاً بعيدة إحداها عن الأخرى من دون حتى أن يشك أحدنا بوجود الآخر في هذا العالم. ومع ذلك نأمل في إيجاد الرفيق الضروري الذي من دونه تستحيل أية سعادة أرضية، بل إن ذلك ضروري حتى للطبيعة... ثم حدث، وفقاً لمساعدة الظروف التي تبدو في الظاهر طارئة تماماً، لقاء الواد ذاك...

لا ريب في أنه شديد الغرابة في حد ذاته. ففي يوم التاسع عشر من شهر حزيران/ يونيو سنة ١٩٠٠ بجنيف بدأ قدري يخرج من ظله ويظهر لي. حدث ذلك في غرفة الأم بونس القذرة والحزينة. كتبت أحد فصول قصة رحيل، وفجأة رأيت فكرة الذهاب إلى ورقلة تنبثق في روحي! كانت تلك الفكرة بداية كل شيء!

آه! لو نستطيع في أي لحظة من حياتنا أن نقدّر الأهمية القصوى لبعض الأفكار، ولبعض الأعمال وحتى لبعض الأقوال، التي تبدو في الظاهر تافهة وغير مبالية! ألسنا

نذهب أبداً بأمثلة مماثلة إلى خلاصة مفادها أن ليس في الحياة البشرية أبداً لحظات لامبالاة، ومن دون نتائج في المستقبل.

وفي سياق آخر للأفكار، ولما كنت أدرس صحبة ويحا تاريخ قرطاج، صدمت للتشابه القائم بين قرطاج العتيقة والقاسية وإنجلترا الحديثة حيث الجشع والكراهية واحتقار الغريب والأنانية غير المحدودة والتي لا تقهر... هل يكون هذا مصير كل القوى البحرية الكبرى، أي تلك التي تمتلك الهندسة البحرية، وليست تلك التي كانت قوية وتجارية على البحر على نحو طارئ، ولزمن قصير نسبياً، مثل إسبانيا على سبيل المثال؟

ومن أجل إكمال تطوري الثقافي، وحتى أفتح لنفسي آفاقاً أكثر اتساعاً يتعيّن توفر الإمكانية للقيام بدراسات تاريخية جادة في الوقت الحاضر. للأسف، فحسابات البقال وكمبيالات الخياط أتت لتأخذ مني الوقت الثمين الذي أردت تكريسه للفكر!

لا شيء أكثر بعثاً على اليأس، ولا شيء يسبب النفور والملل مثل العيش مع السُّوقة، مع أشخاص كل ما يشغلهم ابتذال الحياة اليومية... وبالنسبة لي على الأقل لا شيء يثير الملكات العالية مثل ذلك...

السبت ٣٠ تشرين الثاني/ نونبر ١٩٠١، الساعة الثالثة ليلاً.

تمضي الأيام رتيبة وحزينة في الانشغالات العادية والمملة التي تتسبب لنا فيها الوضعية المعقدة التي نوجد عليها منذ سنة، والتي تزداد حدة في الوقت الحاضر.

الجو شديد البرودة، وليس لنا من التدفئة إلا الخشب الذي نُمنحه إحساناً... اهتمام من طرف م... ألا لعنة الله على الكافرين وعقولهم! مثلما قال سليمان.

إلامَ تصير كل هذه الورطة التي نغوص فيها هاهنا؟

وبكل تأكيد، وإذا ما تحرّرنا من ديوننا الرئيسية، وإذا ما أرسل الصديق أوجين مئة فرنك أيضاً، سنرحل على الفور إلى بون، وسنبقى هناك وقتاً غير محدود. متى نتمكن من الوصول إلى الجزائر؟ الله وحده يعلم!

ومع ذلك، فوسط كل هذا الملل، ووسط كل المعاناة المادية والمعنوية في الوقت الحاضر، هناك حقيقة تسعدني كثيراً، ذلك أن روح زويزو تدنو أكثر فأكثر من

روحي[1]. فالرفيق الذي بحثت عنه وجدته أخيراً، فليبق كذلك بقدر ما تدوم الحياة الأرضية!

نعيش في غمرة ضباب الشك وفي خضم العتمات أكثر من أي وقت مضى، ومع ذلك يلوح في الأفق أملٌ مشعّ: العودة القريبة والنهائية حتماً إلى بلد الاختيار.

مررت بمرحلة من الملل وهيجان الشك المتزايد حيث نتخبط. أما الآن فاسترخاء وتعب كبير. ومع ذلك يبدو كأننا أنقذنا ولم يعد أمر العودة إلى أفريقيا إلا مسألة أيام.

وقبل ذلك، ستكون عودة حزينة وسريعة كما لو أنها عابرة إلى جنيف.

الثلاثاء ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٠١، بون.

تركت مرسيليا يوم الرابع عشر من شهر كانون الثاني/يناير الساعة الخامسة مساءً على متن ديك دو بريغانس. وصلنا إلى بون يوم الخامس عشر منه الساعة الثامنة ليلاً.

وأخيراً، تحقق حلم العودة من المنفى، وها نحن أولاء مرة أخرى، عدنا إلى الشمس الأبدية الصفراء والمشرقة الكبيرة على الأرض المحبوبة، في مواجهة الزرقة الهامسة حيث الامتدادات المقفرة تذكرني مساءً بامتدادات الصحراء الأكثر قرباً الآن، والتي تبعد مسير يوم من هنا، وبمساعدة الله والجيلاني، سنراها خلال هذه السنة التي بدأت على نحو مواسٍ!

فلتكن هذه السنة بداية الحياة الجديدة، والهدوء الذي رغبت فيه بشدة وأستحقه كثيراً!

بون، ٢٩ كانون الثاني/يناير، يوم الأربعاء، الساعة الحادية عشرة صباحاً.

بدأت الحياة في الهواء الطلق، وبساطة الأشياء المحيطة تعيد لي القوى التي أنهيت فقدها على امتداد المنفى الطويل والمؤلم في مرسيليا. ثم إن المثقف استيقظ أيضاً وأظن أني سأكتب ها هنا.

وحدها فكرة أن البحر الأبيض المتوسط الكبير يفصلنا عن نار جهنم، مرسيليا

---

(١) أخي إيف: «... أدركت هذه الليلة أن له من طباعي وأفكاري أكثر مما تصورت، ومشاعر تشبه مشاعري.» ملاحظة إيزابيل إبرهارت. الأصل.

الملعونة ثلاث مرات، حيث عانينا كثيراً، وحدها هذه الفكرة تمنحني إحساساً مادياً بالراحة والارتياح العارم.

خلال واحد وعشرين يوماً سينتهي أيضاً الأسر والضيق الذي تسببه الروابط التي ما تزال تجمع زويزو بالخدمة العسكرية، وتجبره على أن يُعدّ مع الدخلاء. وفي ما بعد علينا أن نتدبر أمرنا، وقد أُطلقنا وحدنا وسط الكون الرائع الشاسع المتغير حيث يكون فاتناً تارة، ومخيباً تارة أخرى...

وما كانت هذه السنوات القليلة من الحياة الأرضية لتجعلني أخاف أبداً، ما عدا احتمال فقدان رفيق طريقي، وأن أبقى وحيدة، وهو يعتقد بأن له ما يكفي من المهارة لتدبير شؤوننا المادية على نحو إيجابي، بالمعنى الذي أقصد به هذه الكلمة.

ومن الناحية المعنوية ثمة رضوخ مطلق تقريباً وهدوء نسبي يعود الفضل الكبير فيه، وأنا أكرر ذلك، إلى العوامل المادية. وحتى اللحظة ليست لي أية رغبة في الاختلاط بحياة الرجال، أو أن أعيش مرة أخرى الحياة المدنية، فالعزلة التي أنعم بها تفتنني وتجذبني.

... في ذلك المساء، ذهبنا وحيدين للقاء علي بوطريف عند جسر القصبة، حيث طلع البدر على البحر الهادئ. كانت لحظة مليئة بالأسرار وبالحزن الغامض. مشاعر مشابهة لتلك التي كنت أشعر بها أحياناً من قبل في الجنوب، أمام المناظر الغامضة هناك، في منطقة السبخات وفي واد رير المالح. توقفنا عند منعرج الطريق المؤدية إلى المقبرة.

وتحت السماء الزرقاء المضاءة على نحو مشوش كان البحر يمتد بلون غير محدد بين الأزرق الفضي والرمادي الكتاني.

فالجسر الصوفي للأسطورة السلافية، المحوك بالأشعة القمرية من أجل جنيات الليالي الصامتة، كان يرتعش قليلاً بلون ذهبي في عمق المياه المضطرب. وأتت غمامة لتتوقف كرقعة ضاربة إلى اللون الرمادي بين القمر والمياه التي شاطرتها ظلها الأشبه بكثيب منخفض يمتد كأنه أنفا جبل يخرجان من البحر ويفصل البحر إلى جزءين، أحدهما شاسع جداً وأزرق جداً ومضاء جداً بينما يفتح الآخر على الأفق الفارغ والمضطرب بلون رمادي داكن ومبخر، وحيث يطفو مركب صيد بشراع مثلث

من دون انعكاس في الماء المضبّب بلا حركة وكأنه مركب شبح سينتهي بالانزلاق خفية ويختفي في عالم الأبخرة البعيدة.

١٤ شباط/ فبراير ١٩٠٢، الساعة الثالثة ليلاً.

مر شهر على رحيلنا من جحيم مرسيليا، وكل شيء يمضي منحرفاً بسبب الدسائس المغربية الدائمة.

وهنا، كما في أي مكان آخر، أدركت عدم استقرار مزاج سليمان، والتأخير المؤذي الذي تمارسه عليه الأوساط حيث يعيش. هل سيتغير هذا في يوم من الأيام؟ أجهل ذلك. وفي كل الأحوال، وإضافة إلى طبعه، أضحت حياة البؤس التي وصلنا إليها صعبة جداً.

يجدر بنا الذهاب وبدء حياة من الحرمان والضيق في الجزائر - حيث سيكون البقاء هناك أقل فظاعة من مرسيليا - بدلاً من البقاء هنا حيث الكرم مشوب بالإذلال ونقاشات لا تنتهي.

تستيقظ الروح الأدبية داخلي، وسأحرص على الأقل أن أصنع لنفسي اسماً في الصحافة الجزائرية، في انتظار فعل شيء مماثل في صحافة باريس التي وحدها تستحق أن أنشغل بها، والوحيدة التي يمكنها أن تخلق لي سمعة.

ومن أجل كل ذلك لا بدّ من الهدوء المطلق بعض الوقت، والانعزال تقريباً. وينبغي أيضاً إيجاد شخص في الجزائر يمكنه أن يُعلّم سليمان ما لا يعلمه. هناك عمل كثير في الانتظار، وبهذه الطريقة يمكنني أن أتخلص من كل الهموم التي ترهقني والتي تمنعني من العمل. وسيدبر الله ذلك!

أضحى ملل وتمزق الحياة اليومية غير ذي أهمية أكثر مما مضى. وأصاب البرود نفسي اتجاه كل شيء، واتجاه الجميع. ما أريده فقط هو الهرب مهما كلفني ذلك من ثمن من الخصومات والصراخ لأنها أشياء لا تحتمل من الناحية المادية.

وإذا ما نجحنا اليوم أو غداً في الفرار إلى كاريزا فلن ننهي هذه الأيام التي يتعين علينا قضاؤها هاهنا بهدوء فقط، بل بروعة أيضاً.

ومرة أخرى سأذهب لوداع القبر الأبيض في التلة الخضراء التي زينها فصل الربيع المثمل، ثم سنذهب إلى مكان بعيد نلاحق قدرنا المتغير والمضطرب.

هناك في الجزائر بعض الذكريات الغامضة، التي تعود إلى ما يقارب السنتين، والتي مهدت لملحمة صوف. وما سيكون في ما بعد الله أعلم به!

الذهاب من الجزائر في عربة مراسلات الجنوب، يوم الثاني عشر من شهر آذار/مارس سنة ١٩٠٢ الساعة السادسة والربع صباحاً. جو جميل وصاف. الحالة النفسية جيدة وهادئة. صعود مرهق وطويل لمنخفضات الساحل، بير مانديس وبير قديم وبير توتة وبوفريق وبني مريد. الوصول إلى البليدة بعد منتصف النهار بنصف ساعة. جلست في مقهى على شاطئ آرميس. الغداء عند موقف الإبدال، والذهاب في عربة مداح. سيدي مدني، والشعاب. جداول القردة. الفندق. سيل جميل وشعبة ضيقة. وبمحاذاة الطريق هناك العديد من الشلالات التي تمضي تحت الأرض، وفي الكيلومتر ٦٨ إلتقاء واد المريجة يساراً بواد الناظور إلى اليمين انحداراً من جبل الناظور. وفي الكيلومتر ٧٠ معسكر السلاسل ومنزل غابوي وضيعة صغيرة. رؤية أحد الجنود يحضر طعامه قرب البئر (رؤية صوف سوداء). تقاطع الطريق رقم ١ مع طريق تاكيتون. لوحة تذكارية لجيش إفريقيا سنة ١٨٥٥. في الكيلومتر ٧٤ مزرعة. في الكيلومتر ٧٥ جسر على واد زبوج. بقي الناظور يساراً ويصب الزبوج فيه قرب الجسر. وعند الكيلومتر ٦٧ اتسع الوادي. كثافة غار الزعتر المزهر عند التقاء الناظور والزبوج. وفي كل مكان ينمو السرخس بكميات كبيرة. وفي الكيلومتر ٧٦ أنقاض معمل جص. وفي الكيلومتر ٧٧ إبدال، والتوقف في مقهى نديلة المغربي. وتوقف بعيد بعض الشيء في الريش.

الوصول إلى مداح حوالي الساعة الثامنة والنصف. صعود شاق لخمسة كيلومترات مليئة بالخرابات الكبيرة. التوقف في المقهى المغربي. إرسال برقية إلى ويحا. التوقف في الساحة على مقعد، ثم في المقهى ـ المطعم التابع للمحطة.

الرحيل مجدداً بعربة بوغاري. غرداية الساعة العاشرة والنصف. الوصول إلى بئر ـ الرواغية الساعة الواحدة وخمساً وأربعين دقيقة صباحاً. النوم بفندق المسافرين. الاستيقاظ الساعة السابعة. جلست في المقهى المغربي رفقة أحد رجال الديرة. الذهاب على متن حصان الساعة الثامنة. في البداية كانت الطريق سالكة. المرور قرب السجن المدني. ثم ممرات عربية تمضي إلى التلال المتفرقة عبر أودية تتخللها الجداول، والكثير من الأشجار. التوقف بإحدى الشعاب ذات الحمامات الحارو. مقهى مغربي. الاتجاه: الشمال الغربي. في الطريق المرابط الطيب، وفي البعيد طبلة

باتجاه اليمين. الوصول بعد منتصف النهار تقريباً بنصف ساعة. بني بويعقوب عند منتصف منحدر تلة مرتفعة عند سفح الجبل. وفي عمق الشعبة، وعلى الوادي، منزل القايد.

الإقامة حتى الساعة الثانية صباحاً. الرحيل مجدداً على متن بغل رفقة خادمين راكبين. الطريق: تلال مرتفعة، وشعاب، وأودية عميقة، وما لا يحصى من الوديان، وطرق مبللة تحولت إلى سيول. تخبّط في الوحل طوال الليل. ضللنا الطريق في العديد من المرات.

طلع النهار كامداً على تلة حزينة. غمام ممزق على الوادي الضيق والعميق وسط جبال زرقاء عالية نسبياً.

السير على القدمين بعض الوقت من أجل إراحة ساقيّ المخدرتين. الوصول إلى المقهى المغربي الواقع وسط أنقاض صخور كبيرة على منحدر التلة فوق دوار بائس. الوصول إلى حسن بن علي (لوفيردو) حوالي الساعة التاسعة صباحاً. تسريح الخادمين. قضاء النهار في مقهى البرانس المغربي. عند منتصف النهار، الاستيقاظ والذهاب في نزهة. بعض المنازل الأوروبية من الآجرّ المائل إلى الحمرة في مظهر بائس، على التلة المطلة على الوادي العميق في اتجاه بني بو يعقوب. وكأفق هناك جبال مرتفعة. شعور بالأسف والأسى. ملل وتعب كبير. جو مكفهر، ورياح شديدة، وبرد قارس. الساعة الثالثة والنصف كنت في المحطة، وأرسلت برقية إلى ويحا. أخذت التذكرة. مطر خفيف وبارد. التسكع على خط السكة الحديد الوحيد.

ركوب القطار الساعة الخامسة. تغيير في البليدة. النوم على مقعد. الإيقاظ من قبل أحد العمال. أخذ قطار ب.ل.ـ م. القادم من الدار المربعة. الوصول إلى الجزائر الساعة التاسعة وخمساً وثلاثين دقيقة ليلاً يوم الجمعة ١٤ آذار/ مارس.

إن الله لا يهدي القوم الفاسقين!

٣٠ آذار/ مارس ١٩٠٢.

الحالة الراهنة: نقص المال. نعتمد على السي محمد شريف لإنقاذنا ولضمان عيشنا خلال الأيام القليلة المتبقية. تمضي الأيام في العمل.

الذهاب يوم الخميس الماضي عند باريكون وفيلا المنظر الجميل. مصطفى.

شعور رائع. روح عصرية، رقيقة وبارعة لكنها خاضعة لأفكار قديمة. كنت في شارع حصن المدية في معمل السيدة ليس بن آبين. الشعور ببعض المتعة لهذه المحادثة مع المثقفين، شعور منسي منذ فترة طويلة.

يكتب الرجل الكريم بقلم الرصاص عن الشر الذي تسبب له الآخرون فيه، ويكتب بالمداد الخير الذي صنعه الآخرون له.

«إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!» لتقارن مع فكرة مارك أوريل (أفكار).

الفاتح من شهر نيسان/ أبريل ١٩٠٢، الساعة التاسعة ليلاً.

نحن دوماً في العمل، المثبط بكثرته وبضيق الوقت، وكم هو قليل! والذي تبقّى لنا من أجل هذه الدراسات المتأخرة التي أضحت مضنية الآن. يتعين الآن القيام بمجهود كبير. وما يزعج هو تنوع المواد وتعدد المواضيع. في النهاية فليسّر الله!

في هذه الأيام الأخيرة حماسة عفوية وصادقة اتجاه العزيزة المسكينة بوبوفا. الله وحده يعلم إن كنت سأراها مجدداً! هي شخصية صافية ونبيلة، ولربما كانت بالنسبة لي المحرض على كل حركة السموّ الروحي، الذي يعود إلى إقامتي بجنيف سنة ١٩٠٠ قبل رحيلي إلى الواد. آه، لو أحظى بها ها هنا قربنا، قوية جداً، وطيبة جداً، ومليئة جداً بالحياة وبالطاقة في لحظات المعاناة والملل والشك!

ومع ذلك فحين أنظر إليها عن قرب عليّ الاعتراف بأن حياتنا الحالية كطالبين فقيرين من دون فلس واحد هي الحياة التي حلمت بها في الماضي أيام الرخاء.

لم أخمّن حينها بكل تأكيد العذابات والهموم والعجز الأليم، ولم أكن أدرك على الخصوص الصبر البطيء والطويل والأكثر صعوبة بالنظر إلى طبيعتي. كان جهداً فوق ما يتحمّله البشر تقريباً، لكنه سريع، وتم دفعة واحدة، وهكذا لم يبد لي صعباً. غير أن هذا التلاحق المستمر الذي لا ينتهي للجهود الصغيرة التي لا تكاد تدرك، ومن دون نتيجة آنية، ومن دون تقدير. وفي توالي هذا الصراع مع نفسي، ضد ميولي وأمانيّ ورغباتي وحاجاتي الأكثر شرعية، يكمن الامتحان الأكثر قسوة، والأكثر ألماً بالنظر إلى طبيعتي.

في الحالة الراهنة ما يزال ينبغي توفر الشجاعة لشيئين سنضيع من دونهما بكل تأكيد، ذلك أنه يتعيّن مواجهة أكثر الأوضاع سواداً، ورفع معنويات زويزو... وإعادة الأمل والشجاعة إليه. ومع ذلك بدأت أعتاد على توقع الأشياء بكل برود، ولكن بأمل لا يتغير، وأضحى إيماني بالله والجيلاني أكثر قوة في أشد الأوضاع خطورة.

قال لي باريكون ذلك اليوم: «... في الحياة عقد في الخيوط التي نتبعها، وإذا ما استطعنا تجاوز تلك العقد سنجد في بعض الأحيان واجهة موحدة وملساء... حتى العقدة الأخيرة. العقدة المستعصية، التي يأتي الموت لحلها...»

... يبدو لي من المستحيل أن تتمكن الروح البشرية فعلاً وصدقاً من أن تتمثل الموت، كتوقف حقيقي ومطلق عن الحياة. وبالنسبة لي أعتقد بأني أُحسّ في داخلي يقيناً بالخلود.

ومع ذلك لو كان الموت فعلاً الفناء المطلق فلن يكون مرعباً. أستغفر الله العظيم. وفي المجمل، ألا يوجد معظم الألم في رعب الذكريات التي نحتفظ بها، أي في وعينا؟ ... فالمزيد من الوعي يعني المزيد من الذكريات، وهو ما يعني مزيداً من الألم تقريباً...

«لا يتعلق الأمر بالحياة بل بالرحيل». (الماريشال موريس دو ساكس)

الجزائر، ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٠٢.

١٧، شارع السودان

هذا المساء، وعلى نحو استثنائي، لا عمل. حظيت بلحظة من التأمل، وقرأت نادسون، الإنجيل العتيق لأيامي الأكثر شباباً والأكثر سعادة بعد ترجمة المسيحية للعزيزة الطيبة السيدة بن آبين.

أعتقد بأن فصل الربيع يبدأ هناك في البعيد، على ضفاف الرون الأزرق، وعند سفح الجورا الذي مايزال مكسواً بالثلوج. وهناك أوراق دقيقة معطرة تنثر ضباباً على الأشجار، وحيث تنمو الأزهار الأولى في البلاط المحصى للفيلا الجديدة تحت ظل أشجار التنوب الكبيرة، وعلى ضريحيْ مقبرة فرنيي...

وهذه السنة شبيهة نوعاً ما بفصول الربيع الماضية، والطبيعة الغامضة التي تعود

للحياة... غير أني لست هناك لأحلم ولأتألم... وغرق فافا ووالدتي وفولود في عتمات المجهول الكبير!... كل شيء انتهى وهُدّم وحُطّم...

الجزائر، ٤ أيار/مايو ١٩٠٢، حوالي الساعة العاشرة ليلاً.

هذا اليوم زيارة ساحر يستقر في محل صغير شارع عال عبر أدراج شارع الشيطان المعتمة. حصلت على الدليل القاطع على حقيقة علم السحر غير المفهوم والغامض... أية آفاق واسعة ومعتمة في آن فتحتها هذه الحقيقة لروحي، وأية راحة أيضاً تخفق بقوة في مواجهة الألم!

في هذه الأيام عدت لألفي مجدداً حالتي الروحية الهادئة والحنينية التي خبرتها في الماضي. والجزائر بالتحديد، وبعض أحيائها على الخصوص، هي إحدى المدن التي تلهمني. ويعجبني الحي الذي نقطن به، ويعجبني بيتنا أيضاً بعد الحجرة الصغيرة والرهيبة في شارع لامارين. وبكل تأكيد فأنا هنا، من دون العمل المرهق والممل والدائم، ومن دون الهموم والمخاوف المتعلقة بوضعنا الحالي، سأحظى ببعض أيام السلام والتأمل والعمل المثمر.

كيف يمكن للبلداء الكثر في «العالم» وفي الأدب أن يقولوا بأنه لم يبق في الجزائر أي شيء عربي؟ بينما خبرت فيها، أنا التي رأيت مدناً أخرى، بعض انطباعات الشرق الأكثر صفاءً!

أحد تلك الانطباعات اللطيفة جداً هو رؤية المغرب في الميناء، وفي أسطح المدينة العالية حيث الجزائريات المبتهجات، عالم بأكمله يطفو باللون الزهري أو الأخضر على الأبيض المشوب بالزرقة للأسطح الوعرة وغير المتناسقة: يكتشف كل هذا من النافذة الصغيرة ذات المشربية لمنزل السيدة بن آبين.

وخليج الجزائر مع خليج بون، الأكثر جمالاً، وأكثر أماكن البحر إثارة للنشوة اللذيذة والذي لم أر شبيهاً له أبداً في حياتي.

ما أبعدنا هنا عن مرسيليا الكريهة ببشاعتها وحماقاتها وفظاظاتها وقذاراتها المعنوية والمادية!

وعلى الرغم من الوحل الذي أقحمته هنا «الحضارة» العاهرة والمتسببة في العهر، لا تزال الجزائر بلداً لطيفاً، ومن اللطيف جداً العيش فيه.

ومع ذلك، تسببت رؤية جثة زهيرة امرأة القبايل تلك، التي ألقت نفسها حديثاً في بئر بممر المدية فراراً من زواج مقيت، والتي حُملت على نقالة غطيت بنسيج رمادي سميك، في إلقاء ما يشبه حجاب من الحداد الثقيل والمعتم الذي يصعب وصفه على هذه الجزائر المتألقة ولأيام طويلة... أما الآن فقد مر كل ذلك... وحدها بعض المناطق المحيطة احتفظت بشيء من ذلك الظل، ولم أعد أحب المرور بها أبداً...

... وبقدر ما أدرس، على نحو سيئ جداً وسريع جداً، تاريخ إفريقيا الشمالية، بقدر ما أرى أن فكرتي كانت سليمة. فأرض إفريقيا تأكل وتبتلع كل ما هو معاد لها. ولعلها الأرض الموعودة التي سينبثق فيها ذات يوم النور الذي سيحيي العالم!

أتى مسنّ بمظهر مسالم سنة ١٨٣٠ إلى المعسكر الفرنسي إبّان الوصول إلى سيدي فرج عبر البحر. لم يقل إلا هذه الجملة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله!» ثم ذهب ولم يعد لرؤيتها أبداً.

حضر ذلك الرجل من أجل إعلان شيء لم يفهمه أحد... وكان ذلك خلود الإسلام على أرض إفريقيا الآسرة!

٨ حزيران/يونيو ١٩٠٢، الساعة الحادية عشرة والنصف.

تستمر الحياة رتيبة، غير أنها تفترّ عن ملامح مستقبلية وسط الاضطراب المعنوي الكبير الذي يكتنفني.

أمرّ مجدداً بمرحلة حضانة بطيئة وفي بعض الأحيان مؤلمة جداً. فنمط الحياة الرتيب وغير المستقر في آن الذي نعيشه يسهم كثيراً في دفع روحي إلى القيام بأبحاث غالباً ما تكون مضنية.

بدأت أدرك شخصية ذينك الشخصين اللذين ساعدانا هنا، باريكون والسيدة بن آبين، وهما طيبان ورقيقان جداً.

فباريكون منفعل بالفكر وبالإحساس على الخصوص، وهو عدمي الروح. أما في الحياة العملية فهو شخص إيجابي جداً ويعرف كيف يعيش.

والسيدة بن آبين هي بعد أمي نوع النساء الثاني الذي عرفته حيث طيبة الروح، وهي عاشقة لما هو مثالي. كم هما جاهلتان معاً في الحياة الواقعية! وحتى أنا، أنا

التي أملك القناعة الداخلية بأني لا أعرف كيف أعيش، أعرف كيف أفعل ذلك أكثر منهما.

انمحى أوغستان من حياتي. وعندي أن الأخ الذي أحببته كثيراً في الماضي قد مات. أما بخصوص الشخص الموجود في مرسيليا أو في مكان آخر، زوج جيني العاملة فهو غير موجود، ولا أفكر فيه إلاّ نادراً. فهو الذي تسبب بكل هذا، والمسنّ الذي لا ينسى كان هذه المرة أيضاً ذا بصيرة نافذة.

منذ أن عادت حرارة فصل الصيف الجيدة، ومنذ أن أخذ النور الساطع المحمي يتوهج كل يوم بالجزائر، استعدت فجأة وشيئاً فشيئاً أحاسيسي الإفريقية، وقريباً سأستعيدها تماماً، وعلى الخصوص إذا ما تمت الرحلة المزمع القيام بها إلى بوسعادة. . . آه، يا لتلك الرحلة! ستشكل عودة قصيرة، وإلا فإنها ستكون إلى الصحراء المتألقة، على الأقل في مكان قريب جداً، في بلد النخيل والشمس!

ملاحظات الجزائر

بقدر ما كان الجو بارداً كان الظل مثملاً وكئيباً تقريباً في الشوارع المعتمة للمدينة العالية المظلمة. والآن، وبفعل تعارض الظل والنور، ومجاورتهما لبعضهما على نحو عنيف، عاد المنظر ليغدو إفريقياً أو على الأقل عربياً على نحو مباغت.

كلا، فالمنظر الإفريقي ليس في أي من المدن الكبرى وعلى الخصوص مدن التل. ذلك أن المشهد الإفريقي فيها مضطرب والأفق بعيد. أما الطبيعة الإفريقية النموذجية فتتمثل في اتساع المكان وفراغه تحت ضوء متوهج! والهندسة المعمارية للجزائر لا تتماشى مع هذه القوانين. فهي عبارة عن تزاحم لمنازل تكدست بخوف داخل الممرات، وهي مدينة اعتادت على الحصار والاعتداءات. وبسبب ضيق المكان تدوس الطوابق فيها الشوارع، وتتجاوزها في كل مكان.

ثم إن الشارع في الجزائر تشوهه الحشود. ولو وجِد الصمت والظل في تلك الشوارع لكان لها سحرها.

فبالحشد المختلط، الحشد الصاخب على نحو بليد حيث العنصر العربي يمثل تقريباً بأفراد القبايل البشعين في «بذلات رومية»، تشبه تلك الأحياء أماكن سيئة وخطيرة.

وبالنسبة للأجنبي المدنّس، فالبرانس المتسخة الملقاة فوق الثياب الأوروبية، والشاشيات الباهتة من دون حشفات، والبربريات الكثيرات، تمثل اللون المحلي. وبالنسبة للعارف، فهنا تحديداً يؤخذ من الجزائر طابعها العربي لأن ذلك لا يتناسب والعادات العربية. إضافة إلى ذلك يلفي المدنس تيه الشوارع العتيقة للجزائر كشيء إفريقي جداً. فهو يعود للقرون الوسطى، أو لما هو تركي أو بربري أو أي شيء آخر، غير أنه ليس عربياً وعلى الخصوص ليس إفريقياً!

وفي المدن العربية فعلاً مثل قصور الجنوب يُدرَك بالفعل الغموض المؤثر والآسر لأرض إفريقيا، ويكمن في المساحة الكبيرة والمنازل المنخفضة الصغيرة الخربة وشديدة البياض حيث اللمسة نفسها لمساحة الجوار الغامضة، وفي نور المنزل حزنه الكئيب إجمالاً.

الجزائر فاسدة بسكانها الفاسدين. وحياة الشارع المتأملة تلك الحياة السعيدة الهادئة والخصبة، والتي أحبها كثيراً، مستحيلة فيها، وعلى الخصوص في الأحياء حيث تُرى الأشياء والكائنات جامدة...

صرت أكره أكثر فأكثر وبشكل شرس وأعمى الحشود، الأعداء الفطريين للعلم والفكر. هم الذين يمنعونني من العيش في الجزائر مثلما عشت في أماكن أخرى. آه كم هي قذرة ومؤذية وبليدة هذه الحضارة! لمَ حُملت ولُقّحت هنا؟ فهي ليست حضارة الذوق والفن والفكر، حضارة النخبة الأوروبية، ولكنها الحضارة الكريهة والمرعبة هناك، حيث ركامها الوضيع المزعج!

المسيلة، ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٠٢، الساعة الثانية صباحاً.

ذهبت إلى الجزائر أمس، يوم ٢٨ من شهر حزيران/يونيو الساعة السابعة وخمسين دقيقة صباحاً في جو غائم ومنذر... كانت الرحلة التي تمت من دون توقف تقريباً سريعة مثل حلم. واللحظة الأكثر لطفاً كانت حتى هذه اللحظة لحظة الرحلة من برج بوعريريج إلى المسيلة ليلة أمس، عندما كنت جاثمة في عربة بوغطار العتيقة.

أنا في غرفة صغيرة جداً بالفندق «من أجل انتظار العشاء»، والرحيل إلى بوسعادة. الحرارة خانقة. ومنذ أبواب الحديد لم تكف رياح الشلوق عن الهبوب. أضحى البلد يشبه حماماً مغربياً، وحجب السماء ضباب متأجج أحدثه الشهيلي.

تشبه المدينة هنا بسكرة الجديدة بحياتها النباتية، وبسكرة القديمة من ناحية المباني. نحن هنا في المسيلة الجديدة بينما المدينة القديمة عتيقة جداً. وهناك تعلو بعض أشجار النخيل الشعثاء مانحة إياها هيئات القصور خلف الوادي الصخري الذي يعبره جسر حديدي. ولسكانها هيئات أهل الجنوب.

وتمر الطريق من بوعريريج إلى المسيلة عبر مناطق منعزلة يابسة تارة، ومستنقعية تارة أخرى. وبمحاذاة الطريق يوجد في بعض الأحيان واد متعرج زُرع بغار الورود المزخرف بالأزهار، وتسود هناك الرطوبة ورائحة السبخة النفاذة.

وفي أماكن متفرقة توجد بعض القرى القديمة والخربة المشيدة بالطوب. وبعد منتصف الطريق مركز إبدال للبريد يمنح انطباعاً خادعاً ببرج صحراوي. وهو مبنى منخفض بزوايا مربعة له باب كبير ذو مصراعين. وفي الخلف سديم الواد الرطب، وعلى الطريق بعض المنازل وهناك أيضاً مقهى فرنسي: إنها ميدجيز.

ومن ميدجيز إلى المسيلة نمت كيفما اتفق على صندوق. وصلنا حوالي الساعة الثالثة صباحاً. جلست في المقهى المغربي. قمت بجولة رفقة فرج. الغداء في المسجد البارد والظليل حيث الذباب الكثير في الخارج أقل نسبياً. بعد ذلك عدت إلى هنا من أجل القيلولة.

وكالعادة تبدو لي هذه الرحلة وهذا الفراق المباغت مع ويحا كحلم... مسكين ويحا فهو من دون فلس واحد في ملل الجزائر الذي يزداد كل يوم! لو أستطيع فقط أن أحمل له معي من هذه الرحلة بعض الارتياح!

سأحاول أن أنام مجدداً، حتى لا أكون مرهقة هذه الليلة.

بوسعادة، الفاتح من شهر تموز/يوليو ١٩٠٢.

بعد صبيحة أمضيناها في نقاشات مع أفراد من سيدي حقين قضينا فترة بعد الظهر في بستان في ملكية الزاوية.

وكمدينة تقع بوسعادة في موقع رائع مثل بسكرة القديمة.

والمسيلة المدينة المشيدة بالطوب مقسمة إلى جزءين بواسطة واد ذي سرير عميق. وللمنازل ذات اللون الرمادي المائل إلى الحمرة هيئة القصور الخربة. وتضع بعض أشجار النخيل حداً للوهم. احتفظت من المسيلة برؤية شاعرية على نحو لطيف جداً.

كان الوقت مغرباً حين ذهبت وحيدة أنتظر السي امبارك قرب المسجد الواقع على ضفة الواد. وكانت الشمس تغرب في ضبابة من رياح الشلوق. وفي الواجهة، وخلف الواد الصخري ذي المياه الصافية، كانت المدينة العتيقة تأخذ هيئات صحراوية تماماً، بمرابطيها ذوي الأشكال الغريبة الشبيهة بمرابطي واد رير، وببساتينها المعتمة. وبعد توقف قصير في سرير الواد، خرجنا إلى السهل الفسيح، والأفق الشاسع الفارغ والهادئ. فرس الطاهر جادي ممتازة، لذلك لم أستطع مقاومة الرغبة بأن أجعلها تركض قليلاً. إحساس بالعودة إلى أيام الماضي الرائعة، أيام الحرية والسلام... برج الطلبة الذي وصلنا إليه عند حلول الليل هو مربع مشيد بالطوب وعلى هيئة بربرية معتمة. تناولنا عشاءنا في الصحراء المحيطة، أو بالأحرى، تناولنا عشاءنا الثاني في الخارج، مستندين إلى الجدار. ثم خرجت وحيدة في الظلمات التي تسود السهل، والملجأ الغريب، والمساكن المتداعية الخربة.

أمضيت ليلة سيئة البارحة حيث قرصتني البراغيث. وعندما رأيت القمر يصعد خلف الثكنة شاحباً وغارقاً في الضباب أيقظت الطلبة ورحلنا. مررنا في طرق عربية مختصرة عبر سعيدة وبانيو. ومن سعيدة لم نر في ظلمة ما قبل الفجر إلا ظلالاً سوداء لمنازل مشيدة بالطوب حزينة في الصحراء حيث لا شجرة ولا بستان.

وفي مكان بعيد، وعندما كان الطلبة يصلون صلاة الفجر، نمت على أرض السبخة التي تشكل الحد الغربي لهدنة. بعد ذلك تركنا السي علي الطالب رفقة ابنه ممتطياً الفرس الحمراء يتبعها ابنها وهو مهر صغير كُميت ولطيف يخب جوار أمه.

رحلنا وحيدين. بانيو عبارة عن برج مقام على أرض مرتفعة، وبعض المنازل المشيدة بالطوب، وممر من أشجار الحور.

شربت تحت ظل شجرة الطرفاء وعلى الرمال الصفراء قهوة مليئة بالذباب وماء عكراً.

وفي السبخة قبل بانيو هدّني التعب الذي سبّبته لي الفرس الرمادية التي أخذتها من برج الطلبة فنزلت وسرت بقدمين عاريتين لفترة طويلة.

بعد بانيو توقف في بير الهادي حيث منازل مهجورة مشيدة بالطوب. شربت في الطريق من قربة أحد الحمالين.

بدت بوسعادة وسط الجبال الضاربة إلى الزرقة بقصبتها على صخر، وبعض الكثبان الصغيرة شديدة الانخفاض والتي تبدو بيضاء من بعيد.

الوصول إلى بوسعادة. يمر الواد حول جزء من المدينة. من جهة بساتين واسعة مسورة بأسوار مشيدة بالطوب. وفي السرير غار الورود المزينة بالأزهار. ومن جهة أخرى، وفي مكان أكثر ارتفاعاً، منازل المدينة الطارئة والأصيلة والتي تتخللها أودية خضراء وبساتين، حيث تلقي الدفلى لمساتها الوردية الحية، وأشجار الرمان المزهرة أرجوانيتها المحتدمة على اللون الأخضر الغامق لأشجار التين والكروم.

انتهت هذه الليلة الحرارة الحارقة تقريباً أمس بفعل هبوب رياح الشلوق، ذلك أن عاصفة شديدة هبت مانحة كلّ هذا المنظر هيئات خاصة أعرفها جيداً وأحبها. وبوسعادة محاطة بتلال قاحلة ومائلة إلى اللون الأحمر ومرتفعة تحجب الأفق.

نزلنا أسفل منزل الشيخ قرب محكمة الصلح. وإلى الأمام بستان فرنسي مسوّر صغير. وإلى اليسار مخزن البارود وبستان بري حيث تنقّ الضفادع ليلاً. سكانها الخاضعون للحكام[1]، أكثر فظاظة، وأكثر وحشية من سكان الصحراء.

وعلى الرغم من المطر الغزير الذي هطل أمس جفّت الأرض. وجاءت إبلٌ جميلة ذات رباطات دقيقة من النوعية الصحراوية لتُناخ أمام منزل الشيخ.

أنا وحيدة، على حصير من قصب، أسفل الأروقة رفقة محمد الصغير ابن الديلاوي، والذي لا يفارقني أبداً.

رحلنا هذا الصباح باتجاه الهامل... متى العودة؟... متى سأعود لأرى زويزو مجدداً؟ الكثير من علامات الاستفهام.

وأخيراً، أرى أنه باستطاعتي العودة بهدوء مع أي بريد عسكري من دون دواعي قلق خاصة، غير أنه ينبغي من الآن التوجه مباشرة إلى الحكام من أجل تفادي جولات مثل تلك التي قمنا بها هذا الصباح...

... الزرع المنتشر هنا هو لشجرة توت خضراء جداً ونوع من الأكاسيا المزهرة بكريات صفراء صغيرة.

وأخيراً، وبما أن ذلك يتعلق برحلة، فأنا لا أندم على قدومي إلى هذا المكان

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

الذي كنت أجهله، والذي هو في المجمل مثل كل مكان في الجنوب المحبوب جداً. وفي حالتي الراهنة تمثل هذه الرحلة البعيدة نسبياً حظاً لم آمله.

لباس المرأة محبّب هنا، وعلى الخصوص التسريحة الكبيرة والمسطحة. ويصير لباس نساء الجنوب هذا شنيعاً إذا لم يلبس بلطف من قبل امرأة طويلة القامة وممشوقة. ولباس صوف أكثر رقة وأكثر جمالاً. ولم أر أبداً الجنس الأنثوي، فالبنات الواشمات على نحو مبالغ فيه كانت وجوهن شاحبة وقاسية.

الهامل، ٢ أيلول/يوليو ١٩٠٢، خلال القيلولة.

البارحة مساءً، بعد الحمّام المغربي، علمنا بأن لالة زينب عادت إلى الزاوية، غير أن الليل المظلم والرياح والأمطار منعتنا من الذهاب. نمت أسفل الأروقة.

استيقظت باكراً جداً. الليل مظلم وحزين. بقيت حتى طلوع الشمس رفقة السيد امبارك، ثم رحلنا من دون أخذ القهوة. كان هو على متن بغلة وأنا على متن حصان أبيض صغير وجميل.

تمر الطريق العربية للهامل وسط تلال، وبين جبال عالية بعض الشيء تحيط بمدينة بوسعادة. ويتبع الواد هذه الطريق من مكان بعيد، وقرب الزاوية حيث تنتشر البساتين، وحيث أشجار النخيل تلقي ألق ألوانها الخاصة. والقرية مشيدة بالطوب الفاتح اللون، وتبدو كأنها بُيّضت بالجير. وهي قرية كبيرة، وتقع عند نصف الحد المهيمن على البساتين والوادي. أما الزاوية فتقع على القمة وهي تشبه حصناً مثل دار النصارى[1] ذات المصاريع الخضراء...

تنس، ٧ تموز/يوليو ١٩٠٢.

هكذا... وبسرعة مخيبة تغير كل شيء مجدداً، وتغير تماماً.

وحتى الأمس القريب بدا أن إقامتنا بالجزائر ستستمر أبداً، برتابة دائمة، ويتلاحق المشاعر الكئيبة والبطيئة والمملة، وفي النهاية حدث ما تفعله نقطة الماء التي تسقط من دون توقف في المكان عينه، أو ما يحدثه صوت خفيض في البداية، لا يكاد يدرك لكنه ينتهي بأن يصير مستحوذاً.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

آه! فترات حياتي هذه مثل تلك بمرسيليا أو تلك بالجزائر! كم هي سوداء في ذاكرتي!

من المؤكد أنني لم أُخلق من أجل حياة الناس، من أجل الحياة المذهبة للعقل في المدن الكبرى المبتذلة.

عدت من تلك الرحلة السريعة مثل حلم إلى بوسعادة أكثر قوة، وقد شفيت من البطء المرضي الذي كان يأكلني في الجزائر... بعثت في الحياة مجدداً. كنت بدوية مرتحلة عندما كنت أحلم وأنا بعد صغيرة، ناظرة إلى الطريق البيضاء الممدودة والتي كانت تجذبني إليها، والتي كانت تبدو لي أكثر ألقاً تحت الشمس، وأكثر استقامة باتجاه المجهول الفاتن... وبدوية مرتحلة طيلة حياتي، عاشقة للآفاق المتغيرة وللأماكن البعيدة التي ما تزال مجهولة، ذلك أن كل رحلة اكتشاف. والواقع أنه لم ير شخصان أبداً المنظر عينه والبلد عينه بالطريقة نفسها، في اليوم نفسه، وباللون ذاته. لربما هناك استثناء. ينعكس الكون في المرآة المتحركة لأرواحنا، وبالتالي تتغير صوره إلى ما لانهاية... هذه الفكرة تدفع إلى الاعتقاد بأن وجه الكون الكبير الحقيقي مجهول ولا يدرك أبداً... هذا الوجه المطلق سيكون في الواقع وجه الله...

... يوم الثالث من شهر تموز/يوليو صباحاً أخذت مجدداً طريق بوسعادة بعد ليلة أمضيتها في الغابة الكبرى المقببة في الصمت الذي أزعجه هدير الرياح وهزيم الرعد. عدت إلى المدينة على متن حصان وزرت القائد. الذهاب عند منتصف النهار بواسطة عربة أومال العتيقة والفظيعة والملأى باليهود.

كانت الطريق في البداية رملية، وانتشر الدرين والعنابيات في السهل الشاسع حيث الكثبان المنخفضة تمتد عند سفوح التلال، وكلها مظاهر صحراوية تماماً، كذلك المحطات الأولى وهي عبارة عن أبراج مهجورة ومتداعية، وبيوت صغيرة مشيدة بالطوب، وأشجار نخيل تمنح وهماً بالعودة إلى الجنوب.

وانطلاقاً من سيدي عيسى أضحت الطريق سالكة والطبيعة جبلية وأكثر قسوة. أمضيت الليلة أبحث عن موقع يمكن احتماله قليلاً لكن دون جدوى.

أومال مدينة من مدن الداخل مخضرة وفيها ثكنات كبيرة شبه مهجورة. الرحيل مجدداً الساعة العاشرة والنصف في عربة جيدة. المسير عبر مناطق خصبة. العودة إلى خط السكة الحديد في برج بويرة. العودة إلى الجزائر يوم الرابع من شهر تموز/يوليو

الساعة السابعة والنصف مساءً. يوم الخامس منه، قضاء النهار في التجوال. يوم السادس منه، ركوب قطار أورليانز فيل الساعة السابعة إلا ربعاً صباحاً. أخذ العربة مجدداً الساعة الثانية ليلاً. الوصول إلى تنس ليلاً.

أورليانز فيل، ١٧ تموز/يوليو ١٩٠٢، الساعة التاسعة والربع ليلاً.

ها أنا على الطريق مجدداً.. . قاصدة الجزائر المملة، ومن حسن الحظ أن إقامتي فيها ليست إلا لأيام معدودات من أجل بعض أمور الزاوية، ومن أجل شؤون السيدة بن آبين. وفيما بعد سأعود إلى تنس غ إن شاء الله! لمدة طويلة، ذلك أن تعيين سليمان سيكون أفضل شيء قد يحدث لنا.

تركت تنس بواسطة عربة الساعة السادسة صباحاً في جو صاف جميل. كنت تعبة وشبه نائمة. وصلنا إلى النخلات الثلاث فألفيت الحارس وحصاناً جيداً. ركبت قاصدة القايد أحمد. يقع المنزل المطل على دوار بغدورة على تلة مرتفعة. والمنظر من هناك جميل جداً حيث التلال القاحلة لأرض إفريقيا تتتابع بألوان الأماكن البعيدة المختلفة المتألقة جداً والصافية جداً. عدت على متن الحصان. وصلت حوالي الساعة السادسة إلى أورليانز فيل التي تعد تحديداً إحدى أكثر مدن الداخل جمالاً وعلى الخصوص كمرحلة توقف. ومن الناحية الشمالية تطل على الشلف من مكان مرتفع جداً وتحيط بها بساتين وافرة.

اجتاحتني حمى شديدة منذ وصولي، ومرّت علي أوقات أشبه بفقدان الوعي.. . أجد صعوبة في الكتابة. آمل ألا أسقط مريضة في الجزائر، بعيدة عن حبيبي زويزو المسكين!.. .

وصولي هذا إلى أورليانز فيل وحالتي الروحية (الحالية) ينعشان ذكريات مراحل وصول أخرى في السابق وفي أماكن أخرى. وأشعر بالأحاسيس المحيطة كما في الماضي وهذا يعزّيني!.. .

دوار معين (تنس)، ٢٥ آب/أغسطس، مساءً.

أجلس على تلة قاحلة، قبالة الوادي وسديم التلال والجبال الغارقة في ضباب رمادي كتاني. تتميز الجبال الشاهقة التي تسد الأفق باللون الرمادي ممتزجاً بلون

الغروب الأحمر البرتقالي. هدوء كبير في البلد الريفي الذي لا تزعجه بعض الأصوات المتداخلة للدوار المبعثر في الجبال فنباح الكلاب، وصراخ الرجال الذين حضروا ليشتكوا. وإلى اليمين، خلف الشعاب، منفذ غامض إلى البحر يتوقع وجوده بفراغ الأفق. وإلى اليسار، على قمة تلة مروّسة، وفي دغل كثيف من أشجار المصطكا تختفي حجارة سود تُعدّ مكاناً للحج: هو قبر أحد الأولياء. يحل الليل وتصمت الأصوات...

تنس، الخميس ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٢، الساعة التاسعة صباحاً.

حلّ فصل الخريف. ورياح قوية تهب غالباً، وتحجب السماء بغيوم رمادية. ويحدث أن يهطل المطر أحياناً، وتعوي الرياح مثل رياح الشمال الباردة في الماضي هناك. تستمر حياتنا رتيبة ولعلها تكون محتملة لولا مسألة المال الدائمة. ومع ذلك فهنا، على الأقل، يوجد ما تقتضيه الضرورة القصوى.

ولولا كراهية الوسط الذي ينبغي مجاورته، والدسائس الصغيرة والمبتذلة، لكنا سعيدين نسبياً في السنتين الأخيرتين. وما يسم تنس هو قطيع النساء المصابات بالعصاب، والمتهتكات، والمجردات من الأحاسيس والسيئات. وبطبيعة الحال فهنا، كما في أي مكان آخر، تجتاجني كراهية المبتذل. وكل هذا الوحل لا يهمني بحد ذاته غير أنه يصيبني بالملل عندما يحاول الاقتراب مني والارتفاع إليّ. من جهة أخرى هناك وسيلة الرحيل الثمينة، والانعزال في طرق القبائل الكبيرة، وفي السلام الكبير الذي توحي به الآفاق اللازوردية أو الذهبية المصفرة.

قمت بالعديد من الجولات هنا، في معين وباغدورة وتاغزوت وكاب كالاكس ومغيو... وكذلك بعض الانفلاتات إلى الريف، والاستراحات في البلد الريفي الشاسع.

ومن الناحية المعنوية كانت هذه الأيام الأخيرة كئيبة. والشيء الغريب، وتقريباً مثلما هو عليه الحال دائماً الآن، أن ويحا يشاطرني حالتي النفسية. تقلقني صحته. وأخيراً لعله يشفى نهائياً بعلاج منتظم، وسيكون سعيداً حتماً إذا ما عُيّن قايداً، أو ذهبنا إلى أحد الدواوير بعيداً عن غباء تنس، في الهواء الطلق والصافي الجميل، مع الكثير من الراحة والرفاهية. ومن الناحية الأدبية، ضاعت هذه الأيام الأخيرة فقد

سقطت في ما يشبه الركود الذي لا يسمح لي بالقيام بأي جهد. واليوم بدأ الأمر يتحسن، ولكن في هذا المساء سأرحل من دون شك إلى المأدبة السنوية الكبيرة لسيدي مروان. ويمكنني أن أجعل من تقرير الاحتفال موضوع مقالتي القادمة للجاحدين في الأخبار. فالموقع والموضوع يتحملان هذا العمل. أحاسيس فصل الخريف الحزينة. في الأيام الأخيرة، عادت صحتي التي تحسنت جيداً من قبل لتتدهور مجدداً. هل الجسدي هو الذي أثر في المعنوي، أم العكس؟

معين، ٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٢، الساعة العاشرة ليلاً.

غباء الإدارة الجزائرية الذي لا يقاس يؤذيني مجدداً، فقد تلقى المفوّض رسالة من الجزائر. ما الذي يستطيعون فعله أكثر مما قاموا به؟ في كل الأحوال كتب وضيعو تنس الصغار تقريراً. اللعنة على أبيهم الكلب!

أنا هنا في غرفة نظيفة. هناك شيء سلبي واحد، فخلف النافذة لا يتوقف تيس عن النبيب أبداً، وعن القفز رفقة الماعز. عساه ينام أخيراً. . .

رحلت وحيدة تحت سماء صافية، وريح قوية. الطريق طويلة. طريق معين هذه ذات آفاق زرقاء واسعة، وهي غير رتيبة إذ تمر عبر الجبال والأودية.

. . . حملت من سيدي مروان ذكرى بأني وسط أناس جيدين.

الشيء الغريب، والمتناقض على الأقل من الناحية الظاهرية مع كل طبعهم، هو أن المتعلمين من السكان المحليين يأخذون بسهولة امرأة مثلي كمؤتمنة على الأسرار، ويتحدثون معها كما لا يفعلون بكل تأكيد مع أي منهم. يشهد على هذا حديثنا أنا والسي البدراني في ليلة تاو[١] على قارعة الطريق، في الصفاء الأزرق لفترة قبل الفجر.

معين، يوم ٢٢ منه. الساعة الثانية ليلاً.

أنا وحيدة في الغرفة الصغيرة، وكالعادة على نحو مباغت، ومن دون سبب مقدر، غاب همّ الأيام الماضية الثقيل وخلّى مكانه للحنين الخصب والمجدي.

---

(١) Taou كما جاء في الأصل. المترجم.

أعدت لتوي قراءة يومياتي السابقة. الحقيقة أن الحياة الحالية تعتبر فترة سعادة مقارنة بالسنوات الماضية، بل حتى في جنيف. وهذه الأيام لا تقارَن بأيام لمرسيليا!

يعمّ صمت مطبق نشعر وكأنه أبدي. أريد أن آتي للعيش هنا (أو في مكان مشابه) خلال أشهر، وألا أرى أي شيء من قبح الإنسانية الأوروبية التي أكرهها أكثر فأكثر، والتي أزدريها على الخصوص.

ليس في تنس إلا الصديق آرنو[1] الذي أشعر بمتعة الحديث إليه. زيادة على أنه أيضاً موضع تشنيع من قبل غير المستنيرين الذين يظنون أنهم ذوو شأن لمجرد ارتدائهم سراويل ضيقة وقبعات مضحكة وحتى مزينة بشرائط.

وعلى الرغم من كل نقائص البدو، وكل العتمة التي يعيشون فيها، فأقلهم شأناً أسمى من هؤلاء، وعلى الخصوص أنه يمكن تحملهم أكثر من الأوروبيين الأغبياء الذين يسممون البلد بحضورهم.

أين يمكن للمرء أن يفر منهم، وأين يمكنه الذهاب للعيش بعيداً عن أولئك الأشخاص المؤذين والفضوليين والمتكبرين الذين يعتقدون أنهم يملكون الحق في الدوس على كل شيء، وجعل الكل شبيهاً بصورتهم القبيحة؟

سأكتب إلى شاليط بنابلس، وسأدرس إمكانية نقل زرع من هناك، من فلسطين، في اليوم، القريب من دون شك، الذي سأحصل فيه على المال من الروح البيضاء.

الفرار من أوروبا، حتى مقتلعة، والذهاب إلى بلد عربي، شبيه من دون شك بالبلد الذي أحبه، وبدء حياة أخرى... لربما سيتحقق ذلك مجدداً! عالم الغيب والشهادة.

تنس، ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٢، الساعة التاسعة ليلاً.

تقارب السنة نهايتها، وهذا الكتاب أيضاً. أين سنكون بعد سنة في مثل هذا الوقت، في لحظة التساقطات المطرية الأولى، عندما سيرتدي الريف مجدداً دثاره الحزين الشاحب من أجل السبات الخريفي، وعندما ستزهر مجدداً الزنابق البيضاء

---

(١) الكاتب روبير روندو. ملاحظة روني لويس دويون. الأصل.

على امتداد الطرقات الملتوية؟ ليس في تنس على الأرجح. فهذا المقام هنا يبدو قليل الاستمرارية لنا نحن الإثنين. كيف ستتحدد على نحو نهائي وجهتنا، وهل ستتحدد أبداً!

الواد هو البلد الذي سأرضى أن أعيش فيه دوماً وأبداً. . .

السماء تمطر والجو بارد، وتقلقني صحة ويحا في هذا الطقس غير الملائم. . .

تقترب رحلة بوسعادة. . . عودة أخرى إلى الجنوب باتجاه أشجار النخل والرمال، وباتجاه الآفاق الرمادية.

الجزائر، يوم الأربعاء ١٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٢، الساعة الخامسة مساء.

خمسة أيام مرّت على وجودي هنا، بعيداً عن المسكن المريح في تنس، وبعيداً عن رفيق حياتي الصغير والحنون. . . أنا حزينة ذلك الحزن المخصب، والذي يمنح الولادة للفكر. . . والشيء الغريب هو أني بدأت أرى هذا البلد على نحو أفضل، وأتذوق روعته الخاصة.

يمتد الخليج الكبير، موحداً مثل مرآة وبزرقة رمادية بعض الشيء. الضفة الأخرى هناك بنفسجية ومنازلها وردية. . . يعمّ سلام كبير هنا، على تلة مصطفى.

كانت ليلة البارحة ذات روعة فريدة، وبدت الزرقة الصافية وكأنها تأتي من الأسفل، مثل فجر يصعد من أسفل البحر الشفاف، ومن أسفل الريف المعتم حيث تلمع الفيلات البيضاء وحدها. . . البارحة ليلاً شعرت بحزن كبير. . . واليوم حزن هادئ. أمرّ مجدداً بمرحلة حضانة أكثر إيلاماً من البدايات، وزادها المرض سوءاً. . والآن يبدو التفريخ وشيكاً. ومن حسن الحظ أنه صار باستطاعتي الكتابة.

لربما يتعيّن عليّ في فصل الشتاء هذا الذهاب إلى فرنسا، من أجل موضوع التحقيق الصحفي الهام عن متمرّدي مارغريت. آه! لو أستطيع فقط قول كل ما أعرفه. وكل ما أظنه حول ذلك. كل الحقيقة! أي عمل جميل سيكون، ومع استمراره سيغدو مخصباً، وفي الوقت نفسه سيصنع لي اسماً! بريو محق بهذا الخصوص: أن أبدأ مسيرتي المهنية بفرض نفسي كمدافعة مطلقة عن إخواني مسلمي الجزائر.

متى سأعود إلى هناك؟ لست أدري. تلزمني على الأقل ثمانية أيام من الحضور

هنا، ثم الكثير من العمل هناك. ينبغي إنجاز كتيّب، ومن المرجح كتابة مقالة في الأسبوع للبرقية، وإعداد كتاب شيئاً فشيئاً من القصص، تحسباً ليوم يأتي بعد محاكمة مارغريت، ويكون اسمي معروفاً فيه بعض الشيء في باريس. بذلك سأكون هذا الشتاء قد قمت بخطوة كبيرة من أجل الخلاص والسلام، حتى نتمكن أنا وويحا من الاستمرار بهدوء كبير في حلمنا الهادئ حتى الساعة الموعودة.

آه، يا أمي! آه، يا فافا! انظرا إلى طفلتكما الوحيدة. الوحيدة التي سارت على خطواتكما، والتي تشرفكما على الأقل في قبريكما! لم أنسكما. حتى وإن لم يكن التفكير فيكما كثيراً، إلا أن ذكراكما الغالية لن تفارقني أبداً. ألم أكن أتوجه إليكما في ساعات الضيق السيئة؟

الجزائر، الخميس ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٢.

عاد المرض مرة أخرى من أجل تعذيبي وإزعاجي... لكن كل هذا سيمر تماماً بعد يوم غد، عندما سأرحل إلى تنس... أخيراً.

بعد أيام طويلة من العاصفة المروّعة ومن الأمطار والرياح، بقي خلالها ويحا هنا، عادت الشمس إلى الظهور، وابتسم جو فصل الربيع في الريف المنتعش... لجزائر الجزائر في فصل الخريف لطفها الفاتر والحنيني والودود. لربما حل فصل الشتاء هناك في جبال بلد الشلحة[1]... حيث المناظر أشدّ قتامة، وأكثر تقلباً، وحيث الناس أكثر بساطة والحياة منعزلة وصامتة بعيداً عن هموم هذا المكان... بدأت أحزن على كل هذا، وبوجه خاص على الفرس الجيدة زيزا، والجولات الطويلة بمفردي.

كل شيء بخير شريطة أن نخرج أنفسنا من الديون التي أخذناها لفصل الشتاء هذا! وسيشغل الكثير من العمل رتابة ساعات فصل الصيف...

لكن لم يبق لنا إلا أن نحمد الله والجيلاني للتحسن الذي طرأ على وضعنا مقارنة بالشتاء والخريف لسنة ١٩٠٢، هنا في الجزائر.

قريباً يعود إلى الواد رمضان ذو الذكريات اللطيفة الحنينية... يتعيّن الدخول في

---

(١) هكذا جاء في الأصل تقصد بها بلد البربر. الشلحة: لغة البربر. المترجم.

الفريقة[1] بواسطة الذكر والصلاة، وهو ما سيشكل طهارة روحية وعقلية رائعة!

٢٣ شهر تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٠٢، الساعة الثالثة ليلاً.

تنس، الفاتح من شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٢، يوم الإثنين الساعة العاشرة ليلاً.

ذهبت يوم الجمعة صباحاً في جو صاف ورائق وجميل قاصدة دوار الهرانفة هناك عند طرف مقاطعة وهران. حظيت برفيق حتى سوق بوزراية الرائع وهو الحاج لخضة[2] بن زيو الكئيب وغير المثير للاهتمام إلا قليلاً. تمر طريق النخلات الثلاث بفرومونتان أسفل مرتفعات بغدورة وهي مخددة وتعبر أودية جارية. وتتداعى الجسور المشيدة على نحو سيئ وسرعان ما سيتحول ذلك إلى طريق عربية. وفي بعض الأماكن تمر الطريق عند سفح تلة يعلوها جرف صخري قمته على شكل زاوية حادة. وأرض الجرف حمراء بلون دافئ جميل. منظر هذا الموقع متميز. وتبدو فرومونتان من البعيد بين جبلين أو بالأحرى بين تلّتين مرتفعين، وهي بلدة زرعت بالأكاليبتوس وفيها مبان حديثة ومن دون طابع مثل تلك البلدات المقامة على أراض أخذت من الفلاحين الفقراء الذين صاروا يعملون فيها الآن في ظروف جائرة، والتي أضحت للخماسة الفرنسيين. والفلاح يشتكي غير أنه يتحمل مصيره بصبر كبير، لكن إلى متى؟

ملنا إلى اليمين. يقطن قايد بني مرزوق في قربيات على منحدر خفيض تعلوه التلة ذات الطابع الصحراوي الملقبة بمقبرة المرابطين، على اسم قسم المرابطين الذين تُعدّ نساؤهم جميعاً تقريباً مومسات تنسج حولهن حكايات غريبة في السحر. قبتان بيضاوان والمبنى مستطيل الشكل ومنخفض جداً تعلوه قبة بيضاوية. وإحدى القبتين الموجودة في قمة التلة جديدة. أما الأخرى الواقعة على مستوى أكثر انخفاضاً فقد استحالت إلى خرابة. وتنحدر القبور التي أضحت عبارة عن ركام من الحجارة، حيث تتزاحم الأعمدة في الجوار، نحو حقول الأعمدة.

ولما لم نجد القايد عدنا أنا وابنه إلى فرومونتان حيث لم يجدوا لي دليلاً إلا شخصاً غبياً يدعى جلولي بوخالم. رحلنا وبدأنا نتجول من دون جدوى. لم يكن

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

(٢) هكذا جاء في الأصل، ولعل الكاتبة تقصد لخضر. المترجم.

يعرف الطريق. انحدرنا عبر طريق شديدة الوعورة باتجاه أحد الأبراج العتيقة الخربة والمعزولة والذي سيعيد القايد إصلاحه. وفي مكان أبعد، كنا على واد حيث مشطة حارس بني مرزق ذي الوجه الغريب الشبيه ببعض طيور الليل. ثم، وعلى نحو لا ينتهي، تبعنا واد مرزوق. وغابت الشمس عند وصولنا إلى الهرانفة. كان الواد واسعاً وحجرياً ويقع في عمق واد مغلق بتلال صلصالية صفراء. وكانت بعض الأبراج مبعثرة في البلد الوعر مثلما هو الحال في كل منطقة تنس. كانت قربيات القايد إلى اليسار على حافة ساعدة واد. وفي الأفق، أعلى السهل الكبير المستوي البحري المظهر لشليف تبدو الكتلة الزرقاء الشاحبة لجبل وارسنيس، قِمّته وخاصرته الغربية أَشبه بمصطبة مستطيلة. وفوق الاستراحات ركام حجارة المقبرة، ثم تعرجات الواد الحجري. بعد ظهيرة اليوم التالي، ذهبنا إلى قسم أولاد بلقاسم على بعد ساعة وربع من الطريق. ويوجد هذا القسم حيث برج خفيض، ومشطة محاطة بسياج من الأشواك، في موقع رائع. ويمتد سهل شليف وواد سلي، وقد أطل عليهما جبل وارسنيس الملكي. وباتجاه اليسار، تظهر أورليانزفيل مثل واحة من الخضرة السوداء. وتمتد إلى اليمين أولى هضاب وهران على مدّ البصر، وفي مكان أقرب التلال الطينية للهرانفة. وإلى اليسار التلال المشجرة لأولاد عبد الله التي تبدو برية أكثر. ما قادنا إلى تلك الأماكن أمر حزين. وباستثناء التنوع الرائع الذي يفتح من الأعلى، حملت من هذا الجزء من رحلتي القصيرة شعوراً مشؤوماً. ذلك أننا ذهبنا إلى هناك لنرى فتاة صغيرة، أُحرقت حية في ظروف غريبة، ولن يعرف أحد سرها أبداً.

يعمّ سلام كبير أرجاء هذا البلد النائي والمفقود بعيداً عن كل اتصال بأوروبا. فهو مكان للراحة حيث يمكن الفرار من القبح البليد للحضارة الغازية. . . توقف عند حلول الليل في برج أحد الشيوخ من قسم الجيلاني المختاري حيث قاعة من الجبص تشبه منازل صوف باستثناء السقف ذي الأعمدة غير المقصبة.

يوم الأحد صباحاً وحوالي الساعة السابعة، الرحيل عبر طريق أخرى إلى قمة التلال. في بعض المناطق، وقبل الوصول إلى حدود بني مرزوق، حيث زرعت الأرض ذات الرمال الدقيقة الصفراء مثل رمال بوسعادة بأشجار العرعر على التلال، مثل كل نباتات الأراضي الرملية التي خفّفت ألوانها الأمطار الغزيرة. اكفهرت السماء، وعندما وصلنا إلى بني مرزوق هطلت أمطار غزيرة، وهبت رياح الغرب القوية والباردة

التي جعلت القربيات حيث كنا تهتز الليلة الماضية. وصلتُ مجمدة بفعل البرد إلى قربي الجماعة حيث يسجل المقترضون من مدخرات الجماعة. كانت القربي ترشح فأُحضر لي كانون. تناولت الغداء في زاوية بإصطبل قرب نار كبيرة صافية. رحلت وحيدة وسط مطر غزير. ومن الساعة الحادية عشرة إلى الساعة السادسة مساءً خببت تحت الأمطار والرياح. كم هي حزينة هذه الطريق الطويلة المقفرة من فرومونتان إلى كافينياك! تبدو كئيبة تحت السماء المظلمة، وتتعرج بشكل لانهائي إلى الأعلى عند قمة التلال...

حملت من هذه الجولة الطويلة ذكريات طيبة. ومرة أخرى حظيت فجأة بإلهام ظننته سعيداً. كنت أتقدم ببطء تحت الشمس في طريق بغدورة إلى فرومونتان، وتناولت غداءً من طلمية السوق اللذيذة برائحة الدخان والتين الجاف الذي منحني إياه رفيقي بالصدفة والذي كنت أجهل كل شيء عنه حتى اسمه. جاءني الإلهام أن أكتب رواية أصيلة وحزينة لرجل - هو نموذجي الخاص - يعيش حياة فوديل، غير أنه مسلم ويزرع في كل مكان بذرة الخير المخصبة. عليّ إيجاد حبكة بسيطة وقوية...

بدأ شهر رمضان هذا اليوم. هذه الفترة من السنة خاصة جداً، ومليئة بالمشاعر الغريبة، وبالذكريات العزيزة والحنينية بالنسبة لي. هو رمضان الثالث منذ أن اتحد مصيرانا أنا ووريحا... نحن سعداء جداً كوننا معاً ويحب أحدنا الآخر. فهذه السنوات الثلاث من المعاناة المتراكمة أو البطيئة، الوحشية أو الأليمة، قربتنا أكثر مما كانت ستفعله عشر سنوات من الرفاهية. وفي هذه اللحظة، حياتنا هادئة ومن دون قلق الآن. «الحمد لله الذي نجانا!»

١١ كانون الأول/ ديسمبر، الساعة السابعة والربع مساءً.

الرحيل رفقة محمد بن علي

«شيء آخر يمثله العلمُ بأنه في مكان ما، في البعيد جداً، هناك بعض الناس منهمكين في تعذيب أناس آخرين، وفي إذاقتهم شتى أنواع العذاب، ومعاينة ذلك العذاب، وذلك الإذلال يومياً.» (تولستوي: القيامة.)

الجزائر، ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٢، بعد منتصف النهار بنصف ساعة.

كم هو بعيد جداً الماضي وأعياد الميلاد. وفي وقت قريب قد لا يجعل كل هذا قلبي يرتعش أبداً. فالحنين إلى الماضي الآن لن يعود بالنسبة إليّ أبعد من صوف. وفي الماضي الأكثر قرباً، الذكرى الأكثر غرابة، والأكثر حنينية على نحو غامض، هي ذكرى تلك الجولة في ظهرة، وعلى الخصوص الليلة الأولى، في الصمت الذي كدّرته لفترات طويلة أصوات أبناء آوى في الجبل.

حالتي النفسية حزينة هنا، وحلّت نهاية شهر رمضان من دون المكتوب الغريب دوماً بالنسبة لي، والتي كانت لطيفة جداً هناك في تنس التي فررت منها، في حزن عميق، وتقريباً من دون سحر.

والشيء الأكثر صعوبة، والصعوبة الوحيدة لربما هي التحرر، وأكثر من ذلك العيش بحرية. وكلما كان الإنسان أقل حرية يغدو عدواً للناس الذين يضطهدونه بطريقة ممنهجة، ويطاردونه في كل مخابئه. أحسّ غضباً متزايداً إزاء حياة الناس الذين لا يريدون ترك الاستثناءات تستمر، والذين يقبلون العبودية حد فرضها على أناس آخرين. أين هي العزلة التامة البعيدة حيث ما كان غباء الناس ليصلني، وحيث ما كان لحواسي أن تكدرني أبداً؟

اليوم نفسه، الساعة الحادية عشرة ليلاً.

أخذ مللي واستيائي من الأشياء ومن الناس يتزايد أكثر فأكثر... واستياء من نفسي أيضاً لأني لم أستطع إيجاد طريقة عيش،[1] وأخشى كثيراً، بالنظر إلى طبيعتي، ألاتوجد أبداً إمكانية لذلك.

ليس هناك إلا شيء واحد يمكنه أن يعينني لأمضي السنوات القليلة من الحياة الأرضية المقدرة لي. إنه العمل الأدبي، تلك الحياة المختلفة التي لها سحرها، والتي لها الميزة العظيمة بترك المجال مفتوحاً تقريباً بشكل كلي لإرادتنا، وتمكيننا من التعبير عن ذواتنا من دون المعاناة من الاتصالات الأليمة مع العالم الخارجي. إنه شيء

---

(١) كتبتها الكاتبة باللاتينية modus vivendi. المترجم.

ثمين، مهما تكن النتائج من الناحية المهنية أو من ناحية الربح. وأتمنى أنه مع الوقت، وعندما سأحصل شيئاً فشيئاً على القناعة الصادقة بأن الحياة الواقعية عدوانية ومعقدة، سأرضخ لعيش تلك الحياة اللطيفة جداً، والهادئة جداً. وبكل تأكيد سألج كثيراً مجال الواقع الكئيب... لكنني أعلم مسبقاً بأني لن أصادف فيه أبداً الرضى الذي أبحث عنه.

في الوقت الحالي من المحتمل أني سأذهب بعد مضي خمسة أيام من شهر رمضان إلى مداح وبوسعادة. ستكون رحلة وتسلية بالنظر إلى الرتابة المحيطة. ثم سأذهب حتى بسكرة حيث سأعود إلى ساقية الواحة الأخيرة لألقي نظرة حنين على طريق صوف وواد رير المذهلة، طريق الماضي التي مضت وانتهت إلى الأبد، للأسف!

ومجدداً ستمر روحي بفترة تحول وحضانة، ومجدداً ستكدّر روحي وتحنّ... إلى أي نتيجة مرعبة سأصل في يوم من الأيام إذا ما استمر هذا التقدم في السواد الدائم؟

ومع ذلك أعتقد أن هناك علاجاً لكن ذلك يعود إلى الدين الإسلامي في خضوع كلي وصدق تام.

وهناك سأدرك الراحة النهائية وسعادة القلب. لن تكون للجو المضطرب والمختلط، إذا جاز القول، حيث أعيش أي قيمة بالنسبة لي، وستذبل روحي هناك، وتنكمش على ذاتها في حقائق مؤسفة.

... ومثلما كان مقرراً ذهبت يوم الخميس مساءً، الحادي عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر، تحت ضوء قمر رمضان من أجل تلك الرحلة إلى ظهرة.

ذهبت وأنا مدركة ومقتنعة بعدم الوصول إلى أي شيء لأن هبة البصيرة بدأت تتأكد شيئاً فشيئاً في نفسي... هبة ستكون ثمينة لو كان بإمكاننا تغيير شيء في مسار الأمور المعتم... لكن هذه الهبة أليمة ويا للأسف لأنها غير مجدية مادامت لا تمكّن من تعديل أي شيء في الأوضاع، ولكنها تؤدي فقط إلى المعرفة المسبقة باللاجدوى المخيبة لهذه المحاولة أو تلك والتي يجبرني عقلي مع ذلك على القيام بها.

... كانت الأمسية صافية وباردة. وعمّ هدوء كبير في المدينة الخالية ومرقنا مثل ظلين أنا ومحمد، الرجل البدوي جداً والقريب جداً من الطبيعة، وهو رفيقي

المفضل، ذلك أنه يتوافق تماماً مع طبيعة الأشياء والناس. . . ومع حالتي النفسية، وإضافة إلى ذلك له اهتمامي نفسه تجاه الأشياء المعتمة والمضطربة للمعاني، وإن بطريقة غير واعية. وهو يريد ما أفهمه، ويشعر به أكثر مني حتماً، وتحديداً لأنه لا يفهمه ولا يسعى إلى فهمه. في مونتينوت وكافينياك توقف بالمقهى المغربي. وبعد كافينياك تركنا الطريق السالكة ودخلنا متاهة متفرقة لبلد تنس المعقد. فعبرنا ودياناً وصعدنا مرتفعات، وانحدرنا إلى أودية، ومررنا جوار المقابر. . .

وفي صحراء من الديس ومن الدوم، أعلى وهدة مخيفة ذات هيئة صحراوية حيث تنمو على التلال أشجار ذات أغصان عالية، ترجّلنا وأكلنا. . . ترجّلنا من أجل الأكل ومن أجل الراحة أيضاً. ومع كل صوت كنا نلتفت لانعدام الأمن هناك. ثم لمحت طيفاً غامضاً. كان أبيض وسط الأشجار في الوهدة. اهتز الحصانان. . . من يكون؟ اختفى، وعند مرورنا من هناك أظهر الحصانان بعض القلق.

ثم تبعت الطريق وادياً ضيقاً تخللته وديان كثيرة. وكانت أبناء آوى تعوي من مكان قريب جداً. وفي مكان أبعد، صعّدنا تابعين خاصرة الجبل الذي يفصل هذه المنطقة عند البحر، ووصلنا إلى مشطة قدور بلقورشي قايد تلاسة.

لم يكن القايد هناك، وتعيّن الذهاب أبعد من ذلك، عبر مسالك مخيفة. ألفينا في بداية أرض بعاش القايد في مشطة شخص يدعى عبد القادر بن عيسى، وهو رجل ظريف ومضياف. أخذنا هناك وجبتنا الثانية. وعندما غاب القمر رحلنا مجدداً باتجاه بعاش عبر طرقات طينية محاطة بالأخاديد ومليئة بالحجارة المتدحرجة. . . وعند الفجر بدا لنا برج بعاش الأجمل في المنطقة كلها. كان عالياً على تلة حادة وشبيه جداً ببرج صحراوي. . .

الجزائر، ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٢، الساعة الثانية والنصف صباحاً.

أي شعور غريب بالحلم ـ هل هو لطيف؟ لا أستطيع قول ذلك! ـ تسببت لي فيه هذه الحياة في الجزائر، حياة بالأحرى ليلية مع تعب رمضان الذي يدنو من نهايته!

يا لشهر رمضان هذا! كانت الأيام الأولى هناك في تنس لطيفة بوجه خاص في هذا الشهر الذي يمضي عادة وسط العائلة. وكانت عائلتنا المجتمعة غريبة جداً ومشكلة بالصدفة مني أنا ومن سليمان وبلحاج من بوسعادة ومحمد المنتمي في جزء

إلى صوف التي لا تنسى، وفي جزء آخر إلى تلال شارير الشاعرية تلك التي تطل على الخليج اللازوردي وطريق مستغانم...

٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٢، منتصف الليل.

سنة أخرى فرّت... سنة أخرى أقل للعيش... وأحبُّ الحياة من أجل فضول عيشها وتتبّع الأشياء الغامضة فيها.

أين هي الأحلام التي حلّقت إلى البعيد، أحلام الماضي اللازوردية، هناك قبالة الجورا المثلج وغابات البلوط الكبيرة؟ أين هم الأشخاص العزيزون الذين قضوا؟ بعيداً جداً ويا للأسف!

كنت أتوقع في الماضي، المبكر جداً، وبهلع، موت والدي المحبوبين، أمي وفافا... وبدا لي مستحيلاً أن يموتا! أما الآن فمنذ خمسة أعوام ترقد أمي، بصدفة يحملان معاً سرها إلى القبر، وسط القبور الإسلامية، وفي الأرض الإسلامية... ومنذ ما يقارب الأربعة أعوام يرقد فافا والغامض فولوديا في أرض المنفى هناك في فيرنيي... وبينما تتفتح أزهار فصل الشتاء في بون حول قبر أمي، لا شك في أن القبرين هناك يغطّيهما الثلج...

تلاشى كل شيء. فالمنزل المنبئ والذي لا حظّ له انتقل إلى أياد أخرى... وانمحى أوغستان من أفق حياتي الذي احتله خلال العديد من السنوات، واختفى من دون شك إلى الأبد... وكل ما كان حينها أُعدم ودُمّر وأزيل إلى الأبد... وأنا منذ أربعة أعوام أتسكع وأتألم وحيدة في الحياة، مع رفيق وحيد في الطريق، من رحت أبحث عنه هناك، في صوف الطاهرة، من أجل تخفيف وطأة وحدتي، وحتى لا يتركني أبداً إن شاء الله!

حدثت تعديلات عميقة في نفسي، وحتى في هذه الأوقات الأخيرة أيضاً، في شهر رمضان الفضيل هذا، والذي انتهى البارحة في الغموض اللطيف بأحاسيس توافة لأداء صلاة العشاء في المسجد الحنيفي...

كل شيء دمّر، حتى ما كان يبدو لي خالداً...

«كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام!»

ما الذي تخبئه لنا هذه السنة؟ أية آمال جديدة، وأية أوهام جديدة؟ فعلى الرغم

من كل التحولات من الجيد أن يحظى المرء بقلب محب وحضن صديق حيث يرتاح من الصراعات، وحيث الحضارة الكاذبة جلبت صراع الحياة...

ما الذي يفعله رفيق حياتي؟ فيمَ يفكر هناك، بعيداً عني؟ وهنا أيضاً، ليس عليّ إلا أن أجيب: الله أعلم.

الجزائر، يوم الأحد ٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٣، منتصف الليل.

سيكون من الجيد الموت في الجزائر، هنا على تلة مصطفى، قبالة تنوع المناظر المغري والحزين في الآن نفسه، وقبالة الخليج الكبير المتناغم مع صدى الزفرات الدائم، وفي مواجهة قمم القبايل الحادة. سيكون من الجيد الموت هنا، بهدوء وببطء، ذات خريف مشمس، وأنا أنظر إلى نفسي أموت، وأنصت إلى الموسقى العذبة، وأتنسم العطور، التي تشبهها أرواحنا رقة، وهي تنتهي من إصدار عطرها في لذة بطيئة ولطيفة بشكل لا ينتهي للتخلي عن الوجود من دون عذابات ومن دون أسى.

بعد أيام طويلة من الحزن الكئيب ومن القلق المعتم عدت لأُبعث من جديد. كل شيء في حياتي الحالية مؤقت وغير ثابت... كل شيء مشوّش، والغريب أن ذلك لا يجعلني أتألم.

من يدري كم ستدوم هذه الحياة في الجزائر؟ ومن يدري إلامَ ستنتهي؟ من يدري أين سأكون غداً؟ لربما سأذهب بعد أيام قليلة إلى مداح وإلى بوسعادة. عودة أخرى إلى الجنوب باتجاه الرمال وباتجاه الأرض المباركة حيث تلقي شمس من نار ظلاً أزرق لأشجار النخيل على الأرض الجرداء، ثم سأعود إلى هنا حتماً من أجل عمل أكثر ومن أجل الصراع المشكل من مراحل صغيرة، وهذا ما يصيبني بالملل.

وفيما بعد، وسيكون قد حل فصل الخريف تقريباً، سأعود إلى هناك، إلى تنس وما أرغب فيه، في خضمّ الظروف الحالية، هو أن أعيش هناك في تنس حياة حرة وهانئة، وأن أسعى وراء حلمي من قبيلة إلى قبيلة أخرى.

بوسعادة، ٢٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٣، يوم الأربعاء، بعد منتصف الليل بنصف ساعة.

تركت الجزائر يوم الإثنين السادس والعشرين منه الساعة السادسة في جو صاف.

أمطار من البويرة حتى بني منصور. في بني منصور ركبت قطار زيار المتجه إلى منصورة (المسيلة). الوصول إلى برج بوعريريج حوالي الساعة الثالثة. كنت لدى السي إبراهيم الصوفي ثم لدى المحافظ. الرحيل الساعة الخامسة بواسطة بريد المسيلة. نمت في الطريق. الوصول حوالي الساعة الثالثة صباحاً. أمضيت بقية الليلة في المقهى في غرفة حابو. الرحيل عن المسيلة في السابع والعشرين منه الساعة الثامنة والنصف صباحاً على متن الحصان رفقة السي سخدار قدري. التوقف في شلال حوالي الساعة الحادية عشرة. كنت في بانجو حوالي الساعة الثانية، وفي بير غرعاد حوالي الساعة الثالثة. الوصول إلى بوسعادة الساعة السابعة والنصف مساءً. الذهاب إلى الحمام المغربي. تحققت إذن هذه العودة الثانية إلى الجنوب... وأشعر أكثر من أي وقت مضى أن هذا المكان يثقل ذلك الثقل الغريب الغامض والمنذر على نحو مشوّش، والذي يرهق كل المجال الترابي للقيادة. هو شيء يتعذر وصفه لكنه حساس بالنسبة لمن يعرف البواطن... هناك العديد من الأشياء الملتبسة والمضمرة والغامضة...

على الرغم من تعب الرحلة، وقلة النوم والأكل، احتفظت من هذه الرحلة، منذ بني منصور، بشعور جيد. الزيارة، أناس طيبون وبسطاء ينشدون مديح أوليائهم بأصوات القصبة والزرنة والبندير المتعاقبة. وهكذا ذهب القطار في غمرة سعادة الشمس التي عدت لأجدها...

لم أتمكن من رؤية المسيلة كما ينبغي... لكن الطريق، الطريق الصحراوية الجميلة، جعلتني أعاود عيش الأيام الخوالي، وفرح أن أجد مرة أخرى أفقَ السهل الكبير الفارغ والهادئ. وكان الوهم ليكون مكتملاً بهدنة لو لم يكن هناك شريط الجبال الذي يطلق السهل. ومع ذلك، وباتجاه الشرق، حيث تنعكس سفوح السلسلة الصحراوية في السبخة الغارقة، وعلى يسار الكثيب، يفتح باب واسع على الاضطراب اللامحدود للماء وللسماء.

الشلال بلدة حزينة مشيدة بالطوب وهي عبارة عن بيوت حقيرة في وهدة سحيقة تنتشر فيها رائحة لاذعة لليود وللملح الصخري.

يتشكل السكان المحليون من أولاد مدحي وهاشم غير الودودين. كان المغرب رائعاً في الجبال التي ارتسمت بلون أسود مائل إلى الزرقة على طريق السماء الذهبية.

وجبال بوسعادة تلك غريبة جداً بمحيطاتها الهندسية وأسطحها المائلة.

اليوم، بعد جولات الصباح إلى المكتب العربي، كنت حوالي الساعة الواحدة أتجول في دشرة تلك المدينة العربية، وفي الواد حيث الغسالات العربيات يلقين بقعاً زرقاء وعلى الخصوص حمراء، بألوان زاهية وذافئة غريبة. لم يخضرّ أي شيء على التلال المحيطة، فهي منذرة دوماً وجرداء تماماً مثلما كانت في فصل الصيف.

بعد منتصف النهار كنت ما أزال حزينة وإن بدأ ذلك يمضي الآن. عدم القدرة على الرؤية جيداً.

سأقصد غداً صباحاً الهامل. ويبدو أن رحلتي إلى بوغاري قد تقررت. ستتم عبر منطقة من البلد مجهولة تماماً، حد الصحاري، يعجبني اسمها، وهي منطقة مفقودة تماماً وسط البلد العربي. بعد أن أستريح غداً مساءً في الهامل سأدوّن ملاحظاتي بحال أفضل من هذا المساء، ذلك أن التعب الجسدي ونقص الأكل حتى المساء أرهقاني كثيراً، والمسير من دون توقف إلى الهامل سيعدني للقيام بالرحلة الطويلة إلى الصحاري وبوغاري. . .

يبدو أني لم أعد عرضة للاضطهاد أبداً، فقد أُخبرت بأنه لم يتم الإعلان عن وصولي، وبدوا جميعاً ودودين جداً، حتى القائد. . . أناس الظل، والغموض!

يبدو أن الفوضى العارمة تسود الهامل، وكل شيء يمضي على غير هدى.

الهامل، يوم الخميس ٢٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٣، حوالي الساعة الرابعة مساء.

بلد المنشأ سيدي محمد بلقاسم: في الأيام الخوالي بالنسبة للشرفاء، كان أولاد علي قسم من أولاد بوزيد من جبل عمور. وعند عودتهم من مكة، وكانوا ثلاثة إخوة، مروا بهذه المنطقة. وفيما أكمل أحدهم طريقه باتجاه المغرب، مكث الآخران عند خاصرة الجبل، وأسسا الهامل.

رحلت حوالي الساعة الثانية باتجاه الهامل في جو صاف ومشرق. أخذ ملل الأيام الماضية يتلاشى شيئاً ما، وتقريباً بشكل تام. عند العودة سأرى على نحو أفضل بوسعادة من دون شك.

والغريب أني لحظت منذ مدة طويلة أني لا أستطيع أن أرى بلداً على نحو جيد منذ الأيام الأولى لوصولي، ذلك أني أشعر دوماً بنوع من الضيق الغامض والملل.

ومع ذلك ففي الأيام الأولى لحياتي المتسكعة لم يكن الأمر كذلك. والغريب أن ذلك أخذ يزداد. وما دامت قد أضحت حياتي مرتحلة أكثر فأكثر فالعادة ستأتي مع الوقت.

تسلك الطريق التي تأتي من بوسعادة أراضي حجرية وجرداء، حيث لا ينمو إلا العرعر الصحراوي، والأشجار المنخفضة الشائكة والرمادية التي ترعى فيها الجمال فقط. والتلال بلون رمادي أمغر محفورة ومنضدة بعض الأحيان، وتقسم من الأعلى إلى الأسفل بأخاديد بيضاء. والمشهد فظ وبائس. وعلى الطريق، بعد البستان المملوك للمكتب العربي والمحروس من قبل عربي يسكن في برج خرب مشيد بالطوب، تتدرج محطتا الطلبة. إحداهما عبارة عن برج وحيد مقام على تلة تحيط بالطريق. أما الأخرى ففي مستوى أدنى وهي عبارة عن تكوم لبعض الأبراج الصغيرة والمشيدة بالطوب على مساحة مطروقة تشرف على الواد، وعلى بستان من أشجار النخل في تسنن السرير العميق. وأخيراً تبدو الهامل من أحد المنعرجات مقسمة إلى جزءين، فهي مشيدة على تلتين. التلة الأولى مخروطية الشكل تقريباً، وتوجد فيها قرية الشرفاء التي يغلب عليها الطابع الصحراوي وكلها مشيدة بالطوب الغامق. وعلى الأخرى، الأكثر ارتفاعاً، تنتصب الزاوية التي تشبه حصناً وقد غطيت بالطوب الفاتح اللون، والأبيض تقريباً.

اليوم نفسه، الساعة السادسة مساء.

يسود هدوء كبير هنا، لا يكدره، في بعض الأحيان، إلا ضجيج القرية والزاوية ونباح الكلاب البعيد، أو صوت الجمال المبحوح الخشن.

الهامل! استلهم هذا الإسم من الإسلام القديم لهذه المنطقة، المفقودة جداً في الجبل الأجرد والمعتم، والمدثرة بغموض كبير.

الآن، وقد زال السبب المادي للانزعاج الذي غصت به في هذه الأيام الأخيرة، أضحى الأمر جيداً. آمل بشدة العودة إلى بوسعادة والشروع في الرحلة البعيدة التي يتعين علي القيام بها باتجاه الغرب.

كنت أجلس على سريري قرب مدفأة القاعة الكبيرة المقببة. وبوجود هذه النار

المبتهجة والسرير الأرضي أخذت الغرفة طابعاً من الفرح والراحة لم تكن عليه هذا المساء.

ومن أجل الانتهاء من وصف البلد مرئية من الطريق أقول إن الهامل تقع تحديداً عند سفح كتلة قمتها الرئيسية مخروطية الشكل مسننة. وعلى اليسار تبدو التلال السديمية المنبوذة تارة بخلفيات دائرية وتارة أخرى برؤوس جبال منعزلة مشرفة على الوديان الجرداء. وبجانب الواد الملقب بالمغتا البساتين الواسعة لحابو وللشرفاء حيث أشجار ذات أوراق قديمة وقد أضحت عارية الآن وسوداء، تتزاوج بشكل غريب مع أشجار النخيل الخضراء دوماً.

متاهة من الأسوار الصغيرة المبنية من الطوب تتشابك في البساتين المزروعة كيفما اتفق في الأرض الوعرة النائمة. وفي أقصى الطريق تفتح في هذه القرية بعض الدكاكين المدخنة، ومحلات الصباغين والسكاكرية. والمنازل هنا، مثل كل القصور، مختلفة الأشكال، ولكن بلون ممل يشبه لون الأرض، أحدها بعد الآخر، مشكلة زوايا وشوارع صغيرة وممرات ضيقة، وبعضها مقبب. وتمضي الطريق في سرير الواد تحت قبتين حجريتين منخفضتين حفرتا في الطين المائل إلى الحمرة. ومن أجل المرور منها على الحصان يتعين على المرء الانحناء. وكانت الهامل إلى اليمين، والمقبرة الكبرى إلى اليسار، وهي عبارة عن واد يهوشافاط حقيقي بحجارة منتصبة بأعداد لا تُحصى. وعلى المرتفع قبالة الزاوية كان البرج المشيد بالطوب وهو الخاص بقايد الهيديش.

. . . توجد هنا حوالي ثلاثين أسرة من أولاد مقران تعيش على نفقة حابو. . .

«الفندق»، وهو بناية كبيرة مربعة بباحة داخلية، عميقة ومعزولة حيث يتكدس الآجرّ والحجارة، تعتمد على الطابق العلوي المقسم إلى غرفتين، إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة، مقببتين تماماً كمدخل تحت جسر مثل المنازل الموسرة في صوف. وتفتح إحدى النوافذ على الجنوب الشرقي حيث المقابر، والثلاث الأخريات على الشرق. وهناك ثلاثة أسرّة فرنسية، ومائدة بيضوية الشكل، وكراسي، وكل هذا موضوع على زربية شديدة السمك. . . ومع بعض الذوق العربي الحقيقي كان بإمكان هذا المكان أن يكون ذا طابع مميز. أردت أن أتمكن من تأثيثه على مزاجي مثلما يستحق ذلك. وإلى الجانب، باتجاه الغرب، هناك البنايات المرتفعة المشيدة بالطوب

والتي تضم مسكن الصوفية، وإلى الشمال المسجد الجديد مع قبته الدائرية المحاطة بقباب أخرى أصغر، وفي الداخل قبر سيدي محمد بلقاسم.

لا شيء أكثر صعوبة من إيجاد كلمة صحيحة لوصف اللون المخيب للجبال المحيطة ببوسعادة وطريق جلفة. فهو ذو حمرة مائلة إلى اللون البنفسجي، بأخاديد وخرابات بلون رمادي مائل إلى البياض. وفي البعيد كانت تلك الجبال التي تأخذ عند أول نظرة طابعاً شفافاً جداً، لوناً قرمزياً أو بقايا نبيذ شاحب، بينما كانت الجبال وراء السلسلة شديد الزرقة. وتبدو الأراضي حجرية ومخددة وقاحلة على نحو مروّع، وبالتأكيد لا شيء في هذا المشهد الثابت والبائس يدفع إلى تخمين أهمية الهامل المتزايدة.

سأذهب للنوم وللراحة لأنه يتعين علي الاستيقاظ باكراً غداً لأرى الصوفية، وسأعود من دون شك مساء الغد إلى بوسعادة، وسأحرص على الوصول هناك عند المغرب. وفيما بعد ستبقى ثمانية أيام أمامي لأرى بوسعادة جيداً. لا ينبغي عليّ هدر تلك الأيام في أشياء تافهة. من يدري؟ يبدو أنني لا أذهب، في حياتي، إلا مرتين إلى المكان عينه، تونس والساحل وجنيف وباريس وصوف... من يدري، لعلّ هذه رحلتي الأخيرة إلى بوسعادة؟

سأرحل يوم الجمعة في الثامن رفقة عرب إلى حد الصحاري، وتلزمني ثلاثة أيام للوصول إلى بوغار، ويوم من أجل الذهاب إلى بير الرواغية وربما أذهب حتى الزاوية العيساوية في ضواحي لوفيردو: هنا يومان، ويوم آخر من أجل العودة إلى الجزائر. هذا يعني سبعة أيام، وفي المجموع خمسة عشر يوماً من أجل العودة إلى الجزائر، حيث يتعيّن عليّ البقاء خمسة أيام. وهذا سيؤجل عودتي إلى تنس عشرين يوماً أي إلى يوم الثامن عشر من شهر شباط/ فبراير.

وهكذا سيدوم فراقي عن حبيبي المسكين ويحا شهرين طويلين، لأني نسيت الزيارة المحتملة لعبد المومن قايد مداح.

تنبح الكلاب بعيداً في الصمت، حيث يسمع في بعض الأحيان الصوت الأبح لجمل قريب جداً.

بوسعادة، ٣١ كانون الثاني/ يناير، يوم السبت الساعة الواحدة ليلاً.

عدنا البارحة أنا وبن علي إلى الهامل حوالي الساعة الثالثة ليلاً.

في كل المرات التي رأيت فيها لالة زينب شعرت بنوع من العودة إلى الشباب والفرح من دون سبب جلي وبالسكينة. رأيتها البارحة مرتين في الصباح. كانت لطيفة جداً ورقيقة جداً معي، وأبدت سعادتها برؤيتي مجدداً.

زيارة قبر سيدي محمد بلقاسم، الصغير جداً، والبسيط جداً في المسجد الكبير الذي ما إن ينتهي حتى يكون جميلاً جداً، ثم الذهاب للصلاة في الجوار قبالة قبري الحاجين المؤسسين للهامل.

ركض بالحصان على طريق سي بلعباس الصعبة تحت أنظار السي أحمد المقراني الحنونة. كانت هناك نساء من بيت الدعارة كن يعدن من الهامل، مزينات ومخضبات وجميلات بعض الشيء، وقد حضرن لتدخين سيجارة قربنا. القيام بالفنطازيا على شرفهن على امتداد الطريق. الكثير ي. . .

تُقفل الهامل باتجاه الجنوب الشرقي شِعاباً طويلة واسعة ووعرة جداً وتتحكم فيها، وينتصب وسطها كيف مرتفع يسده عند الأفق جبل مخروطي الشكل ويشبه قميرة. وفي الخلف ينفتح على نحو غامض وواسع سهل مائل إلى الزرقة. . . ولمنازل الشرفاء التي تجاور الزاوية أسوار عالية مغطاة بالطوب الصقيل حتى نصف ارتفاعها، وحيث ترى في النصف الآخر مربعات الآجر الطوبي. ولهذه المنازل مظاهر قلعة بابلية بمربعاتها المكدسة وأسطحها المسطحة التي تطل على الباحات الهندسية الأشكال، وحيث لم تزهر بعد أشجار اللوز المتوافرة في البساتين.

. . . جعلتني أسطورة حاجي الهامل أحلم، وهي حتماً الأكثر قدسية بالجزائر. . .

تنتهي اليوم هذه اليومية التي بدأتها هناك في أرض المنفى الكريهة، خلال إحدى أشد الفترات قتامة وأكثرها اضطراباً على نحو أليم، وأغزرها معاناة في حياتي.

الكل، بما في ذلك أنا، تغير على نحو جذري. . .

فمنذ سنة وأنا في أرض إفريقيا المباركة مرة أخرى، والتي أرغب في عدم تركها

أبداً. وعلى الرغم من فقري تمكنت من السفر ورؤية مناطق مجهولة للأرض التي تبنتني... يعيش ويحا ونحن سعداء نسبياً من الناحية المادية...

وهذه اليومية التي شرعت في كتابتها قبل سنة ونصف السنة في مرسيليا المقيتة تنتهي اليوم في جو مكفهر وشفاف وناعم، وأشبه بالمتأمل كبوسعادة، التي ماتزال منطقة الجنوب التي أحزن عليها!

أضحت هذه الغرفة الصغيرة الشبيهة بغرفة حمام مغربي، والتي تشبهني كثيراً وتشبه نمط حياتي، مألوفة بالنسبة لي. سأعيش فيها بعض الأيام قبل الرحيل من أجل تلك الرحلة إلى بوغار في مناطق ما أزال أجهلها. وهي عبارة عن مستطيل مبيضّ على نحو سيّئ بالجير، ونافذة تفتح على الشارع وعلى الجبل، وحصيرتين مُدّتا أرضاً، وحبل لتعليق غسيلي، وفراش صغير ممزق أجلس عليه لأكتب. وهناك سلال في الزاوية. وإلى الأمام موقد الزاوية وأوراقي المبعثرة... هذا كل شيء، وبالنسبة لي هذا يكفي.

ومن بين الأشياء التي حدثت خلال هذه الأشهر الثمانية عشر ليس هناك إلا انعكاس ضعيف، في هذه الصفحات المكتوبة كيفما اتفق، في اللحظات التي كنت خلالها في حاجة إلى التعبير... قد تبدو هذه الصفحات غير مفهومة أبداً بالنسبة إلى قارئ غريب. وبالنسبة لي هي بقية لطقس سابق من الماضي، ولربما سيأتي يوم من الأيام أتوقف فيه هكذا عن تدوين بعض الأفكار، وبعض الأحاسيس حتى أخلّدها في زمن معيّن. وحتى اللحظة أشعر في بعض الأحيان بعذوبة عارمة في قراءة هذه اليوميات لساعات كاملة.

... هدوء شامل. هدوء الجنوب يسود بوسعادة. من المؤكد أن هذه المدينة ما تزال بعيدة عن حركة التل الغبية، حيث يشعر المرء بخدر الجنوب المميز، فليحفظ الله بوسعادة سليمة لفترة أطول.

سأبدأ يومية أخرى. ما الذي سأدوّنه فيها؟ وأين سأكون في ذلك اليوم البعيد حيث سأنهي، مثلما أفعل اليوم، هذا الكتاب الذي ما يزال أبيض في هذه الساعة من الكتاب المبهَم لحياتي المبهَمة؟

«عالم الغيب والشهادة!»

ملاحظة

في سنة ١٩١٣، كان للسيدة كلوي بيليو زوجة أحد أطباء بون فرصة شراء بعض مخطوطات إيزابيل إبرهارت من أحد أفراد عائلة سليمان إهني، وسلمتها إلى روني لويس دويون، الناشر والمحاضر الذي كان يأتي إلى الجزائر كثيراً.

استخدم دويون الجزء الكبير من تلك الأوراق من أجل تشكيل يومياتي الذي قدمه بنص طويل عنونه بـ«الحياة المأساوية للمرتحلة الطيبة»، وهذا ما أشار إليه في تحذيره لطبعة سنة ١٩٢٣ «تتكون اليوميات من مذكرة صغيرة غُلّفت بقماش اتسخ بفعل طين الفيضان، وثلاث كرّاسات غُلّفت بالورق المقوّى. . . «الروح البيضاء» هو ما استعملته إيزابيل لتشير إلى والدتها، وفافا إلى والدها، ووبحا وزويزو تعني بهما الحبيب، وتشير إلى زوجها. . .»

لليوميات، ومن المحتمل أنها غير كاملة، وضع خاص في أعمال إيزابيل إبرهارت، فهي يوميات أدبية أكثر منها حميمية، ولربما كتبت بغرض النشر.

وعوض تجزئتها من أجل إدراجها في تسلسل النصوص بدا لنا من الأفضل نشرها متصلة عند نهاية الكتاب.

لم نتمكن من إيجاد أثر المخطوطات التي نشرها روني لويس دويون سنة ١٩٢٣ في «المعرفة»، وهكذا فقد أصبح موضع ثقتنا عندما أكد أنه «لم يغيّر حتى فاصلة».

ملاحق

أشياء من الجنوب الوهراني

أعمال مخصصة لإيزابيل إبرهارت

أعمال إيزابيل إبرهارت

معجم الكلمات العربية

أشياء من الجنوب الوهراني

مكتبة
t.me/soramnqraa

بني ونيف، ٣٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٣.

تمكنت في فيكيك من رؤية بعض الأهالي الذين يعرفون شؤون الغرب، ولعلهم على علاقة بمبعوثي البدو الرحّل.

وبحسب أقوالهم فالفتنة تسود بين مختلف المدن المعارضة حيث البربر وأولاد جرير وبني غيل ودوي مينيا المنشقون.

ومنذ هجوم تاغيت، الذي تم خلاله الاتفاق المشترك على اختيار مولاي كقائد، شكل البدو الرحّل شيئاً فشيئاً ما يشبه جمعية أو فيدرالية، وبطبيعة الحال، كانت مشوّشة وفوضوية.

والآن، ومن دون شك تحت وطأة البؤس الكبير الذي انتهوا إليه، والإخفاقات التي أصابتهم، تفرق البدو واندلعت شجارات جادة بين مختلف المجموعات.

ومن المؤكد أن كل تلك الفرق المعادية تنظر بعين سيئة إلى استقرارنا ببشار، وإنشاء مركز تاعكدة.

وانتشرت إشاعات في الآونة الأخيرة بين الأهالي بأن تهديدات أطلقت من قبل البدو الرحل إلى القائد بيرون قائد رتل بشار. وفيها أن البدو الرحل هددوا بمهاجمة الرتل إذا لم ينسحب. وتبدو هذه الإشاعات من دون أساس لأن تهديدات مماثلة كانت ستثير من دون شك قمعاً حيوياً.

من جهة أخرى، يتم التأكيد على أن بني غيل قد يكونون اجتمعوا ببوعمامة من أجل إشباع كراهيتهم لحميان، والانتقام من آخر حركة لهم كلفتهم عدداً من الخيام.

واحتلال مراكز الجنوب الغربي الوهراني شيء قد تم اليوم.

وهذا الفعل لسياستنا الإفريقية فسح المجال لظهور العديد من النزاعات، وحروب كلامية في الصحافة، واتهامات مضادة. وعارض العديدون الفرصة المناسبة والحكمة.

ومهما كان رأينا بخصوص هذا الموضوع، من الواضح أن توسيع مجالنا الترابي الوهراني تسبب في حالة من الخطورة البالغة. والواقع أننا لم نجد أنفسنا في اتصال دائم مع الدولة المغربية التي تعمّها فوضى كبيرة وحالة حرب أهلية مستمرة فحسب، ولكننا أيضاً في حضور قبائل البدو الرحل العديدة والمهتاجة والتي لم تعرف أبداً أي نظام يحكمها، سواء النظام المغربي أو نظامنا. وحتى الآن هي مقاومة لكل تنظيم.

وما يعقد الوضع على نحو غريب هو أن غالبية هذه القبائل لها مسار تقليدي، وفي الوقت نفسه فالأراضي معروفة بأنها مغربية، وأراض أخرى امتلكناها، وبالتالي، علينا أن نهتم بها، وأن ننظمها بطريقة لا تبقى أبداً سبب فوضى دامية دائمة.

هي إذن الوسائل من أجل الحصول في أسرع وقت ممكن، وبأقل تكلفة ممكنة سواء في الرجال أو في المال، على السلام وعلى تنظيم الجنوب الغربي الوهراني، والذي نحاول دراسته هنا، بعد العودة من إقامة طويلة بعض الشيء في فيكيك، والتي هي لحد الآن مركز الاتصالات مع جيراننا.

ومن أجل التمكن من التطرق إلى هذه القضية، وتوضيح مراحل الحل على نحو بيّن، فلنتطرق قليلاً لهذه المنطقة وسكانها.

انطلاقاً من عين صفرا يأخذ البلد مظهراً وطابعاً صحراويين بشكل جلي، حيث أغلب الأراضي قاحلة باستثناء بعض المناطق حيث يجد المرء مراعي صحراوية، وتربية الجمال والأغنام، وحيث الحلفاء والدرين، وبعض الشجيرات القصيرة وغير النامية التي يمكنها أن تستخدم تقريباً ككلإ للجمال. أما بالنسبة للأغنام فوجودها مرتبط بالأمطار الشتوية التي تتسبب في ظهور نباتات عشبية أكثر ليناً وذات قيمة غذائية أكبر.

ومناطق الماء أكثر اتساعاً بقدر الانحدار إلى الجنوب. والكثير منها، والأهمّ، مأهول. وأنشأت فيها قبائل بربرية قديمة قصوراً صغيرة فيها بعض المزروعات كأشجار النخل والخضار والفواكه، وفي بعض الأحيان بعض الحبوب، وعلى الخصوص الشعير.

فيكيك وجارتها أضحت فرنسية، وبني ونيف وتاغيت وإيغلي وبني عباس إلخ

هي نقاط ماء مهمة جداً. والطبقة المائية الباطنية فيها توجد على عمق قليل، وهذا ما يفسر الاستقرار بشكل مثير، وتطوير القصور، وهو ما مكن الفلاحين من زراعة واسعة، أو زراعة أكثر تنوعاً.

والأراضي القاحلة باستثناء الحمادة، وهي مناطق بحرية جرداء، تمنح القصوريين مواد بناء قيّمة حيث الطوب والتراب الطيني، إضافة إلى الروث. والطوب شديد الصلابة في بعض الأحيان، بحسب الأرض المستعملة، ويمكن من رفع منازل بطابق واحد بتكلفة قليلة، ومقاومة رداءة أحوال الطقس ودوماً ببهاء. وتمنح أشجار النخيل دعامات من أجل تشييد الأسقف والأسطح.

فلنهتم أكثر بفيكيك، حيث يمكن اليوم كتابة تقرير صحيح إلى حد ما عن الحالة العامة في الجنوب الغربي.

وفيكيك بمثابة تجمع لسبعة قصور حيث زناغة وأودارير وقصر البيب والمعيز وأولاد سليمان والحمام الفوقاني والحمام التحكوي[1].

وتحتل هذه القصور طابقين بواد رائع حيث زناغة في الأسفل باتجاه الجنوب الغربي، والحمامين على السفح الغربي للسطح العلوي، بينما تحتل القصور الأخرى السطح العلوي.

ويحمي شريط قوي من الجبال الوادي من كل جانب، حيث الغروز باتجاه الشمال الغربي، وسلسلة بني سمير باتجاه الشمال الشرقي، وجبل تالة باتجاه الجنوب الشرقي، وجبل ميلياس باتجاه الجنوب.

وممرّات الجبال واسعة وعميقة تمنح مسلكاً إلى وادي فيكيك، حيث ممرّ تالة عند الشرق، وزناغة في الجنوب والممر اليهودي في الجنوب الشرقي، وممر المجاهدين في الغرب. والقصور قريب بعضها من بعض، باستثناء قصر زناغة المعزول عند سفح جرف ينتهي باتجاه جنوب السطح العلوي.

وبستان نخيل رائع يحيط القصور في الجنوب الغربي والجنوب والشرق.

وطبقة المياه الباطنية على عمق قليل. ويمكن نظام ري بارع أن يسقي بساتين النخل. وإضافة إلى البحيرات المستطيلة الكبيرة المرسخة بالطوب توجد شبكة قنوات

---

(١) هكذا جاء في الأصل. لعل الكاتبة تقصد الحمام التحتاني. المترجم.

باطنية قائمة الذات، وممرات معبدة حيث أقيمت السواقي، وحيث أخذت المنابع على نحو قيم. والماء بها جيد.

وتزرع بساتين النخيل بعناية بالغة. وأسفل ظلالها هناك بعض الأشجار المثمرة حيث أشجار التين وأشجار الرمان، وخضار لاستهلاك الأهالي حيث الفلافل الحلوة والقرع والبصل واللفت إلخ. ويزرع الفيكيكيون القليل من الشعير في الحقول المسقية، والمحروثة بالمعاول، في خطوط واضحة ومنتظمة بمظهر جميل جداً. وبساتين زناغة، وبساتين المكان الملقب بغداد أسفل قصر أولاد سليمان، هي الأكثر جمالاً.

ووادي فيكيك يمتاز بخصوبة نادرة في البلد القاحل، ووحده انعدام الأمن القديم منع الفلاحين من تمديد مزروعاتهم أبعد من الحدود الحالية. . .

ولما لم تكن للمغرب في كل جزئه الصحراوي إلا سلطة إسمية فقد بقيت فيكيك مستقلة ومحافظة على نظام جمهوري بدائي وكونفدرالي مع تجمعات للأعيان في كل قصور الجماعة تقرر وحدها في كل القضايا. وتوجد العدالة بين يدي القاضي، وتمثل الجماعة السلطة التنفيذية. والفوضى عارمة فيها الآن بعد القلاقل الموجودة في المنطقة كلها.

وراق لدبلوماسيتنا أن تزيد في تعقيد الغموض الفيكيكي بتثبيت عامل أو حاكم مغربي في قصر أودارير بفيكيك، ليس له في الحقيقة أية سلطة وبالتالي لم يتمكن، ولن يتمكن أبداً، من أن يكون مفيداً في العمل الدافع إلى السلام والنظام الذي على فرنسا تحقيقهما هناك. وهذا التدبير المبتكر الذي، إلى أنه يزعج الفيكيكين الذين لا يحبون المغرب، لم تكن له أية نتيجة إلا منح ما يشبه في الواقع السيطرة المغربية على فيكيك في نظر أوروبا، وفي نظر المخزن نفسه. . .

ينبغي إذن العمل مثلما تم ذلك حتى الآن بعيداً عن العامل.

ومن غير المجدي مطلقاً أيضاً التفكير في صنع السلام بالمنطقة عن طريق التأثير المزعوم للطامع. فمنافس السلطان مثله تماماً يظل عاجزاً عن تنظيم هذه المناطق الشاسعة في المغرب البعيد.

أما بالنسبة لبوعمامة فتأثيره السياسي غير محسوس أبداً، ويبدو أنه هرم وتعب، وليس التحالف معه هو ما يمكنه أن يضمن السلام.

نحن مجبرون الآن على القيام بكل شيء بأنفسنا، بجهدنا وحدنا.

يوجد أمامنا شعبان مختلفان تماماً، ومصالحهما متعارضة في غالب الأحيان. هناك القصريون القدماء المتعلقون بأرضهم التي يزرعونها ويمتلكونها، وبالتالي هم مهتمون مباشرة بإحلال السلام بأرضهم، ثم هناك البدو الرحل. من الخطأ الاعتقاد بأن الجوع وحده هو سبب غارات البدو الرحل. فالبدو الرحل كانوا دوماً بحكم التقاليد، ومنذ القدم، مثيري الصراعات وقطاعاً للطرق، وهو ما يفسره نمط عيشهم في حد ذاته.

البدو الرحل هم سبب كل الفوضى وكل إراقة الدماء التي تكدر المنطقة موضع اهتمامنا.

ووحده تنظيم سريع للأراضي التي حصلنا عليها سيحمل عهداً جديداً من الرخاء الشرعي بعض الشيء من الناحية المنطقية ولعدالة تقدمنا إلى الأمام في المناطق الصحراوية.

غير أن السلام والأمن هما الشرطان الأوليان لكل تقدم.

هل يلزم الاستمرار في النظام المكلف والشرس للغارات ضد هذه القبيلة أو تلك، والتي لن نصل إليها أبداً والتي ستعود في اليوم التالي؟

هل يلزم الاستمرار في نظام للدفاع فقط بمعنى القتال على نحو دائم تقريباً؟

أو هل ينبغي، مثلما بلغت الجرأة ببعضهم إلى اقتراحه، وعلى الخصوص في الجزائر، الانخراط في الإبادة الممنهجة للبدو الرحل المنشقين؟

كل هذه الأنظمة سيئة.

وهناك نظام آخر، أكثر اقتصاداً، وأكثر إنسانية، ويحد إلى أقصى حد من التدخل العسكري الصارم، الذي هو ضروري بسبب الغارات الدائمة التي تشنّها العصابات المسلحة وقطاع الطرق.

الجنرال ليوطي الذي يقود فرع عين صفرا، والذي قطع مع الروتين العسكري البالي، قام بإلهام مبهج بوضع هذا النظام على المحك في فيكيك وبدأ ذلك يعطي نتائج ممتازة.

نقصد هنا عزل ومراقبة الأسواق الصحراوية.

وفي الواقع فالبدو الرحل، الرعاة ورجال القوافل والحراس واللصوص،

محتاجون من أجل عيشهم، إلى الأسواق الصحراوية حيث يتزودون بالمؤن، ويبيعون قطعانهم، ويستخدمون كوسطاء بين القصريين والتل المغربي، وعلى الخصوص وزان.

ومن دون الأسواق سيجوع البدو الرحل وسيستحيل عليهم العيش، ومن جهة أخرى، فإن مسار ارتحالهم مع أنه شاسع جداً إلا أنه محدود، وهذه القبيلة من البدو الرحل أو تلك متعلقة بالنظر إلى تقاليدها بهذا القصر أو ذاك، أو هذه السوق أو تلك.

وإذن من السهل إدراك أنه ما إن تُراقب الأسواق وتُمنع على كل قبيلة أو فرقة في حالة انشقاق حتى يُجبر هؤلاء على الخضوع في أجل قصير ماداموا لا يستطيعون العيش بدونها.

وبالتالي، وعوض العمليات العسكرية العديدة والمعقدة، والتي تتسبب في مصاريف هائلة في الرجال والمال، لن يتطلب الأمر إلا أخذ بعض التدابير الأمنية غير المكلفة نسبياً وبسرعة.

وضعت فيكيك تحت رقابة المفوضية الفرنسية المقيمة ببني ونيف، وعزلت من جهة الشمال بفضل إنشاء مركز العرجة. وبهذه التدابير عُزل سوق فيكيك عن كل اتصال مع المنشقين. وبعد بضعة أشهر أخذ هؤلاء يخضعون، ويطلبون المعاملة الحرة في السوق... ودخل مؤخراً بني غيل تحديداً في مفاوضات مع السلطات الفرنسية في بني ونيف...

غير أن فيكيك السلمية، والتي أضحت أداة لإحلال السلام، لا تكفي.

وهنا تبدو لنا الصعوبة الأكبر التي يثيرها وجودنا هناك. وهناك إجراء يفرض نفسه، ومن دونه لن نحصل أبداً على سلام دائم. هو سلام تافيلالت التي هي المركز الذي تدور حوله كل قبائل البدو الرحل، أولاد جرير، ودوي مينيا وحتى البربر.

ومن اختصاص دبلوماسيتنا أن تشرح للسلطان أن الأمر لا يتعلق أبداً بغزو، وأننا لا نفكر في سلبه السيادة الإسمية على مناطقه البعيدة، ولكن من أجل إزالة العرين القديم الذي شكل منذ القدم مأوى لكل قطاع الطرق الذين يغيرون علينا من دون توقف.

السلام في تافيلالت يعني الرخاء، إذ ستقام التجارة وستتطور بشدة بفضل قرب طريق السكة الحديد، وكل هذه التحسينات سيفيد منها السلطان ونحن أيضاً.

ومن أجل إقناع مخاطبينا بأن إحلال السلام بتافيلالت مسألة ضرورية، ومن دونه سنكون دوماً في حالة حرب من دون أن نجني أية فائدة، علينا التذكير بأن الجدب الذي يعم تافيلالت منذ سنة، ويصيب البدو الرحل بالمجاعة، وقد حرموا من المصادر الفيكيكية، هو السبب الوحيد في هدوئهم الجلي الحالي.

لكن إذا ما كانت السنة جيدة في تافيلالت فسيستأنف البدو الرحل المتزودون غزواتهم التي وحدها الحاجة المطلقة هي التي تجعلهم يعدلون عنها.

من المُلِحّ إذن ضمان حماية لتافيلالت من أي اتصال مع المنشقين وقطاع الطرق.

والبدو الرحل الذين أضعفتهم المجاعة وأرهقهم الاقتتال الدائم لما يقرب من سنة لن يقاوموا هذه السنة إلا مقاومة ضعيفة نسبياً. أما بخصوص القصريين، فقصريو تافيلالت مثل قصريي فيكيك اليوم سيفهمون سريعاً جداً أن مصلحتهم تكمن في إعادة إقامة تجارة وسلام دائم. فهم أناس عمليون ومجدّون. وسيصير القصريون أداة قيّمة لإحلال السلام وللاختراق الاقتصادي.

فالتشييد السريع لخط السكة الحديد، وهو يمضي سريعاً، هو الضمانة اللازمة من أجل التنظيم المستقبلي للجنوب الغربي.

وسيبدأ الفيكيكيون بالتزود لدينا، وسيقصدون سوق بني ونيف وسيجلبون ما يعادل ست عربات قطار من البضائع كل أسبوع.

وستصير محطة تاعكدة في بشار إذا ما تم إحلال السلام بتافيلالت محطة تجارية هامة جداً.

وسيغدو من الضروري إتمام بناء خط السكة الحديد الصحراوي حتى المراكز البعيدة للجنوب الغربي، وحتى عين بني عباس، عبر تاغيت وإيغلي، وهو ما سيقلص بشكل ملموس المصاريف الباهضة جداً للتزويد بالمؤن عبر المواكب، وهو ما سيضمن أيضاً الأمن في طريق الجنوب الغربي.

وباختصار، ومن أجل تبرير حضورنا بالجنوب الغربي الوهراني، على فرنسا الواجب الأكثر إلحاحاً بأن تجعل سلاماً مفيداً يعمّ هناك، وأن تستخدم كل الوسائل الاقتصادية من أجل تحسين مصير هذا البلد وإحداث تقدم اقتصادي طبيعي.

ومن دون ذلك سيبقى الفتح الذي لاقى من قبل معارضة شديدة مغامرة من دون أية فائدة، ولن يتردد أي ذي عقل مفكر في إدانته بشدة.

بني ونيف، شهر شباط/ فبراير ١٩٠٤

نشرت البرقية الاستعمارية رسالة أحد مراسليها العائد من جولة في الجنوب الغربي الوهراني. اتصفت تقديرات زميلنا بتفاؤل مطلق للغاية. فبالنسبة إليه كل شيء يمضي إلى الأفضل هناك، ويؤكد أنه خلال ستة أشهر لن يعود هناك وجود للجيوش... بل يعلن أنه خلال الفترة الوجيزة عينها سيكون الغزو المعنوي للبربر عملاً منجزاً.

لا شك في أن زميلنا عبر المنطقة على نحو سريع جداً لأنه من دون ذلك سيلاحظ أن الوضع هناك أكثر تعقيداً ودقة مما بدا له.

فبعد إقامة لشهرين ببني ونيف، وجولات دائمة إلى فيكيك بكل تواضع، وحوارات متتالية مع كل العناصر المحلية، العسكرية والمدنية الأوروبية والأهالي، هي ذي الحالة الراهنة بحسب ما تمكنت من فهمه.

هناك نوعان مغايران تماماً من العادات والطباع. وإذا ما أشرنا إلى المصالح فهي مختلفة بل متعارضة. فالقصريون المزارعون والحرفيون يملكون جميعاً بعض الأثاث وإذن فهم مقيمون وهانئون. وهناك البدو الرحل أي أولاد جرير ودوي مينيا وبني غيل وعمور المنشقون، إلخ.

وهؤلاء الناس من دون ارتباط بالأرض، وهم رعاة دائمو الحركة ومهتاجون ولا يخضعون للنظام إلا بصعوبة، بل إنهم ظلوا حتى اليوم من دون تحكم بهم، وقد اعتادوا بفعل التقاليد على النفرة[1] الدموية بين القبائل، وبين الفصائل وحتى بين العائلات. وهم معتادون على الحركات والغزوات، بفعل الانتقام وأيضاً بداعي المصلحة، على القبائل المجاورة أو على القصريين الذين يحتقرهم البدو الرحل.

وفي ما يتعلق بنا، يستمر البدو الرحل بكل بساطة في عيش نمط حياتهم المعتاد لا أقل ولا أكثر.

ولا يعتبر الناس المقيمون في الحدود الغامضة أنفسهم أبداً في حالة حرب مقدسة ضدنا. وذلك مؤكد جداً، وإلا كيف يمكن تفسير أن الفصائل غير المنشقة لقبائل قطاع

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

الطرق نفسها تخدمنا من دون أي نفور أبداً، وبطريقة مناسبة باعتراف كل الضباط، وبثناء كبير جداً منهم؟

ولا يعتبر أهل الجنوب الشرقي المغربي، مثل أهل فيكيك وأهل تافيلالت، أنفسهم رعايا المخزن الشريف. وقد عاشوا مستقلين دوماً، وإذن، فهم يحاربوننا مثل ما يتحاربون في ما بينهم منذ قرون، ويعتقدون أنهم لا يخدمون إلا أنفسهم، وليس سلطان فاس أو الروغي.

نعلم أنه حتى في الجزائر توجد كراهية بين التليين والصحراويين، ويوجد هذا الشعور في المغرب بالحدة التي احتدمت في الجزائر قبل الغزو.

هناك إذن قضيتان متميزتان في العمق، مع أنهما مرتبطتان ببعضهما شكلاً، حيث الحالة المغربية الصرفة، وحالة الجنوب الوهراني أو بالأحرى الجنوب الشرقي لبلاد السيبة.

من غير المجدي اليوم تضييع وقت ثمين في معارضة عابثة، أو في التساؤل إن لم يكن علينا التوجه إلى تيديكيلت، وتوات وبني عباس وفيكيك؟...

ألم يمض الأمر حد ذكر كلمة الإخلاء المذهلة! وبالغ البعض في السذاجة حد اقتراح قتال الجيوش بضربات خبز جيد... وأكد آخرون أنه يتعيّن إبادتهم و«تقطيعهم» بحسب الكلمة المتداولة هناك.

من غير المجدي التوقف عند أحلام مماثلة، فهناك اليوم حالة وحقيقة ينبغي وضعها في الحسبان، فنحن أمام أراض واسعة فيها بعض التجمعات القصرية، وعليه ينبغي التحرك بسرعة قصوى وبأقل التكاليف الممكنة للاستفادة من هذه الحالة، مثلما لاحظ ذلك السيد جونار[١] خلال إحدى خطبه في البرلمان.

والتجمعات القصرية مثل فيكيك كانت دوماً تحت رحمة البدو الرحل وتستخدم بالنسبة لهم كأسواق للتزود، ولتصريف المواد، التي تأتي تارة من التجارة المغربية، وخاصة من التجارة الوزانية، وتارة أخرى من الغنائم المحصلة من الحركات بكل بساطة.

فوجود الأسواق القصرية الكبرى إذن وعملها الحر هما الشرطان الضروريان[٢]

---

(١) الحاكم العام للجزائر. (ملاحظة الناشر). الأصل.

(٢) كتبتها الكاتبة باللاتينية sine qua non. المترجم.

للوجود الحالي للبدو الرحل، ومن دون تلك الأسواق لا يمكنهم الاستمرار في حياتهم الفوضوية وسلبهم القديم.

ومن وجهة نظر عملية لا يتعلق الأمر بالحلم ببوعمامة الذي شاخ وتعب، والذي بجانبه إلى ذلك التأثير المحب لفرنسا المتمثل في ابنه السي الطيب، أو الاستسلام إلى الافتتان المبكر اتجاه الروغي، فلا هذا ولا ذاك، تماماً مثل السلطان، يمكنه منحنا ما نحتاج إليه بإلحاح: السلام.

هناك مهمة يتعيّن إنجازها، وهي معقدة ودقيقة، غير أنها ليست مستحيلة.

وفي سياق نظام الأفكار هذا سنكون ملهمين بالفعل إذا ما عهدنا بهذه المهمة إلى الجنرال ليوطي، فهو شاب يتمتع بنشاط وطاقة لا يمكن مقارنتهما، وقد كوّن في أشهر معدودات فكرة واضحة جداً عن الوضع ووضع مخططاً للتنفيذ. وكان من الحكمة أيضاً منح الجنرال الحرية والاستقلالية اللتين كان يحتاج إليهما قبل كل شيء، من أجل القيام بمهمته على أحسن وجه، وهي تتطلب وحدة تسيير تامة، ومراقبة دائمة ورؤية شخصية للأشياء، وعلى الخصوص، روحاً يقظة في كل لحظة، ومن دون توقف.

وفي وقت قريب يمكننا أن نأمل في رؤية السلم والغزو الاقتصادي للمنطقة يتحققان، وليس مثلما قاله زميلنا للبرقية الاستعمارية، الغزو العقلي للبربر، بفضل همة الجنرال وأعوانه المخلصين والأذكياء.

كانت مياد (بعثة) بني غيل مزينة بشكل جيد، وبمظهر جميل حقاً، وقد حضرت ذلك اليوم لتنهي خمسة أيام طويلة من المفاوضات مع الجنرال ليوطي. . . كانوا خمسة شيوخ والقايد الكبير عبد الرحمن وقد أعلنوا ذلك المساء أنهم يقبلون الشروط التي فرضت عليهم، ومنحوا قبلات السلام لأعدائهم بالأمس قياد حميان من دائرة ميشيريا.

وكان أولئك الرجال يلبسون جلاليب طويلة من الجوخ الرقيق، ومعتمين بعمامات بيضاء، وكانت وجوهم سمراء جميلة ومتحفظة جداً، ونشيطة جداً في بروز الملامح الصلب، وفي النظرة الملتهبة لعيونهم العسلية الطويلة.

وكانت بساطة لباسهم المغربي تضيف طابعاً خاصاً إلى سيمائهم المتنافرة جداً مع سيماء زعماء حميان ذوي البرانس القرمزية الطويلة المزخرفة بزخارف فرنسية.

قدموا من مخابئهم في الغرب للإعلان أخيراً عن عهد سلام جديد لهذا البلد الذي يحتاج إليه كثيراً بعد شهور من النزاعات الدموية والجيوش والحركات والمناوشات. وكانت ملحمة غريبة وقديمة حد أن المرتجلين من البدو والجمالين والمخازنية الأميين بدأوا يغنون أغاني شعبية بسيطة.

بعد كلمات بهيجة ومهيبة، وبعد عناق حافظ على ذكرى الدم الحديثة جداً، بقي انتظار العمل الآن.

قبل بني غيل الشروط التي فرضت عليهم، وتتلخّص في عودتهم إلى أراضي مسالكهم الأولى المشتركة مع حميان، والتي هجروها منذ أن اندلعت النزاعات بين أفراد القبيلتين، وأن يقوموا بكل ما يستطيعون ليحضروا إلينا أبناء جلدتهم الذين ما زالوا منشقين، وأخيراً أن يتخلوا فعلاً وبصدق عن بوعمامة الذي دفعوا حوله هجرتهم الجماعية.

إذا ما نفذت هذه الشروط، وإذا ما اقتربوا من مراكزنا، محاطين بحميان المخلصين منذ مدة طويلة والذين يقودهم رجلان ذوا قيمة... القائد الأعلى لدائرة ميشريا والآغا الحاج الحبيب، وخاضعين لرقابة دائمة وحازمة، فمن الصعب جداً عليهم أن يعودوا عناصر مثيرة للاضطراب والنزاعات الأهلية في المنطقة.

إضافة إلى ذلك لن يتأخر حتى بني غيل أنفسهم في الإحساس بفوائد السلام، ويمكن لمثالهم أن يكون مفيداً بالنسبة للقبائل المنشقة الأخرى.

وإعلان السلام نوعاً ما هذا، الذي قام به بني غيل، يبدو لي أنه النتيجة المباشرة للسياسة العبقرية والحازمة في الآن عينه التي ينتهجها الجنرال ليوطي إزاء البدو الرحل، وذلك بدفعهم إلى العجز بمنع المؤن عليهم، أي بحرمانهم من الأسواق الصحراوية حيث كانوا يتزودون وحيث كانوا يبيعون قطعانهم والبضائع المنهوبة أو المشتراة التي يجلبونها بقوافل، وذلك ما داموا في حالة انشقاق. والقبول بوضوح، ولكن بحذر، بعرضهم السلمي عندما يقدمون ضمانات حقيقية قاموا بها في ظروف مقبولة. ومادام البدو الرحل سينفذون التزاماتهم ينبغي التعامل معهم بحرص وبطريقة تثبت لهم المصلحة الكبرى للعيش في تفاهم معنا. وإذا ما أظهروا سوء النية في أعمالهم يتعين إفهامهم بسلوك حازم أننا لن نسمح لهم بأن يخونوا الأيمان المقسمة، وألا نذل أبداً شرفنا بأعمال قاسية أو أي استفزاز أو ضعف، وأن نحترم التزاماتنا

اتجاههم بصرامة ليكون لنا الحق في أن نفرض في المقابل الاحترام ذاته والوفاء عينه.

وللأسف، فخلف بني غيل ما يزال هناك بوعمامة الشيخ المحرض، والذي ما يزال مبجلاً، والذي ما يزال تأثيره عدائياً.

وحتى لو قبلنا بأن بني غيل الممثلين بالمياد صادقون اليوم، وهو شيء غير مؤكد، وقد أرهقتهم الحاجة على الخصوص، أليس ممكناً أن ينقلبوا غداً بفعل تغيراتهم وأعمالهم غير المنطقية المعتادة سواء لأن الأمطار الغزيرة ستجلب بعض الرخاء لقطعانهم أو تحت تأثير بوعمامة.

وكون هذا الأخير (التأثير) معادياً بشكل واضح لكل توافق بيننا وبين بني غيل فأمر مفهوم لأن بني غيل يشكلون حتى الآن الجزء الأكبر من رجال بوعمامة.

ومن أجل إقناع النفس بهذه المشاعر يكفي الذهاب إلى فيكيك، مثلما فعلنا لتونا، والحديث إلى الزواوة، خدام بوعمامة ونسيبه المقيم بالحمام الفوقاني السي أحمد بن منور. فالزواوة ينخرطون في السخرية الأكثر مرارة من المياد، وينعتون الشيوخ والقايد عبد الرحمن بالمخادعين، وبأنهم ممثلون مزيّفون لغالبية بني غيل. وفي هذا الصدد، حدثنا أحد كبار الزواوة وأعلاهم شأناً قائلاً: «أنا مستعد لأراهنك بكل ما تريد أن بني غيل عبد الرحمن أرادوا خداع الفرنسيين بوعدهم بالتقيد بكل ما فرضوه عليهم من أجل التزود بالمؤن واستعادة قواهم ليعودوا إلى حالة الانشقاق عند أول فرصة مناسبة.»

ومع أن رأي الشخص الأموي نابع من الكراهية والغضب فلربما يكون حقيقياً.

وما يشير إلى أن بني غيل ما يزالون بعيدين جداً عن الهدوء الموعود هو أن مياداً آخر، مُساقاً من قبل ابن بوعمامة، السي الطيب، ذهب قبل حوالي عشرين يوماً إلى معسكر الطامع (الروغي بوحمارة). وبحسب آخر الأخبار الواردة من فيكيك فقد تم توافق بوساطة من السي الطيب بين الطامع وبوعمامة، وسيساعد بوعمامة بتأثيره وبرجاله الطامع من أجل التخلص من مولاي عبد العزيز سلطان المغرب، وفي المقابل سيمنحه الطامع ما يشبه الولاية على كل الجنوب المغربي.

وكان الفعل الأول للسي الطيب في هذا المسعى يقتضي أن ينتقل إلى وجدة ليقاتل هناك مخزن السلطان.

ما هو الصحيح في هذه الأخبار؟ من المحتمل أنها لا تتضمن أي شيء مستبعد الحدوث.

وإذا ما حدث فعلاً هذا التحالف بين الطامع في العرش وبوعمامة ألن يتخلى عنا إذن بني غيل بعد أي نجاح ومهما كان صغيراً، من أجل اتباع أبناء جلدتهم الذين بقوا أوفياء لبوعمامة؟

يمكن رؤية كم هو الوضع معقد ودقيق.

ومع التشديد ليس فقط على الحذر الشديد في كل علاقة مع قبائل مثل قبيلة بني غيل، بل والارتياب الدائم، لن نتردد مع ذلك في القول بأن رد المياد الذين حضروا إلينا لن يكون تصرفاً سياسياً، ومن الأفضل الحرص على الاستفادة منهم، بطريقة تمكننا من أن نقول للبدو الرحل: «في كل المرات التي حضرتم فيها بمقترحات مقبولة استقبلناكم، ووفينا دوماً بكل التزاماتنا.»

وبالعودة إلى بني غيل، من العجيب ملاحظة التناقض الموجود بين تشاؤم الفيكيكيين أياً كانوا، (باستثناء رجال العامل بطبيعة الحال) بخصوص بني غيل، وتفاؤل حميان، وأبناء عمور عين صفرا. وهذا التناقض طبيعي جداً، فخلف تشاؤم الفيكيكيين يكمن الوفاء لبوعمامة، وخلف تنازل حميان الكبرياء المدغدغ لما يعتبرونه شبيهاً بإذلال أعدائهم. أما بخصوص العموريين فهم يخضعون لتأثير الآغا سيدي مولاي لتيوت الذي لعب دوراً مهماً في المفاوضات مع بني غيل.

وبالنسبة لنا، وبعد أحاديث مع عناصر متفرقة، نرى أن الفترة الحالية لا يمكن اعتبارها إلا فترة انتظار حيث علينا أن نأخذ حذرنا، وأن نراقب على نحو يقظ جداً بقدر المستطاع بني غيل، مجبرين في الوقت عينه حميان، والذين هم مهتاجون تقريباً مثل بني غيل، أن يحترموا التزاماتنا وألا يقوموا بأي عمل عنيف.

ويتعين على الخصوص الاستفادة من شهور الهدوء القليلة التي ستكون في كل الأحوال نتيجة للتوافق مع بني غيل من أجل تحسين وتقوية مراكز حراستنا بطريقة نظهر من خلالها لبني غيل أننا سنكون قادرين على معاقبتهم إذا ما حاولوا خيانتنا.

ويتعين أيضاً بقدر ما هو ممكن محاولة التأثير معنوياً على بني غيل، وأن نعادل تأثير بوعمامة بأن نبدي لهم ما يمكنهم جنيه من البقاء أوفياء.

وفي رسالتي القادمة، سأحدثكم عن قبائل أخرى، وعن الوضع العام.

ملاحظة

لما كانت إيزابيل إبرهارت مراسلة للبرقية الجزائرية في الجنوب الوهراني سنتي ١٩٠٣ و١٩٠٤، فقد كتبت للصحيفة الجزائرية سلسلة من المقالات حول اضطرابات الحدود الجزائرية المغربية. وتقطع تلك النصوص بصفة بينة مع النصوص والقصص التي نشرتها في الصحافة الجزائرية. وكانت إيزابيل إبرهارت تبرر بها التغلغل الفرنسي في واحات الصحراء الغربية.

ولما كانت إيزابيل إبرهارت صحفية معترف بها على نحو رسمي من قبل الحكومة العامة في الجزائر بفضل علاقات فيكتور باريكون، فقد استفادت من صداقة وتقدير الجنرال ليوطي الذي شجع طريقة عيشها وعلى الخصوص تنقلاتها. ولم تتردد، من دون شك تحت تأثير الضابط، في الدفاع عن «سياسة الأسواق»، أساس نظرية الوصاية التي دافع عنها ليوطي المتبصر والذي لم يكن يوافق في تلك الفترة على نظام الاستعمار التقليدي.

هل وثقت إيزابيل إبرهارت بالصدق العسكري؟ من دون شك أنها اعتقدت بأن الحل الذي كان يقترحه كان الأقل ضرراً، بعد أن شاهدت بؤس ومعاناة سكان الجنوب الوهراني، وسكان وجدة.

لم تتأخر الحكومة الاستعمارية المتطرفة التي دافعت عن هذه السياسة في التصلب لتعود إلى وضع استعماري تقليدي أكثر.

ومن المؤكد أنه بعد شهر شباط/فبراير من سنة ١٩٠٤ حدث تطور في رأي إيزابيل إبرهارت، فقبل فترة قصيرة من كارثة عين صفرا دعت في منطقة الجنوب الغربي أحد أفراد المجتمع الفوضوي إلى تاغزوت (قرب تينس) لتظهر له مساوئ و(فظاعات الاستعمار).

ويمكن الاعتقاد أنه بسبب هذه السلسلة من المقالات التي أعيد نشرها في الأخبار سنة ١٩١٤ (في بداية الحرب العالمية، حيث أراد فيكتور باريكون من دون شك التذكير بوطنية مساعدته السابقة)، انتشرت إشاعة في الجزائر، وما تزال مستمرة إلى اليوم، تفيد أن إيزابيل إبرهارت كانت جاسوسة تعمل لحساب ليوطي.

ففي مرحلة كان فيها الشعور الوطني ومفهوم الحدود شبه غائبين تماماً في تلك

المنطقة من الصحراء، بدا أن إيزابيل إبرهارت لم تر حلاً آخر سوى التوغل العسكري الفرنسي باتجاه الجنوب شرط أن يرتبط ذلك بإقامة «السلام والرخاء». ومع ذلك فقد نددت قبل سنتين من ذلك بالإذلال الذي يتعرض له الأهالي الموجودون تحت السلطة العسكرية الفرنسية.

وكحكم نهائي، فإن إيزابيل إبرهارت كانت مقتنعة بأن «أرض إفريقيا تلتهم كل الحضارات الغريبة عنها»...

وكان من الجيّد في كل الأحوال انتقاد هذه النصوص ذات الأسلوب الصحفي البطيء بعض الشيء (غير أنها ذات قيمة كوثائق تاريخية)، مقارنة بالملاحظات التي دوّنتها أثناء رحلاتها إلى الساحل التونسي: «ففي تونس على الخصوص ليس نظام الحماية إلا تعبيراً ملطفاً يغطي إلحاقاً تاماً...»

أعمال مخصصة لإيزابيل إبرهارت

ليسلي بلانش: *Les Rives Sauvages de l'amour* (ضفاف الحب البرية)، بلون ١٩٥٦ (أربعة بورتريهات: isabelle ebrhardt, aimée dubucq de rivery, isabel burton, jane digby el mazrab).

بول بولس: *The Oblivion Seekers, City Lights* (طالبو النسيان، مدينة الأنوار)، سان فرانسيسكو ١٩٧٢.

دونيز براهيمي: الواد والزاوية. مكتب المنشورات الجامعية، الجزائر. ١٩٨٣، ترانيم من أجل إيزابيل. بيليزود ١٩٨٣ (وهذان الكتابان متشابهان).

إدموند شارل رو: *Un desir d'Orient* (رغبة في الشرق)، كراسي ١٩٨٨.

جون ديجو: *Femmes d'Algerie* (نساء الجزائر. أساطير وعادات ورواية وأدب)، لابواط آدوكيمون. باريس ١٩٨٧.

ماري أوديل دولاكور وجون روني إيلو: *Sables, le roman de la vie d'Isabelle Eberhardt* (رمال، رواية حياة إيزابيل إبرهارت)، ليانا ليفي ١٩٨٦.

فرانسواز دوبون: *La Couronne de sable* (تاج الرمال)، فلاماريون ١٩٦٧.

إغلال إريرا: *Sept Années dans la vie d'une femme. Isabelle Eberhardt* (سبع سنوات من حياة امرأة. إيزابيل إبرهارت. رسائل ويوميات)، آكت سيد ١٩٨٧.

أنيط كوباك: *Isabelle, the life of Isabelle Eberhardt* (إيزابيل، حياة إيزابيل إبرهارت)، شاتو آند ويندوس. لندن ١٩٨٨.

سيسيلي ماكورث: *The destiny of Isabelle Eberhardt* (**قدر إيزابيل إبرهارت**)، روتليدج أند كيغان بول ليمتد. لندن ١٩٥١، نيو يورك إيكو بريس ١٩٧٥، كوارتيت بومس ليمتد ١٩٧٧. عمل ترجم بالفرنسية بواسطة أندري لوبوا في كتاب بعنوان: *Le Destin d'Isabelle Eberhardt*. فوك. وهران ١٩٥٣.

جون نويل: *Isabelle Eberhardt, l'aventureuse du Sahara* (**إيزابيل إبرهارت، مغامرة الصحراء**)، باكونيي. الجزائر ١٩٦١.

إليز نويل: **سيدات بارعات** (أربعة بورتريهات: ليدي ستانفور، وإيزابيل إبرهارت، ومارج دونديران، وأوريلي بيكار). غي لو برا ١٩٧٧.

روبير روندو: *Isabelle Eberhardt, notes et souvenirs* (**إيزابيل إبرهارت، ملاحظات وذكريات**)، إد. شارلو. الجزائر ١٩٤٥.

سيمون رزوق: *Isabelle eberhardt, Classiques maghribins* (**إيزابيل إبرهارت، كلاسيكيات مغاربية**)، مكتب المنشورات الجامعية، الجزائر ١٩٨٥.

كلود موريس روبير: *l'Amazone des sables* (**أمازونية الرمال**)، سوبيرون ١٩٣٤.

راوول ستيفان: *Isabelle Eberhardt ou la révèlation du Sahara* (**إيزابيل إبرهارت أو اكتشاف الصحراء**)، تقديم فيكتور مارغريت، فلاماريون ١٩٣٠.

ميشيل تورنيي: *Le Vol du Vampire (Isabelle Eberhardt ou la Metamorphose accomplie)* (**طيران الخفاش، إيزابيل إبرهارت أو اكتمال التحول**). ملاحظات قراءة. ميركور دو فرونس. ١٩٨١.

أعمال إيزابيل إبرهارت

في ظل الإسلام القائظ. أعده، وشرحه وشارك في كتابته فيكتور باريكون. فاسكيل. ١٩٠٦. (الجزء الثاني من الجنوب الوهراني، أكمل بأشياء حول الصحراء، وساعات تونس، وملاحظات).

ملاحظات على الطريق. أعده وقدمه فيكتور باريكون. فاسكيل ١٩٠٨. (الجزء الأول من الجنوب الوهراني، والساحل التونسي).

في بلاد الرمال. كتيب أعدته كلوي بيليو. مطبعة. إم. توماس. بون. ١٩١٤.

صفحات الإسلام. قصص قدم لها فيكتور باريكون. فاسكيل ١٩٢٠.

المتشرد. رواية قدمها وأتمها فيكتور باريكون. فاسكيل ١٩٢٢.

اليوميات. كراسات شخصية جمعها وقدمها وشرحها روني لويس دويون. المعرفة. ١٩٢٣. (أعيد نشرها في الآنتروفابل ١٩٨٥).

المحكوم والفوضوي عمارة. ليزامي ديدوار. فريديريك بايار. آبفيل ١٩٢٣. تقديم روني لويس دويون.

حكايات ومناظر. المعرفة ١٩٢٥. طبعة فاخرة سحبت منها ١٣٨ نسخة. قصص مختارة من قبل روني لويس دويون: ياسمينة، وفي بلاد الرمال، ودكتوراه، والبلد المنسي، والمحكوم والفوضوي عمارة، والميجر.

في بلد الرمال. سورلو ١٩٤٤ (قصص قدم لها روني لويس دويون، مستعيداً النصوص التي سبق نشرها سنة ١٩٢٥).

ياسمينة وقصص جزائرية أخرى. قصص اختارتها، وشرحتها وقدمتها ماري أوديل دولاكور، وجون روني إيلو. ليانا ليفي ١٩٨٦.

رسائل غير منشورة. آنترناسيونال دو ليماجينير. نشرة دار ثقافات العالم. العدد التاسع، شتاء ١٩٨٧/ ١٩٨٨.

معجم الكلمات العربية

استعملت إيزابيل إبرهارت وفقاً لنصوصها كتابات دائمة التغيير، وحاولنا قدر استطاعتنا في هذا المعجم توحيدها، وذلك بمنح كل كلمة شرحه الحقيقي.[1]

عدل: قاضي. كاتب. رجل الدين.

عجاج: رياح مليئة بالغبار، وعواصف رملية.

عامل: حاكم.

عساس: الحارس. المراقب.

باش آمر: مرشد القوافل أو المواكب. (الشخص الذي يأمر).

باش آغا: موظف سامي من الأهالي.

بنذير: (جمعه بنادير.) طبلة خاصة بالبدو الرحل.

بردعة: سرج.

شاشية: قبعة.

الشهيلي: الشلوق. رياح الصحراء.

الشلحة: لغة البربر.

دار الضياف: بيت تابع للجماعة مخصص للمسافرين وللمدعوين.

ديرة: حرس بلدي. دورية.

دربوكة: آلة موسيقية مشكلة من قطعة جلد مشدودة على قطعة من الخزف.

الديس: نبات صحراوي جاف.

جيش: (جمعها جيوش) ومعناها هنا قبائل مسلحة تقوم بأعمال السلب والنهب.

---

(١) لما كانت بعض المفردات واضحة لدى قراء العربية فقد تم تجاوزها خلال الترجمة. المترجم.

الجواق: ناي من قصب.
الدرين: نبات صحراوي.
الفيلالي: جلد يصنع في منطقة تافيلالت المغربية.
غندورة: لباس من صوف أو من قطن قصير الأكمام ويلبس تحت البرنس.
غيطة: آلة موسيقية تشبه المزمار.
كوم: فرقة عسكرية مكونة من الأهالي يعملون تحت إمرة قائدهم.
كمبري: آلة موسيقية بوترين، وتصنع من قوقعة السلحفاة.
كوم: (أو الكوميون) جنود تابعون للكوم.
القربي: بيت بدائي من الطين.
القميرة: (أو الكميرة) حد أو علامة لتمييز نهاية طريق رملية.
الكلال: آلة موسيقية.
حابو: ملك لإحدى المؤسسات الدينية.[1]
الحمادة: صحراء صخرية.
الحركة: عصابة مسلحة. حملة.
الحراك: قطيع.
حرطاني: من نسل العبيد السود في أراضي الجنوب.
حاسي: بئر.
كانون: نار تتغذى من الرماد الساخن.
خوجة: كاتب. مترجم.
مشطة: قرية صغيرة. مزرعة.
مزانات: منشق.
نفرة: نزاع. خلاف.
وجاق: موقد المقاهي المغربية، المزين عادة بالخزف.
سيفساري: برنس تونسي.
تليس: كيس.
الزبوج: الزيتون البري.

(١) لا شك أنهما يقصدان الحبوس. المترجم.

إيزابيل في زيّ فارس عربي

إيزابيل ترتدي الزي البدوي في صورة التُقطت لها في جنيف

إيزابيل والسبحة في يدها والطربوش
على رأسها

بيار لوتي والسبحة في يده والطربوش
على رأسه

إيزابيل في زي ضابط في البحرية. وكانت
توقّع رسائلها باسم: بودولانسكي، البحار

جوليان فيو (الاسم الحقيقي لبيار
لوتي)، ضابط في البحرية

سليمان إهني: العشيق، والصديق، والزوج

إيزابيل خلال آخر زيارة لها للجزائر
في سن السابعة والعشرين

إيزابيل خلال فترة علاجها في المستشفى العسكري
قبل عدة أسابيع من الكارثة

قبر إيزابيل

المحتويات

تمهيد: بعد ثمانين سنة... .... ٥
تقديم ٩
تحذير ٢١
خريطة ٢٢
نبذة تاريخية ٢٣

تشرُّد

ساعات تونس ٣١
مخطوطات روسية ٣٩
ملاحظات من ٤ حزيران/ يونيو (جنيف) حتى ٣ آب/ أغسطس ١٨٩٩ .... ٤١
في بلاد الرمال ٤٦
ملاحظات من ٦ آب/ أغسطس إلى ٩ أيلول/ سبتمبر ١٨٩٩ .... ٥٠
خريف في الساحل التونسي ٥٣
عميرة ٦٢
ذكريات في الساحل التونسي ٦٩
ملاحظات فصل شتاء سنة ١٨٩٩ وربيع سنة ١٩٠٠ .... ٧٤
نحو الآفاق الزرقاء ٧٦
ذكريات ٨٢
فانطازيا ٨٨

كراسات ٩٣
ربيع في الصحراء ١٠٨

العودة إلى الجنوب

بوسعادة ١٢٥
الزاوية ١٣٦
الجنوب الوهراني، الجزء الأول ١٤١
ظلال الحرب ١٤٤
مغرار الفوقاني ١٤٩
حجيرة مغيل ١٥٠
القرية الميتة ١٥٨
بني ونيف ١٥٩
الصغيرة فاطمة ١٦٣
سيدي سليمان ١٦٥
يوم أحد في القرية ١٦٧
الأولياء ١٧٠
مريامة ١٧٣
عظاءات ١٧٦
احتضار ١٧٨
السوق ١٧٩
جنان الدار ١٨٠
دوار المخزن ١٨٣
الإنجيل ١٩٨
عند قريب بوعمامة ٢٠٠
مِهَن الماضي ٢٠٦
رجال الفيلق ٢٠٧
فيكيك ٢٠٩

لدى العامل الشريفي ٢١٢
منطقة عمور ٢١٤
بنو إسرائيل ٢١٨
الجيش ٢٢٢
ليالي رمضان ٢٢٥
سهرات ٢٢٨
الرؤى الأخيرة ٢٣١
سوق عين صفرا ٢٣٤
العودة ٢٣٦
ملاحظة ٢٤٠
الهضاب العليا ٢٤١
وجدة ٢٤٨
الجنوب الوهراني، الجزء الثاني ٢٥٧
موسيقيو الغرب ٢٦٠
الموت الإسلامي ٢٦١
على الطريق ٢٦٤
توقّف في الصحراء ٢٦٦
بن زيرق ٢٧٠
الماء الكاذب ٢٧٢
عطر الواحات ٢٧٤
بشار ٢٧٥
جنود اللواء والمخازنية ٢٧٦
تأملات في باحة ٢٧٧
من أجل قتل الوقت ٢٧٩
قنادسة ٢٧٩
الدخول إلى الزاوية ٢٨١
حياة جديدة ٢٨٣

عبيد ٢٨٤
عالم النساء الصغير ٢٨٥
تحوّل ٢٨٦
البرقة ٢٨٧
المستنير ٢٨٩
غضب الصوفي ٢٩٠
رسالة ٢٩٢
رؤية النساء ٢٩٣
صلاة الجمعة ٢٩٤
لالة خدّوجة ٢٩٧
سادة البدو الرحل ٢٩٨
مسعود ٣٠١
الحكم الديني في الصحراء ٣٠٣
على هامش رسالة ٣٠٥
تمام الساعة الخامسة الصوفية ٣٠٦
المتمرّدة ٣٠٩
احتفال سوداني ٣١١
عند الطلبة ٣١٣
أفكار المساء ٣١٧
عودة القطيع ٣١٩
الباحثون عن النسيان ٣٢٣
أماسي قنادسة ٣٢٦
غجر الصحراء ٣٢٩
في الملاح ٣٣٠
ملاحظة ٣٣١
صور قوية ٣٣٥
موسيقى الكلمات ٣٣٦

قوى إفريقيا ٣٣٨
المغرب ٣٣٩
الرحيل ٣٤١

اليوميات

اليوميات الأولى ٣٤٧
اليوميات الثانية ٣٥٧
اليومية الثالثة ٤١٩
اليومية الرابعة ٤٨١

ملاحق

أشياء من الجنوب الوهراني ٥٤١
أعمال مخصصة لإيزابيل إبرهارت ٥٥٧
أعمال إيزابيل إبرهارت ٥٥٩
معجم الكلمات العربية ٥٦١

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

تُقدَّم لأول مرّة الأعمال الكاملة لإيزابيل إبرهارت: كتابات على الرمال، الكتاب الأول، والذي يضم بين دفّتيه اليوميات كاملة، وملاحظات على الطريق، وتشرّد. وهذه النصوص صورة تعكس ما عاشته إيزابيل إبرهارت منذ أن اختارت الغوص في الصحراء. ويمتزج رابط النص الفعلي طويلاً مع الطريق التي سلكتها. وصفحة بعد صفحة تستحوذ الطبيعة على الكاتبة وعلى القارئ على حد سواء. ومع ذلك فالغرائبية غائبة عن هذه الصفحات. فسحر الصحراء المرافق بنظرة إيزابيل إبرهارت كاف لخلق الأسطورة. وليس فلوبير وموباسان ولوتي ببعيدين عن الحمّى الشرقية، غير أن هذه المرتحلة الكبيرة تتفوق على أولئك الشهود اللامعين، ذلك أنها ترسخ كتابة رحلاتها في قلب الميثولوجيا.

مكتبة
t.me/soramnqraa